الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

مختصر الأمثل

في

تفسير كتاب الله المنزل

الجزء الثالث

المنتخب: أحمد علي بابائي

الحمد ـ البقرة

دار النشر لمدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحیم

مختصر الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

ناصرمكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابى طالب عليه السلام

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

مختصر الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ۳

اشارة

عنوان و نام پديدآور : مختصر الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل/ناصر مكارم شيرازى
مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام على بن ابى طالب عليه السلام، ۱۴۲۸
مشخصات ظاهرى : ج
وضعيت فهرست نويسى : در انتظار فهرستنويسى
شماره كتابشناسى ملى : ۱۱۴۸۳۹۳

۱۶ سورة النحل

محتوى السورة: من خلال ملاحظة السورة يبدو لنا أنّ بحوثها تتناول ما تتناوله الآيات المكية تارة مثل: التوحيد، المعاد، محاربة الشرك وعبادة الأصنام، وتارة اخرى ما تتناوله الآيات المدنية مثل: الأحكام الاجتماعية ومسائل الجهاد والهجرة.

ويمكننا إجمال محتويات السورة المسبوكة بعناية وإحكام بما يلي:

۱- ذكر النعم الإلهية، وتفصيلها بما يثير دافع الشكر عند كل ذى حس حى، ليقترب الإنسان من خالق هذه النعم وواهبها.

ومن النعم المذكورة فى السورة: نعمة المطر، نور الشمس، أنواع النباتات والثمار، المواد الغذائية الاخرى، الحيوانات الداجنة بما تقدمه من خدمات ومنافع للإنسان، مستلزمات وسائل الحياة وحتى نعمة الولد والزوجة، وبعبارة شاملة (أنواع الطيبات).

ولهذا أطلق البعض عليها (سورة النعم).

وعرفت بسورة النحل لورود تلك الإشارة القصيرة ذات المعانى الجليلة والعجيبة للنحل، ضمن ما ذكر من النعم الإلهية الواسعة، وبخصوص اعتبار النحل مصدراً لغذاء مهم من أغذية الإنسان، وباعتبار حياة هذه الحشرة تعبير ناطق لتوحيد اللّه.

۲- الحديث عن أدلة التوحيد، عظمة ما خلق الخالق، المعاد، إنذار المشركين والمجرمين.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۷

۳- تناول الأحكام الإسلامية المختلفة.

۴- الحديث عن بدع المشركين مع ذكر أمثلة جميلة حيّة.

۵- وأخيراً تحذير الإنسانية من وساوس الشيطان.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «من قرأها لم يحاسبه اللّه تعالى بالنعم التى أنعمها عليه من دار الدنيا».

فقراءة الآيات بتدبّر وتفكّر مع وجود العزم على العمل والسير وفق الشكر للمنعم، تكون سبيلًا لأن يستعمل الإنسان كل نعمة بما ينبغى عليه أن يستعمل، فلا يحبس ولا يهمل، ويكون من الشاكرين.

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۱) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (۲)

أتى أمر اللّه: ذكرنا سابقاً أنّ قسماً مهمّاً من الآيات التى جاءت فى أوّل السورة هى آيات مكية نزلت حينما كان النبى صلى الله عليه و آله يخوض صراعاً مشتدّاً مع المشركين وعبدة الأصنام، وما يمرّ يوم حتى يطلع أعداء الرسالة بمواجهة جديدة ضد الدعوة الإسلامية المباركة، لأنّها تريد بناء صرح الحرية، بل كل الحياة من جديد.

ومن جملة مواجهاتهم اليائسة قولهم للنبى صلى الله عليه و آله حينما يهددهم وينذرهم بعذاب اللَّه: إن كان ذلك حقاً فلِم لا يحلّ العذاب والعقاب بنا إذن؟!

ولعلهم يضيفون: وحتى لو نزل العذاب فسنلتجىء إلى الأصنام لتشفع لنا عند اللَّه فى رفع العذاب ... ولِم لا يكون ذلك، أوَ لسن شفيعات؟!

وأوّل آية من السورة تُبطل أوهام اولئك بقوله تعالى: «أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ».

وإن اعتقدتم أنّ الأصنام شافعة لكم عند اللَّه فقد أخطأتم الظن «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

وبما أنّ مستلزمات العدل الإلهى اقتضت عدم العقاب إلّابعد البيان الكافى والحجة التامة، فقد أضاف سبحانه: «يُنَزِّلُ الْمَلِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَاإِلهَ إِلَّا أَنَا». بناء على هذا الإنذار والتذكير «فَاتَّقُونِ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٨

أمّا المقصود من «الروح» فى الآية هو: الوحى والقرآن والنبوة، والتى هى مصدر الحياة المعنوية للبشرية.

إنّ كلمة «الروح» فى هذا الموضوع ذات جانب معنوى وإشارة إلى كل ما هو سبب لإحياء القلوب وتهذيب النفوس وهداية العقول.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (۴) وَ الْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَ مَنَافِعُ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (۵) وَ لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ (۶) وَ تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغَالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن نفى الشرك، جاءت هذه الآيات لتقلع جذوره بالكامل، وتوجّه الإنسان نحو خالقه بطريقين:

الأوّل: عن طريق الأدلة العقلية من خلال فهم ومحاولة استيعاب ما فى الخلائق من نظام عجيب.

الثانى: عن طريق العاطفة ببيان نعم اللَّه الواسعة على الإنسان، عسى أن يتحرك فيه حس الشكر على النعم فيتقرب من خلاله إلى المنعم سبحانه.

فيقول: «خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ». وتتّضح حقانية السماوات والأرض من نظامها المحكم وخلقها المنظم وكذلك من هدف خلقها وما فيها من منافع.

ثم يضيف: «تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ». فهل تستطيع الأصنام إيجاد ما أوجده اللَّه؟!

بل هل تستطيع أن تخلق بعوضة صغيرة أو ذرة تراب؟!

فكيف إذن جعلوها شريكة اللَّه سبحانه!

وبعد الإشارة إلى خلق السماوات والأرض وما فيها من أسرار لا متناهية يعرّج القرآن الكريم إلى بعض تفاصيل خلق الإنسان من الناحية التكوينية فيقول: «خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٩

«النطفة»: فى الأصل بمعنى الماء القليل، أو الماء الصافى، ثم أطلقت على قطرات الماء التى تكون سبباً لوجود الإنسان بعد تلقيحها. وحقيقة التعبير يراد به تبيان عظمة وقدرة اللَّه عزّ وجل، حيث يخلق هذا المخلوق العجيب من قطرة ماء حقيرة مع ما له من قيمة وتكريم وشرف بين باقى المخلوقات وعند اللَّه أيضاً.

ثم يشير القرآن الكريم إلى نعمة خلق الحيوانات وما تدر من فوائد كثيرة للإنسان فيقول: «وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ». فخلق الأنعام الدال على علم وقدرة البارى سبحانه، فيها من الفوائد الكثيرة للإنسان.

ولم يكتف بذكر منافعها المادية، بل أشار إلى المنافع النفسية والمعنوية كذلك حين قال:

«وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ».

«تریحون»: (من مادة الإراحة) بمعنی إرجاع الحیوانات عند الغروب إلی محل إستراحتها، ولهذا یطلق علی ذلک المحل اسم (المراح).

و «تسرحون»: (من مادة السروح) بمعنی خروج الحیوانات صباحاً إلی مراعیها.

عبّر القرآن بکلمة «جمال» عن تلک الحرکة الجماعیة للأنعام حین تسرح إلی مراعیها وتعود إلی مراحها.

ف «الجمال» جمال استغناء واکتفاء ذاتی، وجمال إنتاج وتأمین متطلبات امّة کاملة، وبعبارة أوضح: جمال الإستقلال الاقتصادی وقطع کل تبعیّة للغیر.

ثم یشیر تعالی فی الآیة التی تلیها إلی إحدی المنافع المهمة الاخری فیقول: «وَتَحْمِلُ أَثْقَالَکُمْ إِلَی بَلَدٍ لَّمْ تَکُونُوا بَالِغِیهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ». وهذا مظهر من مظاهر رحمة اللَّه عزّ وجلّ ورأفته حیث سخّر لنا هذه الحیوانات مع ما تملکه من قدرة وقوّة «إِنَّ رَبَّکُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِیمٌ».

فالأنعام إذن: تعطی للإنسان ما یلبسه ویدفع عنه الحر والبرد. وکذلک تعطیه الألبان واللحوم لیتقوّت بها. وتترک فی نفس الإنسان آثاراً نفسیة طیبة. وأخیراً تحمل أثقاله.

ثم یعرج علی نوع آخر من الحیوانات، یستفید الإنسان منها فی تنقلاته، فیقول:

«وَالْخَیْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِیرَ لِتَرْکَبُوهَا وَزِینَةً».

وتأتی الإشارة فی ذیل الآیة إلی ما سیصل إلیه مآل الإنسان فی الحصول علی الوسائط

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰

النقلیة المدنیة من غیر الحیوانات، فیقول: «وَیَخْلُقُ مَا لَاتَعْلَمُونَ» من المراکب ووسائل النقل.

وَ عَلَی اللَّهِ قَصْدُ السَّبِیلِ وَ مِنْهَا جَائِرٌ وَ لَوْ شَاءَ لَهَدَاکُمْ أَجْمَعِینَ (۹) هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَکُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِیهِ تُسِیمُونَ (۱۰) یُنْبِتُ لَکُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّیْتُونَ وَ النَّخِیلَ وَ الْأَعْنَابَ وَ مِنْ کُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (۱۱) وَ سَخَّرَ لَکُمُ اللَّیْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۱۲) وَ مَا ذَرَأَ لَکُمْ فِی الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِقَوْمٍ یَذَّکَّرُونَ (۱۳)

بعد ذکر مختلف النعم فی الآیات السابقة، تشیر هذه الآیات إلی نعم اخری ... فتشیر أوّلًا إلی نعمة معنویة عالیة فی مرماها: «وَعَلَی اللَّهِ قَصْدُ السَّبِیلِ». أی: علیه سبحانه سلامة الصراط المستقیم وهو الحافظ له من کل انحراف، وقد وضعه فی متناول الإنسان.

ولکن أیّ النحوین من الصراط المستقیم هو المراد، التکوینی أم التشریعی؟

اختلف المفسرون فی ذلک، إلّا أنّه لا مانع من قصد الجانبین معاً.

فقد هدی اللَّه الإنسان بالعقل والقدرة وبقیة القوی التکوینیة التی تعینه للسیر علی الصراط المستقیم.

کما أرسل له الأنبیاء والوحی السماوی وأعطاه التعلیمات الکافیة والقوانین اللازمة للمضی بهدی التشریع الربانی فی تکملة مشوار المسیرة، وترک باقی السبل المنحرفة.

ثم یحذّر الباری جلّ شأنه الإنسان من وجود سبل منحرفة کثیرة: «وَمِنْهَا جَائِرٌ».

وبما أنّ نعمة الإرادة وحریة الاختیار فی الإنسان من أهم عوامل التکامل فیه، فقد أشارت إلیها الآیة بجملة قصیرة: «وَلَوْ شَاءَ لَهَدَیکُمْ أَجْمَعِینَ» ولا تستطیعون عندها غیر ما یرید اللَّه.

إلّا أنّه سبحانه لم یفعل ذلک، لأنّ الهدایة الجبریة لا تسمو بالإنسان إلی درجات التکامل والفخر.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱

وفی الآیة التالیة یعود إلی الجانب المادی بما یثیر حس الشکر للمنعم عند الناس، ویوقد نار عشق اللَّه فی قلوبهم بدعوتهم للتقرّب أکثر وأکثر لمعرفة المنعم الحق، فیقول: «هُوَ الَّذِی أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً». ماء فیه سبب الحیاة، وزلالًا شفافاً خال من أیّ تلوّث «لَّکُم مِّنْهُ

شَرَابٌ». وتخرج به النباتات والأشجار فترعى أنعامكم «وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ».

«تسيمون»: من مادة «الإسامة» بمعنى رعى الحيوانات.

ومما لا ـ شك فيه أيضاً أنّ ماء المطر لا تقتصر فائدته لشرب الإنسان وإرواء النباتات، بل ومن فوائده أيضاً: تطهير الأرض، تصفية الهواء، إيجاد الرطوبة اللازمة لطراوة جلد الإنسان وتنفّسه براحة، وما شابه ذلك .. فالمذكور من فوائده فى هذه الآية ليس حصراً وإنّما من باب الأهم.

ويكمّل الموضوع بقوله: «يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلّ الثَّمَرَاتِ».

ولا شك أنّ خلق هذه الثمار المتنوعة وكل ما هو موجود من المحاصيل الزراعية لآية للمتفكرين «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً لّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

ثم يشير إلى نعمة تسخير الموجودات المختلفة فى العالم للإنسان بقوله: «وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَاتٍ لّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». على عظمة وقدرة اللّه وعظمة ما خلق.

وإضافة لكل ما تقدم: «وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ» من مخلوقات سخرّها لكم و «مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ» من الأغطية والملابس والأغذية والزوجات العفيفات ووسائل الترفيه، حتى أنواع المعادن وكنوز الأرض وسائر النعم الاخرى «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً لّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ».

وَ هُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحماً طَرِيّاً وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَ تَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١۴) وَ أَلْقَى فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهَاراً وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١۵) وَ عَلَامَاتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١۶) أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٢

نعمة الجبال والبحار والنجوم: تبيّن هذه الآيات قسماً آخر من النعم الإلهية غير المحدودة التى تفضّل بها اللّه عزّ وجل على الإنسان، فيبدأ القرآن الكريم بذكر البحار، المنبع الحيوى للحياة، فيقول: «وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ».

وكما هو معلوم أنّ البحار تشكّل القسم الأكبر من سطح الكرة الأرضية، وأنّ الماء أساس الحياة، ولا زالت البحار تعتبر المنبع المهم فى إدامة الحياة البشرية وحياة جميع الكائنات الحية على سطح الكرة الأرضية.

فما أكبرها من نعمة حين جعلت البحار فى خدمة الإنسان ....

ثم يشير البارى سبحانه إلى ثلاثة أنواع من منافع البحار: «لِتَأْكُلُوامِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا». فقد جعل اللّه فى البحار لحماً ليتناوله الإنسان من غير أن يبذل أدنى جهد فى تربيته، بل أوجدته ونمّته يد القدرة الإلهية.

ومن فوائد البحار أيضاً تلك المواد التجميلية المستخرجة من قاعه: «وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا».

الحس الجمالى من الامور الفطرية التى فطر الإنسان عليها وهو الباعث على إثارة الشعر والفن الأصيل وما شاكلها عنده.

وينبغى العمل على إشباعه بشكل صحيح وسالم بعيداً عن أىّ نوع من الإفراط والتفريط.

ولهذا أوصى الإسلام كثيراً بالتزيّن المعقول الخالى من أى إسراف مثل: لبس اللباس الجيّد، التطيّب بالعطور، استعمال الأحجار الكريمة ... الخ.

ثم يتطرق القرآن إلى الفائدة الثالثه فى البحار: حركة السفن على سطح مياهها، كوسيلة مهمة لتنقل الإنسان ونقل ما يحتاجه، فيقول: «وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ».

وأعطاكم اللّه هذه النعمة لتستفيدوا منها فى التجارة أيضاً «وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ».

وبعد ذكر هذه النعم التى تستلزم من الإنسان العاقل أن يشكر واهبها، يأتى فى ذيل الآية: «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

ثم يأتى الحديث عن الجبال بعد عرض فوائد البحار: «وَأَلْقَى فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٣

ثم يتطرق القرآن الكريم مباشرة إلى نعمة الأنهار، لما بين الجبال والأنهار من علاقة وثيقة حيث تعتبر الجبال المخازن الأصلية للمياه، فيقول: «وَأَنْهَارًا».

ثم يقطع القرآن الكريم الوهم الحاصل عند البعض من أنّ الجبال حاجز بين إرتباط الأراضى فيما بينها بالإضافة لكونها مانعاً رهيباً أمام حركة النقل، فيقول: «وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

ثم يضيف قائلًا: «وَعَلمتٍ». لأنّ الطرق لوحدها لا- يمكنها أن توصل الإنسان لمقصده دون وجود علامات فارقة ومميزات شاخصة يستهدى بها الإنسان لسلك ما يوصله لمأربه، ولذا ذكر هذه النعمة.

ومن تلك العلامات: شكل الجبال، الأودية، الممرات، الإرتفاع والإنخفاض، لون الأرض والجبال وحتى طبيعة حركة الهواء.

وأمّا فى حال عدم تشخيص هذه العلامات بسبب ظلمة الليل فى أىّ من سفر البر أو البحر، فقد جعل اللّه تعالى علامات فى السماء تعوّض عن علامات الأرض.

وقد فسّرت «النجم» برسول اللّه صلى الله عليه و آله و «العلامات» بالأئمة عليهم السلام فى روايات كثيرة وردت عن أهل البيت عليهم السلام وفى بعضها فسّر «النجم» و «العلامات» كلاهما بالأئمة عليهم السلام وكل ذلك يشير إلى التفسير المعنوى لهذه الآيات.

فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «النجم رسول اللّه صلى الله عليه و آله، والعلامات الأئمة عليهم السلام».

وبعد أن بيّن القرآن كل هذه النعم الجليلة والألطاف الإلهية الخفية، راح يدعو الوجدان الإنسانى للحكم فى ذلك «أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّايَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ».

وكما اعتدنا عليه من القرآن فى اسلوبه التربوى الهادف المؤثر، فقد طرح مسألة المحاجحة بصيغة سؤال يترك الجواب عنه فى عهدة الوجدان الحى للإنسان.

وفى نهاية المطاف، يفنّد البارى سبحانه مسألة حصر النعم الإلهية بما ذكر، بقوله: «وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَاتُحْصُوهَا».

ونواجه فى هذا المقام سؤالًا وإستفساراً: كيف إذن نؤدّى حق الشكر للّه؟ و .. ألسنا مع ما نحن فيه، فى زمرة الجاحدين؟

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۴

وقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» خير جواب لذلك السؤال.

نعم، فهو سبحانه أرحم وأرأف من أن يؤاخذنا على عدم الاستطاعة فى أداء أتمّ الشكر على نعمه.

ويكفينا من لطفه تعالى بأن يحسبنا من الشاكرين فى حال اعتذرنا له واعترافنا بالعجز عن أداء حق الشكر الكامل.

ولكن هذا لا يمنع من أن نتتبع ونحصى النعم الربانية بقدر المستطاع، لأنّ ذلك يزيدنا معرفة للّه، وعلماً بعالم الخليقة، وآفاق التوحيد الرحبة، كما يزيد من حرارة عشقه سبحانه فى أعماق قلوبنا، وكذا يحرّك فينا الشعور المتحسس بضرورة ووجوب شكر المنعم جلّ وعلا.

ولهذا نجد أنّ الأئمة عليهم السلام يتطرقون فى أقوالهم وأدعيتم ومناجاتهم إلى النعم الإلهية ويعدّون جوانب منها، عبادة للّهوتذكيراً ودرساً للآخرين.

وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ (۱۹) وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (۲۰) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَ مَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (۲۱) إِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (۲۲) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (۲۳)

آلهة لا تشعر: تناولت الآيات السابقة ذكر صفتين ربانيتين لا تنطبق أيّة منها على الأصنام، أمّا الآية الاولى أعلاه فتشير إلى الصفة الثالثه للمعبود الحقيقى (وهى العلم) فتقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ». فلماذا تسجدون للأصنام التى لم تكن هى الخالقة لكم، ولم تمنّ عليكم بأيّة نعمة، ولا تعرف عن علانيتكم شيئاً فضلًا عن سرّكم؟!

ثم يعود القرآن إلى مسألة الخالقية بافق أوسع من الآية السابقة: «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَايَخْلُقُونَ شَيًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ».

وقد بحث لحدّ الآن فى عدم صلاحية الأصنام لتكون معبودة لأنّها ليست خالقة، ومع

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۵

ذلك كله، فإنّها «أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ». ثم يضيف قائلًا عنها: «وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ».

فإذا كان الثواب والعقاب بيد الأصنام، فلا أقل من معرفتها بوقت بعث عبادهن، ومع جهلها بيوم البعث والحساب كيف تكون لائقة للعبادة؟!

وهذه هى الصفة الخامسة التى يجب توفرها فى المعبود الحقيقى وتفتقدها الأصنام.

إنّ مفهوم الصنم وعبادة الأصنام فى المنطق القرآنى أوسع من أنّ يحدد بالآلهة المصنوعة، فكل موجود نجعله ملجأ لنا مقابل اللَّه عزّ وجل، ونسلّم له أمر مصائرنا، فهو صنم وإن كان بشراً.

ولهذا فكل ما جاء فى الآيات أعلاه يشمل الذين يعبدون اللَّه بألسنتهم، ولكن فى واقع حياتهم مستسلمون لمعبود ضعيف، وقد تبعوه لكونه المخلص لهم من دون اللَّه، بعد أن فقد زمام استقلال المؤمن الحق.

وبعد هذه الإستدلالات الحيّة والواضحة على عدم صلاحية الأصنام يخلص القرآن إلى النتيجة المنطقية لما ذكر: «إِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ».

وبما أنّ العلاقة بين المبدأ والمعاد مترابطة ربطاً لا انفصام فيه، يضيف القرآن الكريم من غير فاصلة: «فَالَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ». فأدلة التوحيد والمعاد قائمة لمن أراد الحق وطلب الحقيقة، إلّاأنّ سبب عدم قبول الحق وإنكاره يرجع إلى حالة الإستكبار وعدم التسليم له، ويصبح ملكة فى وجود المنكرين.

ثم تتطرق الآية الأخيرة إلى علم اللَّه فى الغيب والشهادة: «لَاجَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ».

والآية فى واقعها تهديد للكفار وأعداء الحق، بأنّ اللَّه عزّ وجل ليس بغافل عنهم.

فهم مستكبرون و «إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ». والإستكبار على الحق من علامات الجهل باللَّه عزّ وجل.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۶

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ مَا ذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۲۴) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (۲۵) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ أَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (۲۶) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَ يَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ السُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (۲۷) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۸) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (۲۹)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: يروى أنّها نزلت فى المقتسمين وهم ستة عشر رجلًا خرجوا إلى عقاب مكة أيام الحج على طريق الناس على كل عقبة أربعة منهم ليصدّوا الناس عن النبى صلى الله عليه و آله وإذا سألهم الناس عمّا أنزل على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قالوا: أحاديث الأوّلين وأباطيلهم.

التّفسير

حمل أوزار الآخرين: دار الحديث فى الآيات السابقة حول عناد المستكبرين واستكبارهم أمام الحق، وسعيهم الحثيث فى التنصّل عن المسؤولية وعدم التسليم للحق. أمّا فى هذه الآيات فيدور الحديث حول منطق المستكبرين الدائم، فيقول القرآن: «وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ». فليس هو وحى إلهى، بل أكاذيب القدماء.

«الأساطير»: جمع أسطورة، وتطلق على الحكايات والقصص الخرافية والكاذبة، وقد وردت هذه الكلمة تسع مرّات فى القرآن الكريم

نقلًا عن لسان الكفار ضدّ الأنبياء تبريراً لمخالفتهم الدعوة إلى اللّه عزّ وجل.

وفى جميع المواطن ذكروا معها كلمة «الأوّلين» ليؤكدوا أنّها ليست بجديدة وأنّ الأيام ستتجاوزها حتى وصل بهم الحال ليغالوا فيما يقولون، كما جاء عن لسانهم فى الآية (٣١) من

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٧

سورة الأنفال: «قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذَا».

والملاحظ على مستكبرى يومنا توسلهم بنفس تلك التهم الباطلة هروباً من الحق وإضلالًا للآخرين، ووصلت بهم الحماقة لأن يعتبروا منشأ الدين من الجهل البشرى، وما الآراء الدينية إلّاأساطير وخرافات، حتى أنّهم اثبتوا ذلك فى كتب (علم الاجتماع ودوّنوه بصياغة (علمية) كما يدّعون). أمّا لو نفذنا فى أعماق تفكيرهم لوجدنا صورة اخرى: فهم لم يحاربوا الأديان والمذاهب الخرافية المجعولة أبداً، فهم مؤسسوها والداعون لنشرها، إنّما محاربتهم للأصالة والدين الحق الذى يوقظ الفكر الإنسانى ويحطّم الأغلال الاستعمارية ويقطع دابر المنحرفين عن جادة الصواب.

توضّح الآية الاخرى أعمالهم بالقول: «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيمَةِ وَمِن أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ».

ثم تتحرك الآية الاخرى لتقرر أنّ تهمة وصف الوحى الإلهى بأساطير الأوّلين ليست بالأمر المستجد: «قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَنَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَهُمُ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لَايَشْعُرُونَ».

ومن لطيف دقّة العبارة القرآنية، أنّ الآية أشارت إلى أنّ اللّه عزّ وجل لا- يدمرّ البناء العلوى للمستكبرين فحسب، بل سيدمّره من القواعد لينهار بكله عليهم.

وقد يكون تخريب القواعد وإسقاط السقف إشارة إلى أبنيتهم الظاهرية، من خلال الزلازل والصواعق لتنهار على رؤوسهم، وقد يكون إشارة إلى قلع جذور تجمعاتهم وأحزابهم بأمر اللّه عزّ وجل، بل لا مانع من شمول الأمرين معاً.

وعذابهم فى الحياة الدنيا لا يعنى تمام الجزاء، بل تكملته ستكون يوم الجزاء الأكبر «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيمَةِ يُخْزِيهِمْ».

فيسألهم اللّه تعالى: «وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ». أى تجادلون وتعادون فيهم، فلا يتمكنون من الإجابة، ولكن: «قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْىَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ».

وهو نوع من العذاب الروحى، ويصف ذيل الآية السابقة حال الكافرين بالقول:

«الَّذِينَ تَتَوَفهُمُ الْمَلِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٨

لأنّ ممارسة الظلم فى حقيقتها ظلم للنفس قبل الآخرين، لأنّ الظالم يتلف ملكاته الوجدانية، ويهتك حرمة الصفات الفطرية الكامنة فيه.

أمّا حين تحين ساعة الموت ويزول حجاب الغفلة عن العيون «فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ».

لماذا ينكرون عملهم القبيح؟ فهل إنّهم يكذبون وقد أصبح الكذب صفة ذاتية لهم من كثرة تكراره، أم يريدون القول: إنّنا نعلم سوء أعمالنا، ولكننا اخطأنا ولم تكن لدينا نوايا سيئة فيه.

يمكن القول بإرادة كلا الأمرين.

ولكن الجواب يأتيهم فوراً: إنّكم تكذبون فقد ارتكبم ذنوباً كثيرة: «بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» حتى بنيّاتكم.

وليس المقام محلًّا للإنكار أو التبرير ... «فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ».

وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَا ذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَ لَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَ لَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذلِكَ يَجْزِى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ

سَلَامٌ عَلَيْكَمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۳۲)

عاقبة المتقين والمحسنين: قرأنا فى الآيات السابقة أقوال المشركين حول القرآن وعاقبة ذلك، والآن ندخل مع المؤمنين فى اعتقادهم وعاقبته .. فيقول القرآن: «وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا».

ما أجمل هذا التعبير وأكمله «خيراً» خير مطلق يشمل كل: صلاح، سعادة، رفاه، تقدم مادى ومعنوى، خير للدنيا والآخرة، خير للإنسان الفرد والمجتمع.

وتبيّن الآية مورد البحث نتيجة وعاقبة ما أظهره المؤمنون من اعتقاد، كما عرضت

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۹

الآيات السابقة عاقبة ما قاله المشركين من عقاب دنيوى وأخروى، ومادى ومعنوى مضاعف: «لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ».

وقد أطلق الجزاء بال «حسنة» كما أطلقوا القول «خيراً»، ليشمل كل أنواع الحسنات والنعم فى الحياة الدنيا، بالإضافة إلى: «وَلَدَارُ الْأَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ». ثم تصف الآية التالية- بشكل عام- محل المتقين فى الآخرة بالقول: «جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ».

وقلنا أنّ الآيات مورد البحث توضّح كيفية حياة وموت المتقين مقارنة مع ما ورد فى الآيات السابقة حول المشركين والمستكبرين، وقد مرّ علينا هناك أنّ الملائكة عندما تقبض أرواحهم يكون موتهم بداية لمرحلة جديدة من العذاب والمشقة، ثم يقال لهم: «ادخلوا أبواب جهنم ...».

وأمّا عن المتقين: «الَّذِينَ تَتَوَفهُمُ الْمَلِكَةُ طَيِّبِينَ» طاهرين من كل تلوّثات الشرك والظلم والإستكبار، ومخلصين من كل ذنب: «يَقُولُونَ سَلمٌ عَلَيْكُمُ». السلام الذى هو رمز الأمن والنجاة.

ثم يقال لهم: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

والتعبير عن موتهم ب «تَتَوَفهُم» يحمل بين طيّاته اللطف، ويشير إلى أنّ الموت لا يعنى الفناء والعدم أو نهاية كل شىء، بل هو مرحلة انتقالية إلى عالم آخر.

وفى تفسير الميزان: أنّ فى هذه الآية ثلاثة مسائل:

۱- طهارة المؤمنين من خبث الظلم.

۲- يقولون لهم: «سَلمٌ عَلَيْكُمُ» وهو تأمين قولى لهم.

۳- «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» وهو هداية لهم إليها.

وهذه المواهب الثلاث هى التى ذكرت فى الآية (۸۲) من سورة الأنعام: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۰

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۳۳) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۳۴) وَ قَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (۳۵) وَ لَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (۳۶) إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ يُضِلُّ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (۳۷)

يعود القرآن الكريم مرّة اخرى ليعرض لنا واقع وأفكار المشركين والمستكبرين ويقول بلهجة وعيد وتهديد: ماذا ينتظرون؟ «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلِكَةُ». أى:

ملائكة الموت فتغلق أبواب التوبة أمامهم حيث لا سبيل للرجوع بعد إغلاق صحائف الأعمال.

أو هل ينتظرون أن يأتى أمر اللَّه بعذابهم: «أَو يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ» حيث تغلق أبواب التوبة أيضاً ولا سبيل عندها للإصلاح.

ثم يضيف: إنّ هؤلاء ليس أوّل مَن كانوا على هذه الحال والصفة وإنّما «كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

وسوف يلاقون نتيجة ما كسبت أيديهم من أعمال.

ثم يذكر عاقبة أمرهم بقوله: «فَأَصَابَهُمْ سَيَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

فتعبير الآية ب «فَأَصَابَهُمْ سَيَاتُ مَا عَمِلُوا» يؤكّد مرّة اخرى على عودة الأعمال على فاعلها سواء فى الدنيا أو فى الآخرة، وتتجسم له بصور شتى، وتعذّبه وتؤلمه ولا شىء غر هذه الأعمال فى عذابه.

وتشير الآية التالية إلى أحد أقوال المشركين الخاوية، فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱

شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ».

إنّ قولهم «وَلَا حَرَّمْنَا» إشارة إلى بعض أنواع الحيوانات التى حرّم لحومها المشركون فى عصر الجاهلية، والتى أنكرها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بشدة. وكأنّهم يقولون: إن كانت أعمالنا لا ترضى اللَّه تعالى فلماذا لم يرسل إلينا الأنبياء لينهونا عما نقوم به، فسكوته وعدم منعه ما كنا نعمل دليل على رضاه.

ولهذا يقول تعالى مباشرة: «كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلغُ الْمُبِينُ».

وهذا هو خط جميع دعاة الحق (من الأنبياء وغيرهم) .. فهم: لا يداهنون فى دعوتهم أبداً ولا يجاملون الباطل وأهله، متحملين كل عواقب هذه الصراحة والقاطعية.

وبعد ذكر وظيفة الأنبياء (البلاغ المبين)، تشير الآية التالية باختصار جامع إلى دعوة الأنبياء السابقين، بقولها: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا».

«الامّة»: من «الأم» بمعنى الوالدة، أو بمعنى كل ما يتضمن شيئاً آخر فى داخله؛ ومن هنا يطلق على جماعة تربطها وحدة معينة من حيث الزمان أو المكان أو الفكر أو الهدف «امّة».

ويبيّن القرآن محتوى دعوة الأنبياء عليهم السلام بالقول: «أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ».

لأنّ اسس التوحيد إذا لم تحكم ولم يطرد الطواغيت من بين المجتمعات البشرية فلا يمكن إجراء أى برنامج إصلاحى.

«الطاغوت»: صيغة مبالغة للطغيان .. أى التجاوز والتعدى وعبور الحد، فتطلق على كل ما يكون سبباً لتجاوز الحد المعقول، ولهذا يطلق اسم الطاغوت على الشيطان، الصنم، الحاكم المستبد، المستكبر وعلى كل مسير يؤدّى إلى غير طريق الحق.

ونعود لنرى ما وصلت إليه دعوة الأنبياء عليهم السلام إلى التوحيد من نتائج، فالقرآن الكريم يقول: «فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّللَةُ».

والآية (۷۹) من سورة النساء تشير إلى المعنى المذكور بقولها: «مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ».

وفى نهاية الآية يصدر الأمر العام لأجل إيقاظ الضالين وتقوية روحية المهتدين، بالقول: «فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ».

فالآية دليل ناطق على حرية إرادة الإنسان، فإنْ كانت الهداية والضلال أمرين

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۲

إجباريين، لم يكن هناك معنىً للسير فى الأرض والنظر إلى عاقبة المكذبين.

الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث تؤكّد التسلية لقلب النبى صلى الله عليه و آله بتبيان ما وصلت إليه حال الضالين: «إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَيهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مّن نَّاصِرِينَ».

«تحرص»: من مادة (حرص)، وهو طلب الشيء بجديّة وسعى شديد.

بديهى، أنّ الآية لا تشمل كل المنحرفين، لأنّ الشمول يتعارض مع وظيفة النبى (هداية وتبليغ).

فعليه ... تكون الجملة المتقدمة خاصة بمجموعة معينة من الضالين الذين وصل بهم العناد واللجاجة فى الباطل لأقصى درجات الضلال، وأصبحوا غرقى فى بحر الإستكبار والغرور والغفلة والمعصية فاغلقت أمامهم أبواب الهداية.

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ (٣٩) إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قالوا: كان لرجل من المسلمين على مشرك دين، فتقاضاه فوقع فى كلامه والذى أرجوه بعد الموت أنّه لكذا. فقال المشرك: وإنّك لتزعم أنّك تبعث بعد الموت وأقسم باللّه لا يبعث اللّه من يموت. فأنزل اللّه الآية.

التّفسير

المعاد ونهاية الإختلافات: تعرض الآيات أعلاه جانباً من موضوع «المعاد» تكميلًا لما بحث فى الآيات السابقة ضمن موضوع التوحيد ورسالة الأنبياء. فتقول الآية الاولى:

«وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَايَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ».

وهذا الإنكار الخالى من الدليل والذى ابتدؤوه بالقسم المؤكّد، ليؤكّد بكل وضوح على جهلهم ولهذا يجيبهم القرآن بقوله: «بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ».

ثم يتطرق القرآن الكريم إلى ذكر أحد أهداف المعاد وقدرة اللّه عزّ وجل على ذلك، ليردّ الإشتباه القائل بعدم إعادة الحياة بعد الموت، أو بعبثية المعاد ... فيقول: «لِيُبَيّنَ لَهُمُ الَّذِى

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٣

يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ» فى إنكارهم للمعاد وبأنّ اللّه لا يبعث من يموت. فالرجوع إلى الوحدة وانتهاء الخلافات العقائدية من أهداف المعاد وقد أشارت إليه الآية مورد البحث.

ثم يشير القرآن إلى الفقرة الثانية من بيان حقيقة المعاد، للرد على من يرى عدم إمكان إعادة الإنسان من جديد إلى الحياة من بعد موته: «إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ».

إنّ «كن» إنّما ذكرت لضرورة اللفظ، وإلّا لا حاجة فى أمر اللّه ل «كن» أيضاً، فإرادته سبحانه وتعالى كافية فى تحقيق ما يريد.

فإرادته إحداثه لا غير ذلك، لأنّه لا يُروّى ولا يهم ولا يتفكر، وهذه الصفات منفية عنه وهى من صفات الخلق، فإرادة اللّه تعالى هى الفعل لا غير ذلك، يقول له: كن فيكون، بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف كذلك كما أنّه بلا كيف.

وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: الآية الاولى نزلت فى المعذبين بمكة مثل صهيب، وعمار، وبلال، وخباب، وغيرهم مكّنهم اللّه بالمدينة، وذكر أنّ صهيباً قال لأهل مكة: أنا رجل كبير إن كنت معكم لم ينفعكم وإن كنت عليكم لم يضرّكم فخذوا مالى ودعونى. فأعطاهم ماله وهاجر إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقال له أبوبكر: ربح البيع يا صهيب.

التّفسير

ثواب المهاجرين: نرى فى الآيات السابقة الحديث عن المشركين ومنكرى يوم القيامة، وينتقل الحديث فى الآيات مورد البحث إلى المهاجرين المخلصين، ليقارن بين المجموعتين ويبيّن طبيعتهما فيقول أوّلًا: «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً». أمّا فى الآخرة: «وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

ثم يصف فى الآية التالية المهاجرين المؤمنين الصالحين بصفتين، فيقول: «الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۴

إنّ للمسلمين هجرتين؛ الاولى: كانت محدودة نسبياً (هجرة جمع من المسلمين على رأسهم جعفر بن أبى طالب إلى الحبشة)، والثانية: الهجرة العامة للنبى صلى الله عليه و آله والمسلمين من مكة إلى المدينة. وظاهر الآية يشير إلى الهجرة الثانية، كما يؤيّد ذلك شأن النزول.

وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِکَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِى إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (۴۳) بِالْبَيِّنَاتِ وَ الزُّبُرِ وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْکَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (۴۴)

اسألوا إن كنتم لاـ تعلمون: هذه الآية يعود إلى بيان المسائل السابقة فيما يتعلق باصول الدين من خلال إجابته لأحد الإشكالات المعروفة؛ حين يتقوّل المشركون: لماذا لم ينزل اللّه ملائكة لإبلاغ رسالته؟ أو يقولون: لِم لم يجهّز النبى صلى الله عليه و آله بقدرة خارقة ليجبرنا على ترک أعمالنا؟ فيجيبهم اللّه عزّ وجل بقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِمْ».

نعم. فإنّ أنبياء اللّه جميعهم من البشر، وبكل ما يحمل البشر من غرائز وعواطف إنسانية، حتى يحس بالألم ويدرک الحاجة كما يحس ويدرک الآخرون. فى حين أنّ الملائكة لا تتمكن من إدراک هذه الامور جيّداً.

ثم يضيف القول (تأكيداً لهذه الحقيقة): «فَسَلُوا أَهْلَ الذّكْرِ إِن كُنتُمْ لَاتَعْلَمُونَ».

«الذكر»: بمعنى العلم والإطلاع؛ و «أهل الذكر»: له من شمولية المفهوم بحيث يستوعب جميع العالمين والعارفين فى كافة المجالات.

فالآية مبيّنة لأصل إسلامى يتعيّن الأخذ به فى كل مجالات الحياة المادية والمعنوية، وتؤكّد على المسلمين ضرورة السؤال فيما لا يعلمونه ممن يعلمه، وأن لا يورطوا أنفسهم فيما لا يعلمون.

وعلى هذا فإنّ «مسألة التخصص» لم يقررها القرآن الكريم ويحصرها فى المسائل الدينية بل هى شاملة لكل المواضيع والعلوم المختلفة، ويجب أن يكون من بين المسلمين علماء فى كافة التخصصات للرجوع إليهم.

ثم تقول الآية التالية: «بِالْبَيّنَاتِ وَالزُّبُرِ».

«البيّنات»: جمع بيّنة، بمعنى الدلائل الواضحة، ويمكن أن تكون هنا إشارة إلى معاجز وأدلة إثبات صدق الأنبياء فى دعوتهم؛ و «الزبر»: جمع زبور، بمعنى الكتاب.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۵

فالبيّنات تتحدث عن دلائل إثبات النبوة، والزّبر إشارة إلى الكتب التى جمعت فيها تعليمات الأنبياء. ومن ثم يتوجه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذّكْرَ لِتُبَيّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»، ليبيّن للناس مسؤوليتهم تجاه آيات ربّهم الحق.

فدعوتک ورسالتک ليست بجديدة من الناحية الأساسية، وكما أنزلنا على الذين من قبلك من الرسل كتباً ليعلّموا الناس تكاليفهم الشرعية، فقد أنزلنا عليك القرآن لتبيّن تعاليمه ومفاهيمه، وتوقظ به الفكر الإنسانى ليسيروا فى طريق الحق.

أَ فَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (۴۵) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (۴۶) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (۴۷)

لكل ذنب عقابه: ثمّة ربط فى كثير من بحوث القرآن بين الوسائل الاستدلالية والمسائل الوجدانية بشكل مؤثّر فى نفوس السامعين،

والآيات أعلاه نموذج لهذا الاسلوب. فالآيات السابقة عبارة عن بحث منطقى مع المشركين فى شأن النبوة والمعاد، فى حين جاءت هذه الآيات بالتهديد للجبابرة والطغاة والمذنبين. فتبتدأ القول: «أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ» من الذين حاكوا الدسائس المتعددة لإطفاء نور الحق والإيمان «أن يَخْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ».

فهل ببعيد (بعد فعلتهم النكراء) أن تتزلزل الأرض زلزلة شديدة فتنشق القشرة الأرضية لتبتلعهم وما يملكون، كما حصل مراراً لأقوام سابقة؟!

«مكروا السيئات»: بمعنى وضعوا الدسائس والخطط وصولًا لأهدافهم المشؤمة السيئة، كما فعل المشركون للنيل من نور القرآن ومحاولة قتل النبى صلى الله عليه و آله.

«يخسف»: من مادة «خسف» بمعنى الإختفاء، ولهذا يطلق على اختفاء نور القمر فى ظل الأرض اسم (الخسوف).

ثم يضيف: «أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَايَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ». أى:

عند ذهابهم ومجيئهم وحركتهم فى اكتساب الأموال وجمع الثروات. «فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ».

إنّ «معجزين» من الإعجاز بمعنى إزالة قدرة الطرف الآخر، وهى هنا بمعنى الفرار من العذاب ومقاومته.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢۶

أو أنّ العذاب الإلهى لا يأتيهم على حين غفلة منهم بل بشكل تدريجى ومقروناً بالإنذار المتكرر: «أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ».

فاليوم مثلًا، يصاب جارهم ببلاء، وغداً يصاب أحد أقربائهم، وفى يوم آخر تتلف بعض أموالهم ... والخلاصة، تأتيهم تنبيهات وتذكيرات الواحدة تلو الاخرى، فإن استيقظوا فما أحسن ذلك، وإلّا فسيصيبهم العقاب الإلهى ويهلكهم.

إنّ العذاب التدريجى فى هذه الحالات يكون لاحتمال أن تهتدى هذه المجموعة، واللَّه عزّ وجل لا يريد أن يعامل هؤلاء كالباقين: «فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ».

أ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَىْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَ الشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَ هُمْ دَاخِرُونَ (۴٨) وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ هُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (۴٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (۵٠)

سجود الكائنات للَّهعزّ وجل: تعود هذه الآيات مرّة اخرى إلى التوحيد بادئةً ب «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ» «١».

أى: ألم يشاهد المشركون كيف تتحرك ظلال مخلوقات اللَّه يميناً وشمالًا لتعبّر عن خضوعها وسجودها له سبحانه؟

وهنا ... يعرض البارى سبحانه حركة ظلال الأجسام يميناً وشمالًا بعنوانها مظهراً لعظمته جلّ وعلا واصفاً حركتها بالسجود والخضوع.

وجاء فى الآية أعلاه ذكر سجود الظلال بمفهومه الواسع، أمّا فى الآية التالية فقد جاء ذكر السجود بعنوانه برنامجاً عامّاً شاملًا لكل الموجودات المادية وغير المادية، وفى أىّ مكان، فتقول: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ»، مسلمين للَّهولأوامره تسليماً كاملًا.

وحقيقة السجود نهاية الخضوع والتواضع والعبادة، وما نؤدّيه من سجود على الأعضاء السبعة ما هو إلّامصداق لهذا المفهوم العام ولا ينحصر به.

وبما أنّ جميع مخلوقات اللَّه فى عالم التكوين والخلق مسلّمة للقوانين العامة لعالم الوجود،

---

(١) «داخر»: فى الأصل من مادة (دخور) أى: التواضع.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٧

التى أفاضتها الإرادة الإلهية فإنّ جميع المخلوقات فى حالة سجود له جلّ وعلا، ولا ينبغى لها أن تنحرف عن مسير هذه القوانين، وكلها

مظهرة لعظمة وعلم وقدرة البارى عزّ وجل، ولتدلل على أنّها آية على غناه وجلاله ... والخلاصة: كلها دليل على ذاته المقدسة.

«الدابة»: بمعنى الموجودات الحيّة، ويستفاد من ذكر الآية لسجود الكائنات الحيّة فى السماوات والأرض على وجود كائنات حيّة فى الأجرام السماوية المختلفة علاوة على ما موجود على الأرض.

أمّا جملة «وَهُمْ لَايَسْتَكْبِرُونَ» فإشارة لحال وشأن الملائكة التى لا يداخلها أىّ استكبار عند سجودها وخضوعها للّهعزّ وجل.

ولهذا ذكر صفتين للملائكة بعد تلك الآية مباشرةً وتأكيداً لنفى حالة الإستكبار عنهم:

«يَخَافُونَ رَبَّهُم مّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ».

ويستفاد من هذه الآية بوضوح أنّ علامة نفى الإستكبار شيئان:

أ) الشعور بالمسؤولية وإطاعة الأوامر الإلهية من دون أى اعتراض.

ب) ممارسة الأوامر الإلهية بما ينبغى والعمل وفق القوانين المعدّة لذلك.

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّایَ فَارْهَبُونِ (۵۱) وَلَهُ مَا فِی السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (۵۲) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (۵۳) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (۵۴) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۵۵)

دين حق ومعبود واحد: تتناول هذه الآيات موضوع نفى الشرك تعقيباً لبحث التوحيد ومعرفة اللّه عن طريق نظام الخلق الذى ورد فى الآيات السابقة، لتتّضح الحقيقة من خلال المقارنة بين الموضوع، ويبتدأ ب «وَقَالَ اللَّهُ لَاتَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيىَ فَارْهَبُونِ».

ثم يوضّح القرآن أدلة توحيد العبادة بأربعة بيانات ضمن ثلاث آيات ... فيقول أوّلًا «وَلَهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ» فهل ينبغى السجود للأصنام التى لا تملك شيئاً، أم لمن له ما فى السماوات والأرض؟

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۸

ثم يضيف: «وَلَهُ الدّينُ وَاصِبًا».

ثم يقول فى نهاية الآية: «أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ».

فهل يمكن للأصنام أن تصدّ عنكم المكروه أو أن تفيض عليكم نعمة حتى تتقوها وتواظبوا على عبادتها؟!

هذا ... «وَمَا بِكُم مّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ».

فهذه الآية تحمل البيان الثالث بخصوص لزوم عبادة اللّه الواحد جلّ وعلا، وأنّ عبادة الأصنام إن كانت شكراً على نعمة فهى ليست بمنعمة.

وعلاوة على ذلك ... «ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَرُونَ».

فإن كانت عبادتكم للأصنام دفعاً للضر وحلًّا للمعضلات، فهذا من اللّه.

وهذا البيان الرابع حول مسألة التوحيد بالعبادة.

«تجئرون»: من مادة (الجؤار) على وزن (غبار)، بمعنى صوت الحيوانات والوحوش الحاصل بلا اختيار عند الألم، ثم استعملت كناية فى كل الآهات غير الاختيارية الناتجة عن ضيق أو ألم.

نعم. فاللّه سبحانه يسمع نداءكم فى كل الحالات ويغيثكم ويرفع عنكم البلاء «ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مّنكُم بِرَبّهِمْ يُشْرِكُونَ» بالعود إلى الأصنام.

فالقرآن فى الآية يشير إلى فطرة التوحيد فى جميع الناس، إلّاأنّ حجب الغفلة والغرور والجهل والتعصب والخرافات تغطّيها فى الأحوال الاعتيادية.

وفى آخر آية (من الآيات مورد البحث) يأتى التهديد بعد إيضاح الحقيقة بالأدلة المنطقية: «لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ».

وَ يَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (۵۶) وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَ لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (۵۷) وَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَ هُوَ كَظِيمٌ (۵۸) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (۵۹) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۶۰)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹

بعد أن عرضت الآيات السابقة بحوثاً استدلالية فى نفى الشرك وعبادة الأصنام، تأتى هذه الآيات لتتناول قسماً من بدع المشركين وصوراً من عاداتهم القبيحة، لتضيف دليلًا آخراً على بطلان الشرك وعبادة الأصنام، فتشير الآيات إلى ثلاثة أنواع من بدع وعادات المشركين: وتقول أوّلًا: «وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَايَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ».

وكان النصيب عبارة عن قسم من الإبل بقية من المواشى بالإضافة إلى قسم من المحاصيل الزراعية، وهو ما تشير إليه الآية (۱۳۶) من سورة الأنعام. ثم يضيف القرآن الكريم قائلًا: «تَاللَّهِ لَتُسَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ».

وعليه فما تقومون به له ضرر مادى من خلال ما تعملونه بلا فائدة، وله عقاب أخروى لأنّكم أسأتم الظن باللّه واتجهتم إلى غيره.

أمّا البدعة الثانية فكانت: «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ» من التجسّم ومن هذه النسبة. «وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ». أى: إنّهم لم يكونوا ليقبلوا لأنفسهم ما نسبوه إلى اللّه، ويعتبرون البنات عاراً وسبباً للشقاء.

وإكمالًا للموضوع تشير الآية التالية إلى العادة القبيحة الثالثه: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ».

ولا ينتهى الأمر إلى هذا الحد بل «يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ».

ولم ينته المطاف بعد، ويغوص فى فكر عميق: «أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَابِ».

وفى ذيل الآية، يستنكر البارى حكمهم الظالم الشقى بقوله: «أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ».

وأخيراً يشير تعالى إلى السبب الحقيقى وراء تلك التلوّثات، ألا هو عدم الإيمان بالآخرة: «لِلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

فالسبب الرئيسى لكل انحراف وقبح وخرافة هو الغفلة عن ذكر اللّه وعن محكمته العادلة فى الآخرة.

دور الإسلام فى إعادة اعتبار المرأة: لم يكن احتقار المرأة مختصاً بعرب الجاهلية، فلم تلق المرأة أدنى درجات الإحترام والتقدير حتى فى أكثر الامم تمدّناً فى ذلك الزمان، وكانت المرأة غالباً ما يتعامل معها باعتبارها بضاعة وليست إنساناً محترماً، ولكن عرب الجاهلية جسّدوا تحقير المرأة بأشكال أكثر قباحة ووحشية من غيرهم.

وعندما ظهر الإسلام حارب بشدة هذه المهانة من كافة أبعادها.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰

وأولى النبى صلى الله عليه و آله ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام من الإحترام ما جعل الناس فى عجب من أمره، حيث كان صلى الله عليه و آله مع ما يحظى به من شرف ومقام، كان يقبّل يد الزهراء عليها السلام وعندما يعود من السفر يذهب إليها قبل أىّ أحد.

فالإحترام الذى أولاه الإسلام للمرأة قد أعاد لها شخصيتها الضائعة بين حوالك الجاهلية، وحررها من العادات البالية، وأنهى عصر تحقيرها.

وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَ لَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ (۶۱) وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (۶۲) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۶۳) وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ

لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۶۴)

بعد أن تحدّثت الآيات السابقة عن جرائم المشركين البشعة فى وأدهم للبنات، يطرق بعض الأذهان السؤال التالى: لماذا لم يعذّب اللَّه المذنبين بسرعة نتيجة لما قاموا به من فعل قبيح وظلم فجيع؟ والآية الاولى (۶۱) تجيب بالقول: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ». أى: إنّ اللَّه لو يؤاخذ الناس على ما إرتكبوه من ظلم لما بقى إنسان على سطح البسيطة.

فعندما يذهب الإنسان فسينتفى سبب وجود الكائنات الاخرى وينقطع نسلها.

ويضيف القرآن الكريم قائلًا: «وَلكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ». بل يدركهم الموت فى نفس اللحظة المقررة.

ويعود القرآن الكريم ليستنكر بدع المشركين وخرافاتهم فى الجاهلية (حول كراهية المولود الأنثى والإعتقاد بأنّ الملائكة إناثاً) فيقول: «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ».

فهذا تناقض عجيب، فإن كانت الملائكة بنات اللَّه سبحانه وتعالى فينبغى أن تكون البنت أمراً حسناً فلماذا تكرهون ولادتها؟ وإن كانت شيئاً سيّئاً فلماذا تنسبونها إلى اللَّه؟

ومع كل ذلك ... «وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى .

فبأى عمل تنتظرون حسنى الثواب؟

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۱

ولهذا يقول القرآن: «لَاجَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ». أى: أنّهم ليسوا فاقدين لحسن العاقبة فقط، بل و «لهم النار» «وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ» أى: من المتقدمين فى دخول النار.

والمفرط: من فرط، على وزن (فقط) بمعنى التقدم.

وربّما يراود البعض منّا الإستغراب عند سماعه لقصة عرب الجاهلية فى وأدهم للبنات، ويسأل: كيف يصدّق أن نسمع عن إنسان ما يدفن فلذة كبده بيده وهى على قيد الحياة؟!

وكأنّ الآية التالية تجيب على ذلك: «تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطنُ أَعْمَالَهُمْ».

ثم يضيف القرآن: إنّ مشركى اليوم على سنّة من سبقهم من الماضين من الذين زيّنوا أعمالهم بزخرف ما أوحى لهم الشيطان «فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ»، يستفيدون مما يعطيهم إيّاه.

ولهذا ... «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

وتبيّن آخر آية من الآيات مورد البحث هدف بعث الأنبياء، ولتؤكّد حقيقة أنّ الأقوام والامم لو اتبعت الأنبياء وتخلّت عن أهوائها ورغباتها الشخصية لما بقى أثر لأىخرافة وانحراف، ولزالت تناقضات الأعمال، فتقول: «وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (۶۵) وَ إِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ (۶۶) وَ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۶۷)

المياه، الثمار، الأنعام: مرّة اخرى، يستعرض القرآن الكريم النعم والعطايا الإلهية الكثيرة، تأكيداً لمسألة التوحيد ومعرفة اللَّه، وإشارة إلى مسألة المعاد، وتحريكاً لحس الشكر لدى العباد ليتقربوا إليه سبحانه أكثر، ومن خلال هذا التوجيه الربانى تتّضح علاقة الربط بين هذه الآيات وما سبقها من آيات. فيقول: «وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ».

وهذا المظهر من مظاهر قدرة وعظمة الخالق عزّ وجل يدلل بما لا يقبل الشك على إمكان المعاد.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٢

وإنّ نعمة الأمطار دليل آخر على قدرة وعظمة الخالق سبحانه.

وبعد ذكر نعمة الماء (الذى يعتبر الخطوة الاولى على طريق الحياة) يشير القرآن الكريم إلى نعمة وجود الأنعام، وبخصوص ما يؤخذ منها من اللبن كمادة غذائية كثيرة الفائدة، فيقول: «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً».

وأيّة عبرة أكثر من أن: «نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ».

«الفرث»: لغة بمعنى الأغذية المهضومة فى المعدة والتى بمجرد وصولها إلى الامعاء تزوّد البدن بمادتها الحياتية، بينما يدفع الزائد منها إلى الخارج .. فما يهضم من غذاء داخل المعدة يسمّى «فرثاً» وما يدفع إلى الخارج يسمّى (روثاً).

ونعلم بأنّ جدار المعدة لا يمتص إلّامقداراً قليلًا من الغذاء (كبعض المواد السكّرية) والقسم الأكبر منه ينتقل إلى الأمعاء كى يمتص الدم ما يحتاجه منه.

وكما نعلم أيضاً بأنّ اللبن يترشح من غدد خاصه داخل ثدى الإناث، ومادته الأصلية تؤخذ من الدم والغدد الدهنية.

فهذه المادة الناصعة البياض ذات القوة الغذائية العالية تنتج من الأغذية المهضومة المخلوطة بالفضلات، ومن الدم.

والعجب يكمن فى استخلاص هذا النتاج الخالص الرائع من عين ملوّثة.

وبعد حديثه عن الأنعام وألبانها يتناول القرآن ذكر النعم النباتية، فيقول: «وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». وَ أَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ (۶٨) ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۶٩)

«وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ»: انتقل الأسلوب القرآنى بهاتين الآيتين من عرض النعم الإلهية المختلفة وبيان أسرار الخليقة إلى الحديث عن «النحل» وما يدّره من منتوج (العسل) ورمز إلى ذلك الالهام الخفى بالوحى الإلهى إلى النحل: «أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٣

إنّ الوحى فى هذا المورد يعنى الأمر الغريزى والباعث الباطنى الذى أودعه اللّه فى الكائنات الحية.

وأوّل مهمة أمر بها النحل فى هذه الآية هى: بناء البيت، ولعل ذلك إشارة إلى أنّ اتخاذ المسكن المناسب بمثابة الشرط الأوّل للحياة، ومن ثم القيام ببقية الفعاليات.

ويذكر القرآن الكريم فى الآية التالية المهمة الثانية للنحل: «ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا».

وأخيراً يعرض القرآن المهمة الأخيرة للنحل (كنتيجة لما قامت به من مهام سابقة):

«يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

فى طبيعة حياتها وما تعطيه من غذاء للإنسان (فيه شفاء)، وهو دليل على عظمة وقدرة البارى عزّ وجل.

كما نعلم بأنّ للنباتات والأوراد استعمالات علاجية فعّالة لكثير من الأمراض، والشى‌ء المهم فى موضوعنا ما توصّل إليه العلماء من خلال تجاربهم التى أكّدت على أنّ للنحل من المهارة بحيث إنّه فى علمية صنعه للعسل لم يبذّر فيما تحويه النباتات والأوراد من خواص علاجية، فالنحل ينقل تلك الخواص بالكامل ويجعلها فى العسل.

وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَىْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَ اللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرادِّى رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ أَ فَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)

سبب اختلاف الأرزاق: بيّنت الآيات السابقة قسماً من النعم الإلهية المجعولة فى عالمى النبات والحيوان، لتكون دليلًا حسيّاً لمعرفته جلّ

شأنه، وتواصل هذه الآيات مسألة إثبات الخالق جلّ وعلا بأسلوب آخر، وذلك بأنّ تغيير النعم خارج عن اختيار الإنسان، وذلك كاشف بقليل من الدقّة والتأمل على وجود المقدّر لذلك. فيبتدأ القول ب «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفكُمْ». فمنه الممات كما كانت الحياة منه، ولتعلموا بأنّكم لستم خالقين لأىّمن الطرفين (الحياة والموت).

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۴

ومقدار عمركم ليس باختياركم أيضاً، فمنكم مَن يموت فى شبابه أو فى كهولته «وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ» «۱».

ونتيجة هذا العمر الموغل فى سنى الحياة «لِكَىْ لَايَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيًا».

فيكون كما كان فى مرحلة الطفولة من الغفلة والنسيان وعدم الفهم ... نعم ف «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ». فكل القدرات بيده جلّ وعلا، وعطاؤه بما يوافق الحكمة والمصلحة، وكذا أخذه لا يكون إلّاعندما يلزم ذلك.

ويواصل القرآن الكريم استدلاله فى الآية التالية من خلال بيان أنّ مسألة الرزق ليست بيد الإنسان وإنّما ... «وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ». فاصحاب الثروة والطول غير مستعدين لإعطاء عبيدهم منها ومشاركتهم فيها خوفاً أن يكونوا معهم على قدم المساواة: «فَمَا الَّذِينَ فُضّلُوا بِرَادّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ».

والذى نستفيده من الآية المبحوثة أنّ الإسلام يوصى بمراعاة المساواة كبرنامج أخلاقى بين أفراد العائلة الواحدة ومن يكون تحت التكفّل قدر الإمكان، وأن لا يجعلوا لأنفسهم فضلًا عليهم.

فالتفاوت بين دخل الأفراد ينبع من التفاوت بالإستعدادات، وهو من المواهب والنعم الإلهية أيضاً، وإن أمكن أن يكون بعض ذلك اكتسابياً، فالبعض الآخر غير اكتسابى قطعاً.

فإذن وجود التفاوت فى الأرزاق أمر غير قابل للإنكار من الناحية الاقتصادية، ويتمّ ذلك حتى داخل المجتمعات السليمة، إلّاأنّ أساس النجاح يكمن فى السعى والمثابرة والجد، وينبغى أن لا يكون وجود التفاوت والاختلاف فى الإستعدادات وفى الدخل اليومى للأفراد دافعاً لسوء الاستفادة وذلك بتشكيل مجتمع طبقى.

ولهذا يقول القرآن الكريم فى ذيل الآية مورد البحث: «أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ».

وذلك إشارة إلى أنّ هذه الاختلافات فى حالتها الطبيعية (وليست الظالمة المصطنعة) إنّما هى من النعم الإلهية التى أوجدها لحفظ النظام الاجتماعى البشرى.

وتبدأ الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث بلفظ الجلالة «اللَّه» كما كان فى الآيتين السابقتين، ولتتحدث عن النعم الإلهية فى إيجاد القوى البشرية، ولتتحدث عن الأرزاق الطيبة أيضاً تكميلًا للحلقات الثلاثة من النعم المذكورة فى آخر ثلاث آيات، حيث استهلّت

---

(۱) «أرذل»: من «رذل» بمعنى الحقارة وعدم المرغوبية؛ والمقصود من «أرذل العمر»: السنين المتقدمة جدّاً من عمر الإنسان حيث الضعف والنسيان، ولا يستطيع تأمين احتياجاته الأولية، ولهذا سماها القرآن بأرذل العمر.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۵

البحث بنظام الحياة والموت، ثم التفاوت فى الأرزاق والإستعدادات الكاشف لنظام (تنوع الحياة) لتنتهى بالآية مورد البحث، حيث النظر إلى نظام تكثير النسل البشرى و ...

الأرزاق الطيبة. وتقول الآية: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا» لتكون سكناً لأرواحكم وأجسادكم وسبباً لبقاء النسل البشرى.

ولهذا تقول وبلافاصلة: «وَجَعَلَ لَكُم مّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً».

«الحفدة»: بمعنى (حافد) وهى فى الأصل بمعنى الإنسان الذى يعمل بسرعة ونشاط دون انتظار أجر وجزاء، أمّا فى هذه الآية فالمقصود منها أولاد الأولاد.

ثم يقول القرآن الكريم: «وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ».

وبعد كل العرض القرآنى لآثار وعظمة قدرة اللّه، ومع كل ما أفاض على البشرية من نعم، نرى المشركين بالرغم من مشاهدتهم لكل ما أعطاهم مولاهم الحق، يذهبون إلى الأصنام ويتركون السبيل التى توصلهم إلى جادة الحق «أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ».

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئاً وَ لَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧۴)

تواصل هاتان الآيتان بحوث التوحيد السابقة، وتشير إلى موضوع الشرك، وتقول بلهجة شديدة ملؤها اللوم والتوبيخ: «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَايَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ شَيًا».

وليس لا يملك شيئاً فقط، بل «وَلَا يَسْتَطِيعُونَ» أن يخلقوا شيئاً.

وهذه إشارة إلى المشركين بأن لا أمل لكم فى عبادتكم للأصنام.

ثمّ تقول الآية التالية كنتيجة لما قبلها: «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ». وذلك «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَاتَعْلَمُونَ».

إنّ عبارة «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ» تشير إلى منطق المشركين فى عصر الجاهلية (ولا يخلو عصرنا الحاضر من أشباه اولئك المشركين) حيث كانوا يقولون: إنّما نعبد الأصنام لأنّنا لا نمتلك الأهلية لعبادة اللّه، فنعبدها لتقرّبنا إلى اللّه! وإنّ اللّه مثل ملك عظيم لا يصل إليه إلّا الوزراء والخواص، وما على عوام الناس إلّاأن تتقرب للحاشية والخواص لتصل إلى خدمة اللّه!

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶

ولذا يجيبهم القرآن الكريم قائلًا: «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ» التى هى من صنع أفكاركم المحدودة ومن صنع موجودات (ممكنة الوجود) ومليئة بالنواقص.

فاللّه الذى دعاكم لأن تدعوه وتناجوه، وفتح لكم أبواب دعائه ليل نهار، لاينبغى أن تشبّهوه بجبار مستكبر لا يتمكن أى أحد من الوصول إليه ودخول قصره إلّابعض الخواص «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ».

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَ مَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَ جَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧۵) وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧۶) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)

مثلان للمؤمن والكافر: ضمن التعقيب على الآيات السابقة التى تحدثت عن: الإيمان، الكفر، المؤمنين، الكافرين والمشركين، تشخّص الآيات مورد البحث حال المجموعتين (المؤمنين والكافرين) بضرب مثلين حيّين وواضحين.

يشبّه المثال الأوّل المشركين بعبد مملوك لا يستطيع القيام بأيّة خدمة لمولاه، ويشبّه المؤمنين بإنسان غنى، يستفيد الجميع من إمكانياته ... «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّايَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ».

أمّا ما يقابل ذلك فالإنسان المؤمن الذى يتمتع بأنواع المواهب والرزق الحسن: «وَمَن رَّزَقْنَهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا» والإنسان الحر مع ما له من إمكانيات واسعة «وَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا». فاحكموا: «هَلْ يَسْتَوُونَ».

قطعاً، لا ... فإذن: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» الذى يكون عبده حرّ وقادر ومنفق، وليس الأصنام التى يكون عبّادها أسرى وعديمو القدرة ومحددون «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

ثم يضرب مثلًا آخر لعبدة الأصنام والمؤمنين والصادقين، فيشبّه الأوّل بالعبد الأبكم الذى لا يقدر على شيء، ويشبّه الآخر بإنسان حر يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم:

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٧

«وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَايَقْدِرُ عَلَى شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَهُ». ولهذا ..

«أَيْنَمَا يُوَجّههُّ لَايَأْتِ بِخَيْرٍ». وعلى هذا فيكون له أربع صفات سلبية:

- أبكم (لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر منذ الولادة).
- وعاجز لا يقدر على شىء.
- وكَلٌّ على مولاه.
- وأينما يوجّهه لا يأت بخير.

كما رأينا من ربط القرآن فى بحوثه المتعلقة بالتوحيد ومحاربة الشرك مع بحث المعاد ومحكمة القيامة الكبرى، نراه هنا يتناول الإجابة على إشكالات المشركين فيما يخص المعاد، فيقول لهم: «لِلَّهِ غَيْبُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

ثم يضيف قائلًا: «وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ».

فالعبارتان إشارة حيّة لقدرة اللّه عزّ وجل المطلقة، وبخصوص مسألتى المعاد والقيامة، ولهذا يقول البارى فى ذيل الآية: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَ مِنْ أَصْوَافِهَا وَ أَوْبَارِهَا وَ أَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَ مَتَاعاً إِلَى حِينٍ (٨٠) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَ أَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٨

أنواع النعم المادية والمعنوية: يعود القرآن الكريم مرّة اخرى بعرض جملة اخرى من النعم الإلهية كدرس فى التوحيد ومعرفة اللّه، وأوّل ما يشير فى هذه الآيات المباركات إلى نعمة العلم والمعرفة ووسائل تحصيله ... ويقول: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيًا». فمن الطبيعى أنّكم فى ذلك المحيط المحدود المظلم تجهلون كل شىء، ولكن عندما تنتقلون إلى هذا العالم فليس من الحكمة أن تستمروا على حالة الجهل، ولهذا فقد زوّدكم البارى سبحانه بوسائل إدراك الحقائق ومعرفة الموجودات «وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفِدَةَ». لكى يتحرك حس الشكر للمنعم فى أعماقكم من خلال إدراككم لهذه النعم الربانية الجليلة «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

وتستمر الآية التالية فى بيان أسرار عظمة اللّه عزّ وجل فى علم الوجود، وتقول: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوّ السَّمَاءِ».

وبما أنّ الأجسام تنجذب إلى الأرض طبيعياً فقد وصف القرآن الكريم حركة الطيور فى الهواء بالتسخير.

ويضيف قائلًا: «مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ».

صحيح أنّ ثمّة امور مجتمعة تعطى للطيور إمكانية التحليق والطيران، مثل: الخاصية الطبيعية للأجنحة، قدرة عضلات الطيور، هيكل الطير بالإضافة إلى خواص الهواء الملائمة ... ولكن، من الذى خلق هذه الهيئة وتلك الخواص؟

وفى نهاية الآية، يأتى قوله عزّ من قائل: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». أى: إنّهم ينظرون إلى هذه الامور بعين باصرة وأذن سميعة ويتفكرون فيما يرون ويسمعون، وبذلك يقوى إيمانهم ويرسخ أكثر فأكثر.

وتستمر الآيات فى الإشارة إلى النعم الإلهية حتى نصل إلى الآية الثالثه (مورد البحث) لتقول: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا».

وحقّاً إنّ هذه النعمة المباركة من أهم النعم، فلولاها لم يمكن التمتع بغيرها.

«البيوت»: جمع بيت، مأخوذ من «البيتوتة» وهى فى الأصل بمعنى التوقف ليلًا، واطلقت كلمة «بيت» على الحجرة أو الدار لحصول الاستفادة منهما للسكن ليلًا.

وبعد أن تطرّق القرآن الكريم إلى ذكر البيوت الثابتة عرّج على ذكر البيوت المتنقلة فقال:

«وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٩

وهى من الخفّة بحيث «تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ أى: رحيلكم- وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ».

بل وجعل لكم: «وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ».

فاستعمال المصطلحين «أَثَاثًا وَمَتَاعًا» على التوالى يمكن أن يشير إلى هذا المعنى: إنّكم تستطيعون أن تهيئوا من أصوافها وأوبارها وأشعارها وسائل بيتية كثيرة تتمتعون بها.

الظلال، المساكن، الأغطية: ويشير القرآن الكريم إلى نعمة اخرى بقوله: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا».

«الأكنان»: جمع (كن) بمعنى وسائل التغطية والحفظ، ولهذا فقد اطلقت على المغارات وأماكن الإختفاء وفى الجبال.

وكأنّ ذكر نعمة «الظلال» و «أكنان الجبال» بعد ذكر نعمة «المسكن» و «الخيام» فى الآية السابقة، للإشارة إلى أنّ طوائف الناس لا تخرج عن إحدى ثلاثة ... واحدة تعيش فى المدن والقرى وتستفيد من بناء البيوت لسكناها، واخرى تعيش الترحال والتنقل فتحمل معها الخيام، وثالثة اولئك الذين يسافرون وليس معهم مستلزمات المأوى ... ولم يترك البارى جلّ شأنه المجموعة الثالثه تعيش حالة الحيرة من أمرها، بل فى طريقهم الظلال والمغارات لتقيهم. وبعد ذكر القرآن الكريم لنعمة الظلال الطبيعية والصناعية، ينتقل لذكر ملابس الإنسان فيقول: «وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ»، وثمّة ألبسة اخرى تستعمل لحفظ أبدانكم فى الحروب «وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ».

«السرابيل»: جمع «سربال» بمعنى الثوب من أىّ جنس كان.

فإنّ فائدة الألبسة لا تنحصر فى حفظ الإنسان من الحر والبرد، بل تُلبس الإنسان ثوب الكرامة وتقى بدنه من الأخطار الموجّهة إليه.

وفى ذيل الآية يقول القرآن مذكّراً: «كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ». أى: تطيعون أمره.

وطبيعى جدّاً أن يفكر الإنسان بخالق النعم، خصوصاً عند تنبّهه للنعم المختلفة التى تحيط بوجوده.

وبعد ذكر هذه النعم الجليلة، يقول عزّ وجلّ أنّهم لو اعرضوا ولم يسلموا للحق فلا تحزن ولا تقلق، لأنّ وظيفتك ابلاغهم: «فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَغُ الْمُبِينُ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٤٠

والمراد من هذا المقطع القرآنى هو مواساة النبى صلى الله عليه و آله وتسليته.

وتكميلًا للحديث ... يضيف القرآن الكريم القول: «يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا».

فعلّة كفرهم ليست فى عدم معرفتهم بالنعم الإلهية وإنّما بحملهم تلك الصفات القبيحة التى تمنعهم من الإيمان كالتعصب الأعمى والعناد فى معاداة الحق.

ولعل ما جاء فى آخر الآية «وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ» إشارة لهذه الأسباب المذكورة.

إنّ أكثرية الكفار هم من أهل التعصب والعناد، والذين كفروا نتيجة جهلهم أو غفلتهم، فهم القلّة قياساً إلى اولئك.

وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَ لَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥) وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ

لَكَاذِبُونَ (۸۶) وَ أَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (۸۷) الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (۸۸) وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هؤُلَاءِ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً وَ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (۸۹)

عندما تغلق الأبواب أمام المجرمين: بعد أن عرض القرآن الكريم فی الآيات السابقة جحود منكری الحق وعدم اعترافهم بالنعم الإلهية، يتطرق فی هذه الآيات إلى جانب من العقاب الإلهی الشديد الذی ينتظر اولئك فی عالم الآخرة، ليتنبّه الغافل من سباته، فعسى أن يعيد النظر فی مواقفه المنحرفة قبل فوات الأوان، فيقول أوّلًا: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا».

وبخصوص تلك المحكمة، تأتی الآية لتقول: «ثُمَّ لَايُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا».

وهل من الممكن أن لا يأذن اللَّه للمجرمين فی الدفاع عن أنفسهم؟

نعم، وذلك لعدم الحاجة للسان فی ذلك اليوم العظيم، لأنّ الجوارح من رجل وأذن وعين

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۱

وكذلك الجلد، بل وحتى الأرض التی أطاع الإنسان عليها أو عصى، كلها ستشهد عليه، بل ويزاد على عدم السماح لهم بالكلام ب «وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ». لأنّ هناك محل مواجهة نتائج الأعمال وليس يوم العمل والإصلاح.

وتشرح الآية التالية حال الظالمين بعد انتهاء مرحلة حسابهم ودخولهم فی العذاب، وكيف أنّهم يطلبون تخفيف شدة العذاب تارةً، ويطلبون إمهالهم مدّة تارةً اخرى، فتقول:

«وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ».

وفی الآية التالية يستمر الحديث عن عاقبة المشركين، وكيف أنّهم سيحشرون فی جهنم مع ما أشركوا من معبوداتهم الحجرية والبشرية، فتقول الآية المباركة واصفة حالهم: «وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ»، فهذه المعبودات هی التی وسوست لنا للوقوع فی درك العمل القبيح، وهی شريكتنا فی الجرم أيضاً، فارفع عنّا بعض العذاب واجعله لها.

وعندها ... تبدأ تلك الأصنام بالتكلم (بإذن اللَّه): «فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ»، فلم نكن شركاء للَّه، ومهما وسوسنا لكم فلا نستحق حمل بعض أوزاركم.

وتأتی الآية التالية لتبين أنّ الجميع بعد أن يقولوا كل ما عندهم، ويسمعوا جواب قولهم، سيتوجهون إلى حالة اخرى ... «وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ» مسلمين للَّه، مذعنين لعظمته جلّ وعلا، لأنّ غرور وتعصب الجاهلين قد ازيل برؤية الحق الذی لا مفرّ من تصديقه والإذعان إليه.

وفی هذه الأثناء، وحيث كل شیء جلیّ كوضوح الشمس .. «وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ». فتبطل كذبتهم بوجود شريك للَّه، وكذلك يبطل ادعاؤهم بشفاعة الأصنام لهم عند اللَّه، عندما يلمسون عدم قدرة الأصنام للقيام بأیّ عمل، بل ويرونها محشورة معهم فی نار جهنم.

وبهذا المقدار من الآيات كان الحديث منصبّاً حول انحراف المشركين الضالين وغرقهم فی درك الشرك، دون أن يدعوا الآخرين إلى ما هم فيه .. وبعد ذلك ينتقل القرآن الكريم إلى الكافرين من الذين لم يكتفوا بأن يكونوا كافرين، وإنّما كانوا يبذلون أقصى جهودهم لإضلال الآخرين! فيقول: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۲

لأنّهم كانوا عاملًا مؤثّراً للفساد على الأرض وإضلال خلق اللَّه بالصدّ عن سبيله.

والحديث المشهور يبيّن لنا هذا المعنى بوضوح: «من استن بسنّة عدل فاتبع كان له أجر من عمل بها من غير أن ينتقص من أجورهم

شىء ومن استن سنّة جور فاتبع كان عليه مثل وزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شىء».

وتتناول الآية أيضاً مسألة وجود الشهيد فى كل امّة (والذى ذكر قبل آيات معدودة)، ولمزيد من التوضيح يقول القرآن الكريم: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ».

ومع أنّ عموم الحكم فى هذه الآية يشمل المجتمع الإسلامى والنبى صلى الله عليه و آله إلّاأنّ القرآن الكريم فى مقام التأكيد قال: «وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هؤُلَاءِ».

وبما أنّ جعل الشاهد فرع لوجود برنامج كامل وجامع للناس بما تتم فيه الحجة عليهم، ويصح فيه مفهوم النظارة والمراقبة، لذا يقول القرآن بعد ذلك مباشرة: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ».

إنّ الآية أعلاه ذكرت أربعة تعابير متلازمة حسب تسلسلها لتوضيح الهدف من نزول القرآن: ۱- تبياناً لكل شىء. ۲- هدى. ۳- رحمة. ۴- بشرى للمسلمين.

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسَانِ وَ إِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَ يَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۹۰)

أكمل برنامج إجتماعى: بعد أن ذكرت الآيات السابقة أنّ القرآن فيه تبيان لكل شىء، جاءت هذه الآية لتقدّم نموذجاً من التعليمات الإسلامية فى شأن المسائل الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية، فتقول فى البدء: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاىِ ذِى الْقُرْبَى .

فالعدل هو القانون الذى تدور حول محوره جميع أنظمة الوجود.

والمعنى الواقعى للعدل يتجسد فى جعل كل شىء فى مكانه المناسب، فالانحراف والإفراط والتفريط وتجاوز الحد والتعدّى على حقوق الآخرين، ما هى إلّاصور لخلاف أصل العدل.

ومع ما للعدالة من قدرة وجلال وتأثير عميق فى كل الأوقات- الطبيعية والاستثنائية-

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۳

فى عملية بناء المجتمع السليم، إلّاأنّها ليست العامل الوحيد الذى يقوم بهذه المهمّة، ولذلك جاء الأمر ب «الإحسان» بعد «العدل» مباشرة ومن غير فاصلة. فى نهج البلاغة عن على عليه السلام أنّه قال: «العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل».

وبعد ذكر القرآن الكريم للُاصول الإيجابية الثلاثة يتطرق للُاصول المقابلة لها (السلبية) فيقول: «وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ».

إنّ «الفحشاء»: إشارة إلى الذنوب الخفيّة؛ و «المنكر»: إشارة إلى الذنوب العلنية؛ و «البغى»: إشارة إلى كل تجاوز عن حق الإنسان، وظلم الآخرين والإستعلاء عليهم.

وفى آخر الآية المباركة يأتى التأكيد مجدداً على أهمية هذه الأصول الستة: «يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

فإحياء الأصول الثلاثة «العدل، والإحسان، وإيتاء ذى القربى» ومكافحة الانحرافات الثلاث «الفحشاء والمنكر، والبغى» على صعيد العالم كفيل بأن يجعل الدنيا عامرة بالخير، وهادئة من كل اضطراب، وخالية من أىّ سوء وفساد، وإذا روى عن ابن مسعود (الصحابى المعروف) قوله: (هذه الآية أجمع آية فى كتاب اللّه للخير والشر) فهو للسبب الذى ذكرناه.

وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَ لَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (۹۱) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۹۲) وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۳) وَ لَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (۹۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: الآية الاولى نزلت فى الذين بايعوا النبى صلى الله عليه و آله على الإسلام فقال

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۴

سبحانه للمسلمين الذين بايعوه: لا- يحملنّكم قلة المسلمين وكثرة المشركين على نقض البيعة فإنّ اللَّه حافظكم. أى: اثبتوا على ما عاهدتم عليه الرسول وأكدتموه بالأيمان.

التّفسير

الوفاء بالعهد دليل الإيمان: فى هذه الآيات قسماً آخر من تعاليم الإسلام المهمة (الوفاء بالعهد والأيمان). يقول أوّلًا: «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ». ثم يضيف: «وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ».

إنّ معنى «عهد اللَّه» هو: العهود التى يبرمها الناس مع اللَّه تعالى (وبديهى أنّ العهد مع النبى عهد مع اللَّه أيضاً)، وعليه فهو يشمل كل عهد إلهى وبيعة فى طريق الإيمان والجهاد وغير ذلك.

أمّا مسألة «الأيمان» (جمع يمين، أى: القسم) التى وردت فى الآية- والتى عرض فيها المفسرون آراء كثيرة- فلها معنى واسع، ويتّضح ذلك عند ملاحظة مفهوم الجملة حيث إنّه يشمل العهود التى يعقدها الإنسان مع اللَّه عزّ وجل، بالإضافة إلى ما يستعمله من أيمان فى تعامله مع خلق اللَّه.

وحيث إنّ الوفاء بالعهد أهم الاسس فى ثبات أىّ مجتمع كان، تواصل الآية التالية ذكره باسلوب يتّسم بنوع من اللوم والتوبيخ، فتقول: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا» (١).

والآية تشير إلى (رايطة) تلك المرأة التى عاشت فى قريش زمن الجاهلية، وكانت هى وعاملاتها يعملن من الصباح حتى منتصف النهار فى غزل ما عندهن من الصوف والشعر، وبعد أن ينتهين من عملهن تأمرهن بنقض ما غزلن، ولهذا عرفت بين قومها ب (الحمقاء).

ثم يضيف القرآن الكريم قائلًا: «تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ» (٢). أى: لا- تنقضوا عهودكم مع اللَّه بسبب أنّ تلك المجموعة أكبر من هذه فتقعوا فى الخيانة والفساد.

واعلموا: «إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ».

---

(١) «أنكاث»: جمع (نكث) على وزن (قسط) بمعنى حلّ خيوط الصوف والشعر بعد برمها، وتطلق أيضاً على اللباس الذى يصنع من الصوف والشعر.

(٢) «الدّخل»: (على وزن الدغل)، بمعنى الفساد والتقلب ومنها اخذ معنى (الداخل).

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۵

وستّضح النتيجة فى الآخرة ليلاقى كل فرد جزاءه العادل: «وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» من هذا الأمر وغيره. و الآية التالية تجيب على توهّم، غالباً ما يطرق الأذهان عند الحديث عن الامتحان الإلهى والتأكيد على الإلتزام بالعهود والوظائف، وخلاصته: هل أنّ اللَّه لا يقدر على إجبار الناس جميعاً على قبول الحق؟ فتقول: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً».

«امّة واحدة» من حيث الإيمان والعمل على الحق بشكل إجبارى، ولكن ذلك سوف لا يكون خطوة نحو التكامل والتسامى ولا فيه أفضلية للإنسان فى قبوله الحق، وعليه فقد جرت سُنّة اللَّه بترك الناس أحراراً ليسيروا على طريق الحق مختارين.

ولا تعنى هذه الحرية بأنّ اللَّه سيترك عباده ولا يعينهم فى سيرهم، وإنّما بقدر ما يقدمون على السير والمجاهدة سيحصلون على التوفيق والهداية والسداد منه جلّ شأنه، حتى يصلوا لهدفهم، بينما يحرم السائرون على طريق الباطل من هذه النعمة الربانية، فتراهم كلّما طال المقام بهم ازدادوا ضلالًا.

ولهذا يواصل القرآن الكريم القول ب: «وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ».

ولكن الهداية الإلهية أو الإضلال لا- تسلب المسؤولية عنكم، حيث إنّ الخطوات الاولى على عواتقكم، ولهذا يأتى النداء الربانى:

«وَلَتُسَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وتشير هذه العبارة إلى نسبة أعمال البشر إلى أنفسهم، وتؤكّد على تحميلهم مسؤولية تلك الأعمال، وتعتبر من القرائن الواضحة فى تفسير مفهوم الهداية والإضلال الإلهيين وأنّ أيّاً منهما لا يستبطن صفة الإجبار أبداً.

وقد بحثنا هذا الموضوع سابقاً (راجع تفسير الآية ۲۶ من سورة البقرة).

وتأكيداً على مسألة الوفاء بالعهد والثبات فى الإيمان (باعتبار ذلك من العوامل المهمة فى ثبات المجتمع) يقول القرآن: «وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ». أى: وسيلة للخداع والنفاق، لأنّ فى ذلك خطرين كبيرين:

الأوّل: «فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا».

الثانى: «وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ» فى هذه الدنيا «وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» فى الآخرة.

من الآثار السلبية لنقض العهود والأيمان شياع سوء ظن الناس وتنفرهم من الدين

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۶

الحق، وتشتت الصفوف وفقدان الثقة حتى لا يرغب الناس فى الإسلام، وإن عقدوا معكم عهداً فسوف لا يجدون أنفسهم ملزمين بالوفاء به، وهذا ما يؤدّى لمساوى ومفاسد كثيرة، وبروز حالة التخلف فى الحياة الدنيا.

وأمّا على صعيد الحياة الاخرى فإنّه سيكون سبباً للعقاب والعذاب الإلهى.

وَ لَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۹۵) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۹۶) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۹۷)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: إنّ رجلًا من حضر موت يقال له عبدان الأشرع قال: يا رسول اللَّه، إنّ امرأ القيس الكندى جاورنى فى أرضى فاقتطع من أرضى فذهب بها منّى. فسأل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله امرأ القيس عنه، فقال: لا أدرى ما يقول. فأمره أن يحلف، فقال عبدان: إنّه فاجر لا يبالى أن يحلف، فقال: إن لم يكن لك شهود فخذ بيمينه. فلمّا قام ليحلف أنظره فانصرفا فنزل قوله: «وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ» الآيتان. فلمّا قرأهما رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال امرؤ القيس: أمّا ما عندى فينفد، وهو صادق فيما يقول. لقد اقتطعت أرضه ولم أدر كم هى، فليأخذ من أرضى ما شاء، ومثلها معها، بما أكلت من ثمرها. فنزل فيه «مَنْ عَمِلَ صلِحًا» الآية.

التّفسير

جاءت الآية الاولى من هذه الآيات لتؤكّد على قبح نقض العهد مرّة اخرى ولتبيّن عذراً آخراً من أعذار نقض العهد الواهية، فحيث تطرقت الآيات السابقة إلى عذر الخوف من كثرة الأعداء تأتى هذه الآية لتطرح ما للمصلحة الشخصية (المادية) من أثر سلبى على حياة الإنسان. ولهذا تقول: «وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا».

أى: إنّ قيمة الوفاء بعهد اللَّه لا تدانيها قيمة، ولو استلمتم زمام ملك الدنيا بأسرها فإنّه

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷

لا يساوى قيمة لحظة واحدة من الوفاء بعهد اللَّه. وتضيف الآية المباركة للدلالة على هذا الأمر: «إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ».

ويبيّن القرآن فى الآية التالية سبب الأفضلية بقوله: «مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ».

ثم يضيف قائلًا: «وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم»- وعلى الأخص فى الثبات على العهد والأيمان- «بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

إنّ التعبير ب «أحسن» دليـل على أنّ أعمـالهم الحسـنة ليست بدرجـة واحـدة، فبعضـها حسن والبعض الآـخر أحسن، ولكن اللّه تعـالى يجزى الجميع بأحسن ما كانوا يعملون، وهو ذروة اللطف والرحمة الربانية.

ثم يبيّن القرآن الكريم بعـد ذلك- على صورة قانون عام- نتائج الأعمال الصالحة المرافقة للإيمان فى هذه الدنيا وفى الآخرة، فيقول: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

وعليه، فالمقياس هو الأعمال الصالحة الناتجة عن الإيمان بلا قيد أو شـرط، من حيث السن أو الجنس أو المكانة الإجتماعية أو ما شابه ذلك.

الحياة الطيبـة، تعنى الحياة الطيبـة بجميع جهاتها، وخاليـة من التلوّثات والظلم والخيانة والعداوة والذل وكل ألوان الآلام والهموم، وفيها ما يجعل حياة الإنسان صافية كماء زلال.

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْـتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم (٩٨) إِنَّهُ لَيسَ لَهُ سُـلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُـوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)

تبيّن الآيات مورد البحث طريقـة الاسـتفادة من القرآن وتتطرق إلى كيفيـة تلاوته، فكثافة المحتوى القرآنى لا تكفى وحدها لتوجيهنا، ولابد من رفع الحجب المخيّمة على وجودنا وإزالتها عن محيط فكرنا وروحنا، كى نتمكن من تحصيل هذا المحتوى الثّر الغنى.

ولهذا يقول القرآن: «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطنِ الرَّجِيم».

ولا يقصـد من الإسـتعاذة الاكتفاء بالذكر، بل ينبغى لها أن تكون مقدمة لتحقيق وإيجاد الحالة الروحية المطلوبة. حالة: التوجه إلى اللّه عزّ وجل، الإنفصال عن هوى النفس والعناد

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٤٨

المانع للفهم والدرک الصـحيح للإنسان، وعندما نقرأ آية، نسـتعيذ باللّه من أن تستحوذ وساوس الشيطان علينا، وتحول بيننا وبين كلام اللّه جلّ وعلا.

وإن لم تتحقق للإنسان هذه الحالة فسيتعذر عليه إدراک الحقائق القرآنية.

وتأتى الآية التالية لتكون دليلًا على ما جاء فى الآية التى قبلها: «إِنَّهُ لَيسَ لَهُ سُلْطنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». «إِنَّمَا سُلْطنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ»، لأنّهم يعتبرون أمر الشيطان واجب الطاعة دون أمر اللّه.

فالآية تؤكّد حقيقة أنّ سـلطة الشيطان ليست إجبارية على الإنسان، ولا يتمكن من التأثير على الإنسان من دون أن يمهّد الإنسان السبيل لدخول الشيطان فى نفسه، ويعطيه إجازة المرور من بوّابة قلبه.

وَ إِذَا بَـدَّلْنَا آيَـةً مَكَانَ آيَـةٍ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُـدُسِ مِنْ رَبِّکَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدًى وَ بُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَ لَقَـدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَـرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَـا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْـدِيهِمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَـذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أُولئِکَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: كانوا يقولون: يسخر محمّد بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وغداً يأمرهم بأمر، وإنّه لكاذب، يأتيهم بما يقول من عند نفسه.

التّفسير

تحدثت الآيات السابقة عن اسلوب الاستفادة من القرآن الكريم، وتتناول الآيات

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٤٩

مورد البحث جوانب اخری من المسائل المرتبطة بالقرآن، وتبتدیء ببعض الشبهات التی کانت عالقة فی أذهان المشرکین حول الآیات القرآنیة المبارکة، فتقول: «وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَایَةً مَّکَانَ ءَایَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا یُنَزِّلُ». فهذا التغییر والتبدیل یخضع لحکمة اللَّه، فهو أعلم بما ینزل، وکیف ینزل، ولکن المشرکین لجهلهم «قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَکْثَرُهُمْ لَایَعْلَمُونَ».

إنّ المشرکین لم یدخل فی تصوراتهم وأذهانهم أنّ القرآن فی صدد بناء مجتمع إنسانی جدید یسوده التطوّر والتقدم والحریّة والمعنویة العالیة.

فبدیهی والحال هذه أن یطرأ علی التغییر والتبدیل تدرّجاً مع ما یعیشونه، فغفلة المشرکین عن هذه الحقائق وابتعادهم عن ظروف نزول القرآن، دفعهم للإعتقاد بأنّ أقوال النبی صلی الله علیه و آله تحمل بین ثنایاها التناقض أو الإفتراء علی اللَّه عزّ وجل وإلّا لعلموا أنّ النسخ فی الأحکام جزء من أوامر وآیات القرآن المنظّمة علی شکل برنامج تربوی دقیق لا ـ یمکن الوصول للهدف النهائی لنیل التکامل إلّابه.

وتستمر الآیة التالیة بنفس الموضوع، وللتأکید علیه تأمر النبی صلی الله علیه و آله أن: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّکَ بِالْحَقِّ».

«روح القدس» أو (الروح المقدسة) هو أمین الوحی الإلهی «جبرائیل الأمین» وبواسطته کانت الآیات القرآنیة تتنزّل بأمر اللَّه تعالی علی النبی الأکرم صلی الله علیه و آله سواء الناسخ منها أو المنسوخ.

فکل الآیات حق، وهدفها واحد یترکّز فی توجیه الإنسان ضمن التربیة الربانیة له، وظروف وترکیبة الإنسان استلزمت وجود الأحکام الناسخة والمنسوخة فی العملیة التربویة.

ولهذا، جاء فی تکملة الآیة المبارکة: «لِیُثَبِّتَ الَّذِینَ ءَامَنُوا وَهُدًی وَبُشْرَی لِلْمُسْلِمِینَ».

یقول صاحب تفسیر المیزان: إنّ تعریف الآثار بتخصیص التثبیت بالمؤمنین والهدی والبشری للمسلمین إنّما هو لما بین الإیمان والإسلام من الفرق، فالإیمان للقلب، ونصیبه التثبیت فی العلم والإذعان، والإسلام فی ظاهر العمل ومرحلة الجوارح ونصیبها الإهتداء إلی واجب العمل والبشری بأنّ الغایة هی الجنة والسعادة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۰

مختصر الامثل ج۳ ۹۹

وعلی أیّة حال، فلأجل تقویة الروح الإیمانیة والسیر فی طریق الهدی والبشری لابدّ من برامج قصیرة الأمد ومؤقتة، وبالتدریج یحلّ البرنامج النهائی الثابت محلها، وهو سبب وجود الناسخ والمنسوخ فی الآیات الإلهیة.

وبعد أن فنّد القرآن شبهات المشرکین یتطرق لذکر شبهة اخری، أو علی الأصح لذکر إفتراء آخر لمخالفی نبی الرحمة صلی الله علیه و آله فیقول: «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ یَقُولُونَ إِنَّمَا یُعَلِّمُهُ بَشَرٌ».

فالقرآن أجابهم بقوة وأبطل کل ما کانوا یفترونه، بقوله: «لِّسَانُ الَّذِی یُلْحِدُونَ إِلَیْهِ أَعْجَمِیٌّ وَهذَا لِسَانٌ عَرَبِیٌّ مُّبِینٌ» «۱».

فالآیة المبارکة دلیل الإعجاز القرآنی من حیث اللفظ والمضمون، فحلاوة القرآن وبلاغته وجاذبیته والتناسق الخاص فی ألفاظه وعباراته ما یفوق قدرة أیّ إنسان.

وبلهجة المهدّد المتوعّد یبیّن القرآن الکریم أنّ حقیقة هذه الإتهامات والانحرافات ناشئة من عدم انطباع الإیمان فی نفوس هؤلاء، فیقول: «إِنَّ الَّذِینَ لَایُؤْمِنُونَ بَایَاتِ اللَّهِ لَایَهْدِیهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِیمٌ». لأنّهم غیر لائقین للهدایة ولا یناسبهم إلّاالعذاب الإلهی، لما باتوا علیه من التعصب والعناد والعداء للحق.

وفی آخر آیة یقول: إنّ الأشخاص الذین یتّهمون أولیاء اللَّه هم الکفار: «إِنَّمَا یَفْتَرِی الْکَذِبَ الَّذِینَ لَایُؤْمِنُونَ بَایَاتِ اللَّهِ وَأُولئِکَ هُمُ الْکَاذِبُونَ». فأیّة أکاذیب أکبر من تلک التی تطلق علی رجال الحق لتحول بینهم وبین المتعطشین للحقائق.

قبح الکذب فی المنظور الإسلامی: الآیة الأخیرة بحثت مسألة قبح الکذب بشکل عنیف، وقد جعلت الکاذبین بدرجة الکافرین

والمنكرين للآيات الإلهية.

ولأهمية هذا الموضوع فقد أعطت التعاليم الإسلامية إفاضات خاصه لمسألة الصدق والنهى عن الكذب.

وقد اعتبرت الأحاديث الشريفة الكذب مفتاح الذنوب.

فعن على عليه السلام أنّه قال: «الصدق يهدى إلى البرّ والبرّ يدعو إلى الجنة» «۲».

---

(۱) «يلحدون»: من الإلحاد بمعنى الانحراف عن الحق إلى الباطل، وقد يطلق على أيّ انحراف، والمراد هنا: إنّ الكاذبين يريدون نسبة القرآن إلى إنسان ويدعون بأنّه معلم النبى صلى الله عليه و آله.

«الإعجام» و «العجمة» لغةً: بمعنى الإبهام، ويطلق الأعجمى على الذى فى بيانه لحن (نقص) سواء كان من العرب أو من غيرهم، وباعتبار أنّ العرب ما كانوا يفهمون لغة غيرهم فقد استعملوا اسم (العجم) على غير العرب.

(۲) مشكاة الأنوار للطبرسى/ ۳۰۰.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۱

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (۱۰۶) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (۱۰۷) أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (۱۰۸) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (۱۰۹) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱۰) يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (۱۱۱)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: الآية الاولى نزلت فى جماعة اكرهوا وهم: عمار، وياسر أبوه وامّه سمية، وصهيب، وبلال، وخباب، عُذّبوا وقُتل أبو عمار وأمّه، وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه. ثم أخبر سبحانه بذلك رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال قوم: كفر عمار. فقال صلى الله عليه و آله: «كلّا، إنّ عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه». وجاء عمار إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهو يبكى، فقال صلى الله عليه و آله: «ما وراءك»؟ فقال: شرّ يا رسول اللَّه، ما تُركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، فجعل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يمسح عينيه ويقول: «إن عادوا لك فعد لهم بما قلت». فنزلت الآية.

التّفسير

المرتدون عن الإسلام: تكمل هذه الآيات ما شرعت به الآيات السابقة من الحديث عن المشركين والكفار وما كانوا يقومون به، فتتناول الآيات فئة اخرى من الكفرة وهم المرتدون. حيث تقول الآية الاولى: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

تشير الآية إلى نوعين من الذين كفروا بعد إيمانهم:

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۲

النوع الأوّل: هم الذين يقعون فى قبضة العدو الغاشم ويتحملون أذاه وتعذيبه، ولكنّهم لا يصبرون تحت ضغط ما يلاقوه من أعداء الإسلام، فيعلنون براءتهم من الإسلام وولاءهم للكفر، على أنّ ما يعلنوه لا يتعدى حركة اللسان، وأمّا قلوبهم فتبقى ممتلئة بالإيمان.

فهذا النوع يكون مشمولًا بالعفو الإلهى بلا ريب، بل لم يصدر منهم ذنب، لأنّهم قد مارسوا التقية التى أحلّها الإسلام لحفظ النفس وحفظ الطاقات للاستفادة منها فى طريق خدمة دين اللَّه عزّ وجل.

النوع الثانى: هم الذين يفتحون للكفر أبواب قلوبهم حقيقةً، ويغيّرون مسيرتهم ويتخلّون عن إيمانهم، فهؤلاء يشملهم غضب اللَّه عزّ

وجل وعذابه العظيم.

وتتطرق الآيـة التالية إلى أسباب ارتداد هؤلاء، فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْأَخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» الذين يصرّون على كفرهم وعنادهم.

وخلاصـة المقال: حين أسلم هؤلاء تضـررت مصالحهم الماديـة وتعرضت للخطر المؤقت، فندموا على إسـلامهم لشدة حبّهم لدنياهم، وعادوا خاسئين إلى كفرهم.

وبديهى أنّ من لا يرغب فى الإيمان ولا يسمح له بالدخول إلى أعماق نفسه، لا تشمله الهداية الإلهية.

وتأتى الآية الاخرى لتبيّن سبب عدم هدايتهم، فتقول: «أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ» بحيث إنّهم حُرموا من نعمة الرؤية والسمع وإدراك الحقائق:

«وَأُولئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ».

إنّ ارتكاب الذنوب وفعل القبائح يترك أثره السلبى على إدراك الإنسان للحقائق، وتغلق أبواب روحه من تقبّل أيّة حقيقة.

ثم تعرض الآية التالية عاقبة أمرهم، فتقول: «لَاجَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْأَخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

وهل هناك من هو أتعس حالًا من هذا الإنسان الذى خسر جميع طاقاته وإمكاناته لنيل السعادة الدائمة بإتباعه هوى النفس.

وبعـد ذكر الفئتين السـابقتين، أى الـذين يتلفظون بكلمات الكفر وقلوبهم ملأى بالإيمان، والـذين ينقلبون إلى الكفر مرّة اخرى بكامل اختيـارهم ورغبتهم، فبعـد ذلـك تتطرق الآيـة التاليـة إلى فئة ثالثـة وهم البسـطاء المخـدوعون فى دينهم، فتقـول: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ».

فالآية دليل واضح على قبول توبة المرتد.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۳

وتأتى الآيـة الأخيرة لتقدّم تذكيراً عاماً بقولها: «يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا» لتنقذها من العقاب والعذاب. ولكن ... لا فائدة من كل ذلك ... «وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ».

وَ ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَـةً كـانَتْ آمِنَـةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَـا رِزْقُهَا رَغَـداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (۱۱۲) وَ لَقَـدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَـذَّبُوهُ فَأَخَـذَهُمُ الْعَـذَابُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ (۱۱۳) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبـاً وَ اشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (۱۱۴)

الـذين كفروا فأصابهم العـذاب: قلنا مراراً: إنّ هـذه السورة هى سورة النِعم، النعم الماديـة والمعنوية وعلى كافة الأصـعدة، وقد مرّ ذكر ذلك فى آيات متعددة من هذه السورة المباركة، وتصوّر لنا الآيات أعلاه عاقبة الكفر بالنعم الإلهية على شكل مثل واقعى.

ويبتدأ التصوير القرآنى بضـرب مثل لمن لم يشـكر نعمة اللَّه عليه: «وَضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً» لا تضطر إلى هجرة إجباريةٍ، بل تعيش فى أمن وأمان (مطمئنة) ومضافاً إلى ذلك «يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ».

ولكن حالها قد تبدّل فى النهاية «فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ».

وإضافة لاستكمال نعم اللَّه المادية عليهم، فقد أضاف لهم من النعم المعنوية ما يستقر به حالهم فى الدنيا، ويدام لهم ذلك فى الآخرة، فبعث بين ظهرانيهم رسل وأنبياء وأرسلت إليهم التعاليم السماوية «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ».

فكانت النتيجة أن: «فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ».

وإنّكم حين تطّلعون على هـذه النماذج الواقعيـة من الامم السابقـة، فاعتبروا بها ولا تنهجوا طريق اولئك الغافلين الظالمين من الكافرين بأنعم اللَّه «فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ».

يحتمل حدثت هذه القصّة لجمع من بنى إسرائيل فى منطقة ما، وأنّهم ابتلوا بالقحط والخوف على أثر كفرانهم بنعم اللَّه.

ومما یؤید ذلک ما روی- فی العیاشی- عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «إنّ قوماً کان فی بنی

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۴

إسرائیل یؤتی لهم من طعامهم حتی جعلوا منه تماثیل بمدن کانت فی بلادهم یستنجون بها فلم یزل اللّه بهم حتی اضطرّوا إلی التماثیل یبیعونها ویأکلون منها وهو قول اللّه: ضرب اللّه مثلًا».

وثمّة احتمال آخر وهو أنّ الآیة تشیر إلی قوم «سبأ» الذین عاشوا فی الیمن، وقد ذکر القرآن الکریم قصّتهم فی الآیات (۱۵- ۱۹) من سورة سبأ، وکیف أنّهم کانوا یعیشون علی أرض ملؤها الثمار والخیرات فی أمن وسلام، حتی أصابهم الغرور والطغیان والإستکبار وکفران النعم الإلهیة، فأهلکهم اللّه وشتّت جمعهم وجعلهم عبرة للآخرین.

فالتعبیر إشارة إلی أنّ القحط والخوف کانا من الشدة وکأنّهما لباس قد أحاط بأبدانهم من کل الجهات، وأبدانهم فی تماس معه.

وعرض الحادثة ما هو إلّاتنبیه للناس ولکل الأمم الغارقة بالنعم الإلهیة، علی أنّ الإسراف والتبذیر وتضییع النعم لا ینجو من عقوبة وغرامة ثقیلة الوقع.

وهو تنبیه أیضاً للذین یرمون نصف غذائهم (الزائد عن الحاجة) فی أکیاس الأوساخ دائماً.

وهو تنبیه للذین یجمعون المواد الغذائیة فی بیوتهم لاستعمالهم الخاص، ویملؤون مخازنهم إنتظاراً لارتفاع سعرها فی الأسواق حتی یفسد ویذهب هباءً من غیر أن یستفیدوا من بیعها بسعر مناسب قبل فسادها.

نعم، فلا یخلو أی عمل مما ذکر من عقوبة إلهیة، وأقل ما یعاقبون به هو سلب تلک النعم عنهم.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَیْکُمُ الْمَیْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِیرِ وَ مَا أُهِلَّ لِغَیْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَیْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۱۵) وَ لَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُکُمُ الْکَذِبَ هذَا حَلَالٌ وَ هذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ إِنَّ الَّذِینَ یَفْتَرُونَ عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ لَا یُفْلِحُونَ (۱۱۶) مَتَاعٌ قَلِیلٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِیمٌ (۱۱۷) وَ عَلَی الَّذِینَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَیْکَ مِنْ قَبْلُ وَ مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَ لکِنْ کَانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ (۱۱۸) ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِینَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِکَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۱۹)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵

لا یفلح الکاذبون: بعد أن تحدثت الآیات السابقة عن النعم الإلهیة ومسألة شکر النعمة، تأتی الآیات أعلاه لتتحدث عن آخر حلقات الموضوع وتطرح مسألة المحرمات الواقعیة وغیر الواقعیة لتفصل بین الدین الحق وبین البدع التی احدثت فی دین اللّه، وتشرع بالقول: «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَیْکُمُ الْمَیْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِیرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَیْرِ اللَّهِ بِهِ» «۱».

إنّ تلوّث هذه المواد الثلاث بات الیوم لیس خافیاً علی أحد، فالمیتة مصدر لأنواع الجراثیم، والدم من أکثر مکوّنات البدن تقبّلًا للتلوّث بالجراثیم، وأمّا لحم الخنزیر فیعتبر سبباً للإصابة بالکثیر من الأمراض الخطرة.

أمّا فلسفة تحریم ما یذبح لغیر اللّه فلیست صحیة، بل هی أخلاقیة ومعنویة.

فمن جهة یکون التحریم حرباً علی الشرک وعبادة الأصنام، ومن جهة اخری یکون دعوة إلی خالق هذه النعم.

ویستفاد من المحتوی العام للآیة والآیات التالیة أنّ الإسلام یوصی بالإعتدال فی تناول اللحوم، فلا یکون المسلم کالذین حرّموا علی أنفسهم تناول اللحم واکتفوا بالأغذیة النباتیة، ولا کالذین أحلّوا لأنفسهم أکل اللحوم أیّاً کانت کأهل الجاهلیة والبعض ممن یدّعی التمدّن فی عصرنا الحاضر، ممن یجیزون أکل کل لحم (کالسحالی والسرطان وأنواع الدیدان).

وفی نهایة الآیة سیاقاً مع الأسلوب القرآنی، ذُکرت الحالات والموارد الاستثنائیة، یقول: «فَمَنِ اضْطُرَّ». کأن یکون فی صحراء ولا یملک غذاء؛ «غَیْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِیمٌ».

«باغ» أو الباغی: (من البغی) بمعنی «الطلب» ویأتی هنا بمعنی طلب اللذة أو تحلیل ما حرّم اللّه. و «عاد» أو العادی: (من العدو) أی «التجاوز» ویأتی هنا بمعنی أکل المضطر لأکثر من حد الضرورة.

وتأتى الآية التالية لتطرح موضوع تحريم المشركين لبعض اللحوم بلا سبب أو دليل، والذى تطرّق القرآن إليه سابقاً بشكل غير مباشر، فتأتى الآية لتطرحه صراحة حيث

---

(١) «اهِلّ»: من الإهلال، مأخوذُ من الهلال، بمعنى إعلاء الصوت عند رؤية الهلال، وباعتبار أنّ المشركين كانوا إذا ذبحوا حيواناتهم للأصنام صرخوا عالياً بأسماء أصنامهم، فقد عبّر عنه ب «اهِلَّ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۵۶

تقول: «وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذَا حَللٌ وَهذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ». أى: إنّ ما جئتم به ليس إلّاكذبة صريحة أطلقتها ألسنتكم فى تحليلكم أشياء بحسب ما تهوى أنفسكم، وتحريمكم لأخرى! (إشارة إلى الأنعام التى حرّمها البعض على نفسه، والبعض الآخر حللها لنفسه بعد أن جعل قسماً منها لأصنامه).

فهل أعطاكم اللَّه حقّ سنّ القوانين؟ أم أنّ أفكاركم المنحرفة وتقاليدكم العمياء هى التى دفعتكم لإحداث هذه البدع؟ ... أوَ ليس هذا كذباً وافتراءاً على اللَّه؟

ويحذّر القرآن فى آخر الآية بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَايُفْلِحُونَ».

لأنّ من مسببات الشقاء الأساسية الكذب والإفتراء على أى إنسان، فكيف به إذا كان على اللَّه عزّ وجل؟ فلا أقل والحال هذه من مضاعفة آثاره السيئة.

وتوضّح الآية التالية ذلك الخسران، فتقول: «مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ويمكن أن تكون «مَتَاعٌ قَلِيلٌ» إشارة إلى أجنّة الحيوانات الميتة التى كانوا يحللونها لأنفسهم ويأكلون لحومها.

ويطرح السؤال التالى: لماذا حرّمت على اليهود محرّمات إضافية؟

الآية التالية كأنّها جواب على السؤال المطروح، حيث تقول: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ».

وهو إشارة إلى ما ذكر فى الآية (١۴۶) من سورة الأنعام: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذى ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ».

وحقيقة هذه المحرمات الإضافية العقاب والجزاء لليهود جرّاء ظلمهم، ولذلك يقول القرآن الكريم فى آخر الآيات مورد البحث: «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

وفى آخر آية من الآيات مورد البحث، وتمشّياً مع الاسلوب القرآنى، يبدأ القرآن بفتح أبواب التوبة أمام المخدوعين من الناس والنادمين من ضلالهم، فيقول: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وفى هذه الآية ملاحظتان:

أوّلًا: اعتبرت علة ارتكاب الذنب «الجهالة» والجاهل المذنب يعود إلى طريق الحق بعد ارتفاع حالة الجهل.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۵٧

ثانياً: إنّ الآية لا تحدّد الموضوع بالتوبة القلبية والندم، بل تؤكّد على أثر التوبة من الناحية العملية وتعتبر الإصلاح مكمّلًا للتوبة، لتبطل الزعم القائل بإمكان مسح آلاف الذنوب بتلفظ «أستغفر اللَّه».

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَ هَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَ آتَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢۴)

کان إبراهیم لوحده امّة: کما قلنا مراراً بأنّ هذه السورة هی سورة النعم، وهدفها تحریک حس الشکر لدی الإنسان بشکل یدفعه لمعرفة خالق وواهب هذه النعم، والآیات تتحدث عن مصداق کامل للعبد الشکور للّه، ألا وهو «إبراهیم» بطل التوحید، وأوّل قدوة للمسلمین عامة وللعرب خاصة، والآیات تشیر إلی خمس من الصفات الحمیدة التی کان یتحلّی بها إبراهیم علیه السلام.

۱- «إِنَّ إِبْرَهِیمَ کَانَ أُمَّةً». إنّ «امّة» اسم مفعول یطلق علی الذی تقتدی به الناس وتنصاع له. کان إبراهیم علیه السلام منبعاً لوجود امّة ولهذا أطلق القرآن علیه کلمة «امّة».

نعم فقد کان إبراهیم أمّة وکان إماماً عظیماً، وکان رجلًا صانع امّة، وکان منادیاً بالتوحید وسط بیئة اجتماعیة خالیة من أیّ موحّد.

۲- صفته الثانیة فی هذه الآیات: أنّه کان «قَانِتًا لِّلَّهِ».

۳- وکان دائماً علی الصراط المستقیم سائراً علی طریق اللّه، طریق الحق «حَنِیفًا».

۴- «وَلَمْ یَکُ مِنَ الْمُشْرِکِینَ» بل کان نور اللّه یملأ کل حیاته وفکره، ویشغل کل زوایا قلبه.

۵- وبعد کل هذه الصفات، فقد کان «شَاکِرًا لِّأَنْعُمِهِ».

وبعد عرض الصفات الخمسة یبیّن القرآن الکریم النتائج المهمة لها، فیقول:

۱- «اجْتَبَهُ» للنبوة وإبلاغ دعوته.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸

۲- «وَهَدَیهُ إِلَی صِرَاطٍ مُّسْتَقِیمٍ»، وحفظه من کل انحراف، لأنّ الهدایة لا تأتی لأحد عبثاً، بل لابدّ من توفّر الإستعداد والأهلیة لذلک.

۳- «وَءَاتَیْنهُ فِی الدُّنْیَا حَسَنَةً». «الحسنة»: فی معناها العام کل خیر وإحسان، فتشمل منح مقام النبوة، مروراً بالنعم المادیة حتی نعمة الأولاد وما شابهها.

۴- «وَأَنَّهُ فِی الْأَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِینَ». ومع أنّ إبراهیم کان علی رأس الصالحین فی الدنیا، فإنّه سیکون منهم فی الآخرة کما أخبرنا بذلک القرآن الکریم، وهذه دلالة علی عظمة مقام الصالحین بأن یحسب إبراهیم علیه السلام علی ما له من مقام سام کأحدهم فی دار الآخرة، ولِم لا یکون ذلک وقد طلب إبراهیم علیه السلام ذلک من ربّه حین قال: «رَبِّ هَبْ لِی حُکْمًا وَأَلْحِقْنِی بِالصَّالِحِینَ».

۵- وختمت عطایا اللّه عزّ وجل لإبراهیم علیه السلام لما ظهر منه من صفات متکاملة، بأن جعل دینه عامّاً وشاملًا لما ما سیأتی بعده من أزمان- وخصوصاً للمسلمین- ولم یجعل دینه مختصاً بعصر أهل زمانه، فقال اللّه عزّ وجل: «ثُمَّ أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَهِیمَ حَنِیفًا» (۱).

ویأتی التأکید مرّة اخری: «وَمَا کَانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ».

وبملاحظة الآیات السابقة یبدو لنا هذا السؤال: إن کان دین الإسلام هو نفس دین إبراهیم وأنّ المسلمین یتّبعون سنن إبراهیم علیه السلام فی کثیر من المسائل ومنها إحترام یوم الجمعة، فلماذا اتّخذ الیهود یوم السبت عیداً لهم بدلًا من الجمعة ویعطلون فیه أعمالهم؟

إنّ آخر آیة من الآیات مورد البحث تجیب علی السؤال المذکور حین تقول: «إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَی الَّذِینَ اخْتَلَفُوا فِیهِ». أی: إنّ السبت وما حرّم فی السبت کان عقوبة للیهود، وقد اختلفوا فیه أیضاً، فمنهم مَن قبله ومنهم مَن أهمله.

وتقول بعض الروایات: أنّ موسی علیه السلام دعا قومه- بنی اسرائیل- لاحترام یوم الجمعة وتعطیل أعمالهم فیه، وهو دین إبراهیم علیه السلام إلّاإنّهم تعللوا، واختاروا یوم السبت، فجعله اللّه عطلة لهم ولکن بضیق وشدّة، ولهذا لا ینبغی الإعتماد علی تعطیل یوم السبت، لأنّه إنّما کان استثنائیاً وذا طابع جزائی، وأفضل دلیل علی هذا الأمر أنّ الیهود أنفسهم اختلفوا فی یومهم

(۱) «الحنیف»: بمعنی الذی یترک الإنحراف ویتّجه إلی الإستقامة والصلاح. وبعبارة اخری: یغضّ نظره عن الأدیان والأوضاع المنحرفة ویتوجّه نحو صراط اللّه المستقیم، الدین الموافق للفطرة، ولهذا یسمی الصراط المستقیم، فالتعبیر بالحنیف یحمل بین طیّاته إشارة خفیّة

إلى أنّ التوحيد هو دين الفطرة.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۵۹

المنتخب هذا، فبعض إحترمه وبعض آخر خالف ذلك وأدام العمل والكسب فيه حتى أصابهم عذاب اللَّه. ويقول القرآن الكريم فى آخر الآية: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَ إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢۶) وَ اصْبِرْ وَ مَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)

عشرة قواعد أخلاقية ... سلاح داعية الحق: حملت آيات السورة بين طيّاتها أحاديث كثيرة ومتنوعة، فقد تناولت المشركين واليهود وأصناف المخالفين بشكل عام، تارة بلهجة ليّنة واخرى باسلوب تقريع وشدّة، وخصوصاً الآيات السابقة لما لها من عمق وشدّة أكثر مما سبقها من الآيات المباركات. أمّا الآيات أعلاه والتى تمثّل خاتمة بحوث وأحاديث سورة النحل، فتبيّن أهم الأوامر الأخلاقية الأساسية التى ينبغى التحصّن بها عند مواجهة المخالفين على أساس منطقى، كما وتبيّن كيفية العقاب والعفو واسلوب الصمود أمام مؤامراتهم وما شابه ذلك.

ويمكن تسمية ذلك بالأصول التكتيكية ومنهج المواجهة فى الإسلام ضد المخالفين، كما وينبغى العمل به كقانون كلّى شامل لكل زمان ومكان.

ويتلخص هذا البرنامج الربانى بعشرة اصول، تمّ ترتيبها وفقاً لتسلسل الآيات مورد البحث:

١- «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبّكَ بِالْحِكْمَةِ»: فأوّل خطوة على طريق الدعوة إلى الحق هى التمكّن من الاستدلال وفق المنطق السليم، أو النفوذ إلى داخل فكر الناس ومحاولة تحريك وإيقاظ عقولهم، كخطوة اولى فى هذا الطريق.

٢- «وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ»: وهى الخطوة الثانية فى طريق الدعوة إلى اللَّه، بالاستفادة من

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۶٠

عملية تحريك الوجدان الإنسانى، وذلك لما للموعظة الحسنة من أثر دقيق وفاعل على عاطفة الإنسان وأحاسيسه، وتوجيه مختلف طبقات الناس نحو الحق.

٣- «وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ»: الخطوة الثالثه تختص بتخلية أذهان الطرف المخالف من الشبهات العالقة فيه والأفكار المغلوطة ليكون مستعداً لتلقى الحق عند المناظرة.

وفى ذيل الآية الاولى، يقول القرآن: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».

فالآية تشير إلى أنّ وظيفتكم هى الدعوة إلى طريق الحق بالطرق الثلاثة المتقدمة، أمّا مسألة من الذى سيهتدى ومن سيبقى على ضلاله، فعلم ذلك عند اللَّه وحده سبحانه.

۴- إنصبّ الحديث فى الأصول الثلاثة حول البحث المنطقى والاسلوب العاطفى والمناقشة المعقولة مع المخالفين، وإذا حصلت المواجهة معهم ولم يتقبّلوا الحق وراحوا يعتدون، فهنا يأتى الأصل الرابع: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ».

۵- «وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لّلصَّابِرِينَ». فى تفسير العياشى: إنّ الآية نزلت يوم احد لمّا رأى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ما صنع بحمزة بن عبد المطلب (فشقوا بطنه وأخذت هند بنت عتبة كبده فجعلت تلوكه وجدعوا أنفه وأذنه) قال: «اللّهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان على ما أرى». ثم قال: «لئن ظفرت لأمثلن ولأمثلن».- وعن ابن عباس قال قال رسول اللَّه:

«لأمثلن بسبعين رجلًا منهم».- فأنزل اللَّه: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لّلصَّابِرِينَ». قال فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «أصبر أصبر».

ربّما كانت تلك اللحظة من أشد لحظات حياة النبى صلى الله عليه و آله ولكنّه تمالك زمام امور نفسه واختار الطريق الثانى، طريق العفو والصبر.

۶- «وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ»: والصبر إنّما يكون مؤثّراً وفاعلًا إذا قصد به رضوانه تعالى ولا يلحظ فيه أىّ شىء دون ذلك.

۷- وإذا لم ينفع الصبر فى التبليغ والدعوة إلى اللّه، ولا العفو والتسامح، فلا ينبغى أن يحلّ اليأس فى قلب المؤمن أو يجزع، بل عليه الاستمرار فى التبليغ بسعة صدر وهدوء أعصاب أكثر، ولهذا يقول القرآن الكريم فى الأصل السابع: «وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ».

۸- «وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ»: فمهما كانت دسائس العدو العنيد واسعة ودقيقة وخطرة فلا ينبغى لك ترك الميدان، لظنّك أن قد وقعت فى زواية ضيّقة وحصار محكم، بل

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۶۱

لابد من التوكل على اللّه، وسوف تفشل كل الدسائس وتبطل مفعولها بقوة الإيمان والثبات والمثابرة والعقل والحكمة.

و آخر آية من سورة النحل تعرض الأمرين التاسع والعاشر حيث تقول: ۹- «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا»: التقوى فى جميع أبعادها وبمفهومها الواسع، ومنها: التقوى فى مواجهة المخالفين بمراعاة اصول الأخلاق الإسلامية عند المواجهة، فمع الأسير لابد من مراعاة أصول المعاملة الإسلامية، ومع المنحرف ينبغى مراعاة الإنصاف والأدب والتورّع عن الكذب والإتهام، وفى ميدان القتال لابد من التعامل على ضوء التعليمات العسكرية وفق الموازين والضوابط الإسلامية، فمثلًا: ينبغى عدم الهجوم على العزّل من الأعداء، وعدم التعرض للأطفال والنساء والعجزة، ولا التعرض للمواشى والمزارع لأجل إتلافها، ولا يقطع الماء على العدو ... وخلاصة القول: تجب مراعاة اصول العدل مع العدو والصديق (وطبيعى أن تخرج بعض الموارد عن هذا الحكم إستثناءاً وليس قاعدة).

۱۰- «وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ». وإذا عمل بالإحسان فى محله المناسب، فإنّه أفضل اسلوب للمواجهة، والتاريخ الإسلامى يرفدنا بعيّنات رائعة فى هذا المجال ... منها: موقف معاملة النبى صلى الله عليه و آله مع مشركى مكة بعد الفتح.

وبنظرة تأملية ممعنة إلى الأصول العشرة المذكورة، تتبيّن لنا جميع الخطوط الأصلية والفرعية لُاسلوب مواجهة المخالفين، وأنّ هذه الاصول إنّما احتوت كل الاسس المنطقية والعاطفية والنفسية والتكتيكية، وكل ما يؤدّى للنفوذ إلى أعماق نفوس المخالفين للتأثير الايجابى فيها.

ولو عمل المسلمون وفق هذا البرنامج الشامل لساد الإسلام كل أرض المعمورة أو معظمها على أقل التقادير.

«نهاية تفسير سورة النحل»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۶۲

۱۷ سورة الإسراء

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۶۳

أسماء السورة: بالرغم من أنّ الإسم المشهور لهذه السورة هو «بنى إسرائيل» إلّا أنّ لها أسماء اخرى مثل «الإسراء» و «سبحان».

ومن الواضح أنّ ثمة علاقة بين أى اسم من أسماء السورة وبين محتواها ومضمونها، فهى «بنى إسرائيل» لأنّ هناك قسماً مهماً فى بداية السورة ونهايتها يرتبط بالحديث عن بنى إسرائيل.

وإذا قلنا أنّها سورة «الإسراء» فإنّ ذلك يعود إلى الآية الاولى فيها التى تتحدث عن إسراء (ومعراج) النبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

وأمّا تسميتها ب «سبحان» فإنّ ذلك يعود إلى الكلمة الاولى فى السورة المباركة.

محتوى السورة: هذه السورة مكية وفق القول المشهور بين المفسرين، لذا فإنّ محتوى السورة يوافق خصوصيات السور المكية.

وبالامكان فرز المحاور المهمة الآتية التى يدور حولها مضمون السورة:

۱- الإشارة إلى أدلة النبوة الخاتمة وبراهينها، وفى مقدمتها معجزة القرآن وقضية المعراج.

۲- ثمة بحوث فى السورة ترتبط بقضية المعاد.

۳- تتحدّث السورة فى بدايتها ونهايتها عن قسم من تاريخ بنى إسرائيل الملىء بالأحداث.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۶۴

۴- تتعرض السورة إلى حرية الاختيار لدى الإنسان وأنّ الإنسان غير مجبر فى أعماله، وبالتالى فإنّ على الإنسان أن يتحمّل مسؤولية تلك الحريّة من خلال تحمّله لمسؤولية أعماله سواء كانت حسنة أو سيئة.

۵- تبحث السورة قضية الحساب والكتاب فى هذه الدنيا، لكى يعى الإنسان قضية الحساب والكتاب على أعماله وأقواله فى اليوم الآخر.

۶- تشير إلى الحقوق فى المستويات المختلفة، خصوصاً فيما يتعلق بحقوق الأقرباء، وبالأخص منهم الأم والأب.

۷- تتعرض السورة إلى حرمة «الإسراف»، و «التبذير»، و «البخل»، و «قتل الأبناء»، و «الزنا»، و «أكل مال اليتيم»، و «البخس فى المكيال»، و «التكبر»، و «إراقة الدماء».

۸- فى السورة بحوث حول التوحيد ومعرفة اللَّه تعالى

۹- تواجه السورة مواقف العناد والمكابرة إزاء الحق، وأنّ الذنوب تتحوّل إلى حجب تمنع الإنسان من رؤية الحق.

۱۰- تركّز السورة على أفضلية الإنسان على سائر الموجودات.

۱۱- تؤكّد السورة على تأثير القرآن الكريم فى معالجة الأشكال المختلفة من الأمراض الأخلاقية والاجتماعية.

۱۲- تبحث السورة فى المعجزة القرآنية وعدم تمكن الخصوم وعجزهم عن مواجهة هذه المعجزة.

۱۳- تحذّر السورة المؤمنين من وساوس الشيطان وإغواءاته، وتنبههم إلىالمسالك التى ينفذ من خلالها إلى شخصية المؤمن.

۱۴- تتعرض السورة إلى مجموعة مختلفة من القضايا والمفاهيم والتعاليم الأخلاقية.

۱۵- أخيراً تتعرض السورة إلى مقاطع من قصص الأنبياء عليهم السلام ليتسنى للإنسان استكناه الدروس والعبر من هذه القصص.

فى كل الأحوال تعكس سورة الإسراء فى مضمونها ومحتواها العقائدى والأخلاقى والإجتماعى لوحة متكاملة ومتناسقة لسمو وتكامل البشر فى المجالات المختلفة.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من قرأ سورة بنى إسرائيل فى كل ليلة جمعة لم يمت حتى يدرك القائم ويكون من أصحابه».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۶۵

وينبغى أن يلاحظ أنّ التلاوة ينبغى أن تقترن بالتفكر فى معانيها والتأمل فى مفاهيمها، وأن يعقب ذلك جميعاً العمل بها، وتحويلها إلى قواعد يسترشدها الإنسان المسلم فى سلوكه.

سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (۱)

معراج النبى صلى الله عليه و آله: الآية الاولى فى سورة الإسراء تتحدّث عن إسراء النبى صلى الله عليه و آله أى سفره ليلًا من المسجد الحرام فى مكّة المكرمة إلى المسجد الأقصى (فى القدس الشريف). وقد كان هذا السفر «الإسراء» مقدمة لمعراجه صلى الله عليه و آله إلى السماء. وقد لوحظ فى هذا السفر أنّه تمّ فى زمن قياسى حيث إنّه لم يستغرق سوى ليلة واحدة بالنسبة إلى وسائل نقل ذلك الزمن ولهذا كان أمراً اعجازياً وخارقاً للعادة.

السورة المباركة تبدأ بالقول: «سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ».

وقد كان القصد من هذا السفر الليلى الإعجازى هو «لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا».

وبالرغم من أنّ الرسول صلى الله عليه و آله كان عارفاً بعظمة اللَّه سبحانه، وكان عارفاً أيضاً بعظمة خلقه، لقد كان الهدف من هذا السفر الإعجازى أن تمتلىء روح رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أكثر بدلائل العظمة الربانية، وآيات اللَّه فى السماوات، ولتجد روحه السامية فى هذه الآيات زخماً إضافياً يوظّفه صلى الله عليه و آله فى هداية الناس إلى ربّ السماوات والأرض.

ثم خُتمت الآيـة بالقول: «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». وهـذه إشارة إلى أنّ اللَّه تبارك وتعالى لم يختر رسوله ولم يصطفه لشرف الإسراء والمعراج، إلّابعـد أن اختبر استعداده لهـذا الشرف ولياقته لهـذا المقـام، فـاللَّه تبـارك وتعالى سـمع قول رسوله ورأى عمله وسلوكه فاصطفاه للمقام السامى الذى اختاره له فى الإسراء والمعراج «١».

---

(١) من المشهور بين علماء الإسلام أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عندما كان فى مكة أسرى به اللَّه تبارك وتعالى بقدرته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومن هناك صعد به إلى السماء «المعراج» ليرى آثار العظمة الربانية وآيات اللَّه الكبرى فى فضاء السماوات، ثم عاد صلى الله عليه و آله فى نفس الليلة إلى مكة المكرمة.

والمعروف أيضاً أنّ سفر الرسول صلى الله عليه و آله فى الإسراء والمعراج قد تمّ بجسم رسول اللَّه وروحه معاً.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۶۶

إنّ تعبير «أسرى» فى الآية يشير إلى وقوع السفر ليلًا. وبالرغم من أنّ كلمة «ليلًا» جاءت فى الآية تأكيداً لكلمة «أسرى» إلّاأنّها تريد أن تبيّن أنّ سفر الرسول صلى الله عليه و آله قد تمّ فى ليلة واحدة فقط على الرغم من أنّ المسافة بين المسجد الحرام وبيت المقدس تقدّر بأكثر من مائة فرسخ، هذا السفر يقع فى ليلة واحدة فقط.

وَ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ جَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِى إِسْرَائِيلَ أَنْ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِى وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً (٣) وَ قَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً (۴) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَ كَانَ وَعْداً مَفْعُولًا (۵) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (۶) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً (٨)

بعد أن أشارت الآية الاولى فى السورة إلى معجزة إسراء النبى صلى الله عليه و آله كشفت آيات السورة الاخرى عن موقف المشركين والمعارضين لمثل هذه الأحداث، وأبانت استنكارهم لها، وعنادهم إزاء الحق، فى هذا الإتجاه انعطفت الآية الاولى- من الآيات مورد البحث- على قوم موسى، لتقول لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إنّ تأريخ النبوّات واحد، وإنّ موقف المعاندين واحد أيضاً، وأنّه ليس من الجديد أن يقف الشرك القرشى موقفه هذا منك، وبين يديك الآن تأريخ بنى إسرائيل فى موقفهم من موسى عليه السلام. تقول الآية أوّلًا: «وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ».

وصفة هذا الكتاب أنّه: «وَجَعَلْنَهُ هُدًى لِّبَنِى إِسْرَاءِيلَ». والكتاب الذى تعنيه الآية هنا هو «التوراة» الذى نزل على موسى عليه السلام هدى لبنى إسرائيل.

ثم تشير الآية إلى الهدف من بعثة الأنبياء بما فيهم موسى عليه السلام فتقول: «أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلًا».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۶٧

إنّ التوحيد فى العمل هو واحدٌ من معالم أصل التوحيد، وهو علامة على التوحيد العقائدى. الآية تقول: لا تتكىء على أحد سوى اللَّه.

ومن أجل أن تحرّك الآية التالية عواطف بنى إسرائيل وتحفّزهم لشكر النعم الإلهية عليهم، خصوصاً نعمة نزول الكتاب السماوى، فإنّها تضع لهم نموذجاً للعبد الشكور فتقول:

«ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ». ولا تنسوا: «إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا».

والآية تخاطب بنى إسرائيل بأنّهم أولاد من كان مع نوح، وعليهم أن يقتدوا ببرنامج أسلافهم وآبائهم فى الشكر لأنعم اللّه.

بعد هذه الإشارة تدخل الآيات إلى تاريخ بنى إسرائيل المليء بالأحداث، فتقول:

«وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرَإِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا».

والمقصود من «الأرض» فى الآية- بقرينة الآيات الاخرى- هى أرض فلسطين المقدسة التى يقع المسجد الأقصى المبارك فى ربوعها.

الآية التى تليها تفصّل ما أجملته من إشارة إلى الإفسادين الكبيرين لبنى إسرائيل والحوادث التى تلى ذلك على أنّها عقوبة إلهية فتقول: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولهُمَا» وإرتكبتم ألوان الفساد والظلم والعدوان «بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ».

وهؤلاء القوم المحاربون الشجعان يدخلون دياركم للبحث عنكم: «فَجَاسُوا خِلَلَ الدّيَارِ». وهذا الأمر لا مناص منه: «وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا».

ثم تشير بعد ذلك إلى أنّ الألطاف الإلهية ستعود لتشملكم، وسوف تعينكم فى النصر على أعدائكم، فتقول: «ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا».

وهذه المنّة واللطف الإلهى بكم على أمل أن تعودوا إلى أنفسكم وتصلحوا أعمالكم وتتركوا القبائح والذنوب لأنّه: «إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا».

إنّ الآية تعبّر عن سنّة ثابتة، إذ إنّ محصلة ما يعمله الإنسان من سوء أو خير تعود لنفسه.

تقول الآية فى وصف المشهد الثانى أنّه حين يحين الوعد الإلهى سوف تغطّيكم جحافل من المحاربين ويحيق بكم البلاء إلى درجة أنّ آثار الحزن والغم تظهر على وجوهكم: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْأَخِرَةِ لِيَسُوا وُجُوهَكُمْ». بل ويأخذون منكم حتى بيت المقدس: «وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۶۸

وسوف لا يكتفون بذلك بل سيحتلّون جميع بلادكم ويدمّرونها عن آخرها:

«وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا». وفى هذه الحالة فإنّ أبواب التوبة الإلهية مفتوحة: «عَسَى رَبُّكُمْ أن يَرْحَمَكُمْ». «وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا». أى: إن عدتم لنا بالتوبة فسوف نعود عليكم بالرحمة، وإن عدتم للإفساد عدنا عليكم بالعقوبة. وإذا كان هذا جزاؤكم فى الدنيا ففى الآخرة مصيركم جهنم:

«وجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا» «۱». الإفسادان التأريخيان لبنى إسرائيل: تحدثت الآيات أعلاه عن فسادين اجتماعيين كبيرين لبنى إسرائيل، يقود كل منهما إلى الطغيان والعلو، وقد لاحظنا أنّ اللّه سلّط على بنى إسرائيل عقب كل فساد، رجالًا أشدّاءً شُجعاناً يذيقونهم جزاء فسادهم وعلوّهم وطغيانهم، هذا مع استثناء الجزاء الأخروى الذى أعدّه اللّه لهم.

يستفاد من تاريخ بنى إسرائيل بأنّ أوّل من هجم على بيت المقدس وخرّبه هو ملك بابل «نبوخذ نصر» حيث بقى الخراب ضارباً فيه لسبعين عاماً، إلى أنّ نهض اليهود بعد ذلك لإعماره وبنائه، أمّا الهجوم الثانى الذى تعرّض له، فقد كان من قبل قيصر الروم «أسبيانوس» الذى أمر وزيره «طرطوز» بتخريب بيت المقدس وقتل بنى إسرائيل. وقد تمّ ذلك فى حدود مائة سنة قبل الميلاد.

وبذلك يحتمل أن تكون الحادثتان اللتان أشارت إليهما الآيات أعلاه هما نفس حادثتى «نبوخذ نصر» و «أسبيانوس».

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (۹) وَ أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (۱۰) وَ يَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (۱۱) وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (۱۲)

---

(۱) «حصير»: مشتقة من «حصر» بمعنى الحبس، وكل شيء ليس له منفذ للخروج يطلق عليه اسم «حصير» ويقال للحصير العادية حصيراً لأنّ خيوطها وموادها نسجت إلى بعضها البعض.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۶۹

أقصر الطرق للهداية والسعادة: الآيات السابقة تحدّثت عن بنى إسرائيل وكتابهم السماوى «التوراة» وكيف تخلّفوا عن برنامج الهداية الإلهية ليلقوا بعض جزائهم فى هذه الحياة الدنيا، والباقى مدّخر ليوم القيامة. وفى هذا المقطع من الآيات، إنتقل الحديث إلى القرآن الكريم، الكتاب السماوى للمسلمين، وآخر حلقة فى الكتب السماوية، فقال تعالى أوّلًا: «إِنَّ هذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ».

إنّ معنى الآية أعلاه، هو أنّ القرآن الكريم يمثّل أقصر وأفضل طرق الإستقامة والثبات والهداية.

وبهذا فإنّ الطريق القويم من وجهة نظر العقائد والأفكار.

العقيدة الأقوم من هذه الزاوية، هى التى توافق بين الإعتقاد والعمل، والظاهر والباطن، الفكر والمنهج، وتدفع الإنسان والجميع نحو اللَّه.

أمّا الأقوم من وجهة نظر القوانين الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسياسية، التى تسود المجتمع.

وأخيراً فإنّ المنهج الأقوم بالنسبة للنظم والسلطات الحاكمة، هو كل ما يدفعها إلى إقامة العدل، والدعوة إلى إشاعة الإنصاف، ومواجهة الظلم والظالمين.

بعد ذلك تشير الآيات إلى موقف الناس فى مقابل الكتاب الأقوم، هذا الموقف الذى ينقسم فيه الناس إلى فئتين، فالاولى يكون حالها كما يقول تعالى: «وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا».

أمّا الفئة الثانية فيكون مصيرها تبعاً لموقفها كما يقول تعالى: «وَأَنَّ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

وإذا كان استخدام «بشارة» واضح هنا بالنسبة للمؤمنين، فهو بالنسبة لغيرهم من غير المؤمنين يقع على معنى السخرية والإستهزاء.

الآية التى بعدها تنساق فى نفس اتجاه البحث وتشير إلى احدى العلل المهمة لعدم الإيمان وتقول بأنّ عجلة الإنسان وتسرّعه وعدم اطلاعه على الامور وإحاطته بها تسوقه إلى أن يساوى فى جهده بين دعائه بالخير وطلبه، وبين دعائه بالشر وطلبه له.

تقول الآية: «وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ». لماذا؟: «وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا».

إنّ استعجال الإنسان واندفاعه فى سبيل تحصيل المنافع لنفسه، تقوده إلى النظرة السطحية للُامور بحيث إنّه لا يحيط الأشياء بالدراسة الشاملة مما يفوّت عليه تشخيص

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٧٠

منفعته الواقعية، وهكذا بنتيجة تعجّله واندفاعه المضطرب يَضيع عليه وجه الحقيقة، ويتغير مضمونها بنظره، فيقود نفسه باتجاه الشر والأعمال السيئة الضارّة. وهكذا ينتهى الإنسان- نتيجة سوء تشخيصه واضطراب مقياسه فى رؤية الخير والحقيقة- إلى أن يطلب من اللَّه الشر، تماماً كما يطلب منه الخير، وأن يسعى وراء الأعمال السيئة، كسعيه وراء الأعمال الحسنة، وهذا الإضطراب وفقدان الموازين هو أسوأ بلاء يصاب به الإنسان ويحول بينه وبين السعادة الحقيقية.

فى محاسن البرقى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إنّما أهلك الناس العجلة، ولو أنّ الناس تثبتوا لم يهلك أحد».

طبعاً هناك باب فى الروايات الإسلامية بعنوان «تعجيل فعل الخير» ففى الكافى عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «إنّ اللَّه يحبّ من الخير ما يعجّل».

إنّ العجلة المذمومة هى التى تكون أثناء البحث والدراسة لمعرفة جوانب العمل المختلفة، أمّا السرعة والعجلة الممدوحتان فهما اللتان يكونان بعد اتخاذ قرار الشروع بالعمل، والتصميم على التنفيذ، لذلك نقرأ فى الروايات: «سارعوا فى عمل الخير». أى: بعد أن يثبت أنّ هذا العمل خير فلا مجال للتأخير والتسويف.

الآية التى بعدها تتحدث عن تعاقب الليل والنهار ومنافع هذا التعاقب، لتجعل من هذا الشاهد مثالًا على معرفة اللَّه والتمعّن بآياته، والمثال أيضاً يفيد معنى التأمل والهدوء ويدعو إلى محاذرة التعجّل والتسرّع. الآية تقول أوّلًا: «وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ». ثم: «فَمَحَوْنَا

ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً». ولنا فى ذلك هدفان: الأوّل: «لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ» حيث تنطلقون نهاراً فى الكسب والعمل والمعاش مستثمرين العطايا الإلهية، وتنعمون ليلًا بالراحة والهدوء والإستقرار. والهدف الثانى فهو: «وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ» لكى لا تبقى شبهة لأحد «وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَهُ تَفْصِيلًا».

وَ كُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٧١

لقد تحدّثت الآيات القرآنية السابقة عن القضايا التى تتصل بالمعاد والحساب، لذلك فإنّ الآيات التى نبحثها الآن تتحدّث عن قضية «حساب الأعمال» التى يتعرض لها البشر، وكيفية ومراحل إنجاز ذلك فى يوم المعاد والقيامة حيث يقول تعالى: «وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَهُ طِرَهُ فِى عُنُقِهِ». «الطائر»: يعنى الطير، ولكن الكلمة هنا تشير إلى معنى آخر كان سائداً ومعروفاً بين العرب؛ إذ كانوا يتفألون بواسطة الطير؛ وكانوا يعتمدون فى ذلك على طبيعة الحركة التى يقوم بها الطير. فمثلًا إذا تحرّك الطير من الجهة اليمنى، فهم يعتبرون ذلك فألًا حسناً وجميلًا، أمّا إذا تحرّك الطير من اليُسرى فإنّ ذلك فى عُرفهم وعاداتهم علامة الفأل السيّء، أو ما يعرف بلغتهم بالتطيّر.

إنّ القرآن يبيّن أنّ التفؤل الحسن والسيّء أو الحظ النحس والجميل، إنّما هى أعمالكم لا غير، والتى ترجع عهدتها إليكم وتتحملون على عاتقكم مسؤولياتها، وهذه الأعمال لا تنفصل عنكم فى الدنيا ولا فى الآخرة.

يقول القرآن بعد ذلك: «وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيمَةِ كِتَابًا يَلْقَهُ مَنشُورًا».

والمقصود من «الكتاب» فى الآية الكريمة هى صحيفة الأعمال لا غير، وهى نفس الصحيفة الموجودة فى هذه الدنيا والتى تثبت فيها الأعمال، ولكنها هنا (فى الدنيا) مخفية عنّا ومكتومة، بينما فى الآخرة مكشوفة ومعروفة.

فى هذه اللحظة يقال للإنسان: «اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا».

يعنى أنّ المسألة- مسألة المصير- بدرجة من الوضوح والعلنية والإنكشاف، بحيث لا مجال لانكارها.

وفى تفسير العياشى عن الإمام الصادق عليه السلام فى قوله «اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ» قال: «يذكر العبد جميع ما عمل، وما كتب عليه، حتى كأنّه فعله تلك الساعة، فلذلك قالوا يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّاأحصاها».

الآية التى بعدها توضّح أربعة أحكام أساسية فيما يخص مسألة الحساب والجزاء على الأعمال، وهذه الأحكام هى:

١- أوّلًا تُقرر أنّ «مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ» حيث تعود النتيجة عليه.

٢- ثم تُقرر أيضاً أنّ «وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا».

وقرأنا نظير هذين الحكمين فى الآية السابعة من هذه السورة فى قوله تعالى: «إِنْ

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٧٢

أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا». ٣- ثم تنتقل الآية لتقول: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . «الوزر»: بمعنى الحمل الثقيل؛ وأيضاً تأتى بمعنى المسؤولية، لأنّ المسؤولية- أيضاً- حمل معنوى ثقيل على عاتق الإنسان.

طبعاً هذا القانون الكلى الذى تُقرره آية «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى لا يتنافى مع ما جاء فى الآية (٢٥) من سورة النحل التى تقول: «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ» لأنّ هؤلاء بسبب تضليلهم للآخرين يكونون فاعلين للذنب أيضاً، أو يُعتبرون بحكم الفاعلين له، ولذلك فهم فى واقع الأمر يتحملون أوزارهم وذنوبهم.

٤- الحكم الرابع يتمثل فى قوله تعالى: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» يقوم ببيان التكليف وإلقاء الحجة.

وَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً (١٦) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (١٧)

مراحل العقاب الإلهى: إنّ موضوع البحث فى هـذه الآيات يُكمّل ما كنّا بصـدد بحثه فى نهاية الآيات السابقة، ولكن بصورة اخرى، إذ تقول الآية الكريمة: «وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا» «۱».

إنّ الآيات التى كُنّا قبل قليل بصـدد بحثها، كانت تتحـدّث عن أنّ العقاب الإلهى لا يمكن أن ينزل بساحة شـخص أو مجموعة أو امّة، من دون أن تكون هناك حجة وبيان للتكليف من قبل الرسل والأنبياء عليهم السـلام والآية التى نحن بصددها الآن، تتحدث عن نفس هذا الأصل ولكن بطريقة اخرى.

إنّ اللّه لا- يُعاقب أو يؤاخـذ أحـداً بالعـذاب، قبل أن يتمّ الحجة عليه، وقبل أن يتّضـح ويسـتبين تكليفه، ففى البدايـة يضع اللّه تعليماته وأوامره أمام الناس، فإذا التزموا بها وأطاعوا فستنالهم سـعادة الدنيا والآخرة. أمّا إذا عصوا وخالفوا ولم يلتزموا الأوامر والنواهى الربانية، فسيحيق بهم العذاب، ويؤدّى إلى هلاكهم.

---

(۱) بالرغم من أنّ كلمة «قول» لها معنى واسع ولكنّها هنا تعنى إعطاء الأمر بالعذاب.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۷۳

إضافـة إلى ذلك، فإنّ التعبير فى الآية الكريمة ينطوى على إشارة مهمة، هى أنّ أغلب المفاسد الاجتماعية تنبع من المترفين، أصـحاب الأموال، البعيدين عن اللّه تعالى، والذين يعيشون حياةً مترفة بعيدة عن الشرع مملوءة بالأهواء والمفاسد.

الآيـة التى بعدها تشير إلى نماذج بهذا الخصوص، على أنّها أصل عام، وقاعدة سارية، إذ تقول: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ» وفقاً لهـذه القاعـدة والسنّة، ثم تضـيف بعـد ذلك: «وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا». أى: إنّ ظلم وذنوب فرد أو مجموعة لا يمكنها أن تكون خافية على العين البصيرة التى لا تنام لرب العالمين.

أمّا لماذا أكّدت الآية على القرون من بعد نوح عليه السلام؟ فقد يكون ذلك بسبب أنّ الحياة قبل نوح عليه السلام كانت حياة بسيطة، والاختلافات التى تقسّم المجتمعات إلى مُترف ومستضعف، كانت بسيطة وضئيلة، لذلك فالعذاب الإلهى لم يشملهم بكثرة.

مَنْ كَانَ يُرِيـدُ الْعَاجِلَـةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيـدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً (۱۸) وَ مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَ سَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (۱۹) كُلًّا نُمِدُّ هؤُلَاءِ وَ هَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (۲۰) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا (۲۱)

طلّاب الـدنيا والآخرة: لقـد تحـدّثت الآيات السابقة عن الذين عصوا أوامر اللّه تعالى، وكيفية هلاكهم، لذا فإنّ هذه الآيات- التى نحن بصددها الآن- تشـير إلى سـبب التمرّد على شـريعة اللّه، والعصـيان لأوامره، وهذا السبب هو حبّ الدنيا، إذ يقول تعالى: «مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا».

«العاجلة»: تعنى النعم الزائلة، أو الحياة الزائلة.

والظريف فى الآية، أنّها لا تقول: إنّ من يسعى وراء الدنيا، ويجعلها كل همّه، يحصل على كل ما يريد، بل قيّدت ذلك بشرطين هما: أوّلًا: سيحصل على جزء مما يريده؛ وأنّ هذا الجزء هو المقدار الذى نريده نحن، أى «مَا نَشَاءُ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۷۴

ثانيا: إنّ جميع الأشـخاص- رغم سـعيهم الدنيوى- لا يحصـلون على هذا المقدار، وإنّما قسم منهم سـيحصل على جزء من متاع الدنيا. وهذا معنى قوله: «لِمَن نُّرِيدُ».

وبناءاً على ذلك، فلا كل طلّاب الدنيا يحصـلون عليها، ولا اولئك الذين يحصـلون على شـىء منها، يحصـلون على ما يريدون. ومسار الحياة اليومية يوضّح لنا هذين الشرطين، إذ ما أكثر الذين يكدّون ليلًا ونهاراً ولكنهم لا يحصلون على شىء.

وما أكثر الذين لهم امنيات كبيرة وطموحات متعددة ومشاريع بعيدة، ولكن لا يحصلون إلّاعلى القليل منها.

والجدير بالإنتباه هنا، أنّ عاقبة هذه المجموعة من الناس، والتى هى نار جهنّم، قد تمّ تأكيدها فى الآية، بكلمتى «مَذْمُومًا» و «مَّدْحُورًا» إذ التعبير الأوّل يأتى بمعنى اللوم، بينما الثانى يعنى الإبتعاد عن رحمة الخالق، وإنّ نار جهنّم تمثّل العقاب الجسدى لهم، أما «مذموم» و «مدحور» فهما عقاب الروح، لأنّ المعاد هو للروح وللجسد، والجزاء والعقاب يكون للإثنين معاً.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى توضيح وضع المجموعة الثانية ومصيرها، وبقرينة المقابلة- وهى أسلوب قرآنى مميّز- يتوضّح الموضوع أكثر إذ يقول تعالى: «وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَشْكُورًا».

بناءاً على ذلك هناك ثلاثة شروط أساسية للوصول إلى السعادة الأبدية، هى:

أوّلًا: إرادة الإنسان: وهى الإرادة التى ترتبط بالحياة الأبدية، ولا تكون مرتبطة باللذّات الزائلة والنعم غير الثابتة، والأهداف المادية.

ثانياً: هذه الإرادة يجب أن لا تكون ضعيفة وقاصرة فى المجال الفكرى والروحى للإنسان، بل إنّها يجب أن تشمل جميع ذرات الوجود الإنسانى، وتدفعه للحركة، ويبذل كل ما يستطيع من السعى فى هذا المجال.

ثالثاً: إنّ كل ما سبق من حديث عن الإرادة فى النقطتين السابقتين، ينبغى أن يقترن بالإيمان؛ الإيمان الثابت القوى. لأنّ أىّ تصميم وجهد، إذا أريد له أن يُثمر يجب أن تكون أهدافه صحيحة، ومصدر هذه الأهداف هو الإيمان باللَّه لا غير.

وقد يتوهم البعض ويلتبس عليه الأمر، ظانّاً أنّ نعم الدنيا هى من نصيب عبيدها وطلّابها فقط، وأنّ طلّاب الآخرة وأهلها محرومون منها، لذلك فإنّ الآية التى بعدها تقف

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۷۵

أمام هذا اللبس، وتمنع هذا الظن، عندما تقول: «كَلًّا نُّمِدُّ هؤُلَاءِ وَهؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبّكَ» لتضيف بعدها بقليل: «وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبّكَ مَحْظُورًا».

هذه النعم هى تعبير عن مقام الرحمانية الإلهية التى تشمل فيوضاتها جميع الناس، المؤمن والكافر ولكن هناك نعم لا تحصى وراء ذلك تختص بالمؤمنين والمحسنين دون غيرهم.

الآية التى بعدها تشير إلى أصل مهم فى هذا الخصوص وتقول: كما أنّ السعى فى هذه الدنيا متفاوت، وتتفاوت معه الأجور، فكذلك الأمر فى الآخرة، ولكن التفاوت الدنيوى محدود، لأنّ الدنيا هى نفسها محدودة، وأمّا الآخرة- ولكونها غير محدودة- فإنّ تفاوتها غير محدود، إذ يقول تعالى: «انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا».

هل الدنيا والآخرة تقعان على طرفى نقيض؟ إنّنا نرى فى كثير من الآيات القرآنية مدحاً وتمجيداً للدنيا وبإمكاناتها المادية، ولكن، وبرغم الأهمية الكبرى التى تختص بها النعم المادية، فإنّ القرآن الكريم استخدم تعابير اخرى تحقّرها وتحطّ منها بقوة.

هذه المعانى المزدوجة إزاء النعم والمواهب المادية، يمكن ملاحظتها أيضاً فى الأحاديث والروايات الإسلامية.

إنّه إذا تمّت الاستفادة من مواهب الدنيا وعطاياها التى تُعتبر من النعم الإلهية؛ ويعتبر وجودها ضرورياً فى نظام الخلق والوجود، وتمّت الاستفادة فى سعادة الإنسان الأخروية وتكامله المعنوى، فإنّ ذلك يعتبر أمراً جيّداً، وتمتدح معه الدنيا، أمّا إذا اعتبرناها هدفاً لا وسيلة، وأبعدناها عن القيم المعنوية والإنسانية، عندها سيُصاب الإنسان بالغرور والغفلة والطغيان والبغى والظلم.

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولًا (۲۲) وَ قَضَى رَبُّكَ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَ لَا تَنْهَرْهُمَا وَ قُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيماً (۲۳) وَ اخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً (۲۴) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (۲۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۷۶

أحكام إسلامية مهمة: الآيات التى نحن بصدد بحثها هى بداية لسلسلة من الأحكام الإسلامية الأساسية، والتى تبدأ بالدعوة إلى التوحيد والإيمان؛ التوحيد الذى يعتبر الأساس والأصل لكل النشاطات الإيمانية، والأعمال الحسنة والبنّاءة. فى البداية تبدأ هذه الآيات

بالتوحيد وتقول: «لَّاتَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ».

إنّها لم تقل: لا تعبد مع اللَّه إلهاً آخر، بل تقول: «لَّاتَجْعَلْ» هذا اللفظ أشمل وأوسع، إذ هو يعنى: لا تجعل معبوداً آخر مع اللَّه لا فى العقيدة، ولا فى العمل، ولا فى الدعاء، ولا فى العبودية. بعد ذلك توضّح الآية النتيجة القاتلة للشرك: «فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا».

إنّ استعمال كلمة «القعود» تدل على الضعف والعجز. ومن هذا التعبير يمكن أن نستفيد أنّ للشرك ثلاثة آثار سيئة جدّاً فى وجود الإنسان، هى:

١- الشرك يؤدّى إلى الضعف والعجز والذلة.

٢- الشرك موجب للذم واللوم، لأنّه خط انحرافى واضح فى قبال منطق العقل، ويعتبر كفراً واضحاً بالنعم الإلهية.

٣- الشرك يكون سبباً فى أن يترك اللَّه سبحانه وتعالى الإنسان إلى الأشياء التى يعبدها، فإنّهم يصبحون «مخذولين» أى بدون ناصر ومعين.

بعد تبيان هذا الأصل التوحيدى، تشير الآيات إلى واحدة من أهم توجيهات الأنبياء عليهم السلام للإنسان، فالآية- بعد أن تؤكّد مرّة اخرى على التوحيد- تقول: «وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا».

كلمة «قضاء» لها مفهوم توكيدى أكثر من كلمة «أمر» وهى تعنى القرار والأمر المحكم الذى لا نقاش فيه، وهذا أوّل تأكيد فى هذه القضية. أمّا التأكيد الثانى الذى يدل على أهمية هذا القانون الإسلامى، فهو ربط التوحيد الذى يعتبر أهم أصل إسلامى، مع الإحسان إلى الوالدين.

أمّا التأكيدان الثالث والرابع فهما يتمثلان فى معنى الإطلاق الذى تفيده كلمة «إحسان» والتى تشمل كل أنواع الإحسان. وكذلك معنى الإطلاق الذى تفيده كلمة «والدين» إذ هى تشمل الأم والأب، سواء كانا مسلمين أم كافرين.

أمّا التأكيد الخامس فهو يتمثل بمجىء كلمة «إحساناً» نكرة، لتأكيد أهميتها وعظمتها.

ثم تنتقل إلى أحد مصاديق هذه العبادة متمثلًا بالإحسان إلى الوالدين فتقول: «إِمَّا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۷۷

يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا» بحيث يحتاجان إلى الرعاية والإهتمام الدائم، فلا تبخل عليهما بأى شكل من إشكال المحبة واللطف ولا تؤذيهما أو تجرح عواطفهما بأقل إهانة حتى بكلمة «اف»: «فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُف «۱» وَلَا تَنْهَرْهُمَا». بل: «وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا». وكن أمامهما فى غاية التواضع «وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا».

إضافة إلى ما ذكرناه، فثمّة ملاحظة لطيفة اخرى يطويها التعبير القرآنى، هذه الملاحظة خطاب للإنسان يقول: إذ أصبح والداك مسنّين وضعيفين وكهلين لا يستطيعان الحركة أو رفع الخبائث عنهما، فلا تنس أنّك عندما كُنت صغيراً كُنت على هذه الشاكلة أيضاً، ولكن والديك لم يقصّرا فى مداراتك والعناية بك، لذا فلا تقصّر أنت فى مداراتهم ومحبتهم.

وقد تحدث من قبل بعض الأبناء انحرافات فيما يتعلق بحقوق الوالدين واحترامهم والتواضع لهم، وقد يصدر هذا العقوق عن جهل فى بعض الأحيان، وعن قصد وعلم فى أحيان اخرى، لذا فإنّ الآية الأخيرة فى بحثنا هذا تشير إلى هذا المعنى بالقول: «رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ». وهذه إشارة إلى أنّ علم اللَّه ثابت وأزلى وأبدى وبعيد عن الإشتباهات، بينما علمكم أيّها الناس لا يحمل هذه الصفات! لذلك فإذا طغى الإنسان وعصى أوامر خالقه فى مجال احترام الوالدين والإحسان إليهم، ولكن بدون قصد وعن جهل، ثم تاب بعد ذلك وأناب، وندم على ما فعل وأصلح، فإنّه سيكون مشمولًا لعفو اللَّه تعالى: «إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا».

إحترام الوالدين فى المنطق الإسلامى: إنّ الإسلام يُعطى التعليمات اللازمة إزاء قضية احترام الوالدين ورعاية حقوقهما، إلّافى قضايا نادرة اخرى.

وعلى سبيل المثال يمكن أن تشير الفقرات الآتية إلى هذا المعنى:

أ) فى أربع سور قرآنية ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد التوحيد مباشرة، وهذا الإقتران يدل على مدى الأهمية التى يوليها الإسلام للوالدين.

ب) إنّ مسألة إحترام الوالدين ورعاية حقهما من المنزلة بمكان، حتى أنّ القرآن

---

(۱) إنّ هذه الكلمة مأخوذ من «الصوت» الذى يخرج من الفم عندما ينفخ الإنسان لتنظيف بدنه أو ملابسه من الغبار الموجود عليها. إنّ الآية تريد أن تقول لا يجوز تجاوز الحدود أمامهما أو إيذاؤهما حتى بمستوى ما تحمله كلمة «أف» من معنى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۷۸

والأحاديث والروايات الإسلامية، تؤكّدان معاً على الإحسان للوالدين حتى ولو كانا مشركين. ج) رفع القرآن الكريم منزلة شكر الوالدين إلى منزلة شكر اللّه تعالى.

د) القرآن الكريم لا يسمح بأدنى إهانة للوالدين، ولا يجيز ذلك.

ه) بالرغم من أنّ الجهاد يعتبر من أهم التعاليم الإسلامية، إلّاأنّ رعاية الوالدين تعتبر أهم منه، بل لا- يجوز إذا أدّى الأمر إلى أذية الوالدين.

و) فى الكافى عن أبى جعفر عليه السلام قال: «قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: إيّاكم وعقوق الوالدين فإنّ ريح الجنة توجد من ميسرة ألف عام ولا يجدها عاقّ».

وفى الكافى عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام قال: «سأل رجل رسول اللّه صلى الله عليه و آله ما حق الوالد على ولده؟ قال: لا يسمّيه باسمه، ولا يمشى بين يديه، ولا يجلس قبله، ولا يستسبّ له». (أى:

لا يفعل شيئاً يؤدّى إلى أن يسبّ الناس والديه).

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (۲۵) وَ آت ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ لَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (۲۶) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (۲۷) وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً (۲۸) وَ لَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَ لَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (۲۹) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (۳۰)

رعاية الإعتدال فى الإنفاق والهبات: مع هذه الآيات يبدأ الحديث عن فصل آخر من سلسلة الأحكام الإسلامية الأساسية، التى لها علاقة بحقوق القربى والفقراء والمساكين، والإنفاق بشكل عام ينبغى أن يكون بعيداً عن كل نوع من أنواع الإسراف والتبذير، حيث تقول الآية: «وَءَاتِ ذَاالْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا».

إنّ كلمة «ذى الْقُرْبَى لها مفهوم عام وتشمل كل الأرحام والمقربين، الّا أنّ أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله هم من أوضح مصاديق القربى له والرسول فى طليعة المخاطبين بالآية الكريمة.

إنّ «التبذير» هو هدر المال فى غير موقعه ولو كان قليلًا، بينما إذا صُرف فى محلّه فلا يعتبر تبذيراً ولو كان كثيراً.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۷۹

الآية التى بعدها هى لتأكيد النهى عن التبذير: «إِنَّ الْمُبَذّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيطِينِ وَكَانَ الشَّيْطنُ لِرَبّهِ كَفُورًا».

لأنّ اللّه أعطاه قدرةً وقوّةً وإستعداداً وذكاءاً خارقاً للعادة، ولكن الشيطان استفاد من هذه الامور فى غير محلّها، أى فى طريق إغواء الناس وإبعادهم عن الصراط المستقيم.

ثم إنّ استخدام «إخوان» تعنى أنّ أعمالهم متطابقة ومتناسقة مع أعمال الشيطان، كالأخوين اللذين تكون أعمالهما متشابهة، أو أنّهم قرناء وجلساء للشيطان فى الجحيم.

ثم أنّ الإنسان قد لا يملك ما يعطيه للمسكين أحياناً، وفى هذه الحالة ترسم الآية الكريمة طريقة التصرف بالنحو الآتى: «وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا».

«ميسور»: مشتقة من «يسر» وهى بمعنى الراحة والسهولة، أمّا هنا فلها مفهوم واسع، يشمل كل كلام جميل وسلوك مقرون بالإحترام والمحبة.

الإعتدال هو شرط فى كل الامور بما فيها الإنفاق ومساعدة الآخرين، لذلك تنتقل الآية للقول: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ». وهذا تعبير جميل يفيد أنّ الإنسان ينبغى أن يكون ذا يد مفتوحة، لا أن يكون مثل البخلاء وكأنّ أيديهم مغلولة إلى أعناقهم بُخلًا وخشية من الإنفاق، ولكن فى نفس الوقت تقرّر الآية أنّ بسط اليد لا ينبغى أن يتجاوز الحد المقرر والمعقول فى الصرف والبذل والعطاء، حتى لا ينتهى المصير إلى الملامة والإبتعاد عن الناس: «وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا».

سؤال: لماذا يجب أن يكون هناك مساكين وفقراء ومحرومون حتى ننفق عليهم؟ أليس من الافضل أن يعطيهم اللّه ما يريدون حتى لا يحتاجون إلى إنفاقنا؟

الجواب: تعتبر الآية الأخيرة بمثابة جواب على هذا السؤال: «إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا». إنّه اختبار لنا، فاللّه قادر على كل شىء، ولكنه يريد بهذا الطريق تربيتنا على روح السخاء والتضحية والعطاء، إضافة إلى ذلك، إذا أصبح أكثر الناس فى حالة الكفاية وعدم الحاجة فإنّ ذلك يقود إلى الطغيان والتمرّد «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَءَاهُ اسْتَغْنَى ؛ لذلك من المفيد أن يبقوا فى حد معين من الحاجة. هذا الحد لا ـ يسبب الفقر ولا ـ الطغيان، من ناحية اخرى يرتبط التقدير والبسط فى رزق الإنسان بمقدار السعى وبذل الجهد (باستثناء بعض الموارد من قبيل العجزة والمعلولين)، وهكذا تقتضى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۸۰

المشيئة الإلهية ببسط الرزق وتقديره لمن يشاء، وهذا دليل الحكمة، إذ تقضى الحكمة بزيادة رزق من يسعى ويبذل الجهد، بينما تقضى بتضييقه لمن هو أقل جهداً وسعياً.

وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً (٣١) وَ لَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَ سَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِى الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً (٣٣) وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣۴) وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣۵)

ستة أحكام مهمة: فى متابعة للأحكام الإسلامية التى أثارتها الآيات السابقة، تتحدث هذه الآيات عن ستة أحكام إسلامية اخرى وردت فى ست آيات.

أوّلًا: تشير الآية إلى عمل قبيح وجاهلى هو من أعظم الذنوب، فتنهى عنه: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ». فرزق هؤلاء ليس عليكم «نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ». أمّا علّة الحكم فهى: «إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطًا كَبِيرًا».

هذه الآية تفيد أنّ الوضع الاقتصادى للعرب فى الجاهلية كان صعباً وسيّئاً. بحيث إنّهم كانوا يقتلون أبناءهم فى بعض الأحيان خوف العيلة والفقر، وهناك كلام بين المفسرين فيما إذا كان العرب فى الجاهلية يدفنون البنات أحياء وحسب، أو أنّهم كانوا يقتلون الأبناء أيضاً خوفاً من الفقر.

وفى الوقت الذى نستغرب فيه ارتكاب الجاهليين لهذه الجرائم بحق النوع البشرى، فإنّ عصرنا الحاضر- وفى أكثر مجتمعاته رُقيّاً وتقدّماً- يعيد تكرار هذه الجريمة ولكن بأسلوب آخر، إذ أنّ العمليات الواسعة فى إسقاط الجنين وقتله خوفاً من الضائقة المالية وازدياد عدد السكان، هى نموذج آخر للقتل.

ثانياً: الآية التى بعدها تشير إلى ذنب عظيم آخر هو الزنا: «وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٨١

لم تقل الآیـة: لاـ تزنوا، بل قالت: لا تقربوا هـذا العمل الشائن، وهـذا الاسـلوب فی النهی فضـلًا عمّا یحمله من تأکیـد، فإنّه یوضّـح أنّ هناک مقـدمات تجر إلی الزنا ینبغی تجنّبها وعـدم مقاربتها، فخیانـة العین تعتبر واحدة من المقدمات، والسـفور والتعرّی مقدمة اخری، الکتب السیئة والأفلام الملوّثة والمجلات الفاسدة ومراکز الفساد کل واحدة مِنها تعتبر مقدمة لهذا العمل.

کذلک فإنّ الخلوة بالأجنبیة (یعنی خلوة المرأة والرجل الأجنبی فی مکان واحد ولوحدهما) یعتبر عاملًا فی إثارة الشهوة.

وأخیراً فإنّ امتناع الشباب عن الزواج خاصـة مع ملاحظة الصـعوبات الموضوعة أمام الطرفین، هی من العوامل التی قد تؤدّی إلی الزنا.

والآیة نهت عن کل ذلک بشکل بلیغ مختصر، ولکنّا نری فی الأحادیث والروایات نهیاً مفصّلًا عن کل واحدة من هذه المقدمات.

فلسفة تحریم الزنا: یمکن الإشارة إلی ثلاثة عوامل فی فلسفة تحریم الزنا، هی:

١- شـیاع حالة الفوضی فی النظام العائلی، وانقطاع العلاقة بین الأبناء والآباء، هذه الرابطة التی تختص بکونها سبباً للتعارف الاجتماعی، بل إنّها تکون سبباً لصیانة الأبناء.

إنّ العلاقـات الاجتماعیـة القائمـة علی أسـاس العلاقات العائلیـة سـتتعرض للانهیار والتصـدّع إذا شاع وجود الابناء غیر الشـرعیین «أبناء الزنا».

وعلاوة علی ذلک، فإنّهم سیحرمون من الحبّ الاسـری الذی یعتبر عاملًا فی الحدّ من الجریمة فی المجتمع الإسـلامی، وحینئذ یتحوّل المجتمع الإنسانی بالزنا إلی مجتمع حیوانی تغزوه الجریمة والقساوة من کل جانب.

٢- لقـد أثبت العلم ودلّت التجـارب علی أنّ إشاعـة الزنا سـبب لکثیر من الأمراض والمآسـی الصـحیة وکل المعطیات تشیر إلی فشـل مکافحـة هـذه الأمراض من دون مکافحـة الزنا. (یمکن أن تلاحظ موجات مرض الإیـدز فی المجتمعات المعاصـرة، ونتائجها الصـحیة والنفسیة المدمّرة).

٣- یجـب أن لاـ ننسـی أنّ هـدف الزواج لیس إشـباع الغریزة الجنسـیة وحسب، بـل المشارکـة فی تأسـیس الحیـاة علی أسـاس تحقیق الإسـتقرار الفکری والأنس الروحی للزوجین. وأمّا تربیـة الأبناء والتعامل مع قضایا الحیاة، فهی آثار طبیعیـة للزواج، وکل هذه الامور لا یمکن لها أن تثمر من دون أن تختص المرأة بالرجل، وقطع دابر الزنا وأشکال المشاعیّة الجنسیة.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٨٢

ثالثاً: الحکم الآخر الذی تشـیر إلیه الآیة التی بعدها، هو احترام دماء البشر، وتحریم قتل النفس حیث تقول: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِی حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ».

إنّ الإسـلام یحـاسب علی أقـل أذی ممکن أن یلحقه الإنسان بالآخرین، فکیف بقضـیة القتل وإراقـة الـدماء؟! وهنا نسـتطیع أن نقول- باطمئنان-: إنّنا لا نری أیّ شـریعة غیر الإسـلام أعطت هذه الحرمة الاسـتثنائیة لدم الإنسان، بالطبع هناک حالات ینتفی معها إحترام دم الإنسان، کما لو قام بالقتل أو ما یوجب إنزال العقوبـة به، لذلک فإنّ الآیة بعد أن تُثبت حرمة الدم کأصل، تشـیر للإسـتثناء بالقول: «إِلَّا بِالْحَقِّ».

إنّ حرمة دم الإنسان فی الإسـلام لا تختص بالمسـلمین وحسب، بل تشـمل غیر المسـلمین أیضاً من غیر المحاربین، والذین یعیشون مع المسلمین عیشة مُسالمة، فإنّ دماءهم- أیضاً- وأعراضهم وأرواحهم مصونة ویحرم التجاوز علیها.

تشـیر الآیـة بعـد ذلک إلی إثبات حق القصاص بالمثل لولی القتیل فتقول: «وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِیِّهِ سُلْطَانًا». ولکن فی نفس الوقت ینبغی لولی المقتول أن یلتزم حـدّ الإعتـدال ولا یسـرف «فَلَا یُسْرِف فِّی الْقَتْلِ إِنَّهُ کَانَ مَنصُورًا». إذ ما دام ولی الدم یتحرّک فی الحدود الشرعیة فإنّه سیکون مورداً لنصرة اللَّه تعالی.

والنهی عن الإسـراف تشـیر إلی واقع کان سائـداً فی الجاهلیـة، والیوم أیضاً یمکن مشاهـدة نماذج لها، فحین یُقتل فرد من قبیلـة معینة،

فإنّها تقوم بهدر الكثير من الدماء البريئة من قبيلة القاتل.

أو أن يقوم أولياء الدم بقتل أناس أبرياء أو الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

رابعًا: الآية التى بعدها تشير إلى حفظ مال اليتيم، والملاحظ أنّ الآية استخدمت نفس اسلوب الآية التى سبقتها، فلم تقل: لا تأكلوا مال اليتيم وحسب، وإنّما قالت: «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيم».

وفى هذا التعبير تأكيد على حرمة مال اليتيم. ولكن قد تكون هذه الآية حجة لبعض الجهلاء الذين سيتركون مال اليتامى يُهدر ويكون عرضة للحوادث بدون أن يكون عليه قيّم، لذلك استثنت بقوله: «إِلَّا بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ». وبناء على هذا الاستثناء يمكن التصرف بأموال اليتامى بشرط حفظ هذه الأموال، وتنميتها وتكثيرها. وهذا الوضع يستمر إلى أن يبلغ اليتيم سن الرشد ويستطيع فكرياً واقتصادياً أن يكون قيّماً على نفسه وأمواله «حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٨٣

خامساً: تشير الآية بعد ذلك إلى الوفاء بالعهد فتقول: «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسُولًا». إنّ الكثير من العلاقات الاجتماعية وخطوط النظام الاقتصادى والمسائل السياسية قائمة على محور العهود، بحيث إذا ضعف هذا المحور وانهارت الثقة بين الناس، فسينهار النظام الاجتماعى وستحل الفوضى

سادساً: آخر حكم من الأحكام الستة، يتصل بالعدل فى الوزن والكيل ورعاية حقوق الناس فى ذلك ومحاربة التطفيف فى الميزان حيث تقول الآية الكريمة: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيم ذلِکَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا».

وعادة، فإنّ الحق والعدل والنظام والحساب، كل هذه الامور تعتبر أصولًا أساسية للحياة، بل وتدخل فى نظام الوجود والخلق، لذلك فابتعاد الناس عن هذا الأصل- خصوصاً بالنسبة لبخس الكيل والتطفيف فى الميزان- يؤدّى إلى إنزال ضربة شديدة بالثقة التى تعتبر جوهر استقرار التعامل الإقتصادى بين الناس.

«قسطاس»: بكسر القاف أو ضمّها على وزن «مقياس» وأحياناً تقاس على وزن «قرآن» بمعنى «الميزان» والبعض يعتبرها كلمة رومية، بينما البعض يرى بأنّها كلمة عربية.

وهناك من يقول بأنّها مركبة من كلمتين هما «قسط» بمعنى العدل و «طاس» بمعنى كفّة الميزان.

وَ لَا تَقْفُ مَا لَيسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِکَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣۶) وَ لَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّکَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذلِکَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّکَ مَكْرُوهاً (٣٨) ذلِکَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْکَ رَبُّکَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (٣٩) أَ فَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً (۴٠)

الإنقياد للعلم: فى الآيات السابقة وقفنا على مجموعة من الاصول والأحكام الإسلامية وفى الآيات التى نبحثها الآن نلتقى مع آخر مجموعة من سلسلة هذه الأحكام حيث تشير الآيات أعلاه إلى عدّة أحكام مهمة:

أوّلًا: فى البداية ينبغى للإنسان المسلم أن يلتزم الدقة فى كل الامور ويجعل العلم رائده

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٨۴

«وَلَا تَقْفُ مَا لَيسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ». وفى النهاية تعلّل الآية عدم اتباع ما دون العمل، فتقول: «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِکَ كَانَ عَنْهُ مَسُولًا».

والسؤال الذى تواجه به الأعضاء المذكورة يعود إلى مسؤولياتها عن الأعمال، إذ السمع مسؤول عن الكلام المشكوك غير الموثق، والبصر عن موارد ادعاء الإنسان للمشاهدة والرؤية مع أنّه لم يشاهد أو يرى، والفؤاد يُسأل عن الأفكار الخاطئة التى تدخل فى الأحكام الخاطئة.

ثانياً: الكبر والغرور: الآية التى بعدها تدعو إلى محاربة الكبر والغرور، وتنهى المؤمنين عن هاتين الصفتين حيث تخاطب النبى صلى الله

عليه و آله بالقول: «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا» «١». وهذه إشارة إلى سلوك المتكبرين والمغرورين الذى يضربون الأرض بعنف أثناء مشيهم لكى يلتفت الناس إليهم، ويرفعون رؤوسهم فى السماء علامة على أفضليتهم المزعومة بين الناس، لهؤلاء تقول الآية: «إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا». إذ مثل هؤلاء كالنملة التى تمشى على صخرة كبيرة وتضرب برجلها عليها، إلّا أن الصخرة تسخر من حماقتها.

ويمكن أن نفهم من خلال هذه الآية، وما ذكر فى القرآن الكريم أنّ التكبر والغرور مرفوضان بشكل عام. لماذا؟ لأنّ الغرور هو مصدر الغربة عن اللَّه وعن النفس السليمة، وهو سبب الخطأ فى الحكم والقضاء، وسبيل ضياع الحق والإرتباط بخط الشيطان والتلوث بأنواع الذنوب.

البرنامج الحياتى العملى لقادة الإسلام يعتبر درساً مفيداً لكل مسلم حقيقى فى هذا المجال.

ففى سيرة الرسول صلى الله عليه و آله نرى أنّه لم يكن يسمح لأحد أن يمشى بين يديه وهو راكب.

ونقرأ- أيضاً- أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان يجلس على التراب تواضعاً، ويأكل الطعام كما يأكله العبيد، وكان يحلب الماعز بنفسه، ويركب الدابة دون غطاء. وقد كان الرسول صلى الله عليه و آله يلتزم هذا السلوك فى كل مواقفه حتى عند فتح مكة.

وفى سيرة الإمام على عليه السلام نقرأ أنّه كان يجلب الماء إلى البيت، وفى بعض الأحيان كان ينظّف البيت.

أمّا فى سيرة الإمام الحسن عليه السلام فنقرأ أنه عليه السلام حج إلى بيت اللَّه عشرين مرّة مشياً على

---

(١) «مَرَح»: على وزن فَرَح، وهى تعنى الفرح الشديد قبال موضوع باطل لا أساس له.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٨٥

الأقدام، والنجائب (المحامل والدواب) تقاد بين يديه، وكان عليه السلام يبيّن أنّ هذا العمل تواضع للَّه تعالى.

أمّا الآية التى بعدها فهى تؤكّد على ما تمّ تحريمه فى الآيات السابقة كالشرك وقتل النفس والزنا وقتل الأولاد والتصرف فى مال اليتيم وإيذاء الوالدين وما شابه ذلك، حيث تقول الآية: «كُلُّ ذلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا».

ومن هذا التعبير يتّضح أنّ اللَّه سبحانه وتعالى ليس فقط لايجبر الإنسان على الذنب، وإنّما لا يريد له (بمعنى لا يرغب ولا يَود) أن يرتكب الذنب أيضاً، وإلّا لو كان الأمر كما يقول أصحاب مذهب الجبر، لما أكد اللَّه سبحانه وتعالى على كراهيه هذه الذنوب.

ثالثاً: لا تكن مشركاً: من أجل التأكيد أكثر على أنّ كل هذه التعليمات إنّما تصدر من الوحى وتتسم بالحكمة، تقول الآية: «ذلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ».

إنّ هذه التعاليم ثابتة عن طريق العقل كما هى ثابتة عن طريق الوحى الإلهى. وعادة ما تكون جميع الأحكام الإلهية على هذه الشاكلة، بالرغم من أنّ الإنسان لا يستطيع فى كثير من الأحيان أن يشخص انسجام جزئيات الأحكام الإلهية مع العقل بحكم عدم كماله، ويبقى بعد ذلك الوحى هو المجال الوحيد لمصداقية دركها والإيمان بها.

بعد ذلك ينتهى الحديث عن مجموع هذه الأحكام بنفس البداية التى انطلق منها، حيث يقول تعالى: «وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ». لماذا؟ لأنّ المصير سيكون «فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا». إنّ الشرك هو أساس جميع الإنحرافات والجرائم والذنوب، لذلك فإنّ هذه المجموعة من الأحكام بدأت بالشرك وانتهت به.

آخر آية- من الآيات التى نبحثها- تشير إلى واحدة من الأفكار الخرافية للمشركين، إذ الكثير منهم كان يعتقد بأنّ الملائكة هم بنات اللَّه، فى حين أنّهم كانوا يعتبرون البنت عاراً وشناراً، وولادتها فى بيت يؤدّى إلى سوء الحظ. القرآن يُساير هذا المنطق فيقول لهم: «أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلِكَةِ إِنثًا».

إنّ البنات- بدون شك- كالبنين، هم عطايا الإله ومواهبه، ولا يوجد أي تفاوت بينهم فى القيمة الإنسانية. هدف القرآن هو مقابلتهم

بمنطقهم فيقول لهم: كيف تنسبون لربّكم ما تحسبوه عاراً لكم؟

بعد ذلك يقول القرآن بأسلوب قاطع: «إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا». إذ هذا الكلام لا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۸۶

يتلاءم مع أى منطق ويعتبر ضعيفاً من عدّة جهات، هى: ١- إنّ الإعتقاد بوجود ابن للّه يعتبر إهانة عظيمة لمحضره المقدّس، لأنّه سبحانه وتعالى ليس بجسم، وليست فيه الصفات الجسمانية، ولا يحتاج فى بقائه إلى النسل. لذا فالإعتقاد بهذا الأمر يدل على عدم المعرفة بالصفات الإلهية.

٢- كيف تعتقدون بأنّ أولاد اللّه كلّهم بنات، فى حين أنّكم ترون البنات أدنى مكانة واحتراماً من الأولاد؟ هذا الإعتقاد السفية يعتبر إهانة اخرى إلى مقام اللّه تبارك وتعالى.

٣- هذا الإعتقاد يعتبر إهانة لمقام ملائكة اللّه الذين يعتبرون من المقربين للعرش، فأنتم تصابون بالرعب بمجرد سماع كلمة «بنت»، فى حين تعتبرون هؤلاء المقربين من العرش إناثاً؟

وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَ مَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً (۴۱) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا (۴۲) سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً (۴۳) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَ إِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (۴۴)

كيف يفرّون من الحق؟ كان الحديث فى الآيات السابقة يتعلق بقضيتى التوحيد والشرك، لذا فإنّ هذه الآيات تتابع هذا الموضوع بوضوح وقاطعية أكبر، ففى البداية تتحدث عن لجاجة بعض المشركين وعنادهم فى قبال أدلة التوحيد فتقول: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا».

«صرّف»: مشتقّة من «تصريف» وتعنى التغيير والتحويل، وكونها على وزن «تفعيل» يؤكّد معنى الكثرة، وبما أنّ القرآن يستخدم تعابير متنوعة وفنوناً كلامية مختلفة من أجل تنبيه المشركين، إذ يستخدم الاستدلال العقلى المنطقى والفطرى أو التهديد والترغيب، لذا فإنّ كلمة «صرّفنا» تناسب هذا التنوع فى هذا المقام.

وهنا قد يطرح هذا السؤال: إذاً ما الفائدة من ذكر كل ذلك، إذا كانت النتائج معكوسة؟

إنّ جواب هذا السؤال واضح، إذ أنّ القرآن لم ينزل لفرد أو لمجموعة خاصه، ولكنه للمجتمع كافة، وطبيعى أنّ جميع الناس ليسوا على منوال المعاندين، إذ هناك الكثير ممن يتّبع

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۸۷

طريق الحق إذا استبانت له أدلته كما فى هذا النوع من الأدلة القرآنية، بالرغم من أنّها تؤدّى بمجموعة اخرى من فاقدى بصيرة القلب إلى المزيد من العناد.

الآية التى بعدها تشير إلى واحد من أدلة التوحيد والذى يعرف بين العلماء والفلاسفة بعنوان «دليل التمانع» إذ الآية تقول للنبى صلى الله عليه و آله: قل لهم: «قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا».

وبما أنّ كل صاحب قدرة يسعى لمدّ قدرته وتكميلها، لذا فإنّ وجود عدّة آلهة يؤدّى إلى التنازع والتمانع فيما بينهم حول الحكم والسلطة فى عالم الوجود.

وبما أنّ كلام المشركين وعباراتهم توحى بأنّهم نزلوا فى إدراكهم للّهعزّ وجلّ إلى مستوى أن يكون طرفاً للنزاع، لذا فإنّ الآية تقول بعد ذلك مباشرة: «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا».

ثم لأجل إثبات عظمة الخالق وأنّه منزّه عن خيالات واعتقادات وأوهام المشركين، تتحدث الآية التالية عن تسبيح كائنات الوجود لذاته المقدّسة إذ تقول: «تُسَبِّحُ لَهُ السَّموَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ». ثم تتطرق الآية إلى أنّ التسبيح لا يقتصر على ما هو موجود فى

السماوات والأرض، وإنّما ليس هناك موجود إلّاويسبّح ويحمد اللَّه، ولكن لا تدركون تسبيحهم: «وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِن لَّاتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ». ومع ذلك:

«إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا». أى: لا يؤاخذكم ولا يعاقبكم بسبب كفركم وشرككم مباشرة، ولكن يمهلكم بالقدر الكافى، ويفتح لكم أبواب التوبة ويتركها مفتوحة لإتمام الحجة.

وَ إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً (۴۵) وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَ إِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً (۴۶) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَ إِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً (۴۷) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (۴۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزل قوله «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ» الآية فى قوم كانوا يؤذون

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۸۸

النبى صلى الله عليه و آله بالليل إذا تلا القرآن وصلّى عند الكعبة، وكانوا يرمونه بالحجارة ويمنعونه عن دعاء الناس إلى الدين، فحال اللَّه سبحانه بينه وبينهم حتى لا يؤذوه. وروى- فى تفسير الكبير- عن ابن عباس، أنّ أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبى صلى الله عليه و آله ويستمعون إلى حديثه، فقال النضر يوماً: ما أدرى ما يقول محمّد غير أنّى أرى شفتيه تتحركان بشيء. وقال أبو سفيان: إنّى لأرى بعض ما يقوله حقّاً. وقال أبو جهل: هو مجنون. وقال أبو لهب: هو كاهن. وقال حويطب بن عبد العزى: هو شاعر. فنزلت هذه الآية: «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ ...».

التّفسير

المغرورون وموانع المعرفة: بعد الآيات السابقة قد يطرح الكثيرون هذا السؤال: رغم وضوح قضية التوحيد بحيث إنّ جميع مخلوقات العالم تشهد بذلك؛ فلماذا- إذن- لا يقبل المشركون هذه الحقيقة ولا ينصاعون للآيات القرآنية بالرغم من سماعهم لها؟

الآيات التى نبحثها يمكن أن تكون جواباً على هذا السؤال، إذ تقول الآية الاولى: «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا». وهذا الحجاب والساتر هو نفسه التعصب واللجاجة والغرور والجهل، حيث تقوم هذه الصفات بصدّ حقائق القرآن عن أفكارهم وعقولهم ولا تسمح لهم بدرك الحقائق الواضحة مثل التوحيد والمعاد وصدق الرسول فى دعوته وغير ذلك.

أمّا الآية التى بعدها فتقول: «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا». أى:

إنّنا غطّينا قلوبهم بأستار لكى لا يفهموا معناه، وجعلنا فى آذانهم ثقلًا. لذلك فإنّهم: «وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا».

ثم يضيف اللَّه تبارك وتعالى مرّة اخرى: «نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ». أى: إنّ اللَّه تعالى يعلم الغرض من استماعهم لكلامك وحضورهم فى مجلسك و «إِذْ هُمْ نَجْوَى يتشاورون ويتناجون «إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا». إذ إنّهم لايأتون إليك من أجل سماع كلامك بقلوبهم وأرواحهم، بل هدفهم هو التخريب، وتصيّد الأخطاء.

الآية الأخيرة خطاب للنبى صلى الله عليه و آله وبالرغم من أنّ عبارة الآية قصيرة، إلّاأنّها كانت قاضية بالنسبة لهذه المجموعة حيث قالت: «انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا». والآية لا تعنى أنّ الطريق غير واضح والحق خاف، بل على أبصارهم غشاوة، وقلوبهم مغلقة دون الإستجابة للحق، وعقولهم معطلة عن الهدى بسبب الجهل والحقد والتعصب والعناد.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۸۹

وَ قَالُوا أَ إِذَا كُنَّا عِظَاماً وَ رُفَاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (۴۹) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً (۵۰) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَ يَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (۵۱) يَوْمَ

يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢)

حتمية البعث ويوم الحساب: الآيات السابقة تحدّثت عن التوحيد وحاربت الشرك، أمّا الآيات التى نبحثها الآن فتتحدّث عن المعاد والذى يعتبر مكمّلًا للتوحيد.

الآيات التى نحن بصددها أجابت على ثلاثة أسئلة- أو شكوك- يثيرها منكرو المعاد، ففى البداية تحكى الآيات على لسان المنكرين استفهامهم: «وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا» «١».

إنّ التعبير القرآنى فى هذه الآية الكريمة يدلل على أنّ الرسول صلى الله عليه و آله كان يبيّن فى دعوته «المعاد الجسمانى» بعد موت الإنسان، إذ لو كان الكلام عن معاد الروح فقط، لم يكن ثمّة سبب لإيراد مثل هذه الإشكالات من قبل المعارضين والمنكرين.

القرآن فى إجابته على هؤلاء يبيّن أنّ قضية بعث عظام الإنسان سهلة وممكنة، بل وأكثر من ذلك، فحتى لو كنتم حجارة أو حديداً: «قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا». وحتى لو كنتم أشدّ من الحجر والحديد وأبعد منهما من الحياة: «أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ». فإنّ البعث سيكون مصيركم.

السؤال التشكيكى الآخر الذى يثيره منكرو المعاد هو: إذا سلّمنا بأنّ هذه العظام المندثرة المتلاشية يمكن أن تعود إلى الحياة، فمن يستطيع أن يقوم بهذا الأمر، ومن الذى له قدرة القيام بهذه العملية المعقّدة للغاية؟

هذا السؤال تصوغه الآية بالقول على لسان المنكرين: «فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا».

القرآن يجيب على هذا السؤال حيث يقول: «قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

بعد الانتهاء من الشك الأوّل والثانى الذى يطلقه المنكرون للمعاد، تنتقل الآيات إلى الشك الثالث الذى تصوغه على لسانهم بهذا السؤال: «فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ». «سينغضون»: مشتقة من مادة «إنغاض» بمعنى مدّ الرأس نحو الطرف المقابل بسبب التعجب.

---

(١) «رُفات»: على وزن «كُرات» وهو معنى يطلق على كل شىء قديم ومتلاش.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٩٠

ما يقصده هؤلاء من سؤالهم هو قولهم: لو اعترفنا بقدرة الخالق على إعادة بعث الإنسان من التراب من جديد، فإنّ هذا يبقى مجرّد وعد لا ندرى متى يتحقق، إذا كان سيحصل هذا فى آلاف أو ملايين السنين القادمة فما تأثيره فى يومنا هذا ... إنّ المهم أن نتحدّث عن الحاضر لا عن المستقبل!

ويجيب القرآن بقوله: «قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا». إنّ يوم المعاد- طبعاً- قريب، لأنّ عمر العالم والحياة على الأرض، مهما طالت، فإنّها فى قبال الحياة الأبدية تعتبر لا شىء، إذ هى مجرّد لحظات سريعة وعابرة وسرعان ما تنتهى.

إضافة إلى ذلك، فإنّ القيامة إذا كانت فى تصوراتنا المحدودة بعيدة فإنّ مقدمة القيامة والتى هى الموت، تعتبر قريبة منا جميعاً، لأنّ الموت هو القيامة الصغرى (إذا مات الإنسان قامت قيامته)، صحيح أنّ الموت لا يمثل القيامة الكبرى، ولكنه علامة عليها ومذكّر بها.

فى الآية التى بعدها إشارة إلى بعض خصوصيات القيامة فى قوله تعالى: «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ». أى: إنّ بعثكم يكون يوم يدعوكم من القبور فتمتثلون لأمره طوعاً أو كرهاً، والآية- بالطبع- تتحدث عن خصوصية يوم القيامة لا عن موعد القيامة.

فى ذلك اليوم ستظنون أنّكم لبثتم قليلًا فى عالم ما بعد الموت (البرزخ) وهو قوله تعالى:

«وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا». إنّ هذا الإحساس سيطغى على الإنسان فى يوم القيامة، وهو يظن أنّه لم يلبث فى عالم البرزخ إلّاقليلًا، بالرغم من طول الفترة التى قضاها هناك، وهذه إشارة إلى أنّ حياة البرزخ لا تعتبر فى مدتها شيئاً فى قبال عالم الخلود الاخروى.

وَ قُلْ لِعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ

أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (۵۴) وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً (۵۵) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لَا تَحْوِيلًا (۵۶) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَ يَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً (۵۷)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۹۱

التعامل المنطقى مع المعارضين: الآيات السابقة تعرّضت لقضية المبدأ والمعاد، أمّا الآيات التى نحن بصددها فهى توضّح أسلوب المحادثة والاستدلال مع المعارضين وخصوصاً المشركين، لأنّه مهما كان المذهب عالى المستوى، والمنطق قويّاً، فإنّ ذلك لا تأثير له ما دام لا يتزامن مع اسلوب صحيح للبحث والمجادلة مرفقاً بالمحبة بدلًا من الخشونة، لذا فإنّ أوّل آية من هذه المجموعة تقول: «وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ».

الأحسن من حيث المحتوى والبيان، والأحسن من حيث التلازم بين الدليل ومكارم الأخلاق والأساليب الإنسانية، ولكن لماذا يستعمل هذا الاسلوب مع المعارضين؟

الجواب: إذا ترك الناس القول الأحسن واتبعوا الخشونة فى الكلام والمجادلة ف «إِنَّ الشَّيْطنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ» ويثير بينهم الفتنة والفساد، فلا تنسوا: «إِنَّ الشَّيْطنَ كَانَ لِلْإِنْسنِ عَدُوًّا مُّبِينًا».

وكلمة «عبادى» خطاب للمؤمنين، حيث تعلّمهم الآية اسلوب النقاش مع الأعداء، فقد يحدث فى بعض الأحيان أن يتعامل المؤمنون الجدد بخشونة مع معارضى عقيدتهم ويقولون لهم بأنّهم من أهل النار والعذاب، وأنّهم ضالون، قد يكون هذا الموقف سبباً فى أن يقف المعارضون موقفاً سلبياً إزاء دعوة الرسول صلى الله عليه و آله.

اضافة لذلك، فإنّ الإتهامات التى يطلقها المشركون ضد شخص رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ويتهمونه فيها بالسحر والجنون والكهانة والشعر، قد تكون سبباً فى أن يفقد المؤمنون السيطرة على أنفسهم ويبدأوا بالتشاجر مع المشركين ويستخدموا الألفاظ الخشنة ضدّهم ... القرآن يمنع المؤمنين من هذا العمل ويدعوهم إلى التزام اللين والتلطّف بالكلام واختيار أفضل الكلمات فى اسلوب التخاطب، حتى يأمنوا من إفساد الشيطان.

الآية التى بعدها تضيف: «رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ».

وفى آخر الآية مواساة للرسول صلى الله عليه و آله الذى كان يتأذى ويتألم من عدم إيمان المشركين، إذ يقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا».

إنّ مسؤوليتك- يا رسول اللَّه- هى الإبلاغ الواضح، والدعوة الحثيثة نحو الحق، فإذا آمنوا فهو الأفضل، وإن لم يؤمنوا فسوف لن يصيبك ضرر.

الآية التالية ذهبت أكثر من الآية السابقة فى التعبير عن إحاطة اللَّه تبارك وتعالى وعلمه بأعمال ونيات عباده، فقالت: «وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». ثم أضافت:

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۹۲

«وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا».

هذا التعبير القرآنى جواب على أحد أسئلة المشركين وشكوكهم، حيث كانوا يقولون- باسلوب استهزائى- لماذا انتخب اللَّه للنبوة محمّد اليتيم، ثم ما الذى حصل حتى أصبح هذا اليتيم ليس نبياً وحسب، وإنّما خاتم الأنبياء. القرآن يقول لهؤلاء: لا تعجبوا من ذلك، لأنّ اللَّه عليم بقيمة كل إنسان، وهو سبحانه وتعالى ينتخب أنبياءه من بين عامّة الناس، ويفضّل بعضهم على بعض، إذ جعل أحدهم (خليل اللَّه) والآخر (كليم اللَّه) والثالث (روح اللَّه)، أمّا نبينا فقد أنتخبه بعنوان (حبيب اللَّه).

وباختصار: لقد فضّل اللَّه بعض النبيين على بعض لموازين يعلمها هو وتختص بها حكمته جلّ وعلا.

بالرغم من أنّ داود عليه السلام كان له حكم عظيم ودولة كبيرة وملك واسع، إلّاأنّ اللَّه سبحانه لم يجعل هذه الامور سبباً لإفتخاره، بل اعتبر كتاب الزبور فخره، حتى يدرك المشركون أنّ عظمة الإنسان، ليس لها علاقة بالمال والثروة ووجود الحكومة والسلطة، كما أنّ اليتم والفقر ليس مدعاةً للذل أو دليلًا على الحقارة.

الآية التى تليها تستمر فى اتجاه الآيات السابقة، إذ تقول للرسول صلى الله عليه و آله أن يخاطب المشركين بقوله تعالى: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا».

إنّ هذه الآية- كما فى آيات اخرى كثيرة- تبطل منطق المشركين وتضرب صميم عقيدتهم من هذا الطريق، وهو أنّ عبادة الآلهة من دون اللَّه، إمّا بسبب جلب المنفعة أو دفع الضرر، فى حين أنّ الآلهة التى يعبدونها ليس لها القدرة على حل مشكلة معينة أو حتى تحريكها؛ أى نقل المشكلة من مستوى معين إلى مستوى أقل.

إنّ استخدام تعبير «الذين» فى هذه الآية لا يشمل جميع المعبودات التى يشركها الإنسان مع اللَّه (كالأصنام وغيرها) بل يشمل الملائكة والمسيح وأمثالهم.

بعد ذلك تؤكّد الآية التالية على ما ذكرناه فى الآية السابقة، فتقول: هل تعلمون لماذا لا يستطيع الذين تدعونهم من دون اللَّه أن يحلّوا مشاكلكم، أو أن يجيبوا لكم طلباتكم بدون إذن اللَّه سبحانه وتعالى؟ الآية تجيب على ذلك بأنّ هؤلاء أنفسهم يذهبون إلى بيت اللَّه، ويلجأون للتقرب من الذات الإلهية المقدسة لقضاء حوائجهم وحلّ مشاكلهم وتحقيق ما

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۹۳

يريدونه: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا».

إنّ كلمة «الوسيلة» يشمل كل عمل جميل ولائق، وتدخل فى مفهومها كل صفة بارزة اخرى، لأنّ كل هذه الامور تكون سبباً فى التقرب من اللَّه.

وَ إِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (۵۸) وَ مَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَ آتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَ مَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (۵۹) وَ إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَ مَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَ نُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً (۶۰)

بعد أن تحدثت الآيات السابقة مع المشركين فى قضايا التوحيد والمعاد، تبدأ أوّل آية من هذه الآيات بكلام على شكل نصيحة لتوعيتهم، حيث تجسم هذه الآية النهاية الفانية لهذه الدنيا أمام عقولهم حتى يعرفوا أنّ هذه الدنيا دار زوال وأنّ البقاء الأبدى فى مكان آخر، لذلك ما عليهم إلّاتهيئة أنفسهم لمواجهة نتائج أعمالهم، حيث تقول الآية: «وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا». فالطغاة والظالمون نبيدهم بواسطة العذاب، أمّا الآخرون فيهلكون بالموت أو الحوادث الطبيعية.

وأخيراً، فإنّ هذه الدنيا زائلة والكل يسلك طريق الفناء: «كَانَ ذلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُورًا». و «الكتاب» هنا هو نفس اللوح المحفوظ وهو العلم اللامتناهى للخالق جلّ وعلا، ومجموعة القوانين الإلهية التى لا يمكن التخلف عنها فى عالم الوجود هذا.

وهنا قد يقول المشركون: نحن لا مانع لدينا من الإيمان ولكن بشرط أن يقوم الرسول صلى الله عليه و آله بجميع المعجزات التى نقترحها عليه، أى أن يستسلم لحججنا، القرآن يجيب أمثال هؤلاء بقوله تعالى: «وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْأَيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ».

الآية تشير إلى أنّ اللَّه تبارك وتعالى أرسل معجزات كثيرة وكافية للدلالة على صدق الرسول صلى الله عليه و آله، أمّا ما تقترحونه من معجزات فهى غير مقبولة، لأنّكم بعد وقوعها ومشاهدتها سوف لا تؤمنون، بدليل أنّ الأمم السابقة والتى كانت أوضاعها وحالاتها

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۹۴

مماثلة لأوضاعكم وحالاتكم، اقترحت نفس الإقتراحات ثم لم تؤمن بعد ذلك.

تشير الآية بعد ذلك إلى نموذج واضح لهذه الحالة فتقول: «وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً».

لقـد طلب قوم صالـح الناقـة فاخرجها اللّه لهم من الجبل، وأجيبت بـذلك المعجزة التى طلبوها، وقد كانت معجزة واضـحة وموضّـحة! ولكن بالرغم من كل ذلك «فَظَلَمُوا بِهَا».

وعادة فإنّه ليس من مقتضـيات البرنامـج الإلهى أن يسـتجيب لأىّمعجزة يقترحها إنسان، أو ينصاع إلى تنفيـذها الرسول، ولكن الهدف هو: «وَمَا نُرْسِلُ بِالْأَيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا».

ثم يواسـى اللّه تبارك وتعالى نبيّه صـلى الله عليه و آله فى مقابل عناد المشـركين وإلحاحهم بالباطل، إذ يبيّن له أن ليس هـذا بالشـىء الجديـد: «وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ». ففى قبال دعوة الأنبياء عليهم السـلام هناك دائماً مجموعـة مؤمنـة نظيفـة القلب نقيّة السـريرة، صافيـة الفطرة، فى مقابل مجموعـة اخرى معانـدة مكابرة لجوجـة تتحجـج وتجد لنفسـها المعاذير فى معاداة الدعوات وإيذاء الأنبياء، وهكذا يتشابه الحال بين الأمس واليوم.

ثم يضـيف تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِى أَرَيْنَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ». وامتحاناً لهم، وكذلك الشـجرة الملعونة هى أيضاً امتحان وفتنة للناس: «وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْءَانِ».

وفى الختـام يأتى قوله تعالى: «وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيـدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا». لماذا؟ لأنّه ما دام قلب الإنسان غير مسـتعد لقبول الحق والتسـليم له، فـإنّ الكلام ليس لا يؤثّر فيه وحسب، بل إنّ له آثاراً معكوسـة، حيث يزيـد فى ضـلال هؤلاء وعنادهم بسـبب تعصـبهم ومقاومتهم السلبية وانغلاق نفوسهم عن الحق. (تأمّل ذلك).

رؤيا النبى صـلى الله عليه و آله والشـجرة الملعونة: مجموعة من المفسـرين الشـيعة والسـنّة، نقلوا أنّ هذه الرؤيا إشارة للحادثة المعروفة والتى رأى فيها النبى صـلى الله عليه و آله فى المنام أنّ عـدداً من القرود تصـعد منبره وتنزل منه (تنزو على منبره صـلى الله عليه و آله)، وقـد حزن صـلى الله عليه و آله كثيراً لهـذا الأمر بحيث لم ير ضاحكاً من بعـدها إلّاقليلًا (وقـد تمّ تفسـير هذه القرود التى تنزو على منبر رسول اللّه صـلى الله عليه و آله ببنى أميـة الـذين جلسوا مكان النبى صـلى الله عليه و آله الواحد تلو الآخر، يقلّد بعضـهم بعضاً، وكانوا ممسوخى الشخصية، وقد جلبوا الفساد للحكومة الإسلامية، وخلافة رسول اللّه صلى الله عليه و آله).

ومن الممكن أن تكون (الشجرة الملعونة) فى القرآن إشارة إلى أى مجموعة منافقة وخبيثة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۹۵

ومطرودة من رحمـة اللّه تعـالى ومقـام الربوبيـة، خصوصـاً تلـك المجاميع مثل بنى أميـة واليهود قساة القلب، والمعانـدين وكل الـذين يسيرون على خطاهم. وشـجرة الزقوم فى القيامة تمثّل الأشـجار الخبيثة فى العالم الآخر، وكل هذه الأشـجار الخبيثة (المجاميع المعتيّة) هى لاختبار وتمحيص المؤمنين الصادقين فى الحياة الدنيا.

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَهِْ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (۶۱) قَالَ أَ رَأَيْتَكَ هـذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَهِْ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (۶۲) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً (۶۳) وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ وَ شَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ وَ عِدْهُمْ وَ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً (۶۴) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَ كَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (۶۵)

هذه الآيات تشير إلى قضية امتناع إبليس عن إطاعة أمر اللّه فى السجود لآدم عليه السلام، والعاقبة السيئة التى انتهى إليها.

إنّ طرح هذه القضـية بعد ما ذكر عن المشـركين المعاندين هو إشارة إلى أنّ الشيطان يعتبر نموذجاً كاملًا للإستكبار والكفر والعصيان. ثمّ انظروا إلى أين وصـلت عاقبته، لـذا فإنّ من يتبعه سيصـير إلى نفس العاقبـة. الآيـة تقول: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلِكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ».

إنّ هـذه السـجدة الـتى أمر اللّه تعـالى بهـا هى نـوع مـن الخضـوع والتواضـع بسـبب عظمـة خلـق آدم عليـه السـلام وتميّزه عـن سـائر الموجودات، أو هى سجود للخالق جلّ وعلا فى قبال خلقه لهذا المخلوق المتميز.

فقد سيطر الكبر والغرور على إبليس وتحكّمت الأنانية فى عقله، ظنّاً منه بأنّ التراب والطين اللذان يعتبران مصدراً لكل الخيرات ومنبعاً للحياة أقل شأناً وأهمية من النار، لذا اعترض على الخالق جلّ وعلا وقال: «قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٩۶

ولكنه عندما طرد- إلى الأبد- من حضرة الساحة الإلهية بسبب استكباره وطغيانه فى مقابل أمر اللّه له، قال: «قَالَ أَرَءَيْتَكَ هذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا». «أحتنكن»: مشتقة من «احتناك» وهى تعنى قطع جذور شىء ما. لذا فإنّ هذا القول يشير إلى أنّ إبليس سيحرف كل بنى آدم عن طريق اللّه وطاعته، إلّاالقليل منهم.

ويحتمل أن تكون كلمة «أحتنكن» مشتقة من «حنك» وهى المنطقة التى تحت البلعوم؛ وفى الواقع، فإنّ الشيطان يريد أن يقول بأنّه سيضع حبل الوسوسة فى أعناق الناس ويجرهم إلى طريق الغواية والضلال.

وهكذا كان، فقد أعطى الشيطان إمكانية البقاء والفعالية حتى يتحقق الاختبار للجميع، ويكون وجوده سبباً لتمحيص واختبار المؤمنين الحقيقيين لأنّ الإنسان يشتدّ عزمه عندما تهاجمه الحوادث ويقوى عوده فى مواجهة الأعداء، لذلك قالت الآية: «قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءًا مَّوْفُورًا». وبهذه الوسيلة للاختبار ينكشف الفاشل من الناجح فى الامتحان الإلهى الكبير.

ثم ذكرت الآيات بعد ذلك- باسلوب جميل- الطرق التى ينفذ منها الشيطان والأساليب التى يستخدمها فى الوسوسة والإغواء فقالت:

«وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ...».

«وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ...».

«وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلدِ ...».

«وَعِدْهُمْ ...».

ثم يجىء التحذير الإلهى: «وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطنُ إِلَّا غُرُورًا ...».

ثم اعلم أيّها الشيطان: «إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطنٌ ...». «وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا».

«إستفزز»: مشتقة من «استفزاز» وهى تعنى الإثارة؛ الإثارة السريعة والعادية، ولكن الكلمة فى الأصل تعنى قطع شىءٍ ما. واستعمال هذه الكلمة هنا للدلالة على تحريك الشخص وإثارته لينقطع عن الحق ويتوجه نحو الباطل.

«اجلب»: مأخوذ من «إجلاب» وفى الأصل من «جلبة» وهى تعنى الصرخة الشديدة، والإجلاب تعنى الطرد مع الأصوات والصرخات. وأمّا النهى عن «الجلب» الوارد فى

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٩٧

الروايات فهو إمّا أن يعنى أنّ الذى يذهب إلى المزارع لجمع الزكاة يجب عليه أن لا يصيح ويصرخ بحيث يخيف الأحياء، أو أنّه يعنى أنّ على المتسابقين عند سباق الخيل أن لا يصرخوا فى وجوه الخيل الاخرى لتكون لهم الأسبقية.

«خيل»: لها معنيان، فهى تعنى «الخيول» وأيضاً تعنى (الخيالة)، أمّا فى هذه الآية فقد وردت للتدليل على المعنى الثانى.

أمّا «رَجِل»: فهى تعنى معكوس (الخيالة) أى (جيش الرجّالة والمشاة) وبهذا يتكوّن جيش الشيطان من (الخيالة والرجّالة) من جنسه أو من غير جنسه، وهذا يعنى أنّ البعض يتأثر بسرعة بغواية الشيطان ويصبح من أعوانه ومساعديه فهؤلاء كالخيّالة، أمّا البعض الآخر فيتأثر ببطء وعلى مهل كالمشاة والرجّالة.

رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (۶۶) وَ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً (۶٧) أَ فَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (۶٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً (۶٩)

لماذا الكفران مع كل هذه النعم؟ هذه الآيات تابعت البحوث السابقة فى مجال التوحيد ومحاربة الشرك، ودخلت فى البحث من

خلال طريقين مختلفين، هما: طريق الاستدلال والبرهان، وطريق الوجدان ومخاطبة الإنسان من الداخل. ففى البداية تشير الآية إلى التوحيد الاستدلالى فتقول: «رَّبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ».

طبعاً هناك أنظمة لأجل حركة الفلك فى البحار.

تعلمون- طبعاً- بأنّ السفن تعتبر أضخم وسيلة لحمل الإنسان، واليوم فإنّ هناك من السفن العملاقة ما يكون بعضها بمساحة مدينة صغيرة.

ثم يضيف تعالى: «لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ». حتى تساعدكم فى أسفاركم ونقل أموالكم

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۹۸

وتجارتكم وتعينكم فى كل ما يخصّ امور دنياكم ودينكم. أمّا لماذا؟ فلأنّ اللّه تبارك وتعالى «إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا».

من هذا التوحيد الاستدلالى والذى يعكس جانباً صغيراً من نظام الخلق، وعلم وقدرة وحكمة الخالق جلّ وعلا، تنتقل الآية إلى اسلوب الاستدلال الفطرى فتقول: لا تنسوا «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ». حيث يضل أى شىء من دون اللّه، لأنّ ضرر البحر إذا وقع، كالطوفان وغيره يذهب بكل الحواجز وأستار التقليد والتعصب اللاصقة على صفاء الفطرة الإنسانية، لينكشف نور الفطرة الذى هو نور التوحيد والإيمان والعبودية للّهدون غيره.

إنّ الآية تعبّر عن قانون عام، عرفه كل من جرّب ذلك، حيث تؤدّى المشاكل والصعوبات الحادّة التى يمرّ بها الإنسان- ويصل السكين العظم- إلى الغاء كل الأسباب الظاهرية التى كان يتعلق بها الإنسان، وتنعدم فاعلية العلل المادية التى كان يتشبث بها، وتنقطع كل الأسباب، إلّاالسبب الذى يصل الإنسان بمصدر العلم والقدرة المطلقتين، والذى هو- لوحده سبحانه وتعالى- قادر على حلّ أعقد المشكلات.

ثم تضيف الآية: «فَلَمَّا نَجكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا».

مرّة اخرى تغطّى حجب الغرور والغفلة والتعصّب هذا النور الإلهى، ويغطّى غبار العصيان والذنوب وملاهى الحياة المادية فطرة الإنسان ووجدانه.

ولكن هل تظنون أنّ اللّه لا يستطيع أن ينزل بكم عقابه الشديد وأنتم على اليابسة وفى قلب الصحارى والبرارى؟

لذلك تقول الآية: «أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ». ثم أضافت: «أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَاتَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا».

بعد ذلك تضيف الآية مذكّرة أمثال هؤلاء بأنّكم هل تظنون أنّ هذه هى المرّة الأخيرة التى تحتاجون فيها إلى السفر فى البحر: «أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَاتَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا» «۱». أى: لا أحد حينئذٍ

---

(۱) «حاصب»: تعنى الهواء الذى يحرّك معه الأحجار الصغيرة.

«قاصف»: بمعنى المحطّم، وهى هنا تشير إلى العاصفة الشديدة التى تقلع كل شىء من مكانه.

«تبيع»: بمعنى تابع، وهى تشير هنا إلى الشخص الذى ينهض للمطالبة بالدم، وثمن الدم والثأر ويستمر فى ذلك.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۹۹

يطالب بدمكم ويثأر لكم منّا.

وَ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَ حَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (۷۰) يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (۷۱) وَ مَنْ كَانَ فِى هذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الْآخِرَةِ أَعْمَى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا (۷۲)

الإنسان سيد الموجودات: إنّ واحدة من أبرز طرق الهداية والتربية، هى التنويه بشخصية الإنسان ومكانته ومواهبه، لذا فإنّ القرآن الكريم وبعد بحوثه عن المشركين والمنحرفين فى الآيات السابقة، يقوم هنا بتبيان الشخصية الممتازة للإنسان والمواهب التى منحها إيّاها رب العالمين، لكى لا يلوّث الإنسان جوهره الثمين، ولا يبيع نفسه بثمن بخس، حيث يقول تعالى: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءَادَمَ».

ثم تشير الآيات القرآنية إلى ثلاثة أقسام من المواهب الإلهية التى حباها اللّه لبنى البشر، هذه المواهب هى أوّلًا: «وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرّ وَالْبَحْرِ».

ثم قوله تعالى: «وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ» ومع الالتفات إلى سعة مفهوم (الطيب) الذى يشمل كل موجود طيّب وطاهر تتّضح عظمة وشمولية هذه النعمة الإلهية الكبيرة.

أمّا القسم الثالث من المواهب فينص عليه قوله تعالى: «وَفَضَّلْنَهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا».

لماذا كان الإنسان أفضل المخلوقات؟ إنّا نعلم أنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يتكوّن من قوى مختلفة، مادية ومعنوية؛ جسمية وروحية، وينمو وسط المتضادات، وله استعدادات غير محدودة للتكامل والتقدم.

فى كتاب علل الشرايع عن الإمام على عليه السلام قال: «إنّ اللّه عزّ وجل ركّب فى الملائكة عقلًا بلا شهوة، وركّب فى البهائم شهوة بلا عقل، وركّب فى بنى آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شرّ من البهائم».

الآية التى بعدها تشير إلى موهبة اخرى من المواهب الإلهية التى حباها اللّه للإنسان، ورتّبت عليه المسؤوليات الثقيلة بسبب هذه المواهب. ففى البداية تشير الآية إلى قضية

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٠٠

مختصر الامثل ج٣ ١٤٩

القيادة ودورها فى مستقبل البشر فتقول: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ». يعنى أنّ الذين اعتقدوا بقيادة الأنبياء وأوصيائهم ومن ينوب عنهم فى كل زمان وعصر، سوف يكونون مع قادتهم ويحشرون معهم، أمّا الذين انتخبوا الشيطان وأئمة الضلال والظالمين والمستكبرين قادة لهم، فإنّهم سيكونون معهم ويحشرون معهم. هذا التعبير والإشارة إلى دور الإمامة وكونها من أسباب تكامل الإنسان، يعتبر فى نفس الوقت تحذيراً لكل البشرية كى تدقق فى انتخاب القيادة، ولا تعطى أزمّة وجودها الفكرى والحياتى بيد أىّ شخص كان.

ثم تقسّم الآية الناس يوم القيامة إلى قسمين: «فَمَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا» «١». أمّا القسم الآخر فهو: من كان فى الدنيا أعمى القلب: «وَمَن كَانَ فِى هذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِى الْأَخِرَةِ أَعْمَى . وطبيعى أن يكون هؤلاء العميان القلوب أضلّ من جميع المخلوقات «وَأَضَلُّ سَبِيلًا».

وفى كتاب التوحيد للصدوق عن الإمام الباقر عليه السلام فى قول اللّه عزّ وجلّ «وَمَن كَانَ فِى هذِهِ أَعْمَى قال: «من لم يدله خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، ودوران الفلك والشمس والقمر والآيات العجيبات، على أنّ وراء ذلك أمر أعظم منه، فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلًا».

لذلك نقرأ فى الآيات (١٢٤- ١٢٦) من سورة طه، قوله تعالى: «وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيمَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا* قَالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى .

دور القيادة فى الإسلام: فى الكافى عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السلام ينقل أنّه عندما كان يتحدّث عن الأركان الأساسية فى الإسلام ذكر (الولاية) كخامس وأهم ركن، فى حين أنّ الصلاة التى توضّح العلاقه بين الخالق والخلق، والصيام الذى هو رمز محاربة الشهوات، والزكاة التى تحدّد العلاقة بين الخلق والخالق، والحج الذى يكشف الجانب الاجتماعى فى

(۱) «فتیل»: تعنی الخیط الرقیق الموجود فی شق نوی التمر، وفی المقابل فإنّ «نقیر» تعنی مؤخرة نوی التمر، بینما تعنی «قطمیر» الطبقة الرقیقة التی تغطّی نوی التمر. وکل هذه التعابیر کنایة عن الشیء الصغیر جدّاً والحقیر.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۱

الإسلام، اعتبرت الأرکان الأربعة الأساسیة الاخری. ثم یضیف الإمام الباقر علیه السلام: «ولم یناد بشیء کما نودی بالولایة» لماذا؟ لأنّ تنفیذ الأرکان الاخری لن یتحقق إلّافی ظل هذا الأصل، أی فی ظل الولایة «۱».

وفی تفسیر العیاشی عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «لا تترک الأرض بغیر إمام یحلّ حلال اللّه ویحرّم حرامه وهو قول اللّه: (یوم ندعو کلّ أناس بإمامهم).» ثم قال: «قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: من مات بغیر إمام مات میتة جاهلیّة».

التاریخ یشهد أنّ بعض الامم تکون فی الصف الأوّل بین دول العالم وامه بسبب قیادتها العظیمة والکفوءة، ولکن نفس الامّة تنهار وتسقط فی الهاویة، برغم امتلاکها لنفس القوی البشریة والمصادر الاخری، إذا کانت قیادتها ضعیفة وغیر کفوءة.

وَ إِنْ کَادُوا لَیَفْتِنُونَکَ عَنِ الَّذِی أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ لِتَفْتَرِیَ عَلَیْنَا غَیْرَهُ وَ إِذاً لَاتَّخَذُوکَ خَلِیلًا (۷۳) وَ لَوْ لَا أَنْ ثَبَّتْنَاکَ لَقَدْ کِدْتَ تَرْکَنُ إِلَیْهِمْ شَیْئاً قَلِیلًا (۷۴) إِذاً لَأَذَقْنَاکَ ضِعْفَ الْحَیَاةِ وَ ضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَکَ عَلَیْنَا نَصِیراً (۷۵)

بما أنّ الآیات السابقة کانت تبحث حول الشرک والمشرکین، لذا فإنّ الآیات التی نبحثها تحذّر الرسول صلی الله علیه و آله من وساوس وإغواءات هذه المجموعة، حیث لا یجوز أن یبدی أدنی ضعف فی محاربة الشرک وعبادة الأصنام، بل یجب الاستمرار بصلابة أکبر. فی البدایة تقول الآیة أنّ وساوس المشرکین کادت أن تؤثّر فیک: «وَإِن کَادُوا لَیَفْتِنُونَکَ عَنِ الَّذِی أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ لِتَفْتَرِیَ عَلَیْنَا غَیْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوکَ خَلِیلًا».

ثم بعد ذلک تضیف أنّه لولا نور العصمة وأنّ اللّه تعالی ثبّتک علی الحق: «وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاکَ لَقَدْ کِدتَّ تَرْکَنُ إِلَیْهِمْ شَیًا قَلِیلًا».

وأخیراً لو أنّک رکنت الیهم فسوف یکون جزاءک ضعف عذاب المشرکین فی الحیاة الدنیا، وضعف عذابهم فی الآخرة: «إِذًا لَّأَذَقْنَاکَ ضِعْفَ الْحَیَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَاتَجِدُ لَکَ عَلَیْنَا نَصِیرًا».

---

(۱) فی الکافی عن الإمام الباقر علیه السلام قال: «بنی الإسلام علی خمس، علی الصلاة، والزکاة، والصوم، والحج، والولایة، ولم یُناد بشیء کما نودی بالولایة».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۲

إن کلّما زاد مقام الإنسان من حیث العلم والوعی والمعرفة والإیمان، ازدادت قیمة وعمق الأعمال الخیّرة التی یقوم بها، وبالتالی سیکون ثوابها أکثر، أمّا الثواب والعقاب فسوف یزداد تبعاً لهذه النسبة. إلهی لا تکلنی إلی نفسی: فی تفسیر مجمع البیان قال ابن عباس إنّه لما نزلت هذه الآیة، قال النبی صلی الله علیه و آله: «اللّهم لا تکلنی إلی نفسی طرفة عین أبداً».

وهذا الدعاء المهم لرسول الهدی صلی الله علیه و آله یعطینا درساً مهمّاً، وهو أنّه یجب أن نذکر اللّه دائماً ونلتجیء إلیه، ونعتمد علی لطفه، حیث إنّ الأنبیاء المعصومین لم یسلموا من المزالق بدون نصرة اللّه وتثبیته لهم، إذن فکیف بنا نحن مع کل ما یحیطنا من أشکال الوسوسة والإغواء الشیطانی.

وَ إِنْ کَادُوا لَیَسْتَفِزُّونَکَ مِنَ الْأَرْضِ لِیُخْرِجُوکَ مِنْهَا وَ إِذاً لَا یَلْبَثُونَ خِلَافَکَ إِلَّا قَلِیلًا (۷۶) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَکَ مِنْ رُسُلِنَا وَ لَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِیلًا (۷۷)

سبب النّزول

نزلت فی أهل مکة لمّا همّوا بإخراج النبی صلی الله علیه و آله من مکة.

التّفسیر

مؤامرة خبيثة اخرى: فى الآيات السابقة رأينا كيف أنّ المشركين أرادوا من خلال مكائدهم المختلفة أن يحرفوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله عن الطريق المستقيم، لكن اللّه أنجاه بلطفه له ورعايته إيّاه، وبذلك فشلت خطط المشركين.

بعد تلك الأحداث، وطبقاً للآيات التى بين أيدينا، وضع المشركون خطّة اخرى للقضاء على دعوة الرسول صلى الله عليه و آله، وهذه الخطّة تقضى بإبعاد الرسول صلى الله عليه و آله عن مسقط رأسه (مكة) إلى مكان آخر قد يكون مجهولًا وبعيداً عن الأنظار، إلّاأنّ هذه الخطّة فشلت أيضاً بلطف اللّه أيضاً.

الآية الاولى تقول: «وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا». بخطة دقيقة.

ثم يحذّرهم القرآن بعد ذلك بقوله: «وَإِذًا لَايَلْبَثُونَ خِلفَكَ إِلَّا قَلِيلًا». فهؤلاء سيبادون بسرعة بسبب ذنبهم العظيم فى إخراج القائد الكفوء- الذى تذهب نفسه حسرات على

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۳

العباد- من البلد، إذ يعتبر ذلك أوضح مداليل كفران النعمة، ومثل هؤلاء القوم لا يستحقون الحياة ويستحقون العذاب الإلهى.

إنّ هذا الأمر لا يخص مشركى العرب وحسب، بل هو «سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا». وهذه السنة تنبع من منطق واضح، حيث إنّ هؤلاء القوم لا يشكرون النعم، ويحطّمون مصباح هدايتهم ومنبع النور إليهم بأيديهم، إنّ مثل هؤلاء الأقوام لا يستحقون رحمة الخالق، وإنّ العقاب سيشملهم، ونعلم هنا أنّ اللّه تبارك وتعالى لا يفرّق بين عباده، وبذلك فإنّ الأعمال المتشابهة فى الظروف المتشابهة لها عقاب متشابه، وهذا هو معنى عدم اختلاف سنن الخالق جلّ وعلا.

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (۷۸) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً (۷۹) وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً (۸۰) وَ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (۸۱)

بعد سلسلة الآيات التى تحدثت عن التوحيد والشرك وعن مكائد المشركين ومؤامراتهم، تبحث هذه الآيات عن الصلاة والدعاء والإرتباط باللّه والتى تعتبر عوامل مؤثّرة فى مجاهدة الشرك، ووسيلة لطرد إغواءات الشيطان من قلب وروح الإنسان، إذ تقول الآيات فى البداية: «أَقِمِ الصَّلَوةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا».

فى الروايات التى وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام توضّح لنا أنّ معنى «دلوك» هو زوال الشمس؛ وأمّا «غسق الليل» فإنّها تعنى منتصف الليل، حيث إنّ «غسق» تعنى الظلمة الشديدة، وأكثر ما يكون الليل ظلمةً فى منتصفه.

أمّا «قرآن» فهى تعنى كلاماً يقرأ، و «قرآن الفجر» هنا تعنى صلاة الفجر.

وبهذا الدليل تعتبر هذه الآية من الآيات التى تشير بشكل إجمالى إلى أوقات الصلوات الخمس، ومع أخذ الآيات القرآنية الاخرى بنظر الاعتبار فى مجال وقت الصلوات والروايات الكثيرة الواردة فى هذا الشأن، يمكن تحديد أوقات الصلوات الخمس بشكل دقيق.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۴

الآية بعد ذلك تقول: «إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا». والرّوايات الواردة فى تفسير هذه الآية تقول إنّ ملائكة الليل والنهار هى التى تشاهد، لأنّه فى بداية الصباح تأتى ملائكة النهار لتحل محل ملائكة الليل التى كانت تراقب العباد، وحيث إنّ صلاة الصبح هى فى أوّل وقت الطلوع، لذلك فإنّ المجموعتين من الملائكة تشاهدها وتشهد عليها.

وبعد أن تذكر الآية أوقات الصلوات الخمس تنتقل الآية التى بعدها إلى قوله تعالى:

«وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ». المفسرون الإسلاميون المعروفون يعتبرون هذا التعبير إشارة إلى نافلة الليل التى وردت روايات عديدة فى فضيلتها.

ثم تقول الآية: «نَافِلَةً لَّكَ». أى: برنامج إضافى علاوة على الفرائض اليومية.

وهذا التعبير اعتبره الكثير بأنّه دليل على وجوب صلاة الليل على الرسول صلى الله عليه و آله، حيث إنّ هذه (النافلة) والتى هى بمعنى (زيادة فى الفريضة) تخصّك أنت دون غيرك يا رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

فى ختام الآية تتوضّح نتيجة هذا البرنامج الإلهى الروحانى الرفيع حيث تقول: «عَسَى أن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا».

ولا ريب فإنّ المقام المحمود هو مقام مرتفع جدّاً يستثير الحمد، وبما أنّ هذه الكلمة وردت بشكل مطلق، لذا فقد تكون إشارة إلى أنّ حمد الأوّلين والآخرين يشملك.

الروايات الإسلامية تشير إلى أنّ المقام المحمود هو مقام الشفاعة الكبرى. فالنبى صلى الله عليه و آله هو أكبر الشفعاء فى ذلك العالم، وشفاعته تشمل الذين يستحقونها.

أمّا الآية التى بعدها فإنّها تشير إلى أحد التعاليم الإسلامية الأساسية والذى ينبع من روح التوحيد والإيمان: «وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ» «۱». فأىّ عمل فردى أو اجتماعى لا أبدؤه إلّابالصدق ولا انهيه إلّابالصدق، فالصدق والإخلاص والأمانة هى الخط الأساس لبداية ونهاية مسيرتى.

وفى الحقيقة فإنّ سرّ الانتصار يكمن هنا، وهذا هو طريق الأنبياء والأولياء الربانيين حيث كانوا يتجنّبون كل غش وخداع وحيلة فى أفكارهم وأقوالهم وأعمالهم وكل ما يتعارض مع الصدق.

وعادة فإنّ المصائب التى نشاهدها اليوم والتى تصيب الأفراد والمجتمعات والأقوام

---

(۱) «مدخل» و «مخرج»: هى تعنى الإدخال والإخراج، تؤدّى هنا المعنى المصدرى.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۵

والشعوب، إنّما هى بسبب الانحرافات عن هذا الأساس، ففى بعض الأحيان يكون أساس عملهم قائماً على الكذب والغش والحيلة، وفى بعض الأحيان يدخلون إلى عمل معين بصدق ولكنهم لا يستمرون على صدقهم حتى النهاية. وهذا هو سبب الفشل والهزيمة.

أمّا الأصل الثانى الذى يعتبر من ناحية ثمرة لشجرة التوحيد، ومن ناحية اخرى نتيجة للدخول والخروج الصادق فى الأعمال، فهو ما ذكرته الآية فى نهايتها: «وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا».

وبعد أن ذكرت الآيات (الصدق) و (التوكل) جاء بعدها الأمل بالنصر النهائى، والذى يعتبر بحد ذاته عاملًا للتوفيق فى الأعمال، إذ خاطبت الآية الرسول صلى الله عليه و آله بوعد اللّه تعالى:

«وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ» «۱»، لأنّ طبيعة الباطل الفناء والدمار: «إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا». فللباطل جولة، إلّاأنّه لا يدوم والعاقبة تكون لانتصار الحق وأصاحبه وأنصاره.

وفى الآيات أعلاه تمّت الإشارة إلى ثلاثة عوامل للانتصار، العوامل التى ابتعد عنها مسلمو اليوم، ولهذا السبب نرى هزائمهم المتكررة فى مقابل الأعداء والمستكبرين.

والعوامل الثلاثة هى: الدخول الصادق والخالص فى الأعمال، والاستمرار على هذه الحالة الصادقة حتى النهاية «رَبّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ». ثمّ الإعتماد على قدرة الخالق جلّ وعلا، والإعتماد على النفس، وترك أىّ إعتماد أو تبعية للأجانب «وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا».

وفى بعض الروايات تمّ تفسير قوله «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ» بقيام دولة المهدى عليه السلام فالإمام الباقر عليه السلام يبيّن أنّ مفهوم الكلام الإلهى هو: «إذا قام القائم عليه السلام ذهبت دولة الباطل».

وفى تفسير نور الثقلين عن الخرايج والجرايح عن حكيمة خبر طويل وفيه لمّا ولد القائم عليه السلام كان نظيفاً مفروغاً منه وعلى ذراعه الأيمن مكتوب: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا».

إنّ مفهوم هـذه الأحـاديث لا يحصـر المعنى الواسع للآيـة بهـذا المصـداق، بل إنّ ثورة المهـدى عليه السـلام ونهضـته هى من أوضـح المصاديق حيث تكون نتيجتها الإنتصار النهائى للحق على الباطل فى كل العالم.

---

(۱) «زهق»: من مادة «زهوق» بمعنى الإضـمحلال والهلاک والإبادة، و «زهوق»: على وزن «قبول» صـيغة مبالغةوهى تعنى الشـىء الذى تمّت إبادته بالكامل.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۶

وخلاصـة القول: إنّ حقيقـة إنتصار الحق وانهزام الباطل هى تعبير عن قانون عام يجرى فى مختلف العصور، وإنتصار الرسول صـلى الله عليه و آله على الشـرک والأصـنام، ونهضة المهدى عليه السلام الموعودة وانتصاره على الظالمين فى العالم، هما من أوضح المصاديق لهذا القانون العام.

وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً (۸۲)

القرآن وصـفة للشـفاء: الآية التى نبحثها الآن تشير إلى التأثير الكبير للقرآن الكريم ودوره البنّاء فى هذا المجال حيث تقول: «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ».

إنّ «الشـفاء» هـو فى مقابـل الأـمراض والعيـوب والنواقص، لـذا فـإنّ أوّل عمـل يقوم به القرآن فى وجود الإنسـان هو تطهيره من أنواع الأمراض الفكرية والأخلاقية الفردية منها والاجتماعية.

ثم تأتى بعـدها مرحلـة «الرحمـة» وهى مرحلـة التخلّق بأخلاق اللّه، وتفتّح براعم الفضائل الإنسانيـة فى أعماق الأفراد الذين يخضـعون للتربية القرآنية.

أمّا الظـالمون فـإنّهم بـدلًا من أن يسـتفيدوا من هـذا الكتـاب العظيم، فـإنّهم يتمسـكون بما لا ينتـج لهم سوى الـذل والهوان «وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا».

لا ريب أنّ القرآن قادر على هداية الضالين، ولكن بشرط أن يبحث هؤلاء عن الحق، أمّا واقع المعاندين وأعداء الحق فإنّه يكشف عن تعامل هؤلاء سلبياً مع القرآن، ولذلک لا يستفيدون من القرآن، بل يزداد عنادهم وكفرهم، لأنّ تكرار الذنب يكرّس فى روح الإنسان حالة الكفر والعناد.

وَ إِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَى بِجَانِبِهِ وَ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (۸۳) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (۸۴)

بعـد أن تحـدثت الآيـة السابقـة عن شـفاء القرآن، تشـير الآيـة التى بين أيـدينا إلى أحـد أكثر الأمراض تجذّراً فتقول: «وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ». ولكن عندما نسلب منه النعمة ويتضرر من ذلک ولو قليلًا: «وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يُوسًا».

«أعرض»: مشـتقة من «إعراض» وهى تعنى عـدم الإلتفـات، والمقصود منها هنا هو عـدم الإلتفات للخالق عزّ وجل، وإعراض الوجه عنه وعن الحق.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۷

«نأى»: مشـتقة من «نـأى» وهى على وزن «رأى» وهى بمعنى الإبتعـاد، وعنـد إضافـة كلمـة «بجـانبه» إليهـا يكون المعنى التكبر والغرور والتزام المواقف المعادية. ويمكن الاسـتفادة من مجموع هذه الجملة أنّ الأشـخاص الدنيويين يصابون بالغرور عند مجىء النعم، بحيث إنّهم ينسون واهب ومعطى هذه النعم، ولا يقتصر الأمر على النسيان وحسب، بل ينتقل إلى الإعتراض والتكبّر وعدم الإلتفات للخالق.

جملة «مَسَّهُ الشَّرُّ» تشـير إلى أدنى سـوء يصـيب الإنسـان. والمعنى أنّ هؤلاـء من الضـعف وعـدم التحمـل بحيث إنّهم ينسـون أنفسـهم ويغرقون فى دوّامة اليأس بمجرد أن تصيبهم أبسط مشكلة.

الآیـة الثانیـة تخـاطب الرسول صـلی الله علیه و آله فتقول: «قُلْ کُلٌّ یَعْمَلُ عَلَی شَاکِلَتِهِ». فالمؤمنون یطلبون الرحمـة والشـفاء من آیات القرآن الکریم، والظـالمون لاـ یسـتفیدون من القرآن سوی مزیـد من الخسـران، أمّا الأفراد الضـعفاء فیصابون بالغرور فی حال النعمـة، ویصـابون بالیـأس فی حـال ظهـور المشاکـل ... هؤلاـء جمیعـاً یتصـرفون وفق أمزجتهم، هـذه الأمزجـة الـتی تتغیر وفق التربیـة والتعلیم والأعمال المتکررة للإنسان نفسه.

وفی هـذه الأـحوال جمیعـاً فإنّ هناک علم اللّه الشاهـد والمحیط بالجمیع وخاصه بالأشـخاص المهتـدین: «فَرَبُّکُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْـدَی سَبِیلًا».

«شاکلة»: فی الأصل مشتقة من «شکل» وهی تعنی وضع الزمام والرباط للحیوان.

و (شکال) تقال لنفس الزمام؛ وبما أنّ طبائع وعادات کل إنسان تقیّده بصفات معیّنة لذا یقال لذلک «شاکلة».

إنّ الشاکلة تطلق علی کل عادة وطریقة ومذهب وأسلوب یعطی للإنسان اتجاهاً معیناً.

لذا فإنّ العادات والصـفات التی یکتسـبها الإنسان بتکرار الأعمال اختیاریاً وإرادیاً، وکذلک الإعتقادات التی یقتنع بها ویعتمدها بسبب الاستدلال أو التعصب لرأی معین یطلق علیها کلها کلمة «شاکلة».

وَ یَسْأَلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی وَ مَا أُوتِیتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِیلًا (۸۵)

ما هی الروح؟ تبـدأ هـذه الآیـة فی الإجابـة علی بعض الأسـئلة المهمة للمشـرکین ولأهل الکتاب، إذ تقول: «وَیَسَـلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّی وَمَا أُوتِیتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِیلًا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۸

یمکن أن نسـتفید من مجموع القرائن الموجودة فی الآیـة أنّ المستفسـرین سألوا عن حقیقـة الروح الإنسانیـة، هـذه الروح العظیمة التی تمیّز الإنسان عن الحیوان، وقد شـرّفتنا بأفضل الشـرف، حیث تنبع کل نشاطاتنا وفعالیاتنا منها، وبمساعدتها نکتشف أسرار العلوم. ولأنّ الروح لهـا بناء یختلف عن بناء المادة، ولها اصول تحکمها تختلف عن الاصول التی تحکم المادة فی خواصـها الفیزیائیـة والکیمیائیـة، لذا فقد صدر الأمر إلی الرسول صـلی الله علیه و آله أن یقول لهؤلاء فی جملة قصیرة قاطعة: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّی». ولکی لا یتعجب هؤلاء أو یندهشوا من هذا الجواب فقد أضافت الآیة: «وَمَا أُوتِیتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِیلًا». حیث لا مجال للعجب بسبب عدم معرفتکم بأسرار الروح بالرغم من أنّها أقرب شیء إلیکم.

وفی تفسـیر العیاشـی عن زرارة عن الإمـام البـاقر والصـادق علیهمـا السـلام عن قوله تعـالی «یَسَـلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ» قالا: «إنّ اللّه تبارک وتعـالی أحـد صـمد، والصـمد الشـیء الـذی لیس له جوف، فإنّما الروح خلق من خلقه، له بصـر وقوّة وتأییـد یجعله فی قلوب الرسـل والمؤمنین».

إنّ الروح الإنسانیـة لها مراتب ودرجات، فتلک المرتبـة من الروح الموجودة عنـد الأنبیاء والأئمـة علیهم السـلام، هی فی مرتبة ودرجة عالیـة جـدّاً، ومن آثارهـا العصـمة من الخطأ والـذنب وکـذلک یترتب علیها العلم الخارق. وبالطبع فإنّ روحاً مثل هـذه هی أفضل من الملائکة بما فی ذلک جبرئیل ومیکائیل. (فتدبر)

وَ لَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِی أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَکَ بِهِ عَلَیْنَا وَکِیلًا (۸۶) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ إِنَّ فَضْلَهُ کَانَ عَلَیْکَ کَبِیراً (۸۷)

مـا عنـدک هو من رحمته وبرکته: تحـدثت الآیـات السابقـة عن القرآن، أمّـا الآیتـان اللتـان نبحثهمـا الآن فهما أیضاً ینصبّان فی نفس الإتجاه. ففی البدایـة تقول الآیـة: «وَلَئِنْ شِـئْنَا لَنَـذْهَبَنَّ بِالَّذِی أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ». وبعد ذلک: «ثُمَّ لَاتَجِدُ لَکَ بِهِ عَلَیْنَا وَکِیلًا». إنّنا نحن الذین أعطیناک هذه العلوم حتی تکون قائداً وهادیاً للناس، ونحن الذین إذا شئنا استرجعناها منک، ولیس لأحد أن یعترض علی ذلک.

الآیـة التی بعـدها جاءت لتسـتثنی، فهی تبیّن أنّنا إذا لم نأخـذ ما أعطیناک، فلیس ذلک سوی رحمـة من عندنا، حیث یقول تعالی: «إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبّکَ». وهذه الرحمة لأجل هدایتک وإنقاذک، وکذلک لهدایة وإنقاذ العالم البشری، وهذه الرحمة مکمّلة لرحمة الخلق.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۰۹

وفى نهاية الآية ولأجل تأكيد المعنى السابق جاء قوله تعالى: «إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا».

إنّ وجود القابلية لهذا الفضل فى قلبك الكبير بجهادك وعبادتك من جهة، وحاجة العباد إلى مثل قيادتك من جهة اخرى، جعلا فضل اللَّه عليك كبيراً للغاية فقد فتح اللَّه أمامك أبواب العلم، وأنبأك بأسرار هداية الإنسان، وعصمك من الخطأ، حتى تكون أسوة وقدوة لجميع الناس إلى نهاية هذا العالم.

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (۸۸) وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (۸۹)

معجزة القرآن: الآيات التى بين أيدينا تتحدّث عن إعجاز القرآن، ولأنّ الآيات اللاحقة تتحدّث عن حجج المشركين فى مجال المعجزات، فإنّ الآية التى بين أيدينا مقدمة للبحث القادم حول المعجزات. إنّ اللَّه يخاطب رسوله صلى الله عليه و آله ويقول له: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْءَانِ لَايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا».

إنّ هذه الآية دعت- بصراحة- العالمين جميعهم، صغاراً وكباراً، عرباً وغير عرب، الإنسان أو أىّ كائن عاقل آخر، العلماء والفلاسفة والأدباء والمؤرخين والنوابغ وغيرهم لقد دعتهم جميعاً لمواجهة القرآن، وتحدّيه الكبير لهم، وقالت لهم: إذا كنتم تظنون أنّ هذا الكلام ليس من الخالق وأنّه من صنع الإنسان، فأنتم أيضاً بشر، فأتوا إذاً بمثله، وإذا لم تستطيعوا ذلك بأجمعكم، فهذا العجز أفضل دليل على إعجاز القرآن.

إنّ هذه الدعوة للمقابلة والتى يصطلح عليها علماء العقائد ب «التحدّى» هى أحد أركان المعجزة، وعندما يرد هذا التعبير فى أىّ مكان، نفهم بوضوح أنّ هذا الموضوع هو من المعجزات.

و تتحرك الآية التى بعدها لتوضيح جانب من جوانب الإعجاز القرآنى، متمثلًا فى شموليته وإحاطته بكل شىء، إذ يقول تعالى: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ». ولكن بالرغم من ذلك: «فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَفُورًا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۰

حقّاً إنّ التنوع الذى يتضمّنه القرآن الكريم تنوع عجيب، خاصه وأنّه صدر من شخص لا يعرف القراءة والكتابة، ففى هذا الكتاب وردت الأدلة العقلية بجزئياتها الخاصة حول قضايا العقائد، وذكرت- أيضاً- الأحكام المتعلقة بحاجات البشر فى المجالات كافة.

وتعرّض القرآن- أيضاً- إلى قضايا وأحداث تأريخية تعتبر فريدة فى نوعها ومثيرة فى بابها، وخالية من الخرافات.

وتعرّض إلى البحوث الأخلاقية التى تؤثّر فى القلوب المستعدة كتأثير المطر فى الأرض الميتة. القضايا العلمية ورد ذكرها فى القرآن الكريم، إذ ذكرت بعض الحقائق التى لم تكن تعرف فى ذلك الزمان من قبل أىّ عالم.

والخلاصة: إنّ القرآن سلك كل واد وتناول فى آياته أفضل النماذج.

ولهذا السبب إذا اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثله فلا يستطيعون ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وَ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (۹۰) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً (۹۱) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (۹۲) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا (۹۳)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: إنّ جماعة من قريش- وفيهم الوليد بن المغيرة وأبو سفيان وأبوجهل- اجتمعوا عند الكعبة، وقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمّد فكلّموه وخاصموه، فبعثوا إليه إنّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك، فبادر صلى الله عليه و آله إليهم ظنّاً منه أنّهم بدا لهم فى أمره، وكان حريصاً على رشدهم، فجلس إليهم، فقالوا: يا محمّد إنّا دعوناك لنعذر إليك، فلا نعلم

أحداً أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، شتمت الآلهة، وعبت الدين وسفّهت الأحكام، وفرّقت الجماعة، فإن كنت جئت بهذا لتطلب مالًا أعطيناك، وإن كنت

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۱

تطلب الشرف سوّدناك علينا، وإن كانت علّة غلبت عليك طلبنا لك الأطباء.

فقال صلى الله عليه و آله: «ليس شيء من ذلك، بل بعثنى اللّه إليكم رسولًا، وأنزل كتاباً، فإن قبلتم ما جئت به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه أصبر حتى يحكم اللّه بيننا».

قالوا: فإذن ليس أحد أضيق بلداً منّا فاسأل ربّك أن يسيّر هذه الجبال، ويجرى لنا أنهاراً كأنهار الشام والعراق ....

فقال صلى الله عليه و آله: «ما بهذا بعثت» ....

قالوا: فأسقط علينا السماء كما زعمت إنّ ربّك إن شاء فعل ذلك.

قال صلى الله عليه و آله: «ذاك إلى اللّه إن شاء فعل».

وقال قائل منهم: لا نؤمن حتى تأتى باللّه والملائكة قبيلًا. فقام النبى صلى الله عليه و آله وقام معه عبد اللّه بن أبى أمية المخزومى ابن عمّته عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا محمّد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله ... فواللّه لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ سُلّماً إلى السماء ثم ترقى فيه وأنا أنظر، ويأتى معك نفر من الملائكة يشهدون لك، وكتاب يشهد لك ....

فانصرف رسول اللّه صلى الله عليه و آله حزيناً لما رأى من قومه، فأنزل اللّه سبحانه الآيات.

التّفسير

بعد الآيات السابقة التى تحدثت عن عظمة وإعجاز القرآن، جاءت هذه الآيات تشير إلى ذرائع المشركين، هذه الطلبات وردت على ستة أقسام هى:

١- فى البداية يقولون: «وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَکَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا».

٢- قولهم كما فى الآية: «أَوْ تَكُونَ لَکَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَلَهَا تَفْجِيرًا».

٣- «أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا».

٤- «أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلِكَةِ قَبِيلًا».

٥- «أَوْ يَكُونَ لَکَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ».

٦- «أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّکَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ».

ثم يصدر الأمر من الخالق جلّ وعلا لرسوله صلى الله عليه و آله أن يقول لهؤلاء فى مقابل اقتراحاتهم هذه: «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۲

وَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولًا (٩٥)

ذريعة عامة: الآيات السابقة تحدّثت عن تذرّع المشركين- أو قسم منهم- فى قضية التوحيد، أمّا الآيات التى نبحثها فإنّها تشير إلى ذريعة عامة فى مقابل دعوة الأنبياء، حيث تقول: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا».

هل يمكن التصديق بأنّ هذه المهمة والمنزلة الرفيعة تقع على عاتق الإنسان، ثم- والكلام للمشركين- ألم يكن الأولى والأجدر أن تقع هذه المهمة وهذه المسؤولية على عاتق مخلوق أفضل كالملائكة- مثلًا- كى يستطيعوا أداء هذه المهمة بجدارة ... إذ أين الإنسان الترابى والرسالة الإلهية؟!

إنّ هـذا المنطق الواهى الـذى تحكيه الآيـة على لسـان المشـركين لا يخصّ مجموعـة أو مجموعتين من الناس، بل إنّ أكثر الناس وفى امتداد تأريخ النّبوات قد تذرّعوا به فى مقابل الأنبياء والر سل.

القرآن الكريم أجاب هؤلاء جميعاً فى جملـةٍ قصـيرة واحدة مليئة بالمعانى والدلالات، قال تعالى: «قُل لَّوْ كَانَ فِى الْأَرْضِ مَلِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمِئِّيـنَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَـاءِ مَلَكًا رَّسُولًا». يعنى أنّ القائـد يجب أن يكـون من سـنخ من بعث إليه، ومن جنس أتبـاعه، فالإنسـان لجماعة البشر، والملك لجماعة الملائكة.

ودليل هذا التجانس والتطابق بين القائد وأتباعه واضح؛ فمن جانب يعتبر التبليغ العملى أهم وظيفة فى عمل القائد من خلال كونه قدوة واسوة، وهـذا لا يتمّ إلّاأن يكون القائد من جنسـهم، يمتلك نفس الغرائز والأحاسيس، ونفس مكوّنات البناء الجسمى والروحى الذى يملكه كل فرد من أفراد جماعته.

من جانب آخر ينبغى للقائـد أن يـدرك جميع احتياجات ومشاكل أتباعه كى يكون قادراً على علاجهم، والإجابة على أسـئلتهم، لهذا السبب نرى أنّ الأنبياء برزوا من بين عامة الناس.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۳

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (۹۶) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (۹۷)

بعـد أن قطعت الآيات السابقـة أشواطاً فى مجال التوحيـد والنبوة وعرض حـديث المعارضـين والمشـركين، فإنّ هـذه الآيات عبارة عن خاتمة المطاف فى هذا الحديث، إذ تضع النتيجة الأخيرة لكل ذلك. ففى البداية تقول الآية إذا لم يقبل اولئك أدلتك الواضحة حول التوحيد والنبوة والمعاد فقل لهم: «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا».

إنّ هذه الآية تسـتهدف أمرين فهى أوّلًا: تهدّد المعارضـين المتعصبين والمعاندين، بأنّ اللّه خبير وبصـير ويشـهد أعمالنا وأعمالكم، فلا تظنّوا بأنّكم خارجون عن محيط قدرته أو أنّ شيئاً من أعمالكم خاف عنه.

الأـمر الثـانى هو أنّ الرسول صـلى الله عليه و آله أظهر إيمـانه القاطع بما قال، حيث إنّ ايمان المتحـدّث القوى بما يقول، له أثر نفسـى عميق فى المستمع، وعسـى أن يكون هذا التعبير القاطع والحاسم المقرون بنوع من التهديد مؤثّراً فيهم، ويهزّ وجودهم، ويوقظ فكرهم ووجدانهم ويهديهم إلى الطريق الصحيح.

الآية التالية تؤكّد على أنّ الشخص المهتدى هو الذى قذف اللّه تعالى نور الإيمان فى قلبه:

«وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ». أمّا من أضـلّه اللّه بسوء أعماله: «وَمَن يُضْـلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ». فالطريق الوحيد هو أن يرجعوا إليه ويطلبوا نور الهداية منه.

هاتان الجملتان تثبتان أنّ الدليل القوى والقاطع لا يكفى للإيمان، فما لم يكن هناك توفيق إلهى لا يستقر الإيمان أبداً.

أمّا عن سبب مجىء «أولياء» بصيغة الجمع، فقد يعود ذلك للإشارة إلى تعدد الآلهة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۴

الوهمية أو تنوع الوسائل التى يلجأون إليها، فيكون المقصود أنّ جميع هذه الوسائل وجميع البشر وغير البشر، وكل ما تؤلّهون من آلهة من دون اللّه، لا يسـتطيع أن ينقذكم من الضـلالة وسوء العاقبـة. ثم تـذكر الآيات- بصـيغة التهديد القاطع- جانباً من مصـيرهم بسـبب أعمالهم فى يوم القيامـة فتقول: «وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيمَـةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ». فبـدلًا من الدخول بشـكل عادى وبقامة منتصـبة، فإنّ الملائكة الموكلين بهم يسحبونهم إلى جهنم على وجوههم تعذيباً لهم.

أو يزحفون كالزواحف على وجوههم وصدورهم بشكل ذليل ومؤلم.

ثم هم يحشرون: «عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا».

إنّ مراحل ومواقف یوم القیامة متعددة، ففی بعض المراحل والمواقف یکون هؤلاء صماً وبکماً وعمیاً، وهذا نوع من العقاب لهم، إلّاأنّ عیونهم فی مراحل لاحقة تبدأ بالنظر، وآذانهم بالسماع، وألسنتهم بالنطق حتی یروا منظر العذاب ویسمعون کلام الشامتین، ویبدأون بالتأوّه والصراخ وإظهار ضعفهم، حیث إنّ کل هذه الامور هی نوع آخر من العقاب لهم.

إنّ المجرمین وأهل النار محرومون من رؤیة ما هو سارّ ومن سماع امور تبعث علی الفرح، ومن قول وکلام یستوجب نجاتهم، بل علی العکس من ذلک، فهم لا ینظرون ولا یسمعون ولا یقولون إلّاما یؤذی ویؤلم.

فی الختام تقول الآیة: «مَّأْوَیهُمْ جَهَنَّمُ». لکن لا تظنّوا أنّ نارها کنار الدنیا تنطفی فی النهایة، بل هی: «کُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِیرًا».

ذلِکَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ کَفَرُوا بِآیَاتِنَا وَ قَالُوا أَ إذَا کُنَّا عِظَاماً وَ رُفَاتاً أَ إنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِیداً (۹۸) أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّ اللّهَ الَّذِی خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَی أَنْ یَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَیْبَ فِیهِ فَأَبَی الظَّالِمُونَ إلَّا کُفُوراً (۹۹) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِکُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّی إذاً لَأَمْسَکْتُمْ خَشْیَةَ الْإِنْفَاقِ وَ کَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً (۱۰۰)

کیف یکون المعاد ممکناً؟ فی‌الآیات السابقة رأینا کیف أنّ یوماً سیّئاً ینتظر المجرمین فی العالم الآخر، هذه العاقبة التی تجعل أیّ عاقل یفکّر فی هذا المصیر، لذلک فإنّ الآیات التی بین

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۵

أیدینا تقف علی هذا الموضوع بشکل آخر. فی البدایة تقول: «ذلِکَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ کَفَرُوا بَایَاتِنَا وَقَالُوا أءِذَا کُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِیدًا».

وبعد تعجّبهم من المعاد الجسمانی واعتبارهم ذلک أمراً غیر ممکن، یقول القرآن باسلوب واضح ومباشر وبلا فصل: «أَوَلَمْ یَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِی خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَی أَن یَخْلُقَ مِثْلَهُمْ». وعلی هؤلاء أن لا یعجّلوا فإنّ القیامة وإن تأخّرت، إلّاأنّها سوف تتحقق بلا ریب: «وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّارَیْبَ فِیهِ».

ولکن هؤلاء الظالمین والمعادین مستمرون علی ما هم فیه رغم سماعهم هذه الآیات:

«فَأَبَی الظَّالِمُونَ إِلَّا کَفُورًا».

وحیث إنّهم کانوا یصرخون ویصرّون علی أن لا یکون النبی من البشر حسداً من عند أنفسهم وجهلًا وضلالًا، وقد منعهم هذا الحسد والجهل من التصدیق بإمکانیة أن یعطی اللّه کل هذه المواهب لإنسان، لذا فإنّ الخالق جلّ وعلا یخاطبهم بقوله: «قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِکُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّی إِذًا لَّأَمْسَکْتُمْ خَشْیَةَ الْإِنفَاقِ». ثم یقول: «وَکَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا».

«قتور»: من «قَتَرَ» علی وزن «قتل» وهی تعنی الإمساک فی الصرف، وبما أنّ (قتور) صیغة مبالغة فإنّها تعنی شدّة الإمساک وضیق النظر.

المعاد الجسمانی: الآیات أعلاه من أوضح الآیات المرتبطة بإثبات المعاد الجسمانی، فالمشرکین کانوا یعجبون من إمکانیة عودة الحیاة إلی العظام النخرة، والقرآن یجیبهم بأنّ القادر علی خلق السماوات والأرض، لدیه القدرة علی جمع الأجزاء المتناثرة للإنسان وأن یهبها الحیاة مرّة اخری.

کما إنّ الإستدلال بالقدرة الکلیة للخالق عزّ وجل فی إثبات المعاد، هو واحد من الأدلة التی یذکرها القرآن مراراً ویعتمد علیها کثیراً.

وَ لَقَدْ آتَیْنَا مُوسَی تِسْعَ آیَاتٍ بَیِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِی إسْرَائِیلَ إذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إنِّی لَأَظُنُّکَ یَا مُوسَی مَسْحُوراً (۱۰۱) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هؤُلَاءِ إلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ بَصَائِرَ وَ إنِّی لَأَظُنُّکَ یَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (۱۰۲) فَأَرَادَ أَنْ یَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِیعاً (۱۰۳) وَ قُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِی إسْرَائِیلَ اسْکُنُوا الْأَرْضَ فَإذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِکُمْ لَفِیفاً (۱۰۴)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۶

لم یؤمنوا رغم الآیات: قبل بضعة آیات عرفنا کیف أنّ المشرکین طلبوا اموراً عجیبة غریبة من الرسول صلی الله علیه و آله، وهذه الآیات- التی نبحثها- تقف علی نماذج للامم السابقة ممن شاهدوا أنواع المعاجز والأعمال غیر العادیة، إلّاأنّهم استمروا فی الإنکار

وعدم الإيمان.

فى البدء يقول تعالى: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ».

والآيات التسع هى: العصا، اليد البيضاء، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، الجفاف، ونقص الثمرات. ولأجل التأكيد على الموضوع اسأل- والخطاب موجّه إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله- بنى إسرائيل (اليهود) أمام قومك المعارضين والمنكرين: «فَسَلْ بَنِى إِسْرَاءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ».

إلّا أنّ الطاغية الجبار فرعون- برغم الآيات- لم يستسلم للحق، بل أكثر من ذلك إتّهم موسى «فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا».

إنّ التعبير القرآنى يكشف عن الاسلوب الدعائى التحريضى الذى يستخدمه المستكبرون ويتّهمون فيه الرجال الإلهيين بسبب حركتهم الإصلاحية الربانية ضد الفساد والظلم، إذ يصف الظالمون والطغاة معجزاتهم بالسحر أو ينعتونهم بالجنون كى يؤثّروا من هذا الطريق فى قلوب الناس ويفرّقوهم عن الأنبياء.

ولكن موسى عليه السلام لم يسكت أمام اتّهام فرعون له، بل أجابه بلغة قاطعة يعرف فرعون مغزاها الدقيق، إذ قال له: «قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ».

لذا فإنّك- يا فرعون- تعلم بوضوح أنّك تتنكّر للحقائق، برغم علمك بأنّها من اللّه! فهذه «بصائر» أى أدلة واضحة للناس كى يتعرفوا بواسطتها على طريق الحق، وعندها سيسلكون طريق السعادة، وبما أنّك- يا فرعون- تعرف الحق وتنكره، لذا: «وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا». «مثبور»: من «ثبور» وتعنى الهلاك.

ولأنّ فرعون لم يستطع أن يقف بوجه استدلالات موسى القوية، فإنّه سلك طريقاً يسلكه جميع الطواغيت عديمى المنطق فى جميع القرون وكافّة الأعصار، وذاك قوله تعالى:

«فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا».

«يستفز»: من «استفزاز» وتعنى الإخراج بقوة وعنف.

ومن بعد هذا النصر العظيم: «وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِى إِسْرَاءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۷

الْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا». فتأتون مجموعات يوم القيامة للحساب.

«لفيف»: من مادة «لفّ» وهنا تعنى المجموعة المتداخلة المعقّدة بحيث لا يعرف الأشخاص، ولا من أىّ قبيلة هم.

وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۱۰۵) وَ قُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (۱۰۶) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً (۱۰۷) وَ يَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (۱۰۸) وَ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَ يَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (۱۰۹)

مرّة اخرى يشير القرآن العظيم إلى أهمية وعظمة هذا الكتاب السماوى ويجيب على بعض ذرائع المعارضين. فى البداية تقول الآيات: «وَبِالْحَقّ أَنزَلْنهُ». ثم تضيف: «وَبِالْحَقّ نَزَلَ». ثم تقول: «وَمَا أَرْسَلْنكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا». إذ ليس لك الحق فى تغيير محتوى القرآن.

والفرق بين الجملة الاولى: «وَبِالْحَقّ أَنزَلْنهُ» والجملة الثانية: «وَبِالْحَقّ نَزَلَ» هو أنّ الإنسان قد يبدأ فى بعض الأحيان بعمل ما، ولكنه لا يستطيع اتمامه بشكل صحيح وذلك بسبب من ضعفه، أمّا بالنسبة للشخص الذى يعلم بكل شىء ويقدر على كل شىء، فإنّه يبدأ بداية صحيحة، وينهى العمل نهاية صحيحة. وكمثال على ذلك: الشخص الذى يخرج ماءً صافياً من أحد العيون، ولكن خلال مسير هذا الماء لا يستطيع ذلك الشخص أن يحافظ على صفاء هذا الماء ونظافته ويمنعه من التلوّث، فيصل الماء فى هذه الحالة إلى الآخرين وهو ملوّث، إلّاأنّ الشخص القادر والمحيط بالامور، يحافظ على بقاء الماء صافياً وبعيداً عن عوامل التلوّث حتى يصل إلى العطاشى

والمحتاجین له.

القرآن کتاب نزل بالحق من قبل الخالق، وهو محفوظ فی جمیع مراحله سواء فی المرحلة التی کان الوسیط فیها جبرائیل الأمین، أو المرحلة التی کان الرسول فیها هو المتلقی، وبمرور الزمن لاتستطیع ید التحریف والتزویر أن تمتد إلیه بمقتضی قوله تعالی: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» فاللّه هو الذی یتکفّل حمایته وحراسته.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۸

لذا فإنّ هذا الماء النقی الصافی الوحی الإلهی القویم لم تناله ید التحریف والتبدیل منذ عصر الرسول صلی الله علیه و آله وحتی نهایة العالم. الآیة التی تلیها تردّ علی واحدة من ذرائع المعارضین وحججهم، إذ کانوا یقولون: لماذا لم ینزل القرآن دفعة واحدة علی الرسول صلی الله علیه و آله، ولماذا کان نزوله تدریجیاً؟ کما تشیر إلی ذلک الآیة (۳۲) من سورة الفرقان التی تقول: «وَقَالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَیْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً کَذلِکَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَکَ وَرَتَّلْنَهُ تَرْتِیلًا». فیقول اللّه فی جواب هؤلاء: «وَقُرْءَانًا فَرَّقْنَهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَی النَّاسِ عَلَی مُکْثٍ». حتی یدخل القلوب والأفکار ویترجم عملیاً بشکل کامل.

ومن أجل التأکید أکثر تبیّن الآیة- بشکل قاطع- أنّ جمیع هذا القرآن أنزلناه نحن:

«وَنَزَّلْنهُ تَنزِیلًا».

إنّ القرآن له إرتباط دقیق بعصره، أیء ارتباط ب (۲۳) سنة، هی عصر نبوة نبی الخاتم بکل ما کانت تتمخض به من حوادث وقضایا.

هل یمکن جمع حوادث (۲۳) سنة نفسها فی یوم واحد، حتی ینزل القرآن فی یوم واحد؟

النزول التدریجی یعنی الإرتباط الدائمی للرسول صلی الله علیه و آله مع مصدر الوحی، إلّاأنّ النزول الدفعی یتمّ بمرحلة واحدة لا یتسنّی للرسول صلی الله علیه و آله الإرتباط بمصدر الوحی لأکثر من مرّة واحدة.

الآیة التی تلیها استهدفت غرور المعارضین الجهلة حیث تقول: «قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا یُتْلَی عَلَیْهِمْ یَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا».

إنّ المقصود من «الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ» هم مجموعة من علماء الیهود والنصاری من الذین آمنوا بعد أن سمعوا آیات القرآن، وشاهدوا العلائم التی قرأوها فی التوراة والإنجیل، والتحقوا بصف المؤمنین الحقیقیین، وأصبحوا من علماء الإسلام.

«یخرّون»: بمعنی یسقطون علی الأرض بدون إرادتهم، واستخدام هذه الکلمة بدلًا من السجود ینطوی علی إشارة لطیفة، هی أنّ الواعین وذوی القلوب الیقظة عندما یسمعون آیات القرآن وکلام الخالق عزّ وجل ینجذبون إلیه ویولهون به إلی درجة أنّهم یسقطون علی الأرض ویسجدون خشیة بدون وعی واختیار «۱».

---

(۱) یقول الراغب فی (المفردات): «یخرون» من مادة «خریر» ویقال لصوت الماء والریح وغیر ذلک ممّا یسقط من علو. وقوله تعالی: «خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا» تنبیه علی اجتماع أمرین: السقوط وحصول الصوت منهم بالتسبیح، والتنبیه أنّ ذلک الخریر کان صوت تسبیحهم بحمد اللّه لا بشیء آخر، ودلیله قوله تعالی فیما بعد: «وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۱۹

«أذقان»: جمع «ذقن» ومن المعلوم أنّ ذقن الإنسان عند السجود لا یلمس الأرض، إلّا أنّ تعبیر الآیة إشارة إلی أنّ هؤلاء یضعون کامل وجههم علی الأرض قبال خالقهم حتی أنّ ذقنهم قد یلمس الأرض عند السجود.

الآیة التی بعدها توضّح قولهم عندما یسجدون: «وَیَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن کَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا». هؤلاء یعبرون بهذا الکلام عن عمق إیمانهم واعتقادهم باللّه وبصفاته وبوعده.

والکلام علی هذا الأساس یجمع اصول الدین فی جملة واحدة.

وللتأكيد- أكثر- على تأثّر هؤلاء بآيات ربّهم، وعلى سجدة الحب التى يسجدونها تقول الآية التى بعدها: «وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا». «الخشوع»: هو حالة من التواضع والأدب الجسدى والروحى للإنسان فى مقابل شخصية معينة أو حقيقة معينة.

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنَى وَ لَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَ لَا تُخَافِتْ بِهَا وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ كَبِّرْهُ تَكْبِيراً (١١١)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إنّ النبى صلى الله عليه و آله كان ساجداً ذات ليلة بمكة يدعو: يا رحمن يا رحيم، فقال المشركون: هذا يزعم أنّ له إلهاً واحداً، وهو يدعو مثنى مثنى.

التّفسير

آخر الذرائع والأعذار: بعد سلسلة من الذرائع التى تشبّث بها المشركون امام دعوة الرسول صلى الله عليه و آله، نصل مع الآيات التى بين أيدينا إلى آخر ذريعة لهم، وهى قولهم: لماذا يذكر رسول اللّه صلى الله عليه و آله الخالق بأسماء متعددة بالرغم من أنّه يدّعى التوحيد. القرآن ردّ على هؤلاء بقوله: «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّامَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى .

إنّ هؤلاء عميان البصيرة والقلب، غافلون عن أحداث ووقائع حياتهم اليومية حيث كانوا يذكرون أسماء مختلفة لشخص واحد أو لمكان واحد، وكل اسم من هذه الأسماء كان

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٢٠

يعرّف بشطر أو بصفة من صفات ذلك الشخص أو المكان. بعد ذلك، هل من العجيب أن تكون للخالق أسماء متعددة تتناسب مع افعاله وكمالاته وهو المطلق فى وجوده وفى صفاته والمنبع لكل صفات الكمال وجميع النعم، وهو وحده عزّ وجلّ الذى يدير دفة هذا العالم والوجود؟

ففى نهاية الآية التى نبحثها نرى المشركين يتحدّثون عن صلاة رسول اللّه صلى الله عليه و آله ويقولون:

إنّه يؤذينا بصوته المرتفع فى صلاته وعبادته، فما هذه العبادة؟ فجاءت التعليمات لرسول اللّه صلى الله عليه و آله عبر قوله تعالى: «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا».

إنّ الآية أعلاه تقول: لا تقرأ بصوت مرتفع بحيث يشبه الصراخ، ولا أقل من الحد الطبيعى بحيث تكون حركة شفاه وحسب ولا صوت فيها.

هذا الحكم الإسلامى فى الدعوة إلى الإعتدال بين الجهر والإخفات يعطينا فهماً وإدراكاً من جهتين:

الاولى: لا تؤدّوا العبادات بشكل تكون فيه ذريعة بيد الأعداء، فيقومون بالاستهزاء والتحجج ضدكم، إذ الأفضل أن تكون مقرونه بالوقار والهدوء والأدب.

الثانية: يجب أن يكون هذ التوجيه مبدأ لنا فى جميع أعمالنا وبرامجنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتكون جميع هذه الامور بعيدة عن الإفراط والتفريط، إذ الأساس هو: «وَابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا».

أخيراً نصل إلى الآية الأخيرة من سورة الإسراء، هذه الآية تنهى السورة المباركة بحمد اللّه، كما افتتحت بتسبيحه وتنزيه ذاته عزّ وجل.

إنّ هذه الآية هى خلاصة أخيرة لكل البحوث التوحيدية التى وردت فى السورة، وهى ثمرة لمفاهيمها جميعاً، إذ هى تخاطب الرسول صلى الله عليه و آله بالقول: «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلّ».

ومثل هذا الرب فى مثل هذه الصفات، هو أفضل من كل ما تفكّر به: «وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا».

روى العلّامة الطبرسى رحمه الله فى تفسير مجمع البيان: إنّ فى هذه الآية ردّاً على اليهود والنصارى، حين قالوا اتّخذ اللّه الولد، وعلى مشركى العرب حيث قالوا: لبيك لا شريك لك، إلّا شريكاً هو لك. وعلى الصابئين والمجوس حين قالوا: لولا أولياء اللّه لذل اللّه.

«نهاية تفسير سورة الإسراء»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲۱

۱۸ سورة الكهف

محتوى السورة: تبدأ السورة بحمد الخالق جلّ وعلا، وتنتهي بالتوحيد والإيمان والعمل الصالح.

يشير محتوى السورة- كما في أغلب السور المكية- إلى قضية المبدأ والمعاد والترغيب والإنذار. وتشير أيضاً إلى قضية مهمة كان المسلمون يحتاجونها في تلك الأيام بشدة، وهي عدم استسلام الأقلية- مهما كانت صغيرة- إلى الأكثرية مهما كانت قوية في المقاييس الظاهرية، بل عليهم أن يفعلوا كما فعلت المجموعة الصغيرة القليلة من أصحاب الكهف، أن يبتعدوا عن المحيط الفاسد ويتحركوا ضدّه.

فإذا كانت لديهم القدرة على المواجهة، فعليهم خوض الجهاد والصراع، وإن عجزوا عن المواجهة فعليهم بالهجرة.

إنّ السورة تشير إلى ثلاث قصص (قصة أصحاب الكهف، قصة موسى والخضر، وقصة ذي القرنين) حيث إنّ هذه القصص بخلاف أغلب القصص القرآنية لم تتكرّر في مكان آخر من القرآن (أشارت الآية ۹۶ من سورة الأنبياء إلى يأجوج ومأجوج دون ذكر ذي القرنين). وهذه الإشارة تعتبر واحدة من خصائص هذه السورة المباركة.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه و آله قال: «ألا أدلّكم على سورة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲۲

شيّعها سبعون ألف ملك، حين نزلت ملأت عظمتها ما بين السماء والأرض»؟ قالوا: بلى. قال:

«سورة أصحاب الكهف، من قرأها يوم الجمعة غفر اللَّه له إلى الجمعة الاخرى، وزيادة ثلاثة أيام، واعطى نوراً يبلغ السماء، ووُقِي فتنة الدجّال».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الكهف في كل ليلة جمعة لم يمت إلّاشهيداً، وبعثه اللَّه مع الشهداء، ووقف يوم القيامة مع الشهداء».

إنّ عظمة السور القرآنية وتأثيرها المعنوي، وبركاتها الأخلاقية، إنّما يكون بسبب الإيمان بها والعمل وفقاً لمضامينها.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (۱) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (۲) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً (۳) وَ يُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (۴) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَ لَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً (۵)

البداية باسم اللَّه، والقرآن: تبدأ سورة الكهف- كما في بعض السور الاخرى- بحمد اللَّه، وبما أنّ الحمد يكون لأجل عمل أو صفة معينة مهمة ومطلوبة، لذا فإنّ الحمد هنا لأجل نزول القرآن الخالي من كل اعوجاج، فتقول الآية: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتبَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجًا».

هذا الكتاب هو كتاب ثابت ومحكم ومعتدل ومستقيم، وهو يحفظ المجتمع الإنساني ويحمي سائر الكتب السماوية.

«قَيِّمًا». وينذر الظالمين من عذاب شديد: «لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ». وفي نفس الوقت فهو: «وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا». وهؤلاء في نعيمهم «مكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا».

ثم تشير الآيات إلى واحدة من انحرافات المعارضين، سواء كانوا نصارى أو يهود أو مشركين، حيث تنذرهم هذا الأمر فتقول: «وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا». فهي تحذّر النصارى بسبب اعتقادهم بأنّ المسيح ابن اللَّه، وتحذّر اليهود لأنّهم اعتقدوا بأنّ عزير ابن اللَّه، وتحذّر المشركين لظنّهم بأنّ الملائكة بنات اللَّه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲۳

ثم تشير الآيات إلى أصل أساسى فى إبطال هذه الإدعاءات الفارغة فتقول: إنّ هؤلاء لا علم لهم ولا يقين بهذا الكلام، وإنّما هم مقلدون فيه للآباء، وإنّ آباءهم على شاكلتهم فى الجهل وعدم العلم: «مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَائِهِمْ». ومع ذلك فإنّهم يتفوّهون بكلام رهيب «كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ». فهل يعقل أن يكون اللّه جسماً أو يكون له ولد، أو أن يحتاج إلى الصفات المادية وأن يكون محدوداً ... إنّه كلام رهيب، ومثل هؤلاء الذين يتفوّهون به لا ينطقون إلّاكذباً: «إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا».

«قيّم»: على وزن كلمة «سيّد» مشتقة من مصدر الكلمة «قيام» وهنا تأتى بمعنى (الثبات والصمود) إضافة إلى أنّها هى وصف للقرآن فى عدم وجود أى اعوجاج فى آياته، بل إنّ فى مضمونها تأكيد على استقامة واعتدال القرآن، وخلوّه من أىّ شكل من أشكال التناقض، وإشارة إلى أبدية وخلود هذا الكتاب السماوى العظيم، وكونه أسوة لحفظ الأصالة، وإصلاح الخلل، وحفظ الأحكام الإلهية والعدل والفضائل البشرية.

صفة «القيّم»: مشتقة من «قيمومة» البارى عزّ وجل التى تعنى اهتمام البارى عزّ وجل وحفظه جميع الكائنات، والقرآن الذى هو كلام اللّه له نفس الصفة أيضاً.

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (۶) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (۷) وَ إِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً (۸)

العالم ساحة اختبار: الآيات السابقة كانت تتحدّث عن الرسالة وقيادة النبى صلى الله عليه و آله، لذا فإنّ أوّل آية نبحثها الآن، تشير إلى أحد أهم شروط القيادة، ألا وهى الإشفاق على الامّة فتقول: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى ءَاثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا».

وهنا يجب الإنتباه إلى بعض الملاحظات:

«باخع»: من «بخع» على وزن «نخل» وهى بمعنى إهلاك النفس من شدّة الحزن والغم.

استخدام كلمة «حديث» للتعبير عن القرآن، هو إشارة إلى ما ورد من معارف جديدة فى هذا الكتاب السماوى الكبير.

الآية التى بعدها تجسّد وضع هذا العالم وتكشف عن أنّه ساحة للاختبار والتمحيص

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲۴

والبلاء، وتوضّح الخط الذى ينبغى أن يسلكه الإنسان: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا». لقد ملأنا العالم بأنواع الزينة، بحيث إنّ كل جانب فيه يذهب بالقلب، ويحيّر الأبصار، ويثير الدوافع الداخلية فى الإنسان، كيما يتسنى امتحانه فى ظلّ هذه الإحساسات والمشاعر ووسط أنواع الزينة وأشكالها، لتظهر قدرته الإيمانية، ومؤهّلاته المعنوية.

لذلك تضيف الآية مباشرة قوله تعالى: «لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

إنّ هنا إنذار لكل الناس، لكل المسلمين كى لا ينخدعوا فى ساحة الاختبار بزينة الحياة الدنيا، وبدلًا من ذلك عليهم أن يفكّروا بتحسين أعمالهم.

ثم يبيّن تعالى أنّ أشياء الحياة الدنيا ليست ثابتة ولا دائمة، بل مصيرها إلى المحو والزوال:

«وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا».

«صعيد»: مشتقة من «صعود» وهى هنا تعنى وجه الأرض، الوجه الذى يتّضح فيه التراب؛ و «جرز»: تطلق على الأرض الموات بسبب الجفاف وقلّة المطر.

إنّ المنظر الذى نشاهده فى الربيع فى الصحارى والجبال لا تبقى إذ لابدّ أن يأتى الخريف، وتسكت فيها نغمة الحياة.

حياة الإنسان المادية تشبه هذا التحوّل، فلا بدّ أن يأتى ذلك اليوم الذى يضع نهاية للقصور التى تناطح السماء، وللملابس الباذخة والنعم الكثيرة التى يرفل بها الإنسان، كذلك تنتهى المناصب والمواقع والإعتبارات، وسوف لن يبقى شىء من المجتمعات البشرية

سوى القبور الساكنة اليابسة، وهذا درس عظيم.

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً (۹) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً (۱۰) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (۱۱) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً (۱۲)

أسباب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أنّ النضر بن الحرث بن كلدة وعقبة بن أبى معيط

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲۵

أنفذهما قريش إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما: سلاهم عن محمّد وصِفا لهم صفته، وخبّراهم بقوله فإنّهم أهل الكتاب الأوّل وعندهم من علم الأنبياء ما ليس عندنا. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن النبى صلى الله عليه و آله وقالا لهم ما قالت قريش. فقال لهما أحبار اليهود: إسألوه عن ثلاث فإن أخبركم بهنّ فهو نبى مرسل، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل فرأوا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأوّل ما كان من أمرهم؟ فإنّه قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو؟

وفى رواية اخرى قالوا: فإن أخبركم عن اثنتين ولم يخبركم بالروح فهو نبى.

فانصرفا إلى مكة فقالا: يا معشر قريش! قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمّد وقصّا عليهم القصّة. فجاؤوا إلى النبى صلى الله عليه و آله فسألوه، فقال صلى الله عليه و آله: «اخبركم بما سألتم عنه غداً» ولم يستثن فانصرفوا عنه، فمكث صلى الله عليه و آله خمس عشرة ليلة لا يحدث اللَّه إليه فى ذلك وحياً، ولا يأتيه جبرائيل حتى أرجف أهل مكة وتكلّموا فى ذلك. فشقّ على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ما يتكلم به أهل مكة عليه، ثم جاءه جبرائيل عليه السلام عن اللَّه سبحانه بسورة الكهف، وفيها ما سألوه عنه عن أمر الفتية والرجل الطوّاف، وأنزل عليه: «وَيَسَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ» الآية.

التّفسير

بداية قصة أصحاب الكهف: فى الآيات السابقة كانت هناك صورة للحياة الدنيا، وكيفية اختبار الناس فيها، ومسير حياتهم عليها، ولأنّ القرآن غالباً ما يقوم بضرب الأمثلة للقضايا الحساسة، أو أنّه يذكر نماذج من التاريخ لتجسيد الوعى بالقضية، لذا قام فى هذه السورة بتوضيح قصة أصحاب الكهف، وعبّرت عنهم الآيات بأنّهم (أنموذج) أو (أسوة).

إنّهم مجموعة من الفتية الأذكياء المؤمنين، الذين كانوا يعيشون فى ظل حياة مترفة بالزينة وأنواع النعم، إلّاأنّهم انسلخوا من كل ذلك لأجل حفظ عقيدتهم وللصراع ضدّ الطاغوت- طاغوت زمانهم- وذهبوا إلى غار خال من جميع أشكال الزينة والنعم، وقد أثبتوا بهذا المسلك أمر استقامتهم فى سبيل الإيمان والثبات عليه.

فى البداية يقول تعالى: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِن ءَايَاتِنَا عَجَبًا».

إنّ لنا آيات أكثر عجباً فى السماوات والأرض، وإنّ كل واحد منها نموذج لعظمة الخالق جلّ وعلا، وفى حياتكم- أيضاً- أسرار عجيبة تعتبر كل واحدة منها علامة على صدق دعوتك، وفى كتابك السماوى الكبير آيات عجيبة كثيرة، وبالطبع فإنّ قصة أصحاب الكهف ليست بأعجب منها.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲۶

«الرقيم»: فى الأصل مأخوذة من «رقم» وتعنى الكتابة، وهو اسم ثان لأصحاب الكهف، لأنّه فى النهاية تمّت كتابة أسمائهم على لوحة وضعت على باب الغار.

البعض يرى أنّ «الرقيم» اسم الجبل الذى كان فيه الغار.

ثم تقول الآيات بعد ذلك: «إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ» وعندما انقطعوا عن كل أمل توجّهوا نحو خالقهم: «فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ

رَحْمَةً». ثم: «وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا».

أى: أرشدنا إلى طريق ينقذنا من هذا الضيق ويقرّبنا من مرضاتك وسعادتك، الطريق الذى فيه الخير والسعادة وإطاعة أوامر اللّه تعالى. وقد إستجيبت دعوتهم: «فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا». «ثُمَّ بَعَثْنَهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا».

بحوث

١- جملة «أَوَى الْفِتْيَةُ» من مادة (مأوى) وتعنى المكان الآمن، وهو إشارة إلى أنّ هؤلاء الفتية الهاربين من بيئتهم الفاسدة المنحرفة قد أحسّوا بالأمن عندما وصلوا إلى الغار.

٢- «فتية»: جمع «فتى» وهو الشاب الحدث، ولكنها تطلق أحياناً على الأشخاص الكبار والمسنّين الذين يملكون روحية شابّة، وقد ذكرت هذه الكلمة مع نوع من الإشادة والمدح لأصحاب الكهف بسبب صفات الفتوة والشهامة والتسليم فى مقابل الحق.

٣- جملة «ضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ» كناية لطيفة عن (التنويم)، كأنّما يوضع ستار على أذن الشخص بحيث لا يسمع أىّ شىء، وهو ستار النوم.

۴- جملة «لِنَعْلَمَ ...» لا- تعنى أنّ اللّه يريد أن يعلم شيئاً جديداً، ويكثر استخدام هذا التعبير فى القرآن، والغرض منه هو تحقق العلم الإلهى، بمعنى نحن أيقظناهم من المنام حتى يتحقق هذا المعنى، أى حتى يسأل كل واحد الآخر عن مقدار نومهم.

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَ رَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً (١۴) هؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً (١۵) وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً (١۶)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٢٧

القصة المفصلة لأصحاب الكهف: بعد أن ذكرت الآيات بشكل مختصر قصة أصحاب الكهف، بدأت الآن مرحلة الشرح المفصل لها ضمن (١۴) آية وكان المنطلق فى ذلك قوله تعالى: «نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقّ». كلام خال من أىّ شكل من أشكال الخرافة والتزوير. «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبّهِمْ وَزِدْنهُمْ هُدًى».

وتشير الآيات القرآنية- وما هو ثابت فى التاريخ- إلى أنّ أصحاب الكهف كانوا يعيشون فى بيئة فاسدة وزمان شاعت فيه عبادة الأصنام والكفر، وكانت هناك حكومة ظالمة تحمى مظاهر الشرك والكفر والإنحراف.

مجموعة أهل الكهف أحسّوا بالفساد وقرروا القيام ضدّ هذا المجتمع، وفى حال عدم تمكنهم من المواجهة والتغيير فإنّهم سيهجرون هذا المجتمع والمحيط الفاسد.

لذا يقول القرآن بعد البحث السابق: «وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَهًا».

فإذا عبدنا غيره: «لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا».

«شطط»: على وزن (وسط) تعنى الخروج عن الحد والإفراط فى الإبتعاد لذا فإنّ (شطط) تقال للكلام البعيد عن الحق، ويقال لحواشى وضفاف الأنهار الكبيرة (شط) لكونها بعيدة عن الماء، وكونها ذات جدران مرتفعة.

إنّ هؤلاء الفتية المؤمنين ذكروا دليلًا واضحاً لإثبات التوحيد ونفى الآلهة، وهو قولهم:

إنّنا نرى وبوضوح أنّ لهذه السماوات والأرض خالقاً واحداً، وأنّ نظام الخلق دليل على وجوده، وما نحن إلّاجزء من هذا الوجود، لذا فإنّ ربّنا هو نفسه ربّ السماوات والأرض.

ثم ذكروا دليلًا آخر وهو: «هؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً».

فهل يمكن الإعتقاد بشىء بدون دليل وبرهان؟: «لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطنٍ بَيّنٍ».

وهل يمكن أن يكون الظن أو التقليد الأعمى دليلًا على مثل هذا الإعتقاد؟ ما هذا الظلم الفاحش والإنحراف الكبير: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا».

وهذا الإفتراء هو ظلم للنفس، لأنّ الإنسان يستسلم حينئذ لأسباب السقوط والشقاء، وهو أيضاً ظلم بحق المجتمع الذى تسرى فيه هذه الانحرافات، وأخيراً هو ظلم للّهوتعرّض لمقامه العظيم سبحانه وتعالى.

هؤلاء الفتية الموحدون قاموا بما يستطيعون لإزالة صدأ الشرك عن قلوب الناس،

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲۸

وزرع غرسة التوحيد فى مكانها، إلّاأنّ ضجة عبادة الأصنام فى ذلك المحيط الفاسد، وظلم الحاكم الجبار كانتا من الشدّة بحيث حبستا أنفاس عبادة اللّه فى صدورهم وانكمشت همهمات التوحيد فى حناجرهم. وهكذا اضطروا للهجرة لانقاذ أنفسهم والحصول على محيط أكثر استعداداً وقد تشاوروا فيما بينهم عن المكان الذى سيذهبون إليه ثم كان قرارهم: «وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ». حتى: «يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِرْفَقاً».

«يهيّىء»: مشتقة من «تهيئة» بمعنى الإعداد.

«مرفق»: تعنى الوسيلة التى تكون سبباً للطف والرفق والراحة.

وليس من المستبعد أن يكون (نشر الرحمة) الوارد فى الجملة الاولى إشارة إلى الألطاف المعنوية للّهتبارك وتعالى، فى حين أنّ الجملة الثانية تشير إلى الجوانب المادية التى تؤدّى إلى خلاصهم ونجاتهم.

وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَ إِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَ هُمْ فِى فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً (۱۷) وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ وَ نُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَ ذَاتَ الشِّمَالِ وَ كَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (۱۸)

مكان أصحاب الكهف: يشير القرآن فى الآيتين أعلاه إلى التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالحياة العجيبة لأصحاب الكهف فى الغار، وكأنّها تحكى على لسان شخص جالس فى مقابل الغار ينظر إليهم. فى هاتين الآيتين إشارة إلى ستّ خصوصيات هى:

أوّلًا: فتحة الغار كانت باتجاه الشمال، ولكونه فى الجزء الشمالى من الكرة الأرضية، فإنّ ضوء الشمس كان لا يدخل الغار بشكلٍ مباشر، فالقرآن يقول إنّك إذا رأيت الشمس حين طلوعها لرأيت أنّها تطلع من جهة يمين الغار، وتغرب من جهة الشمال: «وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۲۹

طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ».

وعلى هذا الأساس لم يكن ضوء الشمس يصل إلى أجسادهم بشكل مباشر، وهو أمر لو حصل فقد يؤدّى إلى تلف أجسادهم، ولكن الأشعة غير المباشرة كانت تدخل الغار بمقدار كاف.

إنّ عبارة (تزاور) التى تعنى (التمايل) تؤكّد على هذا المعنى، وكأنّ الشمس كانت مأمورة بأن تمرّ من اليمين (يمين الغار). وكلمة «تقرض»: التى تعنى (القطع) تؤكّد نفس مفهوم السابق.

ثانياً: «وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ».

لقد كان اولئك فى مكان واسع من الغار، وهذا يدل على أنّهم لم يأخذوا مستقرّهم فى فتحة الغار التى تتسم بالضيق عادة، بل إنّهم انتخبوا وسط الغار مستقراً لهم كى يكونوا بعيدين عن الأنظار، وبعيدين أيضاً عن الأشعة المباشرة لضوء الشمس.

وهنا يقطع القرآن تسلسل الكلام ويستنتج نتيجة معنوية، حيث يبيّن أنّ الهدف من ذكر هذه القصة هو لتحقيق هذا الغرض: «ذلِكَ مِنْ ءَايتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا».

نعم، إنّ الـذين يضـعون أقـدامهم فى طريق اللّه، ويجاهدون لأجله فإنّ اللّه سيشـملهم بلطفه فى كل خطوهٔ وليس فى بدايهٔ العمل فقط. إنّ اللّه يرعى هؤلاء حتى فى أدق التفاصيل.

ثالثاً: إنّ نوم أصحاب الكهف لم يكن نوماً عادياً: «وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ».

هـذه الحالـهٔ الاسـتثنائيهٔ لكى لا تقترب منهم الحيوانات المؤذيـهٔ التى تخاف الإنسان اليقظ، أو لكى يكون شـكلهم مرعباً كى لا يتجرأ إنسان على الإقتراب منهم، وهذا بنفسه اسلوب للحفاظ عليهم.

رابعـاً: وحتى لاـ تتهرأ أجسـامهم بسـبب السـنين الطويلـهٔ التى مكثوا فيها نياماً فى الكهف، فإنّ اللّه تبارك وتعالى يقول: «وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ».

حتى لا يتركز الدم فى مكان معين، ولا تكون هناك آثار سيئهٔ على العضلات الملاصقهٔ للأرض بسبب الضغط عليها لمدهٔ طويلهٔ.

خامساً: فى وصفٍ جديد يقول تعالى: «وَكَلْبُهُم بسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۳۰

«وصـيد»: كمـا يقول الراغب فى المفردات، تعنى فى الأصـل الغرفـهٔ أو المخزن الـذى يتمّ إيجاده فى الجبال لأجل خزن الأموال، إلّاأنّ المقصود به هنا هو فتحهٔ الغار.

سادساً: قوله تعالى: «لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا».

وَ كَذلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لْيَتَلَطَّفْ وَ لَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (۱۹) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً (۲۰)

اليقظـهٔ بعـد نوم طويل: سوف نقرأ فى الآيات القادمـهٔ أنّ نوم أصـحاب الكهف كان طويلًا للغايهٔ بحيث اسـتمر (۳۰۹) سنهٔ، وعلى هذا الأساس كان نومهم أشبه بالموت، ويقظتهم أشبه بالبعث، لذا فإنّ القرآن يقول فى الآيات التى نبحثها: «وَكَذلِكَ بَعَثْنَهُمْ».

يعنى مثلما كنّا قادرين على إنامتهم نوماً طويلًا فإنّنا أيضاً قادرون على إيقاظهم. لقـد أيقظناهم من النوم، «لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ». «قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ».

وأخيراً، بسبب عدم معرفتهم لمقدار نومهم، «قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ».

ولكنّهم كانوا يحسّون بالجوع وبالحاجهٔ الشديدهٔ إلى الطعام، لأنّ المخزون الحيوى فى جسـمهم انتهى أو كاد، لذا فأوّل اقتراح لهم هو إرسال واحد منهم مع نقود ومسـكوكات فضّيهٔ لشراء الغذاء: «فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ». ثم أردفوا: «وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا». لماذا هذا التلطّف:

«إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ». ثم: «وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا».

وتوصـيتهم هى توصـيهٔ لكافـهٔ أنصـار الحق، فى أن لاـ يفكروا بطهارهٔ غـذائهم المعنوى وحسب، بل عليهم أيضاً الإهتمام بطهارهٔ طعام الأجسام كى يكون زكياً نقيّاً من جميع الأرجاس والشبهات.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۳۱

وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (۲۱) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَ لَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (۲۲) وَ لَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذلِكَ غَداً (۲۳) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هذَا رَشَداً (۲۴)

نهایهٔ قصهٔ أصحاب الکهف: لقد وصلت بسرعهٔ أصداء هجرهٔ هذه المجموعهٔ من الرجال المتشخّصین إلی کل مکان وأغاظت بشدّهٔ الملک الظالم. لقد أصدر الحاکم تعلیماته إلی جهاز شرطته للبحث عن أصحاب الکهف فی کل مکان، وعلیهم أن یتّبعوا آثارهم حتی إلقاء القبض علیهم ومعاقبتهم.

وقد یکون هذا الأمر- وهو قیام مجموعهٔ من ذوی المناصب فی الدولهٔ بترک مواقعهم العالیهٔ فی الدولهٔ وتعریض أنفسهم للخطر- هو بحدّ ذاته سبباً لیقظهٔ الناس ومصدراً لوعیهم، أو لوعی قسم منهم علی الأقل.

إنّ قصهٔ هؤلاء النفر قد استقرّت فی صفحات التاریخ وأخذت الأجیال والأقوام تتناقلها عبر مئات السنین.

والآن لنعد إلی الشخص المکلّف بشراء الطعام ولننظر ماذا جری له.

لقد دخل المدینهٔ ولکنه فغر فاه من شدّهٔ التعجب، فالشکل العام للبناء قد تغیّر، هندام الجمیع ولباسهم غریب علیه، الملابس من طراز جدید، خرائب الأمس تحوّلت إلی قصور، وقصور الأمس تحوّلت إلی خرائب.

إنّه لا یزال یعتقد بأنّ نومهم فی الغار کان لیوم أو بعض یوم.

لقد انتهی عجبه عندما مدّ یده إلی جیبه لیسدّد مبلغ الطعام الذی اشتراه، فالبائع وقع

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۳۲

نظره علی قطعهٔ نقود ترجع فی قدمها إلی (۳۰۰) سنهٔ، وقد یکون اسم (دقیانوس) الملک الجبار مکتوباً علیها، وعندما طلب منه توضیحاً قال له بأنّه حصل علیها حدیثاً.

وهنا أحسّ الشخص بأنّه وأصحابه کانوا فی نوم عمیق وطویل.

هذه القضیهٔ کان لها صدی کالقنبلهٔ فی المدینهٔ، وقد انتقلت عبر الألسن إلی جمیع الأماکن. فقسم منهم لم یکن قادراً علی التصدیق بأنّ الإنسان یمکن أن یعود للحیاهٔ بعد الموت، إلّاأنّ قصهٔ أصحاب الکهف أصبحت دلیلًا قاطعاً لُاولئک الذین یعتقدون بالمعاد الجسمانی. ولذا فإنّ القرآن یبیّن أنّنا کما قمنا بإنامتهم نقوم الآن بإیقاظهم حتی ینتبه الناس:

«وَکَذلِکَ أَعْثَرْنَا عَلَیْهِمْ لِیَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ». ثم أضاف تعالی: «وَإِنَّ السَّاعَهَٔ لَارَیْبَ فِیهَا».

إنّ هذه الإنامهٔ والإیقاظ هی أکثر إثارهٔ للعجب من الموت والحیاهٔ فی بعض جوانبهما، فمن جهۀ قد مرّت علیهم مئات السنین وهم نیام وأجسامهم لم تفن أو تتأثّر، وقد بقوا طوال هذه المدّهٔ بدون طعام أو شراب، إذن کیف بقوا أحیاءً طیلهٔ هذه المدّهٔ؟

ألیس هذا دلیلًا قاطعاً علی قدرهٔ اللّه علی کل شیء؟ فالحیاهٔ بعد الموت، بعد مشاهدهٔ هذه القضیهٔ ممکنهٔ حتماً.

بعض المؤرخین کتب یقول: إنّ الشخص الذی أرسل لتهیئهٔ الطعام وشرائه، عاد بسرعهٔ إلی الکهف وأخبر رفقاءه بما جری، وقد تعجّب کل منهم، فطلبوا من الخالق جلّ وعلا أن یمیتهم، وینتقلون بذلک إلی جوار رحمته، وهذا ما حدث.

لقد ماتوا ومضوا إلی رحمهٔ ربّهم، وبقیت أجسادهم فی الکهف عندما وصله الناس.

وهنا حدث النزاع بین أنصار المعاد الجسمانی وبین من لم یعتقد به، فالمعارضون للمعاد کانوا یریدون أن تنسی قضیهٔ نوم ویقظهٔ أصحاب الکهف بسرعهٔ، کی یسلبوا أنصار المعاد الجسمانی هذا الدلیل القاطع، لذا فقد اقترح هؤلاء أن تغلق فتحهٔ الغار، حتی یکون الکهف خافیاً إلی الأبد عن أنظار الناس. قال تعالی: «إِذْ یَتَنَازَعُونَ بَیْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَیْهِم بُنْیَانًا».

ولأجل إسکات الناس عن قصّیتهم کانوا یقولون: لا تتحدثوا عنهم کثیراً، إنّ قضیتهم معقّدهٔ ومصیرهم محاط بالألغاز. لذلک فإنّ: «رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ». أی: اترکوهم وشأنهم واترکوا الحدیث عن قصّتهم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۳۳

أمّا المؤمنون الحقیقیون الذین عرفوا حقیقهٔ الأمر واعتبروه دلیلًا حیّاً لإثبات المعاد بعد الموت، فقد جهدوا علی أن لا تنسی القصهٔ أبداً لذلک اقترحوا أن یتّخذوا قرب مکانهم مسجداً، وبقرینهٔ وجود المسجد فإنّ الناس سوف لن ینسوهم أبداً، بالإضافهٔ إلی ما یتبرّک به

الناس من آثارهم: «قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا».

الآيهٔ التی بعدها تشير إلی بعض الإختلافات الموجودهٔ بين الناس حول أصحاب الكهف، فمثلًا تتحدّث الآيهٔ عن اختلافهم فی عددهم فتقول: «سَيَقُولُونَ ثَلَثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ». وبعضهم «وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ». وذلك منهم «رَجْمًا بِالْغَيْبِ».

وبعضهم «وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ». أمّا الحقيقهٔ فهی: «قُلْ رَّبِّی أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم».

ولذلك «مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ».

إنّ عدد أصحاب الكهف الحقيقی هو سبعهٔ، حيث إنّ القرآن بعد ذكر الأقوال الباطلهٔ، أبان فی الأخير العدد الحقيقی لهم.

إنّ الآيـهٔ تنتهی بنصيحهٔ تحثّ علی عـدم الجـدال حولهم إلّاالجـدل القـائم علی أسـاس المنطق والـدليل: «فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهِرًا». بمعنی قل لهم قولًا منطقيّاً بحيث تتوضّح رجحان منطقك.

إنّ مفهوم الكلام هو: عليك أن تتحـدث معهم بالإعتماد علی الوحی الإلهی، لأنّ أقوی الأدلـهٔ هو ما يصدر عن الوحی دون غيره: «وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا».

الآيـهٔ التی بعـدها تعطی توجيهاً عاماً لرسول اللّه صـلی الله عليه و آله: «وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاىْءٍ إِنّی فَاعِلٌ ذلِكَ غَـدًا». «إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ». يعنی يجب أن تقول (إن شاء اللّه) لكل ما يخصّ أخبار المسـتقبل وأحداثه ولكل تصميم تتخذه، لأنّك أوّلًا غير مستقل فی اتّخاذ القرارات، وإذا لم يشأ اللّه فإنّ كائناً من كان لا يستطيع القيام بأىّ عمل.

ثانياً: لا يصح للإنسان– من الوجههٔ المنطقيهٔ– أن يقطع فی أخباره المستقبليهٔ ومواقفه وتصميماته، لأنّ قدرته محدودهٔ مع احتمال ظهور الموانع المختلفهٔ، لذلك الأفضل له ذكر جملهٔ (إن شاء اللّه) مع كل تصميم لفعل شیء.

وبعـد ذلـك يقول القرآن: «وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِـيتَ». وهـذه إشـارهٔ إلی أنّ الإنسـان إذا نسـی قول (إن شاء اللّه) وهو يتحـدث عن أمر مستقبلی، فعليه أن يقولها فور تذكّره، حيث يعوّض بذلك عما مضی منه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۳۴

وبعد ذلك جاء قوله تعالی: «وَقُلْ عَسَی أَن يَهْدِيَنِ رَبّی لِأَقْرَبَ مِنْ هذَا رَشَدًا».

وَ لَبِثُوا فِی كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِـنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً (۲۵) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ أَبْصِـرْ بِهِ وَ أَسْمِـعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لَا يُشْـرِكُ فِی حُكْمِهِ أَحَـداً (۲۶) وَ اتْلُ مَا أُوحِیَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَـدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ لَنْ تَجِـدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَـداً (۲۷)

نوم أصـحاب الكهف: من القرائن الموجودهٔ فی الآيات السابقـهٔ نفهم إجمالًا أنّ نوم أصـحاب الكهف كان طويلًا جـدّاً. هذا الموضوع يثير غريزهٔ الاستطلاع عند كل مستمع، إذ يريد أن يعرف كم سنهٔ بالضبط استمرّ نومهم؟

فی المقطع الأـخير من مجموعـهٔ الآيـات التی تتحـدث عن أصـحاب الكهف، تبعـد الآيـات الشـك عن المسـتمع وتقول له: «وَلَبِثُوا فِی كَهْفِهِمْ ثَلَثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا».

ووفقاً للآيهٔ فإنّ مجموع نومهم وبقائهم فی الكهف هو (۳۰۹) سنهٔ.

ومن أجـل وضع حـدّ لأقاويـل النـاس حول مكثهم فی الكهف تؤكّـد الآيـهٔ: «قُـلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَـا لَبِثُوا». لمـاذا؟ لأـنّ: «لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

والذی يعرف خفايا وظواهر عالم الوجود ويحيط بها جميعاً، كيف لا يعرف مدّهٔ بقاء أصـحاب الكهف: «أَبْصِـرْ بِهِ وَأَسْـمِعْ» «۱». ولهذا السبب فإنّ سكّان السماوات والأرض: «مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِیّ».

وفی نهايهٔ الآيهٔ يأتی قوله تعالی: «وَلَا يُشْرِكُ فِی حُكْمِهِ أَحَدًا». هذا الكلام هو تأكيد علی الولايهٔ المطلقهٔ للخالق جلّ وعلا.

وفی آخر آيـهٔ يتوجّه الخطـاب إلی الرسول صـلی الله عليه و آله ويقول اللّه له: «وَاتْـلُ مَا أُوحِیَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبّكَ». أی: لا تعر أيّهٔ

أهميـة إلى أقوال الآخرين المخلوطـة بالكـذب والخرافـة والوضع، يجب أن يكون اعتمادك فى هـذه الامور على الوحى الإلهى فقط، لأنّه لا يوجد شيء يستطيع أن يغيّر كلامه تعالى: «لَامُبَدِّلَ لِكَلِمتِهِ». فكلام اللَّه تعالى وعلمه ليس من سنخ علم

(١) جملة «أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ» هى صيغة تعجب، تبيّن لنا عظمة علم الخالق جلّ وعلا، والمعنى أنّه بصير سميع بحيث إنّ الإنسان يعجب من ذلك.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٣٥

الإنسان الـذى يخضع يوميّاً للتغيّر والتبـديل بسـبب الإكتشافات الجديدة والمعرفة الحديثة، لذلك لا يمكن الإعتماد عليه والركون إليه مائة فى المائة، ولهذه الأسباب: «وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا». «ملتحد»: مشتقة من «لحد» على وزن «مهد» وهى الحفرة التى يميل وسطها إلى أحد الأطراف (كاللّحد الذى يحفر لقبر الإنسان).

الجوانب التربويـة لقصّـة أهل الكهف: هذه القصّة التأريخية العجيبة التى يذكرها القرآن خالية من أىّ خرافة أو وضع، وفيها العديد من الدروس التربوية البنّاءة، تماماً كما فى قصص القرآن الاخرى.

أ) إنّ أوّل دروس هذه القصة هو تحطيم حاجز التقليد، والإبتعاد عن التلوّن بلون المجتمع الفاسد.

ب) الهجرة من الأوساط المنحرفة درس آخر فى هذه القصة ذات العبر.

ج) التقية بمعناها البنّاء درس آخر نستفيده من هذه القصة.

ونحـن نعرف أنّ التقيـة ليست سـوى أن يتكتّم الإنسـان على حقيقـة أمره فى الأمـاكن والمواقـف الـتى لا- يرتجى منهـا فائـدة فى ذكر الحقيقة، بل تكون سبباً للضرر، والتقية وقاية للنفس واحتفاظ بقوة الإنسان لوقت جهاد العدو حيث لا تقية.

د) عدم وجود تفاوت بين الناس وهم فى طريق اللَّه، فالوزير كان إلى جانب الراعى، بل كان الاثنان إلى جانب الكلب الذى كان يقوم بالحراسـة، وهـذا درس آخر يتّضـح من خلالـه أنّ إمتيـازات الـدنيا الماديـة، والمنـاصب المختلفـة ليس لها أدنى نصـيب أو تأثير على تصـنيف الناس من أهل الحق وسالكيه، إذ الكل فيه سواء ... إنّ طريق الحق هو طريق التوحيـد، وطريق التوحيـد هو طرق وحـدة جميع الناس.

ه) الإمدادات الإلهية العجيبة عند ظهور المشاكل، هى نتيجة اخرى يجب الاعتبار بها.

و) لقـد تعلّمنا من أصـحاب الكهف قيمـة (طهارة الطعام) حتى فى أصـعب الظروف وأدقّها، لأنّ طعام الإنسان له آثار عميقة فى روحه وفكره وقلبه، وعندما يختلط الطعام بالحرام والنجاسة، يبتعد الإنسان عن طريق اللَّه؛ طريق التقوى.

ز) ضـرورة الاعتمـاد على مشـيئة اللَّه وطلب العون من لطفه تعـالى: وقول (إن شاء اللَّه) فى كل ما يتعلق بامور المسـتقبل ... درس آخر نتعلّمه من قصة أصحاب الكهف.

ح) ضرورة النقاش المنطقى مع المعارضين درسٌ آخر نستفيده من قصة أصحاب الكهف.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٣٦

ط) وأخيراً، فإنّ إمكانيـة المعاد الجسـمانى وعودة الناس إلى الحياة مرّة اخرى عنـد البعث، يعتبر عاشـر وآخر درس نسـتفيده من هـذه القصّة.

إنّ هدف القرآن ليس قصّ القصـص لغرض التسلية، بل بناء الناس المقاومين المؤمنين الشجعان الواعين، وأحد الطرق لذلك هو ذكر نماذج أصيلة مما حدث طوال التاريخ البشرى المليء بالحوادث والمواقف.

وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨) وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ

بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَ سَاءَتْ مُرْتَفَقاً (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ يَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (٣١)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: نزلت الآية الاولى فى سلمان، وأبى ذر، وصهيب، وعمار، وخباب، وغيرهم من فقراء أصحاب النبى صلى الله عليه و آله وذلك أنّ مؤلفة قلوبهم جاؤوا إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقالوا: يا رسول اللّه! إن جلست فى صدر المجلس ونحّيت عنّا هؤلاء روائح صنانهم وكانت عليهم جبات الصوف، جلسنا نحن إليك، وأخذنا عنك، فلا يمنعنا من الدخول عليك إلّا هؤلاء.

فلمّا نزلت الآية قام النبى صلى الله عليه و آله يلتمسهم فأصابهم فى مؤخّر المسجد يذكرون اللّه عزّ وجل، فقال: «الحمد للّهالذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى، معكم المحيا ومعكم الممات».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٣٧

التّفسير

الحفاة الأطهار: من الدروس التى نستفيدها من قصة أصحاب الكهف أنّ مقياس قيمة البشر ليست بالمنصب الظاهرى أو بالثروة، بل عندما يكون المسير فى سبيل اللّه يتساوى الوزير والراعى، والآيات التى نبحثها تؤكّد هذه الحقيقة المهمة وتعطى للرسول صلى الله عليه و آله هذا الأمر: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوةِ وَالْعَشِيّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ».

ثم تستمر الآيات مؤكّدة خطابها للرسول صلى الله عليه و آله: «وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا» فلا تنظر إلى هؤلاء المستكبرين بدل المستضعفين من أجل بهارج الدنيا وزخارفها.

ثم من أجل التأكيد مجدداً، يقول تعالى: «وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا». «وَاتَّبَعَ هَوَيهُ» والمطيع لأهوائه النفسية، والمفرط فى أفعاله دائماً «وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» «١».

إنّ الموضوع أعلاه من الأهمية بمكان، بحيث إنّ القرآن يقول للرسول صلى الله عليه و آله- بصراحة- فى الآية التى بعدها: «وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ».

ولكن اعلموا أنّ هؤلاء عباد الدنيا الذين يسخرون من الألبسة الخشنة التى يرتديها أمثال سلمان وأبى ذر خاصة، والذين يعيشون حياة مرفّهة باذخة ومليئة بالزينة، ستنتهى عاقبتهم إلى سوء وظلام وعذاب: «إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا».

نعم، إنّهم كانوا إذا عطشوا فى هذه الدنيا كان الخدم يجلبون لهم أنواع المشروبات، ولكنّهم عندما يطلبون الماء فى جهنم يؤتى إليهم بماء كالمهل: «وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ» «٢». «بِئْسَ الشَّرَابُ». ثم «وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا» «٣».

وفى هذه الدنيا تتوفر لديهم أنواع المشروبات التى تحضر بين أيديهم بمجرد مناداة الساقى، وفى جهنم يوجد أيضاً ساقٍ وأشربة، أمّا ما هو نوع الشراب؟ إنّه ماء كالمعدن المذاب! حرارته كحرارة دموع اليتامى وآهات المستضعفين والفقراء الذين ظلمهم هؤلاء الأغنياء. نعم، إنّ كل ما هو موجود هناك (فى الآخرة) هو تجسيد لما هو موجود هنا (فى الدنيا).

وبما أنّ اسلوب القرآن اسلوب تربوى وتطبيقى، فإنّه بعدما بيّن أوصاف وجزاء عبيد

---

(١) «فرط»: تعنى التجاوز عن الحد، وكل شىء يخرج عن حدّه ويتحول إلى إسراف يقال له (فُرط).

(٢) «مُهل»: على وزن «قفل» وهى تعنى أى معدن مُذاب.

(٣) «مُرتفق»: من كلمة «رَفق ورفيق» بمعنى محل اجتماع الأصدقاء.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۳۸

الدنيا، ذكر حال المؤمنين الحقيقيين وجوائزهم الثمينة الغالية التى تنتظرهم جزاء ما فعلوا.

لقد أجملت الآية كل ذلك بشكلٍ مختصر، ثم بشكلٍ تفصيلى نوعاً مّا. ففى البدء قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَانُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا». أى: إنّنا لا نضيع أعمال العاملين قليلة كانت أو كثيرة، كلية أو جزئية، ومن أى شخص وفى أى عمرٍ كان:

«أُولئِكَ لَهُمْ جَنتُ عَدْنٍ». (الجنات الخالدة).

«تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهرُ». (من تحت الأشجار والقصور).

«يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ» «۱».

«وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ». (من حرير ناعم وسميك).

«مُّتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ» «۲».

«نِعْمَ الثَّوَابُ». «وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا». (وحسنت مجمعاً للأحبّة).

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَ حَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً (۳۲) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَ فَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً (۳۳) وَ كَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً (۳۴) وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً (۳۵) وَ مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً (۳۶)

تجسيد لموقف المستكبرين من المستضعفين: فى الآيات السابقة رأينا كيف أنّ عبيد الدنيا كانوا يحاولون الإبتعاد فى كل شىء عن رجال الحق وأهله المستضعفين، ثم عرّفتنا الآيات جزاءهم فى الحياة الاخرى. الآيات التى نبحثها تشير إلى حادثة اثنين من الأصدقاء أو الإخوة الذين يعتبر كل واحدٍ منهم نموذجاً لإحدى المجموعتين، ويوضّحان طريقة تفكير وقول وعمل هاتين المجموعتين. فى البداية تخاطب الآيات الرسول صلى الله عليه و آله

---

(۱) «أساور»: جمع «أسورة» على وزن «مشورة» وهى بدورها جمع (سوار) على وزن (غبار) و (كتاب) وهى فى الأصل مأخوذة من كلمة فارسية عُرّبت واشتقت منها الأفعال العربية.

(۲) «أرائك»: جمع «أريكة» وتطلق على السرير الذى تكون جوانبه جميعاً مغطاة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۳۹

فتقول: «وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنبٍ وَحَفَفْنهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا».

البستان والمزرعة كان فيهما كل شىء: العنب والتمر والحنطة وباقى الحبوب، لقد كانت مزرعة كاملة ومكفية من كل شىء: «كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيًا».

والأهم من ذلك هو توفّر الماء الذى يعتبر سرّ الحياة، وأمراً مهماً لا غنى للبستان والمزرعة عنه، وقد كان الماء بقدر كاف: «وَفَجَّرْنَا خِللَهُمَا نَهَرًا».

على هذا الأساس كانت لصاحب البستان كل أنواع الثمار: «وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ».

ولأنّ الدنيا قد استهوته فقد أصيب بالغرور لضعف شخصيته وشعر بالأفضلية والتعالى على الآخرين، حيث إلتفت وهو بهذه الحالة إلى صاحبه: «فَقَالَ لِصحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا».

لقد تضخّم هذا الإحساس ونما تدريجياً- كما هو حاله- ووصل صاحب البستان إلى حالة بدأ يظن معها أنّ هذه الثروة والمال والجاه والنفوذ إنّما هى امور أبدية، فدخل بغرور إلى بستانه (فى حين أنّه لا- يعلم بأنّه يظلم نفسه) ونظر إلى أشجاره الخضراء التى كادت

أغصانها أن تنحنى من شدّة ثقل الثمر، وسمع صوت الماء الذى يجرى فى النهر القريب من البستان والذى كان يسقى أشجاره، وبغفلة قال: لا أظن أن يفنى هذا البستان، وبلسان الآية وتصوير القرآن الكريم: «وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذِهِ أَبَدًا».

بل عمد إلى ما هو أكثر من هذا، إذ بما أنّ الخلود فى هذا العالم يتعارض مع البعث والمعاد، لذا فقد فكّر فى إنكار القيامة وقال: «وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً». وهذا كلام يعكس وهم قائله وتمنّياته.

ثم أضاف: حتى لو فرضنا وجود القيامة فإنّى بموقعى ووجاهتى سأحصل عند ربى- إذا ذهبت إليه- على مقام وموقع أفضل، لقد كان غارقاً فى أوهامه: «وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا».

لقد أخذ صاحب البستان ضمن الحالة النفسية التى يعيشها والتى صوّرها القرآن الكريم، يضيف إلى نفسه فى كل فترة وهماً بعد آخر من أمثال ما حكت عنه الآيات آنفاً، وعند هذا الحد انبرى له صديقه المؤمن وأجابه بكلمات يشرحهما لنا القرآن الكريم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۴۰

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَ هُوَ يُحَاوِرُهُ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (۳۷) لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى وَ لَا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَداً (۳۸) وَ لَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَ وَلَداً (۳۹) فَعَسَى رَبِّى أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَ يُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (۴۰) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (۴۱)

جواب المؤمن: هذه الآيات هى ردّ على ما نسجه من أوهام ذلك الغنى المغرور العديم الإيمان، نسمعها تجرى على لسان صاحبه المؤمن. لقد بدأ الكلام بعد أن ظلّ صامتاً يستمع إلى كلام ذلك الرجل ذى الأفق الضيّق والفكر المحدود، حتى ينتهى من كلامه، ثم قال له:

«قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّيكَ رَجُلًا».

ثم عمد الرجل الموحد المؤمن إلى تحطيم كفر وغرور ذلك الرجل (صاحب البستان) فقال: «لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبّى».

إنّك تتباهى بدنياك وأنا أفتخر بعقيدتى وإيمانى وتوحيدى: «وَلَا أُشْرِكُ بِرَبّى أَحَدًا».

وبعد أن أشار إلى قضية التوحيد والشرك اللذين يعتبران من أهم المسائل المصيرية، جدّد لومه لصاحبه قائلًا: «وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ».

وقد وضع سبحانه وتعالى الوسائل والإمكانات تحت تصرفك، حيث إنّك لا تملك شيئاً من عندك، وبدونه تكون لا شىء.

ثم يقول له: ليس من المهم أن أكون أقل منك مالًا وولداً: «إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا». «فَعَسَى رَبّى أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ».

وليس فقط أن يعطينى أفضل مما عندك، بل ويرسل صاعقة من السماء على بستانك، فتصبح الأرض الخضراء أرض محروقة جرداء: «وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا».

أو أنّه سبحانه وتعالى يعطى أوامره إلى الأرض كى تمنعك الماء: «أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا».

«حُسبان»: على وزن «لقمان» وهى فى الأصل مأخوذة من كلمة «حساب»، ثم وردت

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۴۱

بعد ذلك بمعنى السهام التى تحسب عند رميها، وتأتى أيضاً بمعنى الجزاء المرتبط بحساب الأشخاص، وهذا هو ما تشير إليه الآية أعلاه.

«صعيد»: تعنى القشرة التى فوق الأرض، وهى فى الأصل مأخوذة من كلمة صعود.

«زلق»: بمعنى الأرض الملساء بدون أى نباتات بحيث إنّ قدم الإنسان تنزلق عليها.

فى الواقع، إنّ الرجل المؤمن والموحد حذّر صديقه المغرور أن لا يطمأن لهذه النعم، لأنّها جميعاً فى طريقها إلى الزوال وهى غير قابلة للإعتماد.

وَ أَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَ هِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّى أَحَداً (۴۲) وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَا كَانَ مُنْتَصِراً (۴۳) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَ خَيْرٌ عُقْباً (۴۴)

العاقبـة السوداء: أخيراً انتهى الحوار بين الرجلين دون أن يؤثّر الشـخص الموحـد المؤمن فى أعماق الغنى المغرور، الذى رجع إلى بيته وهو يعيش نفس الحالة الروحية والفكرية، وغافل أنّ الأوامر الإلهية قد صدرت بإبادة بساتينه ومزروعاته الخضـراء، وأنّه وجب أن ينال جزاء غروره وشركه فى هذه الدنيا، لتكون عاقبته عبرة للآخرين.

ويحتمل أنّ العذاب الإلهى قد نزل فى تلك اللحظة من الليل عندما خيّم الظلام، على شـكل صاعقة مميتة أو عاصفة هوجاء مخيفة، أو على شـكل زلزال مخرّب ومـدمّر. وأيّاً كان فقـد دمّرت هـذه البساتين الجميلـة والأشـجار العاليـة والزرع المثمر، حيث أحاط العـذاب الإلهى بتلك المحصولات من كل جانب: «وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ».

«أحيط»: مشتقة من «إحاطة» وهى فى هذه الموارد تأتى بمعنى (العذاب الشامل) الذى تكون نتيجته الإبادة الكاملة.

وعند الصبـاح جاء صاحب البسـتان وتدور فى رأسه الأحلام العديدة ليتفقد ويستفيد من محصولات البستان، ولكنّه قبل أن يقترب منه واجهه منظر مـدهش وموحش، يبس الماء فى فمه، وتحطّم الكبرياء والغرور اللذان كانا يثقلان نفسه وعقله. كأنّه صـحا من نوم عميق: «فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا».

وفى هذه اللحظة ندم على أقواله وأفكاره الباطلة: «وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبّى أَحَدًا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۴۲

والأكثر حزناً وأسـفاً بالنسبـة له هو ما أصبح عليه من الوحـدة فى مقابل كل هذه المصائب والإبتلاءات: «وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُـرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ».

ولأنّه فقد ما كان يملكه من رأس المال ولم يبق لديه شىء آخر، فإنّ مصيره: «وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا».

وهكذا انتهى كل شـىء ولا ينفع الندم، لأنّ مثل هذه اليقظة الإجبارية التى تحدث عند نزول الإبتلاءات العظيمة يمكن ملاحظتها حتى عند أمثال فرعون ونمرود، وهى بلا قيمة، لهذا فإنّها لا تؤثّر على حال من ينتبه.

«هُنَالِكَ الْوَلَيَةُ لِلَّهِ الْحَقّ». نعم، لقـد إتضـح أنّ جميع النعم منه تعالى، وأنّ كل ما يريـده تعالى يكون طوع إرادته، وأنّه بدون الاعتماد على لطفه لا يمكن إنجاز عمل: «هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا».

إذن، لو أراد الإنسـان أن يحبّ أحـداً ويعتمـد على شـىء ما، أو يأمل بهديّـة من شـخص ما، فمن الأفضل أن يكون اللَّه سـبحانه محطّ أنظاره، وموقع آماله، ومن الأفضل أن يتعلق بلطفه تعالى وإحسانه.

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً (۴۵) الْمَالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَ خَيْرٌ أَمَلًا (۴۶)

بدايـة ونهايـة الحياة فى لوحة حيّة: الآيات السابقة تحدثت عن عدم دوام نعم الدنيا، ولأنّ إدراك هذه الحقيقة فى عمر (۶۰- ۸۰) سنة يعتبر أمراً صعباً بالنسبـة للأفراد العـاديين، لـذا فـإنّ القرآن قـد جسّـد هـذه الحقيقـة من خلال مثال حى ومعبّر كى يستيقـظ الغافلون المغرورون من غفلتهم ونومهم عندما يشاهدون تكرار هذا الأمر عدة مرّات خلال عمرهم. يقول تعالى: «وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَهُ مِنَ السَّمَاءِ». هـذه القطرات الواهبة للحياة تسـقط على الجبال والصـحراء، وتعيد الحياة للبذور المسـتعدة الكامنة فى الأرض المستعدة بدورها، لتبدأ حركتها التكاملية.

إنّ الطبقـة الخارجيـة السـميكة للبـذور تلين قبال المطر، وتسـمح للبراعم فى الخروج منهـا، وأخيراً تشقّ هـذه البراعم التراب وتخترقه، الشـمس تشع، النسـيم يهب، المواد الغذائيـة فى الأـرض تقـدّم ما تسـتطيع، تتقوى البراعم بسـبب عوامل الحياة هـذه ثم تواصل نموّها، بحيث

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۴۳

- بعد فترة- نری أنّ نباتات الأرض تتشابک فیما بینها: «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ».

الجبل والصحراء یتحوّلان إلی قوّة حیاتیة دافعة، أمّا البراعم والفواکه والأوراد فإنّها تزیّن الأغصان، وکأنّ الجمیع یضحک، یصرخون صراخ الفرح؛ یرقصون فرحاً.

لکن هذا الواقع الجذّاب لا یدوم طویلًا، حیث تهب ریاح الخریف وتلقی بغبار الموت علی النباتات، یبرد الهواء، وتشح المیاه، ولا تمضی مدّة حتی یمسی ذلک الزرع الجمیل الأخضر ذو الأغصان المورقة، میتاً ویابساً: «فَأَصْبَحَ هَشِیمًا» «۱».

تلک الأوراق التی لم تتمکن العواصف الهوجاء من فصلها عن الأغصان فی فصل الربیع، قد أصبحت ضعیفة بدون روح بحیث إنّ أی نسیم یهب علیها یستطیع فصلها عن الأغصان ویرسلها إلی أیّ مکان شاء: «تَذْرُوهُ الرِّیحُ» «۲».

نعم: «وَکَانَ اللَّهُ عَلَی کُلِّ شَیْ ءٍ مُّقْتَدِرًا».

الآیة التی بعدها تذکر وضع المال والثروة والقوة الإنسانیة اللذین یعتبران رکنین أساسیین فی الحیاة الدنیا، حیث تقول: «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِینَةُ الْحَیَوةِ الدُّنْیَا».

إنّ هذه الآیة تشیر إلی أهم قسمین فی رأسمال الحیاة حیث ترتبط الأشیاء الاخری بهما، إنّها تشیر إلی (القوة الاقتصادیة) و (القوة الإنسانیة).

ثم یضیف القرآن: «وَالْبَاقِیَاتُ الصَّالِحَاتُ خَیْرٌ عِندَ رَبِّکَ ثَوَابًا وَخَیْرٌ أَمَلًا».

إنّ مفهوم (الباقیات الصالحات) یشمل کل فکره وقول وعمل صالح تدوم وتبقی آثاره وبرکاته بین الأفراد والمجتمعات.

وَ یَوْمَ نُسَیِّرُ الْجِبَالَ وَ تَرَی الْأَرْضَ بَارِزَةً وَ حَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (۴۷) وَ عُرِضُوا عَلَی رَبِّکَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا کَمَا خَلَقْنَاکُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ نَجْعَلَ لَکُمْ مَوْعِداً (۴۸) وَ وُضِعَ الْکِتَابُ فَتَرَی الْمُجْرِمِینَ مُشْفِقِینَ مِمَّا فِیهِ وَ یَقُولُونَ یَا وَیْلَتَنَا مَا لِهذَا الْکِتَابِ لَا یُغَادِرُ صَغِیرَةً وَ لَا کَبِیرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَ لَا یَظْلِمُ رَبُّکَ أَحَداً (۴۹)

---

(۱) «هشیم»: من «هشم» بمعنی محطّم، وهی هنا تطلق علی النباتات المتیبسة والمتحطّمة.

(۲) «تذروه»: من «ذرو» وتعنی التشتیت.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۴۴

یا ویلتاه من هذا الکتاب: تعقیباً لما کانت تتحدّث به الآیات السابقة عن غرور الإنسان وإعجابه بنفسه، وما تؤدّی إلیه هذه الصفات من إنکار للبعث والمعاد، ینصب المقطع الراهن من الآیات التی بین أیدینا علی تبیان المراحل الممهدة للقیامة وفق الترتیب الآتی:

۱- مرحلة ما قبل بعث الإنسان.

۲- مرحلة البعث.

۳- قسم من مرحلة ما بعد البعث.

الآیة الاولی تذکّر الإنسان بمقدمات البعث والقیامة فتقول: إنّ إنهیار معالم الشکل الراهن للعالم هی أوّل مقدمات البعث، وسیتمّ هذا التغییر لشکل العالم من خلال مجموعة مظاهر، فی الطلیعة منها تسییر الجبال الرواسی وکل ما یمسک الأرض ویبرز علیها، حتی تبدو الأرض خالیة من أیّ من المظاهر السابقة: «وَیَوْمَ نُسَیِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَی الْأَرْضَ بَارِزَةً».

هذه الآیة تشیر إلی حوادث قبیل البعث، وهی حوادث کثیرة جدّاً. والملاحظ أنّ السور القصار تتحدث عنها بشکل بارز فی إطار حدیثها عما بات یعرف اصطلاحاً ب «أشراط الساعة».

إنّ المستفاد من مجموعة تلک السور أنّ وجه العالم الراهن یتغیّر بشکل کلی حیث تتلاشی الجبال، وعلی حطام کل ذلک تظهر إلی

الوجود سماء جديدة، وأرض جديدة، ليبدأ الإنسان حينئذ حياته الاخرى فى مرحلة البعث والحساب.

بعد ذلك تضيف الآية قوله تعالى: «وَحَشَرْنهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا».

«نغادر»: من «غدر» بمعنى الترك. ولذلك يقال للذى يخلف الوعد والميثاق ويتركه بأنّه «غدر» ويقال لمياه الامطار المتجمعة فى مكان واحد ب «الغدير» لأنّها قد تركت هناك.

تؤكّد الآية الآنفة الذكر على أنّ المعاد هو حالة عامة لا يستثنى منها أحد.

الآية التى بعدها تتحدث عن كيفية بعث الناس فتقول: «وَعُرِضُوا عَلَى رَبّكَ صَفًّا». إنّ استخدام هذا التعبير قد يكون إشارة إلى حشر كل مجموعة من الناس تتشابه فى أعمالها فى صفٍ واحد؛ أو أنّ الجميع سيكونون فى صف واحد دون أيّة إمتيازات أو تفاوت، وسوف يقال لهم: «لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

فليس ثمة كلام عن الأموال والثروات، ولا الذهب والزينة، ولا الإمتيازات والمناصب

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٤٥

المادية، ولا الملابس المختلفة، وليس هناك ناصر أو معين، ستعودون كمثل الحالة التى خلقناكم فيها أوّل مرّة، بالرغم من أنّكم كنتم تتوهمون عدم امكان ذلك: «بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا».

وذلك فى وقت سيطرت فيه حالة الغرور عليكم بما أوتيتم من إمكانات مادية غفلتم معها عن الآخرة، وأصبحتم تفكّرون فى حياتكم الدنيا وخلودها، وغفلتم عن نداء الفطرة فيكم.

ثم تشير الآيات إلى مراحل اخرى من يوم البعث والمعاد فتقول: «وَوُضِعَ الْكِتبُ».

هذا الكتاب الذى يحتوى على أحوال الناس بكل تفصيلاتها: «فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ». وذلك عندما يطّلعون على محتواه فتتجلى آثار الخوف والوحشة على وجوههم.

فى هذه الأثناء يصرخون: «وَيَقُولُونَ يوَيْلَتَنَا مَالِ هذَا الْكِتبِ لَايُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصهَا».

بالإضافة إلى الكتاب المكتوب ثمة دليل آخر: «وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا». وجدوا الحسنات والسيئات، الظلم والعدل، السلبيات والخيانات، كل هذه وغيرها وجدوها متجسّدة أمامهم.

فى الواقع إنّهم يلاقون مصير أعمالهم: «وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا». الذى سيشملهم هناك هو- لا محالة- ما قاموا به فى هذه الحياة الدنيا، لذلك فلا يلومون أحداً سوى أنفسهم.

ترى ما مقدار ما يعكسه الإيمان بهذا اليوم- بهذه المحكمة بكلّ ما تتخلله من مشاهد ومواقف- على قضية تربية الإنسان ودفعه ليتحرك فى خط الرسالة والاستقامة والابتعاد عن الشهوات. فهل يمكن أن يجمع الإنسان بين الذنب، وبين إيمانه ويقينه بهذا اليوم؟!

وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَ مَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (٥١) وَ يَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً (٥٢) وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً (٥٣)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٤۶

لا تتخذوا الشياطين أولياء: لقد تحدّثت الآيات مرّات عدّة عن خلق آدم وسجود الملائكة له، وعدم انصياع إبليس. وقد قلنا: إنّ هذا التكرار يتضمن دروساً متعددة، وفى كل مقطع مكرّر هناك دروس وعبر جديدة.

ولأنّ الآيات السابقة ذكرت مثالًا واقعياً عن كيفية وقوف الأثرياء المستكبرين والمغرورين فى مقابل الفقراء المستضعفين وتجسّد عاقبة عملهم، ولأنّ الغرور كان هو السبب الأصلى لإنحراف هؤلاء وانجرارهم إلى الكفر والطغيان، لذا فإنّ الآيات تعطف الكلام على قصة

إبليس وكيف أبى السجود لآدم غروراً منه وعلوّاً، وكيف قاده هذا الغرور والعلو إلى الكفر والطغيان.

إضافة إلى ذلك، فإنّ هذه القصة توضّح أنّ الانحرافات تنبع من وساوس الشيطان.

فى البداية تقول الآيات: تذكّروا ذلك اليوم الذى فيه: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلِكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ».

هذا الاستثناء يمكن أن يوهمنا بأنّ إبليس كان من جنس الملائكة، فى حين أنّ الملائكة معصومون، فكيف سلك إبليس- إذاً- طريق الطغيان والكفر إذا كان من جملتهم؟! لذلك فإنّ الآيات- منعاً لهذا الوهم- تقول مباشرة إنّه: «كَانَ مِنَ الْجِنّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ».

إنّه إذاً لم يكن من الملائكة، لكنه- بسبب عبوديته وطاعته للخالق جلّ وعلا- قرّب وكان فى صف الملائكة، إلّاأنّه- بسبب لحظة من الغرور والكبر- سقط وأصبح أكثر الموجودات نفرة وابتعاداً عن اللّه تبارك وتعالى.

ثم تقول الآية: «أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِى».

والعجب أنّهم: «وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ». وهذا العدو، هو عدوّ صعب مصمّم على ضلالكم وأن يوردكم سوء العاقبة، وقد أظهر عدوانه منذ اليوم الأوّل لأبيكم آدم عليه السلام.

فاتّخاذ الشيطان وأولاده بدلًا من الخالق المتعال أمر قبيح: «بِئْسَ لِلظلِمِينَ بَدَلًا».

الآية التى بعدها هى دليل آخر على إبطال هذا التصور الخاطىء، إذ تقول: عن إبليس وابنائه أنّهم لم يكن لهم وجود حين خلق السماوات والأرض، بل لم يشهدوا حتى خلق أنفسهم: «مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ». حتى نطلب العون منهم فى خلق العالم، أو نطلعهم على أسرار الخلق.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١۴٧

لذا فإنّ الشخص الذى ليس له أىّ دور فى خلق العالم، وحتى فى خلق من يقع على شاكلته ومن هو من نوعه، ولا يعرف شيئاً من أسرار الخلق، كيف يكون مستحقاً للولاية، أو العبادة، وأىّ قدرة أو دور يملك؟

ثم تقول: «وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلّينَ عَضُدًا».

يعنى أنّ الخلق قائم على أساس الصدق والصحة والهداية، أمّا الكائن الذى يقوم منهج حياته على الإضلال والإفساد، فليس له مكان فى إدارة هذا النظام.

آخر آية من الآيات التى نبحثها، تحذّر مرّة اخرى، وتقول: تذكّروا يوماً يأتى فيه النداء الإلهى: «وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِىَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ».

لقد كنتم تنادونهم عمراً كاملًا، وكنتم تسجدون لهم، واليوم وبعد أن أحاطت بكم أمواج العذاب فى ساحة الجزاء، نادوهم ليأتوا لمساعدتكم ولو لساعة واحدة فقط.

هناك ينادى الأشخاص الذين لا تزال ترسّبات أفكار الدنيا فى عقولهم: «فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ». فلم يجيبوا على ندائهم، فكيف بمساعدتهم وانقاذهم!

«وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوبِقًا» «١».

ثم تقول الآية التى بعدها موضّحة عاقبة الذين اتبعوا الشيطان والمشركين: «وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ».

لقد انكشفت لهم النّار التى لم يكونوا يصدّقون بها أبداً، وظهرت أمام أعينهم، وحينئذ يشعرون بأخطائهم، ويتيقّنون بأنّهم سيدخلون النار: «فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا».

ثم يتيقّنون أيضاً أن لا منقذ لهم منها: «وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا».

فلا تنقذهم اليوم منها لا معبوداتهم ولا شفاعة الشفعاء، ولا الكذب أو التوسل بالذهب والقوة، إنّها النار التى يزداد سعيرها بسبب أعمالهم.

«مواقعوها»: مشتقة من «مواقعة» بمعنى الوقوع على الآخرين، وهى إشارة إلى أنّهم يقعون على النّار، وأنّ النّار تقع عليهم، فالنّار تنفذ فيهم وهم ينفذون فى النار؛ وقد قرأنا فى الآية (٢۴) من سورة البقرة قوله تعالى: «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ».

---

(١) «موبق»: من «وبوق» على وزن «نبوغ» وهى تعنى الهلاك، و «موبق» تقال للمهلكة.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١۴٨

وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ كَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (۵۴) وَ مَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (۵۵) وَ مَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ يُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ اتَّخَذُوا آيَاتِى وَ مَا أُنْذِرُوا هُزُواً (۵۶)

فى انتظار العقاب: تنطوى هذه الآيات على تلخيص واستنتاج لما ورد فى الآيات السابقة، وهى تشير- أيضاً- إلى بحوث قادمة. الآية الاولى تقول: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلّ مَثَلٍ».

لقد ذكرنا نماذج من تأريخ الماضين الملىء بالإثارة، وقد أوضحنا للناس الحوادث المرّة للحياة واللحظات الحلوة فى التاريخ، وقد فصّلنا بيان هذه الامور بحيث تتقبلها القلوب المستعدّة للحق، وتكون الحجة على الآخرين تامّة، ولا يبقى ثمّة مجال للشك.

ولكن بالرغم من هذا فإنّ مجموعة عصاة لم يؤمنوا أبداً: «وَكَانَ الْإِنسنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا».

الآية التى بعدها تقول: إنّه بالرغم من كل هذه الأمثلة المختلفة والتوضيحات المثيرة والأساليب المختلفة التى ينبغى أن تنفذ إلى داخل الإنسان المستعد لقبول الحق، فإنّ هناك مجموعة كبيرة من الناس لم تؤمن: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ». أى مصير الامم السالفة: «أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا» «١».

فيرونه بأمّ أعينهم.

إنّ هذه الآية إشارة إلى أنّ هذه المجموعة المعاندة والمغرورة لا تؤمن بإرادتها وبشكل طبيعى أبداً، بل هم يؤمنون فى حالتين فقط:

أوّلًا: عندما يصيبهم العذاب الأليم الذى نزل مثله فى الأقوام والامم السابقة.

ثانياً: عندما يشاهدون العذاب الإلهى بأعينهم، وقد أشرنا مراراً إلى أنّ مثل هذا الإيمان هو إيمان عديم الفائدة.

---

(١) «قبل»: تعنى التقابل، بمعنى مشاهدة العذاب الإلهى بالعين.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١۴٩

ومن أجل طمأنة الرسول صلى الله عليه و آله فى مقابل صلافة وعناد أمثال هؤلاء، تقول الآية:

«وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشّرِينَ وَمُنذِرِينَ».

ثم تقول الآية: إنّ هذه القضية ليست جديدة، بل إنّ من واقع هؤلاء الأشخاص المعارضة والاستهزاء بآيات اللّه: «وَيُجدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا ءَايتِى وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا» «١».

وهذه الآية تشبه الآيات (۴٢- ۴۵) من سورة الحج التى تقول: «وَإِن يُكَذّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ» الآيات.

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَ نَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِى آذَانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (۵٧) وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (۵٨) وَ تِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً (۵٩)

لا استعجال فى العقاب الإلهى: الآيات السابقة كانت تتحدث عن مجموعة من الكافرين المتعصبين والمظلمة قلوبهم؛ والآيات التى بين أيدينا تستمر فى نفس البحث. ففى البداية قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكّرَ بَايتِ رَبّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ».

إنّ استخدام تعبير (ذكّر) يوحى إلى أنّ تعليمات الأنبياء عليهم السلام هى بمثابة التذكير بالحقائق الموجودة بشكل فطرى فى أعماق الإنسان، وإنّ مهمة الأنبياء هى رفع الحجب عن نقاء وشفافية هذه الفطرة.

الطريف فى الأمر أنّ الآية الكريمة رسمت ثلاثة مسالك ليقظة هؤلاء وإعادتهم إلى نور الهداية، هى:

---

(١) «يدحضوا»: مشتقة من «إدحاض» بمعنى الإبطال والإزالة، وهى فى الأصل مأخوذة من كلمة «دحض» بمعنى الإنزلاق.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٥٠

مختصر الامثل ج٣ ١٩٩

أوّلًا: إنّ هذه الحقائق تلائم بشكل كامل ما هو مكنون فى فطرتكم ووجدانكم وأرواحكم. ثانياً: إنّها جاءت من قبل خالقكم.

ثالثاً: عليكم أن لا تنسوا أنّكم اقترفتم الذنوب، وأنّ منهاج عمل الأنبياء هو فتح باب التوبة من الذنوب والهداية للصواب.

لكن هذه الفئة من الناس لم تؤمن برغم كل ذلك: «إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا». وبذلك لا تنفع معهم دعوتك: «وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا».

إنّ البرنامج التربوى للخالق جلّ وعلا هو أن يعطى لعباده الفرصة بعد الاخرى، وهو جلّ وعلا لا يعاقب بشكل فورى مثل الجبّارين والظالمين، بل إنّ رحمته الواسعة تقتضى دوماً إعطاء أوسع الفرص للمذنبين، لذا فإنّ الآية التى بعدها تقول: «وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ». «لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ». فاذا كانت الإرادة الإلهية تقتضى انزال العذاب بسبب إرتكابهم للذنوب لتحقّق ذلك فوراً.

«بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا» «١».

فغفرانه تعالى يقضى أن يرحم التوابين، ورحمته تقضى أن لا يعجّل عذاب غيرهم، إذ من المحتمل أن يلتحق بعضهم بصفوف التوابين، إلّاأنّ عدالته تعالى تقتضى مجازاة المذنبين العاصين الظالمين عندما يصل طغيانهم وتمرّدهم إلى أقصى درجاته.

وأخيراً تنتهى هذه المجموعة من الآيات إلى توجيه التحذير الأخير من خلال التذكير بالعاقبة المؤلمة المرّة لمن ظلم من السابقين ليكون مصيرهم عبرة لمن يسمع، فتقول: إنّ هذه المدن والقرى أمامكم، ولكم أن تشاهدوا خرائبها والدمار الذى حلّ فيها، وقد أهلكنا أهلها بما إرتكبوا من ظلم، فى نفس الوقت الذى لم نعجّل فيه لهم العذاب، بل جعلنا موعداً لمهلكهم: «وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا».

---

(١) «موئل»: من كلمة «وئل» وتعنى الملجأ ووسيلة النجاة.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٥١

وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُباً (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ سَرَباً (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هذَا نَصَباً (٦٢) قَالَ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَ مَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ عَجَباً (٦٣) قَالَ ذلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً (٦٤)

لقاء موسى والخضر عليهما السلام: ذكر على بن إبراهيم فى تفسيره: لمّا أخبر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قريشاً بخبر أصحاب الكهف، قالوا: أخبرنا عن العالم الذى أمر اللَّه موسى عليه السلام أن يتبعه، من هو؟ كيف تبعه؟ وما قصّته؟ فأنزل اللَّه تعالى.

لقد ذكرت فى سورة الكهف ثلاث قصص متناسقة وهذه القصص هى: قصة أصحاب الكهف التى إنتهينا منها؛ وقصة موسى والخضر عليهما السلام؛ وقصة ذى القرنين التى سنقف على ذكرها فيما بعد.

هذه القصص الثلاث تخرجنا من الأفق المحدود فى حياتنا وما تعوّدنا عليه وألفناه، وتبيّن لنا أنّ حدود العالم لا تنحصر فى نطاق ما

نرى وما نشاهد، وأنّ الشكل العام للحوادث والأحداث ليس هو ما نفهمه من خلال النظرة الاولى.

فإنّ قصة موسى والخضر لها أبعاد عجيبة اخرى. ففى القصة يواجهنا مشهد عجيب نرى فيه نبيّاً من أولى العزم بكل وعيه ومكانته فى زمانه يعيش محدودية فى علمه ومعرفته من بعض النواحى، وهو لذلك يذهب إلى معلم (هو عالم زمانه) ليدرس ويتعلّم على يديه.

فى أوّل آية نقرأ قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَهُ لَاأَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا».

إنّ المعنى بالآية هو بلا شك موسى بن عمران النبى المعروف من أولى العزم.

أمّا المعنى من (فتاه) فهو يوشع بن نون، الرجل الشجاع الرشيد المؤمن من بنى اسرائيل.

«مجمع البحرين»: بمعنى محل التقاء البحرين، والمقصود بمجمع البحرين هو محل اتصال «خليج العقبة» مع «خليج السويس»، وهذان الخليجان يتصلان بالبحر الأحمر.

«حقب»: تعنى المدة الطويلة والتى فسّرها البعض بثمانين عاماً، وغرض موسى عليه السلام من هذه الكلمة، هو أنّنى سوف لا أترك الجهد والمحاولة للعثور على ما ضيّعته ولو أدّى ذلك أن أسير عدّة سنين.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٥٢

قوله تعالى «فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا» أى السمكة التى كانت معهما، أمّا العجيب فى الأمر فإنّ الحوت «فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ سَرَبًا».

هذه السمك الذى كان معدّاً للغذاء كانت سمكة طازجة حيث بعثت فيها الحياة بشكل اعجازى وقفزت إلى الماء وغاصت فيه، حيث يوجد بعض أنواع السمك يبقى على قيد الحياة فترة بعد إخراجه من الماء، ويعود إلى الحياة الكاملة إذا أعيد فى هذه الفترة إلى الماء.

وفى تتمة القصة نقرأ أنّ موسى وصاحبه بعد أن جاوزا مجمع البحرين شعرا بالجوع، وفى هذه الأثناء تذكّر موسى عليه السلام أنّه قد جلب معه طعاماً، وعند ذلك قال لصاحبه: «فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَهُ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذَا نَصَبًا».

إنّ هذه الجملة تظهر أنّ موسى ويوشع قد سلكا طريقاً يمكن أن نسمّيه بالسفر، إلّاأنّ نفس هذه التعابير تفيد أنّ هذا السفر لم يكن طويلًا.

وفى هذه الأثناء قال له صاحبه: «قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسنِيهُ إِلَّا الشَّيْطنُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ عَجَبًا».

ولأنّ هذا الحادث والموضوع- بشكل عام- كان علامة لموسى عليه السلام، لكى يصل من خلاله إلى موقع (العالم) الذى خرج يبحث عنه، لذا فقد قال: «قَالَ ذلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ».

وهنا رجعا فى نفس الطريق: «فَارْتَدَّا عَلَى ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا».

وهنا قد يطرح هذا السؤال: هل يمكن لنبى مثل موسى عليه السلام أن يصاب بالنسيان حيث يقول القرآن ف «نَسِيَا حُوتَهُمَا».

فى الجواب نقول: إنّه لا يوجد ثمة مانع من الإصابة بالنسيان فى المسائل والموارد التى لا ترتبط بالأحكام الإلهية والامور التبليغية، أى فى مسائل الحياة العادية.

فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ عَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً (٦٧) وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَ لَا أَعْصِى لَكَ أَمْراً (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْأَلْنِى عَنْ شَىْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (٧٠)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٥٣

رؤية المعلم الكبير: عندما رجع موسى عليه السلام وصاحبه إلى المكان الأوّل، أى قرب الصخرة وقرب (مجمع البحرين)، فجأة: «فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا».

إنّ استخدام كلمة «وجدا» تفيد أنّهم كانوا يبحثون عن نفس هذا الرجل العالم، وقد وجداه أخيراً.

أمّا استخدام عبارة «عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا» فهى تبيّن أنّ أفضل فخر للإنسان هو أن يكون عبداً حقيقياً للخالق جلّ وعلا، وإنّ مقام العبودية هذا يكون سبباً فى شمول الإنسان بالرحمة الإلهية، وفتح أبواب المعرفة والعلم فى قلبه.

كما أنّ استخدام عبارة «مِن لَّدُنَّا» تبيّن أنّ علم ذلك العالم لم يكن علماً عادياً، بل كان يعرف جزءاً من أسرار هذا العالم، وأسرار الحوادث التى لا يعلمها سوى اللَّه تعالى.

والمقصود من عبارة «رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا» هو الإستعداد الكبير والروح الواسعة، وسعة الصدر التى وهبها اللَّه تعالى لهذا الرجل كى يكون قادراً على استقبال العلم الإلهى.

فى هذه الأثناء قال موسى للرجل العالم باستفهام وبأدب كبير: «قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا».

فى معرض الجواب نرى أنّ الرجل العالم يجيب موسى عليه السلام بكلام عجيب: «قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا».

ثم بيّن سبب ذلك مباشرة وقال: «وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا».

إنّ هذا الرجل العالم كان يحيط بأبواب من العلوم التى تخصّ أسرار وبواطن الأحداث، فى حين أنّ موسى عليه السلام لم يكن مأموراً بمعرفة البواطن، وبالتالى لم يكن يعرف عنها الكثير.

فى مثل هذه الحالة يفقد الشخص الذى ينظر إلى الظاهر صبره وتماسكه فيقوم بالإعتراض وحتى بالتشاجر.

وقد يكون موسى عليه السلام اضطرب عندما سمع هذا الكلام وخشى أن يحرم من فيض هذا العالم الكبير، لذا فقد تعهّد بأن يصبر على جميع الحوادث و «قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا».

مرّة اخرى كشف موسى عليه السلام عن قمّة أدبه فى هذه العبارة، فقد اعتمد على خالقه حيث لم يقل للرجل العالم: إنّى صابر، بل قال: إن شاء اللَّه ستجدنى صابراً.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٥٤

ولأنّ الصبر على حوادث غريبة وسيّئة فى الظاهر والتى لا يعرف الإنسان أسرارها، ليس بالأمر الهيّن، لذا فقد طلب الرجل العالم من موسى عليه السلام أن يتعهد له مرّة اخرى، وحذّره: «قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا» «١». وقد أعطى موسى العهد مجدداً وانطلق مع العالم الأستاذ.

المعلم الإلهى والأفعال المنكرة: نعم، لقد ذهب موسى وصاحبه وركبا السفينة:

«فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا».

«خرق»: (كما يقول الراغب فى المفردات) الخرق، قطع الشيء على سبيل الإفساد بلا تدبّر ولا تفكّر حيث كان ظاهر عمل الرجل العالم على هذا المنوال.

وبحكم كوْن موسى عليه السلام نبيّاً إلهيّاً فقد كان من جانب يرى أنّ من واجبه الحفاظ على أرواح وأموال الناس، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن جانب آخر كان وجدانه الإنسانى يضغط عليه ولا يدعه يسكت أمام أعمال الرجل العالم التى يبدو ظاهرها سيّئاً قبيحاً، لذا فقد نسى العهد الذى قطعه للخضر (العالم) فاعترض و «قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا

---

(١) إنّ عبارة «أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا» يكون مفهومها بعد الأخذ بنظر الإعتبار كلمة «أحدث» هو: إنّى أنا الذى أبدأ بالكلام وأكشف للمرّة الاولى؛ أمّا أنت فلا تتكلم.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٥٥

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا».

وفى هذه الأثناء نظر الرجل العالم إلى موسى عليه السلام نظرة خاصة وخاطبه: «قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا».

أمّا موسى الذى ندم على استعجاله، بسبب أهمية الحادثة، فقد تذكّر عهده الذى قطعه لهذا العالم الأستاذ، لذا فقد التفت إليه قائلًا: «قَالَ لَاتُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا». يعنى لقد أخطأت ونسيت الوعد فلا تؤاخذنى بهذا الإشتباه.

«ترهقنى»: مشتقة من «إرهاق» وتعنى تغطية شىء ما بالقهر والغلبة، وتأتى فى بعض الأحيان بمعنى التكليف، وفى الآية- أعلاه- يكون معناها: لا تصعّب الامور علىّ، ولا تقطع فيضك عنّى بسبب هذا العمل.

لقد انتهت سفرتهم البحرية وترجّلوا من السفينة: «فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَمًا فَقَتَلَهُ»، وقد تمّ ذلك بدون أى مقدمات.

وهنا ثار موسى عليه السلام مرّة اخرى حيث لم يستطع السكوت على قتل طفلٍ برىء بدون أى سبب، وظهرت آثار الغضب على وجهه وملأ الحزن وعدم الرضا عينيه ونسى وعده مرّةً اخرى، فقام للإعتراض، وكان اعتراضه هذه المرّة أشد من اعتراضه فى المرّة الاولى، لأنّ الحادثة هذه المرّة كانت موحشة أكثر من الاولى: «قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ». أى إنّك قتلت انساناً بريئاً من دون أن يرتكب جريمة قتل، «لَّقَدْ جِئْتَ شَيًا نُّكْرًا».

ومرّة اخرى كرّر العالم الكبير جملته السابقة التى إتّسمت ببرود خاص، حيث قال لموسى عليه السلام: «قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا».

تذكّر موسى تعهده فانتبه إلى ذلك وهو خجل، حيث أخلّ بالعهد مرتين- ولو بسبب النسيان- وبدأ تدريجياً يشعر بصدق عبارة الأستاذ فى أنّ موسى لا- يستطيع تحمل أعماله، لذا فلا يطيق رفقته كما قال له عندما عرض عليه موسى الرفقة، لذا فقد بادر إلى الاعتذار وقال: إذا اعترضت عليك مرّة اخرى فلا تصاحبنى وأنت فى حلّ منّى: «قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا».

صيغة العذر هنا تدل على انصاف موسى عليه السلام ورؤيته البعيدة للُامور، وتبيّن أنّه عليه السلام كان

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٥٦

يستسلم للحقائق ولو كانت مرّة.

بعد هذا الكلام والعهد الجديد: «فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أن يُضَيِّفُوهُمَا». والمقصود من كلمة قرية هو مدينة (الناصرة) أو ميناء (أيلة). المهم فى الأمر، أنّنا نستنتج من خلال ما جرى لموسى عليه السلام وصاحبه من أهل هذه المدينة أنّهم كانوا لئاماً دنيئى الهمّة. فى مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «كانوا أهل قرية لئام».

ثم يضيف القرآن: «فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ». وقد كان موسى عليه السلام شاهد كيف أنّ الخضر قام بترميم الجدار بالرغم من سلوك أهل القرية القبيح إزاءهما، وكأنّه بذلك أراد أن يجازى أهل القرية بفعالهم السيّئة؛ وكان موسى يعتقد بأنّ على صاحبه أن يطالب بالأجر على هذا العمل حتى يستطيعا أن يعدّا لأنفسهما طعاماً.

لذا فقد نسى موسى عليه السلام عهده مرّة اخرى وبدأ بالإعتراض، إلّاأنّ اعتراضه هذه المرّة بدا خفيفاً ف «قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا».

وفى الواقع فإنّ موسى يعتقد بأنّ قيام الإنسان بالتضحية فى سبيل أناس سيئين عمل مجاف لروح العدالة.

وهنا قال الرجل العالم كلامه الأخير لموسى بأنّك ومن خلال حوادث مختلفة، لا تستطيع معى صبراً، لذلك قرّر العالم قراره الأخير: «قَالَ هذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا». «تأويل»: من «أول» على وزن «قول» وتعنى الإرجاع، لذا فإنّ أى عمل أو كلام يرجعنا إلى الهدف الأصلى يسمّى «تأويل» كما أنّ رفع الحجب عن أسرار شىء هو نوع من التأويل.

إنّ مفارقة رجل بهذه الخصائص أمرٌ صعب للغاية، لكن على موسى عليه السلام أن ينصاع لهذه الحقيقة المرّة.

المفسر المعروف أبو الفتوح الرازى يقول: ورد فى الخبر، أنّ موسى عليه السلام عندما سئل عن أصعب ما لاقى من مشكلات فى طول

حياته، أجاب قائلًا: لقد واجهت الكثير من المشاكل والصعوبات (إشارة إلى ما لاقاه عليه السلام من فرعون، وما عاناه من بنى إسرائيل) ولكن لم يكن أيّاً منها أصعب وأكثر ألماً على قلبى من قرار الخضر فى فراقى إيّاه.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٥٧

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَ كَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (٧٩) وَ أَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَ كُفْراً (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً (٨١) وَ أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَ كَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَ يَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ مَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (٨٢)

الأسرار الداخلية لهذه الحوادث: بعد أن أصبح الفراق بين موسى والخضر عليهما السلام أمراً حتمياً، كان من اللازم أن يقوم الأستاذ الإلهى بتوضيح أسرار أعماله التى لم يستطع موسى أن يصبر عليها، وفى الواقع فإنّ استفادة موسى من صحبته تتمثل فى معرفة أسرار هذه الحوادث الثلاثة العجيبة، والتى يمكن أن تكون مفتاحاً للعديد من المسائل، وجواباً لكثير من الأسئلة. ففى البداية ذكر قصة السفينة وقال: «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا».

وبهذا الترتيب كان ثمّة هدف خيّر وراء ثقب السفينة الذى بدأ فى حينه عملًا مشيناً سيّئاً، والهدف هو نجاتهم من قبضة ملك غاصب، وكان هذا الملك يترك السفينة المعيبة ويصرف النظر عنها، إذاً خلاصة المقصود فى الحادثة الاولى هو حفظ مصالح مجموعة من المساكين.

كلمة «وراء» لا تعنى هنا الجانب المكانى، وإنّما هى كناية عن الخطر المحيط بهم (خطر الملك) بدون أن يعلموا به، وبما أنّ الإنسان لا يحيط بالحوادث التى سوف تصيبه لاحقاً، لذا استخدمت الآية التعبير الآنف الذكر.

بعد ذلك ينتقل العالم إلى بيان سر الحادثة الثانية التى قتل فيها الفتى، فيقول: «وَأَمَّا الْغُلمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَين فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْينًا وَكُفْرًا».

إنّ تعبير (خشينا) جاء هنا بمعنى: لم نكن نرغب، وإلّا لا معنى للخوف فى هذه الموارد بالنسبة لشخص بهذا المستوى من العلم والوعى والقدرة.

وبعبارة اخرى: فإنّ الهدف هو الإتّقاء من حادث سيء نرغب أن نقى الأبوين منه على أساس المودة لهما.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٥٨

ثم تحكى الآيات على لسان العالم قوله: «فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكوةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا». «زكاة»: هنا بمعنى الطهارة والنظافة، ولها مفهوم واسع حيث تشمل الإيمان والعمل الصالح، وتتسع للامور الدينية والمادية، وقد يكون فى هذا التعبير ما هو جواب على اعتراض موسى عليه السلام الذى قال: «أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً ...» فقال له العالم فى الجواب: إنّ هذه النفس ليست زكية، وأردنا أن يبدلهما ربّهما ابناً طاهراً بدلًا عن ذلك.

وفى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أبدلهما اللّه به جارية ولدت سبعين نبيّاً».

فى آخر آية من الآيات التى نبحثها، كشف الرجل العالم عن السر الثالث الذى دعاه إلى بناء الجدار فقال: «وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صلِحًا». «فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا». «رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ».

وأنا كنت مأموراً ببناء هذا الجدار بسبب جميل وإحسان أبوى هذين اليتيمين، كى لا يسقط وينكشف الكنز ويكون معرّضاً للخطر.

وفى خاتمة الحديث، ولأجل أن تنتفى أيّ شبهة محتملة، أو شك لدى موسى عليه السلام، ولكى يكون على يقين بأنّ هذه الأعمال كانت طبقاً لمخطط وتوجيه غيبى، قال العالم: «وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى» بل بأمر من اللّه.

وذلك سرّ ما لم يستطع عليه موسى عليه السلام صبراً، إذ قال: «ذلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا».

دروس قصة خضر وموسی علیهما السلام: هناک جملة دروس یمکن أن نستفیدها من القصة، ویمکن لنا أن ندرجها کما یلی:

أ: أهمیة العثور علی قائد عالم والاستفادة من علمه، بحیث رأینا أنّ نبیّاً من اولی العزم مثل موسی علیه السلام یسلک هذا الطریق الطویل، وقد بذل ما بذل لتحقیقه، وهذا درس لجمیع الناس مهما کان علمهم وفی أیّ عمر کانوا.

ب: جوهرة العلم الإلهی تنبع من العبودیة للّه‌تعالی.

ج: یجب تعلّم العلم للعمل، کما یقول موسی علیه السلام لصاحبه «مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا». أی:

علمنی عملًا یقرّبنی من هدفی ومقصدی، فأنا لا أطلب العلم لنفسه، بل للوصول إلی الهدف.

د: یجب عدم الإستعجال فی الأعمال، إذ العدید من الامور تحتاج إلی الفرص المناسبة.

ه: الظاهر والباطن من المسائل المهمّة الاخری التی نتعلّمها من القصة، إذ یجب علینا أن

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۵۹

لا نصدر أحکاماً سریعة تجاه الحوادث التی تقع فی مجری حیاتنا مما قد لا یعجبنا، إذ ما أکثر الحوادث التی نکرهها، ولکن یتّضح بعد مدّة أنّ هذه الحوادث لم تکن سوی نوع من الألطاف الخفیة الإلهیة، والقرآن یصرّح بمضمون هذه الحقیقة فی الآیة (۲۱۶) من سورة البقرة قوله تعالی: «عَسَی أن تَکْرَهُوا شَیًا وَهُوَ خَیْرٌ لَّکُمْ وَعَسَی أن تُحِبُّوا شَیًا وَهُوَ شَرٌّ لَّکُمْ وَاللَّهُ یَعْلَمُ وَأَنتُم لَاتَعْلَمُونَ».

و: من دروس القصة الإعتراف بالحقائق واتخاذ المواقف المطابقة لها، فعندما تخلّف موسی ثلاث مرّات عن الوفاء بالتزامه لصاحبه العالم، عرف أنّه لا یستطیع الاستمرار معه فی الصحبة.

یجب علی الإنسان أن لا یستمر إلی آخر عمره فی اختبار نفسه، بحیث تتحوّل حیاته إلی مختبر للأمور المستقبلیة التی قد لا تحصل أبداً، اذ علیه عندما یختبر موضوعاً ما عدّة مرّات، أن یلتزم العمل بنتائج الإختبار وأن یقتنع به.

ز: تأثیر إیمان الآباء علی الأبناء؛ لقد تحمل الخضر مسؤولیة حمایة الأبناء بالمقدار الذی کان یستطیعه، وذلک بسبب الأب الصالح الملتزم، بمعنی أنّ الإبن یستطیع أن یسعد فی ظل الإیمان وأمانة والتزام الأب، وإنّ نتیجة العمل الصالح الذی یلتزمه الأب تعود علی الإبن أیضاً.

ح: قصر العمر بسبب إیذاء الوالدین عندما یطال الموت الإبن بسبب ما یلحقه من أذی بوالدیه فی مستقبل حیاته، وبسبب ما یرهقهما به من أذیً وطغیان وکفر، قد یحرفهم عن الطریق الإلهی، کما رأینا ذلک فی القصة التی بین أیدینا.

ط: الناس أعداء ما جهلوا؛ قد یحدث أن یقوم شخص بالإحسان إلینا، إلّاأنّنا نتصوره عدوّاً لنا، لأنّنا لا نعرف بواطن الامور، ونتسرّع ونفقد الصبر، خصوصاً إزاء الأحداث والامور التی نجهلها ولا نحیط بأسبابها علماً. من الطبیعی أن یفقد الإنسان صبره إزاء ما لا یحیط به علماً من الأحداث والقضایا، إلّاأنّ الدرس المستفاد من القصة هو أن لا نتسرّع فی إصدار الأحکام علی مثل هذه القضایا حتی تکتمل لدینا الرؤیة التی نحیط من خلالها بجوانب وزوایا الموضوع المختلفة.

ی: أدب التلمیذ والأستاذ؛ ثمّة ملاحظات لطیفة حول أدب التلمیذ والأستاذ ظهرت فی مقاطع الحدیث بین موسی علیه السلام والرجل الربانی العالم، فمن ذلک مثلًا:

۱- اعتبار موسی علیه السلام نفسه تابعاً للخضر قوله: «أَتَّبِعُکَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۶۰

۲- وللتواضع فقد اعتبر علم أستاذه کثیراً، وهو یطلب جانباً من هذا العلم، فقال:

«مِمَّا عُلِّمْتَ».

وَ یَسْأَلُونَکَ عَنْ ذِی الْقَرْنَیْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَیْکُمْ مِنْهُ ذِکْراً (۸۳) إِنَّا مَکَّنَّا لَهُ فِی الْأَرْضِ وَ آتَیْنَاهُ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ سَبَباً (۸۴) فَأَتْبَعَ سَبَباً (۸۵) حَتَّی إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِی عَیْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا یَا ذَا الْقَرْنَیْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِیهِمْ حُسْناً

(۸۶) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً (۸۷) وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً (۸۸) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (۸۹) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً (۹۰) كَذلِكَ وَ قَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً (۹۱)

قصة ذو القرنين العجيبة: قلنا فى بداية حديثنا عن أصحاب الكهف: إنّ مجموعة من قريش قرّرت اختبار الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وقامت هذه المجموعة بالتنسيق مع اليهود واستشارتهم بطرح ثلاث قضايا ونحن الآن بصدد ذكر قصة «ذو القرنين»:

إنّ قصة ذو القرنين تدور حول شخصية أثارت اهتمامات الفلاسفة والباحثين منذ القدم.

وقد بذلت جهود ومساعى كثيرة للتعرّف على هذه الشخصية.

وسنقوم أوّلًا بتفسير الآيات الست عشرة الخاصّة بذى القرنين، ثم ننتقل إلى بحوث لمعرفة شخصية ذى القرنين نفسه.

بتعبير آخر: إنّ ما يهمنا أوّلًا هو الحديث عن شخصية ذى القرنين، وهو ما فعله القرآن، حيث يقول تعالى: «وَيَسَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ».

فيكون الجواب على لسان الرسول المصطفى صلى الله عليه و آله: «قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا».

إنّ بداية الآية تبيّن لنا أنّ قصة ذو القرنين كانت متداولة ومعروفة بين الناس، ولكنّها كانت محاطة بالغموض والإبهام، لهذا السبب طالبوا الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله الإدلاء حولها بالتوضيحات اللازمة.

وفى إستئناف الحديث عن ذى القرنين يقول تعالى: «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الْأَرْضِ». أى:

منحناه سبل القوّة والقدرة والحكم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۶۱

«وَءَاتَيْنَهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا». إنّ اللّه تبارك وتعالى منح «ذو القرنين» أسباب الوصول لكل الأشياء: العقل، العلم الكافى، الإدارة السليمة، القوّة والقدرة، الجيوش والقوى البشرية، بالإضافة إلى الإمكانات المادية، أى إنّه منح كل الأسباب والسبل المادية والمعنوية الكفيلة بتحقيق الأهداف المنشودة.

ثم يشير القرآن بعد ذلك إلى استفادة ذى القرنين من هذه الأسباب والسبل فيقول:

«فَأَتْبَعَ سَبَبًا». ثم «حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ». فرأى أنّها تغرب فى بحر غامق أو عين ذات ماء آسن: «وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ» «۱».

«وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا». أى مجموعة من الناس فيهم الصالح والطالح، هؤلاء القوم هم الذين خاطب اللّه ذا القرنين فى شأنهم: «قُلْنَا يذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا».

بعد ذلك تحكى الآيات جواب «ذى القرنين» الذى قال: «قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا» «۲». أى إنّ الظالمين سينالون العذاب الدنيوى والأخروى معاً.

«وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صلِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى . «وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا». أى:

أنّنا سنتعامل معه بالقول الحسن، فضلًا عن أنّنا سنخفف عنه ولا نجعله يواجه المشاكل والصعاب، بالإضافة إلى أنّنا سوف لن نجبى منه ضرائب كثيرة.

وعندما إنتهى «ذو القرنين» من سفره إلى الغرب توجه إلى الشرق حيث يقول القرآن فى ذلك: «ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا». أى استخدم الوسائل والإمكانات التى كانت بحوزته.

«حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ». وهنا رأى أنّها: «وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا». وفى اللفظ كناية عن أنّ حياة هؤلاء الناس بدائية جدّاً، ولا يملكون سوى القليل من الملابس التى لا تكفى لتغطية أبدانهم من الشمس.

أمّا بعض المفسرين فلم يستبعدوا افتقار هؤلاء الناس إلى المساكن التى تحميهم من الشمس.

---

(١) «حمئة»: تعنى فى الأصل الطين الأسود ذا الرائحة الكريهة، أو الماء الآسن الموجود فى المستنقعات. وهذا الوصف يبيّن لنا بأنّ الأرض التى بلغها «ذو القرنين» كانت مليئة بالمستنقعات، بشكل كان ذو القرنين يشعر معه بأنّ الشمس كانت تغرب فى هذه المستنقعات، تماماً.

(٢) «نكر»: مشتقة من «منكر» بمعنى الشيء المجهول؛ أى العذاب المجهول الذى لم يمكن تصوره.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١۶٢

بالطبع ليس هناك تعارض بين التفاسير هذه، قوله تعالى: «كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا». هكذا كانت أعمال «ذو القرنين» ونحن نعلم جيّداً بإمكاناته.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُمْ سَدّاً (٩۴) قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْماً (٩۵) آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (٩۶) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً (٩٧) قَالَ هذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً (٩٨)

كيف تمّ بناء سدّ ذى القرنين: الآيات أعلاه تشير إلى سفرة اخرى من أسفار ذى القرنين حيث تقول: «ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا». أى: بعد هذه الحادثة استفاد من الوسائل المهمة التى كانت تحت تصرفه ومضى فى سفره حتى وصل إلى موضع بين جبلين: «حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّايَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا».

والآية تشير إلى أنّه وصل إلى منطقة جبلية، وهناك وجد اناساً كانوا على مستوى دانٍ من المدنية، لأنّ الكلام أحد أوضح علائم التمدن لدى البشر.

فى هذه الأثناء اغتنم هؤلاء القوم مجيء ذى القرنين، لأنّهم كانوا فى عذاب شديد من قبل أعدائهم يأجوج ومأجوج، لذا فقد طلبوا العون منه قائلين: «قَالُوا يذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا».

قد يكون كلامهم هذا تمّ عن طريق تبادل العلامات والإشارات، لأنّهم لا يفهمون لغة ذى القرنين.

أمّا ذو القرنين فقد أجابهم: «قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ»، وأنّى لا أحتاج إلى مساعدتكم المالية وإنّما: «فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا».

«ردم»: على وزن «طرد» فى الأصل تعنى ملء الشق بالأحجار، إلّاأنّها فيما بعد أخذت معنىً واسعاً بحيث شمل كل سدّ، بل وشمل حتى ترقيع الملابس.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١۶٣

يعتقد بعض المفسرين أنّ كلمة «ردم» تقال للسدّ القوى.

ثم أمر ذو القرنين فقال: «ءَاتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ».

«زُبر»: جمع «زُبرة» على وزن (غرفة)، وتعنى القطع الكبيرة والضخمة من الحديد.

وعندما تهيّأت قطع الحديد أعطى أمراً بوضع بعضها فوق البعض الآخر حتى غطّى بين الجبلين بشكل كامل: «حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ». «صدف»: تعنى هنا حافة الجبل.

الأمر الثالث لذى القرنين هو طلبه منهم أن يجلبوا الحطب وما شابهه، ووضعه على جانبى هذا السد، وأشعل النار فيه ثم أمرهم بالنفخ فيه حتى احمرّ الحديد من شدّة النار:

«قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا».

لقد كان يهدف ذو القرنين من ذلك ربط قطع الحديد بعضها ببعض ليصنع منها سدّاً من قطعة واحدة، وعن طريق ذلك، قام ذو القرنين بنفس عمل «اللحام» الذى يقام به اليوم فى ربط أجزاء الحديد بعضها ببعض.

أخيراً أصدر لهم الأمر الأخير فقال: اجلبوا لى النحاس المذاب حتى أضعه فوق هذا السد: «قَالَ ءَاتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا».

وبهذا الشكل قام بتغطية هذا السدّ الحديدى بطبقة من النحاس حتى لا ينفذ فيه الهواء ويحفظ من التآكل.

وأخيراً، أصبح هذا السد بقدر من القوة والإحكام بحيث: «فَمَا اسْطعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطعُوا لَهُ نَقْبًا».

لقد كان عمل ذى القرنين عظيماً ومهماً، وكان له وفقاً لمنطق المستكبرين ونهجهم أن يتباهى به أو يمنّ به، إلّاأنّه قال بأدب كامل: «قَالَ هذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبّى»، لأنّ أخلاقه كانت أخلاقاً إلهية.

إنّه أراد أن يقول: إذا كنت أملك العلم والمعرفة وأستطيع بواسطتهما أن أخطو خطوات مهمّة، فإنّ كل ذلك إنّما كان من قبل الخالق جلّ وعلا.

ثم استطرد قائلًا: لا تظنوا أنّ هذا السد سيكون أبدياً وخالداً: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ». «وَكَانَ وَعْدُ رَبّى حَقًّا».

لقد أشار ذو القرنين فى كلامه هذا إلى قضية فناء الدنيا وتحطّم هيكل نظام الوجود فيها عند البعث.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۶۴

بحثان

أوّلًا- ملاحظات التربوية فى هذه القصة التأريخية: هذه القصة تحوى على دروس تربوية كثيرة وفى الواقع أنّها هى الهدف القرآنى من إيرادها.

۱- إنّ أوّل درس تعلّمنا إيّاه أنّ العمل الدنيوى لا يتمّ دون توفير أسبابه، لذا فإنّ اللَّه تبارك وتعالى وهب الوسائل والأسباب لتقدم وانتصار ذى القرنين فى عمله.

۲- لا تستطيع أى حكومة أن تنتصر بدون ترغيب الأنصار والأتباع، ومعاقبة المذنبين والمخطئين، وهذا هو نفس الأساس الذى اعتمد عليه ذو القرنين.

والإمام أمير المؤمنين على عليه السلام بلور هذا المعنى فى رسالته إلى مالك الأشتر والتى هى برنامج كامل لإدارة البلاد، إذ يقول عليه السلام: «ولا يكونن المحسن والمسيىء عندك بمنزلة سواء، فإنّ فى ذلك تزهيداً لأهل الإحسان فى الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة» «۱».

۳- التكليف الشاق والتصعّب فى الامور وتحميل الناس ما لا يطيقون، كل هذه الامور لا تناسب الحكومة الإلهية العادلة أبداً.

۴- الحكومة الكبيرة ذات الإمكانات الواسعة لا تتغاضى عن التفاوت والإختلاف القائم فى حياة الناس وتراعى شرائط حياتهم المختلفة.

۵- إنّ «ذو القرنين» لم يستبعد حتى تلك المجموعة التى لم تكن تفهم الكلام، أو كما وصفهم القرآن: «لَّايَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا» بل إنّه استمع إلى مشاكلهم، ودأب على رفع احتياجاتهم بأىّ اسلوب كان.

۶- الأمن هو أوّل وأهم شرط من شروط الحياة الإجتماعية السالمة، لهذا السبب تحمل «ذو القرنين» أصعب الأعمال وأشقّها لتأمين أمن القوم من أعدائهم.

۷- الدرس الآخر الذى يمكن أن نتعلّمه من هذه القصّة، هو أنّ أصحاب المشكلة الأصليين معنيين بالدرجة الاولى فى الإشتراك فى الجهد المبذول لحل مشكلتهم.

وعادة فإنّ العمل الذى يتمّ بمساهمة وحضور الأطراف الأصليين فى المشكلة يؤدّى إلى إظهار استعداداتهم ويعطى قيمة خاصة للنتائج

الحاصلة منه، وللجهود المبذولة فيه، ومن ثم يحرص الجميع للحفاظ عليه وإدامته بحكم تحمّلهم لمجهودات إنشائه.

---

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٦٥

كما يتّضح من هذه النقطة أنّ، المجتمع المتخلف والمتأخر يستطيع أن ينجز أعمالًا مهمة وعظيمة إذا تمتّع ببرنامج صحيح وإدارة مخلصة.

٨- الزعيم الإلهى والقائد الربانى لا يلتفت إلى الجزاء المادى والنفع المالى وإنّما يقتنع بما حباه اللَّه.

وفى القرآن الكريم نقرأ مراراً فى قصص الأنبياء أنّهم لم يكونوا يطلبون المال جزاءً لأعمالهم ودعواتهم.

٩- إحكام الامور هو درس آخر نستفيده من هذه القصة.

١٠- مهما كان الإنسان قوياً ومتمكناً وصاحب قدرة واستطاعة فى إنجاز الأعمال، فعليه أن لا يغتر بنفسه، وهذا هو درس آخر نتعلّمه من قصة «ذو القرنين».

١١- كل شى إلى زوال مهما كان محكماً وصلداً. هذا هو الدرس الأخير فى هذه القصة، وهو درس للذين يتمنّون أو يظنون خلود المال أو المنصب والجاه.

ثانياً- من هم يأجوج ومأجوج؟ ذكر القرآن الكريم يأجوج ومأجوج فى سورتين، إذ وردت المرّة الاولى فى الآيات التى نبحثها، والثانية فى سورة الأنبياء، الآية (٩٦).

الآيات القرآنية تؤيّد بوضوح أنّ هذين الاسمين هما لقبيلتين همجيتين كانتا تؤذيان سكّان المناطق المحيطة بهم. حيث طلب أهل القفقاز من «كورش» عند سفره إليهم أن ينقذهم من هجمات هذه القبائل، لذلك أقدم على تأسيس السد المعروف بسدّ ذى القرنين.

وَ تَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً (٩٩) وَ عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِى وَ كَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً (١٠١) أَ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِنْ دُونِى أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢)

عاقبة الكافرين: لقد تناولت الآية السابقة سد يأجوج ومأجوج وانهدامه عند البعث، وهذه الآيات تستمر فى قضايا القيامة، فتقول أوّلًا: إنّنا سنترك فى ذلك اليوم- الذى ينتهى فيه العالم- بعضهم يموج ببعض: «وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ».

إنّ استخدام كلمة «يموج» إمّا بسبب الكثرة الكاثرة للناس فى تلك الواقعة، أو بسبب

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٦٦

الإضطراب والخوف الذى يصيب الناس فى ذلك اليوم، وكأنّما أجسادهم تهتز كأمواج الماء.

بعد ذلك تضيف الآيات: «وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنهُمْ جَمْعًا». وبلا شك فإنّ كافة الناس سيجمعون فى تلك الساحة ولن يستثنى منهم أحد، وتعبير «فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا» إشارة إلى هذه الحقيقة.

من مجموع الآيات نستفيد أنّ ثمّة تحوّلان عظيمان سيحصلان عند نهاية هذا العالم وبداية العالم الجديد:

الأوّل: فناء الموجودات والناس بشكل آنى.

والثانى: إحياء الموتى بشكل آنى أيضاً.

ولا نعلم مقدار الفاصل بين الحدثين، ولكنّ القرآن يعبّر عن هذين التحوّلين بعنوان (نفخ الصور).

ثم تتناول الآيات تفصيل حال الكافرين، حيث توضّح عاقبة أعمالهم، والصفات التى تقود إلى هذه العاقبة، فتقول: «وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكفِرِينَ عَرْضًا».

إنّ جهنّم ستظهر لهم، وتتّضح لهم الأنواع المختلفة من عذابها، وهذا هو بحد ذاته عذاب أليم موجع، فكيف إذا ولجوها؟!

ولكن من هم الكافرون؟ ولماذا يصابون بمثل هـذه العاقبـة؟ الآيـة تعرّف هؤلاء بجملـة قصيرة واحدة بقولها: «الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَاءٍ عَن ذِكْرِى». وبالرغم من أنّهم يمتكون آذاناً، إلّاأنّهم يفقدون القدرة على السماع: «وَكَانُوا لَايَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا».

فهؤلاء أسـقطوا فى الواقع أهم وسـيلة لمعرفة الحق وإدراكه، وأهملوا الوسيلة الهامة فى شقاء أو سعادة الإنسان. يعنى أنّهم غطّوا أعينهم وأسماعهم بحجاب وستار بسبب أفكارهم الخاطئة وتعصبهم وحقدهم وصفاتهم القبيحة الاخرى.

الآيـة التى بعـدها تشـير إلى نقطـة انحراف فكريـة لـدى هؤلاء هى أصل انحرافاتهم الاخرى، فتقول: «أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أن يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِن دُونِى أَوْلِيَاءَ».

هل يملك هؤلاء المعبودون- كالمسيح والملائكـة- شـيئاً للدفاع عن الآخرين بالرغم من مكانتهم العالية، أو أنّ الأمر بالعكس إذ كل ما عند هؤلاء هو من اللَّه، وأنّهم أنفسهم يحتاجون إلى هدايته؟

إنّ هذه حقيقة واضحة، ولكن هؤلاء تناسوها وتورّطوا فى شراك الشرك.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۶۷

فى ختام الآية وللمزيد من التأكيد، تقول الآية: «إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكفِرِينَ نُزُلًا».

«نُزُل»: بمعنى الإقامة، وتعنى أيضاً الشىء الذى يهيّأ لتقديمه للضيوف.

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (۱۰۳) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (۱۰۴) أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً (۱۰۵) ذلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آيَاتِى وَ رُسُلِى هُزُواً (۱۰۶) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (۱۰۷) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (۱۰۸)

أخسـر الناس: هـذه الآيات والآيات اللاحقـة- إلى نهاية السورة المباركـة- فى الوقت الذى تتحدث فيه عن صـفات غير المؤمنين، فإنّها تعتبر نوعاً من التلخيص لكافّة البحوث التى وردت فى هذه السورة، خاصة البحوث المتعلقة بقصة أصـحاب الكهف وموسـى والخضـر وذى القرنين، وما بذلوه من جهود إزاء معارضيهم.

فالآيات تكشف أوّلًا عن أخسـر الناس، ولكنها- بهدف إثارة حب الإسـتطلاع لدى المسـتمع إزاء هذه القضـية- تعمد إلى إثارتها على شكل سؤال موجّه إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فتقول: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْملًا».

ثم يـأتى الجواب بـدون أى توقف حتى لا- يبقى المسـتمع فى حيرة، فتقول: «الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا».

مفهوم الخسـران لا ينطبق على خسـران الأرباح وحسب، بل إنّ الخسـران الواقعى هو خسـران أصل رأس المال، وهل هناك رأس مال أربح وأفضل وأحسن من العقل والذكاء والطاقات الإلهية الموهوبة للإنسان من عمر وشباب وصحة؟

إنّ نتاج كل هذه المواهب هى أعمال الإنسان، وأعمال الإنسان هى فى الواقع انعكاس وتجسيد لطاقاتنا وقدراتنا.

عنـدما تتحوّل هـذه الطاقات إلى أعمال مخرّبـة أو غير هادفـة، فكأنّها قد فنيت أو ضاعت؛ إلّا أنّ الخسـران الحقيقى والمضاعف هو أن يفقـد الإنسان رأسـماله المادى والمعنوى فى مسالك خاطئة ومجالات منحرفة ويظن أنّه أحسن العمل، فهو فى هذه الحالة لم يحصـل على ثمرة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۶۸

لعمله، وفى نفس الوقت لم يلتفت إلى ما هو فيه، فيكرّر العمل. الآيات الاخرى تذكر صفات ومعتقدات هذه المجموعة من الخاسرين، حيث تبدأ بتلك الصفات التى تكون أساساً فى مصائبهم فتقول: «أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَايَاتِ رَبِّهِمْ».

إنّهم كفروا بالآيـات التى تفتـح الأبصـار والمسـامع، الآيـات التى ترفع حجب الغرور وتجسّـد الحقائق أمام الإنسان، وأخيراً فإنّها آيات

النور والضياء التى تخرج الإنسان من ظلمات الأوهام والتصورات الخاطئة وترشده إلى عالم الحقائق.

ثم إنّهم بعد ذلك نسوا اللّه وكفروا بالمعاد وبلقاء اللّه «وَلِقَائِهِ».

يعنى أنّ الإنسان فى يوم القيامة يشاهد آثار الخالق أكثر وأفضل من أى زمان، لذا فإنّه ينظر إليه بوضوح، بعين القلب الواعى البصير.

نعم، فما لم يكن الإيمان بالمعاد إلى جانب الإيمان بالمبدأ، وما لم يحس الإنسان بأنّ هناك قوة تراقب أعماله فإنّ الإنسان سوف لا يعير أهمّية إلى أعماله وسوف لا يصلح نفسه.

ثم تضيف الآية أنّهم بسبب من كفرهم بالمبدأ والمعاد فإنّ أعمالهم قد حبطت وضاعت:

«فَحَبِطَتْ أَعْمٰلُهُمْ». وغدت تماماً كالرماد فى مقابل العاصفة الهوجاء.

ولأنّهم لا يملكون عملًا قيّماً ثميناً لذا: «فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ وَزْنًا».

لأنّ الوزن يخصّ الامور الموجودة، أمّا هؤلاء فلا يملكون شيئاً من الأعمال، ولذلك ليس لهم وزن ولا قيمة. روى فى تفسير مجمع البيان أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال: «إنّه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن جناح بعوضة».

لماذا؟ لأنّ أعمال مثل هؤلاء وأفكارهم وشخصيتهم كانت فى الحياة الدنيا عديمة الأهمية والفائدة.

وفى إطار بيان جزاء هؤلاء، تكشف الآية عن ثالث سبب فى انحراف وخسران هؤلاء، وهو الاستهزاء بما أنزل اللّه، فتقول: «ذلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا».

وبذلك فإنّ هؤلاء انتهوا إلى إنكار الأصول الأساسية الثلاثة فى الإعتقاد الدينى (المبدأ، والمعاد، ورسالة الأنبياء) والأكثر من الإنكار أنّهم استهزؤوا بهذه الامور.

والآن بعد أن عرفنا علامات الكفار والأخسرين أعمالًا، وبعد أن انكشفت عاقبة أعمالهم، تتوجّه الآيات إلى المؤمنين فتبيّن عاقبتهم، وبمقايسة بين الاثنين نستطيع تشخيص

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٦٩

كل طرف بشكل كامل. تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا». «الفردوس»: البستان الذى يشتمل على كل النعم والمواهب اللازمة، وبذلك فالفردوس هو أفضل وأكمل البساتين فى الجنة.

وبما أنّ كمال النعم بدوامها وأن لا تطالها يد الزوال، لذا فإنّ الآية تقول: «خلِدِينَ فِيهَا».

وبالرغم من أنّ طبع الإنسان قائم على التغيّر والتنوع، إلّاأنّ سكّان الجنة لا يطلبون تغيير مكانهم أو حالهم أبداً: «لَايَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا». ذلك لأنّهم يجدون كل ما يطلبون حتى التنوع والتكامل كما سيأتى شرح ذلك.

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَ لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحاً وَ لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (١١٠)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: لمّا نزل قوله «وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» «١»، قالت اليهود: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، وفيها علم كثير، فأنزل اللّه هذه الآية «قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمتِ رَبّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أن تَنفَدَ كَلِمتُ رَبّى».

التّفسير

الذين يأملون لقاء اللّه: الآيات أعلاه فى نفس الوقت الذى تبحث بحثاً مستقلًا، إلّاأنّها متصلة مع بحوث هذه السورة، وكأنّما القرآن يريد أن يقول فى هذه الآيات: إنّ الإطلاع على قصة أصحاب الكهف، وموسى والخضر، وذى القرنين، يعتبر لا شىء إزاء علم اللّه غير المحدود. القرآن الكريم يخاطب الرسول صلى الله عليه و آله- فى أوّل آية نبحثها- بقوله: «قُلْ لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمتِ رَبّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أن تَنفَدَ كَلِمتُ رَبّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا».

«مداد»: تعنى الحبر، أو أى مادة ملوّنة تساعد فى الكتابة.

«كلمات»: جمع كلمة، وهى فى الأصل تعنى الألفاظ التى يتمّ التحدّث بها. أو بعبارة

---

(١) سورة الإسراء/ ٨٥.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٧٠

اخرى: «الكلمة» لفظ يدل على المعنى، وبما أنّ كل موجود من موجودات هذا العالم هو دليل على علم وقدرة الخالق، لذا فإنّه يطلق فى بعض الأحيان على كل موجود اسم (كلمة اللّه) ويختص هذا التعبير أكثر بالموجودات المهمة العظيمة.

وفى الآية التى نبحثها فإنّ (كلمة) قد استخدمت بهذا المعنى أى إشارة إلى موجودات عالم الوجود التى تدل كل واحدة فيه على الصفات المختلفة للّه تبارك وتعالى.

إنّ القرآن يلفت أنظارنا فى هذه الآية إلى هذه الحقيقة وهى: لا تظنّوا أنّ عالم الوجود محدود بما تشاهدونه أو تعلمونه أو تحسّونه، بل هو على قدر من السعة والعظمة بحيث لو أنّ البحار تتحوّل إلى حبر، وتكتب صفاته وخصائصه، فإنّها- أى البحار- ستجف قبل أن تحصى موجودات عالم الوجود.

وينبغى الإنتباه هنا إلى أنّ الآية أعلاه فى الوقت الذى تجسّد فيه سعة عالم الوجود اللامتناهية فى الماضى والحاضر والمستقبل، فإنّها توضّح- أيضاً- العلم المطلق وغير المحدود للخالق جلّ وعلا، لأنّنا نعلم أنّ اللّه سبحانه وتعالى يحيط علمه بما كان موجوداً فى عالم الوجود، وبما سيكون موجوداً، وفى الوقت الذى يعتبر فيه علم اللّه تعالى «علماً حضورياً» فإنّه لا يفترق عن وجود هذه الموجودات (فدقق فى ذلك).

إذن نستطيع أن نقول: لو أنّ جميع المحيطات وبحار الأرض تحوّلت إلى حبر ومداد، ولو أنّ كافة الأشجار تحوّلت إلى أقلام، فإنّ ذلك كلّه لا يستطيع الإحاطة بما هو موجود فى علم الخالق جلّ وعلا.

العدد الحى هو العدد الذى تنشغل أفكارنا به، ويجسّد الحقائق كما هى ويملك روحاً ولساناً وعظمة.

والقرآن الكريم بدلًا من أن يقول: إنّ مخلوقات عالم الوجود تتجاوز فى كثرتها الرقم الذى تقع على يمينه مئات الكيلومترات من الأصفار، يقول: إذا تحوّلت جميع الأشجار إلى أقلام، وكل البحار إلى مواد وحبر، فإنّ الأقلام ستتكسر ومياه البحار ستنتهى، ولا تنتهى أسرار ورموز وحقائق عالم الوجود، هذه الأسرار التى يحيط بها جميعاً علم اللّه تعالى.

الآية الثانية فى البحث والتى هى آخر آية فى سورة الكهف، عبارة عن مجموعة من

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٧١

الأسس والأصول للإعتقادات الدينية، التى تتركّز فى التوحيد والمعاد ورسالة الرّسول صلى الله عليه و آله.

ففى البداية تحدّثت السورة عن اللّه والوحى والجزاء والقيامة، والآية الأخيرة هى خلاصة لمجموع ما ورد فى السورة، التى اشتملت فى قسم مهم منها على الأصول الثلاثة الآنفة باعتبارها محاور للسورة.

ولأنّ قضية النبوة قد اقترنت مع أشكال من الغلو والمبالغة على طول التاريخ، لذا فإنّ الآية تقول: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ».

وهذا التعبير القرآنى نسف جميع الإمتيازات المقرونة بالشرك التى تخرج الأنبياء من صفة البشرية إلى صفة الألوهية.

ثم تشير الآية إلى قضية التوحيد من بين جميع القضايا الاخرى فى الوحى الإلهى حيث تقول: «أَنَّمَا إِلهُكُم إِلهٌ وَاحِدٌ».

أمّا لماذا تمّت الإشارة إلى هذه القضية؟ فذلك لأنّ التوحيد هو خلاصة جميع المعتقدات، وغاية كل البرامج الفردية والاجتماعية التى تجلب السعادة للإنسان.

وفى مكان آخر، أشرنا إلى أنّ التوحيد ليس أصلًا من أصول الدين وحسب، وإنّما هو خلاصة لجميع أصول وفروع الإسلام.

لهذا السبب نقرأ في حديث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «حدثني جبرائيل عليه السلام قال: سمعت ربّ العزّة سبحانه وتعالى يقول: كلمة لا إله إلّااللَّه حصني فمن قالها دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي» «١».

الجملة الثالثة في الآية الكريمة تشير إلى قضية البعث وتربطها بالتوحيد بواسطة (فاء التفريع)، حيث تقول: «فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا».

بالرغم من أنّ لقاء اللَّه بمعنى المشاهدة الباطنية ورؤية الذات المقدسة بعين البصيرة هو أمر ممكن فيهذه الدنيا بالنسبة للمؤمنين الحقيقيين، إلّاأنّ هذه القضية تكتسب جانباً عاماً يوم القيامة بسبب مشاهدة الآثار الكبيرة والواضحة والصريحة للخالق تبارك وتعالى. لذا فإنّ القرآن استخدم هذا التعبير في خصوص يوم القيامة.

---

(١) بحار الأنوار ٤٩/ ١٢٧.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٧٢

وفي آخر جملة ثمّة توضيح للعمل الصالح في جملة قصيرة، هي قوله تعالى: «وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا».

بعبارة اخرى: لا يكون العمل صالحاً ما لم تتجلى فيه حقيقة الإخلاص.

في الحقيقة إنّ العمل الصالح الذي ينبع من أهداف إلهيّة، ويمتزج بالإخلاص ويتفاعل معه، هو الذي يكون جوازاً للقاء اللَّه تبارك وتعالى.

فالعمل الخالص يعتبر مهماً في الإسلام إلى الحد الذي يقول فيه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «من أخلص للَّهأربعين يوماً فجّر اللَّه ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» «١».

«نهاية تفسير سورة الكهف»

---

(١) بحار الأنوار ٦٧/ ٢٤٩.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٧٣

١٩ سورة مريم

محتوى السورة: لهذه السورة من جهة المحتوى عدة أقسام مهمّة:

١- يشكّل القسم الذي يتحدث عن قصص زكريا ومريم والمسيح عليهم السلام ويحيى وإبراهيم عليهما السلام بطل التوحيد، وولده إسماعيل، وإدريس وبعض آخر من كبار أنبياء اللَّه- الجزء الأهم في هذه السورة- ويحتوي على امور تربوية لها خصوصيات مهمّة.

٢- ثم يتحدث عن المسائل المرتبطة بالقيامة، وكيفية البعث، ومصير المجرمين، وثواب المتقين، وأمثال ذلك.

٣- القسم الثالث، وهو المواعظ والنصائح التي تكمّل الأقسام السابقة.

٤- إنّ آخر قسم عبارة عن الإشارات المرتبطة بالقرآن، ونفي الولد عن اللَّه سبحانه، ومسألة الشفاعة، وتشكّل بمجموعها برنامجاً تربوياً مؤثّراً من أجل دفع النفوس الإنسانية إلى الإيمان والطهارة والتقوى.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أدمن قراءة سورة مريم لم يمت في الدنيا حتى يصيب منها ما يغنيه في نفسه وماله وولده وكان في الآخرة من أصحاب عيسى بن مريم عليه السلام واعطى من الأجر في الآخرة ملك سليمان بن داود في الدنيا».

إنّ هذا الغنى وعدم الإحتياج- حتماً- قبس من وجود محتوى السورة وسريانها في أعماق روح الإنسان، وانعكاسها من خلال أعماله

وأقواله وسلوکه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۷۴

کهیعص (۱) ذِکْرُ رَحْمَةِ رَبِّکَ عَبْدَهُ زَکَرِیَّا (۲) إِذْ نَادَی رَبَّهُ نِدَاءً خَفِیّاً (۳) قَالَ رَبِّ إِنِّی وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّی وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَیْباً وَ لَمْ أَکُنْ بِدُعَائِکَ رَبِّ شَقِیّاً (۴) وَ إِنِّی خِفْتُ الْمَوَالِیَ مِنْ وَرَائِی وَ کَانَتِ امْرَأَتِی عَاقِراً فَهَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ وَلِیّاً (۵) یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِیّاً (۶)

دعاء زکریا المستجاب: مرّة اخری نواجه الحروف المقطعة فی بدایة هذه السورة، ولمّا کنّا قد بحثنا تفسیر هذه الحروف المقطعة بصورة مفصّلة فی بدایة ثلاث سور مختلفة فیما سبق- سورة البقرة وآل عمران والأعراف- فلا نری حاجة للتکرار هنا.

ولکن ما ینبغی اضافته هنا هو وجود طائفتین من الروایات فی المصادر الإسلامیة تتعلق بالحروف المقطعة فی هذه السورة «کهیعص».

الاولی: تقول بأنّ کل حرف من هذه الحروف یشیر إلی اسم من أسماء اللَّه الحسنی، فالکاف یشیر إلی الکافی، وهو من أسماء اللَّه الحسنی، والهاء تشیر إلی الهادی، والیاء إشارة إلی الولی، والعین إشارة إلی العالم، والصاد إشارة إلی صادق الوعد «۱».

الثانیة: تفسّر هذه الحروف المقطعة بحادثة ثورة الإمام الحسین علیه السلام فی کربلاء: فالکاف اسم کربلاء، والهاء هلاک العترة، والیاء یزید لعنه اللَّه وهو ظالم الحسین، والعین عطشه، والصاد إشارة إلی صبره «۲».

وکما قلنا مراراً، فإنّ لآیات القرآن أنوار ومعان مختلفة، ومع تنوعها واختلافها فإنّه لا یوجد تناقض بینها.

وبعد ذکر الحروف المقطعة، تشرع الکلمات الاولی باستعراض قصة زکریا علیه السلام فتقول:

«ذِکْرُ رَحْمَتِ رَبِّکَ عَبْدَهُ زَکَرِیَّا». وفی ذلک الوقت الذی کان زکریا علیه السلام مغتماً ومتألماً فیه

---

(۱) تفسیر نور الثقلین ۳/ ۳۲۰.

(۲) المصدر السابق.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۷۵

من عدم إنجاب الولد، توجّه إلی رحمة ربّه: «إِذْ نَادَی رَبَّهُ نِدَاءً خَفِیًّا» بحیث لم یسمعه أحد. وذکر فی دعائه وهن وضعف العظام باعتبارها عمود بدن الإنسان ودعامته وأقوی جزء من اجزائه: «قَالَ رَبِّ إِنِّی وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّی وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَیْبًا».

لقد شبّه زکریا نزول الکبر، وبیاض کل شعر رأسه باشتعال النار، والرماد الأبیض الذی ترکه، وهذا التشبیه جمیل وبلیغ جدّاً.

ثم یضیف: «وَلَمْ أَکُن بِدُعَائِکَ رَبِّ شَقِیًّا». فقد عوّدتنی دائماً- فیما مضی- علی استجابة أدعیتی، ولم تحرمنی منها أبداً، والآن وقد أصبحت کبیراً وعاجزاً فأجدنی أحوج من السابق إلی أن تستجیب دعائی ولا تخیّبنی.

إنّ الشقاء هنا بمعنی التعب والأذی أی إنّی لم أتعب ولم أتأذّ فی طلباتی منک، لأنّک کنت تقضیها بسرعة.

ثم یبیّن حاجته: «وَإِنِّی خِفْتُ الْمَوَالِیَ مِن وَرَاءِی». أی إنّی أخشی من أقربائی أن یسلکوا سبیل الانحراف والظلم، «وَکَانَتِ امْرَأَتِی عَاقِرًا فَهَبْ لِی مِن لَّدُنکَ وَلِیًّا* یَرِثُنِی وَیَرِثُ مِنْ ءَالِ یَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِیًّا». أی مرضیاً عندک.

إنّ للإرث هنا مفهوماً ومعنی واسعاً یشمل إرث الأموال کما یشمل إرث المقامات المعنویة، لأنّ الأشخاص الفاسدین إذا تولّوا أمر هذه الأموال، فإنّهم سیکونون مصدر قلق حقاً، وإذا وقعت زمام الامور وقیادة الناس المعنویة بید أناس منحرفین، فإنّ ذلک أیضاً یثیر المخاوف، وعلی هذا فإنّ خوف زکریا یمکن توجیهه فی کلا الصورتین.

یَا زَکَرِیَّا إِنَّا نُبَشِّرُکَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ یَحْیَی لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِیّاً (۷) قَالَ رَبِّ أَنَّی یَکُونُ لِی غُلَامٌ وَ کَانَتِ امْرَأَتِی عَاقِراً وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْکِبَرِ عِتِیّاً (۸) قَالَ کَذَلِکَ قَالَ رَبُّکَ هُوَ عَلَیَّ هَیِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُکَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَکُ شَیْئاً (۹) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِی آیَةً قَالَ آیَتُکَ أَنْ تُکَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَیَالٍ سَوِیّاً (۱۰) فَخَرَجَ عَلَی قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَی إِلَیْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُکْرَةً وَ عَشِیّاً (۱۱)

بلوغ زكريا أمله: تبيّن هذه الآيات استجابة دعاء زكريا عليه السلام من قبل اللَّه تعالى استجابة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۷۶

ممزوجة بلطفه الكريم وعنايته الخاصة، وتبدأ بهذه الجملة: «يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَمٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا». أمّا زكريا الذى كان يرى أنّ الأسباب الظاهرية لا تساعد على الوصول إلى مثل هذه الأمنية، فإنّه طلب توضيحاً لهذه الحالة من اللَّه سبحانه: «قَالَ رَبّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا».

«عاقر»: فى الأصل من لفظة «عقر» بمعنى الجذر والنهاية، أو بمعنى الحبس، وإنّما يقال للمرأة، عاقر؛ لأنّ قابليتها على الولادة قد انتهت، أو لأنّ إنجاب الأولاد محبوس عنها.

«العتىّ»: تعنى الشخص الذى نحل جسمه وضعف هيكله، وهى الحالة التى تظهر على الإنسان عند شيخوخته.

إلّا أنّ زكريا سمع فى جواب سؤاله قول اللَّه سبحانه: «قَالَ كَذلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ».

إنّ هذه ليست بالمسألة العجيبة، أن يولد مولود من رجل طاعن فى السن مثلك، وامرأة عقيم ظاهراً «وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيًا»، فإنّ اللَّه قادر على أن يخلق كل شيء من العدم، فلا عجب أن يتلطّف عليك بولد فى هذا السن وفى هذه الظروف.

وقد سرّ زكريا وفرح كثيراً لدى سماعه هذه البشارة، وغمر نور الأمل نفسه، لكن لمّا كان هذا النداء بالنسبة إليه مصيرياً ومهماً جدّاً، فإنّه طلب من ربّه آية على هذا العمل:

«قَالَ رَبّ اجْعَل لِّى ءَايَةً».

لا شك أنّ زكريا كان مؤمناً بوعد اللَّه، وكان مطمئناً لذلك، إلّاأنّه لزيادة الإطمئنان- كما أنّ إبراهيم الذى كان مؤمناً بالمعاد طلب مشاهدة صورة وكيفية المعاد فى هذه الحياة ليطمئن قلبه- طلب من ربّه مثل هذه العلامة والآية، فخاطبه اللَّه: «قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلّمَ النَّاسَ ثَلثَ لَيَالٍ سَوِيًّا»، واشغل لسانك بذكر اللَّه ومناجاته.

وهذه واقعاً معجزة بيّنة حيث إنّ إنساناً يمتلك لساناً سليماً، وقدرة على كل نحو من المناجاة مع اللَّه، ومع ذلك لا تكون له القدرة على التحدّث أمام الناس.

بعد هذه البشارة والآية الواضحة، خرج زكريا من محراب عبادته إلى الناس، فكلّمهم بالإشارة: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا»، لأنّ النعمة الكبيرة التى منّ اللَّه بها على زكريا قد أخذت بأطراف القوم، وكان لها تأثير على مصير ومستقبل كل هؤلاء.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۷۷

وإذا تجاوزنا ذلك، فإنّ بإمكان هذه الموهبة التى تعتبر إعجازاً أن تحكّم أسس الإيمان فى قلوب الناس، وكانت هذه أيضاً موهبة اخرى.

لقد ورد اسم «يحيى» فى القرآن الكريم خمس مرات- فى سور آل عمران، والأنعام، ومريم، والأنبياء- فهو واحد من أنبياء اللَّه الكبار، ومن جملة امتيازاته ومختصاته أنّه وصل إلى مقام النبوة فى مرحلة الطفولة.

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً (۱۲) وَ حَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَ زَكَاةً وَ كَانَ تَقِيّاً (۱۳) وَ بَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً (۱۴) وَ سَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً (۱۵)

صفات يحيى عليه السلام البارزة: رأينا فى الآيات السابقة كيف أنّ اللَّه سبحانه منّ على زكريا عند كبره بيحيى، وبعد ذلك فإنّ أوّل ما نلاحظه فى هذه الآيات هو الأمر الإلهى المهم الذى يخاطب يحيى: «يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتبَ بِقُوَّةٍ».

إنّ المراد من الكتاب هنا هو التوراة، فإنّ المراد من أخذ الكتاب بقوة هو إجراء وتنفيذ ما جاء فى كتاب التوراة السماوى وأن يعمل بكلّ ما فيه، وأن يستعين بكل القوى المادية والمعنوية فى سبيل نشره وتعميمه.

ثم أشار القرآن الكريم إلى المواهب العشرة التى منحها اللّه ليحيى والتى اكتسبها بتوفيق اللّه:

۱- «وَءَاتَيْنهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا». وهو أمر النبوة والعقل والذكاء والدراية.

۲- «وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا». و «الحنان» فى الأصل بمعنى الرحمة والشفقة والمحبة وإظهار العلاقة والمودة للآخرين.

۳- «وَزَكَوةً». أى أعطيناه روحاً طاهرة وزكية.

۴- «وَكَانَ تَقِيًّا». فكان يجتنب كل ما يخالف الأوامر الالهية.

۵- «وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ».

۶- «وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا» فلم يكن رجلًا ظالماً ومتكبراً وانانيّاً.

۷- ولم يكن «عَصِيًّا» ولم يقترف ذنباً ومعصية.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۷۸

۸، ۹، ۱۰- ولمّا كان جامعاً لكل هذه الصفات البارزة، والأوسمة الكبيرة، فإنّ اللّه سبحانه قد سلّم عليه فى ثلاثة مواطن: «وَسَلَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا». إنّ جملة «سَلمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ ...» يبيّن أنّ فى تاريخ حياة الإنسان وانتقاله من عالم إلى عالم آخر ثلاثة أيام صعبة: يوم يضع قدمه فى هذه الدنيا: «يَوْمَ وُلِدَ» ويوم موته وانتقاله إلى عالم البرزخ «وَيَوْمَ يَمُوتُ» ويوم بعثه فى العالم الآخر «وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا». ولمّا كان من الطبيعى أن تكون هذه الأيّام مرافقة للإضطرابات والقلق، فإنّ اللّه سبحانه يكتنف خاصة عباده بلطفه وعافيته، ويجعل هؤلاء فى ظلّ حمايته ومنعته فى هذه المراحل العسيرة الثلاثة.

شهادة يحيى عليه السلام: لقد أصبح يحيى ضحيّة للعلاقات غير الشرعية لأحد طواغيت زمانه مع أحد محارمه، حيث تعلّق «هروديس» ملك فلسطين اللاهث وراء شهواته ببنت أخته «هروديا» ولذلك صمم على الزواج منها.

فبلغ هذا الخبر نبى اللّه العظيم يحيى عليه السلام، فأعلن بصراحة أنّ هذا الزواج غير شرعى ومخالف لتعليمات التوراة، وسأقف أمام مثل هذا العمل.

لقد انتشر صخب وضوضاء هذه المسألة فى كل أرجاء المدينة، وسمعت تلك الفتاة (هروديا) بذلك، فكانت ترى يحيى أكبر عائق فى طريقها، ولذلك صممت على الإنتقام منه فى فرصة مناسبة، فعمّقت علاقتها بخالها ووطّدتها، وجعلت من جمالها مصيدة له، فقالت هروديا: لا أريد منك إلّارأس يحيى.

فسلّم هيروديس لما أرادت من دون أن يفكّر ويتنبه إلى عاقبة هذا العمل، ولم يمض قليل من الزمن حتى احضر رأس يحيى عند تلك المرأة الفاجرة، إلّاأنّ عواقب هذا العمل الشنيع قد أحاطت به، وأخذت بأطرافه فى النهاية.

فى تفسير مجمع البيان عن على بن الحسين عليهما السلام قال: «خرجنا مع الحسين عليه السلام فما نزل منزلًا ولا ارتحل منه إلّاذكر يحيى بن زكريا وقتله، وقال يوماً: ومن هوان الدنيا على اللّه عزّ وجل أنّ رأس يحيى بن زكريا اهدى إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل».

أى إنّ ظروفى تشابه من هذه الناحية ظروف وأحوال يحيى، لأنّ أحد أهداف ثورتى محاربة الأعمال المخزية لطاغوت زمانى يزيد.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۷۹

وَ اذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً (۱۶) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً (۱۷) قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً (۱۸) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً (۱۹) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيّاً (۲۰) قَالَ كَذلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا وَ كَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً (۲۱)

ولادة عيسى عليه السلام: بعد ذكر قصة يحيى عليه السلام، حوّلت الآيات مجرى الحديث إلى قصة عيسى عليه السلام لوجود علاقة قوية وتقارب واضح جدّاً بين مجريات هاتين الحادثتين.

فإن كانت ولادة يحيى من أب كبير طاعن فى السن وأم عقيم عجيبة، فإنّ ولادة عيسى من امّ دون أب أعجب.

وإن كـان الوصول إلى مقـام النبوة وبلوغ العقـل الكامـل- فی مرحلـة الطفولـة- باعثاً على الحيرة ومعجزاً، فإنّ التحـدّث فی المهـد عن الكتاب والنبوة أبعث على التعجب والحيرة، وأكثر إعجازاً.

وعلى كـل حال، فإنّ كلا الأمرين آيتان على قـدرة اللَّه الكبير المتعال، إحـداهما أكبر من الاخرى، وقـد صادف أن تكون كلتا الآيتين مرتبطتـان بشخصـين تربطهمـا أواصـر نسب قويـة، فكـل منهما قريب للآخر من ناحيـة النسب، حيث إنّ امّ يحيى كانت أخت امّ مريم، وكانت كلتاهما عقيمتين وتعيشان أمل الولد الصالح.

تقول الآية الاولى: «وَاذْكُرْ فِى الْكِتبِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا».

«انتبـذت»: أخـذت من مادة «نبذ» وهی تعنی إلقاء وإبعاد الأشـياء التی لا تسترعی الإنتباه، وربّما كان هذا التعبير فی الآية إشارة إلى أنّ مريم قد اعتزلت بصورة متواضعة ومجهولة وخالية من كل ما يجلب الإنتباه، واختارت ذلك المكان من بيت اللَّه للعبادة.

فی هذه الأثناء ومن أجل أن تكمل مريم مكان خلوتها واعتكافها من كل جهة، فإنّها «فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا». «فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا». والروح هنا جبرئيل ملك اللَّه العظيم حيث تجسّد لمريم على شكل انسان جميل لا عيب فيه ولا نقص.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۸۰

إنّ الحالـة التی اعترت مريم فی تلك اللحظـة واضـحة جـدّاً، كم داخلها من الرعب والإضـطراب عند مشاهدة هذا المنظر، وهو دخول رجل أجنبی جميل فی محل خلوتها، ولذلك فإنّها مباشرة: «قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا». وكانت هذه أوّل هزّة عمّت كل وجود مريم.

إنّ ذكر اسم الرحمان، ووصفه برحمته العامة من جهة، وترغيب الرجل فی التقوى والإمتناع عن المعصية من جهة اخرى، كان من أجل أن يرتدع هذا الشخص المجهول إن كانت له نيّة سيّئة فی إرتكاب المعصية.

لقد كانت مريم تنتظر ردّ فعل ذلك الشـخص المجهول بعد أن تفوّهت بهذه الكلمات إنتظاراً مشوباً بالإضطراب والقلق الشديد، إلّاأنّ هذه الحالة لم تطل، فقد كلّمها ذلك الشخص، ووضّح مهمّته ورسالته العظيمة «قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ».

لقـد كانت هـذه الجملـة كالماء الـذی يلقى على النار، فقـد طمأنت قلب مريم الطاهر، إلّاأنّ هـذا الإطمئنان لم يـدم طويلًا، لأنّه أضاف مباشرة: «لِأَهَبَ لَكِ غُلَمًا زَكِيًّا».

لقد اهتز كيان ووجود مريم لدى سماع هذا الكلام، وغاصت مرّة اخرى فی قلق شديد:

«قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا».

لقد كانت تفكّر فی تلك الحالة فی الأسباب الطبيعية فقط. إلّاأنّ أمواج هذا القلق المتلاطمة هدأت بسرعة عند سماع كلام آخر من رسول اللَّه إليها، فقد خاطب مريم بصراحة: «قَالَ كَذلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ». فأنت الواقفة على قدرتی والعالمة بها جيّداً ...

أنت التی رأيت ثمر الجنّة فی فصل لا يوجـد شبيه لتلك الفاكهـة فی الـدنيا جنب محراب عبادتك، أنت التی سـمعت نـداء الملائكة حين شهدت بعفّتك وطهارتك ... أنت التی تعلمين أنّ جدّك آدم قد خلق من التراب، فلماذا هذا التعجب من سماعك هذا الخبر؟

ثم أضاف: «وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا». فنحن نريـد أن نبعثه للناس رحمة من عندنا، ونجعله معجزة، وعلى كل حال، «وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا». فلا مجال بعد ذلك للمناقشة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۸۱

مريم فی عاصفة: وأخيراً حملت مريم، واستقرّ ذلك الولد الموعود فی رحمها:

«فَحَمَلَتْهُ».

إنّ هذا الأمر قد تسبب فی أن تبتعد عن بيت المقدس «فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا».

لقـد كـانت تعيش فی حالـة بين الخـوف والأمـل، حالـة من القلـق والإضـطراب المشوب بالسـرور، فهی تفكّر أحيانـاً بـأنّ هـذا الحمل

سیفتضح أمره فی النهایة.

فمن الذی سیقتنع بأنّ إمرأة لا زوج لها تحمل دون أن تکون قد تلوّثت بالرذیلة؟ فماذا سأفعل تجاه هذا الإتهام؟

إلّا أنّها من جهة اخری کانت تحسّ أنّ هذا المولود، نبی اللّه الموعود، تحفة سماویة نفیسة، فإنّ اللّه الذی بشّرنی بمثل هذا الغلام، وخلقه بهذه الصورة الإعجازیة کیف سیذرنی وحیدة؟

ومهما کان فقد انتهت مدّة الحمل.

ومع أنّ النساء یلجأن عادة فی مثل هذه الحالة إلی المعارف والأصدقاء لیساعدوهنّ علی الولادة، إلّاأنّ وضع مریم لمّا کان استثنائیاً، ولم تکن ترید أن یری أحد وضع حملها مطلقاً، فإنّها اتّخذت طریق الصحراء بمجرّد أن بدأ ألم الولادة؛ ویقول القرآن فی ذلک: «فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَی جِذْعِ النَّخْلَةِ».

إنّ التعبیر بجذع النخلة، وبملاحظة أنّ الجذع یعنی بدن الشجرة، یوحی بأنّه لم یبق من تلک الشجرة إلّاجذعها وبدنها، أی إنّ الشجرة کانت یابسة.

فی هذا الحال غمر کل وجود مریم الطاهر سیل من الغم والحزن، لقد کان هذا الإضطراب والصراع صعباً جدّاً، وقد أثقل کاهلها إلی الحد الذی تکلّمت فیه بلا إرادة و «قَالَتْ یَا لَیْتَنِی مِتُّ قَبْلَ هذَا وَکُنتُ نَسْیًا مَّنسِیًّا».

إنّ من البدیهی أنّ الخوف من التهم فی المستقبل لم یکن الشیء الوحید، وإن کان هذا الموضوع یشغل فکر مریم أکثر من أیّة مسألة اخری، إلّاأنّ مشاکل ومصائب اخری کوضع الحمل لوحدها بدون قابلة وصدیق ومعین فی الصحاری الخالیة، وعدم وجود مکان للإستراحة، وعدم وجود الماء للشرب، والطعام للأکل، وعدم وجود وسیلة لحفظ المولود الجدید، وغیر هذه الامور کانت تهزّها من الأعماق بشدة.

إلّا أنّ هذه الحالة لم تدم طویلًا، فقد سطعت ومضة الأمل التی کانت موجودة دائماً فی

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۸۲

أعماق قلبها، وطرق سمعها صوت، «فَنَادَیهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِی قَدْ جَعَلَ رَبُّکِ تَحْتَکِ سَرِیًّا». وانظری إلی الأعلی کیف أنّ هذا الجذع الیابس قد تحوّل إلی نخلة مثمرة، «وَهُزِّی إِلَیْکِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَیْکِ رُطَبًا جَنِیًّا* فَکُلِی وَاشْرَبِی وَقَرِّی عَیْنًا» بالمولود الجدید، «فَإِمَّا تَرَیِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِی إِنِّی نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْمًا فَلَنْ أُکَلِّمَ الْیَوْمَ إِنسِیًّا». وهذا الصوم هو المعروف بصوم السکوت. وعلی هذا فلیهدأ روعک من کل الجهات، ولا تدعی للهم طریقاً إلی نفسک.

ویظهر من تعبیر الآیة أنّ نذر صوم السکوت کان أمراً معروفاً فی ذلک المجتمع، ولهذا لم یعترضوا علی هذا العمل؛ غیر أنّ هذا النوع من الصوم غیر جائز فی شریعتنا.

عن علی بن الحسین علیه السلام (فی حدیث) قال: «وصوم الصمت حرام» «۱».

استفاد المفسرون مما جاء صریحاً فی هذه الآیات، أنّ اللّه سبحانه قد جعل غذاء مریم حین ولادة مولودها الرطب.

فی الکافی عن أمیر المؤمنین علیه السلام قال: «قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله لیکن أوّل ما تأکل النفساء الرطب، فإنّ اللّه عزّ وجل قال لمریم: «وَهُزِّی إِلَیْکِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَیْکِ رُطَبًا جَنِیًّا»».

ویستفاد من الروایات أنّ أفضل غذاء ودواء للحامل هو الرطب.

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا یَا مَرْیَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَیْئاً فَرِیّاً (۲۷) یَا أُخْتَ هَارُونَ مَا کَانَ أَبُوکِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ مَا کَانَتْ أُمُّکِ بَغِیّاً (۲۸) فَأَشَارَتْ إِلَیْهِ قَالُوا کَیْفَ نُکَلِّمُ مَنْ کَانَ فِی الْمَهْدِ صَبِیّاً (۲۹) قَالَ إِنِّی عَبْدُ اللَّهِ آتَانِیَ الْکِتَابَ وَ جَعَلَنِی نَبِیّاً (۳۰) وَ جَعَلَنِی مُبَارَکاً أَیْنَمَا کُنْتُ وَ أَوْصَانِی بِالصَّلَاةِ وَ الزَّکَاةِ مَا دُمْتُ حَیّاً (۳۱) وَ بَرّاً بِوَالِدَتِی وَ لَمْ یَجْعَلْنِی جَبَّاراً شَقِیّاً (۳۲) وَ السَّلَامُ عَلَیَّ یَوْمَ وُلِدْتُ وَ یَوْمَ أَمُوتُ وَ یَوْمَ أُبْعَثُ حَیّاً (۳۳)

المسيح يتكلّم فى المهد: وأخيراً رجعت مريم عليها السلام من الصحراء إلى المدينة وقد احتضنت طفلها «فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ». فلمّا رأوا طفلًا حديث الولادة بين يديها فغرّوا أفواههم تعجّباً، وتعجّل آخرون فى القضاء والحكم، وقالوا: إنّ من المؤسف هذا الإنحدار مع ذلك الماضى المضىء، ومع الأسف على تلوّث سمعة تلك الأسرة الطاهرة، «قَالُوا يَا مَرْيَمُ

(١) وسائل الشيعة ٧/ ٣٩٠.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٨٣

لَقَدْ جِئْتِ شَيًا فَرِيًّا».

والبعض الآخر واجهها، بالقول: «يَا أُختَ هرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امَرأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا».

أمّا قولهم لمريم: «يَا أُختَ هرُونَ» لأنّ هارون رجل طاهر صالح إلى الدرجة التى يضرب به المثل بين بنى إسرائيل، فإذا أرادوا أن يصفوا شخصاً بالطهارة والنزاهة، كانوا يقولون: إنّه أخو أو أخت هارون.

فى هذه الساعة، سكتت مريم بأمر اللَّه، والعمل الوحيد الذى قامت به، هو أنّها أشارت إلى وليدها «فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ». إلّاأنّ هذا العمل جعل هؤلاء يتعجبون أكثر، ثم غضبوا فقالوا:

مع قيامك بهذا العمل تسخرين من قومك أيضاً؟ «قَالُوا كَيْفَ نُكَلّمُ مَن كَانَ فِى الْمَهْدِ صَبِيًّا».

إنّ الناس قلقوا واضطربوا من سماع كلام مريم هذا، بل وربما غضبوا وقالوا لبعضهم البعض- حسب بعض الروايات-: إنّ استهزاءها وسخريتها أشدّ علينا من انحرافها عن جادة العفة.

إلّا أنّ هذه الحالة لم تدم طويلًا، لأنّ ذلك الطفل الذى ولد حديثاً قد فتح فاه وتكلّم:

«قَالَ إِنّى عَبْدُ اللَّهِ ءَاتِنِىَ الْكِتبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا* وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ»، ومفيداً من كل الجهات للعباد «وَأَوْصنِى بِالصَّلَوةِ وَالزَّكَوةِ مَا دُمْتُ حَيًّا».

وكذلك جعلنى مطيعاً ووفياً لُامى «وَبَرًّا بِوَالِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا».

وروى- فى التفسير الكبير- أنّ عيسى عليه السلام قال: «قلبى لين وأنا صغير فى نفسى». وهو إشارة إلى أنّ هذين الوصفين يقعان فى مقابل الجبار والشقى.

وفى النهاية يقول هذا المولود- أى المسيح-: «وَالسَّلمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًا».

هذه الآية فى حق يحيى عليه السلام كما وردت فى شأن المسيح عليه السلام، مع الاختلاف بأنّ اللَّه هو الذى قالها فى المورد الأوّل، أمّا فى المورد الثانى فإنّ المسيح قد طلب ذلك.

ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣۴) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣۵)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٨۴

أيمكن أن يكون للّهولد؟! بعد تجسيد القرآن الكريم فى الآيات السابقة حادثة ولادة المسيح عليه السلام بصورة حيّة وواضحة جدّاً، انتقل إلى نفى الخرافات وكلمات الشرك التى قالوها فى شأن عيسى، فيقول: «ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ». خاصّة وأنّه يؤكّد على كونه «ابن مريم» ليكون ذلك مقدمة لنفى بنوّته للّهسبحانه. ثم يضيف: «قَوْلَ الْحَقّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ».

وتقول الآية التالية بصراحة: «مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ». وهذا إشارة إلى أنّ اتخاذ الولد- كما يظن المسيحيون فى شأن اللَّه- لا يناسب قداسة مقام الألوهية والربوبية، فهو يستلزم من جهة الجسمية، ومن جانب آخر المحدودية، ومن جهة ثالثة الإحتياج.

إنّ تعبير «كُن فَيَكونُ» تجسيد حى جدّاً عن مدى سعة قدرة اللّه، وتسلطه وحاكميته فى أمر الخلقة.

وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣۶) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِى غَفْلَةٍ وَ هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْهَا وَ إِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (۴٠)

إنّ آخر كلام لعيسى عليه السلام بعد تعريفه لنفسه بالصفات التى ذكرت، هو التأكيد على مسألة التوحيد، وخاصة فى مجال العبادة، فيقول: «وَإِنَّ اللَّهَ رَبّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ».

وعلى هذا فإنّ عيسى عليه السلام بدأ بمحاربة كل أنواع الشرك وعبادة الآلهة المزدوجة والمتعددة منذ بداية حياته.

غير أنّه بالرغم من كل هذه التأكيدات التى أكّد عليها المسيح عليه السلام فى مجال التوحيد وعبادة اللّه، فقد اختلفت الفئات، وأظهروا اعتقادات مختلفة، وخاصة فى شأن المسيح:

«فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

إنّ تاريخ المسيحية يشهد بوضوح على مدى الاختلاف الذى حصل بعد المسيح عليه السلام فى شأنه، وحول مسألة التوحيد.

فذهب البعض: إنّ المسيح هو اللّه الذى نزل إلى الأرض! فأحيى جماعة، وأمات اخرى، ثم صعد إلى السماء!

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٨٥

وقال البعض الآخر: إنّه ابن اللّه!

ورأى آخرون: إنّه أحد الأقانيم الثلاثة- الذوات الثلاثة المقدسة- الأب والإبن وروح القدس، اللّه الأب، واللّه الإبن وروح القدس.

وآخرون قالوا: إنّه ثالث ثلاثة: فاللّه معبود، وهو معبود، وامّه معبودة!

وأخيراً قال البعض: إنّه عبد اللّه ورسوله.

ولمّا كان الانحراف عن أصل التوحيد يعتبر أكبر انحراف للمسيحيين، فقد رأينا كيف أنّ اللّه قد هدّد هؤلاء فى ذيل الآية بأنّهم سيكون لهم مصير مؤلم مشؤوم فى يوم القيامة، فى ذلك المشهد العام، وأمام محكمة اللّه العادلة.

ثم تبيّن الآية التالية وضع اولئك فى عرصات القيامة، فتقول عندما يقدمون علينا يوم القيامة فسوف تكون لهم اسماع قويّة وابصار حادّه فيسمعون ويرون جميع الحقائق التى كانت خافية عليهم فى هذه الدنيا، ولكن الظالمين اليوم، أى فى هذه الدنيا غافلون عن هذه العاقبة: «أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لكِنِ الظلِمُونَ الْيَوْمَ فِى ضَللٍ مُّبِينٍ».

ومن الطبيعى أن تسلب المحكمة وآثار الأعمال نوم الغفلة من العين والأذن، وحتى عمى القلوب فإنّهم سيعون الأمر ويعلمون الحق، إلّاأنّ هذا الوعى والعلم لا ينفعهم شيئاً.

ثم تؤكّد الآية التالية مرّة اخرى على مصير المنحرفين والظالمين فى ذلك اليوم، فتقول:

«وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ».

حيث يتحسّر المؤمنون المحسنون على قلّة عملهم، ويا ليتهم كانوا قد عملوا أكثر، وكذلك يتحسّر المسيئون، لأنّ الحجب تزول، وتتّضح حقائق الأعمال ونتائجها للجميع.

ثم تحذّر الآية الأخيرة- من آيات البحث- كل الظالمين والجائرين، وتذكّرهم بأنّ هذه الأموال التى تحت تصرفهم الآن ليست خالدة، كما أنّ حياتهم ليست خالدة، بل إنّ الوارث الأخير لكل شىء هو اللّه سبحانه: «إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ».

وَ اذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً (۴١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَ لَا يُبْصِرُ وَ لَا يُغْنِى عَنْكَ شَيْئاً (۴٢) يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً (۴٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيّاً (۴۴) يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً (۴۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۸۶

إبراهيم ومنطقه المؤثر والقاطع: تزيح هذه الآيات الستار عن جانب من حياة بطل التوحيد إبراهيم الخليل عليه السلام، وتؤكّد على أنّ دعوة هذا النبى الكبير- كسائر المرشدين الإلهيين- تبدأ من نقطة التوحيد، فتقول أوّلًا: «وَاذْكُرْ فِى الْكِتبِ إِبْرهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدّيقًا نَبِيًّا».

إنّ أبرز صفة يلزم وجودها فی كل الانبياء وحملة الوحى الإلهى أن يوصلوا أوامر اللّه إلى العباد دون زيادة أو نقصان.

ثم تتطرق الآية التى بعدها إلى شرح محاورته مع أبيه آزر- والأب هنا إشارة إلى العم، فإنّ كلمة الأب، كما قلنا سابقاً، ترد أحياناً فی لغة العرب بمعنى الأب، وأحياناً بمعنى العم- فتقول: «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَايَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيًا».

إنّ هذا البيان القصير القاطع من أحسن أدلة نفى الشرك وعبادة الأوثان، لأنّ أحد بواعث الإنسان فی معرفة الرب هو باعث الربح والخسارة، والضرر والنفع، والذى يعبّر عنه علماء العقائد بمسألة (دفع الضرر المحتمل). فهو يقول: لماذا تتّجه إلى معبود ليس عاجزاً عن حل مشكلة من مشاكلك وحسب، بل إنّه لا يملك أصلًا القدرة على السمع والبصر.

بعد ذلك دعاه- عن طريق المنطق الواضح- إلى اتّباعه، فقال: «يَا أَبَتِ إِنّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا». فإنّى قد وعيت اموراً كثيرة عن طريق الوحى، وأستطيع أن أقول باطمئنان: إنّى سوف لا- أسلك طريق الضلال والخطأ، ولا أدعوك أبداً إلى هذا الطريق المعوج.

ثم يعطف نظره إلى الجانب السلبى من القضية بعد ما ذكر بعدها الايجابى ويشير إلى الآثار التى تترتب على مخالفة هذه الدعوة، فيقول: «يَا أَبَتِ لَاتَعْبُدِ الشَّيْطنَ إِنَّ الشَّيْطنَ كَانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا».

إنّ العبادة هنا بمعنى الطاعة واتباع الأوامر، وهذا بنفسه يعتبر نوعاً من العبادة.

ثم يذكّره وينبّهه مرّة اخرى بعواقب الشرك وعبادة الأصنام المشؤومة، ويقول: «يَا أَبَتِ إِنّى أَخَافُ أن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطنِ وَلِيًّا».

إنّ تعبير إبراهيم هذا رائع جدّاً، فهو من جانب يخاطب عمّه دائماً ب «يَا أَبَتِ» وهذا يدل على الأدب واحترام المخاطب، ومن جانب آخر فإنّ قوله «أن يَمَسَّكَ» توحى بأنّ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۸۷

إبراهيم كان قلقاً ومتأثّراً من وصول أدنى أذى إلى آزر.

قَالَ أ رَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِى يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ اهْجُرْنِى مَلِيّاً (۴۶) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيّاً (۴۷) وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ أَدْعُو رَبِّى عَسَى أَنْ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيّاً (۴۸) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيّاً (۴۹) وَ وَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَ جَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً (۵۰)

نتيجة البعد عن الشرك والمشركين: مرّت فی الآيات السابقة كلمات إبراهيم عليه السلام التى كانت ممتزجة باللطف والمحبّة فی طريق الهداية، والآن جاء دور ذكر أجوبة آزر، لكى تتّضح الحقيقة والواقع من خلال مقارنة الكلامين مع بعضهما. يقول القرآن الكريم: إنّ حرص وتحرّق إبراهيم، وبيانه الغنى العميق لم ينفذ إلى قلب آزر، بل إنّه غضب لدى سماعه هذا الكلام، و «قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَا إِبْرهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا».

لكن، ورغم كل ذلك، فقد سيطر إبراهيم على أعصابه، كبقية الأنبياء والقادة الإلهيين، ومقابل هذه الغلظة والحدّة وقف بكل سمو وعظمة، و «قَالَ سَلمٌ عَلَيْكَ».

إنّ هذا السلام يمكن أن يكون سلام التوديع، وأنّ إبراهيم بقوله: «سَلمٌ عَلَيْكَ» وما يأتى بعده من كلام يقصد ترك آزر؛ ويمكن أن يكون سلاماً يقال لفض النزاع.

ثم أضاف: «سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا». إنّ إبراهيم فی الواقع قابل خشونة وتهديد آزر بالعكس، ووعده بالاستغفار وطلب

مغفرة اللّه له.

ثم يقول: «وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ». أى: الأصنام. «وَأَدْعوا رَبّى عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبّى شَقِيًّا».

تبيّن هذه الآية من جهة أدب إبراهيم فى مقابل آزر، ومن جهة اخرى فإنّها تبيّن حزمه فى عقيدته.

لقد وفى إبراهيم بقوله، وثبت على عقيدته بكلّ صلابة وصمود، وكان دائماً ينادى بالتوحيد، بالرغم من أنّ كل ذلك المجتمع الفاسد فى ذلك اليوم قد وقف ضدّه وثار عليه، إلّا أنّه لم يبق وحده فى النهاية، فقد وجد أتباعاً كثيرين على مرّ القرون والأعصار، بحيث إنّ كل

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٨٨

الموحدين وعباد اللّه فى العالم يفتخرون بوجوده. يقول القرآن الكريم: «فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا».

إنّ هذه الموهبة العظيمة كانت نتيجة صبر إبراهيم عليه السلام واستقامته التى أظهرها فى طريق محاربة الأصنام، واعتزال المنهج الباطل والإبتعاد عنه. وإضافة إلى ذلك: «وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَحْمَتِنَا». تلك الرحمة الخاصة بالمخلصين، والرجال المجاهدين فى سبيل اللّه. وأخيراً: «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا».

إنّ هذا فى الحقيقة إجابة لطلب ودعاء إبراهيم الذى جاء فى الآية (٨۴) من سورة الشعراء: «وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْأَخِرِينَ».

وَ اذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيّاً (۵١) وَ نَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً (۵٢) وَ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً (۵٣)

موسى النبى المخلص: فى هذه الآيات الثلاث إشارة قصيرة إلى موسى عليه السلام- وهو من ذرّية إبراهيم عليه السلام وموهبة من مواهب ذلك الرجل العظيم- حيث سار على خطاه.

وتوجّه الآية الخطاب إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وتقول: «وَاذْكُرْ فِى الْكِتبِ مُوسَى .

ثم تذكر خمس مواهب وصفات من المواهب التى أعطيت لهذا النبى الكبير:

١- إنّه وصل فى طاعته وعبوديته للّهإلى حدّ «إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا». ولا ريب أنّ الذى يصل إلى هذه المرتبة سيكون مصوناً من خطر الانحراف والتلوّث، لأنّ الشيطان رغم كل إصراره على إضلال عباد اللّه، يعترف هو نفسه بعدم قدرته على إضلال المخلصين: «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» «١».

٢- «وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا». فحقيقة الرسالة أن تلقى مهمّة على عاتق شخص، وهو مسؤول عن أدائها وإبلاغها، وهذا المقام كان لجميع الأنبياء المأمورين بالدعوة.

إنّ ذكر كونه «نبيّاً» هنا إشارة إلى علوّ مقام هذا النبى العظيم، لأنّ هذه اللفظة فى الأصل مأخوذة من (النّبْوَة) وتعنى رفعة المقام وعلوّه.

٣- وأشارت الآية التالية إلى بداية رسالة موسى، فقالت: «وَنَدَيْنَهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ

---

(١) سورة ص/ ٨٢ و ٨٣.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٨٩

الْأَيْمَنِ». ففى تلك الليلة المظلمة الموحشة، حيث قطع موسى صحارى مدين متوجّهاً إلى مصر، أخذ زوجته الطلق وألم الولادة، وكان البرد شديداً، فكان يبحث عن شعلة نار، وفجأة سطع نور من بعيد، وسمع نداء يبلغه رسالة اللّه، وكان هذا أعظم وسام وألذّ لحظة فى حياته.

۴- إضافة إلى ذلك: «وَقَرَّبْنَهُ نَجِيًّا» «١» فإنّ النداء كان موهبة، والتكلّم موهبة اخرى.

۵- وأخيراً «وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هرُونَ نَبِيًّا» ليكون معينه ونصيره.

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيّاً (۵۴) وَ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً (۵۵)

إسماعيل نبى صادق الوعد: بعد ذكر إبراهيم عليه السلام وتضحيته، وبعد الإشارة القصيرة إلى حياة موسى عليه السلام المتسامية، يأتى الحديث عن إسماعيل، أكبر ولد إبراهيم، ويكمل ذكر إبراهيم بذكر ولده إسماعيل، وبرامجه ببرامج ولده، ويبيّن القرآن الكريم خمس صفات من صفاته البارزة التى يمكن أن تكون قدوة للجميع.

ويبدأ الكلام بخطاب الآية الشريفة للنبى صلى الله عليه و آله فتقول: «وَاذْكُرْ فِى الْكِتبِ إِسْمعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا* وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوةِ وَالزَّكَوةِ وَكَانَ عِندَ رَبّهِ مَرْضِيًّا».

وَ اذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً (۵۶) وَ رَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً (۵۷) أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْرَائِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنَا وَ اجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيّاً (۵۸) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (۵۹) إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (۶۰)

هؤلاء أنبياء اللَّه، ولكن ...: فى آخر قسم من تذكيرات هذه السورة، جاء الحديث عن

---

(۱) وهنا ينادى اللَّه موسى من بعيد، ولمّا اقترب ناجاه. ومن المعلوم أنّ اللَّه سبحانه ليس له لسان ولا مكان، بل يوجد الأمواج الصوتية فى الفضاء، ويتكلم مع عبد كموسى.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۹۰

«إدريس» النبى، فقالت الآية أوّلًا: «وَاذْكُرْ فِى الْكِتبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدّيقًا نَّبِيًّا».

«الصديق»: هو الشخص الصادق جدّاً، والمصدق بآيات اللَّه سبحانه، والمذعن للحق والحقيقة. ثم تشير الآية إلى مقامه العالى وتقول: «وَرَفَعْنهُ مَكَانًا عَلِيًّا». والمراد هو عظمة المقامات المعنوية والدرجات الروحية لهذا النبى الكبير.

ثم تبيّن الآية التالية بصورة جماعية عن كل الإمتيازات والخصائص التى مرّت فى الآيات السابقة حول الأنبياء العظام وصفاتهم وحالاتهم والمواهب التى أعطاهم اللَّه إياها، فتقول: «أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيّينَ مِن ذُرّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوْحٍ وَمِنْ ذُرّيَّةِ إِبْرهِيمَ وَإِسْرَاءِيلَ».

إنّ المراد من ذرّية آدم فى هذه الآية هو إدريس، حيث كان- حسب المشهور- جدّ النبى نوح.

والمراد من الذرية، هم الذين ركبوا مع نوح فى السفينة، لأنّ إبراهيم كان من أولاد سام بن نوح. والمراد من ذرّية إبراهيم: إسحاق وإسماعيل ويعقوب؛ والمراد من ذرّية إسرائيل:

موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى.

ثم تكمل الآية هذا البحث بذكر الأتباع الحقيقيين لهؤلاء الأنبياء، فتقول: «وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمُ ءَايتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا» «۱».

ثم تتحدث الآيات عن جماعة انفصلوا عن دين الأنبياء المربى للإنسان، وكانوا خلفاً سيئاً لم ينفّذوا ما أريد منهم، وتعدد الآية قسماً من أعمالهم القبيحة، فتقول: «فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا».

«خَلْف» بمعنى الأولاد الطالحين؛ و «خَلَف» بمعنى الأولاد الصالحين.

وهذه الجملة قد تكون إشارة إلى جماعة من بنى إسرائيل ساروا فى طريق الضلال، فنسوا اللَّه، ورجّحوا اتباع الشهوات على ذكر اللَّه.

إنّ المراد من (إضاعة الصلاة) هنا القيام بأعمال تضيع الصلاة فى المجتمع.

ولمّا كان منهج القرآن فى كل موضع هو فتح ابواب الرجوع إلى الإيمان والحق دائماً، فإنّه

---

(۱) «سجد»: جمع ساجد؛ و «بكى»: جمع باك.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۹۱

يقول هنا أيضاً بعد ذكر مصير الأجيال المنحرفة: «إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيًا»، وعلى هذا فلا يعنى أنّ الإنسان إذا غاص يوماً فى الشهوات فسيكتب على جبينه اليأس من رحمة اللّه.

طبقاً لنقل كثير من المفسرين، فإنّ إدريس جدّ سيدنا نوح عليه السلام واسمه فى التوراة «أخنوخ» وفى العربية (إدريس)، وذهب البعض أنّه من مادة (درس) لأنّه أوّل من كتب بالقلم، فقد كان إضافة إلى النبوّة عالماً بالنجوم والحساب والهيئة، وكان أوّل من علّم البشر خياطة الملابس.

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً (۶۱) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَ عَشِيّاً (۶۲) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً (۶۳)

بعض صفات الجنة: وصفت الجنّة ونعمها فى هذه الآيات بأنّها «جَنتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا».

ثم تشير بعد ذلك إلى نعمة اخرى من أكبر نعم الجنة فتقول: «لَّايَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا» فلا كذب، ولا عداء، لا تهمة ولا جرح لسان، لا سخرية ولا حتى كلام لا فائدة فيه، بل الشيء الوحيد الذى يسمعونه هو السلام «إِلَّا سَلمًا».

السلام الذى هو علامة على المحيط الآمن، المحيط الملى بالصفاء والعلاقة الحميمة والطهارة والتقوى والصلح والهدوء والإطمئنان.

وبعد هذه النعمة تشير الآية إلى نعمة اخرى فتقول: «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا».

وبعد الوصف الإجمالى للجنة ونعمها المادية والمعنوية، تعرّف الآية أهل الجنة فى جملة قصيرة، فتقول: «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا». وعلى هذا فإنّ مفتاح باب الجنة مع كل تلك النعم التى مرّت ليس إلّا «التقوى».

وَ مَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَ مَا خَلْفَنَا وَ مَا بَيْنَ ذلِكَ وَ مَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً (۶۴) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً (۶۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۹۲

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: احتبس الوحى أيّاماً، لمّا سئل النبى صلى الله عليه و آله عن قصة أصحاب الكهف، وذى القرنين، والروح، فشقّ ذلك عليه فلمّا أتاه جبرائيل استبطأه فنزلت «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» الآية.

التّفسير

الطاعة التامة: بالرغم من أنّ لهذه الآية سبب نزول ذكر أعلاه، إلّاأنّ هذا لا يكون مانعاً من أن يكون لها إرتباطاً منطقياً بالآيات السابقة، لأنّها تأكيد على أنّ كل ما أتى به جبرئيل من الآيات السابقة قد بلّغه عن اللّه بدون زيادة أو نقصان، ولا شيء من عنده، فتتحدث الآية الاولى على لسان رسول الوحى فتقول: «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ»، فكل شيء منه، ونحن عباد وضعنا أرواحنا وقلوبنا على الأكف، «لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذلِكَ». والخلاصة: فإنّ الماضى والحاضر والمستقبل، وهنا وهناك وكل مكان، والدنيا والآخرة والبرزخ، كل ذلك متعلق بذات اللّه المقدسة.

ثم تضيف الآية: إنّ كل ذلك بأمر ربك «رَّبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» فإذا كان الأمر كذلك، وكل الخطوط تنتهى إليه «فَاعْبُدْهُ» عبادة مقترنة بالتوحيد والإخلاص.

ولما كان هذا الطريق- طريق العبودية والطاعة وعبادة اللّه الخالصة- ملىء بالمشاكل والمصاعب، فقد أضافت: «وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ».

وتقول فى آخر جملة: «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا».

وهذه الجملة فى الواقع، دليل على ما جاء فى الجملة السابقة، يعنى: هل لذاته المقدسة شريك ومثيل حتى تمدّ يدك إليه وتعبده؟

وَ يَقُولُ الْإِنْسانُ أَ إِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً (۶۶) أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً (۶۷) فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً (۶۸) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيّاً (۶۹) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيّاً (۷۰)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان أنّ الآيات الاولى نزلت فى ابى بن خلف الجمحى، وذلك أنّه أخذ

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٩٣

عظماً بالياً فجعل يَفُتّه بيده ويذريه فى الريح ويقول: زعم محمّد أنّ اللّه يبعثنا بعد أن نموت ونكون عظاماً مثل هذا، إنّ هذا شىء لا يكون أبداً.

التّفسير

حال أهل النار: مرّت فى الآيات السابقة بحوث عديدة حول القيامة والجنّة والجحيم، وتتحدّث هذه الآيات التى نبحثها حول نفس الموضوع، فتعيد الآية الاولى أقوال منكرى المعاد، فتقول: «وَيَقُولُ الْإِنسنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا». أى إنّ هذا الشىء غير ممكن.

ثم يجيبهم مباشرة بنفس التعبير: «أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسنُ أَنَّا خَلَقْنهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيًا».

ثم تهدد الآية التالية منكرى المعاد، والمجرمين الكافرين: «فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا».

إنّ هذه الآية توحى بأنّ محكمة الأفراد الكافرين والمجرمين قريبة من جهنم.

ولمّا كانت الأولويات تلاحظ فى تلك المحكمة العادلة، فإنّ الآية التالية تقول: «ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا» «١». ونبدأ بحسابهم أوّلًا، فإنّهم عتوا عتواً نسوا معه كل مواهب اللّه الرحمان، وجنحوا إلى التمرد والعصيان وإظهار الوقاحة أمام ولى نعمتهم.

ثم تؤكّد على هذا المعنى مرّة اخرى فتقول: «ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا».

فسنختار هؤلاء بدقة، وسوف لا يقع أىّ اشتباه فى هذا الإختيار.

وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً (۷۱) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيّاً (۷۲)

الجميع يردون جهنم: تستمر الآيات فى بحث خصائص القيامة والثواب والعقاب، وأشارت فى البداية إلى مسألة يثير سماعها الحيرة والعجب لدى أغلب الناس، فتقول: «وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا». فجميع الناس سيدخلون جهنّم بدون استثناء لأنّه أمر حتمى.

---

(١) «الشيعة»: فى الأصل بمعنى الجماعة التى يتعاون أفرادها للقيام بعمل ما، وانتخاب هذا التعبير فى الآيةيمكن أن يكون إشارة إلى أنّ العتاة المردة والضالين الكافرين كانوا يتعاونون فى طريق الطغيان، ونحن سنحاسب هؤلاء أوّلًا، لأنّهم أكثر تمرّداً وعصياناً من الجميع.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٩٤

«ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا». فنتركهم فيها جالسين على الركب من الضعف والذّل.

وهناك بحث مفصّل بين المفسرين فى تفسير هاتين الآيتين حول المراد من «الورود» فى جملة «وَإِن مّنكَمْ إِلَّا وَارِدُهَا»؛ فاختار أكثر المفسرين، أنّ الورود هنا بمعنى الدخول، وعلى هذا الأساس فإنّ كل الناس بدون استثناء- محسنهم ومسيؤهم- يدخلون جهنّم، إلّاأنّها ستكون برداً وسلاماً على المحسنين، كحال نار نمرود على إبراهيم «يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَمًا عَلَى إِبْرٰهِيمَ»، لأنّ النار ليست من سنخ هؤلاء الصالحين، فقد تفرّ منهم وتبتعد عنهم، إلّاأنّها تناسب الجهنميين فهم بالنسبة للجحيم كالمادة القابلة للإشتعال، فما أن تمسّهم النار حتى يشتعلوا.

إنّ مشاهدة جهنم وعذابها فى الحقيقة، ستكون مقدمة لكى يلتذّ المؤمنون بنعم الجنة بأعلى مراتب اللذة.

إنّ أهل النار أيضاً سيلقون عذاباً أشد من رؤية هذا المشهد.

وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَ أَحْسَنُ نَدِيّاً (٧٣) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَ رِئْياً (٧۴) قُلْ مَنْ كَانَ فِى الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَ أَضْعَفُ جُنْداً (٧۵) وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَ خَيْرٌ مَرَدّاً (٧۶)

هذه الآيات تتابع ما مرّ فى الآيات السابقة فى الحديث عن الظالمين الذين لا إيمان لهم، وتتعرّض لجانب آخر من منطق هؤلاء الظالمين ومصيرهم.

ومن المعلوم أنّ أوّل جماعة آمنت بالرسول الأعظم صلى الله عليه و آله كانوا من المستضعفين الطاهرى القلوب، والذين خلت أيديهم من مال الدنيا ومغرياتها.

ولما كان المعيار فى المجتمع الجاهلى فى ذلك الزمان- وكذا فى كل مجتمع جاهلى آخر- هو الذهب والزينة والمال والمقام والمنصب والهيئة الظاهرية، فكان الأثرياء الظالمون، كالنضر بن الحارث وأمثاله يفتخرون على المؤمنين الفقراء بذلك ويقولون: إنّ علامة شخصيتنا معنا، وعلامة عدم شخصيتكم فقركم ومحروميتكم، وهذا بنفسه دليل على أحقيّتنا وباطلكم، كما يقول القرآن الكريم فى أوّل آية من الآيات مورد البحث: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۹۵

الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا».

إلّا أنّ القرآن الكريم يجيب هؤلاء بجواب منطقى ومستدل تماماً، وفى الوقت نفسه قاطع ومفحم، فيقول: كأنّ هؤلاء قد نسوا تاريخ البشر، ولم ينظروا كم دمّرنا من الأقوام السابقين عند تمرّدهم وعصيانهم: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا» «۱». فهل استطاعت أموالهم وثروتهم، ومجالسهم الفاسقة، وملابسهم الفاخرة، وصورهم الجميلة أن تمنع العذاب الإلهى وتقف أمامه.

ثم تحذّرهم تحذيراً آخر، بأن لا تظنّوا أيّها الظالمون الكافرون أنّ مالكم وثروتكم هذه رحمة، بل كثيراً ما تكون دليلًا على العذاب الإلهى: «قُلْ مَن كَانَ فِى الضَّللَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ». أى: إمّا العذاب فى هذه الدنيا، وإمّا عذاب الآخرة، «فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا».

وهذا هو ما ذكر فى بعض آيات القرآن بعنوان عقاب «الإستدراج».

هذه عاقبة ومصير الظالمين المخدوعين بزخرف الدنيا وزبرجها، أمّا اولئك الذين آمنوا واهتدوا، فإنّ اللَّه يزيدهم هدىً وإيماناً «وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى».

من البديهى أنّ للهداية درجات، فإذا طوى الإنسان درجاتها الاولى فإنّ اللَّه يأخذه بيده ويرفعه إلى درجات أعلى.

وفى النهاية تجيب الآية هؤلاء الذين اعتمدوا على زينة الدنيا السريعة الزوال، وجعلوها وسيلة للتفاخر على الآخرين، فتقول: «وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا».

أَ فَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَ قَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَ وَلَداً (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ

الْعَذَابِ مَدّاً (۷۹) وَ نَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَ يَأْتِينَا فَرْداً (۸۰) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً (۸۱) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً (۸۲)

تفكير خرافي ومنحرف: يعتقد بعض الناس أنّ الإيمان والطهارة والتقوى لا تناسبهم،

---

(۱) «الأثاث»: بمعنى المتاع وزينة الدنيا؛ و «رئى»: بمعنى الهيئة والمنظر.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۹۶

وأنّها السبب فى أن تدبر الدنيا عنهم، أمّا إذا خرجوا من دائرة الإيمان والتقوى فإنّ الدنيا ستقبل عليهم، وتزيد ثروتهم وأموالهم. فقد كان فى عصر النبى- وكذلك فى عصرنا- أفراد جاهلون يظنّون هذه الظنون والأوهام، أو كانوا يتظاهرون بها على الأقل، فيتحدّث القرآن- كمواصلة للبحث الذى بيّنه سابقاً حول مصير الكفار والظالمين- فى الآيات مورد البحث عن طريقة التفكير هذه وعاقبتها، فيقول فى أوّل آية من هذه الآيات: «أَفَرَءَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بَايَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا».

ثم يجيبهم القرآن الكريم: «أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمنِ عَهْدًا». فإنّ الذى يستطيع أن يتكهّن بمثل هذا التكهّن، ويقول بوجود علاقة بين الكفر والغنى وامتلاك الأموال والأولاد، مطّلع على الغيب، لأنّا لا نرى أيّ علاقة بين هاتين المسألتين، أو يكون قد أخذ عهداً من اللَّه سبحانه، وهذا الكلام أيضاً لا معنى له.

ثم يضيف بلهجة حادّة: إنّ الأمر ليس كذلك، ولا يمكن أن يكون الكفر أساساً لزيادة مال وولد أحد مطلقاً: «كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ».

أجل، فإنّ هذا الكلام الذى لا أساس له قد يكون سبباً فى انحراف بعض البسطاء، وسيثبت كل ذلك فى صحيفة أعمال هؤلاء، «وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا».

إنّ هذه الأموال والأولاد التى هى أساس الغرور والضلال هى بنفسها عذاب مستمر لهؤلاء. «وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ» من الأموال والأولاد، «وَيَأْتِينَا فَرْدًا».

نعم، إنّه سيترك فى النهاية كل هذه الإمكانيات والأملاك المادية ويرحل، ويحضر فى محكمة العدل الإلهية بأيد خالية، وفى الوقت الذى اسودّت فيه صحيفة أعماله من الذنوب والمعاصى، وخلت من الحسنات ... هناك، حيث يرى نتيجة أقواله الجوفاء فى دار الدنيا.

وتشير الآية التالية إلى علّة اخرى فى عبادة هؤلاء الأفراد للأصنام، فتقول: «وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا». وليشفعوا لهم عند اللَّه، ويعينوهم فى حلّ مشاكلهم، لكن، أيّ ظن خاطىء وخيال ساذج هذا؟!

ليس الأمر كما يظن هؤلاء أبداً، فليست الأصنام سوف لا تكون لهم عزّاً وحسب، بل ستكون منبعاً لذلّتهم وعذابهم، ولهذا فإنّهم سوف ينكرون عبادتهم لها فى يوم القيامة: «كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِم وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۱۹۷

إنّ هذه الجملة إشارة إلى نفس ذلك المطلب الذى نقرؤه فى الآية (۱۴) من سورة فاطر.

يستفاد هذا التفسير من حديث مروى عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال فى تفسير هذه الآية: «يكون هؤلاء الذين اتّخذوهم آلهة من دون اللَّه ضداً يوم القيامة ويتبرؤون منهم ومن عبادتهم إلى يوم القيامة».

أ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً (۸۳) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً (۸۴) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً (۸۵) وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً (۸۶) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (۸۷)

بملاحظة البحث فى الآيات السابقة الذى كان حول المشركين، فإنّ البحث فى هذه الآيات، إشارة إلى بعض علل انحراف هؤلاء، ثم تبيّن الآيات فى النهاية عاقبتهم المشؤومة، وتثبت هذه الحقيقة، وهى أنّ هذه الآلهة لم تكن سبب عزّتهم بل أصبحت سبب ذلّهم وشقائهم، فتقول أوّلًا: «أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيطِينَ عَلَى الْكفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا».

«الأزّ»: فى الأصل يعنى غليان القدر، وتقلّب محتواه عند شدة غليانه؛ وهو هنا كناية عن مدى تسلّط الشياطين على هؤلاء، بحيث إنّهم يوجّهونهم بالصورة التى يريدونها، وفى المسير الذى يشاؤون، ويقلّبونهم كيف يشتهون.

ومن البديهى أنّ تسلط الشياطين على بنى آدم ليس تسلطاً إجبارياً، بل إنّ الإنسان الذى يسمح للشياطين بالنفوذ إلى قلبه وروحه.

ثم يوجّه القرآن المجيد الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله فيقول: «فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا» وسنسجّل كل شيء لذلك اليوم الذى تشكّل فيه محكمة العدل الإلهى.

وهناك احتمال آخر فى تفسير الآية، وهو أنّ المراد من عدّ أيام عمر- بل أنفاس- هؤلاء، أنّ مدّة بقائهم قصيرة وداخلة تحت إمكان الحساب والعد.

ثم تبيّن المسير النهائى للمتقين والمجرمين فى عبارات موجزة، فتقول: إنّ كل هذه الأعمال جمعناها وإدّخرناها لهم: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْدًا».

فى تفسير على بن ابراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «سأل على عليه السلام رسول اللّه صلى الله عليه و آله عن تفسير قوله: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْدًا» قال: يا على، الوفد لا يكون إلّاركباناً، اولئك رجال اتّقوا اللّه فأحبّهم واختصهم ورضى أعمالهم فسمّاهم اللّه المتقين. ثم قال: يا على أما

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٩٨

والذى فلق الحبة وبرىء النسمة إنّهم ليخرجون من قبورهم وبياض وجوههم كبياض الثلج، عليهم ثياب بياضها كبياض اللبن، عليهم نعال الذهب شراكها من لؤلؤ يتلألأ». ثم تقول فى المقابل: «وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا». كما تساق الإبل العطشى إلى محل الماء، إلّاأنّه لا ماء هناك، بل نار جهنم.

وإذا كانوا يتصورون أنّهم يستطيعون الخلاص عن طريق الشفاعة، فإنّهم يجب أن يعلموا أنّ هؤلاء الذين يرجونهم «لَّايَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ» فلا أحد يشفع لهؤلاء، فمن طريق أولى أن لا يقدروا على الشفاعة لأحد «إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمنِ عَهْدًا» فهؤلاء هم الوحيدون الذين تنفعهم وتشملهم شفاعة الشافعين، أو أنّ مقامهم أعلى من هذه الرتبة أيضاً، ولهم القدرة والصلاحية لأن يشفعوا للعاصين الذين يستحقون الشفاعة.

والمراد من العهد فى الآية الشريفة كل نوع من أنواع الإرتباط باللّه ومعرفته وطاعته، وكذلك الإرتباط بمذهب أولياء الحق، وكل عمل صالح.

وَ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (٩١) وَ مَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدّاً (٩٤) وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً (٩٥)

لمّا كان الكلام فى الآيات السابقة عن الشرك، وعاقبة عمل المشركين، فقد أشارت هذه الآيات فى نهاية البحث إلى فرع من فروع الشرك، أى الاعتقاد بوجود ولد للّهسبحانه، وتبيّن مرّة اخرى قبح هذا الكلام بأشدّ وأحدّ بيان، فتقول: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَدًا».

فليس المسيحيون لوحدهم كانوا يعتقدون بأنّ «المسيح» هو الإبن الحقيقى للّهسبحانه، بل إنّ اليهود كانوا يعتقدون أيضاً مثل هذا الاعتقاد فى (عزير)، وكذلك عبدة الأصنام فى (الملائكة) فكانوا يظنّون أنّها بنات اللّه.

عند ذلك قالت الآية بلهجة شديدة: «لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيًا إِدًّا». «الإدّ»: معناه فى الأصل الصوت القبيح المضطرب الذى يصل الأذن نتيجة الاضطراب الشديد للأمواج الصوتية فى

مختصر الامثل، ج٣، ص: ١٩٩

حنجرة البعير، ثم أطلق على الأعمال القبيحة والموحشة جدّاً.

ولمّا كانت مثل هـذه النسبة غير الصـحيحة مخالفة لأصل التوحيد فكأنّ كل عالم الوجود، الذى‌بنى على أساس التوحيد، قد اضـطرب وتصدّع إثر هذه النسبة الكاذبة، ولذلك تضيف الآية التالية: «تَكَادُ السَّموَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا».

ومن أجل تأكيد وبيان أهمية الموضوع فإنّها تقول: إنّ كل ذلك من أجل «أَن دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَدًا».

إنّ هؤلاء لم يعرفوا اللّه قط، لأنّه: «وَمَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا».

فإنّ الإنسان يطلب الولد لواحد من عدّة أشياء:

إمّا لأنّ عمره ينتهى فيحتاج لولد مثله يحمل صفاته ليبقى نسله وذكره.

أو لأنّه يطلب الصديق والرفيق لأنّ قوته محدودة.

لكن أيّاً من هـذه المعانى لا ينطبق على اللّه سـبحانه، ولا يصـح، فلا قدرته محدودة، ولا حياته تنتهى، ولا يعتريه الضـعف والوهن، ولا يحس بالوحدة والحاجة، ولذلك قالت الآية الاخرى: «إِن كُلُّ مَن فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِى الرَّحْمنِ عَبْدًا».

فمع أنّ كل العباد مطيعون له، وقد وضعوا أرواحهم وقلوبهم على الأكف طاعة لأمره، فهو غير محتاج لطاعتهم، بل هم المحتاجون.

ثم تقول الآية التالية: «لَّقَدْ أَحْصهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا». أى لا تتصور بأنّ محاسبة كل هؤلاء العباد غير ممكن، وعسير عليه سبحانه.

«وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيمَةِ فَرْدًا». وبناء على هذا فإنّ المسـيح وعزير والملائكة وكل البشـر يشملهم حكمه ولا يستثنى منه أحد، ومع هذه الحـال فمـا أقبـح أن نعتقـد ونقول بوجود ولـد له، وكم ننقص من قـدر ذاته المقدسـة وننزلهـا من أوج العظمـة وقمّتها، وننكر صـفاته الجلالية والجمالية حينما ندّعى أنّ له ولداً.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدّاً (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً (٩٧) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (٩٨)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٠٠

مختصر الامثل ج٣ ٢٤٩

الإيمان والمحبوبيـة: هذه الآيات الثلاث نهاية سورة مريم، والكلام فيها أيضاً عن المؤمنين، والظالمين الكافرين، وعن القرآن وبشاراته وإنـذاراته، وهى- فى الحقيقـة- عصـارة البحوث السابقـة بملاحظـات ونكـات جديـدة. تقول أوّلًا: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا».

إنّ للإيمان والعمل الصالح نوراً وضـياء بسعة عالم الوجود، ويعمّ نور المحبة الحاصل منهما كل أرجاء عالم الخلقة، وإنّ الذات الإلهية المقدسة تحب أمثال هذا الفرد، فهم محبوبون عند كل أهل السماء، وتقذف هذه المحبة فى قلوب أهل الأرض.

ثم تشير الآيـة التاليـة إلى القرآن الـذى هو منبع ومصـدر تنمية الإيمان والعمل الصالح، فتقول: «فَإِنَّمَا يَسَّرْنهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا».

«اللُدّ»:- بضم اللام وتشديد الدال- جمع «ألدّ» بمعنى العدو الشديد العداوة، وتطلق على المتعصب العنود فى عداوته، ولا منطق له.

وتقول الآية الأخيرة كتهدئة لخاطر النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين، وتسلية لهم، خاصة مع ملاحظة أنّ هذه السورة نزلت فى مكة، وكان المسـلمون يومـذاك تحت ضـغط شديـد جـدّاً؛ وكـذلك تقول بنبرة التهديـد والتحذير لكل الأعداء اللجوجين العنودين: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا».

«الركز»: بمعنى الصوت الهـادىء، ويقـال للأشـياء التى يخفونهـاتحت الأرض: «ركـاز»، أى إنّ هؤلاء الأقوام الظالمين، وأعـداء الحق والحقيقة المتعصبين، قد تمّ تدميرهم وسحقهم إلى حدّ لا يسمع صوت خفى منهم.

لقد صدرت روايات عديدة عن النبى صـلى الله عليه و آله فى سـبب نزول قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا». فى كثير من كتب الحديث وتفسير السنة والشيعة، وهى تبيّن أنّ هذه الآية نزلت لأوّل مرّة فى حق على عليه السلام.

«نهاية تفسير سورة مريم»

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٠١

٢٠ سورة طه

محتوى السورة: إنّ أكثر ما يتحدث سورة (طه) عن المبدأ والمعاد كسائر السور المكية، ويذكر نتائج التوحيد وتعاسات الشرك.

١- تشير هذه السورة إلى عظمة القرآن، وبعض صفات اللَّه الجلالية والجمالية.

٢- يتحدث أكثر من ثمانين آية عن قصة موسى عليه السلام من حين بعثته، إلى نهوضه لمقارعة فرعون الجبار وأعوانه.

٣- جاءت بعض المسائل حول المعاد.

٤- تناول جزء آخر من هذه السورة الحديث عن القرآن وعظمته.

٥- واحتوى قسم آخر قصة آدم وحواء فى الجنة، ثم حادثة وسوسة إبليس، وأخيراً هبوطهما إلى الأرض.

٦- وفى القسم الأخير، تبيّن السورة المواعظ والنصائح، لكل المؤمنين، مع توجيه الخطاب فى كثير من الآيات إلى نبى الخاتم صلى الله عليه و آله.

فضيلة تلاوة السورة: فى كتاب ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لا تدعوا قراءة سورة طه، فإنّ اللَّه يحبّها، ويحبّ من قرأها، ومن أدمن قراءتها أعطاه اللَّه يوم القيامة كتابه بيمينه، ولم يحاسبه بما عمل فى الإسلام، وأعطى فى الآخرة من الأجر حتى يرضى».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٠٢

والمراد من التلاوة هى أن تكون التلاوة مقدمة للتفكر والتدبر، التفكر الذى تتجلّى آثاره فى كل أعمال وأقوال الإنسان.

طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى (۴) الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (۵) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ مَا تَحْتَ الثَّرَى (۶) وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨)

سبب النّزول

وردت روايات كثيرة فى سبب نزول الآيات الاولى من هذه السورة، يستفاد من مجموعها أنّ النبى صلى الله عليه و آله بعد نزول الوحى والقرآن كان يعبد اللَّه كثيراً، وخاصة أنّه كان يكثر القيام والوقوف فى العبادة حتى تورّمت قدماه، وكان من شدّة التعب أحياناً يستند فى وقوفه على إحدى قدميه، ثم يستند على الاخرى حيناً آخر، وحيناً على كعب قدمه، وآخر على أصابع رجله، فنزلت الآيات المذكورة وأمرت النبى صلى الله عليه و آله أن لا يحمّل نفسه كل هذا التعب والمشقة.

التّفسير

مرّة اخرى نواجه الحروف المقطعة فى بداية هذه السورة، والتى تثير حبّ الاستطاع لدى الإنسان: «طه».

فى كتاب معانى الأخبار عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «... وأمّا طه فإسم من أسماء النبى صلى الله عليه و آله ومعناه: يا طالب الحق الهادى إليه». ويظهر من هذا الحديث أنّ طه مركّب من حرفين رمزيين، فالطاء إشارة إلى طالب الحق، والهاء إلى الهادى إليه، ونحن نعلم أنّ استعمال الحروف الرمزية وعلامات الإختصار فيما مضى وفى يومنا هذا أمر طبيعى وكثير الاستعمال، خاصة فى عصرنا الحاضر فإنّه كثير التداول والاستعمال جدّاً.

وآخر كلام فى هذا الباب هو أنّ (طه) ك (يس) قد أصبحت تدريجياً وبمرور الزمان اسماً خاصاً للنبى صلى الله عليه و آله، حتى أنّهم يسمّون آل النبى صلى الله عليه و آله، (آل طه) أيضاً؛ وعبّر عن الإمام المهدى- عجّل اللَّه تعالى فرجه- فى دعاء الندبة ب (يابن طه).

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۰۳

ثم تقول الآيـة: «مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْـقَى . «تشـقى : مأخوذة من مادة الشـقاء ضـدّ السـعادة، إلّاأنّ هـذه المادة تأتى أحياناً بمعنى المشقّة والتعب، والمراد فى الآية هذا المعنى.

ثم تبيّن الآية الاخرى الهدف من نزول القرآن فتقول: «إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى .

إنّ التعبير ب «تـذكرة» من جهة، وب «من يخشـى» من جهة اخرى يشـير إلى واقع لا يمكن إنكاره، وهو: إنّ التذكرة توحى بأنّ أسـس ومقومات كل التعليمات الإلهيـة موجودة فى أعماق روح الإنسان وطبيعته، وتعليمات الأنبياء تجعلها مثمرة، وتوصـلها إلى حـدّ النضج، كما نذكّر أحياناً بمطلب وأمر ما.

إنّ تعبير «من يخشـى» يبيّن أنّ نوعاً من الإحساس بالمسؤولية، والذى سمّاه القرآن بالخشية، إذا لم يكن موجوداً فى الإنسان، فسوف لا يقبل الحقائق.

ثم تتطرق الآيـات إلى التعريف بـاللّه تعـالى المنزل للقرآن، لتّتضـح عظمـة القرآن من خلاـل معرفته، فتقول: «تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّموَاتِ الْعُلَى».

إنّ هذا التعبير إشارة إلى ابتداء وانتهاء نزول القرآن، انتهاؤه إلى الأرض وابتداؤه من السماوات.

ثم تستمر فى تعريف اللّه المنزل للقرآن فتقول: «الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى .

إنّ هذا التعبير كناية عن تسلّط اللّه، وإحاطته الكاملة بعالم الوجود، ونفوذ أمره وتدبيره فى جميع أنحاء العالم.

ثم تتحـدث عن مالكيـة اللّه بعـد حـاكميته فتقول: «لَهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى . «الثرى»: فى الأصـل بمعنى التراب الرطب، ولمّا كانت قشـرة الأرض- فقط- هى التى تجف نتيجـة لأشـعة الشـمس وهبوب الرياح، وتبقى الطبقة السـفلى- غالباً- رطبـة، فإنّه يقال لهذه الطبقة: ثرى. وعلى هذا فإنّ «وَمَا تَحْتَ الثَّرَى تعنى أعماق الأرض وجوفها، وكلها مملوكة لمالك الملك وخالق عالم الوجود.

وأشارت الآية التالية إلى الركن الرابع، أى «العالمية»، فقالت: «وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى».

وعرف منزل القرآن من مجموع الآيات أعلاه معرفة إجمالية فى الأبعاد الأربعة: الخلقة، والحكومة، والمالكية، والعلم.

و الآية التالية ربّما تشير إلى ما ذكرنا: «اللَّهُ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى .

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۰۴

إنّ التعبير بالأسـماء الحسـنى قد ورد مراراً وتكراراً فى الآيات القرآنية، ومن البديهى أنّ كل أسـماء اللّه حسنة، ولكن لمّا كانت لبعض أسماء اللّه وصفاته أهمية أكبر، فقد سمّيت بالأسماء الحسنى.

وَ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (۹) إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّى آتِيكُم مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (۱۰) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ يَا مُوسَى (۱۱) إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (۱۲) وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (۱۳) إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى (۱۴) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (۱۵) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (۱۶)

نار فى الجانب الآخر من الصحراء: من هنا تبـدأ قصـة نبى اللّه الكبير موسـى عليه السـلام، وتفصـيل الجوانب المهمـة من هـذه القصـة المليئة بالأحداث سـيأتى فى أكثر من ثمانين آية، لتكون تهدئة ومواساة وتسلية لخاطر النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين الذين كانوا يعانون خلال تلك الفترة فى مكة ضغوطاً شديدةً من الأعداء.

ويمكن تقسيم مجموع الآيات فى هذه السورة إلى أربعة أقسام:

القسم الأوّل: يتحدث عن بداية نبوة موسى وبعثته، وأوّل ومضات الوحى.

القسم الثانى: يتحدث عن دعوة موسى وأخيه هارون لفرعون وملئه إلى دين التوحيد، ثم اشتباكهما بالأعداء.

القسم الثالث: يبحث عن خروج موسى وبنى إسرائيل من مصر، وكيفية نجاتهم من قبضة فرعون وأتباعه، وغرق هؤلاء وهلاكهم.

القسم الرابع: ويتحدث حول الإتجاهات الانحرافية الشديدة لبنى إسرائيل عن دين التوحيد إلى الشرك، وقبول وساوس السامرى، ومواجهة موسى الحازمة لهذا الإنحراف.

فهذه الآيات تقول بتعبير رقيق وجذاب: «وَهَلْ أَتـٰكَ حَدِيثُ مُوسَى .

إنّ هذا الاستفهام ليس هدفه تحصيل الخبر، بل مقدمة لبيان خبر مهم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۰۵

ثم تقول: «إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنّى ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلّى ءَاتِيكُم مّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى». «فَلَمَّا أَتـٰهَا نُودِىَ يَا مُوسَىٰ إِنّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى».

ويستفاد من الآية (۳۰) من سورة القصص، أنّ موسى قد سمع هذا النداء من جهة شجرة كانت هناك: «فَلَمَّا أَتـٰهَا نُودِىَ مِنْ شٰطِىِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يـٰمُوسَىٰ إِنّى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعٰلَمِينَ». إنّ موسى لمّا اقترب شاهد النار فى داخل الشجرة، وهذه النار ليست ناراً عادية، بل إنّ هذا النور الإلهى الذى ليس لم يحرق الشجرة وحسب، بل إنّه منسجم معها، ألا وهو نور الحياة.

وقد هام موسى لدى سماعه هذا النداء المحيى للروح: «إِنّى أَنَا رَبُّكَ» وشعر بكل وجوده بلذّة لا يمكن وصفها.

لقد امر أن يخلع نعليه، لأنّه قد وضع قدمه فى أرض مقدسة ... الأرض التى تجلّى فيها النور الإلهى، ويسمع فيها نداء اللّه، ويتحمل مسؤولية الرسالة، فيجب أن يخطو فى الأرض بمنتهى الخضوع والتواضع، وهذا هو سبب خلعه النعل عن رجله.

ثم سمع هذا الكلام من نفس المتكلم: «وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . ومن بعدها تلقّى موسى أوّل جملة من الوحى على شكل ثلاثة امور: «إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لَاإِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِى». شرعت هذه الآية فى بيان أهم أصل لدعوة الأنبياء فى هذه الآية، ألا وهو مسألة التوحيد، وبعدها ذكرت موضوع عبادة اللّه الواحد كثمرة لشجرة الإيمان والتوحيد، ثم أصدرت له أمر الصلاة بعد ذلك، وهى تعنى أكبر عبادة وأهم إرتباط بين الخلق والخالق، وأكثر الطرق تأثيراً فى عدم الغفلة عن الذات المقدسة.

ولمّا كان المعاد هو الأصل والأساس الثانى، فبعد ذكر التوحيد وأغصانه وفروعه، أضافت الآية التالية: «إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ .

إنّ علّة إخفاء تاريخ القيامة حسب الآية، هى: «لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ . وبتعبير آخر: فإنّ كون الساعة مخفية سيوجد نوعاً من حرية العمل للجميع.

وأشارت الآية الأخيرة إلى أصل اساسى يضمن تنفيذ كل البرامج العقائدية والتربوية، فتقول: «فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّايُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَيٰهُ» والّا فسوف تهلك «فَتَرْدَىٰ فاصمد فى مقابل الكافرين ووساوسهم وعراقيلهم، ولا تدع للخوف من كثرتهم

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۰۶

ومؤامرتهم وخططهم الخبيثة إلى قلبك سبيلًا، ولا تشك مطلقاً فى أحقية دعوتك وأصالة دينك نتيجة هذه الضوضاء. إنّ جملة «يؤمن» وردت هنا بصيغة المضارع، وجملة «واتبع هويه» بصيغة الماضى، وهى أشارت إلى هذه النكتة، وهى أنّ عدم إيمان منكرى القيامة ينبع من أتباع هوى النفس، فهم يريدون أن يكونوا أحراراً ويفعلون ما تشتهى أنفسهم.

وَ مَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (۱۷) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَ أَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَ لِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (۱۸) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (۱۹) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (۲۰) قَالَ خُذْهَا وَ لَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (۲۱) وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (۲۲) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (۲۳)

عصا موسى واليد البيضاء: لا شك أنّ الأنبياء يحتاجون إلى المعجزة لإثبات إرتباطهم باللّه، وإلّا فإنّ أىّ واحد يستطيع أن يدعى النبوة.

إنّ موسى عليه السلام بعد تلقّيه أمر النبوة، يجب أن يتلقّى دليلها وسندها أيضاً، وهكذا تلقّى موسى عليه السلام فى تلك الليلة المليئة بالذكريات والحوادث معجزتين كبيرتين من اللّه، ويبيّن القرآن الكريم هذه الحادثة فيقول: «وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يمُوسَى .

فأجاب موسى: «قَالَ هِىَ عَصَاىَ». ولمّا كان راغباً فى أن يستمر فى حديثه مع محبوبه الذى فتح الباب بوجهه لأوّل مرّة، وربّما كان يظن أيضاً أنّ قوله: «هِىَ عَصِاىَ» غير كاف، فأراد أن يبيّن آثارها وفوائدها فأضاف: «أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِى» «١». أى أضرب بها على اغصان الشجر فتتساقط اوراقها لتأكلها الأغنام «وَلِىَ فِيهَا مَارِبُ أُخْرَى «٢».

إنّ موسى غطّ فى تفكير عميق: أىّ سؤال هذا فى هذا المجلس العظيم، وأىّ جواب أعطيه؟ وماذا كانت تلك الأوامر؟ ولماذا هذا السؤال؟

وفجأة: «قَالَ أَلْقِهَا يمُوسَى فَأَلْقهَا فَإِذَا حَيَّةٌ تَسْعَى . «تسعى»: من مادة السعى أى المشى السريع الذى لا يصل إلى الركض.

---

(١) «أهش»: من مادة هشّ- بفتح الهاء- أى ضرب أوراق الشجر وتساقطها.

(٢) «مارب»: جمع مأربة، أى الحاجة والقصد.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٠٧

وهنا صدر الأمر لموسى: «قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى .

ثم أشارت الآية التالية إلى المعجزة المهمة الثانية لموسى، فأمرته: «وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَى .

إنّ موسى كان مأموراً أن يدخل يده فى جيبه ويوصلها إلى تحت إبطه.

وجملة «مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» إشارة إلى أنّ بياض يدك ليس نتيجة مرض البرص وأمثاله، بدليل أنّ لها لمعاناً وبريقاً خاصاً يظهر فى لحظة ويختفى فى لحظة اخرى.

وتقول الآية الأخيرة، وكنتيجة لما مرّ بيانه فى الآيات السابقة: «لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى». والمراد من الآيات الكبرى هو تلكما المعجزتان المهمتان اللتان وردتا أعلاه.

اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى (٢٥) وَ يَسِّرْ لِى أَمْرِى (٢٦) وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِى (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِى (٢٨) وَ اجْعَلْ لِى وَزِيراً مِنْ أَهْلِى (٢٩) هَارُونَ أَخِى (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى (٣١) وَ أَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى (٣٢) كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣) وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣۶)

موسى وطلباته القيّمة: إلى هنا وصل موسى إلى مقام النبوة، وتلقّى معاجز مهمّة تسترعى الإنتباه، إلّاأنّه من الآن فصاعداً صدر له أمر الرسالة ... رسالة عظيمة وثقيلة جدّاً ... الرسالة التى تبدأ بإبلاغ أعتى وأخطر شخص فى ذلك المحيط، فتقول الآية: «اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى .

أجل ... فمن أجل إصلاح بيئة فاسدة، وإيجاد ثورة شاملة يجب البدء برؤوس الفساد وأئمة الكفر ... اولئك الذين لهم تأثير فى جميع أركان المجتمع.

ومضافاً إلى أنّ موسى عليه السلام لم يستوحش ولم يخف من هذه المهمّة الثقيلة الصعبة، ولم يطلب من اللّه أىّ تخفيف فى هذه المهمّة، فإنّه قد تقبّلها بصدر رحب، غاية ما فى الأمر أنّه طلب من اللّه أسباب النصر فى هذه المهمّة. ولمّا كان أهم وأوّل أسباب النصر الروح الكبيرة، والفكر الوقّاد، والعقل المقتدر، وبعبارة اخرى: رحابة الصدر، فقد «قَالَ رَبّ اشْرَحِ لِى صَدْرِى».

ولمّا كان هذا الطريق مليئاً بالمشاكل والمصاعب التى لا يمكن تجاوزها إلّابلطف اللّه، فقد

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٠٨

طلب موسى من اللّه فى المرحلة الثانية أن تيسر له اموره وأعماله، وأن تذلل هذه العقبات التى تعترضه، فقال: «وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى». ثم

طلب موسی أن تکون له قدرة علی البیان بأعلی المراتب فقال: «وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِی».
خاصة وأنّه بیّن علة هذا الطلب فقال: «یَفْقَهُوا قَوْلِی». فهذه الجملة تفسیر للآیة التی قبلها. أی: أرید أتکلم بدرجة من الفصاحة والبلاغة والتعبیر بحیث یدرک أیّ سامع مرادی من الکلام جیّداً.
ولمّا کان إیصال هذا الحمل الثقیل- حمل رسالة اللّه، وقیادة البشر وهدایتهم، ومحاربة الطواغیت والجبابرة- إلی المحل المقصود یحتاج إلی معین ومساعد، ولا- یمکن أن یقوم به إنسان بمفرده، فقد کان الطلب الرابع لموسی من اللّه هو: «وَاجْعَل لِّی وَزِیرًا مِّنْ أَهْلِی».
ثم یشیر إلی أخیه، فیقول: «هرُونَ أَخِی». وهارون کان الأخ الأکبر لموسی، وکان یکبره بثلاث سنین، وکان طویل القامة، جمیلًا بلیغاً، عالی الإدراک والفهم، وقد رحل عن الدنیا قبل وفاة موسی بثلاث سنین.
وقد کان نبیّاً مرسلًا کما کان نبیّاً وهبه اللّه لموسی من رحمته.
ثم یبیّن موسی علیه السلام هدفه من تعیین هارون للوزارة والمعونة فیقول: «اشْدُدْ بِهِ أَزْرِی».
ویطلب، من أجل تکمیل هذا المقصد والمطلب: «وَأَشْرِکْهُ فِی أَمْرِی». فیکون شریکاً فی مقام الرسالة، وفی إجراء وتنفیذ هذا البرنامج الکبیر، إلّاأنّه یتبع موسی علی کل حال، فموسی إمامه ومقتداه.
وفی النهایة یبیّن نتیجة هذه المطالب فیقول: «کَی نُسَبِّحَکَ کَثِیرًا* وَنَذْکُرَکَ کَثِیرًا* إِنَّکَ کُنتَ بِنَا بَصِیرًا».
ولمّا کان موسی لم یهدف من طلباته المخلصة هذه إلّاالخدمة الأکثر والأکمل، فإنّ اللّه سبحانه قد لبّی طلباته فی نفس الوقت: «قَالَ قَدْ أُوتِیتَ سُؤْلَکَ یمُوسَی .
إنّ موسی طلب کل ما کان یلزمه فی هذه اللحظات الحساسة الحاسمة التی یجلس فیها لأوّل مرّة علی مائدة الضیافة الإلهیة ویطأ بساطها، واللّه سبحانه کان یحبّ ضیفه أیضاً، حیث لبّی کل طلباته وأجابه فیها فی جملة قصیرة تبعث الحیاة، وبدون قید وشرط.
مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۰۹
وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلَیْکَ مَرَّةً أُخْرَی (۳۷) إِذْ أَوْحَیْنَا إِلَی أُمِّکَ مَا یُوحَی (۳۸) أَنِ اقْذِفِیهِ فِی التَّابُوتِ فَاقْذِفِیهِ فِی الْیَمِّ فَلْیُلْقِهِ الْیَمُّ بِالسَّاحِلِ یَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِی وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَیْتُ عَلَیْکَ مَحَبَّةً مِنِّی وَ لِتُصْنَعَ عَلَی عَیْنِی (۳۹) إِذْ تَمْشِی أُخْتُکَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّکُمْ عَلَی مَنْ یَکْفُلُهُ فَرَجَعْنَاکَ إِلَی أُمِّکَ کَیْ تَقَرَّ عَیْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّیْنَاکَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنَّاکَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِینَ فِی أَهْلِ مَدْیَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَی قَدَرٍ یَا مُوسَی (۴۰) وَ اصْطَنَعْتُکَ لِنَفْسِی (۴۱)
الربّ الرحیم: یشیر اللّه سبحانه فی هذه الآیات إلی فصل آخر من فصول حیاة موسی علیه السلام، والذی یرتبط بمرحلة الطفولة ونجاته من قبضة الفراعنة. وهذا الفصل وإن کان من ناحیة التسلسل التاریخی قبل فصل الرسالة والنبوّة، إلّاأنّه ذکر کشاهد علی شمول عنایة اللّه عزّ وجل لموسی علیه السلام من بدایة عمره، وهی فی الدرجة الثانیة من الأهمیة بالنسبة إلی الرسالة، فیقول أوّلًا: «وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَیْکَ مَرَّةً أُخْرَی «۱».
وبعد ذکر هذا الإجمال تتطرق الآیات إلی الشرح والتفصیل، فتقول: «إِذْ أَوْحَیْنَا إِلَی أُمّکَ مَا یُوحَی .
وهو إشارة إلی أنّنا قد علّمنا امّه کل الطرق التی تنتهی إلی نجاة موسی علیه السلام من قبضة الفراعنة، لأنّه یستفاد من سائر آیات القرآن أنّ فرعون شدّد ارهابه علی بنی إسرائیل للتصدّی لقوّتهم وعصیانهم المحتمل، أو أنّه کان قد أمر بقتل أبنائهم وإبقاء البنات للخدمة، لکی یمنع ولادة ولد من بنی إسرائیل کان قد أخبره المنجّمون أنّه یثور علیه ویزیل ملکه.
إنّ هذه الام أحسّت بأنّ حیاة ولیدها فی‌خطر، وإخفاؤه مؤقتاً سوف لا یحلّ المشکلة ...
فی هذه الأثناء ألهمها اللّه- الذی رشّح هذا الطفل لثورة کبیرة؛ فألقی فی قلب الامّ: «أَنِ اقْذِفِیهِ فِی التَّابُوتِ فَاقْذِفِیهِ فِی الْیَمّ». «الیم»: هنا یعنی نهر النیل العظیم الذی یطلق علیه

(۱) «المنـة»: فى الأصل من المن، وهو يعنى الأحجار الكبيرة التى كانوا يزنون بها، ولـذلك فإنّ كل نعمة كبيرة ونفيسة يقال عنها: إنّها منّة. والمراد فى الآيـة هو هـذا المعنى، وهـذا المعنى مفهوم جميل وايجابى للمنّة، إلّاأنّ الإنسان إذا عظّم عمله الصـغير بكلامه، وذكّر الطرف الآخر به، فإنّه مصداق حى للمنّة السلبية المذمومة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱۰

أحياناً اسم البحر لسعته وكثرة مياهه؛ و «التابوت»: تعنى الصندوق الخشبى، ولا يعنى دائماً الصندوق الذى يوضع فيه الأموات كما يظن البعض، بل إنّ له معنى واسعاً. ثم تضيف: «فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُ».

إنّ كلمـة «عـدو» قد تكررت هنا، وهذا تأكيد على عداء فرعون للَّه، ولموسـى وبنى إسـرائيل، وأشارت إلى أنّ الشـخص الذى انغمس إلى هذا الحدّ فى العداء هو الذى سيتولّى فى النهاية تربية موسى.

ولما كان موسـى عليه السلام يجب أن يحفظ فى حصن أمين فى هذا الطريق الملىء بالمخاطر، فقد ألقى اللَّه قبساً من محبّته عليه، إلى الحدّ الذى لم ينظر إليه أحد إلّاويعشـقه، فلا يكف عن قتله وحسب، بل لا يرضى أن تنقص شعرة من رأسه، كما يقول القرآن فى بقية هذه الآيات:

«وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنّى».

يقولون: إنّ قابلة موسـى كانت من الفراعنة، وكانت مصـمّمة على رفع خبر ولادته إلى فرعون، إلّاأنّه لمّا وقعت عينها على عين المولود الجديد، فكأنّ ومضة برقت من عينه وأضاءت أعماق قلبها، وطوّقت محبته رقبتها، وابتعدت عن رأسها كل الأفكار السيئة.

وتقول الآية فى النهاية: «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى».

وكان قصـر فرعون قد بنى على جانب شط النيل، وبينما كان فرعون وزوجته على حافّة الماء ينظرون إلى الأمواج، وإذا بهذا الصـندوق الغريب يلفت انتباههما، فأمر جنوده أن يخرجوا الصندوق من الماء، فلمّا فتحوا الصندوق شاهدوا بكامل العجب مولوداً جميلًا فيه، وهو شىء لم يكن بالحسبان.

وهنـا تنبّه فرعون إلى أنّ هـذا الوليـد ينبغى أن يكون من بنى إسـرائيل، وإنّمـا لاقـى هـذا المصـير خوفـاً من جلاوزته، فأمر بقتله، إلّاأنّ زوجته- التى كانت عقيماً- تعلّقت جدّاً بالطفل، فقد نفذ النور الذى كان ينبعث من عينى الطفل إلى زوايا قلبها، وجذبها إليه، فضـربت على يـد فرعون وطلبت منه أن يصـرف النظر عن قتله، وعبّرت عن هـذا الطفـل بـأنّه (قرّة عين)، بـل وتمـادت فى طلبها، فطلبت منه أن يتخذاه ولداً ليكون مبعث أمل لهما، ويكبر فى أحضانهما، وأصرّت على طلبها حتى أصابت سهامها، وحققت ما تصبو إليه.

غير أنّ الطفل جاع، وأراد لبناً، فاخذ يبكى ويذرف الدموع.

والآن نقرأ بقية القصة على ضوء الآيات الشريفة:

نعم يا موسى، فإنّا كنّا قدّرنا أن تتربى بأعيننا وعلمنا «إِذْ تَمْشِى أُخْتُكَ» بأمر امّك

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱۱

لتراقب مصيرك، فرأت جنود فرعون: «فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ». وربّما أضافت بأنّ هذه المرأة لها لبن نظيف، وأنا مطمئنة بأنّ هذا الرضيع سيقبلها.

فاستبشـر الجنود على أمـل أن يجـدوا ضـالّتهم عن هـذا الطريق، فـذهبوا معها، فأطلعت اخت موسـى- والتى كانت تظهر نفسـها بمظهر الشـخص الغريب والمجهول- امّهـا على الأمر، فجاءت امّه إلى بلاط فرعون، من دون أن تفقـد سـيطرتها على أعصابها، بالرغم من أنّ أمواجاً من الحب والأمل كانت قـد أحاطت بكل قلبها، واحتضـنت الطفل، فلما شمّ الطفل رائحـة امّه، وكانت رائحة مألوفة لديه، التقم ثديها كأنّه تضـمّن لذة الروح وحلاوتها، واشـتغل الطفل بشـرب اللبن بلهفة وعشق شديدين، فانطلقت صـرخات الفرح من الحاضرين،

وبدت آثار الفرح والسرور على زوجة فرعون.

فقد أمرها فرعون بالإهتمام بالطفل، وأكّدت زوجته كثيراً على حفظه وحراسته، وأمرت أن يعرض عليها الطفل بين فترة واخرى.

هنا تحقق ما قاله القرآن: «فَرَجَعْنكَ إِلَى أُمّكَ كَى تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ».

ومرّت السنون والاعوام، وتربّى موسى عليه السلام وسط هالة من لطف اللّه ومحبته، وفى محيط آمن، وشيئاً فشيئاً أصبح شابّاً. وكان ذات يوم يمرّ من طريق فرأى رجلين يتشاجران، أحدهما من بنى إسرائيل والآخر من الأقباط- وهم المصريون، قوم فرعون- ولمّا كان بنو إسرائيل يعيشون دائماً تحت ضغط الأقباط الظالمين وأذاهم، هبّ موسى لمعونة المظلوم الذى كان من بنى إسرائيل، ومن أجل الدفاع عنه وجّه ضربة قاتلة إلى ذلك القبطى، فقضت عليه.

إنّ موسى، وحسب إشارة بعض أصدقائه عليه، خرج متخفّياً من مصر، وتوجّه إلى مدين، فوجد محيطاً وجوّاً آمناً فى ظل النبى «شعيب»، والذى سيأتى شرح حاله فى تفسير سورة القصص إن شاء اللّه تعالى

هنا حيث يقول القرآن الكريم: «وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنكَ مِنَ الْغَمّ وَفَتَنكَ فُتُونًا». فبعد حادثة القتل اختبرناك كثيراً والقينا بك فى اتون الحوادث والشدائد «فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ». وبعد اجتياز هذا الطريق الطويل، والإستعداد الروحى والجسمى، والخروج من دوامة الأحداث بشموخ وانتصار «ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يمُوسَى . أى لاستلام مهمة الرسالة فى زمان مقدّر إلى هذا المكان.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱۲

ثم يضيف: «وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى». فمن أجل مهمّة تلقّى الوحى الصعبة، ومن أجل قبول الرسالة، ومن أجل هداية العباد وإرشادهم ربّيتك واختبرتك فى الحوادث الصعبة ومشاقّها، ومنحتك القوة والقدرة، والآن حيث ألقيت هذه المهمة الكبرى على عاتقك، فإنّك مؤهّل من جميع الجوانب. «اصطناع»: من مادة «صنع» بمعنى الإصرار والاقدام الأكيد على اصلاح شىء. ويعنى إنّنى قد اصلحتك من كل الجهات.

اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآيَاتِي وَ لَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (۴۲) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (۴۳) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (۴۴) قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (۴۵) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَ أَرَى (۴۶) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (۴۷) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (۴۸)

أوّل لقاء مع فرعون الجبار: الآن وقد أصبح كل شىء مهيّأً، وكل الوسائل قد جعلت تحت تصرّف موسى، فقد خاطب اللّه سبحانه موسى وهارون بقوله: «اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بَايتِى». الآيات التى تشمل المعجزتين الكبيرتين لموسى عليه السلام، كما تشمل كل آيات اللّه وتعليماته التى هى بذاتها دليل على أحقّية دعوته.

ومن أجل رفع معنوياتهما، والتأكيد على بذل أقصى ما يمكن من المساعى والجهود، فقد أضاف سبحانه قائلًا: «وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى» وتنفيذ أوامرى، لأنّ الضعف واللين وترك الحزم سيذهب بكل جهودكما أدراج الرياح، فأثبتا ولاتخافا من أىّ حادثة، ولا تضعفا أمام أىّ قدرة.

بعد ذلك، يبيّن الهدف الأساس لهذه الحركة، والنقطة التى يجب أن تكون هدفاً لتشخيص المسار، فيقول: «اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فإنّه سبب كل الشقاء والتعاسة فى هذه المنطقة الواسعة، وما لم يتمّ إصلاحه فسوف لا ينجح أىّ عمل، لأنّ عامل تقدّم الامّة أو تخلّفها، سعادتها أو شقائها وبؤسها هو قادتها وحكّامها.

ثم بيّنت الآية طريقة التعامل المؤثرة مع فرعون، فمن أجل أن تنفذا إليه وتؤثّرا فيه «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى .

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱۳

ومع هذه الحال، فقد كان موسى وهارون قلقين من أنّ هذا الرجل القوى المتغطرس المستكبر، الذى عمّ رعبه وخشونته كل مكان، قد

يقدم على عمل قبل أن يبلّغان الدعوة، ويهلكهما، لذلك «قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى .

إلّا أنّ اللَّه سبحانه قد أجابهما بحزم: ف «قَالَ لَاتَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى وبناءً على هذا، فمع وجود اللَّه القادر معكما فى كل مكان، اللَّه الذى يسمع كل شىء، ويرى كل شىء، وهو حاميكما وسندكما، فلا معنى للخوف والرعب.

ثم يبيّن لهما بدقّة كيفية إلقاء دعوتهما فى محضر فرعون فى خمس جمل قصار قاطعة غنيّة المحتوى، ترتبط أوّلها بأصل المهمة، والثانية ببيان محتوى المهمة، والثالثة بذكر الدليل والسند، والرّابعة بترغيب الذين يقبلونها، وأخيراً فإنّ الخامسة تكفّلت بتهديد المعارضين.

فتقول أوّلًا: «فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ».

ثم تقول: «فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ».

ثم أشارت إلى دليلهما ووثيقتهما، فتقول: قولا له: «قَدْ جِئْنَكَ بَايَةٍ مِّن رَّبِّكَ». وبناءً على هذا، فإنّ العقل يحكم بأن تفكّر فى كلامنا على الأقل، وأن تقبله إن كان صحيحاً ومنطقياً.

ثم تضيف الآية من باب ترغيب المؤمنين: «وَالسَّلَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى . وهذه الجملة يمكن أن تشير أيضاً إلى معنى آخر، وهو أنّ السلامة فى هذه الدنيا، والعالم الآخر من الآلام والعذاب الإلهى الأليم، ومن مشاكل الحياة الفردية والاجتماعية، من نصيب اولئك الذين يتّبعون الهدى الإلهى، وهذه فى الحقيقة هى النتيجة النهائية لدعوة موسى.

وأخيراً، فإنّ اللَّه يأمرهما أن يُفهماه العاقبة المشؤومة للتمرد على هذه الدعوة وعصيانها، بقولهما له: «إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى .

إنّ هذه حقيقة يجب أن تقال لفرعون بدون لفّ ودوران، وبدون أى تغطية وتورية.

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (۴۹) قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (۵۰) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (۵۱) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّى وَ لَا يَنْسَى (۵۲) الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (۵۳) كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَى (۵۴) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (۵۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱۴

لقد حذف القرآن المجيد هنا بعض المطالب التى يمكن فهمها بمعونة الأبحاث الآتية، وتوجّه مباشرةً إلى محاورة موسى وهارون مع فرعون، والمبحث فى الواقع هكذا:

لمّا أصبح موسى أمام فرعون وجهاً لوجه، أعاد تلك الجمل الدقيقة المؤثرة التى علّمه اللَّه إيّاها أثناء الأمر بالرسالة. فلما سمع فرعون هذا الكلام، كان أوّل ردّ فعله أن «قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يمُوسَى . والعجيب أنّ فرعون المغرور والمعجب بنفسه لم يكن مستعدّاً حتى أن يقول: من ربّى الذى تدّعيانه؟ بل قال: من ربّكما؟

فأجابه موسى مباشرةً بجواب جامع جدّاً، وقصير فى الوقت نفسه، عن اللَّه: «قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى . ففى هذه العبارة الموجزة إشارة إلى أصلين أساسيين من الخلقة والوجود، وكل واحد منهما دليل وبرهان مستقل يوصل إلى معرفة اللَّه:

الأوّل: إنّ اللَّه سبحانه قد وهب لكل موجود ما يحتاجه.

والثانى: مسألة هداية وإرشاد الموجودات.

إنّ من الممكن أن يمتلك الإنسان أىّ شىء من أسباب الحياة، إلّاأنّه يجهل كيفية الاستفادة منها، والمهم أن يعرف طريقة استعمالها، وهذا هو الشىء الذى نراه فى الموجودات المختلفة بوضوح، وكيف أنّ كلّاً منها يستغلّ طاقته بصورة دقيقة فى إدامة حياته، كيف يبنى بيتاً، وكيف يتكاثر، وكيف يربّى أولاده ويخفيهم ويبعدهم عن متناول الأعداء، أو يعلّمهم كيف يواجهون الأعداء.

والبشر- أيضاً- لديهم هذه الهداية التكوينية.

فإنّ الإنسان نتيجة لإمتلاكه العقل والإرادة، فإنّ له واجبات ومسؤوليات، وبعد ذلك مناهج تكاملية ليس للحيوانات مثلها، ولذلك فإنّه إضافة إلى الهداية التكوينية محتاج إلى الهداية التشريعية.

فلما سمع فرعون هذا الجواب الجامع الجميل، ألقى سؤالًا آخر «قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى .

أجابه موسى عليه السلام بقوله: «قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبّى فِى كِتبٍ لَّايَضِلُّ رَبّى وَلَا يَنسَى».

إنّ موسى قد نبّه بصورة ضمنيّة على إحاطة علم اللَّه بكل شيء، لينتبه فرعون إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ أى شيء من عمله لا يخفى على اللَّه وإن كان بمقدار رأس الإبرة، وسوف ينال عقابه أو ثوابه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱۵

ولما كان جانب من حديث موسى عليه السلام حول مسألة التوحيد ومعرفة اللَّه، فإنّه يبيّن هنا فصلًا آخر فى هذا المجال، فيقول: «الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى . وفى مجموع هذه الآية إشارة إلى أربعة أنواع من نعم اللَّه الكبرى.

إنّ هذه النعم الأربع الكبرى تشكّل حسب الترتيب الذى ورد فى الآية أولويّات حياة الإنسان، فقبل كل شيء يحتاج الإنسان إلى محلّ سكن وهدوء، وبعده إلى طرق المواصلات، ثم الماء، ثم المحاصيل الزراعية.

ثم أشار إلى خامس النعم وآخرها من سلسلة النعم الإلهية هذه، فقال: «كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ».

وفى النهاية، وبعد أن أشار إلى كل هذه النعم، قال: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيتٍ لِّأُولِى النُّهَى .

«النهى»: جمع «نهية» وهى فى الأصل مأخوذة من مادة «نهى» مقابل الأمر، وتعنى العقل الذى ينهى الإنسان عن القبائح والسيئات، يعنى إنّ العقل والفكر المسؤول هو الذى يستطيع أن يدرك ويطّلع على هذه الحقيقة.

وبما أنّ هذه الآيات دلّت على التوحيد بخلق الأرض ونعمها، فقد بيّنت مسألة المعاد بالإشارة إلى الأرض فى آخر آية من هذه الآيات أيضاً فقالت: «مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى .

وَ لَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَ أَبَى (۵۶) قَالَ أَ جِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (۵۷) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لَا أَنْتَ مَكَاناً سُوًى (۵۸) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (۵۹) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (۶۰) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَ قَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (۶۱) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى (۶۲) قَالُوا إِنْ هذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَ يَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (۶۳) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (۶۴)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۱۶

فرعون يُهيّء نفسه للجولة الأخيرة: تعكس هذه الآيات مرحلة اخرى من المواجهة بين موسى وفرعون، ويبدأ القرآن الكريم هذا الفصل بهذه الجملة: «وَلَقَدْ أَرَيْنَهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى . ومن المسلّم أنّ المراد من هذه الآيات هى المعجزات التى أراها فرعون فى بداية دعوته، معجزة العصا، واليد البيضاء، ومحتوى دعوته السماوية الجامعة.

والآن، لنر ماذا قال فرعون الطاغى المستكبر العنود فى مقابل موسى ومعجزاته، وكيف اتّهمه كما هى عادة كل المتسلطين والحكّام المتعنّتين؟ «قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يمُوسَى . وهو إشارة إلى أنّنا نعلم أنّ مسألة النبوة والدعوة إلى التوحيد، وإظهار هذه المعجزات تشكّل بمجموعها خطّة منسّقة للإنتصار علينا، وبالتالى إخراجنا مع الأقباط من أرض آبائنا وأجدادنا.

إنّ هذه التهمة هى نفس الحربة التى يستخدمها الطواغيت والمستعمرون على إمتداد التاريخ، ويلوحون بها ويشهرونها كلّما رأوا أنفسهم فى خطر، ومن أجل إثارة الناس لصالحهم يثيرون مسألة تعرّض مصالح البلد للخطر، فالبلد يعنى حكومة هؤلاء العتاة، ووجوده

يعنى وجودهم!

ثم أضاف فرعون بأن لا تظن بأنّنا نعجز عن أن نأتى بمثل هذا السحر: «فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ». ولكى يظهر حزماً أكثر فإنّه قال: «فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّانُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى».

إلّا أنّ موسى لم يفقد هدوء أعصابه، ولم يدع للخوف من عنجهيّة فرعون إلى قلبه طريقاً، بل قال بحزم: «قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى» «١».

إنّ التعبير ب «يَوْمُ الزِّينَةِ» إشارة إلى يوم عيد إلّاأنّ المهم هو أنّ الناس كانوا يعطّلون أعمالهم فيه.

إنّ فرعون بعد مشاهدة معجزات موسى العجيبة، وتأثيرها النفسى فى أنصاره، صمّم على مواجهة موسى عليه السلام بالإستعانة بالسّحرة، ولذلك وضع الإتفاق المذكور مع موسى «فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى .

وأخيراً حلّ اليوم الموعود، ووقف موسى أمام جميع الحاضرين، الذين كان بعضهم

---

(١) «الضحى»: بمعنى زيادة أشعّة الشمس، أو إرتفاع الشمس.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢١٧

السحرة، وكان عددهم- على رأى بعض المفسرين- إثنين وسبعين ساحراً، وقال آخرون إنّهم بلغوا أربعمائة، وذكر البعض أعداداً أكبر أيضاً، وكان قسم من ذلك الجمع عبارة عن فرعون وأنصاره وحاشيته، وأخيراً القسم الثالث الذى كان يشكّل الأكثرية، وهم الناس المتفرجون.

هنا توجّه موسى إلى السّحرة، أو إلى الفراعنة والسحرة، و «قَالَ لَهُم مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى .

وواضح أنّ مراد موسى من الإفتراء على اللّه سبحانه هو أن يجعلوا شخصاً أو شيئاً شريكاً له، أو ينسبوا معجزات رسول اللّه إلى السحر، ويظنّوا أنّ فرعون إلههم ومعبودهم.

إنّ كلام موسى المتين الذى لا يشبه كلام السّحرة بوجه، بل إنّ نبرته كانت نبرة دعوة كل الأنبياء الحقيقيين، ونابعة من صميم قلب موسى الطاهر، فأثّرت على بعض القلوب، وأوجدت إختلافاً بين ذلك الحشد من السّحرة، فبعض كان يناصر المواجهة والمبارزة، وبعض تردّد فى الأمر، واحتمل أن يكون موسى عليه السلام نبيّاً إلهيّاً، وأثّرت فيهم تهديداته، خاصةً وأنّ لباس موسى وهارون البسيط كان لباس رعاة الأغنام، وعدم مشاهدة الضعف والتراجع على محيّاهما بالرغم من كونهما وحيدين، كان يعتبر دليلًا آخر على أصالة أقوالهما وصدق نواياهما، ولذلك فإنّ القرآن يقول: «فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى .

إلّا أنّ أنصار الاستمرار فى المواجهة إنتصروا أخيراً وأخذوا زمام المبادرة بيدهم، وشرعوا فى تحريك السحرة بطرق مختلفة، فأوّلًا «قَالُوا إِنْ هـذَانِ لَسَاحِرَانِ». وبناءً على هذا فلا يجب أن تخافوا مواجهتهما، لأنّكم كبار وأساتذة السحر فى هذه البلاد العريضة، ولأنّ قوّتكم وقدرتكم أكبر منهما.

ثم إنّهما «يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا». الوطن الذى هو أعزّ من أنفسكم. إضافة إلى أنّهما لا يقنعان بإخراجكم من أرضكم، بل إنّهما يريدان أيضاً أن يجعلا مقدساتكم اضحوكة ومحلّاً للسخرية «وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى «١».

والآن حيث أصبح الأمر كذلك، فلا تدعوا للتردّد إلى أنفسكم طريقاً مطلقاً، بل

---

(١) «الطريقة»: تعنى العادة والاسلوب المتبع، والمراد منها هنا المذهب؛ و «مثلى»: من مادّة «مثل» وهى هنا تعنى العالى والأفضل، أى الأشبه بالفضيلة.

مختصر الامثل، ج‌۳، ص: ۲۱۸

«فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا» لأنّ الوحدة رمز إنتصاركم فى هذه المعركة المصيرية الحاسمة «وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى .

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (۶۵) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (۶۶) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (۶۷) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (۶۸) وَ أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (۶۹)

موسى عليه السلام ينزل إلى الساحة: لقد اتّحد السّحرة ظاهراً، وعزموا على محاربة موسى عليه السلام ومواجهته، فلمّا نزلوا إلى الميدان «قَالُوا يمُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى .

غير أنّ موسى عليه السلام بدون أن يبدى عجلة، لإطمئنانه بأنّ النصر سوف يكون حليفه، بل وبغضّ النظر عن أنّ الذى يسبق إلى الحلبة فى هذه المجابهات هو الذى يفوز «قَالَ بَلْ أَلْقُوا».

فقبل السحرة ذلك أيضاً، وألقوا كل ما جلبوه معهم من عصى وحبال للسحر فى وسط الساحة دفعة واحدة، وإذا قبلنا الرواية التى تقول: إنّهم كانوا آلاف الأفراد، فإنّ معناها أنّ فى لحظة واحدة القيت فى وسط الميدان آلاف العصى والحبال التى ملئت أجوافها بمواد خاصة «فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى .

إنّ المشهد كان عجيباً جدّاً، فإنّ السحرة الذين كان عددهم كبيراً، وتمرّسهم وإطلاعهم فى هذا الفن عميقاً، وكانوا يعرفون جيّداً طريقة الاستفادة من خواص هذه الأجسام الفيزيائية والكيميائية الخفية، استطاعوا أن ينفذوا إلى أفكار الحاضرين ليصدّقوا أنّ كل هذه الأشياء الميتة قد ولجتها الروح، فعلت صرخات السرور من الفراعنة، بينما كان بعض الناس يصرخون من الخوف والرعب، ويتراجعون إلى الخلف.

فى هذه الأثناء «فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى . «أوجس»: أخذت من مادة «إيجاس» وفى الأصل من (وجس) على وزن (حبس) بمعنى الصوت الخفى، وبناءً على هذا فإنّ الإيجاس يعنى الإحساس الخفى والداخلى، وهذا يوحى بأنّ خوف موسى الداخلى كان سطحياً وخفيفاً. كما نقرأ فى خطبة الإمام على عليه السلام: «لم يوجس موسى عليه السلام خيفة على نفسه، بل

مختصر الامثل، ج‌۳، ص: ۲۱۹

أشفق من غلبة الجهّال ودول الضلال» «۱».

فقد نزل النصر والمدد الإلهى على موسى فى تلك الحال، وبيّن له الوحى الإلهى أنّ النصر حليفه كما يقول القرآن: «قُلْنَا لَاتَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى .

فقد أرجعت لموسى إطمئنانه الذى تزلزل للحظات قصيرة.

وخاطبه اللَّه مرّة اخرى بقوله تعالى: «وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى .

وممّا يلفت النظر أنّه لم يقل (الق عصاك) بل يقول: «أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ» وربّما كان هذا التعبير إشارة إلى عدم الإهتمام بالعصا، وإشارة إلى أنّ العصا ليست مسألة مهمّة، بل المهم إرادة اللَّه وأمره، فإنّه إذا أراد اللَّه شيئاً، فليست العصا فقط، بل أقل وأصغر منها قادر على إظهار مثل هذه القدرة.

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى (۷۰) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَ أَبْقَى (۷۱) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَ الَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (۷۲) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَ مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقَى (۷۳) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَ لَا يَحْيَى (۷۴) وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (۷۵) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (۷۶)

الإنتصار العظيم لموسى عليه السلام: إنتهينا فى الآيات السابقة إلى أنّ موسى امر أن يلقى عصاه ليبطل سحر السّاحرين، وقد عُقّبت هذه المسألة فى هذه الآية، غاية الأمر أنّ العبارات والجمل التى كانت واضحة قد حذفت، وهى (أنّ موسى قد ألقى عصاه، فتحوّلت إلى حيّة

---

(۱) لقد قال الإمام على عليه السلام هذا الكلام فى وقت كان قلقاً من انحراف الناس، ويشير إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ قلقى ليس نابعاً من شكّى فى الحق. (نهج البلاغة الخطبة ۴).

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۲۰

عظيمة لقفت كل آلات وأدوات سحر السّحرة، فعلت الصيحة والغوغاء من الحاضرين، فاستوحش فرعون وإرتبك، وفغر أتباعه أفواههم من العجب. فأيقن السحرة الذين لم يواجهوا مثل هذا المشهد من قبل، وكانوا يفرّقون جيّداً بين السحر وغيره، إنّ هذا الأمر ليس إلّامعجزة إلهية، وأنّ هذا الرجل الذى يدعوهم إلى ربّهم هو رسول اللّه، فاضطربت قلوبهم، وتبيّن التحوّل العظيم فى أرواحهم ووجودهم).

والآن نسمع بقيّة الحديث من لسان الآيات:

«فَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هرُونَ وَمُوسَى . إنّ التعبير ب (القى)- وهو فعل مبنى للمجهول- ربّما كان إشارة إلى أنّهم قد صدّقوا موسى، وتأثّروا بمعجزته إلى الحد الذى سجدوا معه دون إرادة.

إنّ عمل السّحرة هذا قد وجّه صفعة قويّة إلى فرعون وحكومته الجبارة المستبدة الظالمة، ولذلك لم ير فرعون بدّاً إلّاأن يجمع كيانه ويلملم ما تبقّى من هيبته وسلطانه عن طريق الصراخ والتهديد والوعيد الغليظ، فتوجّه نحو السحرة و «قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ».

إنّ هذا الجبار المستكبر لم يكن يدّعى الحكومة على أجسام وأرواح الناس وحسب، بل كان يريد أن يقول: إنّ قلوبكم تحت تصرفى أيضاً، ويجب على أحدكم إذا أراد أن يصمّم على أمر ما أن يستأذننى.

إنّ فرعون لم يكتف بذلك، بل إنّه ألصق بالساحرين التهمة وقال: «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ».

لا شكّ أنّ فرعون كان على يقين ومعرفة تامّة بكذب كلامه وبطلانه، إلّاأنّا نعلم أنّ الطغاة لا يتورّعون عن إلصاق أى كذب وتهمة بخصومهم عندما يرون مركزهم الذى حصلوا عليه بغير حق يتعرّض للخطر.

ثم إنّه لم يكتف بهذا، بل إنّه هدّد السحرة أشدّ تهديد، التهديد بالموت، فقال: «فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى .

لكن نرى ماذا كان ردّ فعل السحرة تجاه تهديدات فرعون الشديدة؟ إنّهم لم يخافوا ولم يهربوا من ساحة المواجهة، أثبتوا صمودهم فى الميدان بصورة قاطعة، و «قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ» لكن، ينبغى أن تعلم بأنّك تقدر على

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۲۱

القضاء فى هذه الدنيا، أمّا فى الآخرة فنحن المنتصرون، وستلاقى أنت أشدّ العقاب «إِنَّمَا تَقْضِى هذِهِ الْحَيَوةَ الدُّنيَا».

ثم أضافوا بأنّا قد إرتكبنا ذنوباً كثيرة نتيجة السحر، ف «إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطينَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى .

وخلاصة القول: إنّ هدفنا هو الطهارة من الذنوب الماضية، ومن جملتها محاربة نبى اللّه الحقيقى، فإذا كنت تهدّدنا بالموت فى الدنيا، فإنّنا نتقبّل هذا الضرر القليل فى مقابل ذلك الخير العظيم.

ثم واصل السحرة قولهم بأنّنا إذا كنّا قد آمنا فإنّ سبب ذلك واضح ف «إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ» ومصيبته الكبرى فى الجحيم هى أنّه «لَايَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى بل إنّه يتقلّب دائماً بين الموت والحياة، تلك الحياة التى هى أمرّ من الموت، وأكثر مشقّة منه.

«وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصلِحتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجتُ الْعُلَى جَنتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهرُ خلِدِينَ فِيهَا وَذلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى . عندما صمّموا على قبول الحقّ والثبات عليه بعشق، وعلى قول المفسر الكبير العلّامة الطبرسى رحمه الله: «كانوا أوّل النهار كفّاراً سحرة، وآخر النهار شهداء بررة».

نجاة بنى إسرائيل وغرق الفراعنة: بعد حادثة المجابهة بين موسى والسحرة، وإنتصاره الباهر عليهم، وإيمان جمع عظيم منهم، فقد غزا موسى عليه السلام ودينه أفكار الناس فى مصر، بالرغم من أنّ أكثر الأقباط لم يؤمنوا به، إلّاأنّ هذا كان ديدنهم دائماً، وكان بنو إسرائيل تحت قيادة موسى مع قلّة من المصريين فى حالة صراع دائم مع الفراعنة، ومرّت أعوام على هذا المنوال، وحدثت حوادث مرّة موحشة وحوادث جميلة مؤنسة، أورد بعضها القرآن الكريم فى الآية (۱۲۷) وما بعدها من سورة الأعراف.

وتشير الآيات التى نبحثها إلى آخر فصل من هذه القصة، أى خروج بنى إسرائيل من مصر، فتقول: «وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى». فتهيّأ بنو إسرائيل للتوجه إلى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۲۲

الوطن الموعود (فلسطين)، إلّاأنّهم لمّا وصلوا إلى سواحل النيل علم الفراعنة بهم، فتعقّبهم فرعون فى جيش عظيم، فرأى بنو إسرائيل أنفسهم محاصرين بين البحر والعدو، إلّا أنّ اللَّه أمر موسى أن امض بقومك «فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا». طريقاً متى ما مضيت فيه ف «لَّاتَخفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى . وبذلك فإنّ موسى وبنى إسرائيل قد ساروا فى تلك الطرق التى فتحت فى أعماق البحر بعد إنحسار المياه عنها، فى هذه الأثناء وصل فرعون وجنوده إلى ساحل البحر فدُهشوا لهذا المشهد المذهل المثير غير المتوقّع، ولذلك أعطى فرعون أمراً لجنوده باتّباعهم، وسار هو أيضاً فى نفس الطريق: «فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ».

إنّ فرعون الذى ركب الغرور والعصبية رأسه، وغرق فى بحر العناد والحماقة، لم يهتمّ لهذه المعجزة الكبيرة، وأمر جيشه فى المسير فى هذه الطرق البحرية المريبة حتى دخل من هذه الجهة آخر جندى فرعونى، فى وقت خرج من الجانب الآخر آخر فرد من بنى إسرائيل. فى هذه الأثناء صدر الأمر لأمواج المياه أن ترجع إلى حالتها الاولى، فوقعت عليهم الأمواج كما تسقط البناية الشامخة إذا هدّمت قواعدها «فَغَشِيَهُم مّنَ الْيَمّ مَا غَشِيَهُمْ». أجل، «وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى .

صحيح أنّ جملة (أضلّ) وجملة (ما هدى) تعطى معنى واحداً تقريباً إلّاأنّ الظاهر أنّ هناك تفاوتاً فيما بينهما، وهو أنّ (أضلّ) إشارة إلى الإضلال، و (ما هدى) إشارة إلى عدم الهداية بعد وضوح الضلالة.

إنّ فرعون كان عنيداً إلى الحد الذى لم يبيّن لقومه الحقيقة حتى بعد وضوح الضلال ومشاهدته.

يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ وَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ لَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى (٨١) وَ إِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۲۳

طريق النجاة الوحيد: تعقيباً على البحث السابق فى نجاة بنى إسرائيل بصورة إعجازية من قبضة الفراعنة، خاطبت هذه الآيات الثلاث بنى إسرائيل بصورة عامة، وفى كل عصر وزمان، وذكرتهم بالنعم الكبيرة التى منحها اللَّه إيّاهم، وأوضحت طريق نجاتهم.

فقالت أوّلًا: «يَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِن عَدُوّكُمْ».

ثم تشير إلى واحدة من النعم المعنوية المهمة، فتقول: «وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ». وهذه إشارة إلى حادثة ذهاب موسى عليه السلام مع جماعة من بنى إسرائيل إلى مكان ميعادهم فى الطور، ففى ذلك المكان أنزل اللَّه سبحانه ألواح التوراة على موسى وكلّمه، وشاهدوا جميعاً تجلّى اللَّه سبحانه.

وأخيراً أشارت إلى نعمة مادّية مهمة من نعم اللَّه الخاصة ببنى إسرائيل، فتقول: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى . ففى تلك الصحراء كنتم

حيارى، ولم يكن عندكم شىء من الطعام المناسب، فأدرككم لطف اللَّه، ورزقكم من الطعام الطيّب اللذيذ ما كنتم بأمسّ الحاجة إليه.

و «المنّ» نوعاً من العسل الطبيعى كان موجوداً فى الجبال المجاورة لتلك الصحراء؛ و «السلوى» نوع من الطيور المحللة اللحم شبيهاً بالحمام.

ثم تخاطبهم الآية التالية بعد ذكر هذه النعم الثلاث العظيمة، فتقول: «كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ».

الطغيان فى النعمة هو أن يتخذ الإنسان هذه النعم وسيلة للذنب والجحود والكفران والتمرد والعصيان، بدل أن يستغلّها فى طاعة اللَّه وسعادته، تماماً كما فعل بنو إسرائيل، ولذلك حذّرتهم الآية بعد ذلك فقالت: «فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى

.

«هوى»: فى الأصل بمعنى السقوط من المكان المرتفع، والذى تكون نتيجته الهلاك عادةً، إضافة إلى أنّه هنا إشارة إلى السقوط الرتبى والبعد عن قرب اللَّه، والطرد من رحمته.

ولما كان من الضرورى أن يقترن التحذير والتهديد بالترغيب والبشارة دائماً، لتتساوى كفّتا الخوف والرجاء، حيث تشكّلان العامل الأساسى فى تكامل الإنسان، ولتفتح أبواب التوبة والرجوع بوجه التائبين، فقد قالت الآية التالية: «وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى .

«غفّار»: صيغة مبالغة، وتوحى أنّ اللَّه سبحانه لا يقبل هؤلاء التائبين ويشملهم برحمته مرّة واحدة فقط، بل سيعمّهم عفوه ومغفرته مرّات ومرّات.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٢٤

وَ مَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِى وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَ لَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَ فَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَ لكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هذَا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسَى فَنَسِىَ (٨٨) أَ فَلَا يَرَوْنَ أَنْ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَ لَا نَفْعاً (٨٩) وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِى وَ أَطِيعُوا أَمْرِى (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١)

صخب السامرى: ذكر فى هذه الآيات فصل آخر من حياة موسى عليه السلام وبنى إسرائيل، ويتعلق بذهاب موسى عليه السلام مع وكلاء وممثّلى بنى إسرائيل إلى الطور حيث موعدهم هناك، ثم عبادة بنى إسرائيل للعجل فى غياب هؤلاء.

كان من المقرر أن يذهب موسى عليه السلام إلى «الطور» لتلقّى أحكام التوراة، ويصطحب معه جماعة من بنى إسرائيل، غير أنّ شوق موسى عليه السلام إلى المناجاة مع اللَّه وسماع ترتيل الوحى، وصل لوحده قبل الآخرين إلى ميقات اللَّه وميعاده. هنا نزل عليه الوحى: «وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يمُوسَى .

شوق المناجاة وسماع كلامك قد سلب قرارى، كنت مشتاقاً إلى أن آخذ منك أحكام التوراة بأسرع ما يمكن لُاؤدّيها إلى عبادك، ولأنال رضاك عنّى بذلك ...

وفى هذا اللقاء إمتدّت مدّة الإشراقات والتجليات المعنوية الإلهية من ثلاثين ليلة إلى أربعين، وأدّت الأجواء المهيّأة لانحراف بنى إسرائيل دورها، فالسامرى، ذلك الرجل الفطن والمنحرف صنع باستعماله الوسائل عجلًا، ودعا تلك الجماعة إلى عبادته، وأوقعهم فيها.

وأخيراً أخبر اللَّه موسى فى الميعاد بما جرى لقومه والسامرى إذ تحكى الآية التالية ذلك

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٢٥

فتقول: «قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ». «فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا».

وما أن وقعت عينه على ذلك المنظر القبيح، منظر عبادة العجل «قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا». وهذا الوعد الحسن إمّا أن يكون وعد بنى إسرائيل بنزول التوراة وبيان الأحكام السماوية فيها، أو الوعد بالنجاة والإنتصار على الفراعنة ووراثة حكومة الأرض، أو الوعد بالمغفرة والعفو للذين يتوبون ويؤمنون ويعملون الصالحات، أو أنّه كل هذه الامور.

ثم أضاف: «أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ».

وحتى لو نأيت عنكم سنين طويلة فينبغى أن تلتزموا بالتعاليم الإلهية التى تعلّمتموها وتؤمنوا بالمعجزات التى رأيتموها: «أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى». فقد عاهدتكم على أن تثبتوا على خطّ التوحيد وطريق طاعة اللّه الخالصة، وأن لا تنحرفوا عنه قيد أنملة، إلّاأنّكم نسيتم كل كلامى فى غيابى، وكذلك تمردّتم على طاعة أمر أخى هارون وعصيتموه.

فلمّا رأى بنو إسرائيل أنّ موسى عليه السلام قد عنّفهم بشدة ولامهم على فعلهم وتنبّهوا إلى قبح ما قاموا به من عمل، هبوا للإعتذار ف «قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا» فلم نكن فى الواقع قد رغبنا وصمّمنا على عبادة العجل «وَلكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ».

إنّ كبير القوم إذا لام مَن تحت إمرته على إرتكابهم ذنباً ما، فإنّهم يسعون إلى نفى ذلك الذنب عنهم، ويلقونه على عاتق غيرهم، وكذلك عبّاد العجل من بنى إسرائيل، فإنّهم كانوا قد انحرفوا بإرادتهم ورغبتهم عن التوحيد إلى الشرك، إلّاأنّهم أرادوا أن يلقوا كل التبعة على السامرى.

على كلّ، فإنّ السامرى ألقى كل أدوات زينة الفراعنة وحليّهم التى كانوا قد حصلوا عليها عن طريق الظلم والمعصية- ولم يكن لها قيمة إلّاأن تصرف فى مثل هذا العمل المحرّم- فى النّار «فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ» «١» فلمّا رأى بنو إسرائيل هذا المشهد، نسوا فجأةً كل تعليمات موسى التوحيديّة «فَقَالُوا هذَا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسَى .

وبهذا فإنّ السامرى قد نسى عهده وميثاقه مع موسى، وإله موسى: «فَنَسِىَ».

وهنا قال اللّه سبحانه توبيخاً وملامة لعبدة الأوثان هؤلاء: «أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا». فإنّ المعبود الواقعى يستطيع على الأقل أن يُلبّى طلبات

---

(١) «الخوار»: صوت البقرة والعجل، ويطلق أحياناً على صوت البعير.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٢۶

عباده ويجيب على أسئلتهم، فهل يمكن أن يكون سماع خوار العجل من هذا الجسد الذهبى لوحده، دليلًا على جواز عبادة العجل، وصحّة تلك العبادة؟ ولا شك أنّ هارون، خليفة موسى ونبى اللّه الكبير، لم يرفع يده عن رسالته فى هذا الصخب والغوغاء، وأدّى واجبه فى محاربة الانحراف والفساد قدر ما يستطيع، كما يقول القرآن: «وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هرُونُ مِن قَبْلُ يقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ» ثم أضاف: «وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ».

لقد كنتم عبيداً فحرّركم، وكنتم أسرى فأطلقكم، وكنتم ضالين فهداكم، وكنتم متفرقين مبعثرين فجمعكم ووحّدكم تحت راية رجل ربانى، وكنتم جاهلين فألقى عليكم نور العلم وهداكم إلى صراط التوحيد المستقيم، فالآن «فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى».

أنسيتم أنّ أخى موسى قد نصّبنى خليفة له وفرض عليكم طاعتى؟ فلماذا تنقضون الميثاق؟ ولماذا ترمون بأنفسكم فى هاوية الفناء؟

إلّا أنّ بنى إسرائيل تمسكّوا بهذا العجل عناداً، ولم يؤثّر فيهم المنطق السليم القوى لهذا الرجل، ولا أدلة هذا القائد الحريص، وأعلنوا مخالفتهم بصراحة: «قَالُوا لَنْ نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى .

وبهذا لم يذعن بنو إسرائيل لأمر العقل ولا لأمر خليفة قائدهم وزعيمهم أيضاً.

ولكن إفترق عنهم هارون مع القلة من المؤمنين الثابتين، والذين كان عددهم قرابة إثنى عشر ألفاً، فى حين أنّ الأغلبية الجاهلة كادوا أن يقتلوه.

قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (۹۲) أَنْ تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِى (۹۳) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَ لَا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى (۹۴) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (۹۵) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَ كَذلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى (۹۶) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَ إِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَ انْظُرْ إِلَى إِلهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفاً (۹۷) إِنَّمَا إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً (۹۸)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۲۷

نهاية السامرى المريرة: تعقيباً على البحث الذى تناولته الآيات السابقة حول تقريع موسى وملامته لبنى إسرائيل الشديدة على عبادتهم العجل، تعكس هذه الآيات التى نبحثها- فى البداية- محاورة موسى عليه السلام مع أخيه هارون عليه السلام، ثم مع السامرى. فخاطب أوّلًا أخاه هارون «قَالَ يَا هرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا* أَلَّا تَتَّبِعَنِ» أفلم أقل لك أن «اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» «۱». فلماذا لم تهب لمحاربة عبادة العجل هذه؟

إنّ المراد من جملة «أَلَّا تَتَّبِعَنِ» هو: لماذا لم تتّبع طريقة عملى فى شدّة مواجهة عبادة الأصنام؟

ثم أضاف: «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى». لقد كان موسى عليه السلام يتحدث بهذا الكلام مع أخيه وهو فى فورة وسَورةٍ من الغضب، وكان يصرخ فى وجهه، وقد أخذ برأسه ولحيته يجرّه إليه، فلمّا رأى هارون غضب أخيه الشديد قال له- من أجل تهدئته وليقلّل من فورته، وكذلك ليبيّن عذره وحجّته فى هذه الحادثة ضمناً ... «قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَاتَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى إِنّى خَشِيْتُ أن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَاءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى».

إنّ هارون يريد أن يقول: إنّى إذا كنت قد أقدمت على الإشتباك معهم كان ذلك خلاف أمرك، وكان من حقّك أن تؤاخذنى. وبهذا أثبت هارون براءته.

وبعد الانتهاء من محادثة أخيه هارون وتبرئة ساحته، بدأ بمحاكمة السامرى: لماذا فعلت ما فعلت، وما هدفك من ذلك: «قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ». فأجابه و «قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى».

إنّ كلمة «الأثر» يعنى بعض تعليمات موسى عليه السلام؛ و «نبذتها» بمعنى ترك تعليمات موسى عليه السلام. وأخيراً فإنّ «بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا» تشير إلى ما كان لديه من معلومات خاصّة عن دين موسى عليه السلام.

ومن الواضح أنّ جواب السامرى عن سؤال موسى عليه السلام لم يكن مقبولًا بأىّ وجه، ولذلك فإنّ موسى عليه السلام أصدر قرار الحكم فى هذه المحكمة، وحكم بثلاثة أحكام عليه وعلى عجله، فأوّلًا: «قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَوةِ أن تَقُولَ لَامِسَاسَ». أى يجب عليك الإبتعاد عن الناس وعدم الإتصال بهم إلى آخر العمر، فكلما أراد شخص الإقتراب منك، فعليك أن

(۱) سورة الأعراف/ ۱۴۲.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۲۸

تقول له: لا تتصل بى ولا تقربنى، وبهذا الحكم الحازم طرد السامرى من المجتمع وجعله فى عزلة تامة. منزوياً بعيداً عنهم. قال بعض المفسرين: إنّ جملة «لَامِسَاسَ» إشارة إلى أحد القوانين الجزائية فى شريعة موسى عليه السلام التى كانت تصدر فى حق من يرتكب جريمة كبيرة، وكان ذلك الفرد يبدو كموجود شرّير نجس قذر، فلا يخالط أحداً أو يخالطه أحد «۱».

والعقاب الثانى: إنّ موسى عليه السلام قد أسمعه وأعلمه بجزائه فى القيامة فقال: «وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ».

والثالث: «وَانظُرْ إِلَى إِلهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمّ نَسْفًا».

وشخّص موسى فى آخر جملة، ومع التأكيد الشديد على مسألة التوحيد، وحاكمية نهج اللّه، فقال: «إِنَّمَا إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا». فليس هو كالأوثان المصنوعة التى لا تسمع كلاماً، ولا تجيب سائلًا، ولا تحلّ مشكلة، ولا تدفع ضرّاً.

كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَ سَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً (١٠٤)

مع أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث حول تاريخ موسى وبنى إسرائيل والفراعنة والسامرى المليء بالحوادث، وقد بيّنت فى طيّاتها بحوثاً مختلفة، فإنّ القرآن الكريم بعد الانتهاء منها يستخلص نتيجة عامة فيقول: «كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِن أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ». ثم يضيف: «وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا» قرآناً مليئاً بالدروس والعبر، والأدلّة العقلية، وأخبار الماضين وما ينبّه المقبلين ويحذّرهم.

إنّ كلمة (ذكر) هنا، وفى آيات كثيرة اخرى من آيات القرآن الكريم تشير إلى القرآن نفسه، لأنّ آياته سبب لتذكّر وتذكير البشر، والوعى والحذر.

ولهذا السبب فإنّ الآية التالية تتحدث عن الذين ينسون حقائق القرآن ودروس التاريخ

---

(١) تفسير فى ظلال القرآن ٥/ ۴۹۴.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٢٩

وعبره، فتقول: «مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيمَةِ وِزْرًا».

نعم ... إنّ الإعراض عن القرآن يجرّ الإنسان إلى مثل هذه المتاهات التى تحمّله أعباءاً ثقيلة من أنواع الذنوب والانحرافات الفكرية والعقائدية.

ثم تضيف: «خلِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ حِمْلًا».

ثم تتطرق الآيات إلى وصف يوم القيامة وبدايته، فتقول: «يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا». «زُرق»: جمع «أزرق» تأتى عادةً بمعنى زرقة العين، إلّاأنّها تطلق أحياناً على القاتم جسده بسبب الشدة والألم، فإنّ البدن عند تحمّل الألم والتعب والعذاب يضعف، ويفقد طراوته، فيبدو قاتماً وكأنّه أزرق.

فى هذه الحال يتحدث المجرمون فيما بينهم بإخفات حول مقدار مكوثهم وبقائهم فى عالم البرزخ، فبعضهم يقول: لم تلبثوا إلّاعشر ليال، أو عشرة أيام بلياليها: «يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا».

وإنّ تخافتهم هذا بالكلام إمّا هو للرعب والخوف الشديد الذى ينتابهم عند مشاهدة أهوال القيامة، أو أنّه نتيجة شدة ضعفهم وعجزهم.

ثم يضيف: «نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ» سواء تكلّموا بهمس أم بصراخ، وبصوت خفى أم عال «إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا».

وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَ لَا أَمْتاً (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (١١٠) وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَ قَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (١١١) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَ لَا هَضْماً (١١٢)

مشهد القيامة المهول: تتابع هذه الآيات الكلام فى الآيات السابقة عن الحوادث المرتبطة بانتهاء الدنيا وبداية القيامة. ويظهر من الآية الاولى أنّ الناس كانوا قد سألوا

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٣٠

النبى صلى الله عليه و آله عن مصير الجبال عند انتهاء الدنيا. ولذلك يقول: «وَيَسَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ».

والجواب: «فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبّى نَسْفًا» «١».

يستفاد من مجموع آيات القرآن حول مصير الجبال أنّها تمرّ عند حلول القيامة بمراحل مختلفة:

فهى ترجف وتهتزّ أوّلًا: «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ» «٢».

ثم تتحرّك: «وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا» «٣».

وفى المرحلة الثالثة تتلاشى وتتحوّل إلى كثبان من الرمل: «وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا» «۴».

وفى المرحلة الأخيرة سيزحزحها الهواء والطوفان من مكانها ويبعثرها فى الهواء وتبدو كالصوف المنفوش: «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ» «۵».

ثم تقول الآية: إنّ اللّه سبحانه بعد تلاشى الجبال وتطاير ذرّاتها يأتى أمره إلى الأرض «فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا* لَّاتَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا» «۶». وفى ذلك الحين يدعو الداعى الإلهى جميع البشر إلى الحياة والاجتماع فى المحشر للحساب فيلبّى الجميع دعوته ويتّبعونه «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ لَاعِوَجَ لَهُ». كما أنّ سطح الأرض يصبح صافياً ومستوياً بحيث لا يبقى فيه أىّ إعوجاج، فإنّ أمر اللّه والداعى أيضاً كل منهما صافٍ ومستقيم جلى، واتّباعه واضح لا سبيل لأىّإنحراف وإعوجاج إليه.

عند ذلك: «وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا». إنّ هدوء الأصوات أو خشوعها هذا إمّا هو لهيمنة العظمة الإلهية على عرصة المحشر حيث يخضع لها الجميع، أو خوفاً من الحساب ونتيجة الأعمال، أو لكليهما.

---

(١) «نسف»: تعنى وضع الحبوب الغذائية فى الغربال وغربلتها، أو ذرها فى الهواء لينفصل الحبّ عن القشر، وهنا إشارة إلى تلاشى الجبال وتهشّمها، ثم تناثرها فى الهواء.

(٢) سورة المزمل/ ١۴.

(٣) سورة الطور/ ١٠.

(۴) سورة المزمل/ ١۴.

(۵) سورة القارعة/ ۵.

(۶) يستفاد من مجموع هذين الوصفين (القاع وصفصفاً) أنّ كل الجبال والنباتات ستمحى من على وجهالأرض فى ذلك اليوم وستبقى الأرض مستوية خالية.

«العوج»: بمعنى الإعوجاج؛ و «الأمت»: أى الأرض المرتفعة والربية، وبناءً على هذا فإنّ معنى الآية هو أنّه لا يرى فى ذلك اليوم أىّ إرتفاع وإنخفاض على وجه الأرض.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٣١

وبما أنّ بعض الغارقين فى الذنوب والمعاصى قد يحتمل أن تنالهم شفاعة الشافعين وتنجيهم، فإنّه يضيف مباشرة: «يَوْمَئِذٍ لَّاتَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلًا». وهذا إشارة إلى أنّ الشفاعة هناك ليست إعتباطية وعشوائية، بل إنّ هناك تخطيطاً دقيقاً لها، سواء ما يتعلق بالشافعين أو المشفوع لهم، وما دام الأفراد لا يملكون الأهلية والاستحقاق للشفاعة، فلا معنى حينئذ لها.

ولمّا كان حضور الناس فى عرصات القيامة للحساب والجزاء لابدّ معه من علم اللّه سبحانه بأعمالهم وسلوكهم ومعاملاتهم، فإنّ الآية التالية تضيف: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا». فهو يعلم ما قدّم المجرمون وما فعلوه فى الدنيا، وهو مطّلع على كل أفعالهم وأقوالهم ونيّاتهم فى الماضى وما سيلاقونه من الجزاء فى المستقبل، إلّاأنّهم لا يحيطون بعلم اللّه، وبهذا فإنّ إحاطة علم

اللَّه سبحانه تشمل العلم بأعمال هؤلاء وبجزائهم، وهذان الركنان فى الحقيقة هما دعامة القضاء التام العادل.

فى ذلك اليوم: «وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيّ الْقَيُّومِ».

«العنت»: من مادة العنوة، وقد وردت بمعنى الخضوع والذلة، ولذلك يقال للأسير:

«عانى»، لأنّه خاضع وذليل فى يد الآسر، وإذا رأينا الخضوع قد نسب إلى الوجوه هنا، فلأنّ كل الإحساسات النفسية، ومن جملتها الخضوع، تظهر آثارها أوّلًا على وجه الإنسان.

إنّ إنتخاب صفتى «الحى والقيوم» هنا من بين صفات اللَّه سبحانه، لأنّهما يناسبان النشور أو الحياة وقيام الناس جميعاً من قبورهم «يوم القيامة».

وتختتم الآية بالقول: «وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا» فالظلم والجور كالحمل العظيم الذى يثقل كاهل الإنسان، ويمنعه من السير والرقى إلى نعم اللَّه الخالدة.

ولمّا كانت طريقة القرآن غالباً هى بيان تطبيقى للمسائل، فإنّه بعد أن بيّن مصير الظالمين فى ذلك اليوم، تطرّق إلى بيان حال المؤمنين فقال: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا» «١».

التعبير ب «مِنَ الصَّالِحَاتِ» إشارة إلى أنّهم إن لم يستطيعوا أن يعملوا كل الصالحات فليقوموا ببعضها، لأنّ الإيمان بدون العمل الصالح كالشجرة بلا ثمرة، كما أنّ العمل الصالح

---

(١) «الهضم»: بمعنى النقص، وإذا قيل لجذب الغذاء إلى البدن: هضم، فلأنّ الغذاء يقلّ ظاهراً وتبقى فضلاته.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٣٢

بدون إيمان كالشجرة من دون جذر، إذ قد تبقى عدة أيّام لكنها تجفّ آخر الأمر. مراحل القيامة: وردت الإشارة فى الآيات- محل البحث- إلى سلسلة من الحوادث التى تقع عند حلول القيامة وبعدها:

١- رجوع الأموات إلى الحياة: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ».

٢- جمع المجرمين وحشرهم: «نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ».

٣- تلاشى جبال الأرض، ثم تبعثرها فى كل مكان، وإستواء سطح الأرض تماماً:

«يَنسِفُهَا رَبّى نَسْفًا».

٤- إستماع الجميع لدعوة داعى اللَّه، وإنقطاع جميع الأصوات: «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ ...».

٥- عدم تأثير الشفاعة فى ذلك اليوم بدون إذن اللَّه: «يَوْمَئِذٍ لَّاتَنفَعُ الشَّفعَةُ ...».

٦- إعداد اللَّه تعالى جميع خلقه للحساب بعلمه المطلق غير المتناهى «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا».

٧- خضوع الجميع فى مقابل حكمه: «وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىّ الْقَيُّومِ».

٨- يأس الظالمين: «وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا».

٩- رجاء المؤمنين لطف اللَّه ورحمته: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ...».

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَ صَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَ لَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً (١١٤)

الآيات محل البحث- فى الواقع- إشارة إلى مجموع ما مرّ فى الآيات السابقة حول المسائل التربوية المرتبطة بالقيامة والوعد والوعيد، فتقول: «وَكَذلِكَ أَنزَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا».

التعبير ب (كذلك) إشارة إلى المطالب التى بيّنت قبل هذه الآية.

كلمة «عربيًّا» وإن كانت بمعنى اللغة العربية، إلّاأنّها هنا إشارة إلى فصاحة القرآن وبلاغته وسرعة إيصاله للمفهوم والمراد من جهتين:

الاولى: إنّ اللغة العربية– بشهادة علماء اللغة فى العالم– واحدة من أبلغ لغات العالم، وأدبها من أقوى الآداب.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۳۳

والثانية: إنّ جملة (صرّفنا) أحياناً تشير إلى التعبيرات القرآنية المختلفة حول حادثة واحدة، فمثلًا نراه يبيّن مسألة الوعيد وعقاب المجرمين من خلال ذكر قصص الامم السابقة وحوادثها تارة، وتارة اخرى على هيئة خطاب موجّه للحاضرين، وثالثة بتجسيد حالهم فى مشهد القيامة، وهكذا.

أمّا الآية التالية فتضيف قائلة: «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ».

وبما أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يعجّل فى إبلاغ الوحى وما ينزل من القرآن لاهتمامه به وتعشّقه أن يحفظه المسلمون ويستظهروه، ولم يتمهّل أن يتمّ جبرئيل ما يلقيه عليه من الوحى فيبلغه عنه، فإنّ الآية محلّ البحث تذكّره بأن يتمهّل فتقول: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا».

فإذا كان النبى صلى الله عليه و آله مأموراً أن يطلب زيادة العلم من ربّه إلى آخر عمره مع غزارة علمه، وروحه المليئة وعياً وعلماً، فإنّ واجب الآخرين واضح جدّاً، وفى الحقيقة، فإنّ العلم من وجهة نظر الإسلام لا يعرف حدّاً، وزيادة الطلب فى كثير من الامور مذمومة إلّافى طلب العلم فانّها ممدوحة، والإفراط قبيح فى كل شىء إلّافى طلب العلم.

وَ لَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (١١۵) وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١۶) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَنْ تَجُوعَ فِيهَا وَ لَا تَعْرَى (١١٨) وَ أَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَ لَا تَضْحَى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لَا يَبْلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَى (١٢٢)

آدم ومكر الشيطان: إنّ هذه الآيات وما بعدها تتحدث عن قصة آدم وحواء، وعداء ومحاربة إبليس لهما، وربما كانت إشارة إلى أنّ الصراع بين الحق والباطل لا ينحصر بالأمس واليوم، وموسى عليه السلام وفرعون، بل كان منذ بداية خلق آدم وسيستمر كذلك.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۳۴

وبالرغم من أنّ قصة آدم وإبليس قد وردت مراراً فى القرآن، إلّاأنّها تمتزج فى كل مورد بملاحظات ومسائل جديدة، وهنا تتحدث أوّلًا عن عهد اللَّه إلى آدم فتقول: «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا». والمراد من العهد المذكور، أمر اللَّه بعدم الإقتراب من الشجرة الممنوعة.

فلا شك أنّ آدم لم يرتكب معصية، بل بدر منه ترك الأولى. أو بتعبير آخر، فإنّ مرحلة وجود آدم فى الجنّة لم تكن مرحلة تكليف، بل كانت مرحلة تجريبية للإستعداد للحياة فى هذه الدنيا وتقبّل المسؤولية.

ثم أشارت إلى جانب آخر من هذه القصة، فقالت: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى . ومن هنا يتّضح مقام آدم العظيم، آدم الذى سجدت له الملائكة، كما أنّ عداوة إبليس تجلّت له ضمناً من أوّل الأمر إذ لم يخضع لآدم ولم يعظّمه.

لا شك أنّ السجدة لا تعنى السجدة الخاصة بعبادة اللَّه، ولا أحد أو موجود يستحق أن يكون معبوداً من دون اللَّه سبحانه، وبناءً على هذا فإنّ هذه السجدة كانت للَّه، غاية ما هناك أنّها كانت من أجل خلق هذا الموجود العظيم. فإنّ اللَّه سبحانه تعالى أنذر آدم بقوله: «فَقُلْنَا يَا ءَادَمُ إِنَّ هذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى .

من الواضح أنّ الجنة هنا لا يراد منها جنّة الخلود فى العالم الآخر، والتى هى نقطة تكامل لا يمكن الخروج منها أو التراجع عن نعيمها، بل كانت بستاناً فيه كل شىء مما فى بساتين هذه الدنيا، ولم يكن فيها نصب ولا غصّة بلطف اللَّه.

ثم يبيّن اللَّه لآدم راحة الجنة وهدوءها، وألم ومشقة الخروج منها، فيقول: «إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَاتَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا

تَضْحَى .

فقد اشير فى هاتين الآيتين إلى أربع إحتياجات أصلية وابتدائية للإنسان، أى: الحاجة إلى الغذاء، والماء، واللباس- للحماية من حرارة الشمس- والمسكن، لكن ومع كل ذلك، فإنّ الشيطان قد ربط رباط العداوة حول آدم، ولهذا لم يهدأ له بال: «فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطنُ قَالَ يَا ءَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى .

«الوسوسة»: فى الأصل تعنى الصوت المنخفض جدّاً، ثم قيلت لخطور الأفكار السافلة والخواطر السيئة سواء كانت تنبع من داخل الإنسان، أو من خارجه.

إنّ الشيطان تتبع رغبة آدم وأنّها فى أىّ شىء، فوجد أنّ رغبته فى الحياة الخالدة

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٣٥

والوصول إلى القدرة الأزلية، ولذلك جاء إليه عن هذين العاملين وإستغلّهما فى سبيل جرّه إلى مخالفة أمر اللّه.

وأخيراً وقع المحذور، وأكل آدم وحواء من الشجرة الممنوعة، فتساقط عنهما لباس الجنة، فبدت أعضاؤهما: «فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا» «١». فلما رأى آدم وحواء ذلك إستحييا «وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ» «٢». نعم، لقد كانت العاقبة المؤسفة «وَعَصَى ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . «غوى»: اخذت من مادّة الغى، أى العمل الصبيانى الناشىء من إعتقاد خاطىء، ولما كان آدم هنا قد أكل- جهلًا وإشتباهاً- من الشجرة المحرمة، نتيجة للظن الذى حصل له من قول الشيطان، فقد عُبّر عن عمله ب (غوى).

ولكن لما كان آدم نقيّاً ومؤمناً فى ذاته، وكان يسير فى طريق رضى اللّه سبحانه، وكان لهذا الخطأ الذى أحاط به نتيجة وسوسة الشيطان صفة استثنائية، فإنّ اللّه سبحانه لم يبعده عن رحمته إلى الأبد، بل «ثُمَّ اجْتَبهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى .

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَ لَا يَشْقَى (١٢٣) وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢۴) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢۵) قَالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢۶) وَ كَذلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقَى (١٢٧)

مع أنّ توبة آدم قد قبلت، إلّاأنّ عمله أدّى إلى عدم استطاعته الرجوع إلى الحالة الاولى، ولذا فإنّ اللّه سبحانه أصدر أمره لآدم وحواء كليهما وكذلك الشيطان أن يهبطوا جميعاً من الجنة: «قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ». إلّاأنّى اعلمكم بأنّ طريق النجاة والسعادة مفتوح أمامكم «فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى .

---

(١) «سوءات»: جمع سوءة، وهى فى الأصل كل شىء غير سار ويسىء الإنسان، ولذلك تطلق أحياناً على جسد الميّت، وأحياناً على العورة، والمراد هنا هو المعنى الأخير.

(٢) «يخصفان»: من مادّة خصف، وهى هنا تعنى خياطة اللباس.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٣۶

ومن أجل أن يتّضح أيضاً مصير الذين ينسون أمر الحق، فقد أضاف تعالى «وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيمَةِ أَعْمَى «١».

هنا «قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا». فيسمع الجواب مباشرةً: «قَالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ ءَايتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى . وتعمى عينك عن رؤية نعم اللّه ومقام قربه.

أمّا الآية الأخيرة من الآيات محل البحث فهى بمثابة الاستنتاج والخلاصة إذ تقول:

«وَكَذلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بَايتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى .

أَ فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَى (١٢٨) وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ

لَکَانَ لِزَاماً وَ أَجَلٌ مُسَمًّی (۱۲۹) فَاصْبِرْ عَلَی مَا یَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِهَا وَ مِنْ آنَاءِ اللَّیْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّکَ تَرْضَی (۱۳۰)

لما کانت عدّة بحوث فی الآیات السابقة قد وردت عن المجرمین، فقد أشارت الآیات الاولی من الآیات محلّ البحث إلی واحد من أفضل طرق التوعیة وأکثرها تأثیراً، وهو مطالعة تأریخ الماضین، فتقول: «أَفَلَمْ یَهْدِ لَهُمْ کَمْ أَهْلَکْنَا قَبْلَهُم مّنَ الْقُرُونِ». اولئک الذین عمّهم العذاب الإلهی الألیم «یَمْشُونَ فِی مَسکِنِهِمْ».

إنّ هؤلاء یمرّون فی مسیرهم وذهابهم وإیّابهم علی منازل قوم عاد- فی أسفارهم إلی الیمن- وعلی مساکن ثمود المتهدمة الخربة- فی سفرهم إلی الشام- وعلی منازل قوم لوط التی جُعل عالیها سافلها- فی سفرهم إلی فلسطین- ویرون آثارهم، إلّاأنّهم لا یعتبرون. نعم ... «إِنَّ فِی ذلِکَ لَأَیتٍ لِّأُولِی النُّهَی «۲»».

إنّ موضوع أخذ العبرة من تأریخ الماضین من الامور التی یؤکّد علیها القرآن والأحادیث الإسلامیة کثیراً.

فی کتاب معانی الأخبار عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله قال: «... وأغفل الناس من لم یتّعظ بتغیّر الدنیا من حال إلی حال». ولا یفکّر فی تقلّب اللیل والنهار وتعاقبهما.

الآیة التالیة جواب عن سؤال یثار هنا، وهو: لماذا لا یجری اللّه سبحانه علی هذا القسم

---

(۱) «الضنک»: المشقّة والضیق، وهذه الکلمة تأتی دائماً بصیغة المفرد، ولیس لها تثنیة ولا جمع ولا تأنیث.

(۲) «النهی»: من مادّة نهی، وهی هنا بمعنی العقل، لأنّ العقل ینهی الإنسان عن القبائح والسیّئات.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۳۷

من المجرمین ما أجراه علی المجرمین السابقین، فیقول القرآن: «وَلَوْلَا کَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبّکَ لَکَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّی».

إنّ هذه السنّة الإلهیة التی ذکرت فی مواضع عدیدة من القرآن باسم (کلمة) إشارة إلی قانون الخلقة المبتنی علی حریة البشر، لأنّ کل مجرم إذا عوقب مباشرة وبدون أن یمهل، فإنّ الإیمان والعمل الصالح سیتّصف بالجبر تقریباً، وسیکون علی الأغلب خوفاً من العقاب الآنی، وبناءً علی هذا فسوف لا یکون وسیلة للتکامل الذی هو الهدف الأصلی.

إضافةً إلی أنّه إذا تقرّر أن یعاقب جمیع المجرمین فوراً، فسوف لا یبقی أحد حیّاً علی وجه الأرض: «وَلَوْ یُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَکَ عَلَیْهَا مِن دَابَّةٍ» «۱». وبناءً علی هذا فیجب أن تکون هناک مهلة وفترة تعطی لکل المرتبطین بطریق الحق حتی یرجع المجرمون إلی أنفسهم ویسلکوا سبیل الصلاح، ولتکون کذلک فرصة لتهذیب النفس.

إنّ التعبیر ب (أجل مسمّی) بالشکل الذی یفهم من مجموع آیات القرآن، إشارة إلی الزمان الحتمی لنهایة حیاة الإنسان.

ثم یوجّه الخطاب إلی النبی صلی الله علیه و آله، فیقول: «فَاصْبِرْ عَلَی مَا یَقُولُونَ». ومن أجل رفع معنویات النبی صلی الله علیه و آله وتقویة قلبه، وتسلیة خاطره، فإنّه یُؤمر بمناجاة اللّه والصلاة والتسبیح فیقول: «وَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّکَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَایِ الَّیْلِ فَسَبّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّکَ تَرْضَی ولا یتأثّر قلبک جرّاء کلامهم المؤلم.

لا شک أنّ هذا الحمد والتسبیح محاربة للشرک وعبادة الأصنام، وفی الوقت نفسه صبر وتحمّل أمام أقوال المشرکین السیئة، وکلامهم الخشن.

وَ لَا تَمُدَّنَّ عَیْنَیْکَ إِلَی مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَیَاةِ الدُّنْیَا لِنَفْتِنَهُمْ فِیهِ وَ رِزْقُ رَبِّکَ خَیْرٌ وَ أَبْقَی (۱۳۱) وَ أْمُرْ أَهْلَکَ بِالصَّلَاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَیْهَا لَا نَسْأَلُکَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُکَ وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَی (۱۳۲) وَ قَالُوا لَوْ لَا یَأْتِینَا بِآیَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَیِّنَةُ مَا فِی الصُّحُفِ الْأُولَی (۱۳۳) وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَکْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَیْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آیَاتِکَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزَی (۱۳۴) قُلْ کُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِیِّ وَ مَنِ اهْتَدَی (۱۳۵)

(١) سورة النحل/ ٦١.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٣٨

لقد أصدرت فى هذه الآيات أوامر وتوجيهات للنبى صلى الله عليه و آله، والمراد منها والمخاطب فيها عموم المسلمين، وهى تتمة للبحث الذى قرأناه آنفاً حول الصبر والتحمل. فتقول أوّلًا:

«وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ». فإنّ هذه النعم المتزلزلة الزائلة ما هى إلّا «زَهْرَةَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا».

فى الوقت الذى أمددناهم بها «لِنَفْتِنَهُم فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى . فإنّ اللّه سبحانه وهب لك مواهب ونعماً متنوّعة، فأعطاك الإيمان والإسلام، والقرآن والآيات الإلهية والرزق الحلال الطاهر، وأخيراً نعم الآخرة الخالدة، هذه الهبات والعطايا المستمرة الدائمة.

وتقول الآية التالية تلطيفاً لنفس النبى صلى الله عليه و آله وتقوية لروحه: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا» لأنّ هذه الصلاة بالنسبة لك ولأهلك أساس العفّة والطهارة وصفاء القلب وسموّ الروح ودوام ذكر اللّه.

إنّ هذه السورة لمّا كانت قد نزلت فى مكة، فإنّ مصداق الأهل فى ذلك الزمان كان (خديجة وعلياً عليهما السلام) إلّاأنّ مصطلح أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله أصبح واسع الدلالة بمرور الزمن.

ثم تضيف بأنّه إذا كان قد صدر الأمر لك ولأهلك بالصلاة فإنّ نفعها وبركاتها إنّما يعود كل ذلك عليكم، فإنّا «لَانَسْلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ» فإنّ هذه الصلاة لا تزيد شيئاً من عظمة اللّه، بل هى رأس مال عظيم لتكامل البشر وإرتقائهم ودرس تعليمى وتربوى عال.

وتضيف الآية فى النهاية: «وَالْعقِبَةُ لِلتَّقْوَى . فإنّ ما يبقى ويفيد فى نهاية الأمر هو التقوى، والمتقون هم الفائزون فى النهاية، أمّا الذين لا تقوى لهم فهم محكومون بالهزيمة والإنكسار.

ثم أشارت الآية التالية إلى واحدة من حجج الكفار الواهية فقالت: «وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بَايَةٍ مِّن رَّبِّهِ» واجابتهم مباشرة: «أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى الصُّحُفِ الْأُولَى . حيث كانوا يشكّكون ويطلبون الأعذار بصورة متلاحقة من أجل الإتيان بالمعجزات، وبعد رؤية ومشاهدة تلك المعاجز إستمرّوا فى كفرهم وإنكارهم، فحاق بهم العذاب الإلهى، أفلا يعلمون بأنّهم إذا ساروا فى نفس الطريق فسينتظرهم المصير نفسه.

إنّ هؤلاء المتذّرعين ليسوا اناساً طلّاب حق، بل إنّهم دائماً فى صدد إيجاد أعذار وتبريرات جديدة، فحتّى «وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى إلّاأنّهم الآن وقد جاءهم هذا النبى الكريم بهذا الكتاب العظيم، يقولون كل يوم كلاماً، ويختلقون الأعذار للفرار من الحق.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٣٩

وقالت الآية التالية: أنذر هؤلاء و «قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ» فنحن بإنتظار الوعود الإلهية فى حقّكم، وأنتم بإنتظار أن تحيط بنا المشاكل والمصائب «فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحبُ الصِّرَاطِ السَّوِىّ وَمَنِ اهْتَدَى . وبهذه الجملة الحاسمة العميقة المعنى تنتهى المحاورة مع هؤلاء المنكرين العنودين المتذّرعين.

«نهاية تفسير سورة طه»

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٤١

٢١ سورة الأنبياء

محتوى السورة:

١- إنّ هذه السورة كما تدلّ عليها تسميتها هى سورة الأنبياء، لأنّ اسم ستّة عشر نبيّاً قد جاء فى هذه السورة، بعضهم بذكر نماذج

وصور من حالاتهم، والبعض کإشارة، وهم:

موسی- هارون- إبراهیم- لوط- إسحاق- یعقوب- نوح- داود- سلیمان- أیّوب- إسماعیل- إدریس- ذو الکفل- ذو النون (یونس)- زکریا- یحیی علیهم السلام.

۲- إضافة إلی ما مرّ، فإنّ خاصیة السور المکیة التی تتحدث عن العقائد الدینیة، وبالأخصّ المبدأ والمعاد، منعکسة تماماً فی هذه السورة.

۳- وتحدّث جانب آخر من هذه السورة عن إنتصار الحق علی الباطل، والتوحید علی الشرک، وجنود الحق علی جنود إبلیس.

والذی یلفت النظر هنا أنّ هذه السورة تبتدیء بتهدید الناس الغافلین الجاهلین بالحساب الشدید، وتنتهی بتهدیدات اخری فی هذا المجال أیضاً.

فضیلة تلاوة السورة: فی تفسیر مجمع البیان عن النبی صلی الله علیه و آله قال: «من قرأ سورة الأنبیاء حاسبه اللَّه حساباً یسیراً، وصافحه وسلّم علیه کل نبی ذکر اسمه فی القرآن».

وقد قلنا مراراً: إنّ القرآن کتاب عقیدة وعمل، والقراءة مقدمة للتفکیر والتدبر، وهو مقدمة للإیمان والعمل.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۴۲

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَ هُمْ فِی غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (۱) مَا یَأْتِیهِمْ مِنْ ذِکْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ یَلْعَبُونَ (۲) لَاهِیَةً قُلُوبُهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوَی الَّذِینَ ظَلَمُوا هَلْ هذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (۳) قَالَ رَبِّی یَعْلَمُ الْقَوْلَ فِی السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۴) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْیَأْتِنَا بِآیَةٍ کَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (۵)

تبدأ هذه السورة بتحذیر قوی شدید موجّه لعموم الناس، تحذیر یهزّ الوجدان ویوقظ الغافلین، فتقول: «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِی غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ».

إنّ عمل هؤلاء یدلّ علی أنّ هذه الغفلة عمّت کل وجودهم، وإلّا فکیف یمکن للإنسان أن یؤمن بإقتراب الحساب ... الحساب الدقیق المتناهی فی الدقة، ومع کل ذلک لا یکترث بالامور ویرتکب أنواع الذنوب.

کلمة (إقترب) لها دلالة علی التأکید أکثر من (قرب) وهی إشارة إلی أنّ هذا الحساب قد أصبح قریباً جدّاً.

ثم إنّ الفرق بین «الغفلة» و «الإعراض» یمکن أن یکون من جهة أنّ هؤلاء غافلون عن إقتراب الحساب، وهذه الغفلة هی تسبّب الإعراض عن آیات اللَّه سبحانه.

إنّ المراد من إقتراب الحساب والقیامة هو أنّ ما بقی من الدنیا قلیل فی مقابل ما مضی منها، ولهذا فإنّ القیامة ستکون قریبة- قرباً نسبیّاً- خاصة وأنّه قد روی- فی تفسیر مجمع البیان- عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قال: «بعثت أنا والساعة کهاتین» وأشار إلی السبابة والوسطی اللتین تقع إحداهما إلی جنب الاخری.

ثم تبیّن الآیة التالیة علامة من علامات إعراض هؤلاء بهذه الصورة: «مَا یَأْتِیهِم مّن ذِکْرٍ مّن رَّبّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ یَلْعَبُونَ».

کلمة «ذکر» فی الآیة إشارة إلی کل کلام متبه یوقظ الغافلین، والتعبیر ب (محدث) إشارة إلی أنّ الکتب السماویة کانت تنزل الواحد تلو الآخر، وتحتوی کل سورة من سور القرآن، وکل آیة من آیاته محتوی جدیداً ینفذ إلی قلوب الغافلین بطرق مختلفة، لکن أیّ فائدة مع مَن یتّخذ کل ذلک هزواً؟

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۴۳

ثم تقول من أجل زیادة التأکید: «لَاهِیَةً قُلُوبُهُمْ» لأنّهم فی الظاهر یتخذون کل المسائل الجدیة لهواً ولعباً. ومن الطبیعی أنّ مثل هؤلاء الأشخاص سوف لا یجدون طریق السعادة، ولا یوفّقون إلیه.

ثم تشیر إلی جانب من الخطط الشیطانیة فتقول: «وَأَسَرُّوا النَّجْوَی الَّذِینَ ظَلَمُوا هَلْ هذَا إِلَّا بَشَرٌ مّثْلُکُمْ». وإذا لم یکن سوی بشر

إعتيادى، فلابد أن تكون أعماله الخارقة ونفوذ كلامه سحراً، ولا يمكن أن يكون شيئاً آخر: «أَفَتَأْتُونَ السّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ».

إنّ هؤلاء قد أكّدوا على مسألتين فى أقوالهم: إحداهما: كون النبى صلى الله عليه و آله بشراً، والاخرى: تهمة السحر، وستأتى الإتهامات الاخرى فى الآيات التالية أيضاً، ويتصدّى القرآن الكريم لجوابها.

إلّا أنّ القرآن يجيبهم بصورة عامة على لسان النبى صلى الله عليه و آله فيقول: «قَالَ رَبّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» فلا تتصوروا أنّ نجواكم ومؤامراتكم المخفية تخفى عليه «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» فهو يعلم كل شىء، ومطلع على كل شىء، فلا يسمع كلامكم وحسب، بل هو مطلع حتى على الأفكار التى تمرّ فى أذهانكم، والقرارات التى فى صدوركم.

بعد ذكر نوعين من تذرّعات المخالفين، يتطرق القرآن إلى ذكر أربعة أنواع اخرى منها، فيقول: «بَلْ قَالُوا أَضْغثُ أَحْلمٍ» «١» وهم يعتقدون أنّها حقيقة.

وقد يغيّرون كلامهم هذا أحياناً فيقولون: «بَلِ افْتَرَيهُ» ونسبه إلى اللّه.

ويقولون أحياناً: «بَلْ هُوَ شَاعِرٌ»، وهذه الآيات مجموعة من خيالاته الشعرية.

وفى المرحلة الرابعة يقولون: إنّا نتجاوز عن كل ذلك فإذا كان مرسلًا من اللّه حقّاً «فَلْيَأْتِنَا بَايَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ».

إنّ التحقيق فى هذه الإدّعاءات المتضادة المتناقضة فى حق النبى صلى الله عليه و آله سيوضّح أنّها بنفسها دليل على أنّهم لم يكونوا طلّاب حق، بل كان هدفهم خلق الأعذار، وإخراج خصمهم من الحلبة بأيّة قيمة وثمن، وبأىّ صورة كانت.

---

(١) «أضغاث»: جمع ضِغْث، وهو حزمة الحطب أو الأعشاب اليابسة وما شاكل ذلك؛ و «الأحلام»: جمع حُلم وهو المنام والرؤية، ولمّا كان جمع حزمة حطب يحتاج أن يجمعوا عدّة أشياء متفرّقة إلى بعضها، فإنّ هذا التعبير اطلق على المنامات المضطربة المتفرّقة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۴۴

مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ (۶) وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (۷) وَ مَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ مَا كَانُوا خَالِدِينَ (۸) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَ مَنْ نَشَاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (۹) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (۱۰)

كل الأنبياء كانوا بشراً: قلنا: إنّ ستّة إشكالات وإيرادات قد اعيد ذكرها فى الآيات السابقة، وهذه الآيات التى نبحثها تجيب عنها، تارةً بصورة عامّة جامعة، واخرى تجيب عن بعضها بالخصوص. أشارت الآية الاولى إلى المعجزات المقترحة لُاولئك، ونقصد منها: المعجزات المقترحة حسب أهوائهم تذرّعاً، فتقول: إنّ جميع المدن والقرى التى أهلكناها سابقاً كانت قد طلبت مثل هذه المعاجز، ولكن لمّا استجيب طلبهم كذّبوا بها، فهل يؤمن هؤلاء؟: «مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ». وهى تنذرهم بصورة ضمنية بأنّ الآيات لو تحقّقت على ما إقترحتم ثم لم تؤمنوا، فإنّ فناءكم حتمى!

ثم تطرّقت الآية التالية إلى جواب الإشكال الأوّل- خاصةً- حول كون النبى صلى الله عليه و آله بشراً، فتقول: إنّك لست الوحيد فى كونك نبيّاً، وفى نفس الوقت أنت بشر «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِى إِلَيْهِمْ» فإنّ هذه حقيقة تاريخية يعرفها الجميع «فَسَلُوا أَهْلَ الذّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

لا شكّ أنّ «أَهْلَ الذّكْرِ» تشمل من الناحية اللغوية كل العلماء والمطلعين، والآية أعلاه تبيّن قانوناً عقلائياً عاماً فى مسألة (رجوع الجاهل إلى العالم) فإنّ مورد ومصداق الآية وإن كان علماء أهل الكتاب، إلّاأنّ هذا لا يمنع من عمومية القانون، ولهذه العلة إستدلّ علماء وفقهاء الإسلام بهذه الآية فى مسألة «جواز تقليد المجتهدين المسلمين».

ثم تعطى الآية التالية توضيحاً أكثر حول كون الأنبياء بشراً، فتقول: «وَمَا جَعَلْنهُمْ جَسَدًا لَّايَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خلِدِينَ».

لا شك فى أنّه يجب أن يكون قائد البشر ومرشدهم من جنسهم، بنفس تلك الغرائز والعواطف والأحاسيس والحاجات والعلاقات

حتى يحسّ بآلامهم وعذابهم، ولينتخب

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢۴۶

أفضل طرق العلاج باستلهامه من معلوماته ليكون قدوة واسوة لكل البشر، ويقيم الحجة على الجميع.

ثم تحـذّر الآية وتهدّد المنكرين المتعصبين العنودين، فتقول: إنّا كنّا قد وعدنا رسـلنا بأن ننقذهم من قبضة الأعداء، ونبطل كيد اولئك الأشرار «ثُمَّ صَدَقْنَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ».

أجل، فكما أنّ سـنّتنا كانت إختيار قادة البشر من بين أفراد البشـر، كذلك كانت سـنّتنا أن نحميهم من مكائد المخالفين، وإذا لم تؤثّر المواعظ والنصائح المتلاحقة أثرها فى المخالفين، فإنّنا سنطهّر الأرض من وجودهم القذر.

أمّا آخر آية من الآيات مورد البحث، فتجيب- مرّة اخرى- فى جملة قصيرة عميقة المعنى عن أكثر إشكالات المشركين، فتقول: «لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ». فإنّ كل من يتـدبّر آيات هـذا الكتاب الـذى هو أساس التذكّر وحياة القلب، وحركة الفكر، وطهـارة المجتمع، سيعلم جيـداً أنّه معجزة واضـحة وخالـدة، ومع وجود هـذه المعجزة البينـة التى تظهر فيهـا آثـار الإعجـاز من جهات مختلفـة ... من جهـة الجاذبيـة الخارقـة، ومن جهـة المحتوى، الأحكـام والقوانين، العقائـد والمعـارف، و ... فهل لا زلتم بإنتظار معجزة اخرى؟

إنّ كون القرآن موقظاً ومنبّهاً لا يعنى إجباره الناس على هذا الوعى، بل إنّ الوعى مشـروط بأن يريد الإنسان ويصـمّم، وأن يفتح نوافذ قلبه أمام القرآن.

وَ كَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَ أَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١۴) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ (١۵)

كيف وقع الظالمون فى قبضـة العذاب: تبيّن هذه الآيات مصـير المشـركين والكافرين مع مقارنته بمصـير الأقوام الماضـين، وذلك بعد البحث الذى مرّ حول هؤلاء. فتقول الآية الاولى:

«وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢۴٧

«القصم»: يعنى الكسـر المقترن بالشدة، فإنّها توحى بأنّ اللّه سبحانه قد أعدّ أشدّ العقاب والإنتقام للأقوام الظالمين الجائرين. عند ذلك توضّـح الآيـة حال هؤلاء عندما تتّسع دائرة العذاب لتشـمل ديارهم العامرة، وعجزهـم أمام العقاب الإلهى، فتقول: «فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ» «١».

إلّا أنّه يقال لهؤلاء من باب التوبيخ والتقريع: «لَاتَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسَلُونَ».

إنّ هـذه العبـارة قـد تكون إشـارة إلى أنّ هؤلاء حينما كانوا غارقين فى تلك النعمـة الوفيرة، كان السائلون وطالبو الحاجات يترددون دائماً إلى أبوابهم، يأتون والأمل يقـدمهم، ويرجعون بالخيبـة والحرمان، فالآيـة تقول لهم: إرجعوا وأعيدوا ذلك المشـهد اللعين، وهذا فى الحقيقة نوع من الاستهزاء والملامة.

إنّ هؤلاء يعون فى هذا الوقت حقيقة الأمر، ويرون ما كانوا يسـخرون منه من قبل قد تجلّى أمامهم بصورة جديّة تماماً، فتعلو صرختهم: «قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ».

إلّا أنّ هذا الوعى الاضـطرارى للإنسان عندما يواجه مشاهد العذاب لا قيمة له، ولا يؤثّر فى تغيير مصـير هؤلاء، ولذلك فإنّ القرآن فى آخر آية من الآيات محل البحث يضيف:

«فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَيهُمْ حَتَّى جَعَلْنَهُمْ حَصِيدًا» فيلقونهم على الأرض كالزرع المحصود، وتبـدّل مدينتهم التى غمرتها الحياة والحركة

والعمران إلى قبور مهدّمة مظلمة، فيصبحوا «خمِدِينَ» «۲».

وَ مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (۱۶) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (۱۷) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَ لَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (۱۸)

خلق السماء والأرض ليس لهواً: لمّا كانت الآيات السابقة قد عكست هذه الحقيقة وهى: إنّ الظالمين الذين لا إيمان لهم لا يعتقدون بوجود هدف وغاية من خلقهم إلّاالأكل

---

(۱) «الركض»: يأتى بمعنى ركض الإنسان بنفسه، أو بمعنى إركاض المركب والدابة، ويأتى أحياناً بمعنى ضرب الرجل على الأرض؛ مثل «أُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ»- سورة ص/ ۴۲.

(۲) «خامد»: من مادّة الخمود، بمعنى إنطفاء النّار، ثُمّ اطلقت على كل شيء يفقد حركته وفاعليّته ونشاطه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۴۸

والشرب والملذّات، ويظنّون أنّ العالم بلا هدف، القرآن الكريم يقول فى الآيات التى نبحثها من أجل إبطال هذا النوع من التفكير، وإثبات وجود هدف عال وسام من وراء خلق كل العالم، وخاصة البشر: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لعِبِينَ».

إنّ هذه الأرض الواسعة، وهذه السماء المترامية الأطراف، وكل هذه الموجودات المتنوعة البديعة التى توجد فى ساحتها تبيّن أنّ هدفاً مهماً فى خلقها ... نعم، إنّ الهدف هو بيان قدرة الخالق الجليل، وإبراز جانب من عظمته من جهة، ومن جهة اخرى ليكون دليلًا على المعاد، وإلّا فإنّ كل هذه الضجّة والغوغاء إن كانت لبضعة أيّام فلا معنى لها.

ثم تقول الآية التالية: الآن وقد ثبت أنّ العالم له هدف فإنّه لا ريب فى أنّ الهدف من هذا الخلق لم يكن أن يلهو اللَّه سبحانه وتعالى عن ذلك، فإنّ هذا اللهو غير معقول، ف «لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فعِلِينَ». «اللعب»: يعنى العمل غير الهادف، و «اللهو»:

إشارة إلى الأهداف غير المعقولة والملاهى.

هذه الآية تبيّن حقيقتين:

الاولى: أنّه تشير إلى أنّ من المحال أن يكون هدف اللَّه هو اللهو.

والاخرى: إنّه على فرض أنّ الهدف هو اللهو، فيجب أن يكون لهواً مناسباً لذاته، كأن يكون من عالم المجردات وأمثال ذلك، لا من عالم المادة المحدود.

ثم تقول بلهجة قاطعة من أجل إبطال أوهام الجاهلين الذين يظنّون عدم هدفية الدنيا، بل هى للهو واللعب فقط: إنّ هذا العالم مجموعة من الحق والواقع، ولم يقم أساسه على الباطل «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقّ عَلَى الْبطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ». وتقول فى النهاية: «وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ» وتتحدثون عن عدم هدفية الخلق.

أى إنّنا نجعل الأدلة العقلية والإستدلالات الواضحة والمعجزات البيّنة إلى جانب ظنون وأوهام اللاهدفيين، لتتبخّر وتتلاشى هذه الأوهام فى نظر العلماء وأصحاب الفكر والرأى.

«نقذف»: من مادة «قذف» بمعنى الإلقاء، وخاصةً الإلقاء من طريق بعيد، ولما كان للقذف من بعيد سرعة وقوة أكثر، فإنّ هذا التعبير يبيّن قدرة إنتصار الحق على الباطل.

«يدمغه»: (على قول الراغب) كسر «الجمجمة والدماغ»، وتعتبر أكثر نقطة فى بدن الإنسان حساسية، وهو تعبير بليغ عن غلبة جند الحق غلبة واضحة قاطعة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۴۹

وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ لَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)

كان الكلام فى الآيات السابقة عن أنّ عالم الوجود ليس عبثياً لا هدف من ورائه، فلا مزاح ولا عبث، ولا لهو ولا لعب، بل له هدف تكاملى دقيق للبشر.

ولما كان من الممكن أن يوجد هذا التوهّم، وهو: ما حاجة اللّه إلى إيماننا وعبادتنا؟ فإنّ الآيات التى نبحثها تجيب أوّلًا عن هذا التوهّم، وتقول: «وَلَهُ مَن فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ (أى: الملائكة) لَايَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ» «١». ومع هذا الحال فأىّ حاجة لطاعتكم وعبادتكم؟ فإذا كنتم قد امرتم بالإيمان والعمل الصالح والعبودية فإنّ كل ذلك سيعود بالنفع عليكم.

وبعد أن نفت فى الآيات السابقة عبثية ولا هدفية عالم الوجود، وأصبح من المسلم أنّ لهذا العالم هدفاً مقدّساً، فإنّ هذه الآيات تتطرق إلى بحث مسألة وحدة المعبود ومدبّر هذا العالم، فتقول: «أَمِ اتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ» «٢».

وهذه الجملة إشارة إلى أنّ المعبود يجب أن يكون خالقاً، وخاصّة خلق الحياة، لأنّها أوضح مظاهر الخلق ومصاديقه.

التعبير ب «ءَالِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ» إشارة إلى الأصنام والمعبودات التى كانوا يصنعونها من الحجارة والخشب، وكانوا يظنّونها حاكمة على السماوات.

---

(١) «يستحسرون»: فى الأصل من مادّة حسر، وفى الأصل تعنى رفع النقاب والستار عن الشىء المغطّى، ثماستعملت بمعنى التعب والضعف، فكأنّ كل قوى الإنسان تصرف فى مثل هذه الحالة، ولا يبقى منها شىء مخفى فى بدنه.

(٢) «ينشرون»: من مادّة «نشر»، أى فكّ الشىء المعقّد الملفوف، وهو كناية عن الخلق وإنتشار المخلوقات فى أرجاء الأرض والسماء.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۵۰

مختصر الامثل ج۳ ۲۹۹

وتبيّن الآية التالية أحد الأدلة الواضحة على نفى آلهة وأرباب المشركين، فتقول: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحنَ اللَّهِ رَبّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ».

هذه الإدعاءات غير الصحيحة وهذه الأرباب المصنوعة والآلهة المظنونة ليست إلّا أوهاماً، وساحة كبرياء ذاته المقدسة لا تتلوّث بهذه النسب المغلوطة.

إنّ الدليل الوارد فى الآية آنفة الذكر الذى يتحرك لإثبات التوحيد ونفى الآلهة، فى الوقت الذى هو بسيط وواضح، فإنّه من البراهين الفلسفية الدقيقة فى هذا الباب، ويذكره العلماء تحت عنوان (برهان التمانع). ويمكن إيضاح خلاصة هذا البرهان بما يلى:

إنّنا نرى نظاماً واحداً حاكماً فى هذا العالم، إنّ إنسجام القوانين وأنظمة الخلقة هذه يحكى أنّها تنبع من عين واحدة، لأنّ البدايات إن كانت متعددة، والإرادات مختلفة، لم يكن يوجد هذا الإنسجام مطلقاً. لأنّ لكل واحدة قضاء، وكانت الاخرى تمحو أثر الاولى، وسيؤول العالم إلى الفساد عندئذ.

وبعد أن ثبت بالإستدلال الذى ورد فى الآية توحيد مدبّر ومدير هذا العالم، فتقول الآية التالية: إنّه قد نظّم العالم بحكمة لا مجال فيها للإشكال والإنتقاص ولا أحد يعترض عليه فى خلقه: «لَايُسَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسَلُونَ».

إنّ لدينا نوعين من الأسئلة:

الأوّل: السؤال التوضيحى، وهو أن يكون الإنسان يريـد أن يعلم النقطة الأصـلية والهدف الحقيقى من المسائل، ومثل هذا السؤال جائز حتى حول أفعال اللَّه.

أمّا النوع الثانى: فهو السؤال الإعتراضـى، والـذى يعنى أنّ العمل الـذى تمّ كان خطأً. من المسـلم أنّ هـذا النوع من السؤال لا معنى له حول أفعال اللَّه الحكيم، إلّاأنّ مجال هذا السؤال حول أفعال الآخرين واسع.

وتشتمل الآية التالية على دليلين آخرين فى مجال نفى الشرك، فمضافاً إلى الدليل السابق يصبح مجموعها ثلاثة أدلة.

تقول الآيـة أوّلًا: «أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ». وهو إشارة إلى أنّكم إذا صـرفتم النظر عن الدليل السابق القائم على أنّ نظام عالم الوجود دليل على التوحيد، فإنّه لا يوجد أىّ دليل- على الأقل- على إثبات الشـرك والوهية هذه الآلهة، فكيف يتقبّل إنسان عاقل مطلباً لا دليل عليه؟

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٥١

ثم تشير إلى الـدليل الأخير فتقول: «هذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى» وهذا هو الدليل الذى ذكره علماء العقائد تحت عنوان: (إجماع وإتّفاق الأنبياء على التوحيد).

ولما كانت كثرة المشـركين (وخاصـةً فى ظروف حياة المسـلمين فى مكة، والتى نزلت فيها هذه السورة) مانعاً أحياناً من قبول التوحيد من قبل بعض الأفراد، فهى تضيف: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ».

لقـد كانت مخالفـة الأكثريـة الجاهلة فى كثير من المجتمعات دليلًا وحجة لإعراض الغافلين الجاهلين دائماً، وقد إنتقد القرآن الإسـتناد إلى هذه الأكثرية بشدة فى كثير من الآيات، سواء التى نزلت فى مكة أو المدينة.

ولما كان من المحتمل أن يقول بعض الجهلـة الغافلين أنّ لدينا أنبياء كعيسـى مثلًا دعوا إلى آلهة متعددة، فإنّ القرآن الكريم يقول فى آخر آية من الآيات محل البحث بصراحة تامة:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَاإِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ». وبهذا يثبت أنّه لا عيسـى ولا غيره قد دعا إلى الشـرك، ومثل هذه النسبة إليه تهمة وإفتراء.

وَ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢۶) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (٢٩)

لمّا كان الكلام فى آخر آية عن الأنبياء، ونفى كل أنواع الشـرك، ونفى كون المسـيح عليه السـلام ولداً، فإنّ كل الآيات محلّ البحث تتحدّث حول نفى كون الملائكة أولاداً.

وتوضيح ذلك أنّ كثيراً من مشركى العرب كانوا يعتقدون أنّ الملائكة بنات اللَّه سبحانه، ولهذا السبب كانوا يعبدونها أحياناً، والقرآن الكريم إنتقـد هـذه العقيـدة الخرافيـة التى لا أساس لها، وبيّن بطلانها بالأدلّة المختلفة. يقول أوّلًا: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَدًا». فإن كان مرادهم الولد الحقيقى، فإنّه يلزم من هذا الجسـمية، وإن كان المراد التبنّى- والذى كان إعتيادياً ومتداولًا بين العرب- فإنّ ذلك أيضـاً دليل على الضعف والإحتياج، إلّاأنّ الوجود الأزلى الأبدى وغير الجسمانى، وغير المحتاج من جميع الجهات، لا معنى لوجود الولد له، ولذلك فإنّ القرآن يقول مباشرةً: «سُبْحَنَهُ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٥٢

ثم تبيّن أوصاف الملائكة فى ستّة أقسام تشكّل بمجموعها دليلًا واضحاً على نفى كونهم أولاداً:

١- «بَلْ عِبَادٌ».

٢- «مُّكْرَمُونَ».

فليس هؤلاء عباداً هاربين خضعوا للخدمة تحت ضغط المولى، ولذلك فإنّ اللّه سبحانه قد أحبّهم، وأفاض عليهم من مواهبه نتيجة لإخلاصهم فى العبودية.

۳- إنّ هؤلاء على درجة من الأدب والخضوع والطاعة للّه‌بحيث «لَايَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ».

۴- وكذلك من ناحية العمل أيضاً فهم مطيعون «وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ».

فهل هذه صفات الأولاد، أم صفات العبيد؟

ثم أشارت إلى إحاطة علم اللّه بهؤلاء فتقول: إنّ اللّه تعالى يعلم أعمالهم الحاضرة والمستقبلية، وكذلك أعمالهم السالفة، وأيضاً يعلم ما فى دنياهم وآخرتهم، وقبل وجودهم وبعده: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ» ومن المسلّم أنّ الملائكة مطلعون على هذا الموضوع، وهو أنّ للّه‌إحاطة علمية بهم، وهذا العرفان هو السبب فى أنّهم لا يسبقونه بالقول، ولا يعصون أمره، ولهذا فإنّ هذه الجملة يمكن أن تكون بمثابة تعليل للآية السابقة.

۵- ولا شك أنّ هؤلاء الذين هم عباد اللّه المكرمون المحترمون يشفعون للمحتاجين، لكن ينبغى الإلتفات إلى أنّ هؤلاء «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى .

ثم إنّ هذه الجملة تجيب ضمناً اولئك الذين يقولون: إنّنا نعبد الملائكة لتشفع لنا عند اللّه، فيقول القرآن لهم: إنّ هؤلاء لا يقدرون على فعل شيء من تلقاء أنفسهم، وكل ما تريدونه يجب أن تطلبوه من اللّه مباشرةً، وحتى إذن شفاعة الشافعين.

۶- ونتيجة لهذه المعرفة والوعى «وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ».

«الخشية»: تعنى الخوف المقترن بالتعظيم والإحترام؛ و «مشفق»: من مادة الإشفاق، بمعنى التوجه الممتزج بالخوف، لأنّها فى الأصل مأخوذة من الشفق، وهو الضياء الممتزج بالظلمة. فبناءً على هذا، فإنّ خوف الملائكة ليس كخوف الإنسان من حادثة مرعبة مخيفة، وكذلك إشفاقهم فإنّه لا يشبه خوف الإنسان من موجود خطر، بل إنّ خوفهم وإشفاقهم ممزوجان بالإحترام، والعناية والتوجه، والمعرفة والإحساس بالمسؤولية.

من الواضح أنّ الملائكة مع هذه الصفات البارزة والممتازة، ومقام العبودية الخالصة لا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۵۳

يدّعون الالوهية مطلقاً، أمّا إذا فرضنا ذلك «وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلهٌ مِّن دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ». إنّ إدّعاء الالوهية فى الحقيقة مصداق واضح على ظلم النفس والمجتمع، ويندرج فى القانون العام «كَذلِكَ نَجْزِى الظلِمِينَ».

أ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أ فَلَا يُؤْمِنُونَ (۳۰) وَ جَعَلْنَا فِى الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۳۱) وَ جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَ هُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (۳۲) وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (۳۳)

علامات اخرى للّه‌فى عالم الوجود: تعقيباً على البحوث السابقة حول عقائد المشركين الخرافية، والأدلة التى ذكرت على التوحيد، فإنّ فى هذه الآيات سلسلة من براهين اللّه فى عالم الوجود، وتدبيره المنظم، وتأكيداً على هذه البحوث تقول أوّلًا: «أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَىّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ».

إنّ المراد من رتق السماء هو أنّها لم تكن تمطر فى البداية، والمراد من رتق الأرض أنّها لم تكن تنبت النبات فى ذلك الزمان، إلّاأنّ اللّه سبحانه فتق الإثنين، فأنزل من السماء المطر، وأخرج من الأرض أنواع النباتات.

وأمّا فيما يتعلق بإيجاد كل الكائنات الحية من الماء، فهناك تفسيران مشهوران:

أحدهما: إنّ حياة كل الكائنات الحية- سواء كانت النباتات أم الحيوانات- ترتبط بالماء، هذا الماء الذى كان مبدؤه المطر الذى نزل من السماء.

والآخر: إنّ الماء هنا إشارة إلى النطفة التى تتولّد منها الكائنات الحية عادةً.

وما يلفت النظر أنّ علماء عصرنا الحديث يعتقدون أنّ أوّل إنبثاقة للحياة وجدت فى أعماق البحار، ولذلك يرون أنّ بداية الحياة من الماء، وإذا كان القرآن يعتبر خلق الإنسان من التراب، فيجب أن لا ننسى أنّ المراد من التراب هو الطين المركّب من الماء والتراب.

وأشارت الآية التالية إلى جانب آخر من آيات التوحيد ونعم اللّه الكبيرة، فقالت:

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٥۴

«وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ» «١».

إنّ الجبال كالدرع الذى يحمى الأرض، وهذا هو الذى يمنع- إلى حد كبير- من الزلازل الأرضية الشديدة التى تحدث نتيجة ضغط الغازات الداخلية، إضافةً إلى أنّ وضع الجبال هذا يقلّل من حركات القشرة الأرضيّة أمام ظاهرة المدّ والجزر الناشئة بواسطة القمر إلى الحدّ الأدنى.

ومن جهة اخرى فلولا الجبال، فإنّ سطح الأرض سيكون معرّضاً للرياح القوية دائماً، وسوف لا تستقرّ على حال أبداً، كما هى حال الصحارى المقفرة المحرقة.

ثم أشارت الآية إلى نعمة اخرى، وهى أيضاً من آيات عظمة اللّه، فقالت: «وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ».

ولو لم تكن هذه الوديان والفجاج، فإنّ سلاسل الجبال العظيمة الموجودة فى المناطق المختلفة من الأرض كانت ستنفصل بعضها عن بعض بحيث ينفصل إرتباطها تماماً، وهذا يدلّ انّ هذه الظواهر الكونية خلقت كلها وفق حساب دقيق.

ولما كان إستقرار الأرض لا يكفى لوحده لإستقرار حياة الإنسان، بل يجب أن يكون آمناً مما فوقه، فإنّ الآية التالية تضيف: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَاتِهَا مُعْرِضُونَ».

المراد من السماء هنا هو الجو الذى يحيط بالأرض دائماً، وتبلغ ضخامته مئات الكيلومترات كما توصّل إليه العلماء.

وهذه الطبقة رقيقة ظاهراً، وتتكوّن من الهواء والغازات، وهى محكمة ومنيعة إلى الحد الذى لا ينفذ جسم من خارجها إلى الأرض إلّاويفنى ويتحطّم، فهى تحفظ الكرة الأرضية من سقوط الشهب والنيازك «ليل نهار» التى تعتبر أشد خطراً حتى من القذائف والصواريخ الحربية.

إضافةً إلى أنّ هذا الغلاف الجوى يقوم بتصفية أشعة الشمس التى تحتوى على أشعة قاتلة وتمنع من نفوذ تلك الأشعة الكونية القاتلة.

وتطرقت الآية الأخيرة إلى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، فقالت: «وَهُوَ الَّذِى

---

(١) «رواسى»: جمع راسية، أى الجبال الثابتة، ولمّا كانت هذه الجبال تتّصل جذورها، فيمكن أن تكون إشارة إلى هذا الإرتباط؛ و «تميد»: من الميد، وهو الهزّة والحركة غير الموزونة للأشياء الكبيرة.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٥۵

خَلَقَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ».

إنّ المراد من حركة الشمس فى الآية إمّا الدوران حول نفسها، أو حركتها ضمن المنظومة الشمسية.

وَ مَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣۴) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣۵)

الموت يتربّص بالجميع: قرأنا فى الآيات السابقة أنّ المشركين قد تشبّثوا بمسألة كون النبى صلى الله عليه و آله بشراً من أجل التشكيك بنبوته. إنّ الآيات محل البحث أشارت إلى بعض إشكالات هؤلاء، فهم يشيعون تارةً أنّ إنتفاضة النبى (وفى نظرهم شاعر) لا دوام لها، وسينتهى بموته كل شيء، كما جاء فى الآية (٣٠) من سورة الطور: «أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ».

وكانوا يظنّون تارةً اخرى أنّ هـذا الرجل لمّا كان يعتقد أنّه خاتم النبيين، فيجب أن لا يموت أبداً ليحفظ دينه، وبناء على هذا فإنّ موته فى المستقبل سيكون دليلًا على بطلان إدّعائه. فيجيبهم القرآن فى أوّل آية فيقول: «وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ».

إنّ قانون الخلقة هذا لا يقبل التغيير، أى انّه لا يكتب لأحد الخلود، وإذا كان هؤلاء يفرحون بموتك: «أَفَإِين مّتَّ فَهُمُ الْخلِدُونَ».

إنّ بقاء الشريعة والدين لا يحتاج إلى بقاء الرسول، فمن الممكن أن يستمر خلفاؤه فى إقامة دينه والسير على خطاه.

ثم يذكر قانون الموت العام الذى يصيب كل النفوس بدون استثناء فيقول: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ».

إنّ لفظـة (النفس) قـد اسـتعملت فى القرآن بمعان مختلفـة، فأوّل معنى للنفس هو الـذات، وهذا المعنى واسع يطلق حتى على ذات اللّه المقدسة، كما جاء فى الآية (١٢) من سورة الأنعام: «كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ».

ثم استعملت هـذه الكلمـة فى الإنسان، أى مجموع جسـمه وروحه، كما فى الآية (٣٢) من سورة المائـدة: «مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا».

واستعملت أحياناً فى خصوص روح الإنسان كما فى الآية (٩٣) من سورة الأنعام:

«أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٥۶

والمراد من النفس فى الآيات التى نبحثها هو المعنى الثانى.

وبعد ذكر قانون الموت الكلّى يطرح هذا السؤال، وهو: ما هو الهدف من هذه الحياة الزائلة؟ وأىّ فائدة منها؟

فيقول القرآن حول هذا الكلام: «وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ». أى: إنّ مكانكم الأصلى ليس هو هذه الدنيا، بل هو مكان آخر، وإنّما تأتون هنا لتؤدّوا الإختبار والامتحان، وبعد إكتسابكم التكامل اللازم سترجعون إلى مكانكم الأصلى وهو الدار الآخرة.

وَ إِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَ هـذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣۶) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَ يَقُولُونَ مَتَى هـذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَ لَا هُمْ يُنْظَرُونَ (۴٠)

نواجه فى هذه الآيات مرّة اخرى، بحوثاً اخرى حول موقف المشركين من رسول اللّه صلى الله عليه و آله، حيث يتّضح نمط تفكيرهم المنحرف فى المسائل الاصوليـة، فتقـول أوّلًا: «وَإِذَا رَءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا». فهؤلاء لا عمل لهم إلّاالسخرية والإستهزاء، ويشيرون إليك بعدم إكتراث ويقولون: «أَهذَا الَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كفِرُونَ».

ممّا يثير العجب هو إنّه لو إزدرى أحدٌ هـذه الأصـنام الخشبيـة والحجريـة (وما هو بمزدرٍ لها، بل يُفصـح عن حقيقتها) فيقول: إنّ هـذه موجودات لا روح فيها ولا شعور ولا قيمـة لها، لتعجّبوا منه، أمّا إذا جحد أحدهم ربّه الرحمن الرحيم الذى عمّت آثار رحمته وعظمته الأرض والسماء وما من شىء إلّاوفيه دليل على عظمته ورحمته، لما أثار إعجابهم.

ثم تشير إلى أمر آخر من الامور القبيحة لدى هذا الإنسان المتحلّل، فتقول: «خُلِقَ الْإِنسنُ مِنْ عَجَلٍ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٥٧

إنّ المراد من الإنسان هنا نوع الإنسان؛ والمراد من «عجل» هى العجلة والتعجيل.

إنّ تعبير «خُلِقَ الْإِنسنُ مِنْ عَجَلٍ» نوع من التأكيـد، أى إنّ الإنسان عجول إلى درجـة كأنّه خلق من العجلـة، وتشكّلت أنسـجته ووجوده منها! وفى الواقع، فإنّ كثيراً من البشر العاديين هم على هذه الشاكلة، فهم عجولون فى الخير وفى الشر.

وتضيف الآية فى النهاية: «سَأُرِيكُمْ ءَايتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ».

التعبير ب (آيـاتى) هنـا يمكن أن يكون إشـارة إلى آيـات العـذاب وعلامـاته والبلاء الـذى كـان يهـدّد به النبى صلى الله عليه و آله مخـالفيه، ولكن هؤلاء الحمقى كانوا يقولون مراراً: فأين تلك الإبتلاءات والمصائب التى تخوّفنا بها؟ فالقرآن الكريم يقول: لا تعجلوا

فلا يمضى زمن طويل حتى تحيط بكم.

ثم يشير القرآن إلى إحدى مطالب اولئك المستعجلين فيقول: «وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صدِقِينَ». فهؤلاء غافلون عن أنّ قيام القيامة يعنى تعاستهم وشقاءهم المرير.

وتجيبهم الآيـة التاليـة فتقول: «لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَايَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ». أى إنّ هـذه الأصنام التى يظنّون أنّها ستكون شفيعة لهم وناصرة، لا تقدر على أىّ شىء.

ممّا يلفت النظر أنّ العقوبة الإلهية لا يعيّن وقتها دائماً «بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا» وحتى إذا استمهلوا، وطلبوا التأخير على خلاف ما كانوا يستعجلون به إلى الآن، فلا يجابون «وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ».

وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۴۱) قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (۴۲) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ لَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (۴۳) بَلْ مَتَّعْنَا هؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَ فَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَ فَهُمُ الْغَالِبُونَ (۴۴) قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَ لَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (۴۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۵۸

لاحظنا فى الآيات السابقة أنّ المشركين والكفار كانوا يستهزئون برسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فتقول الآية الاولى تسلية للنبى: لست الوحيد الذى يستهزأ به «وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ». ولكن فى النهاية نزل بهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به «فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

وتقول الآية التالية: قل لهم إنّ أحداً لا يدافع عنكم أمام عذاب اللَّه فى القيامة، بل وفى هذه الدنيا: «قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمنِ». أى من عذابه، فلو أنّ اللَّه سبحانه لم يجعل السماء- أى الجو المحيط بالأرض سقفاً محفوظاً كما مرّ فى الآيات السابقة- لكان هذا وحده كافياً أن تتهاوى النيازك وتُمطركم الأجرام السماوية بأحجارها ليل نهار.

مما يستحق الإنتباه أنّ كلمة «الرحمن» قد استعملت مكان (اللَّه) فى هذه الآية، أى انظروا إلى أنفسكم كم إقترفتم من الذنوب حتى أغضبتم اللَّه الذى هو مصدر الرحمة العامة؟!

ثم تضيف: «بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ» فلا هم يصغون إلى مواعظ الأنبياء ونصحهم، ولا تهزّ قلوبهم نعم اللَّه وذكره، ولا يستعملون عقولهم لحظة فى هذا السبيل.

ثم يسأل القرآن الكريم: أىّ شىء يعتمد عليه هؤلاء الكافرين الظالمين والمجرمين فى مقابل العقوبات الإلهية؟ «أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَايَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ» «١». فهذه الأصنام لا تستطيع أن تنقذ نفسها من العذاب، ولا تكون مصحوبة بتأييدنا ورحمتنا.

ثم أشارت الآية التالية إلى أحد علل تمرّد وعصيان الكافرين المهمة، فتقول: «بَلْ مَتَّعْنَا هؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ». إلّاأنّ هذا العمر الطويل والنعم الوفيرة بدل أن تحرّك فيهم حس الشكر والحمد، ويطأطئوا رؤوسهم لعبودية اللَّه، فإنّها أصبحت سبب غرورهم وطغيانهم.

ولكن ألا يرى هؤلاء أنّ هذا العالم ونعمه زائلة؟ «أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا». فإنّ الأقوام والقبائل تأتى الواحدة تلو الاخرى وتذهب، وحتى العلماء والعظماء

(١) «يصحبون»: من باب الإفعال، وفى الأصل يعنى أن يجعلوا شيئاً تحت تصرّفهم بعنوان المساعدة والحماية، وهو هنا يعنى أنّ هذه الأصنام لا تملك الدفاع ذاتياً، ولا وضعت تحت تصرفها مثل هذه القوّة من قبل اللَّه تعالى، ونحن نعلم أنّ أيّة قوّة دفاعية فى عالم

الوجود إمّا أن تنبع من ذات الشيء، أو تمنح له من قبل اللّه تعالى. أى أنّها إمّا ذاتية أو عرضية.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۵۹

الذين كان بهم قوام الأرض قد أغمضوا أعينهم وودّعوا الدنيا! ومع هذا الحال «أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ». إنّ الآية تريد أن تبيّن أنّ موت الكبار والعظماء والأقوام درس وعبرة للكافرين المغرورين الجاهلين ليعلموا أنّ محاربة اللّه تعالى لا تنتج سوى الإندحار.

ثم تقرّر الآية حقيقة أنّ وظيفة النبى صلى الله عليه و آله هى إنذار الناس عن طريق الوحى الإلهى، فتوجّه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله، فتقول: «قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ» وإذا لم يؤثّر فى قلوبكم القاسية، فلا عجب من ذلك، وليس ذلك دليلًا على نقص الوحى الإلهى، بل السبب هو «وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ».

إنّ الاذن السميعة يلزمها أن تسمع كلام اللّه، أمّا الآذان التى أصمّتها حجب الذنوب والغفلة والغرور فلا تسمع الحقّ مطلقاً.

وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (۴۶) وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ إِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَ كَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (۴۷)

بعد أن كانت الآيات السابقة تعكس حالة غرور وغفلة الأفراد الكافرين، تقول الآية الاولى أعلاه: إنّ هؤلاء المغرورين لم يذكروا اللّه يوماً فى الرخاء، ولكن: «وَلَئِنْ مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ».

«نفحة»: تعنى الشيء القليل، أو النسيم اللطيف، وبالرغم من أنّ هذه الكلمة تستعمل غالباً فى نسمات الرحمة والنعمة غالباً، إلّاأنّها تستعمل فى مورد العذاب أيضاً.

ولو انتبهوا حينئذ، فما الفائدة؟ فإنّ هذه اليقظة الاضطرارية لا تنفعهم.

أمّا الآية الأخيرة التى نبحثها فتشير إلى حساب القيامة الدقيق، وجزائها العادل، ليعلم الكافرون والظالمون أنّ العذاب على فرض أنّه لم يعمّهم فى هذه الدنيا، فإنّ عذاب الآخرة حتمى، وسيحاسبون على جميع أعمالهم بدقة، فتقول: «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيمَةِ».

ونقرأ فى الروايات الإسلامية أنّ موازين الحساب فى القيامة هم الأنبياء والأئمة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۶۰

والصالحون الذين لا توجد نقطة سوداء فى صحيفة أعمالهم.

«القسط»: يعنى أحياناً عدم التبعيض، وأحياناً يأتى بمعنى العدالة بصورة مطلقة، وما يناسب المقام هو المعنى الثانى، ولهذا تضيف مباشرةً: «فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيًا» فلا ينقص من ثواب المحسنين شيء، ولا يضاف إلى عقاب المسيئين شيء.

إلّا أنّ نفى الظلم والجور هذا لا يعنى عدم الدقة فى الحساب، بل «وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حسِبِينَ».

«الخردل»: نبات له حبّة صغيرة جدّاً يضرب المثل بها فى الصغر والحقارة.

لمحة من قصص الأنبياء: ذكرت هذه الآيات وما بعدها جوانب من حياة الأنبياء المشفوعة بامور تربوية بالغة الأثر، وتوضّح البحوث السابقة حول نبوة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله ومواجهته المخالفين بصورة أجلى مع ملاحظة الاصول المشتركة الحاكمة عليها.

تقول الآية الاولى: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى وَهرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ».

«الفرقان»: يعنى فى الأصل الشيء الذى يميّز الحق عن الباطل، وهو وسيلة لمعرفة الإثنين. إنّ من الممكن أن يكون الفرقان إشارة إلى التوراة، وإلى سائر معجزات ودلائل موسى عليه السلام.

ثم تعرّف الآية التالية المتّقين بأنّهم «الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ».

ولكلمة «الغيب» هنا تفسيران: الأوّل: إنّه إشارة إلى ذات اللّه المقدّسة، أى مع أنّ اللّه سبحانه غائب عن الأنظار، فإنّ هؤلاء آمنوا به بدليل العقل.

والآخر: إنّ المتقين لا يخافون اللّه فى العلانية وبين المجتمع فقط، بل يعلمون أنّه حاضر وناظر إليهم حتى فى خلواتهم.

فإنّ المتّقين يحبّون يوم القيامة، لأنّه مكان الثواب والرحمة، إلّاأنّهم فى الوقت نفسه مشفقون من حساب اللَّه فيه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۶۱

وقارنت الآيـة الأخيرة بين القرآن وباقى الكتب السابقـة: «وَهذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ». فهل ينكر مثل هذا الكتاب الذى يستبطن أدلّة أحقّيته فيه، وقد سطعت نورانيته، والذين يسيرون فى طريقه سعداء منتصرون؟!

ولكى نعرف مـدى أثر القرآن فى التوعيـة ومـا له من البركـات، فيكفى أن نرى حال سـكّان جزيرة العرب قبل نزول القرآن عليهم، إذ كـانوا يعيشـون فى جاهليـة جهلاء وفقر وتعاسـة وتفرّق وتمزّق، ثـم نرى حـالهم بعـد نزول القرآن حيـث أصـبحوا اسوة ومثلًا حسـناً للآخرين، ونرى كذلك حال الأقوام الآخرين قبل وصول القرآن إليهم وبعده.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (۵۱) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا هـذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (۵۲) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (۵۳) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (۵۴) قَالُوا أَ جِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (۵۵) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلَى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (۵۶) وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (۵۷) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (۵۸)

قلنـا: أنّ هـذه السورة تحـدثت عن جوانب عديـدة من حالات الأنبياء، فقـد اشـير فى الآيات السابقـة إشارة قصيرة إلى رسالـة موسـى وهارون عليهما السلام، وعكست هـذه الآيات وبعض الآيات الآتية جانباً مهماً من حياة إبراهيم عليه السلام ومواجهته لعبدة الأصـنام، فتقول أوّلًا: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ علِمِينَ». «الرشد»: فى الأصل بمعنى السير إلى المقصد والغاية، ومن الممكن أن يكون هنا إشارة إلى حقيقـة التوحيد، وأنّ إبراهيم عرفها واطّلع عليها منذ سنى الطفولة، وقد يكون إشارة إلى كل خير وصلاح بمعنى الكلمة الواسع.

والتعبير ب «مِن قَبْلُ» إشارة إلى ما قبل موسى وهارون عليهما السلام.

ثم أشارت إلى أحد أهمّ مناهج إبراهيم عليه السلام، فقالت: إنّ رشد إبراهيم قد بان عندما قال لأبيه وقومه- وهو إشارة إلى عمّه آزر، لأنّ العرب تسمّى العمّ أباً- ما هذه التماثيل التى تعبدونها؟ «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِى أَنتُمْ لَهَا عكِفُونَ».

وجملة «أَنتُمْ لَهَا عكِفُونَ» بملاحظة معنى «العكوف»: الذى يعنى الملازمة المقترنة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۶۲

بالإحترام، توحى بأنّ اولئك كانوا يحبّون الأصنام، وكأنّهم كانوا ملازميها دائماً.

إنّ مقولـة إبراهيم عليه السلام هذه إستدلال على بطلان عبادة الأصـنام، لأنّ ما نراه من الأصـنام هو المجسـمة والتمثال، والباقى خيال وظن وأوهام.

إلّا أنّ عبدة الأصنام لم يكن عندهـم- فى الحقيقة- جواب أمام هذا المنطق السليم القاطع، سوى أن يبعدوا المسألة عن أنفسهم ويلقوها على عاتق آبائهم، ولهذا «قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عبِدِينَ».

ولمّـا كـانت حجتهم بأنّ «هـذه العبادة هى سـنة الآباء» غير مجديـة نفعاً ... ولا نمتلك دليلًا على أنّ السابقين من الآباء والأجـداد أعقل وأكثر معرفة من الأجيال المقبلة، بل القضية على العكس غالباً، لأنّ العلم يتّسع بمرور الزمن، فأجابهم إبراهيم مباشرةً ف «قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِى ضَللٍ مُّبِينٍ».

إنّ هـذا التعبير المقترن بـأنواع التأكيـدات، والحـاكى عن الحزم التـام سبّب أن يرجع عبـدة الأصـنام إلى أنفسـهم قليلًا، ويتوجّهوا إلى التحقق من قول إبراهيم، فـأتوا إلى إبراهيم «قَـالُوا أَجِئْتَنَـا بِـالْحَقّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللعِبِينَ» لأنّ اولئـك الـذين كـانوا قـد إعتـادوا على عبادة الأصنام، وكانوا يظنّون أنّ ذلك حقيقة حتمية، ولم يكونوا يصدّقون أنّ أحداً يخالفها بصورة جدية، ولذلك سألوا إبراهيم هذا السؤال تعجّباً.

إلّا أنّ إبراهيم أجابهم بصراحة: «قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذلِكُم مِّنَ الشهِدِينَ».

إنّ إبراهيم عليه السلام قد بيّن بهذه الكلمات القاطعة أنّ الذى يستحق العبادة هو خالقهم وخالق الأرض وكل الموجودات.

ومن أجل أن يثبت إبراهيم جديّة هـذه المسألـة، وأنّه ثابت على عقيـدته إلى أبعـد الحدود، وأنّه يتقبّل كل ما يترتّب على ذلك بكل وجوده، أضاف: «وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ».

«أكيدنّ»: مأخوذة من الكيد، وهو التخطيط السرى، والتفكير المخفى وكان مراده أن يفهمهم بصـراحة بأنّنى سأستغلّ فى النهاية فرصة مناسبة واحطّم هذه الأصنام.

إنّ إبراهيم من دون أن يحذر من مغبّة هذا العمل، دخل الميدان برجولة وتوجّه إلى حرب هذه الآلهة الجوفاء بشـجاعة خارقة وحطّمها بصورة يصفها القرآن فيقول: «فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٦٣

إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ» وكان هدفه من تركه «لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ».

صحيح أنّ أذهاننا تنصـرف من لفظ عبادة الأصـنام إلى الأصنام الحجرية والخشبية على الأكثر، إلّاأنّ الصنم والصنمية- من وجهة نظر- لها مفهوم واسع يشمل كل ما يُبعد الإنسان عن اللّه، بأىّ شكل وصورة كان.

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هـذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أ أَنْتَ فَعَلْتَ هـذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هـذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قَالَ أ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أ فَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧)

وأخيراً عبدة الأصـنام دخلوا المعبد وواجهوا منظراً أطار عقولهم من رؤوسـهم، فقد وجدوا تلًّا من الأيادى والأرجل المكسّرة المتراكمة بعضـها على البعض الآخر فى ذلـك المعبـد المعمور، فصـاحوا و «قَالُوا مَن فَعَلَ هـذَا بَالِهَتِنَا». ولا ريب أنّ من فعل ذلك ف «إِنَّهُ لَمِنَ الظلِمِينَ» فقد ظلم آلهتنا ومجتمعنا ونفسه، لأنّه عرض نفسه للهلاك بهذا العمل.

إلّا أنّ جماعـة منهم تـذكّروا مـا سـمعوه من إبراهيم عليه السـلام وإزدرائه بالأصـنام وتهديـده لهـا وطريقـة تعامله السـلبى لهـذه الآلهة المزعومة، «قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرهِيمُ».

إنّ إبراهيم كان شاباً، وربّما لم يكن سنّه يتجاوز (١۶) عاماً.

إنّ المألوف- عادةً- عنـدما تقع جريمـة فى مكان ما، فإنّه ومن أجل كشف الشـخص الـذى قام بهـذا العمل، تبحث علاقات الخصومة والعداء، ومن البديهى أنّه لم يكن هناك شخص فى تلك البيئة من يعادى الأصنام غير إبراهيم، ولذلك توجّهت إليه أفكار الجميع، و «قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ» عليه بالجريمة.

فنادى المنادون فى نواحى المدينة: «ليحضر كل من يعلم بعداء إبراهيم وإهانته للأصنام».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢۶۴

وأخيراً تشـكّلت المحكمـة، وكـان زعمـاء القـوم قـد اجتمعوا هنـاك، ويقول بعض المفسـرين: أنّ نمرود نفسه كـان مشـرفاً على هـذه المحاكمة، وأوّل سؤال وجّهوه إلى إبراهيم عليه السلام هو أن: «قَالُوا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هذَا بَالِهَتِنَا يَا إِبْرهِيمُ».

فأجابهم إبراهيم جواباً أفحمهم، وجعلهم فى حيرة لم يجدوا منها مخرجاً «قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذَا فَسَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ».

إنّ من اسـس علم معرفة الجرائم أن يكون المتّهم بادية عليه آثار الجريمة، والملاحظ هنا أنّ آثار الجريمة كانت باديةً على يد الصـنم الكبير، [وفقاً للرواية المعروفة: إنّ إبراهيم جعل الفأس على رقبة الصنم الكبير].

لقد هزّت كلمات إبراهيم الوثنيين وأيقظت ضمائرهم النائمة الغافلة، وأنار فطرتهم التوحيدية من خلف حجب التعصب والجهل.

ورجعوا إلى فطرتهم ووجدانهم، كما يقول القرآن: «فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ». فقد ظلمتم أنفسكم ومجتمعكم الذى تنتمون إليه، وكذلك ساحة اللّه واهب النعم المقدسة.

ولكن للأسف، فإنّ صدأ الجهل والتعصب والتقليد الأعمى كان أكبر من أن يُصقل ويُمحى تماماً بنداء بطل التوحيد.

ولم تستمر هذه اليقظة الروحية المقدسة، ورجع كل شيء إلى حالته الاولى، وكم هو لطيف تعبير القرآن حيث يقول: «ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ». ومن أجل أن يأتوا بعذر نيابة عن الآلهة البُكْم قالوا: «لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤُلَاءِ يَنطِقُونَ». وأرادوا بهذا العذر الواهى أن يخفوا ضعف وذلة الأصنام.

وهنا فُتح أمام إبراهيم الميدان والمجال للاستدلال المنطقى ليوجّه لهم أشدّ هجماته: «قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَايَنفَعُكُمْ شَيًا وَلَا يَضُرُّكُمْ».

ووسّع معلّم التوحيد دائرة الكلام، وإنهال بسياط التقريع على روحهم التى فقدت الإحساس، فقال: «أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ». إلّاأنّه لم يلحّ فى توبيخهم وتقريعهم لئلّا يلجّوا فى عنادهم.

ويستفاد من التواريخ أنّ جماعة آمنوا به، وهم وإن قلّوا عدداً، إلّاأنّهم كانوا من الأهمية بمكان، إذ هيّأوا الاستعداد النسبى لفئة اخرى.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٦٥

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْداً وَ سَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَ أَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)

عندما تصير النار جنة: مع أنّ عبدة الأوثان اسقط ما فى أيديهم نتيجة إستدلالات إبراهيم العلمية والمنطقية، إلّاأنّ عنادهم وتعصبهم الشديد منعهم من قبول الحق، ولذلك فلا عجب من أن يتخذوا قراراً صارماً وخطيراً فى شأن إبراهيم. يقول القرآن الكريم: «قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فعِلِينَ».

فقد قالوا الكثير من أمثال هذه الخزعبلات وأثاروا الناس ضدّ إبراهيم بحيث إنّهم لم يكتفوا بعدّة حزم من الحطب تكفى لإحراق عدّة أشخاص، بل أتوا بآلاف الحزم وألقوها حتى صارت جبلًا من الحطب. فقد القى إبراهيم فى النار وسط زغاريد الناس وسرورهم وصراخهم، وقد أطلقوا أصوات الفرح ظانّين أنّ محطّم الأصنام قد فنى إلى الأبد وأصبح تراباً ورماداً.

لكن اللّه الذى بيده كل شيء حتى النار لا تحرق إلّابإذنه، شاء أن يبقى هذا العبد المؤمن المخلص سالماً من لهب تلك النار الموقدة ليضيف وثيقة فخر جديدة إلى سجل إفتخاراته، وكما يقول القرآن الكريم: «قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلمًا عَلَى إِبْرهِيمَ».

لا شك أنّ أمر اللّه هنا كان أمراً تكوينياً، كالأمر الذى يصدره فى عالم الوجود إلى الشمس والقمر، والأرض والسماء، والماء والنار، والنباتات والطيور.

والمعروف أنّ النار قد بردت برداً شديداً إصطكّت أسنان إبراهيم منه، وحسب قول بعض المفسرين: إنّ اللّه سبحانه لو لم يقل: سلاماً، لمات إبراهيم من شدة البرد.

ويقول اللّه سبحانه فى آخر آية من الآيات محل البحث على سبيل الاستنتاج بإقتضاب:

أنّهم تآمروا عليه ليقتلوه ولكن النتيجة لم تكن فى صالحهم «وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ».

لا يخفى أنّ الوضع قد إختلف تماماً ببقاء إبراهيم سالماً، وخمدت أصوات الفرح. غير أنّ العناد ظلّ مانعاً من قبول الحق، وإن كان أصحاب القلوب الواعية قد استفادوا من هذه الواقعة، وزاد إيمانهم مع قلّتهم.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٦٦

وَ نَجَّيْنَاهُ وَ لُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)

هجرة إبراهيم من أرض الوثنيين: لقد هزّت قصة حريق إبراهيم عليه السلام ونجاته الإعجازية من هذه المرحلة الخطيرة أركان حكومة نمرود، وأنّه لو بقى فى تلك المدينة والبلاد على هذا الحال، ومع ذلك اللسان المتكلم والمنطق القوى، والشهامة والشجاعة التى لا نظير لها، فمن المحتّم أنّه سيشكّل خطراً على تلك الحكومة الجبارة الغاشمة.

ومن جهة اخرى، فإنّ إبراهيم كان قد أدّى رسالته وبذر بذور الإيمان والوعى فى تلك البلاد، فلابد من الهجرة إلى موطن آخر لإيجاد أرضية لرسالته هناك، ولذلك صمّم على الهجرة إلى الشام بصحبة لوط- وكان ابن أخ إبراهيم- وزوجته سارة، وربّما كان معهم جمع قليل من المؤمنين، كما يقول القرآن الكريم: «وَنَجَّيْنَهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ».

وبالرغم من أنّ اسم هذه الأرض لم يرد صريحاً فى القرآن، إلّاأنّه بملاحظة الآية الاولى من سورة الإسراء يتّضح أنّ هذه الأرض هى أرض الشام ذاتها، التى كانت من الناحية الظاهرية أرضاً غنيّة مباركة خضراء، ومن الجهة المعنوية كانت معهداً لرعاية الأنبياء.

وأشارت الآية التالية إلى أحد أهمّ مواهب اللَّه لإبراهيم، وهى هبته الولد الصالح، والنسل المفيد، فقالت: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ».

وتشير الآية الأخيرة إلى مقام إمامة وقيادة هذا النبى الكبير، وإلى جانب من صفات الأنبياء ومناهجهم المهمة القيّمة بصورة جماعية.

لقد عُدّت فى هذه الآية ستّة أقسام من هذه الخصائص، وإذا اضيف إليها وصفهم بكونهم صالحين- والذى يستفاد من الآية السابقة- فستصبح سبعة.

يقول أوّلًا: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً». أى: إنّنا وهبناهم مقام الإمامة إضافةً إلى مقام النبوة والرسالة، والإمامة هى آخر مراحل سير الإنسان التكاملى، والتى تعنى القيادة العامة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۶۷

ثم يذكر فى المرحلة التالية ثمرة هذا المقام، فيقول: «يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا» ولا يعنى بالهداية الإرشاد وبيان الطريق الصحيح، والذى هو من شأن النبوّة والرسالة. أمّا الموهبة الثالثة والرابعة والخامسة فقد عبّر عنها القرآن بقوله: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَوةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَوةِ».

وفى آخر فصل أشار إلى مقام العبودية، فقال: «وَكَانُوا لَنَا عبِدِينَ» «۱». والتعبير ب «كانوا» الذى يدلّ على الماضى المستمر فى هذا المنهج، ربّما كان إشارة إلى أنّ هؤلاء كانوا رجالًا صالحين موحدين مؤهّلين حتى قبل الوصول إلى مقام النبوة والإمامة، وفى ظلّ ذلك المخطّط وهبهم اللَّه سبحانه مواهب جديدة.

وَ لُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (۷۴) وَ أَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (۷۵)

نجاة لوط من أرض الفجّار: لمّا كان لوط من أقرباء إبراهيم وذوى أرحامه، ومن أوائل من آمن به، فقد أشارت الآيتان بعد قصة إبراهيم عليه السلام إلى جانب من إجتهاده وسعيه فى طريق إبلاغ الرسالة، والمواهب التى منحها اللَّه سبحانه له، فتقول: «وَلُوطًا ءَاتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا».

لفظة «الحكم» جاءت فى بعض الموارد بمعنى أمر النبوة والرسالة.

والمراد من العلم كل العلوم التى لها أثر فى سعادة ومصير الإنسان.

لقد كان لوط من الأنبياء العظام وكان معاصراً لإبراهيم، وهاجر معه من أرض بابل إلى فلسطين، ثم فارق إبراهيم وجاء إلى مدينة (سدوم) لأنّ أهلها كانوا غارقين فى الفساد والمعاصى، وخاصةً الانحرافات الجنسية، وقد سعى كثيراً من أجل هداية هؤلاء القوم، وتحمل المشاق فى هذا الطريق، إلّاأنّه لم يؤثّر فى اولئك العُمى القلوب.

وأخيراً، نعلم أنّ الغضب والعذاب الإلهى قد حلّ بهؤلاء، وقلب عالى مدينتهم سافلها، واهلكوا جميعاً، إلّاعائلة لوط باستثناء امرأته.

(۱) تقدیم کلمة (لنا) علی (عابدین) یدلّ علی الحصر، وإشارة إلی مقام التوحید الخالص، لهؤلاء المقدّمین الکبار، أی إنّ هؤلاء کانوا یعبدون اللَّه فقط.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۶۸

ولذلک أشارت الآیة إلی هذه الموهبة التی وهبت للوط، وهی: «وَنَجَّیْنهُ مِنَ الْقَرْیَةِ الَّتِی کَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ کَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فسِقِینَ».

والتعبیر ب «الخبائث» بصیغة الجمع، إشارة إلی أنّهم إضافة إلی فعل اللواط الشنیع، کانوا یعملون أعمالًا قبیحة وخبیثة اخری.

والتعبیر ب «الفاسقین» بعد «قوم سوء» ربّما یکون إشارة إلی أنّ اولئک کانوا فاسقین من وجهة نظر القوانین الإلهیة، وحتی مع قطع النظر عن الدین والإیمان، فإنّهم کانوا أفراداً حمقی ومنحرفین فی نظر المعاییر الإجتماعیة بین الناس.

ثم أشارت الآیة إلی آخر موهبة إلهیة للنبی لوط، فقالت: «وَأَدْخَلْنهُ فِی رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِینَ».

وَ نُوحاً إِذْ نَادَی مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّیْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْکَرْبِ الْعَظِیمِ (۷۶) وَ نَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیَاتِنَا إِنَّهُمْ کَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِینَ (۷۷)

نجاة نوح من القوم الکافرین: بعد ذکر جانب من قصّة إبراهیم وقصة لوط علیهما السلام، تطرّقت السورة إلی ذکر جانب من قصة نبی آخر من الأنبیاء الکبار- أی: نوح علیه السلام- فقالت:

«وَنُوحًا إِذْ نَادَی مِن قَبْلُ». أی قبل إبراهیم ولوط.

إنّ هذا النداء- ظاهراً- إشارة إلی الدعاء واللعنة التی ذکرت فی الآیة (۲۶ و ۲۷) من سورة نوح أو إنّه إشارة إلی الجملة التی وردت فی الآیة (۱۰) من سورة القمر.

ثم تضیف الآیة: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّیْنهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْکَرْبِ الْعَظِیمِ».

إنّ للأهل- هنا- معنی وسیعاً یشمل أهله المؤمنین وخواص أصحابه، وعلی هذا فإنّ الذین اعتنقوا دین نوح یعدّون فی الواقع من عائلته وأهله.

«الکرب»: تعنی الغمّ الشدید، وهی فی الأصل مأخوذة من تقلیب الأرض وحفرها، لأنّ الغمّ الشدید یقلب قلب الإنسان، ووصفه بالعظیم یکشف عن منتهی کربه وأساه.

وأیّ کرب أعظم من أن یدعو قومه إلی دین الحق (۹۵۰) عاماً، کما صرّح القرآن بذلک، لکن لم یؤمن به خلال هذه المدة الطویلة إلّاثمانون شخصاً.

وتضیف الآیة التالیة: «وَنَصَرْنهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِینَ کَذَّبُوا بَایَاتِنَا إِنَّهُمْ کَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۶۹

فَأَغْرَقْنهُمْ أَجْمَعِینَ». إنّ هذه الجملة تؤکّد مرّة اخری علی حقیقة أنّ العقوبات الإلهیة لا تتّصف بصفة الإنتقام مطلقاً، بل هی علی أساس إنتخاب الأصلح، أی إنّ حق الحیاة والتنعّم بمواهب الحیاة لُاناس یکونون فی طریق التکامل والسیر إلی اللَّه، أو انّهم إذا ساروا یوماً فی طریق الانحراف إنتبهوا إلی أنفسهم ورجعوا إلی جادة الصواب.

وَ دَاوُدَ وَ سُلَیْمَانَ إِذْ یَحْکُمَانِ فِی الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِیهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ کُنَّا لِحُکْمِهِمْ شَاهِدِینَ (۷۸) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَیْمَانَ وَ کُلًّا آتَیْنَا حُکْماً وَ عِلْماً وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ یُسَبِّحْنَ وَ الطَّیْرَ وَ کُنَّا فَاعِلِینَ (۷۹) وَ عَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَکُمْ لِتُحْصِنَکُمْ مِنْ بَأْسِکُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاکِرُونَ (۸۰)

قضاء داود وسلیمان علیهما السلام: بعد الحوادث والوقائع المتعلقة بموسی وهارون وإبراهیم ونوح ولوط علیهم السلام، تشیر هذه

الآيات إلى جانب من حياة داود وسليمان، وفى البداية أشارت إشارة خفية إلى حادث قضاء وحكم صدر من جانب داود وسليمان، فتقول: «وَدَاوُودَ وَسُلَيْمنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شهِدِينَ» «۱».

إنّ القصة كانت كما يلى: إنّ قطيع أغنام لبعض الرعاة دخلت ليلًا إلى بستان فأكلت أوراقه وعناقيد العنب منه فأتلفته، فرفع صاحب البستان شكواه إلى داود، فحكم داود بأن تعطى كل الأغنام لصاحب البستان تعويضاً لهذه الخسارة الفادحة، فقال سليمان- والذى كان طفلًا آنذاك- لأبيه: يا نبى اللَّه العظيم، غيّر هذا الحكم وعدّ له. فقال الأب: وكيف ذاك؟

قال: يجب أن تودع الأغنام عند صاحب البستان ليستفيد من منافعها ولبنها وصوفها، وتودع البستان فى يد صاحب الأغنام ليسعى فى إصلاحه، فإذا عاد البستان إلى حالته الاولى يُردّ إلى صاحبه، وتردّ الأغنام أيضاً إلى صاحبها؛ وأيّد اللَّه حكم سليمان فى الآية التالية: «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمنَ». ولكن هذا لا يعنى أنّ حكم داود كان إشتباهاً وخطأً، لأنّها تضيف مباشرةً: «وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا».

ثم تشير إلى إحدى المواهب والفضائل التى كان اللَّه سبحانه قد وهبها لداود عليه السلام، فتقول:

---

(۱) «نفشت»: من مادّة نَفْش على وزن (حرب)، أى التفرّق والتبعثر فى الليل، ولمّا كان تفرّق الأغنام فى الليل، وفى المزرعة سيقترن بالتهام نباتها حتماً، لذا قال البعض: إنّها الرعى فى الليل؛ و «نَفَش» (على وزن علم) تعنى الأغنام التى تتفرّق فى الليل.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷۰

«وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ». فإنّ ذلك ليس شيئاً مهمّاً أمام قدرتنا «وَكُنَّا فعِلِينَ».

وأشارت الآية الأخيرة إلى موهبة اخرى من المواهب التى وهبها اللَّه لهذا النبى الجليل، فقالت: «وَعَلَّمْنهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شكِرُونَ».

«اللبوس»: كل نوع من أنواع الأسلحة الدفاعية والهجومية، إلّافى هنا تعنى الدرع التى لها صفة الحفظ فى الحروب.

وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (۸۱) وَ مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (۸۲)

الرياح تحت إمرة سليمان: تشير هاتان الآيتان إلى جانب من المواهب التى منحها اللَّه لنبى آخر من الأنبياء- أى: سليمان عليه السلام- فتقول الآية الاولى منهما: «وَلِسُلَيْمنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا». وهذا الأمر ليس عجيباً، لأنّنا عارفون به «وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ علِمِينَ». فنحن مطّلعون على أسرار عالم الوجود، والقوانين والأنظمة الحاكمة عليه.

«العاصفة»: تعنى الرياح القويّة أو الهائجة، وهنا يمكن أن تكون من باب بيان الفرد الأهمّ، أى ليست الرياح الهادئة لوحدها تحت إمرته، بل حتى العواصف الشديدة كانت رهن إشارته أيضاً، لأنّ الثانية أعجب، وكانت تتحرّك حيث أراد.

ثم تذكر الآية التالية أحد المواهب الخاصة بسليمان عليه السلام، فتقول: «وَمِنَ الشَّيطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ» لإستخراج الجواهر والأشياء الثمينة الاخرى «وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حفِظِينَ» من التمرد والطغيان على أوامر سليمان عليه السلام.

إنّ هذه الجماعة كانوا أفراداً أذكياء نشطين فنّانين صنّاعاً ماهرين فى مجالات مختلفة.

وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (۸۳) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (۸۴)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷۱

أيوب ونجاته من المصاعب: تتحدث الآيتان عن نبى آخر من أنبياء اللَّه العظماء وقصّته المُلهمة، وهو «أيّوب» وهو عاشر نبى اشير إلى جانب من حياته فى سورة الأنبياء.

إنّ لأيوب قصّة حزينة، وهى فى نفس الوقت عظيمة سامية، فقد كان صبره وتحمله عجيبين، خاصةً أمام الحوادث المرّة، بحيث إنّ

صبر أيوب أصبح مضرباً للمثل منذ القدم.

غير أنّ هاتين الآيتين تشيران- بصورة خاصة- إلى مرحلة نجاته وإنتصاره على المصاعب، وإستعادة ما فقده من المواهب، فتقول: «وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». «الضرّ»: تطلق على كل سوء وأذى يصيب روح الإنسان أو جسمه، وكذلك لنقص عضو، وذهاب مال، وموت الأعزّة وإنهيار الشخصية وأمثال ذلك، وكما سنقول فيما بعد، فإنّ أيوب قد إبتلى بكثير من هذه المصائب.

وتقول الآية التالية: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرّ وَءَاتَيْنهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ» ليعلم المسلمون أنّ المشاكل كلما زادت، وكلما زادت الإبتلاءات، وكلما زاد الأعداء من ضغوطهم وضاعفوا قواهم، فإنّها جميعاً ترفع وتحلّ بنظرة ومنحة من لطف اللّه، فلا تجبر الخسارة وحسب، بل إنّ اللّه سبحانه يعطى الصابرين أكثر ممّا فقدوا جزاءً لصبرهم وثباتهم.

وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (۸۵) وَ أَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (۸۶)

إسماعيل وإدريس وذو الكفل عليه السلام: تعقيباً على قصة أيوب عليه السلام التربوية، وصبره وثباته بوجه سيل الحوادث، تشير الآيتان- محلّ البحث- إلى صبر ثلاثة من أنبياء اللّه الآخرين فتقول الاولى: «وَإِسْمعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَاالْكِفْلِ كُلٌّ مّنَ الصَّابِرِينَ».

ثم تبيّن الآية الاخرى موهبة إلهية لهؤلاء مقابل الصبر والثبات، فتقول: «وَأَدْخَلْنهُمْ فِى رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِنَ الصَّالِحِينَ».

وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (۸۷) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ (۸۸)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷۲

نجاة يونس من السجن المرعب: تبيّن هاتان الآيتان جانباً من قصة النبى الكبير يونس عليه السلام، حيث تقول الاولى واذكر يونس إذ ترك قومه المشركين غاضباً عليهم: «وَذَا النُّونِ إِذْ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا». «النون»: تعنى السمكة العظيمة. أو بتعبير آخر: تعنى الحوت. وبناءً على هذا فإنّ «ذاالنون» معناه صاحب الحوت.

إنّه ذهب مغاضباً «فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ» «۱». فقد كان يظنّ أنّه قد أدّى كل رسالته بين قومه العاصين، ولم يترك حتى «الأولى فى هذا الشأن، مع أنّ الأولى هو بقاؤه بينهم والصبر والتحمّل والتجلّد، فلعلّهم ينتبهون من غفلتهم ويتّجهون إلى اللّه سبحانه.

وأخيراً، ونتيجة تركه الأولى هذا، ضيّقنا عليه فابتلعه الحوت «فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَنَكَ إِنّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ». فقد ظلمت نفسى، وظلمت قومى، فقد كان ينبغى أن أتقبّل وأتحمّل أكثر من هذه الشدائد والمصائب، واواجه جميع أنواع التعذيب والآلام منهم فلعلّهم يهتدون.

وتقول الآية التالية: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنهُ مِنَ الْغَمّ وَكَذلِكَ نُنجِى الْمُؤْمِنِينَ».

جملة «كَذلِكَ نُنجِى الْمُؤْمِنِينَ» العميقة المعنى توحى بأنّ ما أصاب يونس من البلاء والنجاة لم يكن حكماً خاصّاً، بل حكم عام مع حفظ تسلسل الدرجات والمراتب.

إنّ كثيراً من الحوادث المؤلمة والإبتلاءات الشديدة والمصائب نتيجة لذنوبنا ومعاصينا، فمتى ما تنبه الإنسان إلى ثلاثة امور [التى إنتبه إليها يونس فى مثل هذا الظرف فإنّه سينجو حتماً:

۱- التوجّه إلى حقيقة التوحيد، وأنّه لا معبود ولا سند إلّااللّه.

۲- تنزيه اللّه عن كل عيب ونقص وظلم وجور، وتجنّب كل سوء ظنّ بذاته المقدّسة.

۳- الإعتراف بذنبه وتقصيره.

فى تفسير الدرّ المنثور عن سعد سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: «اسم اللّه الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متّى». قلت يا رسول اللّه هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هى ليونس خاصة وللمؤمنين إذا دعوا بها، ألم

تسمع قول اللّه «وَكَذلِكَ نُنجِى الْمُؤْمِنِينَ»، فهو شرط من اللّه لمن دعاه».

---

(١) «نقـدر»: من مادّة قـدر بمعنى التعسير والتضـييق، لأنّ الإنسان عنـد التضـييق يأخذ من كل شـيء قدراًمحدوداً، لا على نطاق واسع وبدون حساب.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٧٣

وَ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ وَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَ أَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَ يَدْعُونَنَا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)

نجاة زكريا من الوحدة: تبيّن هاتان الآيتان جانباً من قصة شخصـيتين اخريين من أنبياء اللّه العظماء، وهما زكريا ويحيى عليهما السـلام، فتقول الاولى: «وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبّ لَاتَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ».

لقد مرّت سـنين من عمر زكريا، واشـتعل رأسه شـيباً، ولم يرزق الولد حتى ذلك الحين، ثم أنّ زوجته كانت عقيماً، وقد كان يأمل أن يُرزق ولداً يستطيع أن يُكمل مناهجه الإلهية وأعماله التبليغية.

وعندئذ توجّه إلى اللّه بكلّ وجوده وسأله ولداً صالحاً.

فاسـتجاب اللّه هـذا الـدعاء الخـالص المليء بعشق الحقيقـة، وحقّق امنيته وما كان يصـبوا إليه، كما تقول الآيـة: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى . ومن أجل الوصول إلى هذا المراد أصلحنا زوجته وجعلناها قادرة على الإنجاب «وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ».

ثم أشار اللّه سـبحانه إلى ثلاث صـفات من الصـفات البارزة لهذه الاسرة فقال: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خشِعِينَ».

«رغباً»: بمعنى الرغبـة والميـل والعلاقـة؛ و «رهبـاً»: بمعنى الخـوف والرعـب؛ و «الخشـوع»: هـو الخضـوع المقرون بالإحـترام والأدب، وكذلك الخوف المشفوع بالإحساس بالمسؤولية.

إنّ ذكر هذه الصـفات الثلاث ربّما تكون إشارة إلى أنّ هؤلاء عندما يصـلون إلى النعمة فلا يبتلون بالغفلة والغرور كما فى الأشـخاص الماديين من ضعفاء الإيمان.

وَ الَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١)

مريم السـيدة الطاهرة: اشـير فى هـذه الآية إلى مقام مريم وعظمتها وعظمة إبنها المسـيح عليهما السـلام. إنّ ذكر مريم فى ثنايا البحوث التى تتكلّم على الأنبياء الكرام؛ إمّا من أجل

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٧۴

ولدها عيسى عليه السلام، أو لأنّ ولادته كانت تشبه ولادة يحيى بن زكريا عليهما السلام من جهات متعددة، وقد ذكرنا تفصيل ذلك فى ذيـل آيات سورة مريم، أو ليوضّـح أنّ العظمـة غير مختصـة بالرجال، بل هناك نساء عظيمات يـدلّ تاريخهن على عظمتهن، وكنّ قدوة ومثلًا أسمى لنساء العالم. تقول الآية: واذكر مريم، «وَالَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَهَا وَابْنَهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ».

«الفرج»: معناه فى اللغة الفاصلة والشقّ، واستعمل كناية عن العضو التناسلى.

إِنَّ هـذِهِ أُمَّتُكُم أُمَّةً وَاحِـدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُـلٌّ إِلَيْنَـا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَـلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩۴)

امّـة واحـدة: لمّـا ورد فى الآيـات السابقـة أسـماء جمع من أنبيـاء اللّه، وكـذلك مريم، تلك المرأة التى كانت مثلًا أسمى وجانب من قصصـهم، فإنّ هـذه الآيات تسـتخلص نتيجـة مما مرّ، فتقول: «إِنَّ هـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِـدَةً». فقـد كان منهجهم واحـداً، وهـدفهم واحداً بالرغم من اختلافهم فى الزمان والمحيط والخصائص والأساليب والطرائق.

إنّ توحيد ووحدة الخطط والأهداف هذه تعود إلى أنّها جميعاً تصدر عن مصدر واحد، عن إرادة اللَّه الواحد، ولهذا تقول الآية مباشرةً: «وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ».

إنّ توحيد الأنبياء الإعتقادى فى الواقع يقوم على أساس وحدة منبع الوحى.

«الامّة»: تعنى كل جماعة تربطهم جهة مشتركة، وهنا إشارة إلى الأنبياء الذين مرّ ذكرهم فى الآيات السابقة.

وأشارت الآية التالية إلى انحراف جماعة عظيمة من الناس عن أصل التوحيد، فقالت:

«وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ». فقد وصل بهم الأمر إلى أن يقف بعضهم ضدّ بعض، ويلعن بعضهم بعضاً ويتبرّأ منه، ولم يكتفوا بذلك، بل شهروا السلاح فيما بينهم، وسفكوا الدماء الكثيرة، وكانت هذه الأحداث نتيجة الإنحراف عن أصل التوحيد ودين اللَّه الحق.

«تقطّعوا»: من مادّة قطع، بمعنى تفريق القطع المتصلة بموضوع واحد. إنّ اولئك قد إستسلموا أمام عوامل التفرقة والنفاق، ورضوا بأن يبتعد أحدهم عن الآخر، وأنهوا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷۵

إتحادهم الفطرى والتوحيدى، فمُنوا- نتيجة ذلك- بكل تلك الهزائم والشقاوة.

وتضيف فى النهاية: «كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ». فإنّ هذا الإختلاف عرضى يمكن إقتلاعه، وسيسيرون فى طريق الوحدة جميعاً فى يوم القيامة.

وتبيّن الآية الأخيرة نتيجة الإنسجام مع الامّة الواحدة فى طريق عبادة اللَّه، أو الإنحراف عنها وإتخاذ طريق التفرقة، فتقول: «فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ». ومن أجل زيادة التأكيد قالت: «وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ».

إنّ هذه الآية ككثير من آيات القرآن الاخرى قد عدّت الإيمان شرطاً لقبول الأعمال الصالحة.

وَ حَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (۹۵) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (۹۶) وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (۹۷)

الكافرون على أعتاب القيامة: كان الكلام فى آخر الآيات السابقة عن المؤمنين العاملين للصالحات، وتشير الآية الاولى من هذه الآيات إلى الأفراد فى الطرف المقابل لُاولئك، وهم الذين استمرّوا فى الضلال والفساد إلى آخر نفس، فتقول: «وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ».

إنّ هؤلاء الناس ترفع الحجب عن أعينهم وأنظارهم بعد مشاهدة العذاب الإلهى، أو بعد فنائهم وإنتقالهم إلى عالم البرزخ، وعندها يأملون أن يرجعوا إلى الدنيا ليصلحوا أخطاءهم ويعملون الصالحات، إلّاأنّ القرآن يقول بصراحة: إنّ رجوع هؤلاء حرام تماماً، ولم يبق طريق لجبران ما صدر منهم.

إنّ هؤلاء المغفلين فى غرور وغفلة على الدوام، وتستمرّ هذه التعاسة حتى نهاية العالم، كما يقول القرآن: «حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ».

فتقول مباشرةً: «وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصرُ الَّذِينَ كَفَرُوا». لأنّ الرعب يسيطر على وجودهم إلى حدّ أنّ عيونهم تتوقف عن الحركة وتصبح جاحظة لدى نظرهم إلى تلك الحوادث.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷۶

فى هذه الأثناء ترفع عن أبصارهم حجب الغفلة والغرور، فيرتفع صوتهم: «يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذَا». ولما كانوا لا يقدرون على تغطية ذنبهم بهذا العذر ليبرّئوا أنفسهم، فإنّهم يقولون بصراحة: «بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ».

كيف يمكن عادةً مع وجود كل هؤلاء الأنبياء، والكتب السماوية، وكل هذه الحوادث المثيرة والعبر والدروس أن يكونوا فى غفلة؟ إنّ ما صدر من هؤلاء تقصير وظلم لأنفسهم وللآخرين.

«حدب»: على زنة «أدب» معناه ما إرتفع من الأرض بين منخفضاتها، وقد يطلق على ما إرتفع وبرز من ظهر الإنسان أيضاً.

«ینسلون»: من مادۀ «نسول» (علی وزن فضول)، أي الخروج بسرعۀ.

«شاخصۀ»: من الشخوص، وهو فی الأصل الخروج من المنزل، أو الخروج من مدینۀ إلی اخری، ولما كانت العین عند التعجب والدهشۀ كأنّها ترید الخروج من الحدقۀ، فقد قیل لذلک «شخوص» إنّ هذه هی حالۀ المذنبین العاصین فی القیامۀ یصبحون حائرین كأنّ أعینهم ترید أن تخرج من أحداقهم.

إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (۹۸) لَوْ كَانَ هؤُلَاءِ آلِهَۀً مَا وَرَدُوهَا وَ كُلٌّ فِیهَا خَالِدُونَ (۹۹) لَهُمْ فِیهَا زَفِیرٌ وَ هُمْ فِیهَا لَا یَسْمَعُونَ (۱۰۰) إِنَّ الَّذِینَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَی أُولئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (۱۰۱) لَا یَسْمَعُونَ حَسِیسَهَا وَ هُمْ فِی مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (۱۰۲) لَا یَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَۀُ هذَا یَوْمُكُمُ الَّذِی كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۱۰۳)

حصب جهنم: متابعۀ للبحث السابق عن مصیر المشركین الظالمین، فقد وجّهت هذه الآیات الخطاب إلیهم، وجسّدت مستقبلهم ومستقبل آلهتهم بهذه الصورۀ: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ». «الحصب»: فی الأصل یعنی الرمی والإلقاء، وتقال بالذات لإلقاء قطع الحطب فی التنور.

إنّكم وآلهتكم ستكوّنون حطب جهنم، وستُلقون الواحد تلو الآخر فی نار جهنم كقطع

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷۷

الحطب التی لا قیمۀ لها، ثم تضیف: «أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ». إنّهم یلقون آلهتكم فی النار أوّلًا، ثم تردون علیها، فكأنّ آلهتكم تستقبلكم وتستضیفكم بالنار المنبعثۀ من وجودها.

ثم تقول كإستخلاص للنتیجۀ: «لَوْ كَانَ هؤُلَاءِ ءَالِهَۀً مَّا وَرَدُوهَا». ولكن اعلموا أنّهم لا یدخلون جهنم وحسب، بل «وَكُلٌّ فِیهَا خلِدُونَ».

ولمزید الإیضاح عن حال هؤلاء «العابدین الضالین» المؤلمۀ المخزیۀ قبال «آلهتهم الحقیرۀ»، تقول الآیۀ محل البحث: «لَهُمْ فِیهَا زَفِیرٌ».

«الزفیر»: فی الأصل یعنی الصراخ المقترن بإخراج النفس. وهنا إشارۀ إلی الصراخ أو الضجیج المنبعث من الحزن وشدۀ الكرب.

إنّ هذا الزفیر أو الأنین المؤلم لا یكون مقتصراً علی العباد فحسب، بل إنّ معبوداتهم من الشیاطین أیضاً یصطرخون معهم.

ثم تذكّر الجملۀ التالیۀ أحد العقوبات الاخری المؤلمۀ لهؤلاء، وهی «وَهُمْ فِیهَا لَا یَسْمَعُونَ». وهذه الجملۀ قد تكون إشارۀ إلی أنّ هؤلاء لا یسمعون الكلام الذی یسرّهم ویبهجهم، بل یسمعون أنین أهل جهنم المؤلم المنغّص وصراخ ملائكۀ العذاب فقط.

وقال بعضهم: إنّ المراد هو أنّ هؤلاء یوضعون فی توابیت من نار بحیث لا یسمعون صوت أیّ أحد أبداً، فكأنّهم لوحدهم فی العذاب، وهذا بنفسه یعتبر عقوبۀ أشد.

ثم تبیّن الآیۀ التالیۀ حالات المؤمنین الحقیقیین من الرجال والنساء لیتبیّن وضع الفریقین من خلال المقارنۀ بینهما، فتقول أوّلًا: «إِنَّ الَّذِینَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَی أُولئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ». وهو إشارۀ إلی أنّنا سنفی بكل الوعود التی وعدنا بها المؤمنین فی هذه الدنیا، وأحدها إبعادهم عن نار جهنم.

وتذكر الآیتان الأخیرتان أربع نعم إلهیۀ كبری تغمر هذه الطائفۀ السعیدۀ.

فالاولی: إنّهم «لَایَسْمَعُونَ حَسِیسَهَا». و «الحسیس»: الصوت المحسوس، وجاءت أیضاً بمعنی الحركۀ، أو الصوت الناشیء من الحركۀ، ونار الجحیم المشتعلۀ دائماً لها صوت خاص، وهذا الصوت مرعب من جهتین: من جهۀ أنّه صوت النار، ومن جهۀ أنّه صوت حركۀ النار والتهامها.

والثانیۀ: إنّهم «وَهُمْ فِی مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خلِدُونَ». فلیس حالهم كما فی هذه الدنیا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷۸

المحدودۀ، فإنّهم ینالون كل نعمۀ یریدونها، مادیۀ كانت أو معنویۀ، ولیس ذلک علی مدی یوم أو یومین، بل علی إمتداد الخلود.

والثالثۀ: إنّهم «لَایَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ». وقد اعتبر بعضهم أنّ هذا الفزع الأكبر إشارۀ إلی أهوال یوم القیامۀ التی هی أكبر من كل هول

وفزع.

والرابعة: من ألطاف اللَّه تعالى لهؤلاء هو ما ذكرته الآية محلّ البحث: «وَتَتَلَقهُمُ الْمَلِكَةُ هذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ».

يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ (١٠۴)

يوم تطوى السماء: قرأنا فى آخر آية من الآيات السابقة أنّ المؤمنين آمنون من الفزع الأكبر وهمّه، وتجسّم هذه الآية رعب ذلك اليوم العظيم، وفى الحقيقة تبيّن وتجسّد علة عظمة وضخامة هذا الرعب، فتقول: «يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىّ السّجِلّ لِلْكُتُبِ» «١».

وفى هذه الآية تشبيه لطيف لطىّ سجل عالم الوجود عند إنتهاء الدنيا، ففى الوقت الحاضر فإنّ هذا السجل مفتوح، وتقرأ كل رسومه وخطوطه، وكل منها فى مكان معين، أمّا إذا صدر الأمر الإلهى بقيام القيامة فإنّ هذا السجل العظيم سيطوى بكل رسومه وخطوطه.

ثم تضيف: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ».

وفى النهاية تقول الآية: «وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فعِلِينَ».

ويستفاد من بعض الروايات أنّ المراد من رجوع الناس إلى الحالة الاولى، هو أنّهم يرجعون حفاة عراة مرّة اخرى كما كانوا فى بداية الخلق. وهذا أحد صور رجوع الخلق إلى الصورة الاولى.

سيحكم الصالحون الأرض: بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى جانب من ثواب المؤمنين الصالحين، فقد أشارت السورة فى هاتين الآيتين إلى أحد أوضح المكافآت الدنيوية لهؤلاء،

---

(١) «السَجْل»: الدلو العظيمة؛ و «السّجِلّ» حجر كان يكتب فيه، ثم سمّى كل ما يكتب فيه سجلًا.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۷۹

فتقول: «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ».

«الأرض»: تطلق على مجموع الكرة الأرضية. «الإرث»: يعنى إنتقال الشىء إلى شخص بدون معاملة وأخذ وعطاء.

إنّ المراد من الزبور كتاب داود، والذكر بمعنى التوراة.

إنّ كلمة الصالحون لها معنى واسع، فستخطر على الذهن كل المؤهّلات، الأهلية من ناحية التقوى، والعلم والوعى، ومن جهة القدرة والقوة، ومن جانب التدبير والتنظيم والإدراك الاجتماعى.

إنّ الآية التالية تقول من باب التأكيد المشدد: «إِنَّ فِى هذَا لَبَلغًا لّقَوْمٍ عبِدِينَ».

لقد فسّرت هذه الآية فى بعض الروايات بأصحاب المهدى عليه السلام، وهو بيان مصداق عال وواضح، ولا تحدّ من عمومية مفهوم الآية مطلقاً.

إنّ نظام الخلقة سيكون دليلًا واضحاً على قبول نظام اجتماعى صحيح فى المستقبل، فى عالم الإنسانية، وهذا هو الذى يستفاد من الآية مورد البحث، والأحاديث المرتبطة بقيام المصلح العالمى العظيم، المهدى الموعود.

وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَ إِنْ أَدْرِى أَ قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَ إِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَ رَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١١٢)

النبى رحمة للعالمين: لمّا كانت الآيات السابقة قد بشّرت العباد الصالحين بوراثة الأرض وحكمها، ومثل هذه الحكومة أساس الرحمة لكل البشر، فإنّ الآية الاولى أشارت إلى رحمة وجود النبى صلى الله عليه و آله العامة، فقالت: «وَمَا أَرْسَلْنكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعلَمِينَ». فإنّ عامّة البشر فى الدنيا، سواء الكافر منهم والمؤمن، مشمولون لرحمتك، لأنّك تكفّلت بنشر الدين الذى يُنقذ الجميع.

إنّ التعبير ب «العالمين» له إطار واسع يشمل كل البشر وعلى إمتداد الأعصار والقرون،

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۸۰

ولهذا يعتبرون هذه الآية إشارة إلى خاتمية نبى الإسلام، لأنّ وجوده رحمة وقدوة لكل الناس إلى نهاية الدنيا.

ولمّا كان أهمّ مظهر من مظاهر الرحمـة، وأثبت دعامـة لـذلك هى مسألـة التوحيد وتجلياته، فإنّ الآية التالية تقول: «قُلْ إِنَّمَا يُوحِى إِلَىَّ أَنَّمَا إِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ».

وهذه الآية فى الواقع تشير إلى ثلاث نقاط مهمة:

الاولى: إنّ التوحيـد هو الدعامـة الأساسيـة للرحمـة، التوحيـد فى الإعتقاد، وفى العمل، والتوحيـد فى الكلمـة، وتوحيد الصـفوف، وفى القانون وفى كل شىء.

الثانية: إنّ كل دعوات الأنبياء تتلخص فى أصل التوحيد، والتوحيد كالروح السارية فى البدن.

والنقطة الثالثة: إنّ المشـكلة الأساسية فى جميع المجتمعات هى التلوّث بالشرك بأشكال مختلفة، لأنّ جملة «فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ» توحى بأنّ المشـكلة الأساسـية هى الخروج من الشـرك ومظاهره، ورفع اليد عن الأصنام وتحطيمها، ليس الأصنام الحجرية والخشبية فحسب، بل كل الأصنام، وفى أىّ شكل كانت، وخاصة طواغيت البشر.

ثم تقول الآيـة التالية: إنّهم إذا لم يذعنوا ويهتمّوا لدعواتنا ونداءاتنا هذه «فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ». «آذنت»: من مادة الإيذان، أى الإعلان المقترن بالتهديد، والظاهر أنّ النبى أراد بهذا الكلام أن يعلن تنفّره وإبتعاده عن اولئك، ويبيّن بأنّه قد يئس منهم تماماً.

ثم يبيّن هـذا التهديـد بصورة أوضح، فيقول بأنّى لا أعلم هل أنّ موعد عذابكم قريب أم بعيد: «وَإِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ». فلا تظنّوا أنّ هذا الوعيد بعيد، فربّما كان قريباً وقريباً جدّاً.

قـد يكون المراد من العذاب والعقوبة هنا عذاب القيامة، أو عذاب الدنيا، أو كليهما، ففى الصورة الاولى هو مختص بعلم اللّه، ولا يعلم أىّ أحـد تاريـخ وقوع القيامـة بدقـة حتى أنبياء اللّه، وفى الصورة الثانية والثالثة يمكن أن يكون إشارة إلى جزئياته وزمانه، وأنا لا أعلم بجزئياته.

ثم إنّكم لاـ ينبغى أن تتوهّموا أنّ عقوبتكم إذا تـأخّرت فهـذا يعنى أنّ اللّه غير مطّلع على أعمـالكم وأقوالكم، فهو يعلم كل شـىء، ف «إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ».

فإنّ الجهر والإخفاء له معنى بالنسبة لكم حيث إنّ علمكم محدود عادةً، أمّا بالنسبة لمن لا حدود لعلمه، فإنّ الغيب والشـهادة، والسرّ والعلن سواء لديه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۸۱

وكـذلك إذا رأيتم أنّ العقوبـة الإلهية لا تحيط بكم فوراً، فلا تظنّوا أنّ اللّه سـبحانه غير عالم بعملكم، فلا أعلم لعلّه إمتحان لكم: «وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ». ثم يأخذكم أشدّ مأخذ ويعاقبكم أشدّ عقاب.

لقد أوضحت الآية فى الواقع حكمتين لتأخير العذاب الإلهى:

الاولى: مسألة الامتحان والاختبار، فإنّ اللّه سبحانه لا يعجّل فى العذاب أبداً حتى يمتحن الخلق بالقدر الكافى، ويُتمّ الحجة عليهم.

والثانية: إنّ هناك أفراداً قد تمّ اختبارهم وحقّت عليهم كلمة العذاب حتماً، إلّاأنّ اللّه سبحانه يوسّع عليهم النعمة ليشدّد عليهم العذاب، فـإذا مـا غرقـوا فى النعمـة تماماً، وغـاصوا فى اللذائـذ، أهـوى عليهم بسوط العـذاب ليكون أشـدّ وآلم، وليحسّوا جيّداً بـألم وعـذاب المحرومين والمضطهدين.

وتتحدث آخر آيـة هنا- وهى آخر آيـة من سورة الأنبياء- كالآيـة الاولى من هـذه السورة عن غفلـة الناس الجهّال، فتقول حكاية عن النبى صلى الله عليه و آله فى عبارة تشبه اللعن، وتعكس معاناته صلى الله عليه و آله من كل هذا الغرور والغفلة، وتقول: إنّ النبى صلى الله عليه و آله بعد مشاهدة كل هذا الإعراض «قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ» «۱». وفى الجملة الثانية يوجّه الخطاب إلى المخالفين ويقول:

«وَرَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ».

إنّه ينبّه هؤلاء بكلمة (ربّنا) إلى هذه الحقيقة، وهى أنّنا جميعاً مربوبون ومخلوقون، وهو ربّنا وخالقنا جميعاً.

والتعبير ب «الرّحمن»، والذى يشير إلى الرحمة العامة، يعيد إلى أسماع هؤلاء أنّ الرحمة الإلهية قد عمّت كل وجودنا، فلماذا لا تفكّروا لحظة فى خالق كل هذه النعمة والرحمة.

وجملة «الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ» يحذّر هؤلاء بأن لا تظنّوا أنّا وحيدون أمام جمعكم وكثرتكم، ولا تتصوروا أنّ كل إتهاماتكم وأكاذيبكم، سواء كانت على ذات اللّه المقدسة، أو علينا، ستبقى بدون جواب وجزاء، كلّا مطلقاً، فإنّه تعالى سندنا ومعتمدنا جميعاً، وهو قادر على أن يدافع عن عباده المؤمنين أمام كل أشكال الكذب والإفتراء والإتهام.

«نهاية تفسير سورة الأنبياء»

---

(١) لا شكّ أنّ حكم اللّه سبحانه بالحقّ دائماً، وعلى هذا فإنّ ذكر كلمة (بالحقّ) هنا له صبغة التوضيح.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٨٣

٢٢ سورة الحج

محتوى السورة: سمّيت هذه السورة ب «سورة الحج» لأنّ جزءاً من آياتها تحدّث عن الحج. ويمكن تقسيم مواضيعها إلى عدّة أقسام هى:

١- تضمّنت آيات منها موضوع «المعاد» وأدلته المنطقية، وإنذار الغافلين عن يوم القيامة ونظائر ذلك التى تبدأ هذه السورة بها لتضمّ جزءاً كبيراً منها.

٢- يتضمّن جزء ملحوظ من هذه الآيات جهاد الشرك والمشركين.

٣- دعا جزء آخر من هذه السورة الناس إلى الاعتبار بمصير الأقوام البائدة، وما لاقت من عذاب إلهى.

۴- وتناول جزء آخر منها مسألة الحج وتاريخه منذ عهد إبراهيم عليه السلام.

۵- وتضمّن الجزء الآخر مقاومة الظالمين والتصدّى لأعداء الإسلام المحاربين.

۶- وإحتوى قسم آخر نصائح فى مجالات الحياة المختلفة.

٧- التشجيع على أعمال الصلاة والزكاة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والتوكل والتوجه إلى اللّه (سبحانه وتعالى).

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان: قال النبى صلى الله عليه و آله: «من قرأ سورة الحج اعطى من الأجر كحجة حجّها، وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقى».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٨۴

وهذا الثواب والفضل العظيم ليس لمجرد التلاوة اللفظيّة فقط، وإنّما لتلاوة تنير الفكر، وتفكّر يتبعه عمل وتطبيق.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَ مَا هُمْ بِسُكَارَى وَ لكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)

زلزلة البعث العظيمة: تبدأ هذه السورة بآيتين تشيران إلى يوم البعث ومقدماته، وهما آيتان تبعدان الإنسان- دون إرادته- عن هذه الحياة المادية العابرة، ليفكّر بالمستقبل المخيف الذى ينتظره، المستقبل الذى سيكون جميلًا وسعيداً إن فكّرت فيه اليوم، ولكنّه مخيف حقّاً إن لم تعدّ العدة له، والآية المباركة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ». خطاب للناس جميعاً بلا استثناء، فقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» دليل واضح على عدم التفريق بينهم من ناحية العنصر، واللغة، والزمان، والأماكن الجغرافية، والطوائف،

والقبائل، فهو موجّه للجميع: المؤمن والكافر، والكبير والصغير، والشيخ والشاب، والرجل والمرأة، على إمتداد العصور.

ثم بيّنت الآية التالية فى عدّة جمل إنعكاس هذا الذعر الشديد، فقالت: «يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ» من شدة الوحشة والرعب.

«وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا».

وثالث إنعكاس لهذا الذعر الشديد: «وَتَرَى النَّاسَ سُكرَى وَمَا هُمْ بِسُكرَى . وعلة ذلك هو شدة العذاب فى ذلك اليوم «وَلكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ». هذا العذاب الذى أرعب الناس وأفقدهم صوابهم.

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (۴)

أتباع الشيطان: بعد أن أعطت الآيات السابقة صورة لرعب الناس حين وقوع زلزلة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۸۵

القيامة، أوضحت الآيات اللاحقة حالة اولئك الذين نسوا اللَّه، وكيف غفلوا عن مثل هذا الحدث العظيم، فقالت: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجدِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ».

نجد هؤلاء الناس يجادلون مرّة فى أساس التوحيد ووحدانية الحق تبارك وتعالى، ومرّة يجادلون فى قدرة اللَّه على إحياء الموتى، وفى البعث والنشور، ولا دليل لهم على ما يقولون.

ثم تضيف هذه الآية: «وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطنٍ مَّرِيدٍ». فهؤلاء الأشخاص الذين لا يتّبعون منطقاً أو علماً، وإنّما يتّبعون كل شيطان عنيد ومتمرد، ولا يخضعون لشيطان واحد، بل لجميع الشياطين! شياطين الإنس والجن، الذين لكل منهم برنامجه وأحابيله وشراكه.

«مريد»: مشتقة من «مَرَدَ» وأصلها الأرض المرتفعة التى لا نبت فيها. وهنا يقصد ب «المريد» الشخص الذى خلا من أيّ خير وسعادة. وطبيعى أن يكون مثل هذا الشخص عنيداً وظالماً وعاصياً.

ومن هنا كانت الآية اللاحقة: «كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ» (۱).

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (۵) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِى الْمَوْتَى وَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (۶) وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى الْقُبُورِ (۷)

دليل المعاد فى عالم الأجنة والنبات: بما أنّ البحث فى الآيات السابقة كان يدور حول

---

(۱) «السعير»: مشتقة من «سَعَرَ» بمعنى لهب النّار، وتعنى هنا نار جهنّم الحارقة التى تمتاز بأنّها أكثر حرقاً من أيّ نار.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۸۶

تشكيك المخالفين للمبدأ والمعاد، فالآيات محل البحث طرحت دليلين منطقيين قويين لإثبات المعاد الجسمانى: أحدهما التغيّرات التى تحدث فى مراحل تكوين الجنين، والآخر هو التغيّرات التى تحدث فى الأرض عند خروج النبات. والخطاب القرآنى يعمّ جميع الناس بنوره: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ» (۱). كل ذلك من أجل أن نوضّح لكم حقيقة قدرتنا على القيام بأىّ عمل «لِّنُبَيّنَ لَكُمْ». فتبقى الأجنّة فى الأرحام إلى مدّة معلومة نحن نحدّدها لتمرّ بمراحل تكاملها، ونسقط ما نريد منها فنخرجها من الأرحام فى وسط الطريق قبل أن تكمل «وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى».

ثم تبدأ الأجنّة مرحلة تطور جديدة، لنخرجكم أطفالًا من أرحام امهاتكم، «ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا» وبهذا تنتهى مرحلة حياتكم المحدّدة فى

بطون امهاتكم. فتضعون أقدامكم فى محيط أوسع مملوء بالنور والصفاء، وإمكانات واسعة جدّاً، إلّاأنّ تكاملكم يستمر فى قطع المسافات بسرعة لتبلغوا الهدف، ألا وهو الرشد والكمال الجسمى والعقلى، «ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ». وهنا يتبدل الجهل إلى علم، والضعف إلى قوة، والتبعية إلى الاستقلال، لكن مسيرة حياتكم تطوى وتستمر فبعضكم يودّع الحياة بينما يستمر آخرون حتى المرحلة الأخيرة من الحياة، أى مرحلة الشيخوخة بعد تكاملهم: «وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ».

أجل، فالمرء يصل إلى مرحلة لا يتذكر فيها شيئاً، حيث يسيطر عليه النسيان، ويصبح فى وضع وكأنّه طفل «لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيًا».

وهذا الضعف والخمول دليل على بلوغ المرء مرحلة إنتقالية جديدة كما نجد ضعف التحام الثمرة بالشجرة حين تبلغ مرحلة النضج مما يدل على وصولها إلى مرحلة الإنفصال.

ثم تتناول الآية بيان الدليل الثانى أى حياة النباتات، فتبيّن ما يلى: انظر إلى الأرض فى فصل الشتاء فتجدها جافّة وميتة، فإذا سقط المطر وحلّ الربيع، دبّت الحياة والحركة فيها ونبتت أنواع النباتات فيها ونمت «وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» «۲».

---

(۱) «المضغة»: مشتقة من «المضغ» وتعنى مقداراً من اللحم يمكن للإنسان مضغه فى لقمة واحدة، وهذا تشبيهرائع للجنين فى المرحلة التى تعقب مرحلة العلقة.

(۲) «الهامدة»: تعنى فى الأصل النّار التى أطفئت، ويطلق على الأرض التى جفّت نباتاتها وأصبحت دون حركة (مفردات الراغب الاصفهانى). والبعض الآخر قال: إنّ كلمة «هامدة» تطلق على الحد الفاصل بين الموت والحياة (تفسير فى ظلال القرآن).

«إهتزّت»: مشتقة من «الهزّ» وتعنى تحرّكت بشدة.

«ربت»: مشتقة من «الربو» وتعنى الزيادة والنمو، كما أنّ كلمة «ربا» مشتقة أيضاً من «الربو».

«بهيج»: تعنى الجميل الساحر السارّ.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۸۷

الآيتان اللاحقتان تشرحان ما توصّلنا إليه، وذلك بإستعراض خمس ملاحظات:

۱- إنّ ما إستعرضته الآيات الخاصة بالمراحل التى تسبق مراحل الحياة للإنسان وعالم النبات، من أجل أن تعلموا أنّ اللَّه تعالى حقّ «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ». وبما أنّه هو الحق، فالنظام الذى خلقه حق أيضاً، لهذا لا يمكن أن يكون هذا الخلق دون هدف.

وبما أنّ هذه الحياة ليست عبثاً، وأنّ لها هدفاً، وأنّنا لا نصل إلى تحقيق ذلك الهدف فى حياتنا، إذن نعلم من ذلك وجود المعاد والبعث حتماً.

۲- إنّ هذا النظام الذى يسيطر على عالم الحياة يقول لنا «وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى . إنّ الذى يلبس الأرض لباس الحياة، ويغيّر النطفة التافهة إلى إنسان كامل، ويمنح الحياة للأرض الميتة، لقادر على أن يمنح الحياة للموتى.

۳- الهدف الآخر هو أن نعلم «وَأَنَّهُ عَلَى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ» ولا يستحيل على قدرته شىء.

هل يمكن لأحد تحويل الأرض الميتة إلى نطفة، ويطوّر هذه النطفة التافهة فى مراحل الحياة، أليس القادر على القيام بهذه الأعمال بقادر على أن يحيى الإنسان بعد موته؟!

۴- إنّ كل هذا لتعلموا أنّ ساعة نهاية هذا العالم وبداية عالم آخر، ستحلّ بلا شك فيها «وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّارَيْبَ فِيهَا».

۵- ثم إنّ كل هذا مقدمة لنتيجة أخيرة هى «وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى الْقُبُورِ».

وعلى هذا الأساس أنّ البعث ليس ممكن فحسب، بل إنّه سيقع حتماً.

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (۸) ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ

الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ (۹) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (۱۰)

الجدال بالباطل مرّة اخرى: تتحدث هذه الآيات أيضاً عمّن يجادلون فى المبدأ والمعاد

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۸۸

جدالًا خاوياً لا أساس له، فى البداية يقول القرآن المجيد: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجدِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتبٍ مُّنِيرٍ». وعبارة «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجدِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ» هى ذاتها التى ذكرت فى آية سابقة، والآية السابقة الذكر دالة على وضع الأتباع الضالين الغافلين، فى وقت تكون فيه هذه الآية دالة على قادة هذه المجموعة الضالة.

إنّ «العلم» إشارة إلى الاستدلال العقلى؛ و «الهدى» إشارة إلى إرشاد القادة الربانيين؛ و «الكتاب المنير» إشارة إلى الكتب السماوية، أى أنّها تعنى الأدلة الثلاثة المعروفة «الكتاب» و «السنّة» و «الدليل العقلى».

ثم يتطرّق القرآن المجيد فى جملة قصيرة عميقة المعنى إلى أحد أسباب ضلال هؤلاء القادة، فيقول: «ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ». إنّهم يريدون أن يضلّوا الناس عن سبيل اللّه بغرورهم وعدم إهتمامهم بكلام اللّه وبالأدلّة العقليّة الواضحة.

«ثانى»: مشتقة من «ثنى» بمعنى التواء؛ و «عطف»: تعنى «جانب» فالجملة تعنى ثنى الجانب، أى الإعراض عن الشيء وعدم الإهتمام به.

ويعقّب القرآن ذلك ببيان عقابهم الشديد فى الدنيا والآخرة بهذه الصورة: «لَهُ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ».

ونقول له: «ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلمٍ لِّلْعَبِيدِ». لا يعاقب اللّه أحداً بلا ذنب، ولا يضاعف عقاب أحد دون سبب، فهو العدل المطلق سبحانه «۱».

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (۱۱) يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَ ما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (۱۲) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ (۱۳) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (۱۴)

---

(۱) «ظلّام»: صيغة مبالغة تعنى كثير الظلم. وطبيعى أنّ اللّه لا- يظلم أبداً لا كثيراً ولا قليلًا، ويمكن أن يكون استخدام هذا التعبير هنا إشارة إلى أنّ العقاب دون مبرّر من قبل اللّه تعالى- جلّ عن ذلك وعلا علوّاً كبيراً- مصداق ظلم كبير.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۸۹

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت هذه الآية «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ» فى جماعة كانوا يقدمون على رسول اللّه صلى الله عليه و آله المدينة. فكان أحدهم إذا صحّ جسمه ونتجت فرسه وولدت إمرأته غلاماً، وكثرت ماشيته، رضى به، واطمأن إليه، وإن أصابه وجع فى المدينة، وولدت امرأته جارية، قال: ما أصبت فى هذا الدين إلّاشرّاً.

التّفسير

الواقف على حافّة وادى الكفر: تحدثت الآيات السابقة عن مجموعتين: الأتباع الضالين، والقادة المضلين، أمّا هذه الآيات، فتتحدث عن مجموعة ثالثة هم ضعاف الإيمان، قال القرآن المجيد عن هذه المجموعة: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ». أى إنّ بعض الناس يعبد اللّه بلقلقة لسان، وإنّ إيمانه ضعيف جدّاً، ولم يدخل الإيمان إلى قلبه.

ثم تناول القرآن الكريم عدم ثبات الإيمان لدى هؤلاء الأشخاص «فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ». إنّهم يطمئنون إذا ضحكت لهم الدنيا وغمرتهم بخيراتها، ويعتبرون ذلك دليلًا على أحقّية الإسلام، إلّاأنّهم يتغيّرون ويتّجهون إلى الكفر إن امتحنوا بالمشاكل والقلق والفقر، فالدين والإيمان لديهم وسيلة للحصول على ما يبتغون فى هذه الدنيا، فإن تمّ ما يبغونه كان الدين حقّاً، وإلّا فلا.

ويضيف القرآن المجيد فى الختام: «خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةَ» و «ذلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ». مؤكّداً أنّ أفدح الضرر وأفظع الخسران، هو أن يفقد الإنسان دينه ودنياه.

وتشير الآيـة التالية إلى إعتقاد هذه الفئة الخليط بالشرك، خاصة بعد الإنحراف عن صراط التوحيد والإيمان باللّه، فتقول: «يَدْعُوا مِن دُون اللَّهِ مَا لَايَضُرُّهُ وَمَا لَايَنفَعُهُ». أى إذا كان هـذا الإنسان يسعى إلى تحقيق مصالحه المادية والإبتعاد عن الخسائر ويرى صحّة الدين فى إقبال الـدنيا عليه، وبطلانـه فى إدبارها عنه، فلماذا يتوجّه إلى أصنام لا يؤمّل منها خير، ولا يخاف منها ضرر، فهى أشياء لا فائدة فيها، ولا أثر لها فى مصير البشر. أجل، «ذلِكَ هُوَ الضَّللُ الْبَعِيدُ». إنّ هؤلاء ليبتعدون عن الصراط المستقيم بُعداً حتى لا ترجى عودتهم إلى الحقّ إلّارجاءً ضعيفاً جدّاً.

ويوسّع القرآن الكريم هذا المعنى فيقول: «يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ». لأنّ هذا المعبود المختلق ينزل بفكرهم إلى الحضيض فى هذه الدنيا، ويدفعهم نحو الخرافات والجهل، ويدعهم فى الآخرة فى نار جهنم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹۰

وتضيف الآية فى الختام: «لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ». فما أسوأه ناصراً ومعيناً، وما أسوأه مؤنساً ومعاشراً.

وفى ختام الآيـة المباركـة نلحظ مقارنـة بين الخير والشرّ كما هو دأب القرآن الكريم لتتّضح النتائج بشكل أكبر، فتقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهرُ». فعاقبتهم معلومـة ومنهج تفكيرهم وسلوكهم واضح فمولاهم هو اللّه تعالى، ورفاقهم وجلساؤهم فى الآخرة هم الأنبياء والصالحون والملائكة، وأنّ اللّه سبحانه يُثيب المؤمنين العاملين للصالحات، جنات تجرى من تحتها الأنهار، لينعموا بالسعادة والسرور جزاء إستقامتهم على الحق وإستجابتهم له فى الحياة الدنيا «إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ». وثوابهم يسير عليه- جلّ وعلا- يُسْرَ عقاب الـذين ظلموا أنفسهم بإيثار الباطل على الحق، وبعبادتهم الأصنام من دون اللّه سبحانه.

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (۱۵) وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يُرِيدُ (۱۶) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصَارَى وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۱۷)

البعث نهاية جميع الخلافات: بما أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن ضعفاء الإيمان، فإنّ الآيات مورد البحث ترسم لنا صورة اخرى عن هؤلاء فتقول: «مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ». هذه الآية تركّز على ملاحظة نفسيّة تخصّ الأشخاص الحادّى المزاج، والضعيفى الإيمان الذين يصابون بالهلع ويرتكبون أعمالًا جنونية كلما بلغت امورهم طريقاً مسدوداً فى الظاهر.

وأشارت الآية التالية إلى خلاصة الآيات السابقة، فقالت: «وَكَذلِكَ أَنزَلْنهُ ءَايتٍ بَيِّنتٍ».

لقد أوضحت الآيات السابقة أدلّة المعاد والبعث، كالمراحل التى يمرّ بها الجنين الإنسانى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹۱

ونموّ النباتات وإحياء الأرض بعد موتها، ولكن هذه الأدلّة الواضحة والبراهين الدامغة لا تكفى لتقبّل الحق، بل لابد من إستعداد ذاتى لذلك. ولهذا يقول القرآن المجيد فى نهاية الآية:

«وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ».

وأشارت آخر الآية هنا إلى ستّ فئات، إحداها مسلمة مؤمنة، وخمس منها غير مسلمة:

«إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصبِئِينَ وَالنَّصرَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ».

أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبَالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ وَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَ كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَ مَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (۱۸)

الوجود كلّه يسجد للّه: بما أنّ الحديث فى الآيات السابقة كان عن المبدأ والمعاد، فإنّ الآية- موضع البحث- بطرحها مسألة التوحيد، قد أكملت دائرة المبدأ والمعاد، وتخاطب النبى صلى الله عليه و آله فتقول: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِى السَّموَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ». ولا يقتصر الحال على هذه المخلوقات، بل إنّ الكثير من الناس يشاركون عالم الموجود بالسجود للّه‌تعالى سوى بعض الكفار الذين يتحركون من موقع العناد والجحود: «وَكَثِيرٌ مّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ». ثم تضيف: وهؤلاء ليست لهم قيمة عند اللّه تعالى، ومن كان كذلك فهو مهان: «وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ». أى إنّ من يهينه اللّه لا يكرمه أحد، وليست له سعادة ولا أجر، حقّاً «إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ». فهو يكرم المؤمنين به، ويذلّ المنكرين له.

إنّ للموجودات مع ملاحظة ما ورد فى الآية- موضع البحث- شكلين من السجود:

«سجود تكوينى» و «سجود تشريعى».

فالسجود التكوينى هو الخضوع والتسليم لإرادة اللّه ونواميس الخلق والنظام المسيطر على هذا العالم دون قيد أو شرط، وهو يشمل ذرّات المخلوقات كلها، حتى أنّه يشمل خلايا أدمغة الفراعنة والمنكرين العنودين وذرّات أجسامهم فالجميع يسجدون للّه‌تعالى تكويناً.

وحسبما يقوله عدد من الباحثين، فإنّ ذرّات العالم كلها لها نوع من الإدراك والشعور، ولذا يسبّحون اللّه ويحمدونه ويسجدون له ويصلّون له بلسانهم الخاص (شرحنا ذلك فى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹۲

تفسير الآية ۴۴ من سورة الإسراء) وإذا رفضنا هذا النوع من الإدراك والشعور، فلا مجال لإنكار تسليم الكائنات جميعاً للقوانين الحاكمة على نظام الوجود كله.

أمّا «السجود التشريعى» فهو غاية الخضوع من العقلاء المدركين العارفين للّه‌سبحانه.

هذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (۱۹) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ (۲۰) وَ لَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (۲۱) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (۲۲) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (۲۳) وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (۲۴)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت الآية «هذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبّهِمْ» فى ستّة نفر من المؤمنين والكفار، تبارزوا يوم بدر وهم: حمزة بن عبد المطلب قتل عتبة بن ربيعة وعلى بن أبى طالب عليه السلام قتل الوليد بن عقبة، وعبيدة بن الحرث بن عبد المطلب قتل شيبة بن ربيعة.

التّفسير

خصمان متقابلان: أشارت الآية السابقة إلى المؤمنين وطوائف مختلفة من الكفار، وحدّدتهم بستّ فئات. أمّا هنا فتقول: «هذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبّهِمْ».

ثم تبيّن الآية أربعة أنواع من عقاب الكافرين المنكرين للّه‌تعالى بوعى منهم، والعقاب الأوّل حول لباسهم، فتقول الآية: «فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مّن نَّارٍ».

ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى لباسهم الذى اعدّ لهم من قطع من نار، أو كناية عن إحاطة نار جهنم بهم من كل جانب.

ثم: «يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ». أى يصبّ على رؤوسهم سائل حارق هو حميم

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٩٣

النار، وهذا الماء الحارق الفوّار ينفذ إلى داخل أبدانهم ليذيب باطنها وظاهرها «يُصْهَرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ» «١».

وثالث نوع من العقاب هو: «وَلَهُم مَّقمِعُ مِن حَدِيدٍ» «٢». أى اعدّت لهم أسواط من الحديد المحرق.

والرابع: «كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ». أى كلّما أرادوا الخروج من جهنم والخلاص من آلامها وهمومها اعيدوا إليها، وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق.

وأوضحت الآيات التالية وضع المؤمنين الصالحين، مستخدمة اسلوب المقارنة، لتكشف بها عن وضع هاتين المجموعتين، وهنا تستعرض هذه الآيات خمسة أنواع من المكافئات للمؤمنين: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهرُ».

فخلافاً للمجموعة الاولى الذين يتقلّبون فى نار جهنم، نجد أنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتّعون بنعيم رياض الجنة على ضفاف الأنهر وهذه هى المكافأة الاولى، وأمّا لباسهم وزينتهم فتقول الآية: و «يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ» «٣».

وهاتان مكافأتان يمنّ اللّه بهما كذلك على عباده العالمين فى الجنة، يهبهم أفخر الملابس التى حرموا منها فى الدنيا، ويحلّيهم بزينة الأساور التى منعوا عنها فى الحياة الاولى، لأنّها كانت تؤدّى إلى إصابتهم بالغرور والغفلة، وتكون سبباً لحرمان الآخرين وفقرهم، أمّا فى الجنّة فينتهى هذا المنع ويباح للمؤمنين لباس الحرير والحلى وغيرها.

وأخيراً الهبة الرابعة والخامسة التى يهبها اللّه للمؤمنين الصالحين ذات سمة روحانية «وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ» حديث ينمى الروح. وألفاظ تثير حيوية الإنسان، وكلمات ملؤها النقاء والصفاء التى تبلغ بالروح درجة الكمال وتملأ القلب بهجةً وسروراً، «وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ» «۴». هكذا يهدون إلى طريق اللّه الحميد، الجدير بالثناء، طريق معرفة اللّه

---

(١) «يصهر»: مشتقة من «صهر» على وزن «قهر» وتعنى تذويب الشحم؛ أمّا «الصِهر» على وزن «فكر» فتعنى النسيب.

(٢) «المقامع»: جمع «مقمع» على وزن «منبر» وتعنى السوط أو العمود الحديدى يضرب به المذنب عقاباً له.

(٣) «أساور»: جمع «أسورة» على وزن «مشورة» وهى بدورها جمع لكلمة «سوار» على وزن «كتاب» وتعنى المعضد.

(۴) «الحميد»: تعنى المحمود، وتطلق على من يستحقّ الثناء، وهنا يقصد بها اللّه تعالى، وعلى هذا فإنّ «الصراطالحميد» يعنى السبيل إلى مقام مقرّب من اللّه تعالى.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٢٩۴

والتقرب المعنوى والروحى إليه، سبيل العشق والعرفان. حقّاً إنّ اللّه يهدى المؤمنين إلى هذا الطريق الذى ينتهى إلى أعلى درجات اللذة الروحية.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)

الذين يصدّون عن بيت اللّه الحرام: تحدثت الآيات السابقة عن عامة الكفار، وهذه الآية تشير إلى مجموعة خاصّة منهم باءت بمخالفات وذنوب عظيمة، ذات علاقة بالمسجد الحرام ومراسم الحج العظيم. تبدأ هذه الآية ب «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ».

وكذلك يصدّون ويمنعون المؤمنين عن مركز التوحيد العظيم: «وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ». أى سواءً المقيمون فيه والذين يقصدونه من مكان بعيد. «وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِ بِظُلْمِ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ». أى كل من أراد الانحراف فى هذه

الأرض المقدسة عن الحق ومارس الظلم والجور أذقناه عذاباً أليماً.

وهذه الفئة من الكفار ترتكب ثلاث جرائم كبيرة، إضافةً إلى إنكارها الحق، وجرائمها هي:

۱- صدّ الناس عن سبيل اللَّه والإيمان به والطاعة له.

۲- صدّهم عن حج بيت اللَّه الحرام، وتوهّم أنّ لهم إمتيازاً عن الآخرين.

۳- ممارستهم للظلم وإرتكابهم الإثم فى هذه الأرض المقدسة، واللَّه يعاقب هؤلاء بعذاب أليم.

وَ إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (۲۶) وَ أَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (۲۷) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (۲۸)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹۵

الدعوة العامة للحج: تناولت الآية السابقة قضيّة المسجد الحرام وحجّاج بيت اللَّه، أمّا هذه الآيات فتستعرض بناء الكعبة على يد إبراهيم الخليل عليه السلام، ووجوب الحج وفلسفته، وبعض أحكام هذه العبادة الجليلة. إذ بدأت بقصة تجديد بناء الكعبة: «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرٰهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ». أى تذكّر كيف أعددنا لإبراهيم مكان الكعبة ليقوم ببنائها.

«بوّأ»: مشتقة من بواء، أى الأرض المسطّحة، ثم أطلقت على إعداد المكان مطلقاً.

وتقصد هذه الآية أنّ اللَّه هدى إبراهيم عليه السلام إلى مكان الكعبة بعد أن هدّمت بطوفان نوح وخفيت معالمها، إذ حدثت عاصفة فأزالت التراب وكشفت عن اسس البيت، أو بعث اللَّه سحابة ظلّلت مكان البيت، أو بأىّ اسلوب آخر كشف اللَّه لإبراهيم عليه السلام أسس الكعبة، فقام هو وإبنه إسماعيل عليهما السلام بتجديد بناء بيت اللَّه الحرام.

وتضيف الآية الكريمة أنّه عندما تمّ بناء البيت خوطب إبراهيم عليه السلام: «أن لَّاتُشْرِكْ بِى شَيًا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ».

فمهمّة إبراهيم عليه السلام كانت تطهير البيت وما حوله من أىّ نجس ظاهر أو باطن، ومن أىّ صنم أو مظهر للشرك، من أجل أن يوجّه عباد الرحمن قلوبهم وأبصارهم إليه تعالى وحده فى هذا المكان الطاهر، وليقوموا بأهمّ العبادات فى هذه البقعة المباركة، ألا وهو الطواف والصلاة فى محيط إيمانىّ لا يخالطه شرك.

وبعد إعداد البيت للعبادة، أمر اللَّه تعالى إبراهيم عليه السلام: «وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلّ فَجّ عَمِيقٍ».

«أذّن»: مشتقة من «الأذان» أى «الإعلان»؛ و «رجال»: جمع «راجل» أى «ماشى»؛ و «الضامر»: تعنى الحيوان الضعيف؛ و «الفجّ»: فى الأصل تعنى المسافة بين جبلين، ثم أطلقت على الطرق الواسعة؛ و «العميق»: تعنى هنا «البعيد».

فى تفسير على بن إبراهيم القمى: لمّا فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت أمره اللَّه أن يؤذن فى الناس بالحج فقال: «يا ربّ وما يبلغ صوتى». فقال اللَّه: «أذن عليك الأذان وعلى البلاغ».

وارتفع على المقام وهو يومئذ ملصق بالبيت فارتفع المقام حتى كان أطول من الجبال فنادى وأدخل اصبعيه فى اذنيه وأقبل بوجهه شرقاً وغرباً يقول: أيّها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربّكم، فأجابوه من تحت البحور السبعة ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أطراف الأرض كلها ومن أصلاب الرجال وأرحام النساء بالتلبية: لبيك

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹۶

اللهم لبيك أوَلاـ ترونهم يأتون يلبون فمن حج من يومئذ إلى يوم القيامة فهم ممن استجاب للَّهوذلك قوله «فِيهِ ءَايَاتٌ بَيّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرٰهِيمَ» يعنى نداء إبراهيم على المقام بالحج. وتناولت الآية التالية فلسفة الحج فقالت: «لِّيَشْهَدُوا مَنفِعَ لَهُمْ». أى إنّ على الناس الحج

إلى هذه الأرض المقدسة، ليروا منافع لهم بام أعينهم.

إنّ كلمة «المنافع» تشمل جميع المنافع والبركات المعنوية والمكاسب المادية، وكل عائد فردى واجتماعى، ومعطيات سياسية واقتصادية وأخلاقية، فما أحرى بالمسلمين أن يتوجّهوا من أنحاء العالم إلى مكة ليشهدوا هذه المنافع.

ثم تضيف الآية: «وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعمِ». أى أنّه على المسلمين أن يحجّوا إلى البيت ويقدّموا القرابين من المواشى التى رزقهم اللّه، وأن يذكروا اسم اللّه عليها حين الذبح فى أيّام معينة تبدأ من العاشر من ذى الحجة وتنتهى بالثالث عشر منه.

وهذا الذكر إشارة إلى توجّه الحاج إلى اللّه كل التوجه عند تقديم الاضحية، وهمّه كسب رضى اللّه وقبوله القربان، كما أنّ الاستفادة من لحم الاضحية تقع ضمن هذا التوجه.

ويعتبر تقديم الأضاحى رمزاً لإعلان الحاج إستعداده للتضحية بنفسه فى سبيل اللّه، على نحو ما ذكر من قصة إبراهيم عليه السلام ومحاولة التضحية بإبنه إسماعيل عليه السلام. إنّ الحجاج بعملهم هذا يعلنون إستعدادهم للإيثار والتضحية فى سبيل اللّه حتى بأنفسهم.

وعلى كل حال فإنّ القرآن بهذا الكلام ينفى اسلوب المشركين الذين كانوا يذكرون أسماء الأصنام التى يعبدونها على أضاحيهم، ليحيلوا هذه المراسم التوحيدية إلى شرك باللّه، وجاء فى ختام الآية: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ».

تتابع هذه الآيات البحث السابق عن مناسك الحج مشيرةً إلى جانب آخر من هذه المناسك، فتقول أوّلًا: «ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ». أى ليطهّروا أجسامهم من

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹۷

الأوساخ والتلوّث، ثم ليوفوا ما عليهم من نذور. «وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ». أى يطوفوا بذلك البيت الذى صانه اللّه عن المصائب والكوارث وحرّره.

«تفث»: تعنى القذارة وما يلتصق بالجسم وزوائده كالأظافر والشعر. بتعبير آخر: تشير هذه العبارة إلى برنامج «التقصير» الذى يعدّ من مناسك الحج.

إنّما سمّيت الكعبة بالبيت العتيق، و «العتيق»: مشتقة من «العتق»، أى التحرّر من قيود العبودية، وربّما كان ذلك لأنّ الكعبة تحرّرت من قيود ملكية عباد اللّه، ولم يكن لها مالك إلّا اللّه، كما حرّرت من قيد سيطرة الجبابرة كأبرهة.

ومن معانى «العتيق» أيضاً الشىء الكريم الثمين، وهذا المعنى يتجسّد فى الكعبة بوضوح.

ومن المعانى الاخرى للعتيق «القديم»، فلا مانع من إطلاق العتيق على بيت اللّه بعد ملاحظة ما تتضمّنه هذه الكلمة من معان.

والمراد من «الطواف» هنا طواف النساء، ففى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام فى قول اللّه عزّ وجل: «وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» قال: «طواف النساء» «۱».

وأشارت الآية الأخيرة إلى خلاصة ما بحثته الآيات السالفة الذكر، حيث تبدأ بكلمة «ذلِكَ» التى لها جملة محذوفة تقديرها «كذلك أمر الحج والمناسك». ثم تضيف تأكيداً لأهميّة الواجبات التى شرحت: «وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ».

والمقصود هنا ب «الحرمات»- طبعاً- أعمال ومناسك الحجّ، ويمكن أن يضاف إليها إحترام الكعبة خاصة والحرم المكّى عامة.

ثم تشير هذه الآية وتناسباً مع أحكام الإحرام إلى حلّية المواشى، حيث تقول:

«وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعمُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ».

وفى ختام هذه الآية ورد أمران يخصّان مراسم الحج ومكافحة العادات الجاهلية:

الأوّل يقول: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثنِ». و «الأوثان»: جمع «وثن» على وزن «كفن» وتعنى الأحجار التى كانت تُعبد زمن الجاهلية، وهنا جاءت كلمة الأوثان إيضاحاً لكلمة «رجس» التى ذكرت فى الآية، حيث تقول: «اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ». ثم تليها عبارة «مِنَ الْأَوْثنِ». أى

الرجس هو ذاته الأوثان.

---

(۱) وسائل الشيعة ۹/ ۳۹۰.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹۸

والأمر الثانى هو: «وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ». أى الكلام الباطل الذى لا أساس له من الصحّة.

إنّ هذه الآية إشارة إلى كيفيّة تلبية المشركين فى مراسم الحج فى زمن الجاهلية، لأنّهم يلبّون بشكل يتضمّن الشرك بعينه، ويبعدونه عن صورته التوحيدية.

ومع هذا فإنّ إهتمام الآية المذكورة بأعمال المشركين، لا يمنع من تعميمها على بطلان أيّة عبادة للأصنام بأيّة صورة كانت، وإجتناب أيّ قول باطل مهما كانت صورته.

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ (۳۱) ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (۳۲) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (۳۳)

عقّبت الآيات هنا المسألة التى أكّدتها آخر الآيات السابقة، وهى مسألة التوحيد، وإجتناب أيّ صنم وعبادة الأوثان، حيث تقول: «حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ». أى أقيموا مراسم الحج والتلبية فى حالة تخلصون فيها النية للّهوحده لا يخالطها أيّ شرك أبداً.

«حنفاء»: جمع «حنيف» أى الذى إستقام وإبتعد عن الضلال والانحراف. أو بتعبير آخر:

هو الذى سار على الصراط المستقيم.

إنّ الآيـة السابقة اعتبرت الإخلاص وقصد القربة إلى اللّه محرّكاً أساسياً فى الحج والعبادات الاخرى، حيث ذكرت ذلك بشكل عام، فالإخلاص أصل العبادة، والمراد به الإخلاص الذى لا يخالطه أيّ نوع من الشرك وعبادة غير اللّه.

ثم ترسم الآيـة- موضع البحث- صورة حيّة ناطقة عن حال المشركين وسقوطهم وسوء طالعهم، حيث تقول: «وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ» «۱».

«السماء»: هنا كناية عن التوحيد؛ و «الشرك» هو السبب فى السقوط من السماء هذه.

والذى يسقط من السماء يفقد كل قدرة على اتّخاذ قرار ما، ويبتلى بفقدانه هذا المكان

---

(۱) «تخطفه»: مشتقة من «الخطف» على وزن فعل، بمعنى الإمساك بالشيء أثناء تحرّكه بسرعة؛ و «سحيق»: تعنى «البعيد» وتطلق على النخلة العالية كلمة «سحوق».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۲۹۹

السامى بأهوائه النفسية المعاندة وتزداد سرعة سقوطه لحظة بعد اخرى نحو العدم، ويصبح نسياً منسياً.

وأوجزت الآيـة التالية مسائل الحج وتعظيم شعائر اللّه ثانية فتقول «ذلِكَ» أى إنّ الموضوع كما قلناه، وتضيف: «وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ».

«الشعائر»: جمع «شعيرة» بمعنى العلامة والدليل، وعلى هذا فالشعائر تعنى علامات اللّه وأدلّته، وهى تضمّ عناوين لأحكامه وتعاليمه العامة، وأوّل ما يلفت النظر فى هذه المراسم مناسك الحج التى تذكّرنا باللّه سبحانه وتعالى.

ويمكن القول: إنّ شعائر اللّه تشمل جميع الأعمال الدينية التى تذكّر الإنسان باللّه سبحانه وتعالى وعظمته، وإنّ إقامة هذه الأعمال دليل على تقوى القلوب.

ويستدلّ من بعض الأحاديث أنّ مجموعة من المسلمين كانوا يعتقدون بعدم جواز الركوب على الاضحية (الناقة أو ما شابهها) حين

جلبها من موطنهم إلى منى للذبح، كما يرون عدم جواز حلبها أو الإستفادة منها بأىّ شكل كان، ولكن القرآن نفى هذه العقيدة الخرافية حيث قال: «لَكُمْ فِيهَا مَنفِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى».

وتذكر الآية فى ختامها نهاية مسار الاضحية: «ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ».

وعلى هذا يمكن الاستفادة من الانعام المخصّصة للُاضحية ما دامت فى الطريق إلى موضع الذبح، وبعد الوصول يجرى ما يلزم.

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣۴) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَ الْمُقِيمِى الصَّلَاةِ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣۵)

بشّر المخبتين: يمكن أن يتساءل الناس عن الآيات السابقة. ومنها التعليمات الواردة بخصوص الاضحية، كيف شرّع الإسلام تقديم القرابين لكسب رضى اللّه؟ وهل اللّه سبحانه بحاجة إلى قربان؟ وهل كان ذلك متّبعاً فى الأديان الاخرى، أو يخصّ المشركين وحدهم؟

تقول أوّل آية- من الآيات موضع البحث- لإيضاح هذا الموضوع أنّ هذا الأمر لا يختص بكم، بل إنّ كل امّة لها قرابين: «وَلِكُلّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مّن بَهِيمَةِ الْأَنْعمِ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٠٠

مختصر الامثل ج٣ ٣۴٩

ذبح حيوان باسم اللّه ولكسب رضاه يبيّن إستعداد الإنسان للتضحية بنفسه فى سبيل اللّه، والاستفادة من لحم الاضحية وتوزيعه على الفقراء أمر منطقى.

ولذا يذكر القرآن فى نهاية هذه الآية: «فَإِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ». وبما أنّه إله واحد «فَلَهُ أَسْلِمُوا». وبشّر الذين يتواضعون لأحكامه الربانية و «بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ» «١».

ثم يوضّح القرآن المجيد فى الآية التالية صفات المخبتين (المتواضعين) وهى أربع: إثنتان منها ذات طابع معنوى، وإثنتان ذات طابع جسمانى.

يقول فى الأوّل: «الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ». لا يخافون فى غضبه دون سبب ولا يشكّون فى رحمته، بل إنّ خوفهم ناتج عن عظمة المسؤوليات التى بذمّتهم، واحتمال تقصيرهم فى أدائها، وليقينهم بجلال اللّه سبحانه يقفون بين يديه بكل خشوع.

والثانى: «وَالصبِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ». فهؤلاء يصبرون على ما يكابدونه فى حياتهم من مصائب وآلام، ولا يكفرون بأنعم اللّه أبداً، وبإيجاز نقول: يستقيمون وينتصرون.

والثالث والرابع: «وَالْمُقِيمِى الصَّلَوةِ وَمِمَّا رَزَقْنهُمْ يُنفِقُونَ». فمن جهة توطّدت علاقتهم ببارىء الخلق وإزدادوا تقرّباً إليه، ومن جهة اخرى إشتدّ إرتباطهم بالخلق بالإنفاق.

وَ الْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَ أَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣۶) لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَ لَا دِمَاؤُهَا وَ لكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)

لماذا الاضحية؟ عاد الحديث عن مراسم الحج وشعائره الإلهية والاضحية ثانية، ليقول أوّلًا: «وَالْبُدْنَ جَعَلْنَهَا لَكُم مّن شَعَائِرِ اللَّهِ». إنّ «البُدن»: وهى الإبل البدينة تعلّقت بكم من جهة، ومن جهة اخرى هى من شعائر اللّه وعلائمه فى هذه العبادة العظيمة، فالاضحية فى

---

(١) «المخبتين»: مشتقة من «الإخبات» وأصلها «خبت» وهى الأرض المستوية الواسعة التى يمشى الإنسان فيها بكلّ سهولة، كما جاءت بمعنى الإطمئنان والخضوع، لأنّ السير فى هذه الأرض يلازمه الإطمئنان، ولهذا تكون خاضعة مستسلمة للسائرين عليها.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۱

الحج من المظاهر الجليّة لهذه العبادة التى أشرنا إلى فلسفتها من قبل.

ثم تضيف الآية: «لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ» فمن جهة تستفيدون من لحومها وتطعمون الآخرين، ومن جهة اخرى تستفيدون من آثارها المعنوية بإيثاركم وسماحكم وعبادتكم اللَّه، وبهذا تتقرّبون إليه سبحانه وتعالى.

ثم تبيّن الآية كيفية ذبح الحيوان: «فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ». أى: اذكروا اسم اللَّه حين ذبح الحيوان وفى حالة وقوفه مع نظائره فى صفوف.

وليس لذكر اللَّه حين ذبح الحيوان أو نحر الناقة صيغة خاصة، بل يكفى ذكر اسم من أسماء اللَّه عليها، كما يبدو من ظاهر الآية.

«صوافّ»: جمع «صافّة» بمعنى الحيوان الواقف فى صفّ، وكما ورد فى الأحاديث فإنّ القصد من ذلك عقل رجلى الناقة الأماميّتين معاً حين وقوفها من أجل منعها من الحركة الواسعة حين النحر، وطبيعى أنّ أرجل الناقة تضعف حين تنزف مقداراً من الدم، فتتمدّد على الأرض، ويقول القرآن المجيد هنا: «فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ». أى عندما تستقر ويهدأ جانبها (كناية عن لفظ الأنفاس الأخيرة) فكلوا منها وأطعموا الفقير القانع والسائل المعتر.

الفرق بين «القانع» و «المعتر» هو أنّ القانع يطلق على من يقنع بما يُعطى وتبدو عليه علائم الرضى والإرتياح ولا يعترض أو يغضب، أمّا المعترّ فهو الفقير السائل الذى يطالبك بالمعونة ولا يقنع بما تعطيه، بل يحتجّ أيضاً.

إنّ عبارة «كُلُوا مِنْهَا» توجب أن يأكل الحجّاج من أضاحيهم، ولعلّها ترمى إلى مراعاة المساواة بين الحجّاج والفقراء.

وتنتهى الآية بالقول: «كَذلِكَ سَخَّرْنَهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». وإنّه لمن العجب أن يستسلم حيوان عظيم الجثّة هائل القوّة لطفل يعقل يديه معاً ثم ينحره.

تجيب الآية التالية عن هذه الأسئلة: «لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا». إنّ اللَّه ليس بحاجة إلى لحوم الأضاحى، فما هو بجسم، ولا هو بحاجة إلى شىء، وإنّما هو موجد كل وجود وموجود. إنّ الغاية من الاضحية كما تقول الآية: «وَلكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ». فالهدف هو أن يجتاز المسلمون مراحل التقوى ليبلغوا الكمال ويتقربوا إلى اللَّه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۲

إنّ جميع العبادات دروس فى التربية الإسلامية، فتقديم الاضحية- مثلًا- فيه درس الإيثار والتضحية والسماح والاستعداد للشهادة فى سبيل اللَّه، وفيه درس مساعدة الفقراء والمحتاجين. وعبارة «لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا» مع أنّ دماءها غير قابلة للاستفادة، ربّما تشير إلى الأعمال القبيحة التى كان يمارسها أعراب الجاهلية، الذين كانوا يلطّخون أصنامهم وأحياناً الكعبة بدماء هذه القرابين.

وقد اتّبعهم فى ممارسة هذا العمل الخرافى مسلمون جاهلون، حتى نهتهم هذه الآية المباركة.

ثم تشير الآية ثانيةً إلى نعمة تسخير الحيوان قائلة: «كَذلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيكُمْ».

إنّ الهدف الأخير هو التعرف على عظمة الخالق جلّ وعلا، لهذا تقول الآية فى الختام:

«وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ». اولئك الذين استفادوا من هذه النعم الإلهية فى طاعة اللَّه، وأنجزوا واجباتهم على خير وجه، ولم يقصّروا فى الإنفاق فى سبيل اللَّه أبداً.

وقد تؤدّى مقاومة خرافات المشركين التى أشارت إليها الآيات السابقة إلى إثارة غضب المتعصبين المعاندين، ووقوع إشتباكات محدودة أو واسعة، لهذا طمأن اللَّه سبحانه وتعالى المؤمنين بنصره: «إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا».

لتتّحد قبائل عرب الجاهلية مع اليهود والنصارى والمشركين فى شبه الجزيرة العربية للضغط على المؤمنين كما يحلو لهم، فلن يتمكّنوا من بلوغ ما يطمحون إليه، لأنّ اللَّه وعد المؤمنين بالدفاع عنهم وعداً تجلّى صدقه فى دوام الإسلام حتى يوم القيامة، ولا يختص الدفاع الإلهى عن المؤمنين فى الصدر الأوّل للإسلام وحسب، بل هو سارى المفعول أبد الدهر، فإن كنّا على نهج الذين آمنوا. فالدفاع

الإلهی عنّا أکید. ومن ذا الذی لا یلتمس دفاع اللَّه سبحانه عن عباده الصالحین؟

وفی الختام توضّح هذه الآیة موقف المشرکین وأتباعهم بین یدی اللَّه بهذه العبارة الصریحة: «إِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ کُلَّ خَوَّانٍ کَفُورٍ». اولئک الذین أشرکوا باللَّه حتی أنّهم ذکروا أسماء أوثانهم عند التلبیة. فثبتت علیهم الخیانة والکفر لأنعم اللَّه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۳

أُذنَ لِلَّذِینَ یُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلَی نَصْرِهِمْ لَقَدِیرٌ (۳۹) الَّذِینَ أُخْرِجُوا مِنْ دِیَارِهِمْ بِغَیْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ یَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَ لَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَ بِیَعٌ وَ صَلَوَاتٌ وَ مَسَاجِدُ یُذْکَرُ فِیهَا اسْمُ اللَّهِ کَثِیراً وَ لَیَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ یَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِیٌّ عَزِیزٌ (۴۰) الَّذِینَ إِنْ مَکَّنَّاهُمْ فِی الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوُا الزَّکَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْکَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (۴۱)

أوّل حکم بالجهاد: فی تفسیر مجمع البیان (والتفسیر الکبیر أیضاً) کان المشرکون یؤذون المسلمین ولا یزال یجیء مشجوج ومضروب إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله ویشکون ذلک إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فیقول لهم صلوات اللَّه علیه وآله: «اصبروا فإنّی لم اؤمر بالقتال». حتی هاجر، فأنزل اللَّه علیه هذه الآیة بالمدینة، وهی أوّل آیة نزلت فی القتال.

ولمّا وعد اللَّه المؤمنین بالدفاع عنهم فی الآیة السابقة یتّضح جیّداً الإرتباط بین هذه الآیات. تقول الآیة: إنّ اللَّه تعالی أذن لمن یتعرّض لقتال الأعداء وعدوانهم بالجهاد، وذلک بسبب أنّهم ظلموا: «أُذنَ لِلَّذِینَ یُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا». ثم أردفت بنصرة اللَّه القادر للمؤمنین «وَإِنَّ اللَّهَ عَلَی نَصْرِهِمْ لَقَدِیرٌ».

علیکم بالجدّ والعمل بکل ما تستطیعون من قدرة، وعندما تستحقون النصر بإخلاصکم ینجدکم اللَّه وینصرکم علی أعدائه، وهذا ما حدث للرسول صلی الله علیه و آله فی جمیع حروبه التی کانت تُکلّل بالنصر.

ثم توضّح هذه الآیات للمظلومین- الذین أذن لهم بالدفاع عن أنفسهم- بواعث هذا الدفاع، ومنطق الإسلام فی هذا القسم من الجهاد فتقول: «الَّذِینَ أُخْرِجُوا مِن دِیرِهِم بِغَیْرِ حَقّ». وذنبهم الوحید أنّهم موحّدون: «إِلَّا أَن یَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ».

ثم تستعرض الآیة واحداً من جوانب فلسفة تشریع الجهاد فتقول: «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِیَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسجِدُ یُذْکَرُ فِیهَا اسْمُ اللَّهِ کَثِیرًا». أی إنّ اللَّه إن لم یدافع عن المؤمنین، ویدفع بعض الناس ببعضهم عن طریق الإذن بالجهاد،

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۴

لهدّمت أدیرة وصوامع ومعابد الیهود والنصاری والمساجد التی یذکر فیها اسم اللَّه کثیراً.

وکل دعوة لعبادة اللَّه وتوحیده مضادّة للجبابرة الذین یریدون أن یعبدهم الناس تشبّهاً منهم باللَّه تعالی، لهذا یهدّمون أماکن توحید اللَّه وعبادته، وهذا من أهداف تشریع الجهاد والإذن بمقاتلة الأعداء. «الصوامع»: جمع «صومعة» وهی عادةً مکان خارج المدینة بعید عن أعین الناس مخصّص لمن ترک الدنیا من الزهّاد والعبّاد. و «البِیَع»: جمع بیعة بمعنی معبد النصاری، ویطلق علیها کنیسة أیضاً. و «الصلوات»: جمع صلاة، بمعنی معبد الیهود، ویری البعض أنّها معرّبة لکلمة «صلوتا» العبریة، التی تعنی المکان المخصّص بالصلاة. وأمّا «المساجد»: فجمع مسجد، وهو موضع عبادة المسلمین. والصوامع والبیع، رغم أنّها تخصّ النصاری، إلّاأنّ إحداهما معبد عام والاخری لمن ترک الدنیا.

وفی الختام أکّدت هذه الآیة ثانیة وعد اللَّه بالنصر: «وَلَیَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن یَنصُرُهُ» ولا شکّ فی إنجاز هذا الوعد، لأنّه من رب العزة القائل: «إِنَّ اللَّهَ لَقَوِیٌّ عَزِیزٌ»، من أجل ألّا یتصوّر المدافعون عن خطّ التوحید أنّهم وحیدون فی ساحة قتال الحقّ للباطل، ومواجهة جموع کثیرة من الأعداء الأقویاء.

و آخر آیة تفسّر المراد من أنصار اللَّه الذین وعدهم بنصره فی الآیة السابقة، وتقول:

«الَّذِینَ إِن مَّکَنهُمْ فِی الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَوةَ وَءَاتَوُا الزَّکَوةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنکَرِ».

إنّهم فئة لا تلهو ولا تلعب کالجبابرة بعد انتصارها، ولا یأخذها الکبر والغرور، إنّما تری النصر سلّماً لإرتقاء الفرد والجماعة، إنّها لن

تتحوّل إلى طاغوت جديد بعد وصولها إلى السلطة، لإرتباطها القوى باللّه، والصلاة رمز هذا الإرتباط بالخالق، والزكاة رمز للإلتحام مع الخلق، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دعامتان قويّتان لبناء مجتمع سليم، وهذه الصفات الأربع تكفى لتعريف هؤلاء الأفراد، ففى ظلّها تتمّ ممارسة سائر العبادات والأعمال الصالحة، وترسم بذلك خصائص المجتمع المؤمن المتطوّر.

وتقول الآية فى ختامها: «وَلِلَّهِ عِقِبَةُ الْأُمُورِ». وتعنى أنّ بداية أىّ قدرة ونصر من اللّه تعالى، وتعود كلّها فى الأخير إليه ثانية.

وقد أشارت هذه الآيات إلى أمرين مهمّين فى فلسفة الجهاد:

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۵

أوّلهما: جهاد المظلوم للظالم، وهو من حقوقه المؤكدة والطبيعية، التى يؤكّدها عقل الإنسان وفطرته. وليس له أن يستسلم للظلم.

وثانيهما: جهاد الطواغيت الذين ينوون محو ذكر اللّه من القلوب بتهديم المعابد التى هى مراكز لبثّ الوعى وإيقاظ الناس.

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٌ وَ ثَمُودُ (۴۲) وَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ (۴۳) وَ أَصْحَابُ مَدْيَنَ وَ كُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (۴۴) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ (۴۵)

لقد صدر أمر الجهاد للمسلمين بعد أن ذاقوا- كما ذكرت الآيات السابقة- وقد طمأنت الآيات- موضع البحث- الرسول صلى الله عليه و آله والمؤمنين وخفّفت عنهم من جهة، وبيّنت لهم أنّ العاقبة السيئة تنتظر الكفرة من جهة اخرى، فقالت: «وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ». أى إذا كذّبك هؤلاء القوم فلا تبتئس ولا تحزن، فالأقوام السابقة قد كذّبت رسلها أيضاً، وأضافت: «وَقَوْمُ إِبْرهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ».

وكذلك كذّب أهالى مدينة «مدين» نبيّهم «شعيب»، وكذّب فرعون وقومه نبيّهم «موسى» «وَأَصْحبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى .

وإنّ هذه المعارضة والتكذيب لن تؤثّر فى روحك الطاهرة ونفسك المطمئنة، مثلما لم تؤثّر فى أنبياء كبار قبلك ولم تعق مسيرتهم التوحيدية ودعوتهم إلى الحق والعدل قطّ.

إلّا أنّ هؤلاء الكفرة الأغبياء يتصورون إمكانية مواصلة هذه الأساليب المخزية.

«فَأَمْلَيْتُ لِلْكفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ». أجل، أمهل اللّه الكافرين ليؤدّوا إمتحانهم وليتمّ الحجة عليهم فأغرقهم بنِعَمه، ثم حاسبهم حساباً عسيراً.

«فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» «۱» ورأيت كيف أنكرت عليهم أعمالهم، وبيّنت لهم أعمالهم القبيحة، لقد سلبت منهم نعمتى وجعلتهم على أسوأ حال ... سلبت سعادتهم الدنيوية وعوّضتهم بالموت.

---

(۱) «النكير»: تعنى الإنكار وهنا تعنى فرض العقاب.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۶

آخر آية موضع البحث يبيّن اللّه تعالى كيفية عقاب الكفار بجملة موجزة ذات دلالة واسعة: «فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ».

وأضافت الآية أنّ سقف بيوتها قد باتت أسفل البناء: «فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا». أى إنّ الواقعة كانت شديدة حتى أنّ السقوف إنهارت أوّلًا ثم الجدران على السقوف «وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ» فما أكثر الآبار المترعة بمياهها العذبة، ولكنّها غارت فى الأرض بعد هلاك أصحابها فأصبحت معطّلة لا نفع فيها.

«وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ» «۱». أجل ما أكثر القصور المشيدة التى إرتفعت شاهقة وزُيّنت، إلّاأنّها أضحت خرائب بعد أن هلك أصحابها، والنتيجة إنّهم تركوا مساكنهم وقصورهم المجللة، وأهملوا مياههم وعيونهم التى كانت مصدر حياتهم وعمران أراضيهم وذهبوا، وكذلك الآبار الغنيّة بالماء أصبحت معطّلة لا ماء فيها.

أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ

(۴۶) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (۴۷) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَ هِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (۴۸)

السير فى الأرض والعبرة: تحدثت الآيات السابقة عن الأقوام الظالمة التى عاقبها اللَّه على ما إقترفت أيديهم فدمّر أحياءهم، وأكّدت الآية الاولى هذه القضيّة فقالت: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا».

أجل، تحدّثنا عن خرائب قصور الظلمة، ومنازل الجبابرة المهدّمة، وعبدة الدنيا.

إنّ هذه الخرائب كتب ناطقة تتحدّث عن ماضى هؤلاء الأقوام، ونتائج أعمالهم وسلوكهم فى الحياة، وعن أعمالهم المشؤومة، وأخيراً عن العقاب الذى صبّه اللَّه عليهم.

ولإيضاح حقيقة هذا الكلام بشكل أفضل قال القرآن المجيد: «فَإِنَّهَا لَاتَعْمَى الْأَبْصرُ

---

(۱) «المشيد»: مشتقة من «شيد» ذات معنيين: أوّلهما الإرتفاع، والثانى الجصّ، فتعنى لفظة «قصر مشيد» القصرالمرتفع.

والمعنى الثانى القصر الذى بنى على اسس ثابتة قويّة ليصان من حوادث الزمان، وبما أنّ معظم منازل ذلك العصر تبنى من الطين، فإنّ المنزل الذى يبنى بالجصّ يكون أقوى من هذه البيوت ويكون متميّزاً عنها.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۷

وَلكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ».

إنّ الذين يفقدون بصرهم لا يفقدون بصيرتهم، بل تراهم أحياناً أكثر وعياً من الآخرين. أمّا العمى الحقيقيون فهم الذين تعمى قلوبهم، فلا يدركون الحقيقة أبداً. فى تفسير القمى عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «شرّ العمى، عمى القلب». وفى الكافى: «وأعمى العمى عمى القلب».

وترسم الآية الثانية- موضع البحث- صورة اخرى لجهل الأغبياء وعديمى الإيمان فتقول: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ» فردّ عليهم ألّا تعجلوا «وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ».

فلا فرق عنده بين الساعة واليوم والسنة: «وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ».

وفى آخر آية نجد تأكيداً على ما سبق أن ذكرته الآيات الآنفة الذكر من إنذار الكفار المعاندين بأنّه ما أكثر القرى والبلاد التى أمهلناها ولم ننزل العذاب عليها ليفيقوا من غفلتهم، ولمّا لم يفيقوا وينتبهوا أمهلناهم مرّة اخرى ليغرقوا فى النعيم والرفاهية، وفجأةً نزل عليهم العذاب: «وَكَأَيّن مّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا».

إنّ اولئك الأقوام كانوا مثلكم يشكون من تأخّر العذاب عليهم، ويسخرون من وعيد الأنبياء، ولا يرونه إلّاباطلًا، إلّاأنّهم ابتلوا بالعذاب أخيراً ولم ينفعهم صراخهم أبداً «وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ». أجل كل الامور تعود إلى اللَّه، وتبقى جميع الثروات فيكون اللَّه وارثها.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۴۹) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۵۰) وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (۵۱)

تحدثت الآيات السابقة عن تعجيل الكفر والعذاب الإلهى، وإنّ ذلك ليس من شأن النبى صلى الله عليه و آله وإنّما يرتبط بمشيئة اللَّه تعالى، فأوّل آية من الآيات أعلاه تقول: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

وترسم الآيتان التاليتان صورةً للبشرى واخرى للإنذار، لأنّ رحمة اللَّه واسعة، فتقدم على عقاب اللَّه. تتحدّث أوّلًا عن البشرى: «فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ». يتطهّرون بماء المغفرة الإلهية أوّلًا، فتطمئن ضمائرهم، ثم تشملهم نعم اللَّه ورحمته.

عبارة «رزق كريم» ذات مفهوم واسع يضمّ جميع الأنعم المادية والمعنوية.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۸

وأضافت الآیـة اللاحقة: «وَالَّذِینَ سَعَوْا فِی ءَایَاتِنَا مُعَاجِزِینَ أولئِکَ أَصْحبُ الْجَحِیم» «۱». أی إنّ الـذین حـاولوا تخریب الآیات الإلهیة ومحوها، وکانوا یعتقدون بأنّ لهم القدرة علی مغالبة إرادة اللَّه المطلقة، فهم أصحاب الجحیم.

«جحیم»: من مادّة «جحم» بمعنی شـدّة توقّد النار، وتقال کذلک لشدّة الغضب، فعلی هذا تطلق کلمة (الجحیم) علی المکان المشـتعل بالنیران، وهی هنا تشیر إلی نار الآخرة.

وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رَسُولٍ وَ لَا نَبِیٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّی أَلْقَی الشَّیْطَانُ فِی أُمْنِیَّتِهِ فَیَنْسَخُ اللَّهُ مَا یُلْقِی الشَّیْطَانُ ثُمَّ یُحْکِمُ اللَّهُ آیَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۵۲) لِیَجْعَلَ مَا یُلْقِی الشَّیْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقَاسِیَةِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِینَ لَفِی شِقَاقٍ بَعِیدٍ (۵۳) وَ لِیَعْلَمَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ فَیُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِینَ آمَنُوا إِلَی صِرَاطٍ مُسْتَقِیمٍ (۵۴)

وساوس الشـیاطین فی مساعی الأنبیاء: تناولت الآیات السابقـة محاولات المشـرکین والکفرة لمحو التعالیم الإلهیـة والإسـتهزاء بها، أمّا الآیات موضع البحث فقـد تضـمّنت تحذیراً مهمّاً حیث قالت: إنّ هذه المؤامرات لیست جدیدة، فالشـیاطین دأبوا منذ البدایة علی إلقاء وساوسـهم ضدّ الأنبیاء. فی البدایة تقول الآیة: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِکَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِیّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّی أمراً لصالح الدین والمجتمع وفکّر فی خطّة لتطویر العمل «أَلْقَی الشَّیْطنُ فِی أُمْنِیَّتِهِ» إلّاأنّ اللَّه لم یترک نبیّه وحـده إزاء إلقاءات الشـیاطین «فَیَنسَخُ اللَّهُ مَا یُلْقِی الشَّیْطنُ ثُمَّ یُحْکِمُ اللَّهُ ءَایتِهِ». إنّ هـذا العمـل یسیر علی اللَّه تعـالی، لأنّه علیم بجمیع هـذه المـؤامرات الدنیئـة، ویعرف کیف یحبطهـا «وَاللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ».

إلّا أنّ المؤامرات الشـیطانیة التی کان یحیکها المشـرکون والکفرة، کانت تشکّل ساحة لإمتحان المؤمنین والمتآمرین فی آنٍ واحد، إذ تضیف الآیة: «لِّیَجْعَلَ مَا یُلْقِی الشَّیْطنُ فِتْنَةً

---

(۱) «سعوا»: مشتقة من «السعی» وتعنی فی الأساس الهرولة، وهنا المحاولة فی تخریب الآیات الإلهیةومحوها.

«المعاجزون»: مشتقة من «العجز» وتعنی هنا الذی یحاول الغلبة علی قدرة اللَّه غیر المحدودة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۰۹

لِّلَّذِینَ فِی قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِیَةِ قُلُوبُهُمْ». «وَإِنَّ الظَّالِمِینَ لَفِی شِقَاقٍ بَعِیدٍ» فهم بعیدون عن الحق لشدّة عداوتهم وعنادهم.

وکـذلک الهدف من هذا البرنامج: «وَلِیَعْلَمَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّکَ فَیُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ». وطبیعی أنّ اللَّه لا یترک المـؤمنین الـواعین المطـالبین بحقـوقهم والمـدافعین عن الحق وحـدهم فی هـذا الطریق الوعر «وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِینَ ءَامَنُوا إِلَی صِرَاطٍ مُّسْتَقِیمٍ».

إنّ کلمة الرسول تطلق علی أنبیاء لهم رسالات من اللَّه أمروا بنشرها بین الناس.

أمّا کلمة «النبی» وهو الذی ینبأ بالوحی الإلهی رغم أنّه لم یُکلّف بإبلاغه بشکل واسع.

وَ لَا یَزَالُ الَّذِینَ کَفَرُوا فِی مِرْیَةٍ مِنْهُ حَتَّی تَأْتِیَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ یَأْتِیَهُمْ عَذَابُ یَوْمٍ عَقِیمٍ (۵۵) الْمُلْکُ یَوْمَئِذٍ لِلَّهِ یَحْکُمُ بَیْنَهُمْ فَالَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِی جَنَّاتِ النَّعِیمِ (۵۶) وَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیَاتِنَا فَأُولَئِکَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِینٌ (۵۷) وَ الَّذِینَ هَاجَرُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَیَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَیْرُ الرَّازِقِینَ (۵۸) لَیُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا یَرْضَوْنَهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِیمٌ حَلِیمٌ (۵۹)

تحـدثت الآیـات السابقـة عن محاولات المخـالفین فی محـو الآیـات الإلهیـة، أمّا الآیـات الـتی نقـف فی ضوئهـا، فأشـارت إلی هـذه المحاولات من قبل أشـخاص متعصبین قساة. تقول الآیـة الاولی: «وَلَا یَزَالُ الَّذِینَ کَفَرُوا فِی مِرْیَةٍ مِّنْهُ حَتَّی تَأْتِیَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ یَأْتِیَهُمْ عَذَابُ یَوْمٍ عَقِیمٍ». بدیهی أنّ الآیة هنا قصدت فئة من الکفار لا الکفار کلّهم، لأنّ الکثیر منهم أسـلموا والتحقوا بالنبی صـلی الله علیه و آله وبصـفوف المسلمین، قصدت الآیة زعماء الکفار والمعاندین والمتعصبین بقوّة والحاقدین الذین لم یؤمنوا قطّ، واستمرّوا فی عرقلة المسیرة الإسلامیة.

وتعنی کلمـة «مریـة» الشکّ والتردید، وتبیّن لنا الآیة أنّ هؤلاء الکفرة لم یکونوا یوماً علی یقین ببطلان الإسـلام ودعوة النبی صـلی الله علیه و آله بالرغم من إظهارهم لذلک فی کلماتهم.

والمراد من «الساعة» ختام العالم وعشیّة یوم القیامة، والتی رافقت کلمة «بغتة».

ویقصد ب «عَذَابُ یَوْمٍ عَقِیمٍ» عقاب یوم القیامة، وقد وصف یوم القیامة بالعقم لأنّه لا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۱۰

یوم یلیه لینهض المرء للقیام بأعمال خیّرة تعوّض عمّا فاته وتؤثّر فی مصیره. ثم أشارت الآیـة التالیة إلی السیادة المطلقة لربّ العالمین یوم القیامة: «الْمُلْکُ یَوْمَئِذٍ لِلَّهِ». وهذا أمر ملازم للّهالحاکم الدائم والمالک المطلق، ولیس لیوم القیامة فقط.

ولکن کل هذا یزول وتتّضح حقیقة وحدانیة المالک والحاکم یومئذ.

وبمـا أنّ اللّه هو المالـک الحقیقی، فهو إذن الحـاکم الحقیقی، وتعمّ حکومته علی المؤمنین والکافرین علی السواء، ونتیجـة ذلک کما یقـول القرآن المجیـد: «فَالَّذِینَ ءَامَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَ اتِ فِی جَنتِ النَّعِیمِ». الجنّات الـتی تتـوفّر فیهـا جمیع المواهب وکـل الخیرات والبرکات.

ویضیف القرآن الکریم: «وَالَّذِینَ کَفَرُوا وَکَذَّبُوا بَایَاتِنَا فَأُولئِکَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِینٌ».

عذابٌ یذلّ الکفرة والذین کذّبوا بآیات اللّه، اولئک الذین عاندوا اللّه واستکبروا علی خلقه یهینهم اللّه.

وبما أنّ الآیات السابقة تناولت المهاجرین من الذین طردوا من دیارهم وسـلبت أموالهم، لأنّهم قالوا: ربّنا اللّه، ودافعوا عن شریعته، فقد اعتبرتهم الآیـة التالیـة مجموعـة ممتازة جـدیرة بالرزق الحسن وقالت: «وَالَّذِینَ هَاجَرُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَیَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَیْرُ الرَّازِقِینَ».

فی تفسیر القرطبی: سبب نزول هذه الآیة أنّه لمّا مات بالمدینة عثمان بن مظعون وأبو سلمة بن عبدالأسد، قال بعض الناس: من قتل فی سبیل اللّه أفضل ممّن مات حتف أنفه، فنزلت هذه الآیة مسویّة بینهم، وأنّ اللّه یرزق جمیعهم رزقاً حسـناً. وظاهر الشـریعة یدلّ علی أنّ المقتول أفضل.

وعرضت الآیة الأخیرة صورة من هذا الرزق الحسن: «لَیُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا یَرْضَوْنَهُ». فإذا طردوا من منازلهم فی هذه الدنیا ولاقوا الصـعاب، فإنّ اللّه یأویهم فی منازل طیّبة فی الآخرة ترضیهم من جمیع الجهات.

وتنتهی هـذه الآیـة بعبـارة: «وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِیمٌ حَلِیمٌ». أجـل، إنّ اللّه عـالم بمـا یقـوم به عبـاده، وهـو فی نفس الوقت حلیم لاـ یسـتعجل فی عقابهم، من أجل تربیة المؤمنین فی ساحة الإمتحان هذه، ولیخرجوا منها وقد صلب عودهم وإزدادوا تقرّباً إلی اللّه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۱۱

ذلِکَ وَ مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِیَ عَلَیْهِ لَیَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (۶۰) ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ یُولِجُ اللَّیْلَ فِی النَّهَارِ وَ یُولِجُ النَّهَارَ فِی اللَّیْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ بَصِیرٌ (۶۱) ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِیُّ الْکَبِیرُ (۶۲)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: إنّ الآیة الاولی نزلت فی قوم من مشرکی مکة، لقوا قوماً من المسلمین للیلتین بقیتا من المحرم، فقالوا:

إنّ أصـحاب محمّـد لاـ یقاتلون فی هـذا الشـهر. فحملوا علیهم، فناشـدهم المسـلمون أن لا یقاتلوهم فی الشـهر الحرام فأبوا، فأظفر اللّه المسلمین بهم.

التّفسیر

من هم المنتصـرون؟ حـدّثتنا الآیـات السابقـة عن المهـاجرین فی سبیل اللّه، وما وعـدهم اللّه من رزق حسن یوم القیامـة. ومن أجل ألّا یتصور المرء أنّ الوعـد الإلهی یختص بالآخرة فحسب، تحدّثت الآیة- موضع البحث- فی مطلعها عن إنتصارهم فی ظل الرحمة الإلهیة

فى هذا العالم: «ذلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ». إشارة إلى أنّ الدفاع عن النفس ومجابهة الظلم حق طبيعى لكل إنسان.

وبما أنّ الوعد بالنصر الذى يقوى القلب لابدّ وأن يصدر من مقتدر على ذلك. لهذا تستعرض الآية قدرة اللّه فى عالم الوجود التى لا تنتهى، فتقول: «ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ الَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى الَّيْلِ». فما أن يقل من أحدهما حتى يزداد فى الآخر وفق نظام مدروس.

«يولج»: مشتقة من «الإيلاج» وهو فى الأصل من الولوج أى الدخول، وهذه العبارة تشير إلى التغييرات التدريجية المنظّمة تنظيماً تامّاً، كمسألة الليل والنهار، فما يقلّ أحدهما إلّاليزداد الآخر على مدى فصول السنة.

وتنتهى الآية ب «وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ». أجل، إنّ اللّه يلبّى حاجة المؤمنين، ويطّلع على حالهم وأعمالهم، ويعينهم برحمته عند اللزوم، مثلما يطّلع على أعمال ومقاصد أعداء الحق.

و آخر آية من الآيات السالفة الذكر فى الواقع دليل على ما مضى، حيث تقول: «ذلِكَ بِأَنَ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۱۲

اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِىُّ الْكَبِيرُ».

إن شاهدتم إنتصار الحق وهزيمة الباطل، فإنّ ذلك بلطف اللّه الذى ينجد المؤمنين ويترك الكافرين لوحدهم. إنّ المؤمنين ينسجمون مع قوانين الوجود العامة، بعكس الكافرين الذين يكون مآلهم إلى الفناء والعدم بمخالفتهم تلك القوانين.

أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (۶۳) لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِى الْأَرْضِ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۶۴) أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ وَ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (۶۵) وَ هُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (۶۶)

دلائل اللّه فى ساحة الوجود: تحدّثت الآيات السابقة عن قدرة اللّه غير المحدودة وأنّه الحق المطلق، وبيّنت هذه الآيات الأدلّة المختلفة على هذه القدرة الواسعة والحق المطلق وتقول أوّلًا: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً».

لقد اخضّرت الأرض المرتدية رداء الحزن- من أثر الجفاف- بعد ما نزل المطر عليها، فأصبحت تسرّ الناظرين. أجل «إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ». «لطيف»: مشتقة من «اللطف» بمعنى العمل الجميل الذى يمتاز برقّته؛ وكلمة «الخبير»: تعنى المطّلع على الامور الدقيقة.

يرسل اللّه المطر بقدرة وبخبرة منه، فإن زاده صار سيلًا، وإن نقصه كثيراً ساد الجفاف فى الأرض.

الآية التالية تعرض علامة اخرى على قدرة اللّه غير المتناهية، وهو قوله سبحانه وتعالى: «لَّهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ».

فهو سبحانه خالق الجميع ومالكهم، وبهذا الدليل يكون قادراً عليهم، لذا فهم يحتاجون إليه جميعاً، ولا يحتاج هو إلى شىء أو إلى أحد.

ويزداد هذا المعنى إشراقاً فى قوله سبحانه: «وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ».

والتحام صفتى الغنى والحميد جاء فى غاية الإحكام، لأنّ عدداً كبيراً من الناس أغنياء،

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۱۳

إلّاأنّهم بخلاء يستغلّون الآخرين ويعملون لذاتهم فقط، أمّا غنى اللّه سبحانه فهو مزيج من اللطف والسماح والجود والكرم، لذا استحقّ الحمد والثناء من عباده.

وتشير الآية التالية إلى نموذج آخر من تسخير اللّه تعالى الوجود للإنسان «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ» وجعل تحت اختياركم جميع المواهب والإمكانات فيها لتستفيدوا منها بأىّ صورة تريدون، وكذلك جعل السفن والبواخر التى تتحرّك وتمخر عباب البحار بأمره نحو مقاصدها. «وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ». إضافةً إلى «وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ». وذلك

من رحمة اللَّه لعباده ولطفه بهم، وهذا ما نلمسه فى ختام الآية المباركة: «إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ».

وتتناول الآية الأخيرة أهمّ قضية فى الوجود، أى قضية الحياة والموت فتقول: «وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ». أى كنتم تراباً لا حياة فيه فألبسكم لباس الحياة «ثُمَّ يُمِيتُكُمْ» وبعد إنقضاء دورة حياتكم يميتكم «ثُمَّ يُحْيِيكُمْ». أى يمنحكم حياة جديدة يوم البعث.

وتبيّن الآية ميل الإنسان إلى نكران نِعم اللَّه عليه قائلة: «إِنَّ الْإِنسنَ لَكَفُورٌ». فرغم كل ما أغدق اللَّه على الإنسان من أنعم فى الأرض والسماء، فى الجسم والروح، لاـ يحمده ولاـ يشكره عليها، بل يكفر بكلّ هذه النعم. ومع أنّه يرى كل الدلائل الواضحة والبراهين المؤكّدة لوجود اللَّه تبارك وتعالى، والشاهدة بفضله عليه وإحسانه إليه ينكر ذلك. فما أظلمه وأجهله.

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ وَ ادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (۶٧) وَ إِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (۶٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۶٩) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِى كِتَابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠)

لكل امّة عبادة: تناولت البحوث السابقة المشركين خاصة، ومخالفى الإسلام عامة، ممّن جادلوا فيما أشرق به الإسلام من مبادىء نسخت بعض تعاليم الأديان السابقة، وكانوا يرون من ذلك ضعفاً فى الشريعة الإسلامية، وقوة فى أديانهم، فى حين أنّ ذلك لا يشكّل ضعفاً إطلاقاً، بل هو نقطة قوّة ومنهج لتكامل الأديان ولذا جاء الفصل الربانى جلّياً «لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ». «المناسك»: جمع «منسك» أى مطلق العبادات، ومن

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣١۴

الممكن أن تشمل جميع التعاليم الإلهية. لهذا فإنّ الآية تبيّن أنّ لكل امّة شرعة ومنهاجاً يفى بمتطلّباتها بحسب الأحوال التى تعيشها، لكن ارتقاءها يستوجب تعاليم جديدة تلبّى مطامحها المترقية، وهذا ما صدعت به الآية المباركة وأنارته قائلة: «فَلَا يُنزِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ». فبما تقدّم لا ينبغى لهم منازعتك فى هذا الأمر. «وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٌ». تخاطب الآية النبى صلى الله عليه و آله أن يا أيّها النبى لا يؤثّر هؤلاء فى دعوتك الراشدة باعتراضاتهم الضالة، فالمهتدى إلى الصراط المستقيم أقوى من الضارب فى التيه.

ثم أضافت الآية: «وَإِن جدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ». فلو استمرّوا فى جدالهم ومنازعتهم معك، ولم يؤثّر فيهم كلامك.

فقل لهم: إنّ اللَّه أعلم بأعمالكم، وستحشرون إليه فى يوم يعود الناس فيه إلى التوحيد، وتحلّ جميع الإختلافات لظهور الحقائق لجميع الناس: «اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

وبما أنّ القضاء بين العباد يوم القيامة بحاجة إلى علم واسع بهم وإطّلاع دقيق بأعمالهم، ختمت الآيات هاهنا بقوله تعالى: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». و «إِنَّ ذلِكَ فِى كِتبٍ». أجل، إنّ جميع ذلك قد ثبت فى كتاب علم اللَّه الذى لا حدود له، كتاب عالم الوجود وعالم العلة والمعلول، عالم لا يضيع فيه شىء، فهو فى تغيير دائم، وكل هذه الموجودات حاضرة بين يدى اللَّه سبحانه بجميع صفاتها وخصائصها، وهذا من معانى القدرة الإلهية التى نلمسها فى قوله تعالى: «إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ».

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَ مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَ فَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧۴)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣١۵

معبودات أضعف من ذبابة: تابعت هذه الآيات الأبحاث السابقة عن التوحيد والشرك، فتحدثت ثانية عن المشركين وأفعالهم الخاطئة، فتقول الآية الاولى: «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطنًا». وهذا يبيّن بطلان عقيدة الوثنيين الذين كانوا يرون أنّ اللَّه سمح لهم بعبادة الأوثان وأنّها تشفع لهم عند اللَّه. وتضيف الآية «وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ». أى: يعبدون عبادةً لا يملكون دليلًا على صحّتها لا من

طريق الوحى الإلهى، ولا من طريق الاستدلال العقلى، ومن لا يعمل بدليل يظلم نفسه وغيره، ولا أحد يدافع عنه يوم الحساب، لهذا تقول الآية فى ختامها: «وَمَا لِلظلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ».

وتشير الآية الثانية- موضع البحث- إلى عناد الوثنيين وإستكبارهم عن الإستجابة لآيات اللّه تعالى، فى جملة وجيزة لكنها ذات دلالات كبيرة: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ».

وهنا يسفر التناقض بين المنطق القرآنى القويم وتعصب الجاهلية الذى لا يرضخ للحق ولا يفتح قلبه لندائه الرحيم، فما تليت عليهم آيات ربّهم إلّاظهرت علائم الإستكبار عنها فى وجوههم حتى إنّهم «يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا».

أى كأنّهم يريدون مهاجمة الذين يتلون عليهم آيات اللّه عزّ وجل وضربهم بقبضات أيديهم، تنفيساً عن التكبر البغيض فى قرارة أنفسهم.

«يسطون»: مشتقة من «السطوة» أى رفع اليد ومهاجمة الطرف الآخر.

وقد أمر القرآن المجيد الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أن يجيب هؤلاء المتغطرسين هاتفاً «قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذلِكُمُ النَّارُ». أى: إن زعمتم أنّ هذه الآيات البينات شرّ، لأنّها لا تنسجم مع أفكاركم المنحرفة، فإنّنى اخبركم بما هو شرّ منها، ألا وهو عقاب اللّه الأليم، النار التى أعدّها اللّه جزاءً: «وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

وترسم الآية الآتية صورة معبّرة لما كان عليه الوثنيون، وما يعبدونه من أشياء ضعيفة هزيلة تكشف عن بطلان آراء المشركين وعقيدتهم، مخاطبةً للناس جميعاً خطاباً هادياً أن «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ» وتدبّروا فيه جيّداً «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ». أجل، لو إجتمعت الأوثان كلها، وحتى العلماء والمفكّرين والمخترعين جميعاً، لما استطاعوا خلق ذبابة. فكيف تجعلون أوثانكم شركاء لخالق السماوات والأرض وما فيهن من آلاف مؤلّفة من أنواع المخلوقات فى البرّ والبحر، فى الصحارى والغابات، وفى أعماق الأرض؟

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۳۱۶

وتستكمل الآية البيان عن ضعف الأوثان وعجزها المطلق وأنّها ليست غير قادرة على خلق ذبابة فحسب، بل «وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيًا لَّايَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ».

ويعلو صدى الحق فى تقرير ضعف الوثن وعبدته فى قوله تعالى: «ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ».

وبعد أن عرض القرآن الكريم هذا المثال الواضح، قرّر حقيقة مهمة، وهى: «مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ».

فالمشركون لو كانوا على أدنى معرفة باللّه تعالى لما أنزلوا قدره إلى مستوى هذه الآلهة الضعيفة العاجزة ولما جعلوا مصنوعاتهم شركاء له، تعالى عما يفعلون علواً كبيراً، ولو كان لديهم أدنى معرفة بقدرة اللّه لضحكوا من أنفسهم وسخروا من أفكارهم، وتقول الآية فى النهاية: «إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ». أجل، إنّ اللّه قادر على كل شىء ولا مثيل لقدرته ولا حدّ، فهو ليس كآلهة المشركين التى لو إجتمعت لما تمكّنت من خلق ذبابة، بل ليس لها القدرة على إعادة ما سلبه الذباب منها.

اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧۵) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧۶) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَ جَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِى هذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

سبب النّزول

فى التفسير الكبير: قال الوليد بن المغيرة: أأنزل عليه الذكر من بيننا؟ فأنزل اللّه تعالى هذه الآية «اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣١٧

التّفسير

بما أنّ الآيات السابقة تناولت بحث التوحيد والشرك وآلهة المشركين الوهميّة، وبما أنّ بعض الناس قد اتّخذوا الملائكة أو بعض الأنبياء آلهة للعبادة، فإنّ أوّل الآيات موضع البحث تقول بأنّ جميع الرسل هم عباد اللَّه وتابعون لأمره: «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ».

أجل، إختار اللَّه من الملائكة رسلًا كجبرئيل، ومن البشر رسلًا كأنبياء اللَّه الكبار.

وختام الآية: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ». أى: إنّ اللَّه ليس كالبشر، لا يعلمون أخبار رسلهم فى غيابهم، بل إنّه على علم بأخبار رسله لحظة بعد اخرى، يسمع كلامهم ويرى أعمالهم.

وتشير الآية الثانية إلى مسؤولية الأنبياء فى إبلاغ رسالة اللَّه من جهة، ومراقبة اللَّه لأعمالهم من جهة اخرى، فتقول: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ». إنّه يعلم ماضيهم ومستقبلهم «وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ». فالجميع مسؤولون فى ساحة قدسه.

ليعلم الناس أنّ ملائكة اللَّه سبحانه وأنبياءه عليهم السلام عباد مطيعون له مسؤولون بين يديه، لا يملكون إلّاما وهبهم من لطفه، وقوله تعالى: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» إشارة إلى واجب ومسؤولية رسل اللَّه ومراقبته سبحانه لأعمالهم.

الآيتان التاليتان هما آخر آيات سورة الحج حيث تخاطبان المؤمنين وتبيّنان مجموعة من التعاليم الشاملة التى تحفظ دينهم ودنياهم وإنتصارهم فى جميع الميادين، وبهذه الروعة والجمال تختتم سورة الحج. فى البداية تشير الآية إلى أربعة تعليمات: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». وقد بيّنت الآية ركنين من أركان الصلاة، الركوع والسجود لأهميّتهما الاستثنائية فى هذه العبادة العظيمة.

ثم يصدر اللَّه أمره الخاص بالجهاد بالمعنى الشامل للكلمة، فيقول عزّ من قائل: «وَجهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ».

والمراد بالجهاد هى كل نوع من الجهاد فى سبيل اللَّه والإستجابة له وممارسة أعمال البرّ والجهاد مع النفس (الجهاد الأكبر) وجهاد الأعداء والظلمة (الجهاد الأصغر).

ولا شكّ فى أنّ حق الجهاد له معنىً واسع يشمل الكيف والنوع والمكان والزمان وسواها.

ولكن قد يثار سؤال هو: كيف يتحمل الجسم النحيف هذه الأعمال من المسؤوليات

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣١٨

والتعليمات الشاملة الواسعة؟ ولهذا تجيب بقية الآية الشريفة فتقول أوّلًا: «هُوَ اجْتَبَكُمْ». أى: حمّلكم هذه المسؤوليات بإختياركم من بين خلقه.

والعبارة الاخرى قوله جلّ وعلا: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ». أى: إذا دقّقتم جيّداً لم تجدوا صعوبة فى التكاليف الربّانية لإنسجامها مع فطرتكم التى فطركم اللَّه عليها، وهى الطريق إلى تكاملكم.

وثالث عبارة: «مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرهِيمَ».

إنّ إطلاق كلمة «الأب» على إبراهيم عليه السلام، إمّا بسبب كون العرب والمسلمين آنذاك من نسل إسماعيل عليه السلام غالباً، وإمّا لكون إبراهيم عليه السلام هو الأب الروحى للموحدين جميعاً.

ويليها تعبير: «هُوَ سَمكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هذَا». أى هو سمّاكم المسلمين فى الكتب السماوية السابقة.

وخامس عبارة خصّ بها المسلمين وجعلهم قدوة للُامم الاخرى هى قوله المبارك: «لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ».

وكون الرسول صلى الله عليه و آله شاهداً على جميع المسلمين يعنى إطلاعه على أعمال امّته. فجميع الامة شهداء، والأئمة الطاهرين

شهود ممتازون على هذه الامة.

وأعادت الآية فى ختامها بشكل مركّز الواجبات الخمسة فى ثلاث جمل هى «فَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ وَءَاتُوا الزَّكَوةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ». فإنّ اللَّه هو قائدكم وناصركم ومعينكم: «هُوَ مَوْلَكُمْ» و «فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ». أى: إنّ اللَّه أمركم بالإعتصام به لكونه خير الموالى وأجدر الأعوان.

«نهاية تفسير سورة الحج»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۱۹

۲۳ سورة المؤمنون

محتوى السورة: يمكن تقسيم مواضيع هذه السورة إلى الأقسام التالية:

۱- إنّ السورة يبدأ بالآية «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» وينتهى بعدد من الآيات التى تذكر صفات هى مدعاة لفلاح المؤمنين.

۲- وأشار هذه السورة إلى علائم اخرى للمؤمنين، التوحيد وآيات عظمة اللَّه وجلاله فى عالم الوجود.

۳- وشرح ما حدث لعدد من كبار الأنبياء.

۴- ووجّه الخطاب سبحانه وتعالى إلى المستكبرين يحذّرهم ببراهين منطقيّة تارةً، واخرى بتعابير دافعة عنيفة، ليعيد القلوب إلى طريق الصواب بالعودة إليه عزّ وجلّ.

۵- ثم بيّن فى بحث مركّز المعاد.

۶- وتناول قسم آخر سيادة اللَّه على عالم الوجود، وإطاعة العالم ولأوامره.

۷- بحثت هذه السورة عن حساب يوم القيامة، وجزاء الخير للمحسنين، وعقاب المذنبين. وينتهى السورة ببيان الغاية من خلق الإنسان.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة المؤمنين ختم اللَّه له بالسعادة إذا كان يدمن قراءتها فى كل جمعة، وكان منزله فى الفردوس الأعلى مع النبيين والمرسلين».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۲۰

ونؤكّد أنّ فضيلة السورة، إنّما يجب أن يرافق ذلک التمعّن فى معانيها والعمل بما أوجبته، لأنّ هذا الكتاب يبنى الذات الإنسانية ويربّيها.

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (۱) الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (۲) وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (۳) وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (۴) وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (۵) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (۶) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذلِکَ فَأُولئِکَ هُمُ العَادُونَ (۷) وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ رَاعُونَ (۸) وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (۹) أُولئِکَ هُمُ الْوَارِثُونَ (۱۰) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (۱۱)

صفات المؤمنين البارزة: اختيار اسم المؤمنين لهذه السورة لأنّه جاء فى بدايتها آيات شرحت بعبارات وجيزة معبّرة صفات المؤمنين، ومما يلفت النظر أنّها أشارت إلى مستقبل المؤمنين السعيد قبل بيان صفاتهم، إستنارةً للشوق فى قلوب المسلمين للوصول إلى هذا الفخر العظيم بإكتساب صفة المؤمنين. تقول الآية: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ».

«أفلح»: مشتقة من الفلح والفلاح، وتعنى فى الأصل الحرث والشقّ، ثم اطلقت على أىّ نوع من النصر والوصول إلى الهدف والسعادة بشكل عام، ولكلمة الفلاح معنىً واسعاً يضمّ الفلاح المادى والمعنوى، ويكون الإثنان للمؤمنين.

ثم تشرح الآية هذه الصفات فتؤكّد قبل كل شىء على الصلاة فتقول: «الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خشِعُونَ». «خاشعون»: مشتقة من خشوع، بمعنى التواضع وحالة التأدّب يتخذها الإنسان جسماً وروحاً بين يدى شخصية كبيرة، أو حقيقة مهمة تظهر فى

الإنسان وتبدو علاماتها على ظاهر جسمه.

والقرآن اعتبر الخشوع صفة المؤمنين، وليس إقامة الصلاة، إشارة منه إلى أنّ الصلاة ليست مجرد ألفاظ وحركات لا روح فيها ولا معنى، وإنّما تظهر فى المؤمن حين إقامة الصلاة حالة توجّه إلى اللّه تفصله عن الغير وتلحقه بالخالق.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۲۱

وروى- فى تفسير مجمع البيان- أنّ النبى صلى الله عليه و آله رأى رجلًا يعبث بلحيته فى صلاته، فقال: «أما إنّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه».

إشارة منه صلى الله عليه و آله إلى أنّ الخشوع الباطنى يؤثّر فى ظاهر الإنسان.

وثانى صفة للمؤمنين بعد الخشوع مما تذكره الآية: «وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ».

حقّاً نرى جميع حركات وسكنات المؤمنين تتجّه لهدف واحد مفيد وبنّاء.

وتشير الآية الرابعة إلى ثالث صفة من صفات المؤمنين الحقيقيين، وهى ذات جانب إجتماعى ومالى حيث تقول: «وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوةِ فعِلُونَ».

ورابع صفة من صفات المؤمنين هى الطهارة والعفة بشكل تام، وإجتناب أى معصية جنسية، حيث تقول الآية: «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حفِظُونَ» «۱». يحفظونها ممّا يخالف العفّة «إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ».

بما أنّ الغريزة الجنسية أقوى الغرائز عند الإنسان تمرّداً، ولضبط النفس عنها يحتاج المرء إلى التقوى والإيمان القوى، لهذا أكدّت الآية التالية على هذه المسألة: «فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْعَادُونَ».

إنّ عبارة المحافظة على «الفروج» قد تكون إشارة إلى أنّ فقدان المراقبة المستمرة فى هذا المجال تؤدّى بالفرد إلى خطر التلوّث بالانحرافات الكثيرة.

وأشارت الآية الثامنة- موضع البحث- إلى الصفتين الخامسة والسادسة من صفات المؤمنين البارزة، حيث تقول: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ».

إنّ المحافظة على «الأمانة» بالمعنى الواسع للكلمة، وكذلك الالتزام بالعهد والميثاق بين يدى الخالق والخلق من صفات المؤمنين البارزة، وتعنى الأمانة بمفهومها الواسع أمانة اللّه ورسوله إضافة إلى أمانات الناس، وكذلك ما أنعم اللّه على خلقه. وتضمّ أيضاً أمانة اللّه الدين الحق والكتب السماوية وتعاليم الأنبياء القدماء، وكذلك الأموال والأبناء والمناصب جميعها أمانات اللّه سبحانه وتعالى بيد البشر.

وهكذا أنّ الحكومة وديعة إلهية مهمة جدّاً يجب إيداعها بيد من هو أهلها.

وبيّنت الآية التاسعة من الآيات موضع البحث آخر صفة من صفات المؤمنين حيث تقول: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوتِهِمْ يُحَافِظُونَ».

---

(۱) «الفروج»: جمع فرج، وهو كناية عن الجهاز التناسلى.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۲۲

وممّا يلفت النظر أنّ أوّل صفة للمؤمنين كانت الخشوع فى الصلاة، وآخرها المحافظة عليها، لأنّ الصلاة أهمّ رابطة بين الخالق والمخلوق، وأغنى مدرسة للتربية الإنسانية.

وإنّ الصلاة إن اقيمت على وفق آدابها اللازمة، أصبحت أرضية أمينة لأعمال الخير جميعاً.

بعد بيان هذه الصفات الحميدة، بيّنت الآية التالية حصيلة هذه الصفات فقالت: «أُولئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ».

اولئك الذين يرثون الفردوس ومنازل عالية وحياة خالدة: «الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خلِدُونَ». «الفردوس»: الجنة العالية، وأفضل

البساتين.

إنّ هذه المنزلة العالية- حسب ظاهر الآيات المذكورة أعلاه- خاصة بالمؤمنين الذين لهم هذه الصفات، ونجد أهل الجنة الآخرين فى منازل أقلّ أهمية من هؤلاء المؤمنين.

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)

مراحل تكامل الجنين فى الرحم: تبيّن الآيات موضع البحث- وقسم من الآيات التالية لها- السبيل لكسب الإيمان والمعرفة، حيث يمسك القرآن بيد الإنسان ليأخذه إلى «عالم النفس» وليكشف له أسرار باطنه وهو «السير الأنفسى»، وتثير الآيات التالية لها إنتباه الإنسان إلى عالم الظاهر والمخلوقات المدهشة فى عالم الوجود وسير عالم الآفاق، وهو «السير الآفاقى».

تقول الآيات أوّلًا: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسنَ مِن سُللَةٍ مّن طِينٍ» «١».

وتضيف الآية التالية: «ثُمَّ جَعَلْنهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ».

وفى الواقع فإنّ الآية الاولى تشير إلى بداية وجود جمع البشر من آدم وأبنائه وأنّهم خلقوا جميعاً من التراب، إلّاأنّ الآية التالية تشير إلى تداوم واستمرارية نسل الإنسان بواسطة تركيب نطفة الذكر ببويضة الانثى فى الرحم.

---

(١) «السلالة»: تعنى الشيء الذى يستخلص من شيء آخر، وهى فى الحقيقة خلاصة ونتيجة منه.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٢٣

والتعبير عن الرحم ب «قرار مكين»، أى القرار الآمن، إشارة إلى أهمية الرحم فى الجسم، حيث يقع فى مكان أمين محفوظ من جميع الجهات، يحفظه العمود الفقرى من جهة، وعظم الحوض القوى من جهة اخرى، وأغشية البطن العديدة من جهة ثالثة، ودفاع اليدين يشكّل حرزاً رابعاً له، وكل ذلك شواهد على موضع الرحم الآمن.

ثم تشير الآية الثالثة إلى المراحل المدهشة والمثيرة لتدرّج النطفة فى مراحلها المختلفة، واتخاذها شكلًا معيّناً فى كل منها فى ذلك القرار المكين، حيث تقول: إنّنا جعلنا من تلك النطفة على شكل قطعة دم متخثّر (علقة) ثم بدّلناها على شكل قطعة لحم ممضوغ (مضغة)، ثم جعلنا من هذه المضغة عظاماً، وأخيراً ألبسنا هذه العظام لحماً: «ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظمًا فَكَسَوْنَا الْعِظمَ لَحْمًا».

وفى الختام أشارت الآية إلى آخر مرحلة والتى تعتبر- فى الحقيقة- أهمّ مرحلة فى خلق البشر، بعبارة عميقة وذات معنى كبير: «ثُمَّ أَنشَأْنهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخلِقِينَ». مرحباً بهذه القدرة الفريدة، التى خلقت فى ظلمات الرحم هذه الصورة البديعة، وصاغت من قطرة ماء كل هذه الامور المدهشة.

طوبى لهذا العلم والحكمة والتدبير، الذى خلق فى هذا الموجود البسيط كل هذه القابليات والجدارة، تعالى اللَّه فقد تجلّت قدرته فيما خلق.

وتنتقل الآية التالية من تناول مسألة التوحيد ومعرفة المبدأ- بشكل دقيق وجميل- إلى مسألة المعاد حيث تقول: «ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذلِكَ لَمَيّتُونَ».

ومن أجل أن لا- يعتقد المرء بأنّ الموت نهاية كل شيء، تقول الآية: «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيمَةِ تُبْعَثُونَ». أى إنّ خلقكم بهذه الصورة المدهشة لم يكن عبثاً أو لتعيشوا أيّاماً معدودات، فتضيف الآية أنّكم ستبعثون يوم القيامة فى مستوى أعلى وفى عالم أوسع.

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَ مَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ

لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكَمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ لَكَمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (٢٠) وَ إِنَّ لَكُمْ فِی الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِیكُمْ مِمَّا فِی بُطُونِهَا وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٢۴

مرّة اخرى مع علائم التوحيد: تحدثت الآيات السابقة عن آيات اللَّه العظيمة فى وجودنا، وتناولت هذه الآيات بعدها عالم الظاهر وآفاق الكون وعظمة خلق الأرض والسماوات، حيث قالت الآية الاولى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ».

فإنّ الآية تعنى طبقات السماء السبع.

وربّما يتوهّم أنّ العالم بهذه السعة والعظمة ألا يوجب أن يغفل اللَّه تعالى عن إدارته؟

فتجيب الآية مباشرةً: «وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غفِلِينَ».

وأشارت الآية التالية إلى أحد مظاهر القدرة الإلهية، الذى يعتبر من بركات السماوات والأرض، ألا وهو المطر، حيث تقول: «وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ».

ثم أشارت الآية إلى قضيّة أكثر أهميّة، هى قضية إحتياطى المياه الجوفية فتقول: «فَأَسْكَنَّهُ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقدِرُونَ».

نحن نعلم أنّ القشرة السطحية من الأرض تتكوّن من طبقتين مختلفتين:

إنّ اللَّه الرحيم جعل القشرة الاولى من سطح الأرض نافذةً، وتليها قشرة غير نافذة تحافظ على المياه الجوفية، فتكون احتياطاً للبشر يستخرجها عند الحاجة عن طريق الآبار، أو تخرج بذاتها عن طريق العيون، دون أن تفسد أو توجّه للإنسان أقلّ أذى «١».

وتشير الآية التالية إلى الخير والبركة فى نعمة المطر، أى المحاصيل الزراعية الناتجة عنه فتقول: «فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنتٍ مّن نَّخِيلٍ وَأَعْنبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ». فمضافاً إلى التمر والعنب اللذين يعتبران أهمّ المحاصيل الزراعية فانّ فيها أنواع اخرى من الفواكه كثيرة.

وممّا يلفت النظر من الآيات أعلاه أنّ منشأ حياة الإنسان فى ماء النطفة، ومنشأ حياة النبات من ماء المطر، وفى الحقيقة ينبع هذان النموذجان للحياة من الماء.

ثم تشير الآية التالية إلى شجرة مباركة اخرى نمت من ماء المطر، إضافةً إلى بساتين النخيل والكروم والأشجار والفاكهة الاخرى: «وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ» «٢».

إنّ جملة «طُورِ سَينَاءَ» إشارة إلى جبل الطور المعروف فى صحراء سيناء أو ذات جانب

---

(١) ويجب ملاحظة أنّ الماء الملوّث يصفى عند مروره من القشرة النافذة فى معظم الأوقات.

(٢) صبغ الآكلين: غذاء يؤكل مع الخبز.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٢۵

وصفى يعنى الجبل ذى الخيرات، أو الجبل ذى الأشجار الكثيرة، أو الجبل الجميل (لأنّ «الطور» يعنى الجبل، و «سيناء» تعنى ذات البركة والجمال والشجر).

«صبغ»: تعنى فى الأصل اللون، وبما أنّ الإنسان يلوّن خبزه مع المرق، لهذا اطلق على جميع أنواع المرق اسم الصبغ.

بعد بيان جانب من أنعم اللَّه فى عالم النبات التى تنمو على المطر، يلى ذلك بحث جانب مهم من أنعم اللَّه وهباته فى عالم الحيوان: «وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعمِ لَعِبَرةً».

ثم تشرح الآية «العبرة» فتقول: «نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا». أجل إنّ الحيوان يدرّ حليباً لذيذاً يعتبر غذاءً كاملًا، ويمنح الجسم حرارة

کبیرة، ویخرج الحلیب من بین الـدم علی شـکل دفعات کما ینزف الـدم، لتعلموا قـدرة اللّه حیث یتمکّن من خلق غذاء طاهر لذیذ من بین أشیاء تبدو ملوّثة.

ثم تضیف الآیة: «وَلَکُمْ فِیهَا مَنفِعُ کَثِیرَةٌ وَمِنْهَا تَأْکُلُونَ».

کما یستفاد من الحیوانات فی الرکوب فی البرّ، والسفن فی البحر «وَعَلَیْهَا وَعَلَی الْفُلْکِ تُحْمَلُونَ».

کل هـذه الخصائص والفوائد فی الحیوان تعتبر - حقّاً- عبرة لنا، تعرّف الإنسان علی ما خلق اللّه من أنعم، کما تثیر فیه الشـعور بالشـکر والثناء علی اللّه.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَی قَوْمِهِ فَقَالَ یَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرُهُ أَ فَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یُرِیدُ أَنْ یَتَفَضَّلَ عَلَیْکُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِکَةً مَا سَمِعْنَا بِهذَا فِی آبَائِنَا الْأَوَّلِینَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّی حِینٍ (٢٥)

منطق الجبناء المغرورین: تحـدثت الآیات السابقة عن التوحید ومعرفة اللّه وأسـباب عظمته فی عالم الخلیقة، أمّا الآیات- موضع البحث والآیـات المقبلـة- فقـد تنـاولت نفس الموضوع علی لسان کبار الأنبیاء ومن خلال تاریـخ حیاتهم، حیث بـدأت بأوّل أنبیاء اولی العزم والمنادی بالتوحیـد نوح علیه السـلام: «وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنَا نُوحًا إِلَی قَوْمِهِ فَقَالَ یقَوْمِ اعْبُـدُوا اللَّهَ مَا لَکُم مِّنْ إِلهٍ غَیْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ». أی: مع هذا البیان الواضح کیف لا تجتنبون عبادة الأوثان؟

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٢٦

أمّـا الأشـراف الأثریـاء والمغـرورون والملأ من الناس، وهم اللـذین یملأون العین فی ظاهرهم، والفارغون فی واقعهم من قوم نوح علیه السـلام: «فَقَـالَ الْمَلَـؤُا الَّذِینَ کَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَـا هـذَا إِلَّا بَشَـرٌ مِّثْلُکُمْ یُرِیـدُ أَن یَتَفَضَّلَ عَلَیْکُمْ». وبهـذا اعتـبروا أوّل عیب له کونه إنسـاناً فاتّهموه بالسـلطویة، وحـدیثه عن اللّه والتوحیـد والـدین والعقیدة مؤامرة لتحقیق أهدافه، ثم أضافوا: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلِکَةً». ولإتمام هذا الاستدلال الخاوی قالوا: «مَّا سَمِعْنَا بِهذَا فِی ءَابَائِنَا الْأَوَّلِینَ».

إلّـا أنّ هـذا الکلاـم الفارغ لم یؤثّر فی معنویات هـذا النبی الکبیر، حیث واصل دعوته إلی اللّه، ولم یکن فی عمله دلیل علی رغبته فی الحصول علی إمتیاز علی الآخرین، أو أن یتسـلط علیهم، لهـذا لجأوا إلی توجیه تهمـة اخری إلیه، هی الجنون الذی کان یتّهم به جمیع أنبیاء اللّه عبر التاریخ، حیث قالوا: «إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّی حِینٍ».

قَالَ رَبِّ انْصُرْنِی بِمَا کَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَیْنَا إِلَیْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْکَ بِأَعْیُنِنَا وَ وَحْیِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُکْ فِیهَا مِنْ کُلٍّ زَوْجَیْنِ اثْنَیْنِ وَ أَهْلَکَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَیْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لَا تُخَاطِبْنِی فِی الَّذِینَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَیْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَکَ عَلَی الْفُلْکِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ (٢٨) وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِی مُنْزَلًا مُبَارَکاً وَ أَنْتَ خَیْرُ الْمُنْزِلِینَ (٢٩) إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَاتٍ وَ إِنْ کُنَّا لَمُبْتَلِینَ (٣٠)

خاتمـة حیـاة قوم معانـدین: اسـتعرضت الآیـات السابقـة التهم التی وجّهها أعـداء نوح علیه السـلام إلیه، إلّاأنّه یسـتدلّ من آیات قرآنیة اخری- بشـکل واضـح- أن أذی القوم المعاندین لنوح علیه السـلام لم یتحدّد بهذه الامور، بل شـمل کل وسـیلة یمکن بها إیذاؤه، فی حین بـذل جمیع مـا فی وسـعه فی سبیـل هـدایتهم وإنقـاذهم من براثن الشـرک والکفر. وعنـدما یئس منهم حیث لم یؤمن بمـا جاء به إلّامجموعة صغیرة، دعا اللّه لیعینه، حیث نقرأ فی الآیة الاولی: «قَالَ رَبِّ انصُرْنِی بِمَا کَذَّبُونِ».

هنا نزل الوحی الإلهی، من أجل التمهیـد لإنقاذ نوح علیه السـلام وأصـحابه القلّة وهلاک المشـرکین المعاندین «فَأَوْحَیْنَا إِلَیْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْکَ بِأَعْیُنِنَا وَوَحْیِنَا».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٢٧

إنّ عبارة «بأعیننا» إشارة إلی أنّ سعیک فی هذا السبیل سیکون تحت حمایتنا.

وإستعمال عبارة «وحينا» يكشف لنا أنّ نوحاً عليه السلام تعلّم صنع السفينة بالوحى الإلهى.

ثم تواصل الآية بأنّه إذا جاء أمر اللّه، وعلامة ذلك فوران الماء فى التنور، فاعلم أنّه قد اقترب وقت الطوفان، فاختر من كل نوع من الحيوانات زوجاً (ذكر وانثى) واصعد به إلى السفينة: «فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ». إشارة إلى زوجة نوح عليه السلام وأحد أبنائه.

ثم أضافت الآية: «وَلَا تُخطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ».

وتقول الآية التالية: «فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجنَا مِنَ الْقَوْمِ الظلِمِينَ».

وبعد الحمد والثناء عليه تعالى على هذه النعمة العظيمة، نعمة النجاة من مخالب الظلمة، ادعوه هكذا: «وَقُلْ رَّبّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ».

وقد أشارت الآية الأخيرة- من الآيات موضع البحث- إلى مجمل هذه القصة فقالت: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيتٍ». ففى هذه الحوادث التى جرت على نوح عليه السلام وإنتصاره على أعدائه الظالمين، ونزول أشدّ أنواع العقاب عليهم، آيات ودلائل لأصحاب العقول السليمة. «وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ». أى إنّنا نمتحن الجميع بشكل قاطع.

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَ أَتْرَفْنَاهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ (٣۴) أَ يَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُرَاباً وَ عِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣۵) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣۶) إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَ مَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (۴٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۴١)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٢٨

المصير المؤلم لقوم ثمود: تحدّثت هذه الآيات عن أقوام آخرين جاؤوا بعد قوم نوح عليه السلام. ومنطقهم يتناغم ومنطق الكفار السابقين، كما شرحت مصيرهم الأليم، فأكملت بذلك ما بحثته الآيات السابقة. فهى تقول أوّلًا: «ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ».

«القرن»: مشتقّ من الإقتران، بمعنى القرب، لهذا يطلق على الجماعة التى تعيش فى عصر واحد، وقياس زمن القرن بثلاثين أو مائة سنة يتّبع ما تعارفته الأقوام المختلفة.

وبما أنّ البشر لا يمكن أن يعيشوا دون قائد ربّانى، فقد بعث اللّه أنبياءه يدعون إلى توحيده ويقيمون عدالته بين الناس، حيث تقول الآية التالية: «فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ».

وهذه هى الركيزة الأساسية لدعوة الأنبياء، إنّها نداء التوحيد، اسّ جميع الإصلاحات الفردية والاجتماعية، وبعدها أكّد رسول اللّه لهم القول: إنّكم وبعد هذه الدعوة الصريحة ألا تتركون الشرك وعبادة الأوثان: «أَفَلَا تَتَّقُونَ».

إنّهم قوم ثمود الذين عاشوا شمال الحجاز، وبعث اللّه النبى «صالح عليه السلام» لهدايتهم، إلّاأنّهم كفروا وطغوا فأهلكهم اللّه بالصيحة السماوية (الصاعقة القاتلة).

ولننظر الآن ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم المعاندين إزاء التوحيد الذى أعلنه هذا النبى الكبير؟ يقول القرآن فى الآية التالية:

«وقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنهُمْ فِى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا مَا هذَا إِلَّا بَشَرٌ مّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ».

أجل إنّ القوم بما كانوا يرون فى دعوة نبى اللّه خلافاً لأهوائهم ومنافسةً لمصالحهم العدوانية فجادلوا نبيّهم بنفس منطق المعاندين من قوم نوح.

ثم قال بعضهم للبعض الآخر: «وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخسِرُونَ».

ومن ثم أنكروا المعاد، الذى كان دوماً سدّاً منيعاً لاتّباع الشهوات وأرباب اللذات، وقالوا: «أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ». لتعيشون حياة جديدة «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ». فقد تساءل الكفار: هل يمكن البعث والناس قد أصبحوا تراباً وتبعثرت ذرّاتهم هنا وهناك؟ إنّ ذلك مستحيل.

وبهذا الكلام ازدادوا إصراراً على إنكار المعاد قائلين: إنّنا نشاهد باستمرار موت مجموعة وولادة مجموعة اخرى لتحلّ محلّهم، ولا حياة بعد الموت: «إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۲۹

نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ».

وأخيراً لخّصوا التّهم التى وجّهوها إلى نبيّهم فقالوا: «إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ».

وعندما طغى عناد الكفار، تجاسروا على اللّه، وأنكروا رسالته إليهم، وأنكروا معاجز أنبيائه بكل صلافة، وقد أتمّ اللّه حجّته عليهم، عندها توجّه هذا النبى الكبير إلى اللّه سبحانه وتعالى و «قَالَ رَبِّ انصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ». ربّاه: انصرنى فقد هتكوا الحرمات، واتّهمونى بما شاؤوا وكذّبوا دعوتى.

فأجابه اللّه عزّ وجل كما ذكرت الآية: «قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَدِمِينَ». ألا إنّهم سيندمون يوم لا ينفع الندم.

وهكذا جرى «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ» حيث نزلت عليهم صاعقة الموت برعبها الهائل ودمارها الماحق، وقلبت مساكنهم ونثرتها حطاماً، وكانت سريعة خاطفة إلى درجة لم تسمح لهم بالفرار، فدفنوا فى منازلهم كما بيّنت الآية الكريمة:

«فَجَعَلْنَهُمْ غُثَاءً». أى: جعلناهم كهشيم النبات يحمله السيل «فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظلِمِينَ».

والغثاء، يعنى النباتات الجافّة المتراكمة والطافية على مياه السيول، كما يطلق الغثاء على الزبد المتراكم على ماء القدر حين الغليان، وتشبيه الأجسام الميتة بالغثاء دليل على منتهى ضعفها وإنكسارها وتفاهتها.

وهذا إستنتاج نهائى من كل هذه الآيات، فما قيل بصدد إنكار وتكذيب الآيات الإلهية والمعاد والعاقبة المؤلمة والنهاية السيئة لا تختص بجماعة معينة، بل تشمل جميع الظلمة عبر التاريخ.

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ (۴۲) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَ مَا يَسْتَأْخِرُونَ (۴۳) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَ جَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (۴۴)

هلاك الأقوام المعاندين الواحد بعد الآخر: بعد أن تحدّث القرآن عن قصة قوم نوح، أشار إلى أقوام اخرى جاءت بعدهم، وقبل النبى موسى عليه السلام حيث يقول: «ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ». لأنّ هذا أمر اللّه وسنّته فى خلقه، فالفيض الإلهى لا ينقطع عن

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۳۰

عباده فلو سعى جماعة للوقوف فى وجه مسيرة التكامل الإنسانى للبشرية لمحققهم ودفع هذه المسيرة إلى أمام. ولهذه الأقوام تأريخ معين وأجل محدود: «مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ». فلو صدر الأمر الحتمى بنهاية حياتهم فسيهلكوا فوراً، دون تأخير لحظة أو تقديم لحظة.

«الأجل»: بمعنى العمر ومدّة الشىء، فالأجل المحتّم انتهاء عمر الإنسان أو عمر قوم ما، ولا تغيير فيه. إنّ الآية السابقة تشير إلى «الأجل المحتّم».

وتكشف الآية التالية حقيقة استمرار بعث الأنبياء عبر التاريخ بالدعوة إلى اللّه حيث تقول: «ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا».

«تترا»: مشتقة من «الوتر» بمعنى التعاقب، و «تواتر الأخبار» تعنى وصولها الواحد بعد الآخر، ومن مجموعها يتيقّن الإنسان بصدقها.

إنّ معلّمى السماء، كانوا يتعاقبون فى إرشاد الناس، إلّاأنّ الأقوام المعاندة كانوا يواصلون الكفر والإنكار، فإنّه: «كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا

كَذَّبُوهُ».

وعنـدما تجاوز هذا الكفر والتكذيب حدّه وتمّت الحجة عليهم. «فَأَتْبَعْنَا بَعْضَـهُم بَعْضًا». أى: أهلكنا الامم المعاندة الواحدة بعد الاخرى ومحوناهم من الوجود.

وقـد تمّ محوهم بحيث لم يبق منهم سوى أخبارهم يتداولها الناس «وَجَعَلْنَهُمْ أَحَادِيثَ». إشارة إلى أنّ كل امّة تتعرض للهلاك، ويبقى منهم بعض الأفراد والآثار هنا وهناك، وأحياناً لا يبقى منهم أىّ أثر. وهذه الامم المعاندة والطاغية كانت ضمن المجموعة الثانية.

وتقول الآية فى الختام، كما ذكرت الآيات السابقة: «فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّايُؤْمِنُونَ».

وهؤلاء لم يكونوا بعيـدين عن رحمـة اللَّه فى هذه الدنيا فحسب، بل بعيدون عن هذه الرحمة فى الآخرة أيضاً، لأنّ تعبير الآية جاء عامّاً يشمل الجميع.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَ أَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ (۴۵) إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْماً عَالِينَ (۴۶) فَقَالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَ قَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (۴۷) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (۴۸) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۴۹)

قيام موسى وهلاك الفراعنة: كان الحديث حتى الآن عن أقوام بعث اللَّه لهم رسلًا قبل

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۳۱

موسى عليه السلام، وهلكوا. أمّا الآيات موضع البحث فقـد تحـدّثت باختصار جـدّاً عن إنتفاضة موسـى وهارون على الفراعنة ومصـير هؤلاء القوم المستكبرين، فقالت:

«ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هرُونَ بَايتِنَا وَسُلْطنٍ مُّبِينٍ».

إنّ «الآيـات» تعنى المعجزات التى أعطاها اللَّه لموسى بن عمران (الآيات التسع). وتقصـد عبارة «سـلطان مبين» المنطق القوى والبرهان الدافع لموسى عليه السلام أمام الفراعنة.

أجل بعثنا موسى وأخاه هارون بهذه الآيات وسلطان مبين «إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ».

لعل ذلك إشارة إلى أنّ الفراعنة هم أساس الفساد، ولا يصـلح أىّ بلد إلّابصـلاح قادته، إلّاأنّهم «فَاسْتَكْبَرُوا» لأنّهم لم يرضـخوا لآيات الحق والسلطان المبين.

والفراعنة كانوا مستكبرين طاغين، كما تقول الآية: «وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ».

ومن الـدلائل الواضـحة على إحساسـهم بالإسـتعلاء، قولهم: «وَقَـالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَـرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عبِـدُونَ» «١». فقد تصدّوا لموسـى وأخيه هارون بهـذه الأدلة الخاوية، مخالفة منهم للحق «فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ». وهكذا إنتهى أعداء بنى إسـرائيل الذين كانوا سدّاً مانعاً لدعوة موسى وهارون إلى اللَّه سبحانه.

وبدأت بعدها مرحلة تعليم وتربية بنى إسـرائيل، فأنزل اللَّه فى هذه المرحلة «التوراة» على موسـى، الذى دعا بنى إسـرائيل للإهتداء بهذا الكتاب وتطبيقه على ما ذكرته الآية الأخيرة هنا: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ».

وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً وَ آوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَ مَعِينٍ (۵۰)

آية اخرى من آيات اللَّه: أشارت الآية فى آخر مرحلة من شرحها لحياة الأنبياء إلى السيد المسيح عليه السلام وامه مريم، فقالت:

«وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً».

وقـد اسـتعملت «الآيـة» عبارة «ابن مريم» بـدلًا من ذكر اسم عيسـى، لجلب الإنتباه إلى حقيقة ولادته من ام من دون أب بأمر من اللَّه، وهذه الولادة هى بذاتها من آيات اللَّه الكبيرة.

ثم أشارت الآية إلى الأنعم الكبيرة التى أسـبغها اللَّه على هذه الامّ الزكية وإبنها فتقول: «وَءَاوَيْنهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ». «الربوة»: مشتقة من «الربا» بمعنى الزيادة والنمو،

(١) يطلق على الإنسان «البشر»، لأنّ بشرته وجلده عارية، خلافاً لما عليه الحيوانات من لباس طبيعى خاص بكلّ نوع منهما.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٣٢

وتعنى هنا المكان المرتفع؛ و «المعين»: مشتق من «المعن» بمعنى جريان الماء. إنّ هذا المكان الآمن هو مولد السيد المسيح عليه السلام فى صحراء القدس، وقد جعله اللَّه أمناً لهذه الام والوليد، وفجّر لهما ماء معيناً ورزقهم من النخل الجاف رطباً جليّاً.

فقد كانت الآية دليلًا على حماية اللَّه تعالى الدائمة لرسله ولمن يدافع عنهم.

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ اعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَ إِنَّ هـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥۴)

جميع الامة يد واحدة: تحدثت الآيات السابقة عن ماضى الأنبياء واممهم، أمّا هذه الآيات فخاطبت الجميع فقالت: «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبتِ وَاعْمَلُوا صلِحًا إِنّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ».

بيّنت هذه الآية ثلاثة مؤثّرات فى العمل الصالح:

الأوّل: طيب الغذاء الذى يورث صفاء القلب ونقاوته.

والثانى: شكر اللَّه تعالى على ما أنعم به من رحمته.

الثالث: الشعور اليقظ بمراقبة اللَّه سبحانه للأعمال كلها.

ثم دعت الآية جميع الأنبياء وأتباعهم إلى توحيد اللَّه والتزام تقواه: «وَإِنَّ هـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً». فالإختلافات الموجودة بينكم، وكذلك بين أنبيائكم ليست دليلًا على التعدّدية إطلاقاً. «وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ». فنحن بين يدى دعوة واعية إلى وحدة الجماعة والقضاء على ما يثير التفرقة، ليعيش الناس امّة واحدة، كما أنّ اللَّه ربّهم واحد أحد.

ولهذا يجب أن ينتهج الناس ما نهجه الأنبياء عليهم السلام إذ دعوا إلى اتّباع تعاليم موحدة، ذات أساس واحد فى كل مكان.

وقد حذّرت الآية التالية البشر من الفُرقة والاختلاف، بعد أن تمّت فى الآية السابقة دعوتهم إلى التمسك بالوحدة، فقالت:

«فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا». وممّا يثير الدهشة أنّ «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ».

«الزبر»: جمع «زبرة» تعنى بعض شعر الحيوان خلف رأسه، يجمعه الراعى ليفصله عن

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٣٣

باقى الشعر، ثم أطلقت هذه الكلمة على كل شىء ينفصل عن أصله، فتقول الآية: «فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا». إشارة منها إلى تفرّق الامّة إلى مجموعات وفئات مختلفة.

تستعرض الآية حقيقة نفسية واجتماعية هى أنّ التعصب الجاهلى للأحزاب والفئات يمنع وصولها إلى الحقيقة، لأنّ كلًّا منها قد اتّخذ سبيلًا خاصّاً به.

وهذه الحالة نتجت عن حبّ الذات المفرط والعناد، وهما أكبر عدوّ للحقيقة، ولوحدة الامة.

ولهذا تقول الآية الأخيرة هنا: «فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ». أى: اتركهم على حالهم حتى يأتى أجلهم، أو يأتيهم اللَّه بعذاب منه، فليس لهم سوى هذا، لأنّهم أصرّوا على البقاء فى جهلهم ومتاهتهم.

«حين»: قد تكون إشارة إلى وقت الموت، أو نزول العذاب، أو كليهما.

«الغمرة»: على وزن «ضربة» فهى بالأصل من «غمر» أى إتلاف كل شىء، ثم أطلق غمر وغامر على الماء الكثير الذى يزيل كل شىء يواجهه، ويواصل جريانه، ثم أطلق على الجهل والبلايا التى يغرق فيها الإنسان، كما استعملته الآية السابقة بمعنى الغفلة والضياع والجهل والضلال.

أ يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَ بَنِينَ (۵۵) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (۵۶) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (۵۷) وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (۵۸) وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (۵۹) وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (۶۰) أُولئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ هُمْ لَهَا سَابِقُونَ (۶۱)

تعرّض ما سبق من الآيات المباركة للأحزاب والمجموعات المعاندة التى غلب عليها التعصب وحبّ الذات، بينما أشارت الآيات موضع البحث إلى بعض تصوراتهم الأنانية: «أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ» «۱». هو من أجل أنّنا: «نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ». فهل يتصوّرون أنّ أموالهم الوافرة وكثرة أولادهم دليل على أنّهم على حق، ودليل على

(۱) وهذا هو ما أشارت إليه معظم آيات القرآن فى قضيّة (الإستدراج فى النعم).

«نمدّ»: مشتقة من «الإمداد» وهو إتمام النقص والحيلولة دون القطع، وإيصال الشىء إلى نهايته.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۳۴

قرب منزلتهم من اللّه؟ «بَلْ لَّا يَشْعُرُونَ» أنّ كثرة أموالهم وأولادهم نوع من العذاب، أو مقدمة للعذاب ولعقاب اللّه، إنّهم لا يدركون أنّ ما أغدق عليهم ربّهم من نعم إنّما هو من أجل أن يتورّطوا فى العقاب الإلهى، ويمسى عقابهم أشد ألماً. وبعد نفى تصورات هؤلاء الغافلين، تستعرض هذه الآيات وضع المؤمنين والمسارعين فى الخيرات، وتبيّن صفاتهم الرئيسية، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ». و «الخشية»: تعنى الخوف المقترن بالتعظيم والتقديس.

ثم تضيف الآية: «وَالَّذِينَ هُم بَايتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ».

وتأتى بعد مرحلة الإيمان بآيات اللّه، مرحلة تنزيهه عن كل شبهة وشريك، فتقول الآية: «وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَايُشْرِكُونَ».

بعد هذا تأتى مرحلة الإيمان بالمعاد والبعث، والإهتمام الخاص الذى يوليه المؤمنون الحقيقيون لهذه القضية، التى تساعدهم عملياً فى السيطرة على أعمالهم وأقوالهم، فتقول الآية: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ».

وبعد شرح الآيات السابقة لهذه الصفات الأربعة تقول الآية: «أُولئِكَ يُسرِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ».

وقد رسمت الآيات السابقة صورة واضحة لصفات هذه القدوة من المؤمنين، فبدأت أوّلًا بالخوف الممتزج بتعظيم اللّه، وهو الدافع إلى الإيمان به ونفى الشرك عنه، وانتهت بالإيمان بالمعاد حيث محكمة العدل الإلهى، الذى يشكّل الشعور بالمسؤولية، ويدفع الإنسان إلى كل عمل طيّب، فهى تبيّن أربع خصال للمؤمنين ونتيجةً واحدةً. (فتأمّلوا جيداً).

وَ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَ لَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (۶۲) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذَا وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (۶۳) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (۶۴) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ (۶۵) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (۶۶) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ (۶۷)

بما أنّ خصال المؤمنين هى سبب القيام بالأعمال الخيّرة التى أشارت إليها الآيات السابقة، فهنا يثار هذا التساؤل بأنّ هذه الخصال والقيام بهذه الأعمال لا تتيسّر لكل أحد.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۳۵

فتجيب أوّل آية- من الآيات موضع البحث- عن ذلك فتقول: «وَلَا نُكَلّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا». وكل إنسان يكلّف حسب عقله وطاقته.

وهذه إشارة إلى أنّ الواجبات الشرعية هى فى حدود طاقة الإنسان، وأنّها تسقط عنه إذا تجاوزت هذه الحدود، وكما يقول علماء اصول الفقه: إنّ هذه القاعدة حاكمة على جميع الواجبات الشرعية ومقدمة عليها.

وقد يُسأل: كيف يُحاسب كل البشر على أعمالهم كلّها صغيرها وكبيرها؟

فتجيب الآية: «وَلَدَيْنَا كِتبٌ يَنطِقُ بِالْحَقّ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ». فهناك صحيفة أعمال الإنسان المحفوظة لدى اللّه العلى القدير.

ولكون هـذه الحقائق مؤثّرة فى الواعين من الناس فحسب، أضافت الآيـة التاليـة بأنّ هؤلاء الكفار المعانـدين غارقون فى دوّامـة الجهل والغفلة لدرجة أنّهم غافلون عما ينتظرهم من الوعيد: «بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هذَا».

وتضيف هذه الآية: «وَلَهُمْ أَعْملٌ مِّن دُونِ ذلِكَ هُمْ لَهَا عمِلُونَ».

المهمّ هو الإنتباه إلى أنّ مصدر الأعمال الشريرة يكمن فى إنغمار القلوب فى الجهالة.

ولكن هؤلاء المترفين يبقون فى هذه الغفلة ما داموا فى نعيمهم، فإذا جاءهم العذاب فهم يصرخون كالوحوش من شدة العذاب الإلهى، كما تقول الآية: «حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْرُونَ».

فيخاطبون: «لَاتَجرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَاتُنصَرُونَ».

وتكشف الآيـة التالية عن سبب هذا المصير المشؤوم: «قَدْ كَانَتْ ءَايتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقبِكُمْ تَنكِصُونَ». بدلًا من الاستفادة منها والإنتباه للواقع.

«تنكصون»: مشتقة من النكوص، بمعنى السير بشكل معاكس.

«أعقاب»: جمع «عقب» على وزن «فَعِل» وتعنى عقب القدم.

وهذه الجملة كناية عن شخص يسمع كلاماً غير مرغوب فيه، فيرتعب لدرجة يسير فيها القهقرى على عقبى قدميه.

ثم إنّه لا يرجع إلى الوراء لمجرد سماعه آيات اللَّه، وإنّما يصبح ممن وصفتهم الآية: «مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ».

وإضافةً إلى ذلك: «سمِرًا تَهْجُرُونَ». أى يتسامرون فى لياليهم ويتحدثون عن النبى والقرآن بالباطل.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۳۶

«سامراً»: مشتقة من «سَمَرَ» على وزن «نصر» بمعنى التحدّث ليلًا.

«تهجرون»: مشتقة من «هَجْر» وتعنى بالأصل الإبتعاد والانفصال، وقد وردت بمعنى الهذيان الصادر من المريض، لأنّ كلامه فى تلك الحالة غير سليم، ويبعث على النفور كما أنّ الهُجر (على وزن كُفر) يعنى السباب، وهو أيضاً يبعث على الإبتعاد والقطيعة.

وقد جاءت كلمة «تهجرون» فى الآية بالمعنى الأخير، فتقول: إنّ المشركين من العرب كانوا يتسامرون حتى ساعات متأخّرة من الليل، وهم يهذون ويكيلون السباب والشتائم كالمرضى.

أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (۶۸) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (۶۹) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (۷۰) وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (۷۱) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۷۲) وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۷۳) وَ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (۷۴)

أعذار المنكرين المختلفة: تحدّثت الآيات السابقة عن إعراض الكفار وإستكبارهم إزاء الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله. وتناولت هذه الآيات أعذارهم فى هذا المجال والردّ عليهم، وشرحت الدوافع الحقيقية لإعراض المشركين عن القرآن والرسول صلى الله عليه و آله، ويمكن تلخيصها فى خمس مراحل:

الاولى: «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ». فأوّل سبب لتعاستهم هو تعطيل التفكّر فى مضمون دعوة النبى صلى الله عليه و آله ولو تفكّروا مليّاً لما بقيت مشكلة لديهم.

وفى المرحلة الثانية تقول الآية: «أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ». سألت الآية مستنكرةً: أكانت الدعوة إلى التوحيد والمعاد، والهدى إلى الأعمال الصالحة مختصة بهم دون آبائهم الأوّلين، ليحتجّوا بأنّها بدعةً، ويقولوا: لماذا لم يبعثه اللَّه للأوّلين، وهو لطيف بعباده؟

ليس لهم ذلك، لأنّ الإسلام من حيث المبادىء له مضمون سائر الرسالات التى حملها الأنبياء عليهم السلام فهذا التبرير غير منطقى

ولا معنى له.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٣٧

وفى المرحلة الثالثة تقول الآية: «أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ». أى: إذا كانت هذه الدعوة صادرة من شخص مجهول ومشكوك، فيحتمل أن يقولوا بأنّ كلامه حق، إلّاأنّ هذا الرجل مشكوك وغير معروف لدينا، فيحتمل أن نُخدع بكلامه، ولكنّهم يعرفون ماضيك جيّداً، وكانوا يدعونك محمّداً الأمين، ويعترفون بعقلك وعلمك وأمانك، ويعرفون جيّداً والديك وقبيلتك، فلا حجة لهم.

وفى المرحلة الرابعة تقول الآية: «أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ». أى إنّه مجنون، فبعد إعترافهم بأنّك لست مجهولًا بالنسبة لهم، إلّاأنّهم يشكّكون فى سلامة عقلك وينسبونك إلى الجنون، لأنّ ما تدعو إليه لا ينسجم مع عقائدهم، فلذلك اتّخذوا هذا دليلًا على جنونك.

يقول القرآن المجيد لنفى هذه الحجة: «بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقّ». وكلامه شاهد على هذه الحقيقة، ويضيف: «وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقّ كرِهُونَ».

أجل، إنّ كلمات الرسول راشدة حكيمة، إلّاأنّهم ينكرونها لعدم إنسجامها مع أهوائهم النفسية، فألصقوا به تهمة الجنون فى الوقت الذى لا ضرورة فى توافق الحق مع رغبات الناس: «وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّموَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ».

لأنّه لا يوجد مقياس يحدّد أهواء الناس، مضافاً إلى أنّها تميل إلى الشر والفساد غالباً.

وتأكيداً لذلك تقول الآية: «بَلْ أَتَيْنهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ». أى: منحناهم القرآن الذى هو أساس للذكر والتوجه إلى اللَّه، وسبب لرفعتهم وشرفهم، إلّاأنّهم أعرضوا عن هذا المنار الذى يُضىء لهم درب السعادة والشرف.

وفى المرحلة الخامسة تقول الآية: هل أنّ عذرهم فى فرارهم من الحق هو أنّك تريد منهم أجراً على دعوتك: «أَمْ تَسَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

والقرآن الكريم بإيضاحه هذه المراحل الخمس برهن على أنّ هؤلاء الحمقى (المشركين) لا يرضخون للحق، وأنّ أعذارهم فى إنكار الحق أعذار واهية.

وجاءت الآية التالية باستنتاج عام لكل ما مضى: «وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ».

ورغم أنّ الروايات الإسلامية تفسّر الصراط المستقيم بولاية على عليه السلام، إلّاأنّها تكشف عن المصداق الأكمل لذلك، ولا تتنافى مع المصاديق الاخرى كالقرآن والإيمان بالمبدأ والمعاد والتقوى والجهاد والعدل.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٣٨

وتستعرض الآية التالية النتيجة الطبيعية لهذا الموضوع، فتقول: «وَإِنَّ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ عَنِ الصّرَاطِ لَنَكِبُونَ».

«ناكب»: مشتقة من «النكب» و «النكوب» أى الانحراف عن الطريق. «نكبت الدنيا» تقع فى مقابل إقبال الدنيا، وتعنى إدبار الدنيا وإعراضها عن المرء.

والصراط يقصد به هنا ما فى الآية السابقة.

أوضحت الآيات السابقة عدداً من صفات القادة إلى طريق الحقّ، فهم المعروفون بالصلاح والإستقامة.

ويواصلون عملهم بإصرار دائم لنشر العقيدة الحقّة رغم رفض عدد كبير من الناس لهم وحقدهم عليهم.

والصفة الاخرى للأنبياء أنّهم لم يطلبوا أجراً من الناس.

وَ لَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَ كَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَ لَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠)

طرق التوعيـة الإلهيـة المختلفـة: عرضت الآيات السابقـة الحجـج التى يتـذرّع بها منكرو الحق فى رفض الرسالات وإيذاء الأنبياء عليهم السـلام، وتناولت هـذه الآيات إتمام الحجـة عليهم من قبل اللَّه تعالى وتوعيتهم. فتقول أوّلًا: إنّنا تارةً نشـملهم برعايتنا ونرزقهم من وفير النعمة لينتبهوا، ولكن: «وَلَوْ رَحِمْنَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِى طُغْيَنِهِمْ يَعْمَهُونَ».

واللَّه تعالى يبتليهم لعلهم يعون حين لا تجدى بهم رحمته سبحانه، لكن طائفة غالبة منهم لم يستيقظوا حتى بالبلاء المذل: «وَلَقَدْ أَخَذْنهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۳۹

فاللَّه تعالى يواصل هذه الرحمة والنعمة والعقوبات، والمشركون يواصلون طغيانهم وعنادهم: «حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ» «۱».

الواقع، أنّ نوعين من العقـاب الإلهى: أوّلهما «عقاب الإبتلاء»، وثانيهما «عقاب الإستيصال» والإقتلاع من الجـذور، والهـدف من العقاب الأوّل وضع الناس فى صعوبات وآلام ليدركوا مدى ضعفهم وليتركوا مركب الغرور.

أمّا هدف العقاب الثانى الذى ينزل بالمعاندين المستكبرين فهو إزالتهم عن مجرى الحياة، وتطهيرها من عراقيلهم.

ثم تناول القرآن المجيد القضـية من باب آخر، فعدّد النعم الإلهية لدفع الناس إلى الشـكر: «وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصـرَ وَالْأَفِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ».

والتأكيـد على (الاذن والعين والعقل) لأنّها الأجهزة التى بها يتعرف الإنسان على المحسوسات والقضايا، فالأشـياء الحسـيّة يبلغها بالعين والاذن، والقضايا غير الحسية يدركها بالعقل.

وتناولت الآية اللاحقة خلق اللَّه سبحانه للإنسان من التراب، فتقول: «وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ» «۲».

وبما أنّه- جلّ إسمه- خلقكم من الأرض، لذلك ستعودون إليها مرّة ثانية، ثم يبعثكم: «وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ».

ولو فكّرتم فى خلقكم من تراب لا قيمة له، لدلّكم على خالق الوجود سبحانه، وعرّفكم على كريم لطفه بكم وإحسانه إليكم، وقادكم إلى الإيمان به وبالمعاد.

وبعـد ذكر خلق الإنسان، تناولت الآيـة المـذكورة آنفاً دلائل اخرى من بديع صـنع اللَّه تعالى «وَهُوَ الَّذِى يُحْىِ وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلفُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

وبهـذا الترتيب بـدأ البيان القرآنى من الدافع لإستيقاظ القلب وإنبعاثه على معرفة ربّه سـبحانه وإنتهى بذكر بعض أهمّ الآيات الأنفسـية والآفاقية.

---

(۱) «المبلس»: كلمـة مشـتقة من «الإبلاس» بمعنى الألـم الشديـد الناتـج عن شـدّة أثر الحادثـة، وتـدفع بالإنسان إلى الصـمت والحيرة واليأس.

(۲) «ذرأ»: مشتقة من الذرء (على وزن زرع)، وهى فى الأصل بمعنى الخلق والإيجاد والإظهار.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۴۰

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (۸۱) قَالُوا أَ إِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَاباً وَ عِظَاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (۸۲) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا هذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۸۳) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۸۴) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ (۸۵) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (۸۶) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلَا تَتَّقُونَ (۸۷) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۸۸) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (۸۹) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (۹۰)

دعت الآيـات السابقـة منكرى اللَّه والمعـاد إلى التفكر فى خلق عـالم الوجود وآيـات الآفاق والأنفس، وأضافت هـذه الآيات أنّ هؤلاء

تركوا عقولهم واتبعوا أسلافهم وقلّدوهم تقليداً أعمى: «بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ».

ثم إنّ هؤلاء ملكهم التعجب و: «قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ».

إنّ ذلك لا يُصدّق، «لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هذَا مِن قَبْلُ». فكانت وعوداً كاذبة، و «إِنْ هذَا إِلَّا أَسطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

ولكون الكفار والمشركين أشدّ خوفاً من اليوم الآخر وما فيه من هول الحساب وعدل الكتاب، وسدّدت الآيات موضع البحث إلى هذا المنطق الواهى من ثلاث طرق.

ومما يلفت النظر أنّ القرآن يأخذ من المشركين إعترافاً بكل مسألة، فيعيد كلامهم ليثبت إقرارهم. يقول أوّلًا: «قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ».

ثم تضيف الآية أنّهم يؤمنون باللّه خالق الوجود وفق نداء الفطرة النابع من ذاتهم، وسيجيبونك و: «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ». فأجبهم:

«قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ». كيف تتصورون إستحالة إحياء الموتى بعد إعترافكم الصريح؟

ثم يأمر رسوله مرّة ثانية أن يسألهم: «قُلْ مَن رَّبُّ السَّموَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

فيأتى الجواب نابعاً من الفطرة التى فطر اللّه الناس عليها، وهى الإعتراف بربوبيته تعالى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۴۱

«سَيَقُولُونَ لِلَّهِ». وبعد هذا الإعتراف الواضح فلماذا لا تخافون اللّه، ولا تعترفون بالمعاد وبعث الإنسان مرّة ثانية: «قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ».

واسألهم مرّة اخرى عن سيادة اللّه على السماوات والأرض: «قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ». ومن الذى يجير اللاجئين وجميع المحرومين ولا يحتاج إلى اللجوء إلى أحد: «وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ».

فيعترفون بأنّ العالم ومالكيته وحكومته وإجارة الآخرين يعود للّهفقط: «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ». «قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ». أى: كيف تقولون: إنّ الرسول صلى الله عليه و آله سحركم رغم كل هذا الإعتراف والإقرار منكم؟!

وأخيراً يقول القرآن فى عبارة مختصرة ذات دلالة كبيرة بأنّه ليس سحراً ولا شعبذة ولا شىء آخر: «بَلْ أَتَيْنهُم بِالْحَقّ وَإِنَّهُمْ لَكذِبُونَ».

«الأساطير»: جمع «اسطورة». قال بعض اللغويين: إنّها مشتقة من «السطر» بمعنى الصفّ، فيطلق على الكلمات التى إصطفّت فى خطّ واحد لفظ السطر. فالاسطورة: الكتابة أو السطور التى تركها لنا الآخرون، ولأنّ كتابات القدماء تحتوى على أساطير خرافية، تطلق الأساطير على الحكايات والقصص الخرافية الكاذبة. وقد تكرّرت كلمة الأساطير فى القرآن المجيد تسع مرّات، وجميعها جاء على لسان الكفار لتوجيه مخالفتهم لأنبياء اللّه تعالى.

«الملكوت»: مشتقة من «المُلك» (على وزن كُفر)، بمعنى الحكومة والمالكية.

«العرش»: يعنى السرير ذا القوائم العالية، ويطلق أحياناً على السقف وشبهه، وعندما تتعلق هذه الكلمة باللّه سبحانه، فإنّها تعنى عالم الوجود كلّه.

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِمَا خَلَقَ وَ لَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (۹۱) عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۹۲)

الشرك يجرّ العالم نحو الدمار: تناولت الآيات السابقة بحوثاً فى المعاد والملك والحكم والربوبية، أمّا هذه الآيات فقد تناولت نفى الشرك، وإستعرضت جانباً من إنحرافات المشركين، وردّتها عليهم بالأدلة الساطعة، قائلة: «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۴۲

إنّ المسيحيين يرون النبى عيسى عليه السلام إبناً للّه، والمشركون يرون الملائكة بنات للّه، وهذا أوضح مظهر للشرك.

ثم بيّنت الآية بطلان الشرك: أنّه لو كان هناك آلهة متعدّدة تحكم العالم، فسيكون لكل إله مخلوقاته الخاصة به يحكم عليها ويدبّر امورها.

وسيكون تبعاً لذلك أنظمة متعددة للعالم، لأنّ كل واحد من الآلهة يدير منطقته بنظام خاص: «إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِمَا خَلَقَ».

وهذا ينافى وحدة النظام الحاكم فى هذا العالم.

«وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ». وهذه نتيجة محتومة لكل صراع، إذ يسعى كل طرف فيه لغلبة الآخرين والهيمنة عليهم، وهذا سيكون بذاته سبباً آخر لتفكّك النظام الموحد السائد فى العالم.

وجاء فى ختام الآية تقديس للّهسبحانه «سُبْحنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ». و الآية التالية تردّ على المشركين المغالطين فتقول: «علِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهدَةِ». أى: إنّ اللّه يعلم ظاهر الأشياء وباطنها، فكيف تتصورون وجود إله آخر تعرفونه أنتم ولا يعرفه الربّ الذى خلقكم والذى يعلم الغيب والشهادة فى هذا العالم؟

وبهذه العبارة يبطل تصوراتهم الخرافية: «فَتَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

وختام هذه الآية يشبه ختام الآية (۱۸) من سورة يونس، كما أنّ هذه العبارة تهديد موجّه للمشركين بأنّ اللّه الذى يعلم السرّ والعلن، يعلم ما تقولونه، وسيحاسبكم عليه يوم القيامة فى محكمته العادلة.

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ (۹۳) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۹۴) وَ إِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (۹۵) ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (۹۶) وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (۹۷) وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (۹۸)

مع مخاطبة هذه الآيات للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، واصلت مقاصد الآيات السابقة فى تهديد الكفار والمشركين المعاندين بأنواع العذاب الإلهى: «قُلْ رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ». «رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى الْقَوْمِ الظلِمِينَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۴۳

والمراد بهذا العذاب أنّه العقاب الدنيوى الذى ابتلى اللّه به المشركين.

وتأكيداً لهذا الموضوع ولنفى كل شك لدى الأعداء، ولتسلية خاطر الرسول صلى الله عليه و آله والمؤمنين، أضافت الآية اللاحقة: «وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقدِرُونَ».

ولقد تجلّت قدرة اللّه سبحانه فى ساحات مختلفة بعد ذلك.

ثم يأمر اللّه الرسول صلى الله عليه و آله باتباع سياسة اللين فى الدعوة إلى الهدى ودين الحق: «ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ» «۱». أى: ادفع عدوانهم وسيئاتهم بالعفو والصفح والإحسان، وكلامهم البذى بالكلام المنطقى الموزون: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ». واللّه يعلم أنّ أعمالهم القبيحة وكلامهم البذىء وأذاهم القاسى يؤلم الرسول صلى الله عليه و آله، إلّاأنّه عزّ وجل يدعو إلى عدم الردّ بالمثل، بل يوجب أن يكون الردّ بالتى هى أحسن. وهذا خير سبيل لإيقاظ الغافلين والمخدوعين.

ثم نقرأ أمراً ربّانياً بالإستعاذة باللّه من مكائد الشيطان: «وَقُلْ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيطِينِ». إنّه دعاء بالإنقاذ من تربّص الشيطان ومكره الخفى، ولا يقف الدعاء عند همزات الشياطين بل يستمر فى الإستعاذة من حضورهم عنده: «وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونَ».

أى: حضور الشياطين فى اجتماعات النبى صلى الله عليه و آله الذى يؤدّى إلى إغفال المجتمعين وإضلالهم، فعلى محبّى الحق والذابّين عنه وناشديه أن يفوّضوا أمرهم إلى اللّه، ليحفظهم من وساوس الشياطين ومكائدهم.

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (۹۹) لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَ مِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (۱۰۰)

طلب المستحيل: تابعت هاتان الآيتان ما تناولته الآيات السابقة من عناد المشركين والمذنبين وتمسكهم بالباطل، فتناولت حالهم الوخيم حين الموت. وأنّهم يستمرون فى باطلهم: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ».

حينما يجبر المذنب والمشرك على ترك الدنيا لينتقل إلى عالم آخر، تزول عنه حجب الغفلة والغرور، فيرى بام عينه مصيره المؤلم، فلا مال ولا جاه، فقد عاد كل ما يعنيه هباءً فى

(١) والجدير بالذكر أنّ هذا الأمر خاصّ بحالات لا يسىء العدو الاستفادة من هذا المبدأ.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣۴۴

هباءٍ، وهو يشاهد اليوم عاقبة أمره، وما إرتكبه من ذنوب ومعاص، فيرتفع صراخه وعويله: «قَالَ رَبّ ارْجِعُونِ». ارجعنى يا ربّ «لَعَلّى أَعْمَلُ صلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ». ولكن قانون الخلق العادل لا يسمح بمثل هذه العودة، لا يسمح بعودة الصالح ولا الطالح، فيأتيه النداء الدامغ «كَلَّا». «إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا». كلام لم يصدر من أعماقه، ومتى هدأت العاصفة بوجههم عادوا لسابق أعمالهم القبيحة.

وتشير الآية فى نهايتها إلى عالم البرزخ الغامض بعبارة قصيرة ذات دلالة كبيرة «وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» «١».

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِك هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجوهَهُمُ النَّارُ وَ هُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠۴)

جانب من عقاب المسيئين: تحدّثت الآيات السابقة عن عالم البرزخ، وأعقبتها آيات تناولت القيامة بالبحث، وتناولت كذلك جانباً من وضع المذنبين فى عالم الآخرة. فهى تقول أوّلًا: «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ».

من المعلوم- بالإستناد إلى آيات القرآن الكريم- أنّ النفخ فى الصور يجرى مرتين: اوليهما فى نهاية هذا العالم، حيث يموت مَن فى الأرض والسماوات، وفى ثانيتهما يبدأ بعث من فى القبور ليعودوا لحياة جديدة وليستعدّوا للحساب والجزاء.

إنّ الآية السابقة أشارت إلى ظاهرتين من ظواهر يوم القيامة:

اوليهما: إنتهاء مسألة النسب، لأنّ رابطة الاسرة والقبيلة التى تسود حياة الناس فى هذا العالم تؤدّى فى كثير من الحالات إلى نجاة المذنبين من العقاب، إذ يستنجدون بأقربائهم فى حلّ مشاكلهم، أمّا الوضع يوم القيامة فيختلف، حيث كل إنسان وعمله، فلا معين له، ولا

(١) «البرزخ»: فى الأصل الشىء الذى يقع حائلًا بين شيئين، ثم استعملت لكل ما يقع بين أمرين، ولهذا أتت كلمة البرزخ للدلالة على عالم يقع بين عالم الدنيا والآخرة.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣۴۵

نفع فى ولده، أو أخيه، أو والده.

وثانيتهما: سيطرة الخوف على الجميع، فلا يسأل أحد عن حال غيره بسبب الخوف الشديد من العقاب الإلهى، هو يوم كما اطّلعنا عليه فى مطلع سورة الحج: «يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكرَى وَمَا هُم بِسُكرَى وَلكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ».

وبعد وقوع القيامة تبدأ مرحلة الحساب وقياس الأعمال بميزان خاص بيوم القيامة: «فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

«الموازين»: جمع «ميزان» وهو وسيلة للقياس، وكما ورد فى الأحاديث المختلفة أنّه ميزان تقاس به الأعمال والناس، وهم قادة الإسلام الكبار، فى الحديث: «إنّ أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام هم الموازين» «١».

وعلى هذا فإنّ الرسل وأوصياءهم هم الذين يقاس الناس وأعمالهم بهم، ليتبيّن إلى أىّ درجة يشبهونهم.

«وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ». وهم الذين فقدوا الإيمان والعمل الصالح، فوزنهم خفيف يوم القيامة لأنّهم خسروا رأسمال وجودهم: «فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خلِدُونَ».

عبارة «خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ» تصريح بحقيقة خسران المذنبين لأكبر رأسمال لهم- أى وجودهم- فى سوق تجارة الدنيا دون أن يحصلوا على مقابل.

وتشرح الآية التالية عذابهم الأليم: «تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ». ألسنة النار ولهيبها المحرق تضرب وجوههم كضرب السيف، «وَهُمْ فِيهَا كَلِحُونَ» وهم من شدة الألم وعذاب النار، فى عبوس واكفهرار.

«تلفح»: تعنى فى الأصل ضربة السيف، وقد وردت هنا كناية، لأنّ لهيب النار، أو نور الشمس المحرقة، وريح السموم، تضرب وجه الإنسان كضرب السيف.

«كالح»: بمعنى التعبيس واكفهرار الوجه.

---

(١) بحار الأنوار ٧/ ٢٥٢.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٤۶

أ لَمْ تَكُنْ آيَاتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَ كُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (١٠۶) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَ لَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِى وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)

تحدثت الآيات السابقة عن العذاب الأليم لأهل النار، وتناولت الآيات- موضع البحث- إستعراض جانب من كلام اللَّه مع أهل النار، إذ خاطبهم سبحانه وتعالى بعتاب: «أَلَمْ تَكُنْ ءَايتِى تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذّبُونَ».

وهم يعترفون فى ردّهم: «قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالّينَ».

«الشقوة» و «الشقاوة»: نقيض السعادة، وتعنى توفّر وسائل العقاب والبلاء. أو بتعبير آخر: هى الشر والبلاء الذى يصيب الإنسان.

ولعلّهم فى إعترافهم هذا يودّون نيل رضى اللَّه ورحمته، لهذا يضيفون مباشرةً: «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظلِمُونَ».

يقولون ذلك وكأنّهم لا يعلمون أنّ القيامة دار جزاء وليست دار عمل، وأنّ العودة إلى الدنيا أمر محال.

لهذا يردّهم اللَّه سبحانه وتعالى بقوة: «قَالَ اخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلّمُونِ».

وعبارة «اخسؤا» التى هى فعل أمر، تستعمل لطرد الكلاب، فمتى ما استخدمت للإنسان فإنّها تعنى تحقيره ومعاقبته.

ثم يبيّن اللَّه عزّ وجل دليل ذلك بقوله: هل نسيتم، «إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ».

ولكنّكم كنتم تستهزئون بهم إلى درجة أنّ كثرة الإستهزاء والسخرية منهم أنساكم ذكرى: «فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مّنْهُمْ تَضْحَكُونَ» على أعمالهم وعقائدهم وأخلاقهم «إِنّى جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ».

وأمّا أنتم فقد إبتليتم بأسوأ حالة، وبأكثر العذاب ألماً، ولا ينجدكم أحد من مصيركم الذى تستحقونه.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٤٧

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١۴) أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١۶)

الدنيا وعمرها القصير: بما أنّ الآيات السابقة تناولت جانباً من عذاب أهل النار الأليم، عقّبت الآيات- موضع البحث- ذلك بذكر نوع آخر من العذاب، هو العذاب النفسى الموجه من قبل اللَّه تعالى لأهل النار للإستهانة بهم. تقول الآية الاولى: «قَالَ كَمْ لَّبِثْتُمْ فِى الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ». يخاطبهم سبحانه وتعالى يوم القيامة قائلًا: كم سنة عشتم فوق الأرض؟

إلّا أنّهم يرون فى هذه المقارنة أنّ الدنيا قصيرة جدّاً: «قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ».

والحقيقة أنّ الأعمار الطويلة فى الدنيا كسحابة صيف لو قارناها بحياة الآخرة، حيث النعم الخالدة والعقاب غير المحدود.

وللتأكيد أو للردّ بدقة قالوا: «فَسَلِ الْعَادّينَ». أى: ربّاه اسأل الذين يعرفون أن يعدّوا الأعداد ويحسبوها بدقة حين مقارنة بعضها مع

بعض.

وهنا يؤنّبهم اللَّه ويستهزىء بهم: «قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ».

وإستعملت الآية اسلوباً مؤثراً آخر لإيقاظ هذه الفئة وتعليمها: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَاتُرْجَعُونَ».

هـذه العبارة الموجزة والعميقـة تبيّن واحداً من أقوى الأدلّة على البعث وحساب الأعمال والجزاء، وتعنى أنّ الحياة الدنيا تصبح عبثاً إن لم تكن القيامـة والمعاد، فالـدنيا بما فيها من مشاكل وما وضع فيها اللَّه من مناهـج ومسؤوليات وبرامج، تكون عبثاً وبلا معنى إن كانت لأيّام معدودات فقط، كما سنشرح ذلك فى المسائل الآتية.

وبما أنّ عدم عبثيّة الخلق أمر مهم يحتاج إلى دليل رصين، أضافت الآية: «فَتَعلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ».

وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (۱۱۷) وَ قُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (۱۱۸)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۴۸

المفلحون والخائبون: بما أنّ الآيات السابقـة تحـدثت عن قضـية المعاد، واسـتعرضت الصـفات الإلهيـة، فإنّ الآيـة الأُولى أعلاه تناولت التوحيد نافيةً الشرك مؤكّدة للمبدأ والمعاد فى قوله تعالى: «وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَابُرْهنَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ».

أجل، إنّ المشركين ينكرون المعاد على الرغم من وضوح أدلته وإشراق حقيقته، ويقبلون الشرك من غير دليل صحيح عليه.

وفى النهاية تقول الآية: «إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الْكفِرُونَ».

ما أجمل بدايـة هـذه السورة «قَدْ أَفلـح المؤمنون» وما أجمل نهايتها المؤكّدة لبـدايتها: «لَايُفْلِحُ الْكفِرُونَ» هذه هى صورة جامعة لحياة المؤمنين والكافرين من البداية إلى النهاية.

وختمت السورة بهـذه الآيـة الشـريفة كاسـتنتاج عام بأن وجّهت الكلام إلى الرسول صـلى الله عليه و آله: «وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ».

والآـن وقـد إختـارت فئـة الشـرك سبيلًـا، وجـارت فئـة اخرى وظلمت، فـأنت أيّها الرسول ومن معك تـدعون اللَّه ربّكم أن يغفر لكم ويرحمكم بلطفه الواسع الكريم.

«نهاية تفسير سورة المؤمنون»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۴۹

۲۴ سورة النّور

محتوى السورة: يمكن اعتبار هـذه السورة خاصـة بالطهارة والعفـة، وكفاح الإنحطاط الخلقى، والقرآن الكريم يحقق هـذا الهـدف عبر مراحل، هى:

۱- بيان العقاب الشديد للمرأة الزانية والرجل الزانى، وهو ما ورد حاسماً فى الآية الثانية من هذه السورة.

۲- بيان حد الزنا الذى لا تنبغى إقامته إلّابشروط مشدّدة للغاية.

ثم طرحت الآية بهذه المناسبة الحديث المعروف باسم الإفك، وما فيه من إتهام إحدى نساء النبى صلى الله عليه و آله.

۳- وتناولت الآية أحد السبل المهمة لاجتناب التدهور الأخلاقى، من أجل ألا يتصور أنّ الإسلام يهتم فقط بمعاقبة المذنبين.

فطرحت الآية نظر الرجال إلى النساء بشهوة أو بالعكس، وحجاب المرأة المسلمة، لأنّ أحد أسباب الانحراف الجنسى المهمة ناجم عن هاتين المسألتين.

۴- وكخطوة للنجاة من التلوث بما يخلّ بالشرف، دعا القرآن المجيد إلى الزواج اليسير التكاليف.

۵- وبيّنت الآيات جانباً من آداب المعاملة، ومبادىء تربية الأولاد.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٥٠

مختصر الامثل ج٣ ٣٩٩

۶- وجاء ذكر مسائل خاصة بالتوحيد والمبدأ والمعاد والإمتثال لتعاليم النبى صلى الله عليه و آله. كل ذلك خلال البحوث المطروحة.

وتطرقت بحوث هذه الآيات إلى حكومة المؤمنين الصالحين العالمية.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «حصّنوا أموالكم وفروجكم بتلاوة سورة النور وحصّنوا بهـا نسـاءكم، فـإنّ من أدمن قراءتهـا فى كل ليلـة أو فى كل يوم لم يزن أحـد من أهل بيته أبـداً حتى يموت. فإذا مات شـيعه إلى قبره سبعون ألف ملك، يدعون ويستغفرون اللّه له حتى يدخل إلى قبره».

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَ فَرَضْنَاهَا وَ أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَ لَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِى لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَ الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَ حُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)

حـدّ الزانى والزانيـة: سـمّيت هـذه السورة بالنور لأنّ آيـة النور فيها من أهم آياتها، واولى آيات هذه السورة المباركة بمثابة إشارة إلى مجمل بحوث السورة: «سُورَةٌ أَنزَلْنَهَا وَفَرَضْنَهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا ءَايتٍ بَيِّنتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

إنّ «سورة» بنـاء جميـل مرتفع، وهـذه الكلمـة تطلق أيضاً على قسم من بناء كبير، وتطلق السورة على أقسام القرآن المختلفـة المفصولة بعضها عن بعض.

إنّ هـذه العبارة إشارة إلى كون أحكام ومواضيع هـذه السورة- من اعتقادات وآداب وأوامر إلهيـة- ذات أهميـة فائقـة، لأنّها كلها من اللّه.

وبعـد هـذا الإسـتعراض العام، تناولت السورة أوّل حكم حاسم للزانى والزانيـة: «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ».

ولتأكيد هذا الحكم قالت: «وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ».

وأشارت الآية فى نهايتها إلى مسألة اخرى لإكمال الاستنتاج من العذاب الإلهى «وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ».

وتشتمل هذه الآية على ثلاثة تعاليم:

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٥١

١- الحكم بمعاقبة النساء والرجال الذين يمارسون الزنا.

٢- إقامة هذا الحكم الإلهى بعيداً عن الرأفة بمن يقام عليه.

٣- أوجب اللّه حضور عدد من المؤمنين فى ساحة معاقبة الزناة ليتعظ الناس بما يرون من إقامة حكم اللّه العادل على المذنبين.

وبعـد بيان حدّ الزنا، جاء بيان حكم الزواج من هؤلاء فى الآية الثالثة كما يلى: «الزَّانِى لَايَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ».

إنّ الآيـة تبيّن واقعة ملموسة، فالمنحطون يختارون المنحطات، وكذلك يفعلن هنّ فى اختيارهن، بينما يَسْمو المتطهّرون المؤمنون عن ذلـك. كما تبيّن فى هـذه العبارة حكماً شـرعياً وأمراً إلهياً يمنع المؤمنين من الزواج مع الزانيات، ويمنع المؤمنات من الزواج مع الزناة، لأنّ الانحرافات الأخلاقية كالأمراض الجسمية المعدية فى الغالب.

وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَ لَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَ أُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (۴) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵)

عقوبة البهتان: قد يستغلّ المعترضون ما نصّت عليه الآيات السابقة من عقوبات شديدة للزانى والزانية فيسيئون للمتطهّرين، فبيّنت الآيات

اللاحقة هنا عقوبات شديدة للذين يرمون المحصنات. تقول الآية: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ» «۱». فالأشخاص الذين يتّهمون النساء العفيفات بعمل ينافى العفة (أى: الزنا)، ولم يأتوا بأربعة شهود عدول لإثبات إدعائهم. فحكمهم: «فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَنِينَ جَلْدَةً». وتضيف الآية حكمين أخرين: «وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهدَةً أَبَدًا وَأُولئِكَ هُمُ الْفسِقُونَ».

«القذف»: إذا جرى بلفظ صريح، وبأىّ لغة وأيّة صورة فحدّه هو ثمانون جلدة، وإذا لم يكن صريحاً فيعزّر القاذف.

وهذا التشديد فى الحكم المشرّع لحفظ الشرف والطهارة، ليس خاصاً بهذه المسألة، ففى كثير من التعاليم الإسلامية نراه ماثلًا أمامنا.

---

(۱) «الرّمى» فى الأصل هو اطلاق السهم أو قذف الحجر وأمثالهما، وقد استخدمت الكلمة هنا كناية عن اتّهام الأشخاص وسبابهم ووصفهم بما لا يليق.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۵۲

وفى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إذا اتّهم المؤمن أخاه انماث الإيمان من قلبه كما ينماث الملح فى الماء».

ولكن المولى العزيز الحكيم سبحانه وتعالى لا يسدّ باب رحمته فى وجه التائبين، الذين تابوا من ذنوبهم وطهّروا أنفسهم، وندموا على ما فرّطوا، وسعوا فى تعويض ما فاتهم من البرّ «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

فمعنى ذلك قبول شهادتهم بعد التوبة وإزالته الحكم بفسقهم.

وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (۶) وَ الْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (۷) وَ يَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (۸) وَ الْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۹) وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (۱۰)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس، قال سعد بن عبادة: لو أتيت لكاع وقد يفخّذها رجل، لم يكن لى أن اهيجه حتى آتى بأربعة شهداء، فواللَّه ما كنت لآتى بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته ويذهب، وإن قلت ما رأيت فإنّ فى ظهرى لثمانين جلدة.

وبنزول الآيات السابقة علم المسلمون الحل السليم لهذه المشكلة.

التّفسير

عقاب توجيه التهمة إلى الزوجة: يستنتج من سبب النّزول أنّ هذه الآيات فى حكم الإستثناء الوارد على حدّ القذف، فلا يُطبق حدّ القذف (ثمانين جلدة) على زوج يتّهم زوجته بممارسة الزنا مع رجل آخر، وتقبل شهادته لوحدها ويمكن فى هذه الحالة أن يكون صادقاً كما يمكن أن يكون كاذباً فى شهادته وهنا يقدم القرآن المجيد حلًا أمثل هو: على الزوج أن يشهد أربع مرات على صدق إدّعائه: «وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۵۳

شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْصدِقِينَ وَالْخمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكذِبِينَ».

وبهذا على الرجل أن يعيد هذه العبارة: «أشهد باللَّه إنّى لمن الصادقين فيما رميتها من الزنا». أربع مرات لإثبات إدعائه من جهة، وليدفع عن نفسه حدّ القذف من جهة اخرى. ويقول فى الخامسة: «لعنة اللَّه علىّ إن كنت من الكاذبين».

وهنا تقف المرأة على مفترق طريقين، فإمّا أن تقرّ بالتهمة التى وجهها إليها زوجها، أو تنكرها على وفق ما ذكرته الآيات التالية.

ففى الحالة الاولى تثبت التهمة؛ وفى الثانية: «وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكذِبِينَ وَالْخمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصدِقِينَ».

وبهذا الترتيب تشهد المرأة خمس مرات مقابل شهادات الرجل الخمس- أيضاً- لتنفى التهمة عنها بأن تكرر أربع شهادات:

«أشهد باللّه إنّه لمن الكاذبين فيما رمانى من الزنا». وفى الخامسة تقول: «أنّ غضب اللّه علىّ إن كان من الصادقين».

وهذه الشهادات منهما هى ما يسمّى ب «اللعان»، لاستخدام عبارة اللعن فى الشهادة.

وليترتب على هذين الزوجين أربعة أحكام نهائية.

أوّلها: انفصالهما دون طلاق.

وثانيها: تحرم الزوج على الزوجة إلى الأبد، أى لا يمكنهما العودة إلى الحياة الزوجية معاً بعقد جديد.

وثالثها: سقوط حدّ القذف عن الرجل، وحد الزنا عن المرأة.

ورابعها: الطفل الذى يولد بعد هذه القضية لا ينسب إلى الرجل، وتحفظ نسبته للمرأة فقط.

ولم ترد تفاصيل الحكم السابق فى الآيات المذكورة أعلاه، وإنّما جاء فى آخر الآية موضع البحث: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَإِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ».

فهذه الآية إشارة إجمالية إلى تأكيد الأحكام السابقة، لأنّها تدل على أنّ اللعان فضل من اللّه، إذ يحل المشكلة التى يواجهها الزوجان، بشكل صحيح.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۵۴

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُم لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَ الَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَ قَالُوا هذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْ لَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١۴) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١۵) وَ لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذَا سُبْحَانَكَ هذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١۶)

حديث الإفك المثير: يستفاد من مجموع الآيات هو أنّه قد اتهم شخص برىء بعمل مخلّ بالعفة والشرف حين نزول هذه الآيات، وأنّ الشائعات كانت منتشرة فى المدينة، وأنّ مجموعة من المنافقين المتظاهرين بالإسلام أرادوا الاخلال بالمجتمع الإسلامى إلى أخسّ السبل لتلويث سمعة النبى صلى الله عليه و آله والحط من شأنه المقدس لدى الناس، بترويجهم هذه الشائعة، فنزلت هذه الآيات، وتصدّت لهذه الحادثة بقوة، ودفعت المنحرفين والمنافقين الحاقدين إلى جحورهم. وهذه الأحكام نافذة فى كل بيئة وزمان. تقول أوّل آية من الآيات موضع البحث، دون أن تطرح أصل الحادثة: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ».

«الإفك»: على وزن «فكر» يقصد بها كل مصروف عن وجهه، الذى يحق له أن يكون عليه، ومنه قيل للرياح العادلة عن المهاب «مؤتفكة»، ثم اطلقت على كل كلام منحرف عن الحق ومجانب للصواب، ومن ذلك يطلق على الكذب «إفك».

و «العُصبة»: على وزن «فُعْلَة» مشتقة من العَصَبْ، وجمعها أعصاب، وهى التى تربط عضلات الجسم بعضها مع بعض، وعلى شكل شبكة منتشرة فى الجسم، ثم أطلقت كلمة «عصبة» على مجموعة من الناس متحدة وذات عقيدة واحدة.

واستخدام هذه الكلمة يكشف عن الإرتباط الوثيق بين المتآمرين المشتركين فى ترويج حديث الإفك، حيث كانوا يشكّلون شبكة قوية منسجمة ومستعدة لتنفيذ المؤامرات.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۵۵

إنّ القرآن طمأن وهدّأ روع المؤمنين الذين آلمهم توجيه هذه التهمة إلى شخصية متطهرة: «لَاتَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ»، لأنّه كشف عن حقيقة عدد من الأعداء المهزومين أو المنافقين الجبناء.

ولو لم تكن هذه الحادثة، لما افتضح أمرهم بهذا الشكل، ولكانوا أكثر خطراً على المسلمين.

إنّ هذا الحادث علّم المسلمين أنّ اتّباع الذين يروّجون الشائعات يجرّهم إلى الشقاء، وأنّ عليهم أن يقفوا بقوّة أمام هذا العمل.

ثم تعقب هذه الآیة بذکر مسألتین:

أولیهما: «لِکُلِّ امْرِیٍ مِّنْهُم مَّا اکْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ». إشارة إلی أنّ المسؤولیة الکبری التی تقع علی عاتق کبار المذنبین لا تحول دون تحمل الآخرین لجزء من هذه المسؤولیة، ولهذا یتحمل کل شخص مسؤولیته إزاء أیة مؤامرة.

والمسألة الثانیة: «وَالَّذِی تَوَلَّی کِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِیمٌ».

وقائد هذه المجموعة سیعاقب عقاباً عظیماً لکبر ذنبه.

ثم توجّهت الآیة التالیة إلی المؤمنین الذین انخدعوا بهذا الحدیث فوقعوا تحت تأثیر الشائعات، فلامتهم بشدّة: «لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنتُ بِأَنفُسِهِمْ خَیْرًا». أی: لماذا لم تقفوا فی وجه المنافقین بقوة، بل استمعتم إلی أقوالهم التی مسّت مؤمنین آخرین کانوا بمنزلة أنفسکم منکم. ولماذا لم تدفعوا هذه التهمة وتقولوا بأنّ هذا الکلام کذب وافتراء: «وَقَالُوا هذَا إِفْکٌ مُّبِینٌ».

أنّکم کنتم تعرفون جیداً الماضی القبیح لهذه المجموعة من المنافقین.

ثم تهتم الآیات بالجانب القضائی للمسألة فتقول: «لَّوْلَا جَاءُو عَلَیْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ». أی لماذا لم تطلبوا منهم الإتیان بأربعة شهود. «فَإِذْ لَمْ یَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولئِکَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْکذِبُونَ».

إنّ هذه الملامة تبیّن أنّ الحکم بأداء أربعة أشخاص لشهادتهم، وکذلک حدّ القذف فی حالة عدمه قد نزل قبل الآیات التی تناولت حدیث الإفک.

وأخیراً جمعت الآیة التالیة هذه الملامات، فقالت: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکُمْ وَرَحْمَتُهُ فِی الدُّنْیَا وَالْأَخِرَةِ لَمَسَّکُمْ فِی مَا أَفَضْتُمْ فِیهِ عَذَابٌ عَظِیمٌ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۵۶

ونظراً لأن «أفضتم» مشتقة من الإفاضة، بمعنی خروج الماء بکثرة، واستعملت فی حالات اخری للتوغل فی الماء، نتج من هذه العبارة أنّ شائعة الإتهام توسعت بشکل شملت المؤمنین مضافاً إلی مروجیها الأصلیین (المنافقین).

وتبیّن الآیة التالیة البحث السابق وهو کیف ابتلی المؤمنون بهذا الذنب العظیم نتیجة تساهلهم، فتقول: «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِکُمْ». أی تذکّروا کیف رحّبتم بهذه التهمة الباطلة فتناقلتموها: «وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِکُم مَّا لَیْسَ لَکُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَیِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِیمٌ».

وتشیر هذه الآیة إلی ثلاثة أنواع من ذنوبهم العظیمة فی هذا المجال:

الأوّل: تَقبُّل الشائعة: استقبالها وتناقلها.

الثانی: نشر الشائعة دون أی تحقیق أو علم بصدقها.

الثالث: استصغار الشائعة واعتبارها وسیلة للهو وقضاء الوقت. فی نهج البلاغة عن الإمام علی علیه السلام قال: «أشدّ الذنوب ما استهان به صاحبه».

ونظراً لهول هذه الحادثة التی استصغرها بعض المسلمین، أکدتها الآیة ثانیة، فأنّبتهم مرّة اخری ولذعتهم بعباراتها إذ قالت:

«وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا یَکُونُ لَنَا أَن نَّتَکَلَّمَ بِهذَا سُبْحنَکَ هذَا بُهْتنٌ عَظِیمٌ».

وسبق لهذه الآیة أن وجهت اللوم لهم لسوء ظنهم بالذی وجه إلیه الإتهام باطلًا، وهنا تقول الآیة: إضافة إلی وجوب حسن الظن بالمتهم یجب ألا تسمحوا لأنفسکم بالتحدث عنه، ولا تتناولوا التهمة الموجهة إلیه، فکیف بکم وقد کنتم سبباً لنشرها.

یَعِظُکُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۱۷) وَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمُ الْآیَاتِ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ (۱۸) إِنَّ الَّذِینَ یُحِبُّونَ أَنْ تَشِیعَ الْفَاحِشَةُ فِی الَّذِینَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِیمٌ فِی الدُّنْیَا وَ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (۱۹) وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِیمٌ (۲۰)

حرمة إشاعة الفحشاء: تحدثت هذه الآیات أیضاً عن حدیث الإفک، والنتائج المشؤومة والألیمة لاختلاق الشائعات ونشرها، فذکر أوّلًا:

«يَعِظُكَمُ اللَّهُ أن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ». أى أنّ من علامات الإيمان أن لا يتوجه الإنسان نحو الذنوب العظام، والجملة المذكورة تشكل أحد

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۵۷

أركـان التوبـة، إذ أنّ النـدم على الماضـى لاـ يكفى، بل يجب التصـميم على عـدم تكرار ارتكاب الـذنوب فى المسـتقبل، لتكون توبة كاملة.

وللتأكيـد أكثر على أنّ هـذا الكلام ليس اعتيادياً، بل صادر عن اللَّه العليم الحكيم، ولبيان الحقائق ذات الأثر الفعال فى مصـير الإنسان، يقول سـبحانه وتعـالى: «وَيُبَيّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْأَيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». فهو يعلم حاجاتكم وما يضـرّكم وما ينفعكم بمقتضـى علمه الواسع، ويصدر أحكامه وأوامره المتناسبة لاحتياجاتكم بمقتضى حكمته.

ولتثبيت الأمر نقل الكلام من مورده الخاص إلى بيان عام لقانون شامل دائم، فقال: «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أن تَشِيعَ الْفحِشَةُ فِى الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالْأَخِرَةِ».

ولجملة (تشيع الفاحشة) مفهوم واسع يضم كل عمل يساعد فى نشر الفحشاء والمنكر.

وتختم الآيـة بـالقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَـاتَعْلَمُونَ». إنّه يعلم الـذين يـبيتون فى قلوبهم حب هـذا الـذنب، ويعلم الـذين يمـارسونه تحت واجهات خداعة، أمّا أنتم فلا تعلمون ذلك ولا تدركونه.

وكررت الآية الأخيرة- مما نحن بصدده من الآيات التى تناولت حديث الإفك ومكافحة إشاعة الفحشاء، وقذف المؤمنين المتطهرين- هذه الحقيقة لتؤكّد القول: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَ لكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّى مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۱) وَ لَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى الْقُرْبَى وَ الْمَسَاكِينَ وَ الْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا أَ لَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۲) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِى الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (۲۳) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۲۴) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (۲۵) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَ الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۲۶)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۵۸

على الرغم من عدم متابعة هذه الآيات حديث الإفك بصراحة، إلّاأنّها تعتبر مكملة لمضمون ذلك البحث، وتحذّر المؤمنين جميعاً من تأثير الأفكار الشيطانية فعلى هذا حينما يشعر الفرد بأوّل وسوسة شيطانية بإشاعة الفحشاء أو إرتكاب أى ذنب آخر فيجب التصدى له بقوة حاسمة، حتى يمنع من انتشاره وتوسّعه.

وتخـاطب الآيـة الاولى المؤمنين، فتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَـاتَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطنِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ».

وحيث لا يمكن جرّ أى إنسان مؤمن متطهر مرّة واحدة إلى الفساد، فإنّ ذلك يتمّ خطوة بعد اخرى فى طريق الفساد.

وأخيراً الإبتلاء بالكبائر، وهذه معنى جملة «خُطُوَاتِ الشَّيْطنِ».

ثم تشـير الآيـة إلى أهم النعم الكبيرة التى منّ اللَّه بها على الإنسان فى هدايته فتقول: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلكِنَّ اللَّهَ يُزَكّى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

ولاـ شـك فى أنّ الفضـل والرحمـة الإلهيـة ينقـذان الإنسان من الإنحطاط والانحراف من الـذنوب جميعاً، فاللَّه منحه العقل، ولطف به فأرسل إليه الرسل، ويسّر له سبل الإرتقاء والإهتـداء، وأعانه على اسـتكمال الخير، وإضافة إلى هذه المواهب شـمل اللَّه الذين تطهروا بتوفيقاته الخاصّة، وإمداداته التى يستحقونها، والتى تعتبر أهم عنصر فى تطهير وتزكية النفس.

وذکر عدد من المفسرین- ومنهم الطبرسی فی المجمع- سبباً لنزول الآیة الثانیة- من الآیات موضع البحث- یکشف عن تلاحمها مع الآیات السابقة، قال: نزلت فی جماعة من الصحابة أقسموا علی أن لا یتصدقوا علی رجل تکلّم بشیء من الإفک ولا یواسوهم. فنزلت هذه الآیة لتمنعهم من ردّ فعل قاس، وأمرتهم بالعفو والسماح.

نعود الآن إلی تفسیر الآیة بملاحظة سبب النزول هذا. یقول القرآن: «وَلَا یَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنکُمْ وَالسَّعَةِ أَن یُؤْتُوا أُولِی الْقُرْبَی وَالْمَسکِینَ وَالْمُهجِرِینَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ».

إنّ هذا التعبیر یکشف أنّ عدداً ممن تورّط فی قضیة الإفک کانوا من المهاجرین فی سبیل اللَّه إذ خدعهم المنافقون، ولم یجز اللَّه طردهم من المجتمع الإسلامی لماضیهم المجید، کما لم یسمح بعقابهم أکثر مما یستحقونه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۵۹

«یأتل»: مشتقة من «ألیّة» أی الیمین.

ثم تضیف الآیة: «وَلْیَعْفُوا وَلْیَصْفَحُوا». لتشجیع المسلمین وترغیبهم فی العفو والصفح بقولها: «أَلَا تُحِبُّونَ أَن یَغْفِرَ اللَّهُ لَکُمْ». فإنّکم مثلما تأملون من اللَّه العفو عنکم وأن یغفر خطایاکم، یجب علیکم العفو والصفح عن الآخرین: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِیمٌ».

وترسم هذه الآیات صورة للتعادل الإسلامی فی جذبه ودفعه، وتشکل آیات الإفک والعقوبات الشدیدة التی تفرض علی الذین یتهمون الآخرین فی شرفهم «قوة الدفع». وأمّا الآیة موضع البحث التی تتحدث عن العفو والصفح وکون اللَّه غفوراً رحیماً.

فإنّها تکشف عن «قوة الجذب».

ثم تعود الآیة إلی قضیة القذف واتّهام النساء العفیفات المؤمنات فی شرفهن، فتقول بشکل حازم: «إِنَّ الَّذِینَ یَرْمُونَ الْمُحْصَنتِ الْغفِلتِ الْمُؤْمِنتِ لُعِنُوا فِی الدُّنْیَا وَالْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِیمٌ».

فی تفسیر المیزان: هذه الآیة أخذ الصفات الثلاث الإحصان والغفلة والإیمان للدلالة علی عظم المعصیة فإنّ کلًّا من الإحصان بمعنی العفة والغفلة والإیمان سبب تام فی کون الرمی ظلماً والرامی ظالماً والمرمیة مظلومة فإذا اجتمعت کان الظلم أعظم ثم أعظم، وجزاؤه اللعن فی الدنیا والآخرة والعذاب العظیم «(۱)».

والمراد من «الغافلات» أنّهن لا یعلمن بما ینسب إلیهنّ من بهتان فی الخارج، ولهذا لسن فی صدد الدفاع عن أنفسهن، وفی النتیجة فإنّ الآیة تطرح موضوعاً جدیداً للبحث، لأنّ الآیات السابقة تحدثت عن مثیری التهم الذین یمکن التعرف علیهم ومعاقبتهم. إلّاأنّ الحدیث هنا یدور حول مثیری الشایعات الذین أخفوا أنفسهم عن العقاب والحد الشرعی، فتقول الآیة: إنّ اللَّه تعالی سیبعدهم عن رحمته فی هذه الدنیا، کما ینتظرهم العذاب العظیم فی الآخرة.

وتحدد الآیة التالیة وضع الذین یتهمون الناس بالباطل فی ساحة العدل الإلهی، قائلة: «یَوْمَ تَشْهَدُ عَلَیْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَیْدِیهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا کَانُوا یَعْمَلُونَ».

تدور ألسنتهم بما لا تشتهی أنفسهم لتستعرض الحقائق.

---

(۱) المیزان فی تفسیر القرآن ۱۵/ ۹۴.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶۰

وتشهد أیدیهم وأرجلهم، وکما ذکرت الآیات القرآنیة: تنطق جلودهم، حقاً إنّه یوم البروز والإفتضاح، ویوم تنکشف فیه السرائر.

ثم تقول الآیة: «یَوْمَئِذٍ یُوَفِّیهِمُ اللَّهُ دِینَهُمُ الْحَقُّ». واستناداً إلی هذا الدلیل أیضاً «وَیَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِینُ».

یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُیُوتاً غَیْرَ بُیُوتِکُمْ حَتَّی تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلَی أَهْلِهَا ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ (۲۷) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِیهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّی یُؤْذَنَ لَکُمْ وَ إِنْ قِیلَ لَکُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْکَی لَکُمْ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِیمٌ (۲۸) لَیْسَ عَلَیْکُمْ جُنَاحٌ

أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا تَكْتُمُونَ (٢٩)

لا تدخلوا بيوت الناس حتى يؤذن لكم: بيّنت هذه الآيات جانباً من أدب المعاشرة، والتعاليم الإسلامية الاجتماعية التى لها علاقة وثيقة بقضايا عامة حول حفظ العفة، حيث تقول أوّلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا».

وبهذا الترتيب عندما تعزمون على الدخول لابدّ من إخبار أصحاب البيت بذلك ونيل موافقتهم.

يجب أن يكون محيط المنزل آمناً إلى حدّ كاف؛ حتى أنّ جميع قوانين العالم تمنع الدخول إلى منازل الآخرين دون استئذان وتعاقب عليه. ونصّت الأحكام الإسلامية على تعاليم وآداب خاصة فى هذا المجال، لا يشاهد نظيرها إلّانادراً.

روى- فى التفسير الكبير- أنّ أبا سعيد الخدرى استأذن على الرسول صلى الله عليه و آله وهو مستقبل الباب فقال: «لا تستأذن وأنت مستقبل الباب».

وفى الدرّ المنثور عن عبداللَّه بن بشر قال: كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: «السلام عليكم السلام عليكم».

ومما يلفت النظر فى هذا الحكم الذى يتصف بأبعاد إنسانية وعاطفية واضحة، مرافقة لجملتين، أولاها: «ذلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ» وثانيتهما: «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

وأردف القرآن هذا الحكم بجملة اخرى فى الآية التالية: «فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٦١

قد يكون المراد من هذه العبارة أنّه ربّما كان فى المنزل أحد، ولكن من لديه حق إعطاء الإذن بالدخول غير موجود، ففى هذه الحالة لا يحق للمرء الدخول إلى المنزل.

ثم تضيف الآية: «وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ».

إشارة إلى أنّه لا لزوم لانزعاج المرء إن لم يؤذن له بالدخول، فلعل صاحب المنزل فى وضع غير مريح، أو أنّ منزله لم يهيأ لاستقبال الضيوف.

وبما أنّ بعض الناس قد يدفعهم حبّ الإطلاع والفضول حين رفضهم استقباله على استراق السمع، أو التجسس من ثقب الباب لكشف خفايا أهل المنزل وليطلع على أسرارهم، لهذا قالت الآية: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ».

وبما أنّ لكل حكم استثناءً، لرفع المشكلات والضرورات بشكل معقول عن طريقه، تقول آخر آية موضع البحث: «لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ».

وتضيف فى الختام: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ». ولعل ذلك إشارة إلى استغلال البعض هذه الاستثناءات، فيتذرّع بأنّ المنزل غير مسكون فيدخله بهدف الكشف عن بعض الأسرار، أو الدخول إلى منازل مسكونة متذرعاً بعدم علمه بأنّها مسكونة، إلّاأنّ اللَّه يعلم بكل هذه الأعمال، ويعلم الذين يسيئون الاستفادة من هذا الاستثناء.

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ لْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِى أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَ لَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٦٢

سبب النّزول

فی الکافی عن الإمام الباقر علیه السلام قال: «استقبل شابّ من الأنصار امرأة بالمدینة وکان النساء یتقنّعن خلف آذانهن، فنظر إلیها وهی مقبلة، فلما جازت نظر إلیها ودخل فی زقاق قد سمّاه ببنی فلان، فجعل ینظر خلفها واعترض وجهه عظم فی الحائط أو زجاجة فشقّ وجهه، فلما مضت المرأة نظر فإذا الدماء تسیل علی صدره وثوبه، فقال: واللّه لآتین رسول اللّه صلی الله علیه و آله ولأخبرنّه». قال: «فأتاه فلما رآه رسول اللّه صلی الله علیه و آله قال له: ما هذا؟ فأخبره، فهبط جبرئیل علیه السلام بهذه الآیة: «قُلْ لِّلْمُؤْمِنِینَ یَغُضُّوا مِنْ أَبْصرِهِمْ وَیَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِکَ أَزْکی لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِیرٌ بِمَا یَصْنَعُونَ»».

التّفسیر

مکافحة السفور وخائنة الأعین: قلنا فی البدایة: إنّ هذه السورة اختصت بالعفة والطهارة وتطهیر الناس من جمیع الانحرافات الجنسیة، ولا- یخفی علی أحد إرتباط هذا البحث بالبحوث الخاصة بالقذف. تقول الآیة أوّلًا: «قُلْ لِّلْمُؤْمِنِینَ یَغُضُّوا مِنْ أَبْصرِهِمْ وَیَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ». «یغضوا»: مشتقة من «غضّ» من باب «ردّ» وتعنی فی الأصل التنقیص، لهذا لم تأمر الآیة أن یغمض المؤمنون عیونهم، بل أمرت أن یغضّوا من نظرهم.

إنّ الإسلام نهی عن هذا العمل المندفع مع الأهواء النفسیة والشهوات، لأنّ «ذلِکَ أَزْکَی لَهُمْ». کما نصّت علیه الآیة- موضع البحث- فی ختامها.

ثم تحذر الآیة اولئک الذین ینظرون بشهوة إلی غیر محارمهم، ویبررون عملهم هذا بأنّه غیر متعمّد، فتقول: «إِنَّ اللَّهَ خَبِیرٌ بِمَا یَصْنَعُونَ».
وتناولت الآیة التالیة شرح واجبات النساء فی هذا المجال، فأشارت أوّلًا إلی الواجبات التی تشابه ما علی الرجال، فتقول:
«وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنتِ یَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصرِهِنَّ وَیَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ».

وبهذا حرم اللّه النظر بریبة علی النساء أیضاً مثلما حرّمه علی الرجال، وفرض تغطیة فروجهنّ عن أنظار الرجال والنساء مثلما جعل ذلک واجباً علی الرجال.

ثم أشارت الآیة إلی مسألة الحجاب فی ثلاث جمل:

أ) «وَلَا یُبْدِینَ زِینَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا». فلا یحق للنساء الکشف عن زینتهنّ المخفیة، وإن کانت لا تُظهر أجسامهنّ، أی لا یجوز لهنّ الکشف عن لباس یتزیّن به تحت اللباس

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶۳

العادی أو العباءة، بنص القرآن الذی نهاهن عن ذلک.

ب) وثانی حکم ذکرته الآیة هو: «وَلْیَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَی جُیُوبِهِنَّ». «خُمُر»: جمع «خِمار» فی الأصل تعنی «الغطاء»، إلّاأنّه یطلق بصورة اعتیادیة علی الشیء الذی تستخدمه النسوة لتغطیة رؤوسهنّ؛ و «الجیوب»: جمع «جیب» علی وزن «غیب» بمعنی یاقة القمیص، وأحیاناً یطلق علی الجزء الذی یحیط بأعلی الصدر لمجاورته الیاقة.

ویستنتج من هذه الآیة أنّ النساء کنّ قبل نزولها، یرمین أطراف الخمار علی أکتافهن أو خلف الرأس بشکل یکشفن فیه عن الرقبة وجانباً من الصدر، فأمرهن القرآن برمی أطراف الخمار حول أعناقهن؛ أی فوق یاقة القمیص لیسترن بذلک الرقبة والجزء المکشوف من الصدر.

ج) وتشرح الآیة فی حکمها الثالث الحالات التی یجوز للنساء فیها الکشف عن حجابهن وإظهار زینتهن، فتقول: «وَلَا یُبْدِینَ زِینَتَهُنَّ إِلَّا». ۱- «لِبُعُولَتِهِنَّ». ۲- «أَوْ ءَابَائِهِنَّ». ۳- «أَوْ ءَابَاءِ بُعُولَتِهِنَّ». ۴- «أَوْ أَبْنَائِهِنَّ». ۵- «أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ». ۶- «أَوْ إِخْوَانِهِنَّ». ۷- «أَوْ بَنِی إِخْوَانِهِنَّ». ۸- «أَوْ بَنِی أَخَوَاتِهِنَّ». ۹- «أَوْ نِسَائِهِنَّ».
۱۰- «أَوْ مَا مَلَکَتْ أَیْمنُهُنَّ».
۱۱- «أَوِ التبِعِینَ غَیْرِ أُوْلِی الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ». أی: الرجال الذین لا رغبة جنسیة عندهم أصلًا بالعنن أو بمرض غیره.

۱۲- «أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ».

د) وتبيّن الآية رابع الأحكام فتقول: «وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ». أى: على النساء أن يتحفظن عفتهنّ.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶۴

ويجب أن يراقبن تصرفهن بشدة بحيث لا يصل صوت خلخالهن إلى آذان غير المحارم. وانتهت الآية بدعوة جميع المؤمنين رجالًا ونساءً إلى التوبة والعودة إلى اللَّه ليفلحوا: «وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». وتوبوا أيّها الناس مما ارتكبتم من ذنوب فى هذا المجال، بعدما اطلعتم على حقائق الأحكام الإسلامية، وعودوا إلى اللَّه لتفلحوا.

فلسفة الحجاب: مما لا شك فيه أنّ الحديث عن الحجاب للمتغربين فى عصرنا الذى سمّوه بعصر التعرى والحرية الجنسية، ليس حديثاً سارّاً حيث يتصورونه اسطورة يعود لعصور خلت. إلّاأنّ الفساد الذى لا حدّ له، والمشاكل المتزايدة والناتجة عن هذه الحريات التى لا قيد لها ولا حدود، أدّى بالتدريج إلى إيجاد الاذن الصاغية لهذا الحديث.

والقضية المطروحة (نقولها مع الإعتذار): هل من الصحيح أن تُستغل النساء للتلذذ من جانب الرجال عن طريق السمع والنظر واللمس (باستثناء المجامعة) وأن يكن تحت تصرف جميع الرجال، أو أن تكون هذه الامور خاصة لأزواجهن؟

يقول الإسلام: إنّ الامور الجنسية سواءً كانت مجامعة أو استلذاذاً عن طريق السمع أو البصر أو اللمس خاص بالأزواج، ومحرّم على غيرهم، لأنّ ذلك يؤدّى إلى تلويث المجتمع وانحطاطه، وعبارة «ذلِكَ أَزْكَى لَهُمْ» التى جاءت فى الآية السابقة تشير إلى هذه المسألة.

إنّ فلسفة الحجاب ليست خافية على أحد للأسباب التالية:

۱- إنّ تعرى النساء وما يرافقه من تجميل ودلال- وما شاكل ذلك- يحرك الرجال- خاصة الشباب- ويحطّم أعصابهم، وتراهم قد غلب عليهم الهياج العصبى، وأحياناً يكون ذلك مصدراً للأمراض النفسية.

خاصة إذا لاحظنا أنّ الغريزة الجنسية، أقوى الغرائز فى الإنسان وأكثرها عمقاً، وكانت عبر التاريخ السبب فى أحداث دامية وإجرامية مرعبة، حتى قيل: إنّ وراء كل حادثة مهمة امرأة.

أليس إثارة الغرائز الجنسية لعباً بالنار؟ وهل هذا العمل عقلانى؟

۲- تبيّن إحصاءات موثقة ارتفاع نسب الطلاق وتفكّك الاسرة فى العالم، بسبب زيادة التعرّى، لأنّ فى سوق التعرى والحرية الجنسية، حيث المرأة سلعة تباع وتشترى أو فى أقل تقدير موضع نظر وسمع الرجال، عندها يفقد عقد الزواج حرمته.

۳- انتشار الفحشاء وازدياد الأبناء غير الشرعين يعتبران من أنكى نتائج إلغاء

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶۵

الحجاب، فشواهدها ظاهرة فى المجتمع الغربى، واضحة بدرجة لا تحتاج إلى بيان.

۴- قضية «ابتذال المرأة» وسقوط شخصيتها فى المجتمع الغربى ذات أهمية كبيرة فعندما يرغب المجتمع فى تعرى المرأة، فمن الطبيعى أن يتبعه طلبها لادوات التجميل والتظاهر الفاضح والإنحدار السلوكى، وتسقط شخصية المرأة فى مجتمع يركز على جاذبيتها الجنسية، ليجعلها وسيلةً إعلامية يُروّج بها لبيع سلعة أو لكسب سائح.

وهذا السقوط يفقدها كل قيمتها الإنسانية، إذ يصبح شبابها وجمالها وكأنّه المصدر الوحيد لفخرها وشرفها، حتى لا يبقى لها من إنسانيتها سوى أنّها أداةٌ لإشباع شهوات الآخرين، الوحوش الكاسرة فى صور البشر.

كيف يمكن للمرأة فى هذا المجتمع أن تبرز علمياً وتسمو أخلاقياً؟!

وَ أَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَ إِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (۳۲) وَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَ آتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ وَ لَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ

إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۳) وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَ مَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (۳۴)

الترغيب فى زواج يسير التكاليف: طرحت هذه الآية- منذ بدايتها حتى الآن- سبلًا أمينة متعددة للحيلولة دون الإنحطاط الخلقى والفساد إلى عالم أرحب من الطهر والاستقامة، ويحول دون تقهقرها أو انحدارها فى مهاوى الرذيلة، وقد أشارت الآيات- موضع البحث- إلى أهم طرق مكافحة الفحشاء، ألا وهو الزواج اليسير الذى يتمّ بعيداً عن أجواء الرياء والبذخ، لأنّ إشباع الغرائز بشكل سليم وشرعى خير سبيل لاقتلاع جذور الذنوب. لهذا تقول بداية الآية موضع البحث: «وَأَنْكِحُوا الْأَيَمى مِنكُمْ وَالصلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ». «الأيامى»: جمع «أيّم» على وزن «قيّم» وتعنى فى الأصل المرأة التى لا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶۶

زوج لها، وكذلك تطلق هذه الكلمة على الرجل الذى لا زوجة له، فيدخل فى هذا المفهوم كل من ليس له زوج، سواء كان بكراً أم ثيباً. وعبارة «أنكحوا» أى «زوّجوا» فالمراد من هذا الأمر بالتزويج التمهيد للزواج عن طريق تقديم العون المالى عند الحاجة، أو العثور على زوجة مناسبة، أو التشجيع على الزواج، ولا اختلاف فى أنّ أصل التعاون الإسلامى يوجب تقديم العون من قبل المسلمين بعضهم لبعض.

وجاء ذلك هنا بصراحة ليؤكّد أهمية الزواج الخاصة، وهى أهمية بالغة المدى.

فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: أفضل الشفاعات أن تشفع بين اثنين فى نكاح حتى يجمع اللَّه بينهما».

وبما أنّ بعض الأعذار كالفقر أو عدم وجود وتوفّر الإمكانات اللازمة قد تقف حائلًا دون الزواج، أو هو عذر للفرار من الزواج وتشكيل الاسرة. يقول القرآن بهذا الصدد: «إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

إنّ المتزوج يكتسب شخصية اجتماعية، حيث يجد نفسه مسؤولًا عن المحافظة على زوجته، وماء وجه اسرته، وتأمين حياةٍ سعيدة ومستقبل زاهر لها، ويستغلّ المتزوج جميع طاقاته للحصول على دخل معتبر، فتراه يقتصد فى نفقاته ليتغلّب على الفقر بأسرع وقت ممكن، ولا جدال فى أنّ الإمدادات الإلهية والقوى الروحية الخفية تساعد هذا الشخص الذى تزوج ليحفظ نفسه ويطهرها.

ولكن أحياناً بالرغم من بذل الجميع جهودهم لتهيئة مستلزمات زواج إنسان ما لا يفلحون فى ذلك، مما يضطره إلى مضى فترة من الزمن محروماً من الزواج، ولكى لا يظن أنّ إقدامه على الفساد أمراً مباحاً تقتضيه الضرورة أسرعت الآية التالية لتأمره بالطهارة والعفّة فقالت: «وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَايَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ».

ويهتم الإسلام كعادته بالعبيد الضعفاء اجتماعياً من أجل تيسير حريتهم، فيتناول القرآن المجيد مسألة المكاتبة «۱» فتقول الآية:

«وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا».

ولأجل ألا يقع العبيد فى مشاكل لا يتمكنون من حلّها ويعجزون عن تسديد ما

---

(۱) إنّ عقد المكاتبة نوع من الإتفاقات يتمّ بين المولى وعبده، يلتزم العبد فيه بإعداد مبلغ من المال من عمل حرّ، ليدفع أقساطاً لسيّده، فإذا دفع آخر قسطينال حريته.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶۷

بذمتهم، يدعو القرآن الكريم إلى مساعدتهم فيقول: «وَءَاتُوهُم مّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى ءَاتكُمْ».

والهدف الحقيقى هو أن يشمل المسلمون هذه الطبقة المستضعفة بمساعداتهم لتتحرر بأسرع وقت ممكن.

وعقّبت هذه الآية بإشارة إلى أحد الأعمال القبيحة التى كان يمارسها عبّاد الدنيا إزاء جواريهم: «وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا».

وهـذه الآيـة تكشف عن مـدى الرذيلـة والإنحطاط الخلقى الـذى كان سائـداً فى عهد الجاهليه، وقد واصل البعض أعماله القبيحة هذه حتى بعد ظهور الإسلام، حتى نزلت الآية السابقة، وأنهت هذه الأعمال.

ومع بالغ الأسف نجـد عصـرنا الذى سـمى بجاهلية القرن العشـرين، تمارس البشـرية هذا العمل بقوة وعلى قدم وساق فى بلدان تدّعى المدنية والحضارة والدفاع عن حقوق الإنسان.

وفى الختام- على حسب الاسلوب الذى يتبعه القرآن- يفتح طريق التوبة للمذنبين، ويشجعهم على إصلاح أنفسهم: «وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وعلى نهـج القرآن، نجد آخر الآيات- موضع البحث- تسـتنتج وتلخّص الموضوع المطروح خلال إشارتها إلى البحوث السابقة: «وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايتٍ مُّبَيِّنَاتٍ». وكذلك دروس وعبر من الأقوام الماضية تنفعكم فى يومكم هذا: «وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ».

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَ لَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَ الْآصَالِ (٣۶) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣۶٨

آية النور: تحدث الفلاسـفة والمفسرون والعرفاء الإسلاميون كثيراً عن مقاصد الآيات أعلاه، وهى مرتبطة بما سبقها من الآيات الشريفة التى عرضت لقضية العفة ومكافحة الفحشاء بمختلف السبل.

وبما أنّ ضـمانة تنفيذ الأحكام الإلهية، وخاصة السيطرة على الغرائز الثائرة، ولا سيما الغريزة الجنسية التى هى أقوى الغرائز، لا تتمّ دون الإستناد إلى الإيمان، ومن هنا إمتد البحث إلى الإيمان وأثره القوى، فقالت الآية أوّلًا: «اللَّهُ نُورُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

وإذا أردنا تشبيه الـذات المقدسـة لربّ العالمين (رغم منزلته العظيمـة التى لا نظير لها ولا شبيه) فلا نجـد خيراً من النور! اللَّه الذى خلق كل شىء فى عالم الوجود ونوّره، فأحيا المخلوقات الحية ببركته، ورزقها من فضل، ولو انقطعت رحمته عنها لحظة، لأصبح الجميع فى ظلمات الفناء والعدم.

ومما يلفت النظر أنّ كل مخلوق يرتبط باللَّه بمقدار معين يكتسب من النور بنفس ذلك المقدار:

القرآن نور لأنّه كلام اللَّه.

والدين الإسلامى نور لأنّه دينه.

الأنبياء أنوار لأنّهم رسله.

والأئمة المعصومون عليهم السلام أنوار إلهية، لأنّهم حفظة دينه بعد النبى صلى الله عليه و آله.

والإيمان نور، لأنّه رمز الإلتحام به سبحانه وتعالى.

والعلم نور، لأنّه السبيل إلى معرفته- عزّ وجل-.

ولهذا: «اللَّه نور السماوات والأرض».

وإذا اسـتعملنا كلمـة «النور» بمعناها الواسع، أى الظاهر فى ذاته والمظهر لغيره فى هـذه الحالـة يصـبح اسـتعمال كلمـة النور الـذات اللَّه المقدسة حقيقة ولا تشبيه فيها، لأنّه لا يوجد أظهر من اللَّه تعالى فى العالم، وكل الأشياء تظهر من بركات وجوده.

وبهذا تأخذ أنوار الوجود نورها من نوره وتنتهى إلى نوره الطاهر.

وقد أوضح القرآن بعد بيانه الحقائق السالفة ذلك، إذْ ذكر مثالًا رائعاً دقيقاً لكيفية النور الإلهى: «مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّاشَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۶۹

عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلّ شَىْءٍ عَلِيمٌ».

«المشكاة»: فى الأصل تعنى الكُوّة التى تخصص فى الجدار لوضع المصابيح الزيتية فيها لحفظها من الرياح.

«الزجاجة»: تطلق فى الأساس على الأحجار الشفّافة، وهنا تعنى الزجاجة التى توضع فوق المصباح لتحفظ شعلته، وتنظّم جريان الهواء، لتزيد من نور الشعلة.

«المصباح»: يتألف من وعاء للزيت وفتيل.

عبارة «زَيْتُونَةٍ لَّاشَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ» تشير إلى الطاقة التى تُجهّز هذا المصباح بوقود لا- ينضب معينه، وزيت الزيتون من أجود الوقود المستعمل للمصابيح، ثم إنّ هذا الزيت يُحصل عليه من زيتون شجر يتعرض للشمس من جميع جوانبه بشكل متساو، لا أن تكون الشجره فى الجانب الشرقى من البستان وبجانب حائط يمنع وصول أشعة الشمس إليها، كما لا تكون فى جهة الغرب ليتعرض جانب واحد منها على أشعة الشمس.

وتوضيح هذا المثال: إنّ نور الإيمان الموجود فى قلوب المؤمنين يحتوى على العناصر الأربعة المتوفرة فى المصباح المضىء، هى:

«المصباح» وهو شعلة الإيمان فى قلب المؤمن يضىء طريق الهداية.

و «الزجاجة» هى قلب المؤمن ينظم الإيمان فى ذاته ويحفظه من كل سوء.

و «المشكاة» صدر المؤمن. أو بعبارة اخرى: شخصيته بما فيها وعيه وعلمه وفكره الذى يصون إيمانه من الأعاصير والأخطار.

«شجرة مباركة زيتونة» هى الوحى الإلهى الذى يكون بمنتهى الصفاء والطهارة وتوقد شعلة إيمان المؤمنين- فى الحقيقة- من نور اللَّه الذى ينير السماوات والأرض وقد أشرق من قلوب المؤمنين، فأضاء وجودهم ونور وجوههم.

فتراهم يمزجون الأدلة العقلائية بنور الوحى، فيكون مصداق «نور على نور».

ولهذا ترى القلوب المستعدة لاستقبال النور الإلهى تهتدى، وهى المقصودة بعبارة «يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ».

وتجب المحافظة على نور الوحى من التلوث والميول المادية والانحراف إلى الشرق أو الغرب الذى يؤدّى إلى التفسخ والإندثار.

ولتعبىء قوى الإنسان بشكل سليم بعيداً عن كل فكر مستورد وانحراف، لتكون

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷۰

مصداقاً ل «يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ». ويجب أن نعرف الآن أين موضع هذا المصباح، وشكل موضعه، ليتّضح لنا ما كان ضرورياً إيضاحه فى هذا المجال، لهذا تقول الآية التالية: إنّ هذه المشكاة تقع «فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ» لكى تكون فى مأمن من الشياطين والأعداء والانتهازيين، «وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ» ويتلى فيها القرآن والحقائق الإلهية.

ثم تبيّن المقصود من هذه البيوت فى آخر الآية حيث تقول: أنّه فى هذه البيوت يسبّح أهلها صباحاً ومساءاً: «يُسَبّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوّ وَالْأَصَالِ». «رِجَالٌ لَّاتُلْهِيهِمْ تِجرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصرُ». إنّ هذه الخصائص تكشف عن أنّ هذه البيوت هى المراكز التى حُصّنت بأمر من اللَّه، وأنّها مركز لذكر اللَّه ولبيان حقيقة الإسلام وتعاليم اللَّه، ويضم هذا المعنى الواسع المساجد وبيوت الأنبياء والأولياء خاصة بيت النبى صلى الله عليه و آله وبيت على عليه السلام.

وأشارت آخر هذه الآيات إلى الجزاء الوافى لحراس نور الهداية وعشّاق الحق والحقيقة، فقالت: «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مّن فَضْلِهِ». أى: أنّ اللَّه يكافىء جميع أعمالهم بموجب أفضلها، ويشمل ذلك أبسط أعمالهم وأوسطها، حيث يجعلها اللَّه

بمستوى أفضل الأعمال حين منحه المكافأة.

ولا عجب في ذلك، لأنّ الفضل الإلهي لمن كان جديراً به غير محدود: «وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (۳۹) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (۴۰)

أعمال سرابية: تحدثت الآيات السابقة عن نور اللّه، نور الإيمان والهداية، ولإتمام هذا البحث ولتوضيح المقارنة بين الذين نوّر اللّه قلوبهم وبين الآخرين تناولت هذه الآيات عالم الكفر والجهل والإلحاد المظلم. الكلام في الآية الاولى عن الذين يبحثون عن الماء في

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷۱

صحراء جاقّة حارقة، ولا يجدون غير السراب فيموتون عطشاً، في الوقت الذي عثر فيه المؤمنون على نور الإيمان، ومنبع الهداية الرائعة، فاستراحوا بجنبها، فتقول أوّلًا: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيًا». ولكن يجد اللّه عند أعماله: «وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ».

ثم تناولت الآية الثانية مثالًا آخر لأعمال الكفار وقالت: «أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيّ يَغْشهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ». وبهذا المنوال تكون «ظُلُمتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَيهَا».

أجل، إنّ النور الحقيقي في حياة البشر هو نور الإيمان فقط، ومن دونه تسود الحياة الظلمات، ونور الإيمان هذا إنّما هو لطف من عند اللّه: «وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ».

فقد شبّهت الآية أعمال غير المؤمنين بنور كاذب كسراب يراه ظمآن في صحراء جافة.

ثم ينتقل القرآن من الحديث عن هذا النور الكاذب، الذي هو عبارة عن أعمال المنافقين إلى باطن هذه الأعمال، الباطن المظلم والمخيف والموحش حيث تتعطل فيه حواس الإنسان، وتظلم عليه الدنيا حتى لا يرى نفسه.

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (۴۱) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (۴۲)

الجميع يسبّح للّه: تحدثت الآيات السابقة عن نور اللّه، نور الهداية والإيمان، وعن الظلمات المضاعفة للكفر والضلال، أمّا الآيات موضع البحث، فإنّها تتحدث عن دلائل الأنوار الإلهية وأسباب الهداية، وتخاطب الآية النبي صلى الله عليه و آله فتقول: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ». وكذلك الطير يسبّحن للّهفي حال أنّها باسطات اجنحتهنّ في السماء «وَالطَّيْرُ صفتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ».

وبما أنّ هذا التسبيح العام دليل على خلقه تعالى لجميع المخلوقات، وخالقيته دليل على مالكيته للوجود كله، وكذلك دليل على أنّ كل ما في الوجود يرجع إليه سبحانه، فتضيف الآية: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷۲

إنّ القصد من التسبيح والحمد هما ما نعبر عنه بعبارة «لسان حاله». أي نظام الوجود وأسراره المدهشة الكامنة في كل مخلوق تتحدث بصراحة عن عظمة الخالق وعلمه وحكمته التي لا حدود لها، إذ كل مخلوق جميل، وكل أثر فني بديع يثير الدهشة والإعجاب، حتى أنّ لوحة فنية وقطعة شعرية جميلة، تحمد وتسبّح لمبدعها. فمن جهة تكشف عن صفاته (بحمدها له) ومن جهة اخرى تنفي عنه أي عيب أو نقص (فتسبحه)، فكيف وهذا الكون العظيم بما فيه من عجائب وغرائب لا تنتهي.

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (۴۳) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ

(۴۴) وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴۵)

جانب آخر من الخلق العجیب: نواجه ثانیهٔ- فی هذه الآیات- جانباً آخر من مسألهٔ الخلق المدهشهٔ، وما احتوته من آیات العلم والحکمه والعظمهٔ، وکل ذلک من أدلهٔ توحید ذات اللَّه الطاهرهٔ. یخاطب القرآن المجید النبیّ صلی الله علیه و آله ثانیهٔ ویقول: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ یُزْجِی سَحَابًا ثُمَّ یُؤَلِّفُ بَیْنَهُ ثُمَّ یَجْعَلُهُ رُکَامًا». وبعد أن تتراکم السحب تری قطرات المطر تخرج من بین السحاب وتهبط علی الجبال والسهول والصحاری، «فَتَرَی الْوَدْقَ یَخْرُجُ مِنْ خِلِلِهِ».

«یزجی»: مشتقهٔ من «الإزجاء»، أی سوقه باسلوب لین لترتیب المخلوقات المتبعثرهٔ هنا وهناک بقصد جمعها.

«رکام»: علی وزن «غلام»، بمعنی الأشیاء المتراکمهٔ بعضها فوق بعض.

«الودق»: علی وزن «شرق»، أنّها حبّات المطر.

فهو الذی یحیی الأرض بعد موتها ویبعث الحیاهٔ فی الأشجار والنباتات، ویروی عطش البشر والحیوان.

وأشار القرآن إلی ظاهرهٔ اخری من ظواهر السماء المدهشهٔ، وهی السحاب، حیث قال:

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷۳

«وَیُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِیهَا مِن بَرَدٍ». أی من جبال السحب فی السماء تنزل قطرات المطر علی شکل ثلج وبرد، فتکون بلاء لمن یرید اللَّه عذابه فتصیب هذه الثلوج المزارع والثمار وتتلفها وقد تصیب الناس والحیوانات فتؤذیهم، «فَیُصِیبُ بِهِ مَن یَشَاءُ». ومن لم یرد تعذیبه دفع عنه هذا البلاء، «وَیَصْرِفُهُ عَن مَّن یَشَاءُ».

أجل، إنّه هو الذی ینزّل الغیث المخصب من سحابهٔ تارهٔ ... وهو الذی یصیّره برداً بأدنی تغییر بأمره فیصیب به (بالأذی) من یشاء، وربّما یکون مهلکاً أحیاناً.

وهذا یدل علی منتهی قدرته وعظمته إذ جعل نفع الإنسان وضرره وموته وحیاته متقارنهٔ، بل مزج بعضها ببعض.

وفی نهایهٔ الآیهٔ یشیر إلی ظاهرهٔ أخری من الظواهر السماویهٔ التی هی من آیات التوحید فیقول سبحانه: «یَکَادُ سَنَابَرْقِهِ یَذْهَبُ بِالْأَبْصرِ».

فالسحب المؤلفهٔ من ذرات الماء تحمل فی طیّاتها الشحنات «الکهربائیهٔ»، وتُومض إیماضاً یُذهل برقها (العیون) والأبصار ویصکّ رعدها السمع من صوته، وربّما اهتزت له جمیع الاجواء.

إنّ هذه الطاقهٔ الهائلهٔ بین هذا البخار اللطیف لمثیرهٌ للدهشهٔ حقاً ...

وأشارت الآیهٔ التالیهٔ إلی إحدی معاجز الخلق ودلائل عظمهٔ اللَّه، وهو خلق اللیل والنهار بما فیهما من خصائص، حیث تقول: «یُقَلِّبُ اللَّهُ الَّیْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِی ذلِکَ لَعِبْرَةً لِّأُولِی الْأَبْصرِ».

إنّ لتعاقب اللیل والنهار والتغییرات التدریجیهٔ الحاصلهٔ منه أثر فعّال فی استدامهٔ الحیاهٔ وبقاء الإنسان، وفی ذلک عبرهٔ لُاولی الأبصار.

وأشارت آخر الآیات موضع البحث- إلی أوضح دلیل علی التوحید، وهی مسألهٔ الحیاهٔ بصورها المختلفهٔ، فقالت: «وَاللَّهُ خَلَقَ کُلَّ دَابَّةٍ مّن مَّاءٍ». أی أنّ أصلها جمیعاً من ماء، ومع هذا فلها صور مختلفهٔ: «فَمِنْهُم مَّن یَمْشِی عَلَی بَطْنِهِ» کالزواحف؛ «وَمِنْهُم مَّن یَمْشِی عَلَی رِجْلَیْنِ» کالإنسان والطیور؛ «وَمِنْهُم مَّن یَمْشِی عَلَی أَرْبَعٍ» کالدواب.

ولیس الخلق محدداً بهذه المخلوقات، فالحیاهٔ لها صور اخری متعددهٔ بشکل کبیر، سواء کانت أحیاء بحریهٔ أم حشرات بأنواعها المتعددهٔ التی تبلغ آلاف الأنواع، لهذا قالت الآیهٔ فی الختام: «یَخْلُقُ اللّهُ مَا یَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷۴

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴۶) وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ مَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (۴۷) وَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (۴۸) وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ

يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (۴۹) أَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ بَلْ أَولئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۵۰)

سبب النّزول

فی تفسير مجمع البيان قيل: نزلت الآيات فی رجل من المنافقين كان بينه وبين رجل من اليهود حكومة، فدعاه اليهودی إلی رسول اللَّه صلی الله عليه و آله ودعاه المنافق إلی كعب بن الأشراف.

التّفسير

الإيمان وقبول حكم اللَّه: تحدثت الآيات السابقة عن الإيمان باللَّه وعن دلائل توحيده وعلائمه فی عالم التكوين، بينما تناولت الآيات- موضع البحث- أثر الإيمان وانعكاس التوحيد فی حياة الإنسان، وإذعانه للحقّ والحقيقة. تقول أوّلًا: «لَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايتٍ مُّبَيِّنتٍ». آيات تنور القلوب بنور الإيمان والتوحيد، وتزيد فی فكر الإنسان نوراً وبهجة، وتبدّل ظلمات حياته إلی نور علی نور. وطبيعی أنّ هذه الآيات المبينات تُمهد للإيمان، إلّاأنّ الهداية الإلهية هی صاحبة الدور الأساسی: «وَاللَّهُ يَهْدِی مَن يَشَاءُ إِلَی صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم».

وكما نعلم فإنّ إرادة اللَّه ومشيئته ليست دون حساب، فهو سبحانه وتعالی يدخل نور الهداية إلی القلوب المستعدة لتقبله.

ثم استنكرت الآية الثانية وذمّت مجموعة من المنافقين الذين يدّعون الإيمان فی الوقت الذی خلت فيه قلوبهم من نور اللَّه، فتقول الآية عن هذه المجموعة: «وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّی فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذلِکَ وَمَا أُولئِکَ بِالْمُؤْمِنِينَ».

ما هذا الإيمان الذی لا يتجاوز حدود ألسنتهم، ولا أثر له فی أعمالهم.

ثم تذكر الآية التی بعدها دليلًا واضحاً علی عدم إيمانهم: «وَإِذَا دُعُوا إِلَی اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ».

ولتأكيد عبادة هذه المجموعة للدنيا وفضح شركهم، تضيف الآية: «وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ» وبكامل التسليم والخضوع.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷۵

وبيّنت الآية الأخيرة فی ثلاث جمل، الجذور الأساسية ودوافع عدم التسليم إزاء تحكيم الرسول صلی الله عليه و آله، فقالت أوّلًا: «أَفِی قُلُوبِهِم مَّرَضٌ».

هذه صفة من صفات المنافقين يتظاهرون بالإيمان، ولكنّهم لا يسلّمون بحكم اللَّه ورسوله، ولا يستجيبون له، إمّا بسبب انحرافهم قلبياً عن التوحيد أو الشک والتردد: «أَمِ ارْتَابُوا». وطبيعی أنّ الذی يتردد فی عقيدته، لن يستسلم لها أبداً.

وثالثها فيما لو لم يلحدوا ولم يشكوا، أی كانوا من المؤمنين: «أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ».

فی الوقت الذی يعتبر هذا تناقضاً صريحاً، إذ كيف للذی يؤمن برسالة محمّد صلی الله عليه و آله ويعتبر حكمه حكم اللَّه تعالی أن ينسب الظلم إلی الرسول صلی الله عليه و آله؟!

وهل يمكن أن يظلم اللَّه أحداً؟ أليس الظلم وليد الجهل أو الحاجة أو الكبر؟

إنّ اللَّه تعالی مقدس عن كل هذه الصفات؛ «بَلْ أُولئِکَ هُمُ الظلِمُونَ». إنّهم لا يقتنعون بحقّهم، وهم يعلمون أنّ النبی الأكرم صلی الله عليه و آله لا يجحف بحق أحد، ولهذا لا يستسلمون لحكمه.

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَی اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵۱) وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولئِکَ هُمُ الْفَائِزُونَ (۵۲) وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (۵۳) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَ مَا عَلَی الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (۵۴)

الإيمان والتسليم التام إزاء الحقّ: لاحظنا فی الآيات السابقة ردّ فعل المنافقين لحكم اللَّه ورسوله صلی الله عليه و آله، أمّا الآيات- موضع البحث- فإنّها تشرح موقف المؤمنين إزاء حكم اللَّه ورسوله، فتقول: «إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَی اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا».

كيف يمكن أن يرجّح شخص حكم شخص آخر على حكم اللّه، وهو يعتقد بأنّ اللّه عالم بكلّ شيء، ولا حاجة له بأحد، وهو الرّحمن الرّحيم؟ وكيف له أن يقوم بعمل إزاء حكم اللّه إلّاالسمع والطاعة؟

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷۶

لهذا تختتم الآية حديثها بالقول: «وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». ولا شك فى أنّ الفلاح نصيب الذى يسلّم أمره إلى اللّه، ويعتقد بعدله وحكمه فى حياته المادية والمعنوية.

وتابعت الآية الثانية هذه الحقيقة بشكل أكثر عمومية، فتقول: «وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ».

لحن الآية التالية- وكذلك سبب نزولها الذى ذكرته بعض التفاسير- يعنى أنّ بعض المنافقين تأثروا جداً على ما هم فيه، بعد نزول الآيات السابقة والتى وجّهت اللوم الشديد إليهم، فجاءوا إلى النبى صلى الله عليه و آله وأقسموا يميناً مغلظة أنّنا نسلّم أمرنا إليك، ولهذا أجابهم القرآن بشكل حاسم: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ» إلى ميدان الجهاد، أو يخرجوا من أموالهم وبيوتهم فقل لهم: لا حاجة إلى القسم، وعليكم عملًا اطاعة اللّه بصدق واخلاص: «قُل لَّاتُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

إنّ كلمة «ليخرجنّ» فى هذه الآية يقصد منها عدم التهالك على المال والحياة، وأتباع الرّسول صلى الله عليه و آله أينما رحل وحلّ وطاعته.

لهذا أكدت الآية التالية- التى هى آخر الآيات موضع البحث- هذا المعنى، وتقول للرسول صلى الله عليه و آله أن: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ».

ثم تضيف الآية أنّ هذا الأمر لا يخرج عن إحدى حالتين: «فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ». ففى صورة العصيان فقد ادّى وظيفته وهو مسؤول عنها كما أنّكم مسؤولون عن أعمالكم حين أنّ وظيفتكم الطاعة، ولكن «وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا» لأنّه قائد لا يدعو لغير سبيل اللّه والحق والصواب.

فى كل الأحوال: «وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلغُ الْمُبِينُ». وإنّه صلى الله عليه و آله مكلّف بإبلاغ الجميع ما أمر اللّه به، فإن أطاعوه استفادوا، وإن لم يطيعوه خسروا.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (۵۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۷۷

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: لما قدم رسول اللّه صلى الله عليه و آله وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلّامع السلاح ولا يصبحون إلّافيه. فقالوا: ترون أنّا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلّااللّه؟ فنزلت هذه الآية.

التّفسير

حكومة المستضعفين العالمية: تحدثت الآية السابقة عن طاعة اللّه ورسوله والتسليم له، وقد واصلت الآية- موضع البحث- هذا الموضوع، وبيّنت نتيجة هذه الطاعة ألا وهى الحكومة العالمية التى وعدها اللّه المؤمنين به. فقالت الآية مؤكّدة: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ» ويجعله متجذراً وثابتاً وقوياً بين شعوب العالم.

«وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَايُشْرِكُونَ بِى شَيًا». وبعد سيادة حكم التوحيد فى العالم وإجراء الأحكام الإلهية، واستقرار الأمن واقتلاع جذور الشرك، «وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفسِقُونَ».

وعلى كل حال يبدو من مجمل هذه الآية أنّ اللّه يبشّر مجموعة من المسلمين الذين يتصفون بالإيمان والعمل الصالح بثلاث بشائر:

١- استخلافهم وحكومتهم فى الأرض.

٢- نشر تعاليم الحق بشكل جذرى وفى كل مكان (كما يستفاد من كلمة «تمكين» ...).

٣- انعدام جميع عوامل الخوف والإضطراب.

وينتج من كل هذا أن يُعبد اللَّه بكل حرية، وتُطبق تعاليمه ولا يشرك به، ويتمّ نشر عقيدة التوحيد فى كل مكان.

الذين وعدهم اللَّه باستخلاف الأرض: لقد وعداللَّه المؤمنين ذوى الأعمال الصالحة بالإستخلاف فى الأرض وتمكينهم من نشر دينهم وتمتعهم بالأمن الكامل، فما هى خصائص هؤلاء الموعودين بالإستخلاف؟

إنّ هذه الآية تشمل المسلمين الأوائل، كما أنّ حكومة المهدى عليه السلام مصداق لها، إذ يتفق

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٧٨

المسلمون كافة من شيعة وسنة على أنّ المهدى عليه السلام يملأ الأرض عدلًا وقسطاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً. ومع كل هذا لا مانع من تعميمها، وينتج من ذلك تثبيت اسس الإيمان والعمل الصالح بين المسلمين فى كل عصر وزمان، وأنّ لهم الغلبة والحكم ذا الأسس الثابتة.

إنّ جميع الجهود- من حرب وسلام وبرامج تثقيفية واقتصادية وعسكرية- تنصّب فى ظلّ هذه الحكومة فى مسيرة العبودية للَّه الخالية من كل شائبة من شوائب الشرك.

وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥۶) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)

استحالة الفرار من حكومته تعالى: وعدت الآية السابقة المؤمنين الصالحين بالخلافة فى الأرض، وتهيىء هاتان الآيتان الناس للتمهيد لهذه الحكومة، فهى تقول أوّلًا: «وَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ». وهى الوسيلة التى توثق الصلة بين الخالق والمخلوق، وتقرّب الناس إلى بارئهم، وتمنع عنهم الفحشاء والمنكر.

«وَءَاتُوا الزَّكَوةَ». وهى الوسيلة التى تربط الإنسان بأخيه الإنسان، وتقلل الفواصل بينهما، وتقوى ارتباطهما العاطفى.

وبشكل عام يكون فى كل شىء تبعاً للرسول: «وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ». طاعة تكونون بسببها من المؤمنين الصالحين الجديرين بقيادة الحكم فى الأرض، «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» وتكونون لائقين لحمل راية الحقّ والعدل.

وإذا احتملتم أنّ الأعداء الأقوياء المعاندين يمنعوكم من تحقق ما وعدكم اللَّه إيّاه، فذلك غير ممكن، لأنّه قادر على كل شىء، ولا يحجب إرادته شىء، ولهذا: «لَاتَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ». فهؤلاء الكفار لا يستطيعون الفرار من عقاب اللَّه وعذابه فى الأرض، ولا يقتصر ذلك على الدنيا فقط، بل إنّهم فى الآخرة، «وَمَأْوَيهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٧٩

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَ إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَ أَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۶٠)

آداب الدخول إلى المكان الخاص بالوالدين: إنّ أهم مسألة تابعتها هذه السورة هى مسألة العفاف العام ومكافحة كل انحطاط خلقى، بأبعاده المختلفة. وقد تناولت الآيات- موضع البحث- إحدى المسائل التى ترتبط بهذه المسألة، وشرحت خصائصها. فتقول أوّلًا: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَئْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلثَ مَرَّاتٍ».

فيجب على عبيدكم وأطفالكم الإستئذان فى ثلاث أوقات: «مّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ». «ثَلَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ». أى هذه ثلاث أوقات للخلوة خاصة بكم.

«العورة»: مشتقة من «العار»، أى: العيب، وأطلق العرب على العضو التناسلى العورة، لأنّ الكشف عنه عار.

إنّ إطلاق كلمة «العورة» على هذه الأوقات الثلاثة بسبب كون الناس فى حالة خاصة خلال هذه الأوقات الثلاثة، حيث لا يرتدون الملابس التى يرتدونها فى الأوقات الاخرى.

وطبيعى أنّ المخاطب هنا هم أولياء الأطفال ليعلموهم هذه الاصول، لأنّ الأطفال لم يبلغوا بعد سنّ التكليف لتشملهم الواجبات الشرعية.

كما أنّ عمومية الآية تعنى شمولها الأطفال البنين والبنات.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٨٠

وتختتم الآية بالقول: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ». فلا حرج ولا إثم عليكم وعليهم إذا دخلوا بدون إستئذان فى غير هذه الأوقات الثلاثة، أجل: «كَذلِكَ يُبَيّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْأَيتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

وبيّنت الآية التالية الحكم بالنسبة للبالغين، حيث تقول: «وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفلُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَئْذِنُوا كَمَا اسْتَئْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ».

«الحلم»: على وزن «كتب»، بمعنى العقل والكناية عن البلوغ، الذى يعتبر توأماً لطفرة عقلية وفكرية، ومرحلة جديدة فى حياة الإنسان.

ويستفاد من الآية السابقة، أنّ الحكم بالنسبة للبالغين يختلف عنه بالنسبة للأطفال غير البالغين، لأنّ أولئك يجب عليهم إستئذان الوالدين فى الأوقات الثلاثة فقط، لأنّ حياتهم قد امتزجت مع حياة والديهم بدرجة يستحيل بها الإستئذان كل مرة، وكما أنّهم لم يعرفوا المشاعر الجنسية بعد، أمّا الشباب البالغ، فهم مكلّفون فى جميع الأوقات بالإستئذان حين الدخول على الوالدين.

ويخصّ هذا الحكم المكان المخصّص لاستراحه الوالدين.

وتقول الآية فى الختام للتأكيد والإهتمام الفائق: «كَذلِكَ يُبَيّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

وفى آخر الآيات موضع البحث- استثناء لحكم الحجاب، حيث استثنت النساء العجائز والمسنّات من هذا الحكم، فقال:

«وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الّتِى لَايَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرّجتٍ بِزِينَةٍ».

ولهذا الإستثناء شرطان:

أوّلهما: وصول هذه العجائز إلى عمر لا يتوقع أن يتزوجن فيه. أو بعبارة اخرى: أن يفقدن كل جاذبية انثوية.

وثانيهما: ألا يتزيّن بزينة بعد رفع حجابهن.

كما أنّ- من الواضح- أنّه لا يقصد برفع العجائز للحجاب اباحة خلع الملابس كلّها والتعرىّ، بل خلع اللباس الفوقانى فقط.

وكما عبّرت عنه بعض الأحاديث بالجلباب والخمار.

وتضيف الآية فى ختامها: «وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٨١

فالإسلام يرغب فى أن تكون المرأة أكثر عفّة وأنقى وأطهر. ولتحذير النساء اللواتى يسئن من سوء الاستفادة من هذه الحرية، بأن يتحدثن أو يتصرفن باسلوب لا يليق بشرفهن، تقول الآية محذرة إيّاهن: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» كلما تقولونه يسمعه اللّه، وما تكتمون فى قلوبكم أو فى أذهانكم يعلمه اللّه أيضاً.

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَ لَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ لَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكَمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكَمْ تَعْقِلُونَ (۶۱)

البيوت التى يسمح بالأكل فيها: تحدثت الآيات السابقة عن الإستئذان فى أوقات معينة، أو بشكل عام حين الدخول إلى المنزل الخاصّ بالأب والام، أمّا الآية موضع البحث فإنّها استثناء لهذا الحكم، حيث يجوز للبعض وبشروط معينة، الدخول إلى منازل الأقرباء وأمثالهم، وحتى أنّه يجوز لهم الأكل فيها دون إستئذان، حيث تقول هذه الآية أوّلًا: «لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ».

لأنّ أهل المدينة كانوا- كما ورد بصراحة فى بعض الأحاديث- وقبل قبولهم الإسلام، يمنعون الأعمى والأعرج والمريض من المشاركة فى مائدتهم، ويتنفّرون من هذا العمل.

وقد استفسر من الرسول صلى الله عليه و آله عن هذا الموضوع، فنزلت الآية السابقة التى نصّت على عدم وجود مانع من مشاركة الأعمى والأعرج والمريض للصحيح غذاءه على مائدة واحدة.

ثم يضيف القرآن المجيد: «وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ».

والمقصود بعبارة بيوتكم، الأبناء أو الزوجات.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۸۲

«أَوْ بُيُوتِ ءَابَائِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ أُمَّهتِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ أَعْممِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ عَمتِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ خلتِكُمْ». «أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ». «أَوْ صَدِيقِكُمْ». «الصداقة»: تعنى هنا بالتأكيد الأصدقاء الخاصين الذين تربطهم علاقات وثيقة، وهذه العلاقة توجب التزاور فيما بينهم والأكل من طعام الآخر.

بالطبع فإنّ هذا الحكم له شروط وإيضاحات سيأتى ذكرها فى آخر تفسير الآية.

ثم تضيف الآية: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا».

ولا يوجد خلاف بين الفقهاء حول عدم جواز الأكل من غذاء الآخرين دون استئذان الذى نهت عنه الآية بصراحة مع العلم بهذا النهى.

ذكر الشيخ الطوسى رحمه الله فى تفسير التبيان أنّ مجموعة من المسلمين كانوا إذا نزل بهم الضيف تحرجوا أن يأكلوا معه، فأباح اللّه الأكل منفرداً ومجتمعاً.

ثم تشير الآية إلى أحد التعاليم الأخلاقية فتقول: «فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَرَكَةً طَيِّبَةً».

واختتمت بهذه العبارة: «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْأَيتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

يجب السلام عند الدخول إلى أىّ منزل كان، ويجب أن يسلم المؤمنون بعضهم على بعض، ويسلّم أهل المنزل أحدهم على الآخر، وأمّا إذا لم يجد أحداً فى المنزل فيحيى المرء نفسه «۱»، حيث تعود هذه التحيات بالسلامة على الإنسان ذاته.

---

(۱) فيقول: «السّلام عليكم من قبل ربّنا». أو: «السّلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۸۳

سبب النّزول

فى تفسير على بن ابراهيم: نزلت الآية الاولى فى قوم كانوا إذا جمعهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله لأمر من الأمور فى بعث يبعثه أو حرب قد حضرت يتفرقون بغير إذنه فنهاهم اللّه عزّ وجل عن ذلك وقوله «فَإِذَا اسْتَذْنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ» قال نزلت فى حنظلة بن أبى عياش وذلك أنّه تزوج فى الليلة التى فى صبيحتها حرب احد، فاستأذن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن يقيم عند أهله فأنزل اللّه هذه الآية «فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ» فأقام عند أهله ثم أصبح وهو جنب فحضر القتال واستشهد، فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «رأيت الملائكة تغسل حنظلة بماء المزن فى صحايف فضة بين السماء والأرض». فكان يسمى غسيل الملائكة.

التّفسير

لا تتركوا النبى وحده: إنّ الآيات السابقة تحدثت عن ضرورة طاعة اللّه ورسوله، ومن علائم طاعته عدم تركه أو القيام بعمل ما دون إذن منه، لهذا تحدثت الآيات- موضع البحث- حول هذا الموضوع، فتقول أوّلًا: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَئْذِنُوهُ».

والمراد من «أمر جامع» كل عمل يقتضى اجتماع الناس فيه ويتطلب تعاونهم، سواء كان عملًا استشارياً، أو مسألة حول الجهاد ومقاتلة العدو، أو صلاة جمعة فى الظروف الإستثنائية وأمثالها.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۸۴

وفى الحقيقة إنّ هذا من شروط النظم والتنظيم ولا يمكن لأية مجموعة منظمة منسجمة أن تهمله، فغياب شخص واحد قد تترتب عليه صعوبات ويلحق ضرراً بالهدف النهائى، فإذا وجد القائد أنّ غياب هذا الشخص يلحق ضرراً، فمن حقه أن لا يأذن له، وعليه أن يضحى بمصلحته من أجل هدف أسمى لهذا تضيف الآية: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَئْذِنُونَكَ أُوْلئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَئْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ».

وتقول الآية فى الختام: «وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

تبيّن هذه العبارة ضرورة عدم الإستئذان بالقدر الممكن، واتباع التضحية والإيثار حتى لا يتورطوا بارتكاب عمل تركه أولى كمغادرة الجماعة لعمل بسيط.

ومن الطبيعى أن لا- تخصّ هذه التعاليم التنظيمية الرسول صلى الله عليه و آله وأصحابه فقط، وإنّما هى واجبة الإتباع إزاء كل قائد إلهى، سواء كان نبياً أم إماماً أم عالماً نائباً لهما، حيث يتوقف مصير المسلمين على هذه الطاعة، كما يحتمه- إضافة إلى القرآن- العقل والمنطق.

ثم بيّنت الآية التالية حكماً آخر له علاقة بتعاليم النبى صلى الله عليه و آله حيث تقول: «لَّاتَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا».

إن الرسول صلى الله عليه و آله عندما يدعوكم للاجتماع، فإنّه لابدّ من أن يكون لمسألة إلهية مهمة، لهذا يجب عليكم الإهتمام بدعوته، والإلتزام بتعاليمه، وألّا تهملوها، فأمره من اللّه ودعوته منه سبحانه وتعالى.

ثم تضيف الآية: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُم لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

«يتسلّلون»: مشتقة من «تسلل»، وتعنى سحب الشىء من موضعه، كما يطلق على الذين يفرون سرّاً من مكان تجمع محدد لهم، كلمة «متسللون».

«لواذاً»: مشتقة من «ملاوذة» بمعنى الإختفاء، وتعنى هنا اختفاء البعض وراء البعض أو خلف جدار. أو بتعبير آخر:

استغفال الآخرين ثم الفرار من مكان تجمعهم، وهذا ما كان يقوم به المنافقون حينما يوجه الرسول صلى الله عليه و آله الدعوة للجهاد أو لأمر مهم آخر.

و آخر آية من الآيات موضع البحث- والتى هى آخر سورة النور- إشارة بليغة إلى قضية المبدأ والمعاد حيث تقول: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

فإنّ اللّه العالم بكل شىء، «قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ». أى: يعلم اسلوبكم فى التعامل

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۸۵

وأعمالكم واعتقادكم ومقاصدكم، فكلّها واضحة له سبحانه وتعالى، وثابتة فى لوحة علمه «وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا». ويجازيهم بها «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ».

ومما يلفت النظر تأكيد الآية ثلاث مرات على علم اللَّه بأعمال البشر، ليشعر الإنسان أنّه مراقب بشكل دائم، ولا يخفى على اللَّه شيء من أعمال هذا الإنسان أبداً، ولهذا الإعتقاد أثره التربوى الكبير ويضمن سيطرة الإنسان على نفسه إزاء الانحرافات والذنوب.

«نهاية تفسير سورة النور»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۸۷

۲۵ سورة الفرقان

محتوى السورة: تتألف هذه السورة فى مجملها من ثلاثة أقسام:

۱- الذى يشكل مطلع هذه السورة، يدحض منطق المشركين بشدّة، ويستعرض ذرائعهم، ويردّ عليها، ويخوفهم من عذاب اللَّه، وحساب يوم القيامة، وعقوبات جهنم الأليمة، ويذكّرهم بمقاطع من قصص الأقوام الماضية.

۲- ولأجل إكمال هذا البحث، تبحث الآيات بعض دلائل التوحيد ومظاهر عظمة اللَّه فى الأكوان.

۳- مختصر جذاب، وجامع لصفات المؤمنين الحقيقيين (عباد الرحمن) وعباد اللَّه المخلصين، فى مقايسة مع الكفار المتعصبين الذين ذكروا فى القسم الأوّل، فتتحدد منزلة كل من الفريقين تماماً، كما أنّنا سنرى أنّ هذه الصفات مجموعة من الاعتقاديات والأعمال الصالحة ومكافحة الشهوات، وامتلاك الوعى الكافى، والإحساس والإلتزام بالمسؤولية الإجتماعية.

واسم هذه السورة قد اخذ من آيتها الاولى، التى تعبر عن القرآن ب «الفرقان» (الفاصل بين الحق والباطل).

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «من قرأ سورة الفرقان

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۸۸

بعث يوم القيامة وهو يؤمن أنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ اللَّه يبعث من فى القبور».

تَبارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (۱) الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (۲)

المقياس الأعلى للمعرفة: تبدأ هذه السورة بجملة «تبارك» من مادة «بركة»، ونعلم أنّ الشيء ذو بركة، عبارة عن أنّه ذو دوام وخير ونفع كامل. يقول تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعلَمِينَ نَذِيرًا».

الملفت للإنتباه أنّ ثبوت البركة لذات الخالق عزّ وجل بواسطة نزول الفرقان، يعنى أنّه أنزل قرآناً فاصلًا بين الحق والباطل، وهذا يدل على أنّ أعظم الخير والبركة هى أن يمتلك الإنسان بيده وسيلة المعرفة- معرفة الحق من الباطل.

فمقام العبودية والإنقياد التامين هو الذى يحقق اللياقة لنزول الفرقان، ولتلقى موازين الحق والباطل.

وعبارة «للعالمين» كاشفة عن أنّ شريعة الإسلام عالمية، بل إنّ بعضهم قد استدل منها على خاتمية النبى صلى الله عليه و آله.

الآية الثانية تصف اللَّه الذى نزل الفرقان بأربع صفات، صفة منها هى الأساس، والبقية نتائج وفروع لها، فتقول أوّلًا: «الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

وبالإلتفات إلى تقدم «له» على «ملك السماوات» الذى هو دليل الحصر فى اللغة العربية يستفاد أنّ الحكومة الواقعية والحاكمية المطلقة فى السماوات والأرض منحصرة به تبارك وتعالى.

ثم يتناول تفنيد عقائد المشركين واحدة بعد الاخرى، فيقول تعالى: «وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا».

وبهذا الترتيب، يدحض اعتقاد النصارى بأنّ «المسيح» ابن اللَّه، أو ما يعتقده اليهود أنّ «العزير» ابن اللَّه، وكذلك يدحض اعتقاد مشركى العرب.

ثم يضيف جلّ ذكره: «وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ».

فإذا كان لمشركى العرب اعتقاد بوجود الشريك أو الشركاء، ويتوهمونهم شركاء للّهفى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۸۹

العبادة، فإنّ القرآن يدين ويدحض كل هذه الأوهام.

ويقول تعالى فى العبارة الأخيرة: «وَخَلَقَ كُلَّ شَیْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا».

ليس كمثل اعتقاد الثنويين الذين يعتقدون بأنّ قسماً من موجودات هذا العالم مخلوقات «اللّه»، وأنّ قسماً منها مخلوقات «الشيطان».

وبهذا الترتيب كانوا يقسمون الخلق والخلقة بين اللّه والشيطان.

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَ لَا نَفْعاً وَ لَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لَا حَيَاةً وَ لَا نُشُوراً (٣) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَ أَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَ زُوراً (٤) وَ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (٦)

الإتهامات المتعددة الألوان: هذه الآيات تتمة للبحث الذى ورد فى الآيات السابقة، فى مسألة المواجهة مع الشرك وعبادة الأوثان. الآية الاولى تجر المشركين إلى المحاكمة، ولتحريك وجدانهم تقول بمنطق واضح وبسيط، وفى نفس الوقت قاطع وداحض:

«وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّايَخْلُقُونَ شَيًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ».

وبعد، فماذا يمكن أن تكون دوافعهم لعبادة الأوثان التى لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، ولا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فما بالك بما تستطيعه للآخرين؛ «وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيوةً وَلَا نُشُورًا».

والاصول المهمة عند الإنسان هى هذه الامور الخمسة بالذات: النفع والضر، والموت، والحياة، والنشور.

فمن يكن بحق مالكاً أصيلًا لهذه الامور، يكن بالنسبة إلينا جديراً بالعبادة.

هذه الأوثان ليست عاجزة فى الدنيا عن حل مشكلة ما لعبدتها فحسب، بل إنّها لا يؤمل منها شىء فى الآخرة أيضاً.

الآية التالية- تتناول تحليلات الكفار- أو حججهم على الأصح- فى مقابل دعوة النبى صلى الله عليه و آله، فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَيهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۹۰

لكن القرآن يردّ عليهم فى جملة واحدة فقط، تلك هى: «فَقَدْ جَاءُو ظُلْمًا وَزُورًا» «۱».

«الظلم» هنا لأنّ رجلًا أميناً طاهراً وصادقاً مثل الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله اتّهموه بالكذب والإفتراء على اللّه، وبالإشتراك مع جماعة من أهل الكتاب، فظلموا أنفسهم والناس أيضاً. و «الزور» هنا أنّ قولهم لم يكن له أساس مطلقاً، لأنّ النبى صلى الله عليه و آله دعاهم عدّة مرات إلى الإتيان بسورة وآيات مثل القرآن، فعجزوا وضعفوا أمام هذا التحدى.

كلمة «زور» فى الأصل من «زَور» (على وزن غور) أخذت بمعنى: أعلى الصدر، ثم أطلقت على كل شىء يتمايل عن حدّ الوسط، وبما أنّ «الكذب» انحرف عن الحق، ومال إلى الباطل، فقد سمّوه «زوراً».

تتناول الآية التالية لوناً آخر من التحليلات المنحرفة والحجج الواهية للمشركين فيما يتعلق بالقرآن، فتقول: «وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا» «۲».

وهو يستلهمها من الآخرين طيلة اليوم من أجل الوصول إلى هذا الهدف: «فَهِىَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا».

إنّه يتلقى المعونة لأجل هدفه فى الأوقات التى يقلّ فيها تواجد الناس، أى بكرة وعشياً.

لذا فالآية الأخيرة تصرح بصيغة الرد على هذه الإتهامات الواهية، فتقول: «قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

إشارة إلى أنّ محتوى هذا الكتاب، والأسرار المتنوعة فيه من علوم ومعارف وتاريخ الأقوام الأوّلين، والقوانين والاحتياجات البشرية، وحتى أسرار عالم الطبيعة والأخبار المستقبلية، تدل على أن ليس من صنع ومتناول عقل البشر، ولم ينظّم بمساعدة هذا أو ذاك، بل

بعلم الذى هو جدير بأسرار السماء والأرض، والمحيط بكل شيء علماً.

لكن مع كل هـذا، فإنّ القرآن يترك طريق التوبة مفتوحاً أمام هؤلاء المغرضـين والمنحرفين، فيقول تبارك وتعالى فى ختام الآية: «إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا».

فبمقتضى رحمته أرسل الأنبياء، وأنزل الكتب السماوية، وبمقتضى غفوريته سيعفو فى ظل الإيمان والتوبة عن ذنوبكم التى لا تحصى.

---

(١) «جاءو»: من مادة «مجيء»، يراد بها عادة معنى «القدوم»، لكنّها وردت هنا بمعنى «الإتيان».

(٢) ففى الواقع إنّ أولئك كانوا يريـدون أن يتهموا النبى صـلى الله عليه و آله من هذا الطريق، بأنّه يقرأ ويكتب، لكنّه كان يظهر نفسه أمياً عمداً.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٩١

وَ قَالُوا مَا لِهـذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَ يَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ لَوْ لَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَ قَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ يَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً (١٠)

سبب النّزول

فى كتاب الاحتجاج للطبرسـى رحمه الله وعن أبى محمـد الحسن العسـكرى عليه السـلام قال: قلت لأبى على بن محمد عليهما السـلام هل كان رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله يناظر اليهود والمشركين إذا عاتبوه ويحاجهم؟ قال: مراراً كثيرة وذلك أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان قاعـداً ذات يوم بمكة بفناء الكعبة، إذ اجتمع جماعة من رؤساء قريش .. فابتدأ عبد اللَّه بن أبى أمية المخزومى فقال: يا محمّـد زعمت أنّك رسول اللَّه ربّ العالمين، وما ينبغى لربّ العالمين وخالق الخلق أجمعين أن يكون مثلك رسوله بشـراً مثلنا، تأكل كما نأكل وتشرب كما نشرب، وتمشى فى الأسواق كما نمشى .. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «اللهم أنت السامع لكل صوت، والعالم بكل شيء، تعلم ما قاله عبادك». فأنزل اللَّه عليه: يا محمّد «وَقَالُوا مَالِ هذَا الرَّسُولِ ...» إلى قوله تعالى: «وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا». والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

التّفسير

لم لا ـ يملك هـذا الرسول كنوزاً وجنـات؟ اسـتعرض القرآن فى الآيـات السابقـة قسـماً من إشـكالات الكفار فيما يخص نزول القرآن المجيد، وأجاب عليها، ويعرض فى هذه الآيات قسـماً آخر يتعلق بشـخص الرسول ويجيب عنها، فيقول تعالى: «وَقَالُوا مَالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ».

وفى الوقت الذى يريد هذا الرسول التبليغ بالدعوة الإلهية، ويريد أيضاً السلطنة على الجميع.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٩٢

لقد كان المشـركون يرون أنّه لا يليق بذوى الشأن الذهاب إلى الأسواق لقضاء حوائجهم، بل ينبغى أن يرسـلوا خدمهم ومأموريهم من أجل ذلك.

ثم أضافوا: «لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَـذِيرًا». فلِمَ لم يرسل إليه- على الأقل- ملك من عند اللَّه، شاهد على صدق دعوته، وينذر معه الناس؟ حسن جـداً، لنفرض أنّنا وافقنا على أنّ رسول اللَّه يمكن أن يكون إنساناً، ولكن لماذا يكون فقيراً فاقداً للثروة والمال؟! «أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا».

ولم يكتفوا بهذا أيضاً، فقد اتهموه آخر الأمر بالجنون بما ابتنوه من استنتاج خاطىء، كما نقرأ فى ختام هذه الآية نفسها:

«وَقَالَ الظلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا». ذلـك أنّهم كـانوا يعتقـدون أنّ السـحرة يسـتطيعون أن يتـدخلوا فى فكر وعقول الأفراد

فيسلبونهم قوام عقولهم.

الآية التالية تبيّن جواب جميع هذه الإشكالات فى عبارة موجزة: «انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا».

إنّ (الأمثال) هنا، بمعنى الأقوال الفارغة الواهية.

هـذه العبارة الموجزة أداء بليغ عن هـذه الحقيقـة، فهم من خلال مجموعـة من الأقوال الواهيـة التى لا أساس لها وقفوا أمام دعوة الحق والقرآن- الذى محتواه شاهد ناطق على إرتباطه باللَّه- ليخفوا وجه الحقيقة.

الآيـة الأخيرة مورد البحث- كالآيـة التى قبلها- توجّه خطابها إلى النبى صـلى الله عليه و آله على سبيل تحقير مقولات اولئك، وأنّها لا تستحق الإجابة عليها. يقول تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِى إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذلِكَ جَنتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا».

وإلّا، فهل أحـد غير اللَّه أعطى الآخرين القصور والبساتين؟ من غير اللَّه خلق جميع هـذه النعم والجمال فى هـذا العالم؟ تُرى أيستحيل على اللَّه القادر المنّان أن يجعل لك أفضل من هذه القصور والبساتين؟!

لكنّه لا يريد أبداً أن يعتقد الناس أنّ مكانتك مردّها المال والثروة والقصور، ويكونوا غافلين عن القيم الواقعية.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٩٣

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَ زَفِيراً (١٢) وَ إِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (١۴) قُلْ أَ ذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَ مَصِيراً (١۵) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولًا (١۶)

فى هـذه الآيات- على أثر البحث فى الآيات السابقـة حول انحراف الكفار فى مسألة التوحيد والنبوة- يتناول القرآن الكريم قسماً آخر من انحرافاتهم فى مسألـة المعاد، ويتّضـح مع بيان هـذا القسم أنّهم كانوا أسارى التزلزل والانحراف فى تمام أصول الدين. يقول تعالى أوّلًا: «بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ».

ذلـك أنّه إذا آمن الإنسـان بهكـذا محكمـة عظمى وبـالجزاء الإلـهى، فلن يتلقى الحقائق بمثل هـذا الإسـتهزاء واللامبالاة، ولن يتـذرع بالحجـج الواهيـة ضـد دعوة النبى وبراهينه الظـاهرة، لكن القرآن هنـا لم يتقـدم برد اسـتدلالى، ذلك لأنّ هـذه الفئـة لم تكن من أهل الاسـتدلال والمنطق، بل واجههم بتهديـد مخيف وجسـد أمام أعينهم مسـتقبلهم المشؤوم والأليم، فهذا الاسـلوب قد يكون أقوى تأثيراً لمثل هؤلاء الأفراد يقول أوّلًا: «وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا» «١».

ثم وصف هذه النار المحرقة وصفاً عجيباً، فيقول تعالى: «إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا».

فى هـذه الآيـة تعبيرات بليغة متعددة، تخبر عن شدّة هذا العذاب الإلهى ويدل على أنّ نار جهنم المحرقة تنتظر هذه الفئة من المجرمين كانتظار الحيوان المفترس الجائع لغذائه «نستجير باللَّه».

هذه حال جهنم حينما تراهم من بعيد، أمّا حالهم فى نار جهنم فيصفها تعالى: «وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا».

لأنّ جهنم مكان واسع، لكن اولئك يُحصـرون مكاناً ضـيقاً فى هـذا المكان الواسع، فهم «يسـتكرهون فى النار كما يسـتكره الوتـد فى الحائط».

(١) «سعير»: من «سَعْر» بمعنى التهاب النار، وعلى هذا يقال للسعير: النار المشتعلة والمحيطة والمحرقة.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٩۴

«مقرنين»: من «قرن» بمعنى قرب واجتماع شـيئين أو أكثر مع بعضـهما، ويقولون للحبل الـذى يربطون به الأشـياء «قرن»، ويقولون أيضـاً لمن تقيد يده ورجله مع بعضهما بالغل والسلاسل «مقرّن».

«ثبور»: فى الأصـل بمعنى «الهلاـك والفسـاد». فحينمـا يجـد الإنسان نفسه أمام شـيء مخيف ومهلك، فإنّه يصـرخ عالياً «واثبورا» التى

مفهومها ليقع الموت على.

لكنهم يجابون عاجلًا: «لَّاتَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا».

فلن تنفعكم استغاثتكم فى شىء، ولن يكون ثمّة موت أو هلاك، بل ينبغى أن تظلوا أحياء لتذوقوا العذاب الأليم.

ثم يوجّه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه و آله، ويأمره أن يدعو اولئك إلى المقايسة، فيقول تعالى: «قُلْ أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا».

تلك الجنة التى «لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ».

تلك الجنة التى سيبقون فيها أبداً «خلِدِينَ».

أجل، إنّه وعد الله الذى أخذه على نفسه: «كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْوُلًا».

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَ أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِى لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَ لَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كَانُوا قَوْماً بُوراً (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَ لَا نَصْراً وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً (١٩)

المحاكمة بين المعبودين وعبدتهم الضالين: كان الكلام فى الآيات السابقة حول مصير كل من المؤمنين والمشركين فى القيامة وجزاء هذين الفريقين، وتواصل هذه الآيات نفس هذا الموضوع بشكل آخر، فتبيّن السؤال الذى يسأل اللَّه عنه معبودى المشركين فى القيامة وجوابهم، على سبيل التحذير. فيقول تعالى: واذكر يوم يحشر اللَّه هؤلاء المشركين وما يعبدون من دون اللَّه:

«وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ».

والمقصود بالمعبودين إنساناً (مثل المسيح) أو شيطاناً (مثل الجن) أو (الملائكة)، حيث إنّ كل واحد منها كان قد اتخذه فريق من المشركين معبوداً لهم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۳۹۵

فيسأل المعبودين: «فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ».

ففى الإجابة: «قَالُوا سُبْحنَكَ مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ».

فليس فقط أنّنا لم ندعهم إلى أنفسنا، بل إنّنا كنّا نعترف بولايتك وربوبيتك، ولم نقبل غيرك معبوداً لنا ولغيرنا.

وكان سبب انحراف أولئك هو: أنّ اللَّه تعالى رزقهم الكثير من مواهب الدنيا ونعيمها فتمتعوا هم وآباءهم وبدلًا من شكر اللَّه تعالى غرقوا فى هذه الملذات ونسوا ذكر اللَّه: «وَلكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ». فالحياة المرفهة لجماعة ضيقة الأفق، ضعيفة الإيمان، تبعث على الغرور، ولهذا هلكوا واندثروا «وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا».

«بور»: من مادة «بوار» وهى فى الأصل بمعنى شدّة كساد الشىء، ولأنّ شدّة الكساد تبعث على الفساد، فهذه الكلمة بمعنى الفساد، ثم اطلقت بعد هذا على الهلاك.

وعلى هذا فإنّ قوله تعالى: «وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا» إشارة إلى أنّ هذا الفريق على أثر انغماسهم فى الحياة المادية المرفهة، ونسيانهم اللَّه واليوم الآخر، صاروا إلى الفساد والهلكة.

هنا يوجّه اللَّه تبارك وتعالى الخطاب إلى المشركين فيقول: «فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ».

لأنّ الأمر هكذا، وكنتم أنتم قد أضللتم أنفسكم فليس لديكم القدرة على دفع العذاب عنكم: «فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا».

لا- شك أنّ «الظلم» له مفهوم واسع، ومع أنّ موضوع البحث فى الآية هو «الشرك» الذى هو أحد المصاديق الجلية للظلم، إلّا أنّه لا يقدح بعمومية المفهوم.

والملفت للنظر أنّ «من يظلم» جاءت بصيغة الفعل المضارع، وهذا يدل على أنّ القسم الأوّل من البحث وإن كان مرتبطاً بمناقشات البعث، لكن الجملة الأخيرة خطاب لهم في الدنيا، لعل قلوب المشركين تصبح مستعدة لقبول الإيمان على أثر سماعها محاورات العابدين والمعبودين في القيامة، فيحوّل الخطاب من القيامة إلى الدنيا فيقول لهم: «وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا».

وَ مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَ جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تَصْبِرُونَ وَ كَانَ رَبُّكَ بَصِيراً (٢٠)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٩٦

سبب النّزول

في تفسير القرطبي: هذه الآية نزلت جواباً للمشركين حيث قالوا: مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟

وقال ابن عباس: لما عير المشركون رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بالفاقة وقالوا: مال هذا الرسول يأكل الطعام الآية، حزن النبي صلى الله عليه و آله لذلك فنزلت تعزية له فقال جبرئيل عليه السلام: السلام عليك يا رسول اللَّه! اللَّه ربّك يقرئك السلام ويقول لك: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ». أي يبتغون المعايش في الدنيا.

التّفسير

في عدّة آيات سابقة وردت واحدة من ذرائع المشركين وأجيب عليها بجواب إجمالي أمّا الآية مورد البحث فتعود إلى نفس الموضوع لتعطي جواباً أكثر تفصيلًا. فيقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ».

فقد كانوا من البشر ويعاشرون الناس، وفي ذات الوقت: «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً» وامتحاناً.

وهذا الإمتحان، قد يكون بسبب أنّ اختيار الأنبياء من جنس البشر ومن أوساط الجماهير المحرومة هو امتحان عظيم بذاته، لأنّ البعض يأبون أن ينقادوا لمن هو من جنسهم، خاصة إذا كان في مستوىً واطيء من حيث الإمكانات المادية.

وعلى أثر هذا القول، جعل الجميع موضع الخطاب فقال تعالى: «أَتَصْبِرُونَ». ذلك لأنّ أهم ركن للنجاح في جميع هذه الامتحانات هو الصبر والاستقامة والشجاعة ...

ويقول تعالى في ختام الآية بصيغة التحذير: «وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا». فينبغي ألا يتصور أحد أن شيئاً من تصرفاته حيال الاختبارات الإلهية يظل خافياً ومستوراً عن عين اللَّه وعلمه الذي لا يخفى عليه شيء، إنّه يراها بدقة ويعلمها جميعاً.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٩٧

الإدعاءات الكبيرة: الآيات الحالية، تطرح شكلين آخرين من ذرائع المشركين وتجيب عليها، فيقول تعالى أوّلًا: «وَقَالَ الَّذِين لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا». فعلى فرض أنّنا سنقبل أنّ النبي يستطيع أن يعيش الحياة العادية مثلنا، لكن أن يتنزل الوحي عليه وحده، ولا نراه نحن، فهذا ما لا يمكن القبول به.

وأفضل دليل على أنّهم لم يكونوا يقولون هذه الأقوال من أجل التحقيق حول نبوّة النبي، هو أنّهم طلبوا أن يشاهدوا الخالق، وأنزلوه إلى حدّ جسم يمكن رؤيته، ذلك الطلب نفسه الذي طلبه مجرمو بني إسرائيل أيضاً، فسمعوا الجواب القاطع على ذلك، حيث ورد شرحه في الآية (١٤٣) من سورة الأعراف. لذا يقول القرآن في الإجابة على هذه الطلبات في آخر الآية مورد البحث:

«لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا». «العتو»: على وزن «غلو»، بمعنى الإمتناع عن الطاعة، والتمرد على الأمر، مصحوباً بالعناد واللجاجة.

وتعبير «في أنفسهم» من الممكن أن يكون بمعنى: أنّ هؤلاء صاروا أسارى الغرور والتكبر في أنفسهم. ومن الممكن أن يكون أيضاً بمعنى أنّهم أخفوا كبرهم وغرورهم في قلوبهم وأظهروا هذه المعاذير.

ثم يقول تعالى بصيغة التهديد: إنّ هؤلاء الذين يطلبون أن يروا الملائكة، سوف يرونهم آخر الأمر، لكن «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلِكَةَ لَابُشْرَى

يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ».

بلى سوف لن يُسرّوا برؤية الملائكة فى ذلك اليوم، لأنّهم سيرون علامات العذاب برؤيتهم الملائكة، وسوف يغمرهم الرعب إلى حد أنّهم سيطلقون صرخات الاستغاثة التى كانوا يطلقونها فى الدنيا حال الإحساس بالخطر أمام الآخرين، فيقولون:

الأمان .. الأمان، اعفوا عنّا: «وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا».

«حجر»: على وزن «قشر»، تقال فى الأصل للمنطقة التى حجروها وجعلوها ممنوعة الورود، وعندما يقال «حجر إسماعيل» فلأنّ حائطاً انشىء حوله فحجز داخله. يقولون للعقل أيضاً «حجراً» لأنّه يمنع الإنسان من الأعمال المخالفة. وأيضاً «اصحاب الحجر» الذين ورد اسمهم فى القرآن (الآية ٨٠ من سورة الحجر) وهم قوم صالح الذين كانوا ينحتون لأنفسهم بيوتاً حجرية محكمة فى قلوب الجبال، فكانوا يعيشون فى أمانها.

أمّا جملة «حجراً محجوراً» فقد كانت اصطلاحاً بين العرب، إذا التقوا بشخص يخافونه، فأنّهم يقولون هذه الجملة أمامه لأخذ الأمان.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٩٨

الآية التى بعدها تجسد مصير أعمال هؤلاء المجرمين فى الآخرة، فتقول: «وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنٰهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا». يعنى أنّ أعمال اولئك لا قيمة لها ولا اثر إلى حدّ كأنّهم لم يعملوا شيئاً، لأنّ الشيء الذى يعطى عمل الإنسان الشكل والمحتوى، هو النية وغاية العمل النهائية، فأهل الإيمان يتوجهون لإنجاز أعمالهم بدافع إلهى وعلى أساس أهداف مقدسة طاهرة، فى حين أنّ من لا إيمان لهم، فغالباً يقعون أسارى التظاهر والرياء والغرور والعجب، فيكون سبباً فى انعدام أية قيمة لأعمالهم.

وبما أنّ القرآن- عادة- يضع الحسن والسيء متقابلين حتى يتّضح وضع كل منهما بالمقايسة فإنّ الآية التى بعدها تتحدث عن أهل الجنة فتقول: «أَصْحٰبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا». «مستقر»: بمعنى محل الإستقرار؛ و «مقيل»: بمعنى محل الإستراحة فى منتصف النهار، من مادة «قيلولة»، وقد جاءت بمعنى النوم منتصف النهار.

وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَ نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَ كَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً (٢٦)

تشقق السماء بالغمام: مرّة اخرى يواصل القرآن فى هذه الآيات البحث حول القيامة، ومصير المجرمين فى ذلك اليوم، فيقول أوّلًا: إنّ يوم محنة وحزن المجرمين هو ذلك اليوم الذى تنشق فيه السماء بواسطة الغيوم: «وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمٰمِ وَنُزِّلَ الْمَلٰئِكَةُ تَنْزِيلًا».

«الغمام»: من «الغم» بمعنى ستر الشيء، لذلك فالغيم الذى يغطى الشمس يقال له «الغمام»، وكذلك الحزن الذى يغطى القلب يسمّونه «الغم».

هذه الآية ردّ على طلبات المشركين، وعلى إحدى ذرائعهم، لأنّهم كانوا يتوقعون أن يأتى اللّه والملائكة طبقاً لأساطيرهم وخرافاتهم من خلال الغيم، فيدعونهم إلى الحق، وفى أساطير اليهود جاء- أيضاً- أنّ اللّه أحياناً يظهر ما بين الغيوم.

والمقصود من تشقق السماء بالغمام، هو أن ترتفع حجب العالم المادى عن عين الإنسان من جهة، فيشاهد عالم ماوراء الطبيعة، ومن جهة اخرى ستتلاشى الأجرام السماوية، وتظهر الغيوم الانفجارية، فتبرز التشققات ما بينها فى ذلك اليوم، يوم نهاية هذا العالم وبداية النشور، يوم أليم جدّاً للمجرمين الظالمين المعاندين الذين لا إيمان لهم.

بعد ذلك يتناول القرآن الكريم أوضح علائم ذلك اليوم فيقول: «الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٣٩٩

حتى اولئك الذين كان لهم فى هذا العالم نوع من الملك المجازى والمحدود والفانى والسريع الزوال، يخرجون أيضاً من دائرة الملك، فتكون الحاكمية من كل النواحى وجميع الجهات لذاته المقدسة خاصة، وبهذا: «وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكٰفِرِينَ عَسِيرًا».

فى الوقت الذى يكون على المؤمنين سهلًا يسيراً وهيناً جدّاً.

وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ

بَعْدَ إِذْ جَاءَنِی وَ كَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩)

سبب النّزول

فی تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: نزل قوله تعالى «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ» فی عقبة بن أبی معيط، وابی بن خلف، وكانا متخالّين، وذلک أنّ عقبة كان لا يقدم من سفر إلّاصنع طعاماً فدعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة الرسول فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً ودعا الناس، فدعا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى طعامه، فلمّا قربوا الطعام قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «ما أنا بآكل من طعامک حتى تشهد أن لا إله إلّااللَّه وأنّی رسول اللَّه». فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلّااللَّه وأشهد أنّ محمّداً رسول اللَّه. وبلغ ذلک ابی بن خلف فقال: صبأت يا عقبة؟ قال: لا واللَّه ما صبأت، ولكن دخل على رجل فأبى أن يطعم من طعامی إلّاأن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتی ولم يطعم، فشهدت له فطعم. فقال ابی: ما كنت براض عنک أبداً حتى تأتيه فتبزق فی وجهه! ففعل ذلک عقبة وارتدّ، وأخذ رحم دابّة فألقاها بين كتفيه. فقال النبی صلى الله عليه و آله: «لا ـ ألقاک خارجاً من مكة إلّاعلوت رأسک بالسيف». فضرب عنقه يوم بدر صبراً.

وأمّا ابی بن خلف فقتله النبی صلى الله عليه و آله يوم احد بيده فی المبارزة.

نزلت الآيات أعلاه لترسم صورة مصير الرجل الذی يُبتلى بخليل ضال، ويجره إلى الضلال.

التّفسير

يوم القيامة له مشاهد عجيبة، حيث ورد بعض منها فی الآيات السابقة، وفی هذه الآيات اشارة إلى قسم آخر منها، وهی مسألة حسرة الظالمين البالغة على ماضيهم، يقول

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٤٠٠

مختصر الامثل ج٣ ٤٤٩

تعالى أوّلًا: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِی اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا».

«يعضّ»: من مادة «عضّ»، ويستخدم هذا التعبير عادة بالنسبة إلى الأشخاص المهووسين من شدّة الحسرة والأسف. وهذا العمل يصدر من هؤلاء الأشخاص حينما يطلعون على ماضيهم، ويعتبرون أنفسهم مقصرين، فيصممون على الإنتقام من أنفسهم بهذا الشكل لتهدئة سورة الغضب فی نفوسهم والشعور بالراحة.

ثم يضيف القرآن الكريم أنّ هذا الظالم المعتدی الغارق فی عالم الأسف، يقول: «يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِی لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا» «١».

والمقصود ب «فلان» هو ذلک الذی أضله: الشيطان أو صديق السوء أو القريب الضال.

ثم يستمر ويقول: «لَّقَدْ أَضَلَّنِی عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِی».

«الذكر» فی الجملة أعلاه، له معنىً واسع، ويشمل كل الآيات الإلهية التی نزلت فی الكتب السماوية، بل يدخل فی إطاره كل ما يوجب يقظة ووعی الإنسان.

وفی ختام الآية يقول تعالى: «وَكَانَ الشَّيْطنُ لِلْإِنسنِ خَذُولًا». ذلک لأنّه يجر الإنسان إلى مواقع الخطر والطرق المنحرفة، ثم يتركه حيران ويذهب لسبيله.

وحقيقة الخذلان هی أی يعتمد الشخص على صديقه تمام الاعتماد، ولكن هذا الصديق يرفع يده عن مساعدته وإعانته تماماً فی اللحظات الحساسة.

نقرأ فی حديث عن الإمام محمّد التقی الجواد عليه السلام قال: «ايّاک ومصاحبة الشرير، فإنّه كالسيف المسلول، يحسن منظره ويقبح أثره» «٢».

وَ قَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِی اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (٣٠) وَ كَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِیٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَ كَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَ

نَصِيراً (٣١) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَ لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَ أَضَلُّ سَبِيلًا (٣۴)

---

(١) «خليل»: تطلق بمعنى الصديق الخاص الحميم حيث يجعله الإنسان مشاوراً لنفسه.

(٢) بحار الأنوار ٧١/ ١٩٨.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴٠١

إلهى، إنّ الناس قد هجروا القرآن: كما تناولت الآيات السابقة أنواعاً من ذرائع المشركين والكافرين المعاندين، تتناول الآية الاولى فى مورد البحث هنا حزن وشكاية الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله بين يدى اللَّه عزّ وجل من كيفية تعامل هذه الفئة مع القرآن، فتقول: «وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبّ إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا».

قول الرسول صلى الله عليه و آله هذا، وشكواه هذه، مستمران إلى هذا اليوم من فئة عظيمة من المسلمين، يشكو بين يدى اللَّه أنّهم دفنوا القرآن بيد النسيان، القرآن الممتلىء ببرامج الحياة، هجروا هذا القرآن فمدّوا يد الإستجداء إلى الآخرين، حتى فى القوانين المدنية والجزائية.

إنّ القرآن بينهم كتاب للمراسم والتشريفات، يذيعون ألفاظه وحدها بأصوات عذبة عبر محطات البث، ويستخدمونه فى زخرفة المساجد بعنوان الفن المعمارى، ولافتتاح منزل جديد، أو لحفظ مسافر، وشفاء مريض، وعلى الأكثر للتلاوة من أجل الثواب.

تقول الآية التى بعدها فى مواساة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، حيث كان يواجه هذا الموقف العدائى للخصوم: «وَكَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلّ نَبِىّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ».

لست وحدك قدواجهت هذه العداوة الشديدة لهذه الفئة، فقد مرّ جميع الأنبياء بمثل هذه الظروف، حيث كان يتصدى لمخالفتهم فريق من (المجرمين) فكانوا يناصبونهم العداء.

ولكن إعلم أنّك لست وحيداً، وبلا معين، «وَكَفَى بِرَبّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا». فلا وساوسهم تستطيع أن تضلك، لأنّ اللَّه هاديك، ولا مؤامراتهم تستطيع أن تحطمك، لأنّ الخالق معينك، الخالق الذى علمه فوق كل العلوم، وقدرته أقوى من كل القدرات.

الآية التى بعدها تشير أيضاً إلى ذريعة اخرى من ذرائع هؤلاء المجرمين المتعللين بالمعاذير، فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً».

واساساً فقد كان الأفضل للنبى صلى الله عليه و آله أيضاً أن يكون ذا اطلاع على جميع هذا القرآن دفعة واحدة، كيما يجيب الناس فوراً على كل ما يسألونه ويريدون منه.

ولكن القرآن فى تتمة هذه الآية نفسها يجيبهم: «وَكَذلِكَ لِنُثَبّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنهُ تَرْتِيلًا».

إنّ القرآن مجموعة من أوامر ونواهى، أحكام وقوانين، تاريخ وموعظة، ومجموعة من الخطط ذات المدى الطويل أو القصير فى مواجهة الأحداث التى كانت تبرز أمام مسير الامة

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴٠٢

الإسلامية، كتاب- كهذا- يبيّن وينفذ جميع مناهجه حتى قوانينه الكلية عن طريق الحضور فى ميادين حياة الامة، لا يمكن أن ينظم ويُدوّن دفعة واحدة. وهذا من قبيل أن يقوم قائد عظيم بكتابه ونشر جميع بياناته وإعلاناته وأوامره ونواهيه- التى يصدرها فى المناسبات المختلفة- دفعة واحدة من أجل تسيير الثورة، تُرى هل يعتبر هذا العمل عقلائياً؟!

ثم للتأكيد أكثر على هذا الجواب يقول تعالى: «وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنكَ بِالْحَقّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا». أى أنّهم لا يأتون بمثل أو مقولة أو بحث لاضعاف دعوتك ومقابلتها.

وبما أنّ هؤلاء الأعداء الحاقدين استنتجوا- بعد مجموعة من إشكالاتهم- أنّ محمّداً وأصحابه مع صفاتهم هذه وكتابهم هذا وبرامجهم هذه شرّ خلق اللَّه- العياذ باللَّه- ولأنّ ذكر هذا القول لا يتناسب مع فصاحة وبلاغة القرآن، فإنّ اللَّه سبحانه يتناول الإجابة على هذا القول فى الآية الأخيرة مورد البحث دون أن ينقل أصل قولهم، يقول: «الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا».

وهذا علامة على مهانتهم وذلتهم، لأنّهم كانوا فى الدنيا فى غاية الكبر والغرور والإستهانة بخلق اللَّه، هذا من جهة.

ومن جهة اخرى تجسيد لضلالتهم فى هذا العالم، ذلك أنّ من يسحبونه بهذه الصورة لا يرى ما أمامه بأى شكل، وغافل عما حوله.

فريق لهم قامات منتصبة كشجر السرو، ووجوه منيرة كالقمر، وخطوات واسعة، يتوجهون بسرعة إلى الجنة.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَ جَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً (۳۵) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً (۳۶) وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَ جَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً (۳۷) وَ عَاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحَابَ الرَّسِّ وَ قُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً (۳۸) وَ كُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَ كُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيراً (۳۹) وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَ فَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً (۴۰)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۰۳

أشار القرآن المجيد فى هذه الآيات إلى تاريخ الامم الماضية ومصيرهم المشؤوم مؤكّداً على ست أمم. يقول أوّلًا: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هرُونَ وَزِيرًا».

فقد القيت على عاتقيهما المسؤولية الثقيلة فى جهاد الفراعنة، ويجب عليهما مواصلة هذا العمل الثورى بمساعدة أحدهما الآخر حتى يثمر: «فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بَايَاتِنَا». فإنّهم قد كذبوا دلائل اللَّه وآياته التى فى الآفاق وفى الأنفس وفى كل عالم الوجود، ومن جهة أخرى أعرضوا عن تعاليم الانبياء السابقين وكذبوهم.

ولكن بالرغم من جميع الجهود والمساعى التى بذلها موسى وهارون، بالرغم من رؤية كل تلك المعجزات العظيمة والبينات المتنوعة، أصروا أيضاً على طريق الكفر والإنكار، لذا «فَدَمَّرْنهُمْ تَدْمِيرًا». «تدمير»: من مادة «دمار» بمعنى الإهلاك باسلوب يثير العجب.

وكذلك: «وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنهُمْ وَجَعَلْنهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا».

وكذلك: «وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحبَ الرَّسّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذلِكَ كَثِيرًا».

«قوم عاد» هم قوم النبى «هود» العظيم، الذى بعث فى منطقة (الأحقاف) أو (اليمن). و «قوم ثمود» قوم نبى اللَّه «صالح» الذى بعث فى منطقة وادى القرى (بين المدينة والشام).

«رسّ»: فى الأصل بمعنى الأثر القليل، و «أصحاب الرس» كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبر كان يافث بن نوح غرسها وكان لهم إثنتا عشرة قرية معمورة على شاطىء نهر يقال له «الرسّ»، ولمّا طال منهم الكفر باللَّه وعبادة الشجرة، بعث اللَّه إليهم رسولًا من بنى إسرائيل من ولد يهودا، فدعاهم برهة إلى عبادة اللَّه وترك الشرك، فلم يؤمنوا، فدعا على الشجرة فيبست، فلمّا رأوا ذلك ساءهم، فاجتمعت آراؤهم على قتله فحفروا بئراً عميقاً وألقوه فيها، فأتبعهم اللَّه بعذاب شديد أهلكهم عن آخرهم.

«قرون»: جمع «قرن» وهى فى الأصل بمعنى الجماعة الذين يعيشون معاً فى زمان واحد، ثم أطلقت على الزمان الطويل (أربعين أو مائة سنة).

لكنّنا لم نجاز أولئك على غفلة أبداً، بل «وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثلَ».

أجبنا على إشكالاتهم، مثل الإجابة على الإشكالات التى يوردونها عليك، أخطرناهم، أنذرناهم، كررنا عليهم مصائر وقصص الماضين، لكن حين لم ينفع أىّ من ذلك أهلكناهم

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۰۴

ودمّرناهم تدميراً: «وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا» «١». وفى نهاية المطاف- فى الآية الأخيرة مورد البحث- يشير القرآن المجيد إلى خرائب مدن قوم لوط التى تقع على بداية طريق الحجازيين إلى الشام، وإلى الأثر الحى الناطق عن المصير الأليم لُاولئك الملوثين والمشركين، فيقول تعالى: «وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِى أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا».

نعم، لقد كانوا يرون مشهد الخرائب هذه، لكنّهم لم يأخذوا منها العبرة، ذلك لأنّهم: «بَلْ كَانُوا لَايَرْجُونَ نُشُورًا».

وَ إِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَ هـذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (۴۱) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْ لَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (۴۲) أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَوَاهُ أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (۴۳) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (۴۴)

الآيات الحالية تتناول لوناً آخر من منطق المشركين وكيفية تعاملهم مع رسول الخاتم صلى الله عليه و آله ودعوته الحقة. يقول تعالى أوّلًا:

«وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا».

ثم يواصل القرآن ذكر مقولات المشركين فينقل عن لسانهم: «إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا».

لكن القرآن يجيبهم من عدّة طرق، ففى البداية من خلال جملة واحدة حاسمة يرد على مقولات هذه الفئة التى ما كانت أهلًا للمنطق: «وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا».

يمكن أن يكون هذا العذاب إشارة إلى عذاب القيامة، أو عذاب الدنيا مثل الهزيمة المنكرة يوم «بدر» وأمثالها.

---

(١) «تتبير»: من مادة «تبر» (على وزن ضرر، وعلى وزن صبر) بمعنى الإهلاك التام.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۰۵

الجواب القرآنى الثانى على مقولاتهم ورد فى الآية التى بعدها، موجهاً الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله على سبيل المواساة وتسلية الخاطر، وأيضاً على سبيل بيان الدليل على أصل عدم قبول دعوة النبى من قبل اولئك، فيقول: «أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَوَيهُ».

فهل أنت قادر مع هذا الحال على هدايته والدفاع عنه، «أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا».

يعنى إذا وقف اولئك أمام دعوتك بالإستهزاء والإنكار وأنواع المخالفات، فلم يكن ذلك لأنّ منطقك ضعيف ودلائلك غير مقنعة، وفى دينك شك أو ريبة، بل لأنّهم ليسوا أتباع العقل والمنطق، فمعبودهم أهواؤهم النفسية، واتباع الهوى مصدر الغفلة ومنبع الكفر وعدم الإيمان.

وأخيراً فإنّ الجواب القرآنى الثالث لهذه الفئة الضالة، هو قوله: «أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا».

يعنى لا يؤذينك استهزاؤهم ومقولاتهم السيئة وغير المنطقية أبداً، لأنّ الإنسان إمّا أن يكون ذا عقل، ويستخدم عقله، فيكون مصداقاً ل «يعقلون». أو أنّه فاقد للعلم ولكنه يسمع قول العلماء، فيكون مصداقاً ل «يسمعون»، لكن هذه الفئة لا من اولئك ولا من هؤلاء، وعلى هذا فلا فرق بينهم وبين الانعام، بل هم أتعس من الأنعام وأعجز، إذ أنّ الأنعام لا تعقل ولا فكر لها، وهؤلاء لهم عقل وفكر، وتسافلوا إلى حال كهذه.

أَ لَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (۴۵) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً (۴۶) وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَ النَّوْمَ سُبَاتاً وَ جَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً (۴۷) وَ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً (۴۸) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَ أَنَاسِيَّ كَثِيراً (۴۹) وَ لَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (۵۰)

حركة الظلال: في هذه الآيات كلام في أقسام مهمّة من النعم الإلهية، وكلام في نعمة «الظلال» ثم في آثار وبركات «الليل» و «النوم والإستراحة» و «ضياء» النهار و «هبوب الرياح» و «نزول المطر» و «إحياء الأراضي الموات» و «سقاية» الأنعام والناس.

يقول تعالى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۰۶

أوّلًا: «أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا».

هذا الظل الممتد والمنتشر هو ذلك الظل المنتشر على الأرض بعد طلوع الفجر وقبل طلوع الشمس، وأهنأ الظلال والساعات هي تلك؛ لأنّه تعالى يقول على أثر ذلك: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا». إشارة إلى أنّ مفهوم الظل لم يكن ليتّضح لو لم تكن الشمس.

بعد ذلك يبيّن تعالى: ثم إنّنا نجمعه جمعاً ويئداً، «ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا».

من المعلوم أنّ الشمس حينما تطلع فإنّ الظلال تزول تدريجياً، حتى يحين وقت الظهر حيث ينعدم الظل تماماً في بعض المناطق، وفي مناطق اخرى يصل إلى أقل من طول الشاخص، ولهذا فالظل لا يظهر ولا يختفي دفعةً واحدةً، وهذا نفسه حكمة الخالق، ذلك لأنّ الإنتقال من النور إلى الظلمة بشكل فجائي يكون ضاراً بجميع المخلوقات.

بعد ذكر نعمة الظلال، تناول القرآن الكريم بالشرح نعمتين اخريين متناسبتين معها تناسباً تاماً، فيكشف جانباً آخر من أسرار نظام الوجود الدالة على وجود اللّه، يقول تعالى: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيلَ لِبَاسًا».

هذا الحجاب الظلامي الذي لا يستر الناس فقط، بل كل الموجودات على الأرض ويحفظها كاللباس، ويلتحفه الإنسان كالغطاء الذي يستفيد منه أثناء النوم، أو لإيجاد الظلام.

ثم يشير تعالى إلى نعمة النوم: «وَالنَّوْمَ سُبَاتًا».

«السبات»: في اللغة من «سبت» بمعنى القطع، ثم جاء بمعنى تعطيل العمل للإستراحة.

هذا التعبير إشارة إلى تعطيل جميع الفعاليات الجسمانية أثناء النوم.

النوم في وقته وبحسب الحاجة إليه، مجدد لجميع طاقات البدن، وباعث للنشاط والقوة، وأفضل وسيلة لهدوء الأعصاب.

وفي ختام الآية أشار تعالى إلى نعمة «النهار» فقال تعالى: «وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا».

«النشور»: في الأصل من النشر بمعنى البسط، في مقابل الطي وربّما كان هذا التعبير إشارة إلى انتشار الروح في أنحاء البدن، حين اليقظة التي تشبه الحياة بعد الموت، أو إشارة إلى انتشار الناس في ساحة المجتمع، والحركة للمعاش على وجه الأرض.

فضياء النهار من حيث روح وجسم الإنسان باعث على الحركة حقّاً، كما أنّ الظلام باعث على النوم والهدوء.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۰۷

بعد بيان هذه المواهب العظيمة- التي هي أهم ركائز الحياة الإنسانية- يتناول القرآن الكريم موهبة اخرى مهمة جدّاً فيقول: «وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا».

لا يخفى أنّ دور الرياح هو أنّها الطلائع المتقدمة لنزول الرحمة الإلهية، لأنّ إذا لم تحمل الرياح هذه الغيوم المثقلة من أعالي المحيطات باتجاه الأراضي اليابسة، فستتحول هذه الغيوم إلى مطر وستهطل على نفس ذلك البحر.

إنّ قسماً من هذه الرياح المتقدمة لقطعات الغيوم في حركتها وامتزاجها برطوبة ملائمة، تبعث النسيم المنعش الذي تشم منه رائحة المطر، هذه الرياح مثل البشير الذي يُنبيء عن قدوم مسافر عزيز.

التعبير ب «الرياح» بصيغة الجمع لعله إشارة إلى أنواع مختلفة منها، فبعض شمالي، وبعض جنوبي، وبعض يهب من الشرق إلى الغرب، ومنها ما يهب من الغرب إلى الشرق، فتكون سبباً في انتشار الغيوم في كل الآفاق.

المهم هنا هو أنّ «الماء» قد وصف ب «الطهور» التي هي صيغة مبالغة من الطهارة والنقاء ولهذا فمفهوم الطهارة والتطهير يعني أنّ الماء

طاهر بذاته ويطهر الأشياء الملوثة.

فمضافاً إلى خاصية الإحياء، فإنّ للماء خاصية كبيرة الأهمية هى التطهير، فلولا الماء فإنّ أجسامنا ونفوسنا وحياتنا تتسخ وتتلوث فى ظرف يوم واحد.

مضافاً إلى أنّ تنقية الروح من التلوث بواسطة الغسل والوضوء تكون بالماء، إذن فالماء مطهر للروح والجسم معاً.

لكن خاصية التطهير هذه مع ما لها من الأهمية، اعتبرت فى الدرجة الثانية، لذا يضيف القرآن الكريم فى الآية التى بعدها بأنّ الهدف من نزول المطر هو الإحياء: «لِّنُحْيِىَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا». وأيضاً: «وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا».

فى الآية الأخيرة- مورد البحث- يشير تعالى إلى القرآن فيقول: جعلنا هذه الآيات بينهم بصور مختلفة ومؤثرة ليتذكروا وليتعرفوا من خلاله على قدرة الخالق، لكن كثيراً من الناس لم يتخذوا موقفاً إزاء ذلك إلّاالإنكار والكفران: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۰۸

وَ لَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (۵۱) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَ جَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً (۵۲) وَ هُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَ هذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً (۵۳) وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً وَ كَانَ رَبُّكَ قَدِيراً (۵۴) وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَ لَا يَضُرُّهُمْ وَ كَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً (۵۵)

الآية الاولى- مورد البحث- أشارت إلى عظمة مقام النبى صلى الله عليه و آله، يقول تعالى: لو أردنا لبعثنا نبيّاً فى كل مدينة وبلد، لكنّنا لم نفعل هذا وألقينا مسؤولية هداية العالمين على عاتقك، «وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا». لأنّ تمركز النبوة فى وجود فرد واحد يكون باعثاً على وحدة وانسجام الناس، ومانعاً من كل فرقة وتشتت.

إنّ هذه الآية دليل على عظمة مقام النبى صلى الله عليه و آله، فهى دليل كذلك على وجوب وحدة القائد، وعلى ثقل عبء مسؤوليته.

وبنفس هذا الدليل، يبيّن اللّه تبارك وتعالى فى الآية التالية أمرين إلهيين مهمين يشكلان منهجين أساسيين للانبياء، فيوجه الخطاب أوّلًا إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله ويقول: «فَلَا تُطِعِ الْكفِرِينَ». لا تخطُ أيّة خطوة على طريق التوافق مع انحرافاتهم، فإنّ التوافق مع المنحرفين آفة الدعوة إلى اللّه.

أمّا القانون الثانى فهو: جاهد اولئك بالقرآن: «وَجهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا».

جهاداً كبيراً بعظمة رسالتك، وبعظمة جهاد كل الأنبياء الماضين، الجهاد الذى يشمل جميع الأبعاد الروحية والفكرية للناس، ويشمل كل الأصعدة المادية والمعنوية.

هذا التعبير يجسد أيضاً عظمة مقام القرآن، ذلك لأنّه وسيلة هذا الجهاد الكبير وسلاحه القاطع، فإنّ قدرته البيانية واستدلاله وتأثيره العميق وجاذبيته فوق تصور وقدرة البشر.

ثم يتناول القرآن الكريم مجدداً الاستدلال على عظمة الخالق عن طريق بيان نعمه فى النظام الكونى، فيشير بعد ذكر المطر فى الآيات السابقة إلى عدم الإختلاط بين المياه العذبة والمالحة: «وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۰۹

«مرج»: من مادة «المرج» (على وزن فلج) بمعنى الخلط أو الإرسال، وهنا بمعنى المجاورة بين الماء العذب والمالح.

«عذب»: بمعنى سائغ وطيب وبارد، و «فرات» بمعنى لذيذ وهنيء.

«ملح»: بمعنى مالح، و «أجاج» بمعنى مُرّ وحار.

«برزخ»: بمعنى حجاب وحائل بين شيئين.

فهذه الآية تصور واحداً من المظاهر المدهشة لقدرة الخالق فى عالم مخلوقاته، وكيف يستقر حجاب غير مرئى، وحائل خفى بين البحر المالح والبحر العذب، فلا يسمح لهما بالاختلاط.

وقد اتّضح اليوم أنّ هذا الحجاب اللامرئى، هو ذلك «التفاوت بين كثافة المالح والعذب» وفى الإصطلاح «تفاوت الوزن النوعى» لهما، حيث يكون سبباً فى عدم امتزاجهما إلى مدة طويلة.

إنّ جعل هذه الآية وسط آيات تتعلق ب «الكفر» و «الإيمان» ربّما تكون أيضاً إشارة وتمثيلًا لهذا الأمر، ففى المجتمع الواحد أحياناً، وفى المدينة الواحدة، بل حتى فى البيت الواحد أحياناً، يتواجد أفراد مؤمنون كالماء العذب والفرات، مع أفراد بلا إيمان كالماء المالح الأجاج ... مع طرازين من الفكر، ونوعين من العقيدة، ونمطين من العمل، طاهر وغير طاهر، دون أن يمتزجا.

فى الآية التالية- بمناسبة البحث فى نزول المطر، وفى البحرين العذب والأجاج المتجاورين- يتحدث القرآن الكريم عن خلق الإنسان من الماء، فيقول تعالى: «وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا». أى إنّ الإنسان الأوّل خلق من ماء، وأن تكوّن جميع أفراد البشر من ماء النطفة أيضاً، وأنّ الماء يشكل أهم مادة فى بناء جسم الإنسان أيضاً ... الماء الذى يعتبر من أبسط موجودات هذا العالم، كيف صار مبدأ إيجاد مثل هذا الخلق الجميل؟! وهذا دليل بيّن على قدرته تبارك وتعالى.

بعد ذكر خلق الإنسان، يورد جلّ ذكره الكلام عن انتشار الأنسان، فيقول: «فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا».

المقصود من «النسب» هو القرابة التى تكون بين الناس عن طريق الذرية والولد، مثل إرتباط الأب والابن، أو الإخوة بعضهم مع بعض، أمّا المقصود من «صهر» التى هى فى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۱۰

الأصل بمعنى «الختن» هو الإرتباط الذى يقام بين طائفتين عن هذا الطريق، مثل إرتباط الإنسان بأقرباء زوجته. فى ختام الآية يقول تبارك وتعالى بصيغة التأكيد على المسائل الماضية: «وَكَانَ رَبُّکَ قَدِيرًا».

ويبيّن القرآن الكريم فى نهاية المطاف فى الآية الأخيرة- مورد البحث- انحراف المشركين عن أصل التوحيد، من خلال المقايسة بين قدرة الأصنام وقدرة الخالق، حيث مرّت نماذج منها فى الآيات السابقة، يقول: «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَايَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ».

من المسلّم أنّ وجود المنفعة والضرر لا يكون وحده معيار العبادة، لكن القرآن يبيّن من خلال هذا التعبير هذه النكتة، وهى أنّهم يفتقدون أية حجة فى هذه العبادة، لأنّ الأصنام موجودات عديمة الخاصية تماماً، وفاقدة لأية قيمة، ولأى تأثير سلبى أو إيجابى.

ويضيف القرآن الكريم فى ختام الآية: أنّ الكفرة يعين بعضهم بعضاً فى مواجهة خالقهم «فى طريق الكفر» «وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا». ويعبئون القوى ويقيمون العراقيل ضد دين اللّه ونبيّه والمؤمنين الحقيقيين.

وَ مَا أَرْسَلْنَاکَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۵۶) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (۵۷) وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً (۵۸) الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (۵۹)

أجرى هو هدايتكم: كان الكلام فى الآيات السابقة حول إصرار الوثنيين على عبادتهم الأصنام التى لا تضرّ ولا تنفع، وفى الآية الحالية الاولى يشير القرآن إلى مهمة النبى صلى الله عليه و آله قبالة هؤلاء المتعصبين المعاندين، فيقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا».

إذا لم يتقبل هؤلاء دعوتك، فلا جناح عليك، فقد أديت مهمتك فى البشارة والإنذار.

هذا الخطاب، كما يشخص مهمّة النبى صلى الله عليه و آله، كذلك يسلّيه، وفيه نوع من التهديد لهذه الفئة الضالة، وعدم المبالاة بهم.

ثم يأمر النبى صلى الله عليه و آله أن يقول لهم أننى لا اريد منكم فى مقابل هذا القرآن وابلاغكم رسالة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۱۱

السماء أى أجر وعوض: «قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ». ثم يضيف: إنّ الأجر الوحيد الذى أطلبه أن يهتدى الناس إلى طريق اللّه «إِلَّا مَن شَاءَ أن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا».

يعنى أجرى وجزائى هو هدايتكم فقط، وبكامل الإرادة والاختيار أيضاً، فلا إكراه ولا إجبار فيه، وكم هو جميل هذا التعبير الكاشف عن غاية لطف ومحبة النبى صلى الله عليه و آله لأتباعه، ذلك لأنّه عدّ أجره وجزاءه سعادتهم.

وتبيّن الآية التى بعدها المعتمد الأساس للنبى صلى الله عليه و آله: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَىِّ الَّذِى لَايَمُوتُ».

فمع هذا المعتمد والملجأ فلا حاجة لك بأجر وجزاء هؤلاء، ولا خوف عليك من ضررهم ومؤامراتهم.

والآن حيث الأمر على هذه الصورة فسبح اللّه تنزيهاً له من كل نقص، وأحمده إزاء كل هذه الكمالات: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ».

ثم يضيف القرآن الكريم: لا تقلق من بهتان ومؤامرات الأعداء، لأنّ اللّه مطلع على ذنوب عباده وسيحاسبهم: «وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا».

الآية التالية بيان لقدرة الخالق فى ساحة عالم الوجود، ووصف آخر لهذا الملاذ الأمين. يقول تعالى: «الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ». «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» فأخذ بتدبير العالم.

إنّ من له هذه القدرة الواسعة يستطيع أن يحفظ المتوكلين عليه من كل خطر وحادثة.

وفى ختام الآية يضيف تعالى: «الرَّحْمنُ»: من شملت رحمته العامة جميع الموجودات، فالمطيع والعاصى والمؤمن والكافر يغترفون من خوان نعمته التى لا انقطاع فيها.

والآن، حيث ربّك الرحمن القادر المقتدر، فإذا أردت شيئاً فاطلب منه فإنّه المطلع على احتياجات جميع عباده: «فَسَلْ بِهِ خَبِيرًا».

وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۵۶) قُلْ مَا أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (۵۷) وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَىِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً (۵۸) الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (۵۹)

البروج السماوية: كان الكلام فى الآيات الماضية عن عظمة وقدرة اللّه، وعن رحمته

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۱۲

أيضاً، ويضيف اللّه تعالى فى الآية الاولى هنا: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمنُ». نحن لا نعرف «الرحمن» أصلًا، وهذه الكلمة ليس لها مفهوم واضح عندنا، «أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا». نحن لا نخضع لأىّ أحد، وسوف لن نكون أتباع أمر هذا أو ذاك، «وَزَادَهُمْ نُفُورًا». أى أنّهم يتكلمون بهذا الكلام ويزدادون ابتعاداً ونفوراً عن الحق.

لا شكّ أنّ أنسب اسم من أسماء اللّه للدعوة إلى الخضوع والسجود بين يديه، هو ذلك الاسم الممتلىء جاذبية «الرحمن» مع مفهوم رحمته العامّة الواسعة، لكن أولئك بسبب عمى قلوبهم ولجاجتهم، لم يظهروا تأثراً حيال هذه الدعوة، بل تلقوها بالسخرية والاستهزاء، وقالوا على سبيل التحقير: «وَمَا الرَّحْمنُ».

الآية التالية إجابة على سؤالهم حيث كانوا يقولون: «وما الرحمن؟» وإن كانوا يقولون هذا على سبيل السخرية، لكن القرآن يجيبهم إجابة جادة، يقول تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا». «البروج»: جمع «برج» فى الأصل بمعنى «الظهور» ولذا يسمون ذلك القسم الأعلى والأظهر من جدار أطراف المدينة أو محل تجمع الفرقة العسكرية «برج». فالبروج السماوية إشارة إلى الصور الفلكية الخاصة حيث تستقر الشمس والقمر فى كل فصل وكل موضع من السنة إزاء واحد منها، يقولون مثلًا: استقرت الشمس فى برج «الحمل» يعنى أنّها تكون بمحاذاة «الصورة الفلكية»، «الحمل»، أو القمر فى «العقرب» يعنى وقفت كرة القمر أمام الصورة الفلكية «العقرب».

بهذا الترتيب، أشارت الآية إلى منازل الشمس والقمر السماوية، وتضيف على أثر ذلك: «وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا».

مع هذه الدلائل الواضحة، ومع هذه المنازل البديعة والدقيقة للشمس والقمر، فهل مازلتم تجهلونه وتقولون: «وما الرحمن؟!»

فى الآية الأخيرة يواصل القرآن الكريم التعريف بالخالق سبحانه، ويتحدث مرّة اخرى فى قسم آخر من نظام الوجود، فيقول تعالى: «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا».

هذا النظام البديع الحاكم على الليل والنهار، لولاه لانعدمت حياة الإنسان نتيجةً لشدة النور والحرارة أو الظلمة والعتمة، وهذا دليل رائع للذين يريدون أن يعرفوا اللّه عزّ وجل.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٤١٣

وَ عِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (٦٣) وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِيَاماً (٦٤) وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَ مُقَاماً (٦٦) وَ الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كَانَ بَيْنَ ذلِكَ قَوَاماً (٦٧)

الصفات الخاصة لعباد الرحمن: هذه الآيات- فما بعد- تستعرض بحثاً جامعاً فذاً حول الصفات الخاصة لعباد الرحمن، وتبيّن اثنتى عشر صفة من صفاتهم الخاصّة، إكمالًا للآيات الماضية حيث كان المشركون المعاندون حينما يذكر اسم اللّه «الرحمن» يقولون وملء رؤوسهم استهزاء وغرور «وما الرحمن؟» ورأينا أنّ القرآن يعرّف لهم «الرحمن» ضمن آيتين، وجاء الدور الآن ليعرّف «عباد الرحمن».

إنّ أوّل صفة ل «عباد الرحمن» هو نفى الكبر والغرور والتعالى، الذى يبدو فى جميع أعمال الإنسان حتى فى طريقة المشى، لأنّ الملكات الأخلاقية تظهر نفسها فى حنايا أعمال وأقوال وحركات الإنسان بحيث إنّ من الممكن تشخيص قسم مهم من أخلاقه- بدقة- من أسلوب مشيته. يقول تعالى: «وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الَّذِين يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا» «١».

نعم، إنّهم متواضعون، والتواضع مفتاح الإيمان، فى حين يعتبر الغرور والكبر مفتاح الكفر.

الصفة الثانية ل «عباد الرّحمن» الحلم والصبر، كما يقول القرآن فى مواصلته هذه الآية: «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجهِلُونَ قَالُوا سَلمًا». السلام الذى هو علامة اللامبالاة المقترنة بالعظمة، وليس الناشىء عن الضعف؛ وليس سلام التحية الذى هو علامة المحبة ورابطة الصداقة، بل السلام الذى هو علامة الحلم والصبر والعظمة.

وتتناول الآية الثانية، خاصيتهم الثالثة التى هى العبادة الخالصة للّه، فيقول تعالى:

(١) «هون»: مصدر، وهو بمعنى الناعم والهادى المتواضع، واستعمال المصدر فى معنى اسم الفاعل هنا للتوكيد؛ يعنى أنّهم فى ما هم عليه كأنّهم عين الهدوء والتواضع.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٤١٤

«وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبّهِمْ سُجَّدًا وَقِيمًا».

فى عتمة الليل حيث أعين الغافلين نائمة، وحيث لا مجال للتظاهر والرياء، حرّموا على أنفسهم لذة النوم، ونهضوا إلى ما هو ألذّ من ذلك، حيث ذكر اللّه والقيام والسجود بين يدى عظمته عزّ وجلّ. الصفة الرابعة لهم هى الخوف من العذاب الإلهى: «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا». أى شديداً ومستديماً. «إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا».

ومع أنّهم مشتغلون بذكر اللّه وعبادته فى الليالى، ويقضون النهار فى إنجاز تكاليفهم، فإنّ قلوبهم أيضاً مملوءة بالخوف من المسؤوليات.

«غرام»: فى الأصل بمعنى المصيبة والألم الشديد الذى لا يفارق الانسان. وتطلق هذه الكلمة على «جهنم» لأنّ عذابها شديد ودائم لا يزول.

فى الآية الأخيرة يشير جل ذكره إلى الصفة الممتازة الخامسة ل «عباد الرحمن» التى هى الإعتدال والإبتعاد عن أى نوع من الإفراط

والتفريط فی الأفعال، خصوصاً فی مسألة الإنفاق، فيقول تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذلِكَ قَوَامًا».

الملفت للإنتباه أنّه يورد الكلام فی كيفية إنفاقهم فيقول: إنّ إنفاقهم إنفاق عادل (معتدل) بعيد عن أی إسراف وبخل، فلا يبذلون بحيث تبقى أزواجهم وأولادهم جياعاً، ولا يقترون بحيث لا يستفيد الآخرون من مواهبهم وعطاياهم.

إنّ «الإسراف» هو أن ينفق المسلم أكثر من الحد، وفی غير حق، وبلا داع، و «الإقتار» هو أن ينفق أقل من الواجب.

«قوام»: لغة بمعنى العدل والإستقامة والحد والوسط بين شيئين.

وَ الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِی حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لَا يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً (۶۸) يُضاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً (۶۹) إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحاً فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۷۰) وَ مَنْ تَابَ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً (۷۱)

ميزة «عباد الرحمن» السادسة التی وردت فی هذه الآيات هی التوحيد الخالص الذی

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۱۵

يبعدهم عن كل أنواع الشرك والثنوية والتعددية فی العبادة، فيقول تعالى: «وَالَّذِينَ لَايَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهًا ءَاخَرَ».

الصفة السابعة: طهارتهم من التلوث بدم الأبرياء: «وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِی حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقّ».

ويستفاد جيداً من الآية أعلاه أنّ جميع الأنفس الإنسانية محترمة فی الأصل، ومحرم إراقة دمائها إلّاإذا تحققت أسباب ترفع هذا الإحترام الذاتی فتبيح إراقة الدم.

صفتهم الثامنة: هی أنّ عفافهم لا يتلوث أبداً: «وَلَا يَزْنُونَ».

إنّهم على مفترق طريقين: الكفر والإيمان، فينتخبون الإيمان، وعلى مفترق طريقين: الأمان واللاأمان فی الأرواح، فهم يتخيرون الأمان، وعلى مفترق طريقين: الطهر والتلوث، فهم يتخيرون النقاء والطهر. إنّهم يهيئون المحيط الخالی من كل أنواع الشرك والتعدی والفساد والتلوث، بجدهم واجتهادهم.

وفی ختام هذه الآية يضيف تعالى من أجل التأكيد أكثر: «وَمَن يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثَامًا».

«الإثم» و «آثام»: فی الأصل بمعنى الأعمال التی تمنع من وصول الإنسان إلى المثوبة، ثم أطلقت على كل ذنب، لكنها هنا بمعنى جزاء الذنب.

تتكیء الآية التالية أيضاً على ما سبق، من أنّ لهذه الذنوب الثلاثة أهمية قصوى فيقول تعالى: «يُضعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا».

والمقصود من مضاعفة العذاب أنّ كل ذنب من هذه الذنوب الثلاثة المذكورة فی هذه الآية سيكون له عقاب منفصل، فتكون العقوبات بمجموعها عذاباً مضاعفاً.

فضلًا عن أنّ ذنباً ما يكون أحياناً مصدر الذنوب الاخرى، مثل الكفر الذی يسبب ترك الواجبات وارتكاب المحرمات، وهذا نفسه موجب لمضاعفة العذاب الإلهی.

لكن القرآن المجيد كما مرّ سابقاً، لم يغلق طريق العودة أمام المجرمين فی أی وقت من الأوقات، بل يدعو المذنبين إلى التوبة ويرغبهم فيها، ففی الآية التالية يقول تعالى هكذا: «إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولئِكَ يُبَدّلُ اللَّهُ سَيَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا».

تبديل السيئات حسنات: هنا عدّة تفاسير، يمكن القبول بها جميعاً:

۱- حينما يتوب الإنسان ويؤمن باللَّه، تتبدل سيئات أعماله فی المستقبل حسنات، فإذا كان قاتلًا للنفس المحترمة فی الماضی، فإنّه يتبنى مكانها فی المستقبل الدفاع عن المظلومين

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۱۶

ومواجهة الظالمين. وهذا التوفيق الإلهي يناله العبد في ظل الإيمان والتوبة.

٢- إنّ اللّه تبارك وتعالى بلطفه وكرمه وفضله وإنعامه يمحو سيئات أعمال العبد بعد التوبة، ويضع مكانها حسنات. ٣- والمقصود من السيئات آثارها السيئة التي تنطبع بها روح ونفس الإنسان، فحينما يتوب ويؤمن تجتث تلك الآثار السيئة من روحه ونفسه.

الآية التالية تشرح كيفية التوبة الصحيحة، فيقول تعالى: «وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا» «١». يعني أنّ التوبة وترك الذنب ينبغي ألّا تكون بسبب قبح الذنب، بل ينبغي- إضافة إلى ذلك- أن يكون الدافع إليها خلوص النية، والعودة إلى اللّه تبارك وتعالى.

الصفة التاسعة ل «عباد الرحمن»، هي احترام وحفظ حقوق الآخرين: إنّ هؤلاء لا يشهدون بالباطل مطلقاً: «وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ». والمقصود من «الشهود» هو «الحضور» يعني أنّ عباد الرّحمن لا يتواجدون في مجالس الباطل. فعباد الرّحمن لا يؤدون الشهادة الكاذبة، ولا يشهدون مجالس اللهو والباطل والخطيئة، ذلك لأنّ الحضور في هذه المجالس- فضلًا عن ارتكاب الذنب- فإنّه مقدمة لتلوث القلب والروح.

ثم يشير تعالى في آخر الآية إلى صفتهم الرفيعة العاشرة، وهي امتلاك الهدف الإيجابي في الحياة، فيقول: «وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا».

إنّهم لا يحضرون مجالس الباطل، ولا يتلوثون باللغو والبطلان.

وَ الَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً (٧٢) وَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَ عُمْيَاناً (٧٣) وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً (٧۴) أُولئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَ يُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَ سَلَاماً (٧۵) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَ مُقَاماً (٧۶)

الصفة الحادية عشر لهذه النخبة امتلاك العين الباصرة والاذن السامعة حين مواجهتهم

---

(١) «متاب»: مصدر ميمي بمعنى التوبة، ولأنّه مفعول مطلق هنا، فهو للتوكيد.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۱۷

لآيات الخالق، فيقول تعالى:

«وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بَايَاتِ رَبّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا».

من المسلّم أنّ المقصود ليس الإشارة إلى عمل الكفار، ذلك لأنّهم لا اعتناء لهم بآيات اللّه أصلًا، بل إنّ المقصود: فئة المنافقين أو مسلمو الظاهر، الذين يقعون على آيات اللّه بأعين وآذان موصدة، دون أن يتدبّروا حقائقها، ويستهدوه في أعمالهم.

التلقي الواعي عن الدين هو المعين الأساس للمقاومة والثبات والصمود، لأنّ من اليسير خداع من يقتصر على ظواهر الدين، وبتحريفه يتم الإنحراف عن الخط الأصيل، فيهوى بهم ذلك إلى وادى الكفر والضلالة وعدم الإيمان.

الصفة الثانية عشر الخاصّة لهؤلاء المؤمنين الحقيقيين، هي التوجه الخاص إلى تربية أبنائهم وعوائلهم، وإيمانهم بمسؤوليتهم العظيمة إزاء هؤلاء: «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِن أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ».

بديهي أنّ معنى هذا ليس أن يقبعوا في زاوية ويتضرعوا بالدعاء، بل إنّ الدعاء دليل شوقهم وعشقهم الداخلي لهذا الأمر، ورمز جدهم واجتهادهم.

والصفة الثالثة عشر ل «عباد الرحمن»، التي هي أهم هذه الصفات من وجهة نظر معينة: هي أنّهم لا يقنعون أبداً أنّهم على طريق الحق، بل إنّ همتهم عالية بحيث يريدون أن يكونوا أئمة وقدوات للمؤمنين، ليدعوا الناس إلى هذا الطريق أيضاً. إنّهم ليسوا كالزهاد

المنزوين فى الزوايا، وليس همّهم انقاذ أنفسهم من الغرق، بل إنّ سعيهم هو أن ينقذوا الغرقى. لذا يقول فى آخر الآية، إنّهم الذين يقولون: «وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا».

نعم، إنّهم عباد الرحمن، وكما أنّ رحمة اللّه العامة تشمل الجميع فإنّ رحمة اللّه بهؤلاء العباد عامة أيضاً من أكثر من جهة، فعلمهم وفكرهم وبيانهم وقلمهم ومالهم وقدرتهم تخدم بلا انقطاع فى طريق هداية خلق اللّه.

اولئك نماذج الإنسان الكامل والاسوة فى المجتمع الإنسانى.

اولئك قدوات المتقين.

بعد إكمال هذه الصفات الثلاثة عشرة، يشير تعالى إلى عباد الرحمن هؤلاء مع جميع هذه الخصائص، وفى صورة الكوكبة الصغيرة، فيبيّن جزاءهم الإلهى: «أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا». «غرفة»: من مادة «غرف» (على وزن حرف) بمعنى رفع الشىء وتناوله، ويقال لما يغترف ويتناول «غرفة»، ثم اطلقت على الأقسام العليا من البناء، ومنازل

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۱۸

الطبقات العليا، وهى هنا كناية عن أعلى منازل الجنة.

المهم أنّ الصبر ليس وصفاً جديداً لهم، بل هو ضمانة تطبيق جميع الصفات السابقة، وعلى هذا فللصبر هنا مفهوم واسع، فالتحمل والصمود أمام مشكلات طريق الحق، والجهاد والمواجهة ضد العصاة، والوقوف أمام دواعى الذنوب، تجتمع كلها فى ذلك المفهوم.

ثم يضيف تعالى: «وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَمًا».

أهل الجنّة يحيى بعضهم بعضاً، وتسلم الملائكة عليهم، وأعلى من كل ذلك أنّ اللّه يحييهم ويُسلم عليهم.

ثم يقول تبارك وتعالى للتأكيد أكثر: «خلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا».

لولا ـ دعاؤكم، لما كانت لكم قيمة: هذه الآية التى هى الآية الأخيرة فى سورة الفرقان، جاءت فى الحقيقة نتيجة لكل السورة، وللأبحاث التى بصدد صفات «عباد الرحمن» فى الآيات السابقة، فيقول تبارك وتعالى مخاطباً النبى صلى الله عليه و آله: «قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ». وبناء على هذا، إنّ ما يعطيكم الوزن والقيمة والقدر عند اللّه هو الإيمان باللّه والتوجه إليه، والعبودية له.

ثم يضيف تعالى: «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا».

يعنى: أنّكم قد كذبتم فيما مضى بآيات اللّه وبأنبيائه، فإذا لم تتوجهوا إلى اللّه، ولم تسلكوا طريق الإيمان به والعبودية له، فلن تكون لكم أية قيمة أو مقام عنده، وستحيط بكم عقوبات تكذيبكم.

«نهاية تفسير سورة الفرقان»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۱۹

۲۶ سورة الشّعراء

محتوى السورة: إنّنا نعلم أنّ السور المكية التى أنزلت فى بداية دعوة الإسلام، تستند على بيان الاصول الاعتقادية:

التوحيد والمعاد، ودعوة أنبياء اللّه، وأهمية القرآن.

وتدور جميع موضوعات سورة الشعراء حول هذه المسائل تقريباً.

ويمكن تلخيص محتوى هذه السورة فى عدة أقسام:

۱- مطلع هذه السورة الذى يتكون من الحروف المقطعة، ثم يتحدث فى عظمة القرآن، وتسلية النبى صلى الله عليه و آله فى مواجهة إصرار وحماقة المشركين، والإشارة إلى بعض دلائل التوحيد، وصفات اللّه تبارك وتعالى.

۲- يحكى جوانب من قصص سبعة أنبياء عظام ومواجهاتهم مع أقوامهم، والذى يشبه كثيراً منطق مشركى عصر النبى صلى الله عليه و

آله، فكان هذا سبباً فى تسلية النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين الأوائل.

وفيه بشكل خاص أيضاً، تركيز على العذاب العظيم والإبتلاءات المروعة التى حلّت بهذه الأمم، والذى هو بذاته تهديد مؤثر لأعداء النبى فى تلك الشرائط.

٣- وتغلب عليه جنبه الإستنتاج من القسمين الأوليين، يتناول الحديث حول النبى صلى الله عليه و آله، وعظمة القرآن، وتكذيب المشركين، والأوامر الصادرة إلى النبى صلى الله عليه و آله فيما يتعلق بطريقة الدعوة، وكيفية التعامل مع المؤمنين، ويختم السورة بالبشرى للمؤمنين الصالحين، وبالتهديد الشديد للظالمين.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۲۰

وبالمناسبة، فإنّ اسم هذه السورة أخذ من مجموعة الآيات الأخيرة التى تتحدث حول الشعراء غير المؤمنين.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بنوح عليه السلام وكذّب به، وهود وشعيب وصالح وابراهيم عليهم السلام وبعدد من كذّب بعيسى عليه السلام وصدّق بمحمّد صلى الله عليه و آله».

والمراد من التلاوة هى ما كانت مقدمة للتفكر، ثم العزم والعمل.

طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (۴) وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (۵) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (۶)

مرّةً اخرى نواجه فى بداية هذه السورة مثلًا آخر من الحروف المقطعة وهو: «طسم».

ورد فى روايات متعددة عن النبى صلى الله عليه و آله أو بعض أصحابه فى تفسير «طسم» أنّ هذه الحروف علامات «مختصرة» عن أسماء اللّه تعالى، أو أسماء القرآن، أو الأمكنة المقدسة، أو بعض أشجار الجنة.

وهذه الرّوايات تؤيد التّفسير الذى نقلناه فى مستهلّ سورة الأعراف فى هذا الصدد، كما أنّها فى الوقت ذاته لا تنافى ما قلناه فى مستهل سورة البقرة من أنّ المراد من هذه الحروف بيان إعجاز القرآن وعظمته، حيث إنّ هذا الكلام العظيم مؤلف من حروف بسيطة وصغيرة.

و الآية التالية تبيّن عظمة القرآن بهذا النحو: «تِلْكَ ءَايتُ الْكِتبِ الْمُبِينِ».

ووصف القرآن ب «المبين» المشتق من «البيان»، هو إشارة إلى كونه جليّاً بيّناً عظيماً معجزاً- فكلّما أمعن الإنسان النظر فى محتواه تعرّف على إعجازه أكثر فأكثر ... ثم بعد هذا فإنّ القرآن يبيّن الحق ويميزه عن الباطل، ويوضّح سبيل السعادة والنصر والنجاة من الضلال.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۲۱

وتتحرك الآية التالية لتُسرّى عن قلب النبى صلى الله عليه و آله وتثبته فتقول: «لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ». «باخع»: مشتقة من «البَخْع»، ومعناه إهلاك النفس من شدة الغمّ.

أجل، كان جميع الأنبياء على هذه الشاكلة من الإشفاق على اممهم ولا سيما الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله الذى ورد فى شأنه هذا التعبير القرآنى أكثر من مرّة ...

قال بعض المفسرين: إنّ سبب نزول الآية الآنفة الذكر هو أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يدعو أهل مكة إلى توحيد اللّه باستمرار، إلّاأنّهم لم يؤمنوا، فأسف النبى وتأثر تأثراً بالغاً حتى بدت أماراته فى وجهه، فنزلت الآية آنفة الذكر لتسرّى عن قلب النبى صلى الله عليه و آله «١».

ولبيان أنّ اللّه على كل شىء قدير حتى أنّه يستطيع أن يسوقهم إلى الإيمان به سوقاً ويضطرّهم إلى ذلك، فإنّ الآية التالية تقول: «إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ».

وهى إشارة إلى أنّ اللّه قادر على إنزال معجزة مذهلة- من السماء- أو أن يرسل عليهم عذاباً شديداً فيذعنوا له، ويطأطئوا برؤوسهم خضوعاً له، ويستسلموا لأمره وحكمه، إلّاأنّ الإيمان بإكراه لا قيمة له. فالمهم أن يخضعوا للحق عن إرادة ووعى وإدراك وتفكر.

ثم يتحدث القرآن عن مواقف المشركين والكفار من آيات القرآن فيقول: «وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ».

والتعبير ب «الرّحمن» إشارة إلى أنّ نزول هذه الآيات من قبل اللّه إنّما هو من رحمته العامة، إذ تدعو جميع الناس دون استثناء إلى السعادة والكمال.

والتعبير ب «محدث»- أى جديد- إشارة إلى أنّ آيات القرآن تنزل واحدةً تلو الاخرى، وكل منها ذو محتوى جديد.

ثم يضيف القرآن: أنّ هؤلاء لا يقفون عند حدود الإعراض، بل يتجاوزون إلى مرحلة التكذيب، بل إلى أشدّ منه ليصلوا إلى الإستهزاء به، فيقول: «فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ». «الأنباء»: جمع «انبأ»، أى الخبر المهم، والمراد من هذه الكلمة ما سيصيبهم من العقاب الشديد الدنيوى والأخروى.

والتحقيق فى هذه الآية والآية السابقة يكشف أنّ الإنسان حين ينحرف عن الجادة المستقيمة فإنّه يفصل نفسه عن الحق- بشكل مستمر.

---

(۱) تفسير روح الجنان ۸/ ۳۲۴.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۲۲

ففى المرحلة الاولى يعرض عن الحق ويصرف بوجهه عنه ... ثم بالتدريج يبلغ مرحلة الإنكار والتكذيب .. ثم يتجاوز هذه المرحلة إلى السخرية والإستهزاء ... ونتيجةً لذلك ينال عقاب اللّه وجزاءه (وقد ورد نظير هذا التعبير فى الآيتين ۴ و ۵ من سورة الأنعام).

أ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (۷) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۸) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۹)

الزوجية فى النباتات: كان الكلام فى الآيات المتقدمة عن إعراض الكفار عن الآيات التشريعية (أى القرآن المجيد)، أمّا فى الآيات محل البحث فالكلام عن الآيات التكوينية ودلائل اللّه فى خلقِه وما أوجده سبحانه؛ فتقول الآية الاولى من هذه الآيات:

«أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ». «كريم»: فى الأصل تعنى كل شىء قيّم وثمين.

والمراد من «كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» هو النباتات المهمّة ذوات الفائدة.

وتأتى الآية التالية لتقول مؤكدة بصراحة: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَأَيَةً». إلّاأنّ اولئك الذين طُبع على قلوبهم فى غفلة وجهل إلى درجة يرون معها آيات اللّه بأعينهم، ومع ذلك يجحدونها ويكفرون بها، ويترسخ فى قلوبهم العناد والجدل. لذلك فإنّ الآية هذه تعقّب قائلة: «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ». أى إنّ عدم الإيمان لدى اولئك أمسى كالصفة الراسخة فيهم، فلا عجب أن لا ينتفعوا من هذه الآيات.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث يرد الخطاب فى تعبير يدل على التهديد والترهيب والتشويق والترغيب، فيقول سبحانه: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

«العزيز»: معناه المقتدر الذى لا يغلب ولا يُقهر، فهو قادر على إظهار الآيات العظمى، كما أنّه قادر على إهلاك المكذبين وتدميرهم .. إلّاأنّه مع كل ذلك رحيم، ورحمته وسعت كل شىء، ويكفى الرجوع بإخلاص إليه فى لحظة قصيرة، لتشمل رحمته من أناب إليه وتاب، فيعفو عنه بلطفه ورحمته.

وَ إِذْ نَادَى رَبُّکَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَ لَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُکَذِّبُونِ (١٢) وَ يَضِيقُ صَدْرِى وَ لَا يَنْطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١۴) قَالَ کَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَکُمْ مُسْتَمِعُونَ (١۵)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴٢٣

بداية رسالة موسى: قلنا إنّ فى هذه السورة بياناً لقصص سبعة من الأنبياء الكرام العظام، ليكون درس اعتبار لعامّة المسلمين، ولا سيما المسلمين الأوائل فى عصر النبى صلى الله عليه و آله ... فأوّل قصّة تتناولها هذه السورة هى قصة موسى عليه السلام، وتشرح جوانب مختلفة من حياته ومواجهته لفرعون وأتباعه حتى هلاكهم بالغرق فى النيل.

وممّا يلفت النظر تكرار عبارة: «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ»، بعد تمام الحديث عن كل نبى ...

وهو التعبير ذاته الوارد فى بداية هذه السورة فى شأن النبى محمّد صلى الله عليه و آله .. وهذا الإتساق فى التعبير شاهد حىّ على أنّ ذكر هذه الجوانب من قصص الأنبياء إنّما هو للظروف المتشابهة التى أكتنفت المسلمين من حيث الحالة النفسية والإجتماعية كما كان عليها الأنبياء السابقون ...

فتقول الآيتان الاوليان من الآيات محل البحث: «وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ».

ويتركون ظلمهم وفسادهم وعنادهم للحق.

وينبغى الإلتفات إلى أنّ الصفة الوحيدة المذكورة عن قوم فرعون هنا هى الظلم، ومن الواضح أنّ الظلم له معنى جامع واسع ومن مصاديقه الشرك كما تقول الآية (١٣) من سورة لقمان: «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ».

كما أنّ استعباد بنى إسرائيل واستثمارهم وما قارنهما من زجر وتعذيب من المصاديق الاخرى أيضاً، ثم بعد هذا كلّه فإنّ قوم فرعون ظلموا أنفسهم بأعمالهم المخالفة، وهكذا يمكن تلخيص أهداف دعوة الأنبياء جميعهم بمبارزة الظلم بجميع أبعاده ...

ويحكى القرآن مقالة موسى الكليم لربّ العزة وما طلبه منه من مزيد القوة والعون لحمل الرسالة العظمى، فيقول فى الآية التالية: «قَالَ رَبِّ إِنِّى أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ». وأخشى أن اطرد قبل أن أكمل أداء رسالتى بما الاقيه من صخب وتكذيب فلا يتحقق الهدف المنشود ...

وكان لموسى الحق فى كلامه هذا تماماً، لأنّ فرعون وأتباعه وحاشيته كانوا مهيمنين على مصر، بحيث لم يكن لأحد أن يخالفهم ولو برأيه، وإذا أحسّوا بأدنى نغمة مخالفة لأىشخص بادروا إلى الإجهاز عليه فوراً ..

وإضافة إلى ذلك فإنّ صدرى لا يتّسع لاستيعاب هذه الرسالة الإلهية: «وَيَضِيقُ صَدْرِى».

ثم بعد هذا كلّه فلسانى قد يعجز عن بيانها: «وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى» ...

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴٢۴

فلذلك فإنّى أطلب أن تشدّ أزرى بأخى: «فَأَرْسِلْ إِلَى هرُونَ». لنؤدّى رسالتك الكبرى بأكمل وجه بتعاضدنا فى مواجهة الظالمين والمستكبرين.

وبغض النظر عن كل ذلك فإنّ قوم فرعون يطاردوننى «وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ» كما يعتقدون لأنّى قتلت واحداً منهم- حين كان يتنازع مع إسرائيلى مظلوم- بضربة حاسمة، وأنا قلق من ذلك: «فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ».

إنّ موسى لم يكن خائفاً على نفسه، بل كان خوفه أن لا يصل إلى الهدف والمقصد للأسباب آنفة الذكر، لذلك فقد كان يطلب من اللّه سبحانه مزيد القوة لهذه المواجهة ...

فاستجاب اللّه طلب موسى ودعوة الصادقة و «قَالَ كَلَّا». فلن يستطيعوا قتلك، أو كلّا لن يضيق صدرك وينعقد لسانك، وقد أجبنا دعوتك أيضاً فى شأن أخيك، فهو مأمور معك فى هذه المهمة: «فَاذْهَبَا بَايَاتِنَا» لتدعوا فرعون وقومه إلى توحيد اللّه.

ولا تظنّا بأنّ اللَّه بعيد عنكم أو لا يسمع ما تقولان: «إنَّا مَعَكم مُّسْتَمِعُونَ» ...

فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١۶) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أ لَمْ نُرَبِّک فِينَا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِک سِنِينَ (١٨) وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَـک الَّتِى فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً وَ جَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَ تِلْک نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِى إِسْرَائِيلَ (٢٢)

مواجهـة فرعون مواجهـةً منطقية وقاطعة: انتهت فى الآيات المتقدمة المرحلة الاولى لمأمورية موسـى عليه السـلام وهى موضوع الوحى والرسالة وطلبه أسباب الوصول إلى هذا الهدف الكبير ... وتعقيباً على المرحلة الآنفة تأتى الآيات– محل البحث– لتمثل المرحلة الثانية، أي مواجهـة موسـى وهارون لفرعون، والكلام المصـيرى الـذى جرى بينهم. تقول الآيـة الاولى من هـذه الآيات مقدمـة لهذه المرحلة: «فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبّ الْعَالَمِينَ».

وضمن دعوتكما لفرعون بأنّكما رسولا ربّ العالمين اطلبا منه أن يُرسل بنى إسرائيل ويرفع يده عنهم: «أن أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَاءِيلَ».

وبديهى أنّ المراد من الآية أن يرفع فرعون عن بنى إسرائيل نير العبودية والقهر

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴٢۵

والإستعباد، ليتحرروا ويأتوا مع موسى وهارون، وليس المراد هو إرسال بنى إسرائيل معهما فحسب.

وهنـا يلتفت فرعون فيتكلم بكلمات مدروسـة وممزوجـة بالخبث والشـيطنة لينفى الرسالـة ويقول لموسـى «أَلَمْ نُرَبّک فِينَا وَلِيـدًا ...». إذْ التقطنـاک من أمواج النيـل الهـادرة فانقـذناک من الهلاک، وهيّأنا لک مرضـعة، وعفونا عن الحكم الصادر فى قتل أبناء بنى إسـرائيل الذى كنت مشمولًا به، فتربّيت فى محيط هادىء آمن منعّماً ... وبعد أن تربيت فى بيتنا عشت زماناً «وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِک سِنِينَ».

ثم توجه إلى موسى وذكره بموضوع قتل القبطى فقال: «وَفَعَلْتَ فَعْلَتَک الَّتِى فَعَلْتَ».

ثم بعد هذا كلّه: «وَأَنتَ مِنَ الْكفِرِينَ».

وعندما سـمع موسـى كلمات فرعون الممزوجة بالخبث والشيطنة أجاب على إشكالات فرعون الثلاثة، إلّاأنّه قدّم الإجابة على الإشكال الثانى نظراً لأهميته. (أو أنّه أساساً لم يجد الإشكال الأوّل يستحق الإجابة، لأنّ تربية الشخص لا تكون دليلًا على عدم جواز هداية مربّيه إن كان المربى ضالًا، ليسلك سبيل الرشاد) وأجابه موسى عليه السلام: «قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالّينَ».

إنّ موسـى عليه السلام استخدم التورية فى تعبيره جواباً على كلام فرعون، فقال كلاماً ظاهره أنّه لم يعرف طريق الحق فى ذلک الزمان ... لكن اللَّه عرّفه إيّاه بعدئـذ، ووهب له حكماً– فجعله من المرسـلين، إلّاأنّه كان يقصـد فى الباطن أنّه لم يـدر أن عمله حينئذ سيؤدّى إلى هذه النتيجة من الجهد والعناء واضطراب البال– مع أنّ أصل عمله كان حقاً ومطابقاً لقانون العدالة.

ثم يضيف موسى قائلًا: «فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

ثم يردّ موسـى عليه السـلام على كلام فرعون الذى يمنّ به عليه فى أنّه ربّاه وتعهده منذ طفولته وصباه، معترضاً عليه بلحن قاطع فيقول: «وَتِلْک نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِى إِسْرَاءِيلَ».

حتى أمرت أن يُقتل الأطفال الذكور وتستحيا النساء للخدمة.

فهـذا الظـالم المفرط من قبلک، كان سـبباً لأن تضـعنى امى فى الصـندوق حفاظاً على، وتلقينى فى أمواج النيل، وكانت مشـيئة اللَّه أن تسوق الأمواج «زورقى» الصـغير حتى توصـله إلى قصرک ... أجل إنّ ظلمک الفاحش هو الذى جعلنى رهين منّتک وحرمنى من بيت أبى الكريم، وصيرنى فى قصرک الملوّث ...

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴٢۶

قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَـاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢۴) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أ لَا تَسْـتَمِعُونَ (٢۵) قَالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢۶) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِـلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْـرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ

كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (۲۸) قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّکَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (۲۹)

حین واجه موسی علیه السلام فرعون بلهجة شدیدة وأجابه بضرس قاطع، وأفحم فرعون فی ردّه، غیّر فرعون مجری کلامه، وسأل موسی عن معنی کلامه أنّه رسول رب العالمین، و «قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ». وفرعون قد سأل موسی علیه السلام هذا السؤال متجاهلًا ومستهزئاً.

إلّا أنّ موسی لم یجد بُداً أن یجیب علی فرعون بجدّ ... وحیث إنّ ذات اللَّه سبحانه بعیدة عن متناول أفکار الناس، فإنّه أخذ یحدثه عن آیات اللَّه فی الآفاق وآثاره الحیة إذ: «قَالَ رَبُّ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ».

وینبغی الإلتفات إلی أن عبدة الأوثان کانوا یعتقدون أنّ لکل موجود فی هذا العالم ربّاً، وکانوا یعدّون العالم ترکیباً من نُظُم متفرقة، إلّاأنّ کلام موسی علیه السلام یشیر إلی أنّ هذا النظام الواحد المتحکم علی هذه المجموعة فی عالم الوجود دلیل علی أنّ له ربّاً واحداً ...

وجملة «إن كُنتُم مُّوقِنِينَ» لعلها إشارةً إلی أنّ موسی علیه السلام یرید أن یفهم فرعون ومن حوله- ولو تلویحاً- أنّه یعرف أنّ الهدف من هذا السؤال لیس إدراک الحقیقة ... لأنّه لو أراد إدراک الحقیقة والبحث عنها لکان استدلاله کافیاً .. لتصححوا نظرتکم نحو الکون.

إلّا أنّ فرعون عاد لمواصلة الاستهزاء والسخریة، واتبع طریقة المستکبرین القدیمة بغرور، و «قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ».

ومعلوم من هم الذین حول فرعون، فهم أشخاص من نسیجه وجماعة من أصحاب القوة والظلم والقهر والمال.

وکان الهدف من کلام فرعون أن لا یترک کلام موسی المنطقی یؤثر فی القلوب المظلمة لُاولئک الرهط ... فعدّه کلاماً بلا محتوی وغیر مفهوم.

إلّا أنّ موسی علیه السلام عاد مرّةً اخری إلی کلامه المنطقی دون أی خوف ولا- وهن ولا إیهام، فواصل کلامه و «قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۲۷

إنّ موسی علیه السلام بدأ فی المرحلة الاولی ب «الآیات الآفاقیة»، وفی المرحلة الثانیة أشار إلی «الآیات الأنفسیة»، إلّاأنّ فرعون تمادی فی حماقته، وتجاوز مرحلة الاستهزاء إلی اتهام موسی بالجنون، ف «قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ».

وذلک ما اعتاده الجبابرة والمستکبرون علی مدی التاریخ من نسبة الجنون إلی المصلحین الرّبانیین، إلّاأنّ هذه التهمة لم تؤثر فی روح موسی علیه السلام ومعنویاته العالیة، وواصل بیان آثار اللَّه فی عالم الإیجاد فی الآفاق والأنفس، مبیناً خط التوحید الأصیل ف «قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ».

فإذا کنت- یا فرعون- تحکم حکما ظاهریّاً فی أرض محدودة تدعی مصر، فإنّ حکومة ربّی الواقعیة تسع المشرق والمغرب وما بینهما جمیعاً، وآثاره تشرق فی وجوه الموجودات.

غیر أنّ هذا المنطق المتین الذی لا یتزعزع غاظ فرعون بشدة، فالتجأ إلی استعمال «حربة» یفزع إلیها المستکبرون عند الإندحار، فجابه موسی و «قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ».

إنّ فرعون یرید أن یسکت موسی بهذا المنطق الإرهابی، لأنّ مواصلة موسی علیه السلام بمثل هذه الکلمات ستکون سبباً فی إیقاظ الناس.

قَالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُکَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (۳۰) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۳۱) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (۳۲) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (۳۳) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (۳۴) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ (۳۵) قَالُوا أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (۳۶) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (۳۷)

رأينا فى الآيات المتقدمة أنّ فرعون يلجأ إلى التهديد بالسجن والإعدام، وهنا يقلب موسى عليه السلام صفحة جديدة، فعليه أن يسلك طريقةً اخرى يخذل فيها فرعون ويعجزه. عليه أن يلجأ إلى القوة أيضاً، القوة الإلهية التى تنبع من الإعجاز، فالتفت إلى فرعون متحدّياً و «قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ».

وهنا وجد فرعون نفسه فى طريق مغلق مسدود، لأنّ موسى عليه السلام أشار إلى خطّة جديدة ولفت انظار الحاضرين نحوه، إذ لو أراد فرعون أن لا يعتدّ بكلامه، لإعترض عليه الجميع.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۲۸

فاضطر فرعون إلى الإستجابة لاقتراح موسى عليه السلام و «قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصدِقِينَ». «فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ» «بأمر اللَّه».

ثم أظهر إعجازاً آخر حيث أدخل يده فى جيبه (أعلى الثوب) وأخرجها فإذا هى بيضاء منيرة: «وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ».

إنّ هاتين المعجزتين الكبيرتين، إحداهما كانت مظهر الخوف، والاخرى مظهر الأمل، فالاولى تناسب مقام الإنذار، والثانية للبشارة.

غير أنّ فرعون اضطرب لهذا المشهد المهول وغرق فى وحشة عميقة ولكى يحافظ على قدرته الشيطانية التى أحدق بها الخطر بظهور موسى عليه السلام، وكذلك من أجل أن يرفع من معنويات أصحابه والملأ من حوله فى توجيه معاجز موسى ولفت نظرهم عنها، فقد «قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ».

ذلك الإنسان الذى كان يدعوه مجنوناً إلى لحظات آنفة، وإذا هو الآن يعبر عنه بالعليم.

ومن أجل أن يعبّىء الملأ ويُثير حفيظتهم ضد موسى عليه السلام، قال لهم: «يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ».

والغريب فى الأمر أنّ فرعون الذى قال هذا الكلام هو الذى كان يقول من قبل: «أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ». والآن حيث يرى عرشه متزعزعاً ينسى مالكيته المطلقة لهذه الأرض، ويعدّها ملك الناس، فيقول لهم: أرضكم فى خطر.

يقول لمن حوله: «ماذا تأمرون؟!» إنّها استشارة عاجزة ومن موقف الضعف فحسب.

وبعد المشاورة فيما بينهم التفت الملأ من قوم فرعون إليه و «قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ» «۱». أى: أمهلهما وابعث رسلك إلى جميع المناطق والأمصار، «يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ».

وقالوا: لحسن الحظّ إنّ فى بلادنا العريضة سحرةً كثيرين، فلابدّ من جمع السحرة لإحباط سحر موسى عليه السلام.

---

(۱) «أرجه»: مشتقة من «الإرجاء» ومعناها التأخير وعدم الإستعجال فى القضاء.

«حاشرين»: مأخوذة من مادة «الحشر» ومعناه التعبئة والسوق لميدان الحرب وأمثال ذلك.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۲۹

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (۳۸) وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (۳۹) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (۴۰) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (۴۱) قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (۴۲)

اجتماع السحرة من كل مكان: فى هذه الآيات يُعرض مشهداً آخر من هذه القصة المثيرة، إذ تحرك المأمورون بحسب اقتراح أصحاب فرعون إلى مدن مصر لجمع السحرة والبحث عنهم، وكان الوعد المحدد: «فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ».

وبتعبير آخر: إنّهم هيأوهم من قبل لمثل هذا اليوم.

وطُلب من الناس الحضور فى هذا المشهد: «وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ».

وقيل للناس: إنّ الهدف من هذا الحضور والاجتماع هو أنّ السحرة إذا انتصروا فمعنى ذلك انتصار الآلهة وينبغى علينا اتباعهم: «لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ». فلابدّ من تهييج الساحة للمساعدة فى هزيمة عدو الآلهة إلى الأبد.

كل هـذا من جهة، ومن جهة اخرى كان السـحرة يحلمون بالجائزة من قبل فرعون: «فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ».

وكان فرعون قلقاً مضـطرب البال، لأنّه فى طريق مسدود، وكان مستعدّاً لأن يمنح السحرة أقصى الإمتيازات، لذلك فقد أجابهم بالرضا و «قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ».

قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (۴۳) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ وَ قَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (۴۴) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (۴۵) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (۴۶) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (۴۷) رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ (۴۸) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (۴۹) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (۵۰) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (۵۱)

حين اتفق السحرة مع فرعون ووعدهم بالأجر والقرب منه، وشدّ من عزمهم، فإنّهم

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۳۰

بـدأوا بتهيئـة المقـدمات ووفروا خلال ماسنحت لهم الفرصـة عصيّهم وحبـالهم، ويظهر أنّهم صـيّروها جوفاء وطلوهـا بمادة كيميائية كالزئبق- مثلًا- بحيث تتحرك وتلمع عند شـروق الشـمس عليها. وأخيراً كان اليوم الموعود والميقات المعلوم، وانثال الناس إلى ساحة العرض ليشهدوا المبارزة التاريخية: «قَالَ لَهُمْ مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ».

وأمّا السـحرة الغارقون بغرورهم، والذين بذلوا أقصـى جهودهم لانتصارهم فى هذا «الميدان»، فقد كانوا مسـتعدين ومؤمّلين لأن يغلبوا موسى عليه السلام: «فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغلِبُونَ» «۱».

وهنا- كما يبيّن القرآن فى الآية (۶۶) من سورة طه- تحركت العصىّ كأنّها الأفاعى والثعابين و «يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فتهللت أسارير وجوه الناس ووجه فرعون فرحاً، وأشـرق الأمل فى عينى فرعون وأتباعه، إلّاأنّ موسـى عليه السـلام لم يمهل الحاضرين ليسـتمر هـذا المشـهد ويـدوم هذا الفصل المثير، فتقدم: «فَأُلْقِيَ مُوسَى عَصَاهُ» فتحولت إلى ثعبان عظيم وبدأت بالتهام وسائل وأدوات السحرة بسرعة بالغة: «فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ» «۲».

وهنا فر جماعة من مكانهم وبقى آخرون يترقبون نهاية المشهد، وأفواه السحرة فاغرة من الدهشة ...

وتبـدّل كل شـىء، وثاب السـحرة إلى رشـدهم بعد أن كانوا- إلى تلك اللحظة- مع فرعون غارقين فى الشـيطنة، ولأنّهم كانوا عارفين بقضايا السحر ودقائقه، فإنّهم تيقنوا أنّ عصا موسى لم تكن سحراً، بل هى معجزة إلهية كبرى: «فَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سجِدِينَ».

واقترن هـذا العمـل العبادى- وهو السـجود- بالقول بلسانهم ف «قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ». ولئلّا يبقى مجال للإبهام والغموض والتردد، ولئلّا يفسر فرعون ذلك تفسيراً آخر فإنّهم قالوا: «رَبّ مُوسَى وَهرُونَ».

---

(۱) «الحبال»: جمع «حبل» على وزن (طبل) ومعناها واضح؛ و «العصى»: جمع العصا.

(۲) «تلقف»: مشـتق من «اللقف» على زنه (السـقف) ومعناه إمساك الشىء بسرعة، سواء كان ذلك باليد أم الفم، ومعلوم أنّ المراد هنا الإمساك بالفم والإبتلاع.

«يأفكون» مشتق من «الإفك» ومعناه الكذب، وهى إشارة إلى وسائلهم الباطلة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۳۱

أمّا فرعون، فحيث وجد نفسه مهزوماً معنوياً ويرى من جانب آخر أنّ وجوده وسـلطانه فى خطر، وخاصة أنّه كان يعرف أىّ تأثير عميق لإيمان السـحرة فى قلوب سائر الناس، ومن الممكن أن يسـجد جماعـة آخرون كما سـجد السـحرة، فقد تذرع بوسـيلة جديدة وابتكار ماكر، فالتفت إلى السحرة و «قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ».

لقد تربع على عرش الإستبداد سنين طوالًا، كان ترقّبه أن تكون قلوب الناس وأفكارهم مرهونةً به وبأمره، إلّاأنّ فرعون لم يقنع بهذا المقدار، بل أضاف جملتين اخريين ليُثبت موقعه كما يتصوّر أوّلًا، وليحول بين أفكار الناس اليقظين فيعيدهم غفلةً نياماً.

فاتّهم السحرة أوّلًا بأنّهم تآمروا مع موسى عليه السلام على أهل مصر جميعاً، فقال: «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ».

إلّا أنّنى لاـ أدعكم تنتصرون فى هذه المؤامرة، وسأخنق المؤامرة فى مهدها «فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ».

إلّا أنّ فرعون لم يحقق هدفه هنا، لأنّ السحرة قبل لحظة– والمؤمنين فى هذه اللحظة– قد غمر قلوبهم الإيمان، بحيث لم يهزّهم تهديد فرعون، فأجابوه بضرس قاطع واحبطوا خطته و «قَالُوا لَاضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ».

ثم أضافوا بأنّهم واجهوا النبى موسى عليه السلام من قبل بالتكذيب وأذنبوا كثيراً، ولكن مع ذلك ف «إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ».

إنّنا لا نستوحش اليوم من أى شيء، لا من تهديداتك، ولا من تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف ولا من الصلب على جذوع النخل.

وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (۵۲) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (۵۳) إِنَّ هؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (۵۴) وَ إِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (۵۵) وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (۵۶) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۵۷) وَ كُنُوزٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ (۵۸) كَذلِكَ وَ أَوْرَثْنَاهَا بَنِى إِسْرَائِيلَ (۵۹)

فى الآيات المتقدمة رأينا كيف أنّ موسى خرج منتصراً من تلك المواجهة وهذه الامور هيأت أرضية ملائمة لأن ينشر موسى عليه السلام دعوته بين الناس، ويتمّ الحجة عليهم.

ومرّت سنون طوال على هذا المنوال، وموسى عليه السلام يظهر المعاجز تلو المعاجز، ولمّا أتمّ موسى على أهل مصر الحجة البالغة، وامتازت صفوف المؤمنين من صفوف المنكرين، نزل الوحى على موسى أن يخرج بقومه من مصر، والآيات التالية تجسد هذا المشهد فتقول أوّلًا:

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۳۲

«وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ». وفعلًا امتثل موسى عليه السلام هذا الأمر، وعبأ بنى إسرائيل بعيداً عن أعين أعدائهم، وأمرهم بالتحرك، إلّاأنّ من البديهى أنّ حركة جماعة بهذا الشكل ليس هيناً يسيراً يمكن إخفاؤه لزمان طويل، فما كان أسرع أن رفع جواسيس فرعون هذا الخبر إليه، وكما يحدثنا القرآن عن ذلك أنّ فرعون أرسل رسله وأعوانه إلى المدن لجمع القوات: «فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى الْمَدَائِنِ حشِرِينَ».

ولتعبئة الناس– ضمناً– وتهيئة الأرضية لإثارتهم ضد موسى وقومه، أمر فرعون أن يُعلَن «إِنَّ هؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ».

فبناء على ذلك فنحن منتصرون عند مواجهتنا لهذه الفئة القليلة حتماً.

«الشرذمة»: فى الأصل تعنى القلة من الجماعة، كما تعنى ما تبقى من الشيء، ويطلق على اللبوس الممزق الخلق «شراذم»، فبناء على هذا يكون المعنى أنّ هؤلاء «أى موسى وقومه» بالإضافة إلى أنّهم قليلون فهم متفرقون، فكأنّ فرعون، بهذا التعبير أراد أن يجسد عدم انسجام بنى إسرائيل من حيث إعداد الجيش فيهم ...

ثم تضيف الآية الاخرى حاكية عن لسان فرعون: «وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ». فمن يسقى مزارعنا غداً، ومن يخدم فى البيوت والقصور غيرهم؟!

ثم إنّا من مؤامرتهم يجب أن نكون على حذر سواء أقاموا أم رحلوا: «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حذِرُونَ» ومستعدون جميعاً لمواجهتهم.

ثم يذكر القرآن النتيجة الإجمالية لعاقبة فرعون وقومه وزوال حكومته، وقيام حكومة بنى إسرائيل، فيقول: «فَأَخْرَجْنهُم مِّن جَنتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ».

أجل، «كَذلِكَ وَأَوْرَثْنها بَنِى إِسْرَاءِيلَ».

فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيم (٦٣) وَ أَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَ أَنْجَيْنَا مُوسَى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٤٣٣

عاقبة فرعون وأتباعه الوخيمة: فى هذه الآيات يبرز المشهد الأخير من قصة موسى وفرعون، وهو كيفية هلاك فرعون وقومه، ونجاة بنى إسرائيل وانتصارهم، وكما قرأنا فى الآيات المتقدمة فإنّ فرعون أرسل المدائن حاشرين، وهيأ مقداراً كافياً من «القوّة» والجيش.

تحركوا فى جوف الليل ليدركوهم بسرعة، فبلغوهم صباحاً كما تقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ». فأمامنا بحر خضم متلاطم بالأمواج، ومن ورائنا بحر من الجيوش المتعطشة للدماء بتجهيزاتها الكاملة ... هؤلاء الغاضبون علينا.

وهنا مرّت لحظات عسيرة على بنى إسرائيل ... لحظات مُرّة لا يمكن وصف مرارتها ... ولعل جماعة منهم تزلزل إيمانهم وفقدوا معنوياتهم وروحياتهم، إلّاأنّ موسى عليه السلام كان مطمئناً هادىء البال، وكان يعرف أنّ وعد اللَّه فى هلاك فرعون وقومه ونجاة بنى إسرائيل لا يتخلف أبداً ولن يخلف اللَّه وعده رسله ...

لذلك التفت إلى بنى إسرائيل الفزعين بكمال الإطمئنان والثقة و «قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ».

وفى هذه الحال التى قد يكون البعض سمعوا كلامه دون أن يصدقوه، وكانوا ينتظرون آخر لحظات حياتهم، صدر أمر اللَّه كما يقول القرآن: «فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ...». فامتثل موسى عليه السلام أمر ربّه فضرب البحر، فإذا أمامه مشهد رائع عجيب، تهللت له أسارير وجوه بنى إسرائيل، إذا انشقّ البحر «فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيم».

«انفلق»: مأخوذ من «الفَلَق» ومعناه الإنشقاق؛ و «فَرَق» من مادة «فرْق» على زنة «حلق» ومعناه الإنفصال.

وبتعبير آخر، كما يقول الراغب فى مفرداته: إنّ الفرق بين (فلق) و (فرق) هو أنّ الأوّل يشير إلى الإنشقاق (أو الإنشطار) والثانى يشير إلى الإنفصال.

«الطّود»: معناه الجبل العظيم، ووصف الطود بالعظمة فى الآية تأكيد آخر على معناه.

إلّا أنّ فرعون وأتباعه بالرغم من مشاهدتهم هذه المعجزة الكبرى الواضحة لم يذعنوا للحق، ولم ينزلوا عن مركب غرورهم، فاتبعوا موسى ورهطه ليبلغوا مصيرهم المحتوم، كما يقول القرآن فى هذا الشأن: «وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْأَخَرِينَ».

وهكذا ورد فرعون وقومه البحر أيضاً.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٤٣٤

وتقول الآية التالية: «وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ».

وحين خرج آخر من كان من بنى إسرائيل من البحر، ودخل آخر من كان من أتباع فرعون البحر، صدر أمر اللَّه فعادت الأمواج إلى حالتها الاولى.

ويبيّن القرآن هذه الحالة بعبارة موجزة متينة فيقول: «ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخَرِينَ».

وهكذا إنتهى كل شىء فى لحظة واحدة ... فالأرقاء أصبحوا أحراراً، وهلك الجبابرة، وانتهت تلك الحضارة المشيدة على دماء المستضعفين، وورث الحكومة والملك المستضعفون بعدهم.

أجل، «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ». فكأنّ فى أعينهم عمىً، وفى آذانهم وقراً، وعلى قلوب أقفالًا.

فحيث لا يؤمن فرعون وقومه مع ما رأوا من المشاهد العجيبة، فلا تعجب إذاً ألّا يؤمن بك المشركون- يا محمّد- ولا تحزن عليهم

لعدم إيمانهم.

والتعبير ب «أكثرهم» إشارة إلى أنّ جماعة من قوم فرعون آمنوا بموسى والتحقوا بأصحابه.

أمّا آخر آية من هذه الآيات فتشير إلى قدرة اللَّه ورحمته المطلقة واللامتناهية، فتقول: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

فمن عزّته أنّه متى شاء أن يهلك الأمم المسرفة الباغية أصدر أمره فأهلكها، فيكفى أن يهلكها بما هو سبب حياتها، كما أهلك فرعون وقومه بالنيل الذى كان أساس حياتهم وثروتهم وقدرتهم، فإذا هو يقبرهم فيه.

ومن رحمته أنّه لا يعجل فى الأمر أبداً، بل يمهل سنين طوالًا، ويرسل معاجزه إتماماً للحجة، ومن رحمته أن يخلص هؤلاء المستعبدين من قبضة الجبابرة الظالمين.

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (۶۹) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (۷۰) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (۷۱) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (۷۲) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (۷۳) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (۷۴) قَالَ أَ فَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (۷۵) أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (۷۶) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (۷۷) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (۷۸) وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِ (۷۹) وَ إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (۸۰) وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (۸۱) وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (۸۲)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۳۵

تعقّب هذه الآيات على قصة موسى وفرعون المليئة بالدروس لتبيّن قصة إبراهيم ومواجهاته المشركين، وتبدأ هذه الآيات بمحاورة إبراهيم لعمه آزر فتقول: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرهِيمَ».

ومن بين جميع الأخبار المتعلقة بهذا النبيّ العظيم يركّز القرآن الكريم على هذا القسم: «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ».

فأجابوه مباشرةً: «قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عكِفِينَ». وهذا التعبير يدلّ على أنّهم يحسّوا بالخجل من عملهم هذا، بل يفتخرون به، إذا كان كافياً أن يجيبوه: نعبد أصناماً، إلّاأنّهم أضافوا هذه العبارة: «فَنَظَلُّ لَهَا عكِفِينَ».

إنّ إبراهيم لما سمع كلامهم رشقهم بنبال الإشكال والإعتراض بشدّة، وقمعهم بجملتين حاسمتين جعلهم فى طريق مغلق، ف «قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ».

إنّ أقلّ ما ينبغى توفره فى المعبود هو أن يسمع نداء عابده، وأن ينصره فى البلاء، أو يضره عند مخالفة أمره ... إلّاأنّ هذه الأصنام ليس فيها ما يدل على أنّ لها أقل إحساس أو شعور أو أدنى تأثير فى عواقب الناس.

إلّا أنّ عبدة الأصنام الجهلة المتعصبين واجهوا سؤال إبراهيم بجوابهم القديم الذى يكررونه دائماً، ف «قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ».

وهذا الجواب الذى يكشف عن تقليدهم الأعمى لأسلافهم الجهلة هو الجواب الوحيد الذى استطاعوا أن يردّوا به على إبراهيم عليه السلام، وهو جواب دليل بطلانه كامن فيه.

فالتفت إبراهيم مُوبّخاً لهم ومبيناً موقفهُ منهم و «قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لّى إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ».

أجل ... إنّهم جميعاً أعدائى وأنا معاديهم، ولا أسالمهم أبداً ...

ثم يصف إبراهيم الخليل ربّ العالمين ويذكر نعمه المعنوية والمادية، ويقايسها بالأصنام التى لا تسمع الدعاء ولا تنفع ولا تضرّ، ليتّضح الأمر جليّاً ...

فيبدأ بذكر نعمة الخلق والهداية فيقول: «الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۳۶

وبعد بيان أولى مراحل الربوبية، وهى الهداية بعد الخلق، يذكر إبراهيم الخليل عليه السلام النعم المادية فيقول: «وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ».

ولست مشمولًا بنعمة فى حال الصحة فقط، بل فى كل حال، «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ». ومع أنّ المرض أيضاً قد يكون من اللَّه، إلّاأنّ إبراهيم نسبه إلى نفسه رعاية للأدب فى الكلام ...

ثم يتجاوز مرحلة الحياة الدنيا إلى مرحلة أوسع منها ... إلى الحياة الدائمة فى الدار الآخرة، فيقول: «وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ».

وحين أردُ عرصات يوم القيامة اعلقّ حبل رجائى على كرمه: «وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيَتِى يَوْمَ الدّينِ».

وممّا لا شك فيه أنّ الأنبياء معصومون من الـذنب، وليس عليهم وزر كى يغفر لهم ... إلّاأنّه- كما قلنا سابقاً- قـد تعـدّ حسـنات الأبرار سيئات المقربين أحياناً، وقد يستغفرون أحياناً من عمل صالح لأنّهم تركوا خيراً منه ... فيقال عندئذ فى حق أحدهم: ترك الأولى.

فإبراهيم عليه السلام لا يعوّل على أعماله الصالحة، فهى لا شىء بإزاء كرم اللَّه، ولا تقاس بنعم اللَّه المتواترة، بل يعوّل على لطف اللَّه فحسب، وهذه هى آخر مرحلة من مراحل الإنقطاع إلى اللَّه ...

رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً وَ أَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَ اجْعَل لِى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ (٨٤) وَ اجْعَلْنِى مِنْ وَرَثَهِٔ جَنَّهِٔ النَّعِيمِ (٨٥) وَ اغْفِرْ لِأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨۶) وَ لَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧)

دعاء إبراهيم عليه السلام: من هنا تبدأ أدعيـة إبراهيم الخليل وسؤالاته من اللَّه، فكأنّه بعـد أن دعا قومه الضالين نحو اللَّه، يتجه بوجهه نحو اللَّه ويعرض عنهم، فأوّل ما يطلبه إبراهيم من ساحته المقدسة هو «رَبّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ».

إنّ إبراهيم عليه السلام يطلب من اللَّه قبل كل شىء المعرفـة العميقة الصـحيحة المقرونة بالحاكمية، لأنّ أى منهج لا يتحقق دون هذا الأساس.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴٣٧

وبعـد هـذا الطلب يسأل من اللَّه إلحاقه بالصالحين، وهو إشارة إلى الجوانب العمليـة، أو كما يصـطلح عليها ب «الحكمـة العمليـة» فى مقابل الطلب السابق وهو «الحكمة النظرية» ...

وبما أنّه ليس للحكمـة حـد معين، ولا لصـلاح الإنسان حـدّ، فهو يطلب ذلك ليبلغ المراتب العليا من العلم والعمل يوماً بعد يوم، حتى وهو فى موقع النبوة، وأنّه من أولى العزم .. لا يكتفى بهذه العناوين.

وبعـد هـذين الطلبين يطلب موضوعاً مهماً آخر بهذه العبارة: «وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْأَخِرِينَ». أى: اجعلنى بحال تذكرنى الأجيال الآتية بخير.

فاستجاب اللَّه دعاء إبراهيم كما يقول سبحانه فى الآية (۵٠) من سورة مريم: «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا».

ثم ينظر إبراهيم إلى أفق أبعد من أفق الدنيا، ويتوجه إلى الدار الآخرة، فيدعو بدعاء رابع فيقول: «وَاجْعَلْنِى مِن وَرَثَهِٔ جَنَّهِٔ النَّعِيمِ».

«جنهٔ النعيم» التى تتماوج فيها النعم المعنوية والمادية، النعم التى لا زوال لها ولا اضمحلال ... النعم التى لا يمكن أن نتصورها.

إنّ التعبير بالإرث فى شأن الجنـة إمّـا لأنّ معنى الإرث الحصول على الشـىء دون مشـقهٔ وعناء، أو أنّ ذلك- طبقاً لما ورد فى بعض الروايات- لأنّ كل إنسان له بيت فى الجنة وآخر فى النار، فإذا دخل النار ورث الآخرون بيته فى الجنة.

وفى خـامس أدعيته يتوجه نظره إلى عمّه الضـالّ، وكمـا وعـده أنّه سيسـتغفر له، فـإنّه يقول فى هـذا الـدعاء: «وَاغْفِرْ لِأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالّينَ».

وأخيراً فإنّ دعاءه السادس من ربّه فى شأن يوم التغابن، يوم القيامة، بهذه الصورة: «وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ». «تخزنى»:

مأخوذ من مادة «خزى» على زنهٔ (حزب)، وكما يقول الراغب فى مفرداته، معناه الذل والإنكسار الروحى الذى يظهر على وجه الإنسان من الحياء المفرط، أو من جههٔ الآخرين حين يحرجونه ويخجلونه.

وهذا التعبير من إبراهيم، بالإضافة إلى أنّه درس للآخرين، هو دليل على منتهى الإحساس بالمسؤولية والإعتماد على لطف اللَّه العظيم.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴٣٨

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَ لَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَ الْغَاوُونَ (٩٤) وَ جُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَ هُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩۶) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَ مَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَ لَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠۴)

اشير فى آخر آيـة من البحث السـابق إلى يوم القيامـة ومسألـة المعـاد، أمّا فى هـذه الآيات فنلحظ تصوير يوم القيامـة ببيان جامع، كما نلاحظ فيها أهم المتاع «فى تلك السوق»، وعاقبـة المؤمنين وعاقبـة الكافرين والضالين وجنود إبليس، فأوّل ما تبـدأ به هذه الآيات هو: «يَوْمَ لَايَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ».

إنّ هاتين الدعامتين المهمتين فى الحياة الدنيا «المال والبنون» ليس فيهما أدنى نفع لصاحبهما يوم القيامة.

وبـديهى أنّ المراد من المـال والبنين هنـا ليس هـو مـا يكـون- من المـال والبنين- فى مرضـاة اللَّه، بـل المراد منه الإسـتناد إلى الامـور الماديّة، فالمراد إذاً هو أنّ هذه الدعامات المادية لا تحلّ معضلًا فى ذلك اليوم.

ثم يضيف القرآن فى ختام الآية، على سبيل الإستثناء: «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

وياله من تعبير رائع جامع، تعبير يتجسـد فيه الإيمان والنيـة الخالصة، كما يحتوى على كل ما يكون من عمل صالح، ولم لا يكون لمثل هذا القلب من ثمر سوى العمل الصالح.

ثم يبيّن القرآن الجنة والنار بالنحو التالى فيقول: «وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ». أى الضالين.

وهـذا الأـمر قبـل ورود كـل من أهـل الجنـة والنـار إليهما، فكل طائفـة ترى مكانها من قريب .. فيفرح المؤمنون ويستولى الرعب على الغاوين، وهذا أوّل جزائهما هناك.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۳۹

ثم يتحـدث القرآن عن ملامـة هؤلاء الضالين، وما يقال لهم من كلمات التوبيـخ أو العتاب، فيقول: «وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ». فهل يستطيعون معونتكم فى هذه الشدة التى أنتم فيها، أو أن يطلبوا منكم أو من غيركم النصر والمعونة، «هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ» «١».

إلّا أنّهم لا يملكون جواباً لهذا السؤال، كما لا يتوقع أحد منهم ذلك ... «فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ».

كما يقول بعض المفسرين: إنّ كلًا منهم سيُلقى على الآخر يوم القيامة: «وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ».

وفى الحقيقة أنّ هذه الفرق الثلاث، الأصـنام والعابدين لها وجنود إبليس الدالين على هذا الإنحراف، يساقون جميعاً إلى النار ... ولكن بهذه الكيفية ... وهى أن تلقى الفرق فرقةً بعد أخرى فى النار.

إلّـا أنّ الكلاـم لاـ يقف عنـد هـذا الحـدّ، بل يقع النزاع والجـدال بين هـذه الفرق أو الطوائف الثلاث، فيجسم القرآن مخاصـمتهم هنا، فيقول: «قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ».

أجـل ... إنّ العبـدة الضـالين الغـاوين يقسـمون بـاللَّه فيقولـون: «تَـاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَـللٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوّيكُم بِرَبّ الْعَـالَمِينَ وَمَـا أَضَـلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ».

المجرمون الذين كانوا سادة مجتمعاتنا ورؤساءنا وكبراءنا، فأضلونا حفظاً لمنافعهم، وجرّونا إلى طريق الشقوة والغواية.

«فَمَا لَنَا مِن شفِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ». والخلاصة أنّ الأصنام لا تشفع لنا كما كنّا نتصور ذلك فى الدنيا، ولا يتأتى لأى صديق أن يعيننا هنالك.

إلّا أنّهم ما أسـرع أن يلتفتوا إلى واقعهم المرّ، إذ لا جـدوى هناك للحسـرة ولا مجال للعمل فى تلك الـدار لجبران ما فات فى دنياهم،

فيتمنون العودة إلى دار الدنيا ... ويقولون: «فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

وأخيراً بعد الإنتهاء من هذا القسم من قصّة إبراهيم، يكرر اللَّه آيتين مثيرتين بمثابة النتيجة لعباده جميعاً، وهاتان الآيتان وردتا فى ختام قصة موسى وفرعون، كما وردتا فى

---

(١) قد يكون المراد من «ينتصرون» هو أن يطلبوا العون والنصر لأنفسهم أو لغيرهم ... أو مجموعهما، لأنّنا سنلاحظ فى الآيات المقبلة أنّ العَبدَةَ ومعبوديهم يساقون إلى النار.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۴۰

قصص الأنبياء الآخرين من السورة ذاتها فيقول: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ». وتكرار هاتين الآيتين، هو للتسرية عن قلب النبى صلى الله عليه و آله وتسليته ومن معه من الصحابة القلة وكذلك المؤمنين فى كل عصر ومصر لئلا يستوحشوا فى الطريق من قلة أهله وكثرة الأعداء ... وليطمئنوا إلى رحمة اللَّه وعزته، كما أنّ هذا التكرار بنفسه تهديد للغاوين الضالين، وإشارة إلى أنّه لو وجدوا الفرصة فى حياتهم وأمهلهم اللَّه إمهالًا فليس ذلك عن ضعف منه سبحانه، بل هو من رحمته وكرمه.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لَا تَتَّقُونَ (١٠۶) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (١٠٨) وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَ مَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَ مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١۴) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١۵)

يتحدث القرآن الكريم بعد الإنتهاء ممّا جرى لإبراهيم وقومه الضالين عن قوم نوح عليه السلام حديثاً للعبرة والإتعاظ ... فيذكر عنادهم وشدّتهم فى موقفهم من نوح عليه السلام وعدم حيائهم وعاقبتهم الأليمة ضمن عدّة آيات ... فيقول أوّلًا: «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ». وواضح أنّ قوم نوح إنّما كذبوا نوحاً فحسب ... ولكن لما كانت دعوة المرسلين واحدة من حيث الأصول، فقد عدّ تكذيب نوح تكذيباً للمرسلين جميعاً.

ثم يشير القرآن الكريم إلى هذا الجانب من حياة نوح عليه السلام، الذى سبق أن أشار إليه فى كلامه حول إبراهيم وموسى عليهما السلام، فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ».

والتعبير بكلمة «أخ» تعبير يبيّن منتهى المحبة والعلاقة الحميمة على أساس المساواة، وهو يلهم جميع القادة والأدلاء على طريق الحق أن يراعوا فى دعواتهم منتهى المحبة المقرونة بالاجتناب عن طلب التفوق لجذب النفوس نحو مذهب الحق، ولا يستثقله الناس.

وبعد دعوة نوح قومه إلى التقوى التى هى أساس كل أنواع الهداية والنجاة، يضيف

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۴۱

القرآن فيقول على لسان نوح وهو يخاطب قومه: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ» فإنّ إطاعتى من إطاعة اللَّه سبحانه.

ومرّة اخرى يتمسك نوح عليه السلام بحقانية دعوته، ويأتى بدليل آخر يقطع به لسان المتذرعين بالحجج الواهية، فيقول: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ».

ثم يذكر القرآن ذلك التعبير نفسه الذى جاء على لسان نوح، بعد التأكيد على رسالته وأمانته، إذ يقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ».

إلّا أنّ المشركين الحمقى، حين رأوا سبل ما تذرّعوا به من الحجج الواهية موصدة، تمسكوا بهذه المسألة، ف «قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ».

وصحيح أنّهم كانوا صادقين ومصيبين فى أنّ الزعيم يعرف عن طريق أتباعه، إلّاأنّ خطأهم الكبير هو عدم معرفتهم مفهوم الشخصية

ومعيارها ... إذ كانوا يرون معيار القيم فى المال والثروة والألبسة والبيوت والمراكب الغالية والجميلة، وكانوا غافلين عن النقاء والصفاء والتقوى والطهارة وطلب الحق، والصفات العليا للإنسانية الموجودة فى الطبقات الفقيرة والقلّة من الأشراف.

إلّا أنّ نوحاً عليه السلام جابههم وردّهم بتعبير متين، وجرّدهم من سلاحهم و «قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

فما مضى منهم مضى، والمهم هو أنّهم اليوم استجابوا لدعوة النبى، وقالوا له: لبيك، وتوجهوا لبناء شخصياتهم، ومكنوا الحق من أن ينفذ إلى قلوبهم.

وإذا كانوا فى ما مضى من الزمن قد عملوا صالحاً أو طالحاً، فلست محاسباً ولا ـ مسؤولًا عنهم آنئذ: «إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ».

وإنّما علىّ أن أبسط جناحى لجميع طلّاب الحق: «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ».

وهذه العبارة جواب ضمنى لطلب هؤلاء المثرين الأغنياء المغرورين، الذين كانوا يطلبون من نوح أن يطرد طائفة الفقراء من حوله.

ولكن المسؤولية الملقاة على عاتقى هى أن أنذر الناس فحسب «إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

فمن سمع إنذارى وعاد إلى الصراط المستقيم بعد ضلاله، فهو من أتباعى كائناً من كان، وفى أى مستوى طبقى ومقام اجتماعى أو مادى.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۴٢

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١۶) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِى وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِى وَ مَنْ مَعِىَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)

نجاة نوح وغرق المشركين: كان ردّ فعل هؤلاء القوم الضالين فى مواجهة نبيّهم نوح عليه السلام، هو منهج المستكبرين على امتداد التاريخ وهو الإعتماد على القوّة والتهديد بالموت والفناء: «قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ».

«الرجم»: مأخوذ من «رجام» على وزن (كتاب) وهو جمع «رجمة» على وزن (لقمة) ومعناها القطعة من الحجر التى توضع على القبر، أو ما يطوف حوله عبدة الأوثان، كما يعنى الرجم القذف بالحجارة حتى القتل، كما يأتى أحياناً بمعنى القتل بأىّ شكل كان، لأنّ القتل كان بالحجر سابقاً.

والتعبير ب «من المرجومين» يدلّ على أنّ الرجم بالحجارة بينهم كان جارياً فى شأن المخالفين.

ونوح شكا إلى ربّه أخيراً، وضمن بيان حاله، سأل ربّه أن ينجيّه من قبضة الظالمين، وأن يُبعده عنهم ... إذ: «قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ».

ثم يلتفت إلى ربّه فيقول: والآن حيث لم يبق طريق لهداية هؤلاء القوم فاقض بيننا وأفصل بينى وبينهم: «فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا».

«الفتح»: معناه واضح، وهو ما يقابل الغلق ويضاده، وله استعمالان: فتارة يستعمل فى القضايا المادية كفتح الباب مثلًا، وتارة يستعمل فى القضايا المعنوية كفتح الهمّ ورفع الغم.

ثم يضيف فيقول: «وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

وهنا يعبر القرآن عن إدراك رحمة اللّه نوحاً، وإهلاك المكذبين بعاقبة وخيمة مفجعة، إذ يقول: «فَأَنجَيْنَهُ وَمَن مَّعَهُ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ». أى الملىء بالناس وانواع الحيوانات: «ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ». «المشحون»: مأخوذ من مادة «شحن» على وزن «صحن» ومعناه الملء، وقد يستعمل بمعنى التجهيز؛ و «الشحناء» تطلق على العداوة التى تستوعب جميع

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۴٣

جوانب الإنسان، والمراد من «المشحون» هنا هو أنّ ذلك الفلك [/ أى السفينة] كان مملوءاً من البشر وجميع الوسائل ... ولم يكن فيه

أى نقص ... أى إنّ اللَّه بعد ما جهز السفينة وأعدّها للحركة، أرسل الطوفان لئلا يبتلى نوح وجميع من فى الفلك بأىّ نوع من أنواع الأذى ... وهذا بنفسه إحدى نعم اللَّه عليهم.

وفى ختام هذه القصة القصيرة، يقول القرآن ما قاله فى ختام قصة موسى وإبراهيم عليهما السلام، فيكرر قوله: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً». أى فى ما جرى لنوح عليه السلام ودعوته المستمرة وصبره ونجاته وغرق مخالفيه: «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ».

ولهذا فلا تحزن يا رسول اللَّه من إعراض المشركين وعنادهم، واستقم كما امرت ... فإنّ عاقبتك وعاقبة أصحابك عاقبة نوح وأصحابه، وعاقبة الضالين من قومك كعاقبة الضالين من قوم نوح.

«و» اعلم «إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

فرحمته تقتضى أن يمهلهم ويتمّ عليهم الحجة بإعطاء الفرصة الكافية، وعزته تستلزم أن ينصرك عليهم، وتكون عاقبة أمرهم خسراً.

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لَا تَتَّقُونَ (١٢۴) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢۵) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (١٢۶) وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَ إِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (١٣١) وَ اتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَ بَنِينَ (١٣٣) وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (١٣۴) إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣۵)

جنايات عاد وأعمالهم العدوانية: والآن يأتى الكلام عن «عاد» قوم «هود» إذ يعرض القرآن جانباً من حياتهم وعاقبتهم، وما فيها من دروس العبر، ضمن ثمانى عشرة آية من آياته. فيقول القرآن: «كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ».

بالرغم من أنّهم كذبوا هوداً فحسب، إلّاأنّه لمّا كانت دعوة هود هى دعوة الأنبياء جميعاً، فكأنّهم كذبوا الأنبياء جميعاً.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۴۴

وبعد ذكر هذا الإجمال يقع التفصيل، فيتحدث القرآن عنهم فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ».

لقد دعاهم إلى التوحيد والتقوى فى منتهى الشفقة والعطف والحرص عليهم، لذلك عبّر عنه القرآن بكلمة «أخوهم».

ثم أضاف قائلًا: «إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ». وما سبق من حياتى بين ظهرانيكم يدل على هذه الحقيقة، فإنّى لم أخنكم أبداً ولم تجدوا منّى غير الصدق والحق.

ثم يضيف مؤكّداً: لما كنتم تعرفوننى جيداً «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ». لأنّ إطاعتكم إيّاى إطاعة للَّهسبحانه ... ولا تتصوروا بأنّى أدعوكم لأنتفع من وراء دعوتى إيّاكم فى حياتى الدنيا وأنال المال والجاه، فلست كذلك، «وَمَا أَسَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ». فجميع النعم والبركات من عنده سبحانه، وإذا أردت شيئاً طلبته منه، فهو ربّ العالمين جميعاً.

والقرآن الكريم يستند فى هذا القسم من سيرة «هود» فى قومه إلى أربعة امور على الترتيب:

فالأمر الأوّل: هو محتوى دعوة «هود» الذى يدور حول توحيد اللَّه وتقواه، وقرأنا ذلك بجلاء فى ما مضى من الآى.

أمّا الامور الثلاثة الأخر فيذكرها القرآن حاكياً عن لسان هود فى ثوب الإستفهام الإنكارى، فيقول: «أَتَبْنُونَ بِكُلّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ».

«الريع»: فى الأصل يطلق على المكان المرتفع؛ و «تعبثون»: مأخوذ من «العبث» ومعناه العمل بلا هدف صحيح، ومع ملاحظة كلمة «آية» التى تدل على العلامة، يتّضح معنى العبارة بجلاء، وهو أنّ هؤلاء القوم المترين، كانوا يبنون على قمم الجبال والمرتفعات الاخر مبانى عالية للظهور والتفاخر على الآخرين، وهذه المبانى (كالأبراج وما شاكلها) لم يكن من ورائها أى هدف سوى لفت أنظار الآخرين.

وأمّا الأمر الثالث الذى ذكره القرآن حاكياً على لسان هود منتقداً به قومه، فهو قوله: «وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ».

«المصانع»: جمع «مصنع» ومعناه المكان أو البناء المجلل المحكم، والنبى هود لا يعترض عليهم لأنّ لديهم هذه البنايات المريحة الملائمة، بل يريد أن يقول لهم: إنّكم غارقون فى أمواج

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۴۵

الدنيا، ومنهمكون بعبادة الزينة والجمال والعمل فى القصور حتى نسيتم الدار الآخرة.

فى تفسير مجمع البيان روى عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «إنّ لكل بناء يبنى وبال على صاحبه يوم القيامة، إلّاما لابدّ منه».

ثم ينتقد النبى (هود) قومه على قسوتهم وبطشهم عند النزاع والجدال فيقول: «وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ».

يدل هذه الآيات الثلاث أعلاه على أنّ عشق الدنيا كان قد هيمن عليهم، وأغفلهم عن ذكر اللَّه حتى ادعوا الألوهية.

والقسم الثالث من حديث هود مما بيّنه لقومه، هو ذكر نعم اللَّه على عباده ليحرك فيهم- عن هذا الطريق- الإحساس بالشكر لعلهم يرجعون نحو اللَّه.

وفى هذا الصدد يتبع النبى هود أسلوبى الإجمال والتفصيل، وهما مؤثران فى كثير من الأبحاث، فيلتفت نحوهم أوّلًا فيقول:

«وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ» (۱).

وبعد هذا التعبير المجمل يذكر تفصيل نعم اللَّه عليهم، فيقول: «أَمَدَّكُم بِأَنْعمٍ وَبَنِينَ».

ثم يضيف بعد ذلك: «وَجَنتٍ وَعُيُونٍ».

وهكذا فقد وفر اللَّه لكم سبل الحياة جميعاً، من حيث الأبناء أو القوّة الإنسانية، والزراعة والتدجين ووسائل الحمل والنقل.

وأخيراً، فإنّ هوداً فى آخر مقطع من حديثه مع قومه ينذرهم ويهددهم بسوء الحساب وعقاب اللَّه لهم، فيقول: «إِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

وعادة- يستعمل لفظ (اليوم العظيم) فى القرآن، ويراد منه يوم القيامة العظيم من كل وجه، إلّاأنّه قد يستعمل فى القرآن فى اليوم الصعب الموحش المؤلم على الامم. فبناء على هذا قد يكون التعبير ب «يوم عظيم» فى الآية محل البحث، إشارة إلى اليوم الذى ابتلى به المعاندون من قوم هود (عاد) بالعذاب الأليم.

كما يمكن أن يكون إشارة إلى يوم القيامة وعذابه، أو إلى العذابين معاً، فيوم الاعصار يوم عظيم، ويوم القيامة يوم عظيم أيضاً.

---

(۱) «أمدّ»: مأخوذ من «الإمداد»، ويطلق فى الأصل على أمور توضع بعضها بعد بعض بشكل منظم، وحيث إنّ اللَّه يرسل نعمه بشكل منظم إلى عباده استعملت هذه الكلمة هنا أيضاً.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۴۶

لا تتعب نفسك فى نصحنا: رأينا فى الآيات المتقدمة أحاديث النبى هود المحترق القلب شفقةً على قومه المعاندين «عاد» وما حملته هذه الأحاديث من معان غزيرة سامية، والآن ينبغى أن نعرف جواب قومه الجارح وغير المنطقى ولا المعقول، يقول القرآن فى هذا الصدد: «قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مّنَ الْوَاعِظِينَ». فلن يؤثر ذلك فينا، فلا تتعب نفسك.

أمّا اعتراضك علينا بهذه الامور فلا محل له من الاعراب: «إِنْ هذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ».

وليس الأمر كما تقول، فإنّه لا شىء بعد الموت، «وَمَا نَحْنُ بِمُعَذّبِينَ»، لا فى هذا العالم، ولا فى العالم الآخر.

«الخُلُق»:- بضم الخاء واللام- معناه العادة والسلوك والأخلاق لأنّ هذه الكلمة جاءت بصيغة الإفراد بمعنى الطبع والسجيّة والعادة الأخلاقية، وهى هنا إشارة إلى الأعمال التى كانت تصدر منهم كعبادة الأصنام، وبناء القصور العالية الجميلة، وحب الذات، والتفاخر عن طريق تشييد الأبراج على النقاط المرتفعة، وكذلك البطش عند الإنتقام أو الجزاء، أى إنّ ما نقوم به من أعمال هو ما كان يقوم به السلف فلا مجال للاعتراض والانتقاد.

ويبيّن القرآن عاقبة قوم هود الوبيلة فيقول: «فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنهُمْ».

وفى ختام هذه الأحداث يذكر القرآن تلكما الجملتين المعبّرتين، اللتين تكررتا فى نهاية قصص نوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام،

فيقول: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً» على قدرة اللّه، واستقامة الأنبياء وعاقبة المستكبرين السيئة، ولكن مع ذلك «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

فيمهل إمهالًا كافياً، ويمنح الفرصة، ويبيّن الدلائل الواضحة للمضلين ليهتدوا، إلّاأنّه عند المجازاة والعقاب، وبعد إتمام الحجة يأخذ أخذاً عسيراً لا مفرّ لأحد منه أبداً.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۴٧

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١۴١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَ لَا تَتَّقُونَ (١۴٢) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١۴٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (١۴۴) وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١۴۵) أَ تُتْرَكُونَ فِى مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١۴۶) فِى جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (١۴٧) وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١۴٨) وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ (١۴٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (١۵٠) وَ لَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١۵١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ (١۵٢)

القسم الخامس من قصص الأنبياء فى هذه السورة، هو قصة «ثمود» الموجزة القصيرة، ونبيّهم «صالح» الذين كانوا يقطنون فى «وادى القرى» بين المدينة والشام، وكانت حياتهم مترفة مرفهة.

وبداية القصة هذه مشابهة لبداية قصة عاد (قوم هود) وبداية قصة نوح وقومه، وهى تكشف كيف يتكرر التاريخ، فتقول:

«كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ».

وبعد ذكر هذا الإجمال يفصّل القرآن ما كان بين صلاح وقومه، فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ».

ثم يقول لهم معرفاً نفسه: «إِنّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» وسوابقى معكم شاهد مبين على هذا الأمر «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ». إذ لا أريد إلّارضا اللّه والخير والسعادة لكم.

ولذلك فأنا لا ـ أطلب عوضاً منكم فى تبليغى إيّاكم، «وَمَا أَسَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبّ الْعَالَمِينَ»، فأنا أدعوكم له، وأرجو الثواب منه سبحانه.

ثم يضع «صالح» اصبعه على نقاط حساسة من حياتهم، فيتناولها بالنقد ويحاكمهم محاكمة وجدانية، فيقول: «أَتُتْرَكُونَ فِى مَا ههُنَا ءَامِنِينَ».

وتتصورون أنّ هذه الحياة المادية التى تستغفل الإنسان دائمة له.

وبالأسلوب المتين، اسلوب الإجمال والتفصيل، يشرح النبى صالح لقومه تلك الجملة المغلقة والمجملة بقوله: وتحسبون أنّكم مخلّدون «فِى جَنتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ» «١».

---

(١) «الطلع»: مأخوذ من مادة «الطلوع» ويستعمل فى ما يكون منه الرطب بعدئذ، وقد يستعمل الطلع فى الثمرة الاولى للنخل؛ و «الهضيم»: من مادة «هضم»، وله معان مختلفة، فتارة يراد منه الثمرة الناضجة، وتارة يطلق على الثمر اللين القابل للهضم، وتارة يطلق على المهضوم، وقد يستعمل بمعنى المنظوم المنضد، فإذا كان الطلع فى الآية محل البحث بمعنى العذق أوّل طلوعه، فالهضيم معناه المنضود، وإذا كان الطلع أوّل الثمر فالهضيم معناه الناضج اللين اللطيف.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۴٨

ثم ينتقدهم على بيوتهم المرفهة المحكمة فيقول: «وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فرِهِينَ». «الفاره»: مشتق من «فره» ومعناه فى الأصل السرور المقرون باللامبالاة وعبادة الهوى.

وبعد ذكر هذه الإنتقادات يتحدث النبى صالح عليه السلام فى القسم الثالث من كلامه مع قومه، فيقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ». «الإسراف»: هو التجاوز عن حدّ قانون التكوين وقانون التشريع ... وأىّ تجاوز

عن الحد موجب للفساد والاختلال. بتعبير آخر: إنّ مصدر الفساد هو الإسراف، ونتيجة الإسراف هى الفساد أيضاً.

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (۱۵۳) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۱۵۴) قَالَ هذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (۱۵۵) وَ لَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۵۶) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (۱۵۷) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۵۸) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۵۹)

عناد قوم صالح ولجاجتهم: لقد استمعتم إلى منطق صالح عليه السلام المتين والمحب للخير، مع قومه المضلين- فى الآيات المتقدمة- والآن لنستمع إلى جواب قومه فى هذه الآيات.

إنّهم واجهوه بكلام خشن و «قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ». فلذلك فقدت عقلك وتتكلم بكلمات غير موزونة ولا معقولة.

ثم بعد هذا كلّه «مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا». وكل عاقل لا يبيح لنفسه أن يطيع إنساناً مثله «فَأْتِ بَايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصدِقِينَ» لكى نؤمن بك ونتبعك.

«المسحّر»: مشتقة من «السحر» ومعناها المسحور، أى المصاب بالسحر، إذ كانوا يعتقدون أنّ السحرة كانوا عن طريق السحر يعطلون عمل العقل. أجل، إنّهم كانوا يرون بمعيار العقل أن يكون الإنسان متوافقاً مع البيئة والمحيط، ويطبّق نفسه على جميع المفاسد ...

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۴۹

فلو أنّ رجلًا مصلحاً إلهياً دعا الناس للقيام والنهوض بوجه العقائد الفاسدة وإصلاحها، عدّوه- بحسب منطقهم- مجنوناً «مسحّراً».

إنّ هؤلاء المعاندين من قوم صالح، طلبوا منه معجزة لا من أجل معرفة الحق، بل تذرعاً بالحجة الواهية، وعلى نبيّهم أن يُتم الحجة عليهم، فاستجاب لهم- وبأمر اللَّه-: «قَالَ هذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ».

هذه الناقة لم تكن ناقة كسائر النياق الطبيعية، كانت هذه الناقة بحالة من الإعجاز بحيث خرجت من قلب الجبل، ومن خصائصها أنّها كانت تشرب ماء الحىّ فى يوم، واليوم الآخر لأهل الحى «أو القرية».

وكان على صالح عليه السلام أن يعلمهم أنّ هذه الناقة ناقة عجيبة وخارقة للعادة، وهى آية من آيات عظمة اللَّه المطلقة فعليهم أن يَدَعوها على حالها، وقال: «وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

وبديهى أنّ المترفين قوم صالح المعاندين كانوا يعلمون أن يقظة الناس ستؤدّى إلى الإضرار بمنافعهم الشخصية فتآمروا على نحر الناقة: «فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا ندِمِينَ» «۱». لأنّهم رأوا أنفسهم قاب قوسين من العذاب الإلهى.

ولما تجاوز طغيانهم الحدّ، وأثبتوا بأعمالهم أنّهم غير مستعدين لقبول الحق، اقتضت إرادة اللَّه ومشيئته أنّ يطهر الأرض من وجودهم الملوّث «فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ».

ويقول القرآن فى ختام هذه الحادثة ما قاله فى ختام حوادث قوم هود وقوم صالح وقوم نوح وقوم إبراهيم، فيعبّر تعبيراً بليغاً موجزاً يحمل بين ثناياه عاقبة أولئك الظالمين: إنّ فى قصة قوم صالح، وفى صبره وتحمله واستقامته ومنطقه القويم من جهة، وعناد قومه وغرورهم وانكارهم للمعجزة البيّنة، والمصير الأسود الذى آلو إليه دروس وعبر: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ».

أجل، ليس لأحد أن يغلب ربّه؛ فما فوق قوّته من قوة، وهذه القوة وهذه القدرة العظيمة لا تمنع أن يرحم أولياءه، بل أعداءه أيضاً: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

---

(۱) «عقروها»: مأخوذة من مادة «عُقر» ومعناها فى الأصل أساس الشيء وجذره، وقد تأتى بمعنى حز الرأس، وتأتى بمعنى قطع الأرجل من الحيوان، وما إلى ذلك.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۰

مختصر الامثل ج۳ ۴۹۹

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (۱۶۰) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَ لَا تَتَّقُونَ (۱۶۱) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۶۲) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۶۳) وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (۱۶۴) أَ تَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (۱۶۵) وَ تَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (۱۶۶)

السفلة المعتدون: سادس نبىّ– ورد جانب من حياته وحياة قومه المنحرفين فى هذه السورة– هو لوط عليه السلام. يقول القرآن أوّلًا فى هذا الصدد: «كَذَّبْت قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ».

ثم يشير القرآن الكريم إلى دعوة لوط التى تنسجم مع دعوة الأنبياء الآخرين الماضين، فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ».

ولحن كلماته وقلبه المتحرق لهم، العميق فى تودّه إليهم، يدل على أنّه بمثابة «الأخ» لهم.

ثم أضاف لوط قائلًا: «إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ». فلم تعرفوا عنّى خيانة حتى الآن ... وسأرعى الأمانة فى إيصال رسالة اللَّه إليكم أبداً ... «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ». فأنا زعيمكم إلى السعادة والنجاة.

ولا تتصوروا أنّ هذه الدعوة وسيلة اتخذها للحياة والعيش، وأنّ وراءها هدفاً مادياً، كلّا: «وَمَا أَسَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبّ الْعَالَمِينَ».

ثم يتناول بالنقد أعمالهم القبيحة، وقسماً من انحرافاتهم الأخلاقية ... وحيث إنّ أهم نقطة فى انحرافاتهم ... هى مسألة الانحراف الجنسى، لذلك فإنّه ركّز عليها وقال: «أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ». فتختارون الذكور من بين الناس لاشباع شهواتكم.

أى، إنّكم على الرغم مما خلق اللَّه لكم من الجنس المخالف «النساء» حيث تستطيعون أن تعيشوا معهن بالزواج المشروع عيشاً طاهراً هادئاً، إلّاأنكم تركتم نعمة اللَّه هذه وراءكم، ولوّثتم أنفسكم بمثل هذا العمل القبيح المخزى ...

ثم أضاف قائلًا: «وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مّن أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ».

فالحاجة والغريزة الطبيعية، سواءً كانت روحية أم جسمية لم تجرّكم إلى هذا العمل الانحرافى الشنيع أبداً، وإنّما جرّكم الطغيان والتجاوز، فتلوثتم وخزيتم به ...

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۱

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (۱۶۷) قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (۱۶۸) رَبِّ نَجِّنِى وَ أَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ (۱۶۹) فَنَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (۱۷۰) إِلَّا عَجُوزاً فِى الْغَابِرِينَ (۱۷۱) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (۱۷۲) وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (۱۷۳) إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۷۴) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۷۵)

عاقبة قوم لوط: إنّ قوم لوط الغارقين بالغرور والمتمادية بهم رياح الشهوة، بدلًا من أن يذعنوا لنصائح هذا القائد الإلهى، فتدخل مواعظه فى قلوبهم ويخلصوا من تلك الأمواج الرهيبة، فإنّهم نهضوا لمواجهته و «قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ».

إنّ فعل هؤلاء الضالين– بلغ بهم أن يعدوا التقوى والتطهر بينهم أكبر عيب، وأن يفخروا بالرجس وعدم الطهارة.

ويستفاد من عبارة «لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ» أنّ هذه الجماعة الفاسدة كانوا قد أخرجوا اناساً طاهرين من حيّهم.

إلّا أنّ لوطاً لم يكترث بتهديدهم، وواصل نصحه لهم و «قَالَ إِنّى لِعَمَلِكُم مّنَ الْقَالِينَ».

إنّه يريد أن يقول: سأواصل انتقادى إيّاكم ... فافعلوا ما شئتم ... فأنا لا أترك مواجهة هذه الأعمال القبيحة بالإعتراض والنقد ...

والتعبير ب «من القالين» يدلّ أيضاً على أنّ جماعة كانوا مثل النبى لوط يرفضون هذه الأعمال ويعترضون عليها.

«القالين»: جمع «قال» من مادة «قَلَى أو «قِلِىَ» (على وزنى حَلَقَ وشَرِكَ) ومعناها العداوة الشديدة التى تترك أثرها فى قلب الإنسان، وهذا التعبير يكشف عن شدّة تنفّر لوط من أعمالهم.

وأخيراً بدّل الفساد مجتمعهم كله إلى مستنقع عفن ... وتمّت الحجة عليهم بمقدار كاف، وبلغت رسالة لوط مرحلتها النهائية.

فسأل لوط ربّه أن يخلّصه من قومه، فقال: «رَبّ نَجّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ».

فاستجاب اللَّه دعاؤه كما تقول الآية التالية: «فَنَجَّيْنهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ» «۱». وهذه العجوز لم تكن سوى زوج النبى لوط التى لم تؤمن به أبداً.

(۱) «الغابر»: من مادة (الغبور) ومعناه الباقى، ومتى ما تحركت جماعة وبقى شخص فى المكان فإنّه يدعى (غابراً)، ولهذا السبب سمى التراب الباقى غباراً ... والغبرة: الباقى من اللبن فى ثدى الحيوان.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۲

أجل، لقد نجّى اللَّه لوطاً والمؤمنين القلّة معه، فأمر أن يخرج بهم ليلًا من تلك المدينة- أو القرية- فترك قومه الغارقين بالفسق والفجور على حالهم، فنزل عذاب اللَّه فى الغداة، فتزلزلت بهم الأرض وانهارت عليهم الأبنية والقصور الجميلة حتى أصبح عاليها سافلها وهلكوا جميعاً فى ديارهم، وقد عبّر القرآن عن كان ذلك بعبارة موجزة بليغة، فقال: «ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ»، ولم يكف ذلك بل «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا». وأىّ مطر، إنّه وابل من احجار نزل على تلك الخرائب ليمحو أثرها من الانظار، «فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ».

والأمطار عادة تمنح الحياة، إلّاأنّ هذا المطر كان موحشاً مهلكاً مخرّباً ...

ويستفاد من الآية (۸۲) من سورة هود أنّ قرى قوم لوط ومدنهم قُلب عاليها سافلها أوّلًا، ثم أمطرت بالحجر النضيد المتراكم.

ومرّة اخرى نواجه فى نهاية هذه القصة الجملتين اللتين تكررتا فى القصص المشابهة لها فى هذه السورة، فى شأن خمسة أنبياء كرام آخرين، إذ يقول القرآن: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ». «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ». وأيّة رحمة أعظم من أنّه لا يعاقب أقواماً فاسقين كقوم لوط فوراً، بل يمهلهم إمهالًا كافياً لعلّهم يهتدون، ويجددوا نظرهم فى أعمالهم.

وأيّة رحمة أعظم من أن لا يخلط عقابه «الأخضر باليابس» بل لو كان فى ألف ألف اسرة غير صالحة أسرة واحدة صالحة، فإنّه ينجيها منها وينزل العذاب على اولئك.

وأيّة عزّة أعظم من أن ترى بطرفة عين واحدة ديار الفاسقين قد دُمرت تدميراً ولم يبق منها أى أثر.

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (۱۷۶) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَ لَا تَتَّقُونَ (۱۷۷) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۷۸) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۷۹) وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (۱۸۰) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (۱۸۱) وَ زِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (۱۸۲) وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۱۸۳) وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (۱۸۴)

شعيب وأصحاب الأيكة: هذه هى القصة السابعة، والحلقة الأخيرة من قصص الأنبياء

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۳

الواردة فى هذه السورة، وهى قصة شعيب عليه السلام وقومه المعاندين.

كان هذا النبى يقطن فى «مدين»، وهى مدينة تقع جنوب الشامات.

تقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «كَذَّبَ أَصْحبُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ».

«أيكة»: على وزن (ليلة)، قرية أو أرض معمورة على مقربة من مدين.

ثم يتحدث القرآن إجمالًا عن شعيب عليه السلام وعنهم فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ».

إنّ دعوة شعيب عليه السلام انطلقت من النقطة التى ابتدأها سائر الأنبياء، وهى التقوى ومخافة اللَّه التى تعدّ أساس المناهج الإصلاحية والتغييرات الأخلاقية والاجتماعية جمعاء.

ثم أضاف شعيب قائلًا: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ». فطاعتكم لى طاعة للَّه.

واعلموا أنّى أبتغى ثوابه ووجهه، «وَمَا أَسَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبّ الْعَالَمِينَ».

و «شعيب» كسائر الأنبياء الذين ورد جانب من تأريخ حياتهم فى هذه السورة، فهو يدعو قومه بعد الدعوة العامّة للتقوى وطاعة اللَّه،

إلى إصلاح انحرافاتهم الأخلاقية والاجتماعية وينتقدهم على هذه الإنحرافات، وحيث إنّ أهم انحراف عند قومه كان الاضطراب الاقتصادی، والاستثمار والظلم الفاحش فی الأثمان والسلع، والتطفيف فی الكيل، لذلك فقد اهتم بهذه المسائل أكثر من غيرها، وقال لهم: «أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

«تبخسوا»: مأخوذة من «البخس» وهو فی الأصل النقص ظلماً من حقوق الناس ... وقد يأتی أحياناً بمعنى الغش أو التلاعب المنتهی إلى تضييع حقوق الآخرين ... فبناء على ما تقدم، فإنّ الجملة الآنفة «وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ» لها معنى واسع يشمل جميع أنواع الغش والتزوير والتضليل، والتلاعب فی المعاملات، وغمط حقوق الآخرين.

وأمّا جملة «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ» فمعناه واسع أيضاً، إذ يشمل بالإضافة إلى البخس والتطفيف كل ما من شأنه أن يكون سبباً للخسارة وإيذاء الطرف الآخر فی المعاملة.

ثم إنّ «شعيباً» فی آخر تعليماته- فی هذا القسم- يدعوهم مرد اخرى إلى تقوى اللّه فيقول: «وَاتَّقُوا الَّذِی خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۴

«الجبلة»: مأخوذة من «الجبل» وهو معروف «ما ارتفع من الأرض كثيراً» ويسمى الطود أحياناً، فالجبلة تطلق على الجماعة الكثيرة التی هی كالجبل فی العظمة.

قال بعضهم: الجبلة مقدار عددها عشرة آلاف. كما تطلق الجبلة على الطبيعة والفطرة الإنسانية، لأنّها لا تتغير، كما أنّ الجبل لا يتغير عادةً.

والتعبير المتقدم لعله إشارة إلى أنّ شعيباً يقول: إنّما أدعوكم إلى ترك الظلم والفساد، وأداء حقوق الناس ورعاية العدل، لأنّ ذلك موجود فی داخل الفطرة الإنسانية منذ الخلق الأوّل، وأنا جئتكم لإحياء هذه الفطرة.

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (۱۸۵) وَ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (۱۸۶) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۱۸۷) قَالَ رَبِّی أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (۱۸۸) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۸۹) إِنَّ فِی ذلِكَ لَآيَةً وَ مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۹۰) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۹۱)

عاقبة الحمقى: لما رأى قوم شعيب الظالمون- أنّهم لا يملكون دليلًا ليواجهوا به منطقه المتين، ومن أجل أن يسيروا على نهجهم ويواصلوا طريقهم، رشقوه بسيل من التُهم والأكاذيب. فالتهمة الاولى هی ما يلصقها الجبابرة دائماً والمجرمون بالأنبياء، وهی السحر فاتّهموه بها و «قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ» (۱).

ثم ما الفارق بينك وبيننا لنتّبعك؟! ولا مزيّة لك علينا، «وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكذِبِينَ».

وبعد إلقاء هذا الكلام المتناقض، إذ تارةً يدعونه (من الكاذبين) ورجلًا انتهازياً، وتارةً يدعونه مجنوناً أو من المسحّرين، وكان كلامهم الأخير هو: إن كنت نبيّاً «فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصدِقِينَ». حيث كنت تهددنا دائماً بهذا اللون من العذاب.

«كِسَف»: جمع «كِسْفَة» على وزن (قطعة)، ومعناها قطعة أيضاً، والمراد من هذه «القطع من السماء» هی قطع الأحجار التی تهوی من السماء.

---

(۱) «المسحّر»: هو المسحور ... أو الذی يقع عليه السحر من قبل السَحَرة لينفذوا فی عقله ويبطلوا عمله.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۵

إلّاأنّ شعيباً عليه السلام، وهو يواجه هذه التعبيرات غير الموزونة والكلمات القبيحة وطلبهم عذاب اللّه، كان جوابه الوحيد لهم أن «قَالَ رَبِّی أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ».

فإذا لم تنفع المواعظ وتمّت الحجة اللازمة، فإنّ عذابه لا مرد له.

إنّ عذاب اللَّه أزف موعده- وكما يعبر القرآن عنه فى الآية التالية قائلًا: «فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

«الظلة»: فى الأصل معناها القطعة من السحاب المظلّل: أى ذى الظل.

إنّ حرّاً شديداً محرقاً حلّ فى أرضهم سبعة أيام، ولم يهب نسيم بارد مطلقاً، فإذا قطعة من السحاب تظهر فى السماء- بعد السبعة أيام- وتحرك نسيم عليل فخرجوا من بيوتهم، واستظلّوا تحت السحاب من شدّة الحرّ.

وفجأة سطعت من بين السحابة صاعقة مميتة بصوتها المذهل، واحرقتهم بنارها وزلزلت الأرض وهلكوا جميعاً.

وتُختتم القصة هذه بما خُتمت القصص الست السابقة عن أنبياء اللَّه الكرام، إذ يقول القرآن: إنّ فى حكاية أصحاب الايكة ودعوة نبيّهم شعيب وعنادهم وتكذيبهم، وبالتالى نزول العذاب على هؤلاء المتكبرين درس وعبرة لمن اعتبر «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ».

ومع ذلك كلّه فإنّ اللَّه رحيم ودود يمهلهم لعلّهم يرجعون ويصلحون أنفسهم، فإذا تمادوا فى الغى واستوجبوا عذاب اللَّه، أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

أجل، «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

فى ختام قصص هؤلاء الأنبياء السبعة ينبغى أن نلتفت إلى هذه «اللطيفة» وهى أنّ قصص هؤلاء الأنبياء جميعاً جاءت فى سور اخر من القرآن أيضاً، إلّاأنّها لم تعرض بهذا العرض بحيث نجد أنّ بداية دعوتهم منسجمة، كما أنّ نهاياتها منسجمة أيضاً.

وهذا الإنسجام- قبل كل شىء- يدل على تجلى مفهوم وحدة دعوات الأنبياء، بحيث كانوا ذوى منهج واحد وبداية واحدة ونهاية واحدة.

وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (۱۹۲) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (۱۹۳) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (۱۹۴) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (۱۹۵) وَ إِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (۱۹۶) أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ (۱۹۷)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۶

عظمة القرآن فى كتب السابقين: بعد بيان سبع قصص عن الأنبياء السابقين، والعبر الكامنة فى تأريخ حياتهم، يعود القرآن مرّة اخرى إلى البحث الذى شرعت به السورة، بحث عظمة القرآن وحقانية هذا الكلام الإلهى المبين، إذ يقول: «وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبّ الْعَالَمِينَ».

لذلك تضيف الآية التالية قائلة: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ».

ولو كان القرآن لم يُنزله ملك الوحى «الروح الأمين من قِبَل اللَّه» لم يكن بهذا الإشراق والصفاء والخلو من الخرافات والأساطير والأباطيل.

فالروح هى أساس الحياة، والأمانة، هى شرط أصيل فى الهداية والقيادة.

أجل، إنّ هذا الروح الأمين نزل بالقرآن «عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ».

إنّ الهدف من بيان تأريخ السالفين لم يكن مجرّد شرفاً فكرياً ولملء الفراغ، بل إيجاد الإحساس بالمسؤولية واليقظة، والهدف هو التربية وبناء شخصية الإنسان.

ولئلا تبقى حجة لأحد ولا عذر، فإنّ القرآن انزل «بِلِسَانٍ عَرَبِىّ مُّبِينٍ».

والجدير بالذكر أنّ أحد معانى «عربى» هو ذو الفصاحة والبلاغة؛ وفى هذه الصورة فإنّه ليس المعوّل على لسان العرب، بل الأساس صراحة القرآن ووضوح مفاهيمه.

و الآية التالية تشير إلى دليل آخر من دلائل حقانية القرآن فتقول: «وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ».

وخاصة أنّ أوصاف هذا النبى العظيم وأوصاف هذا الكتاب السماوى الخالد، جاءت فى توراة موسى عليه السلام بحيث أنّ علماء بنى إسرائيل كانوا يعرفون كل ذلك. لذا فإنّ القرآن يضيف هنا قائلًا: «أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أن يَعْلَمَهُ عُلَمؤُا بَنِى إِسْرَاءِيلَ».

وواضح أنّه مع وجود اولئك العلماء من بنى إسرائيل فى ذلك المحيط المليء بالمشركين، لم يكن من الممكن أن يتحدث القرآن عن نفسه «جزافاً» واعتباطاً؛ لأنّه كان سيردّ عليه من كل حدب وصوب بالإنكار، وهذا بنفسه دليل على أنّ هذا الموضوع كان جليّاً فى ذلك المحيط، بحيث لم يبق مجال للإنكار حين نزول الآيات- محل البحث.

وَ لَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذلِكَ سَلَكْنَاهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۷

لو نُزل القرآن على الأعاجم: فى هذه الآيات يتكلم القرآن على واحدة من الذرائع الإحتمالية من قبل الكفار وموقفه منها، ويستكمل البحث السابق فى نزول القرآن بلسان عربى مبين، فيقول: «وَلَوْ نَزَّلْنَهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ».

بعض العرب ممن يتمسك بالعرقية ويعبد القومية كانوا متعصبين إلى درجة بحيث لو نزل القرآن على غير العرب لما آمن به ورغم أنّ القرآن نزل على عربى شريف من أسرة كريمة، فى بيان رائع رائق بليغ وقد بشرت به الكتب السماوية السابقة، وشهد بذلك علماء بنى إسرائيل، ومع ذلك كلّه لم يؤمن به الكثير من العرب، فكيف إذا كان نبيّهم ليس فيه أية صفة من الصفات المذكورة.

ثم تضيف الآية لمزيد التأكيد: «كَذلِكَ سَلَكْنَهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ».

فى بيان بليغ وبلسان رجل من بينهم، وهم يعرفونه ويعرفون سيرته وأخلاقه، وبمحتوى بشرت به الكتب السماوية السابقة.

والخلاصة إنّنا نسلكه بجميع هذه الأوصاف فى قلوب المجرمين ليكون مقبولًا سهلًا مطبوعاً إلّاأن هذه القلوب المرضى تمتنع عن قبوله، فمثله كمثل الطعام الطيب النافع الذى تلفظه المعدة السقيمة.

ولذلك تقول الآية: «لَايُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ». أى: إنّ هؤلاء المجرمين المعاندين، يظلون على حالهم حتى نزول العذاب.

أجل، إنّهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب «فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

لا شك أنّ المراد من هذا العذاب، هو عذاب الدنيا والبلاء المهلك وعقاب الإستئصال.

لذا فإنّ القرآن يحكى عن حالهم فيقول: إنّهم فى هذه الحال يرجعون إلى أنفسهم، ويندمون على أفعالهم، ويتملكهم الخوف من المصير المرعب، ويودون بأن يعطوا فرصة لجبران ما فات والإيمان بالرسالة الإلهية: «فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ».

أ فَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أ فَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠۶) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَ مَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَ مَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَ مَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَ مَا يَنْبَغِى لَهُمْ وَ مَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۵۸

تهمة اخرى للقرآن: حيث إنّ الآيات المتقدمة ختمت بجملة «هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ» التى يقولها المجرمون عندما يأتيهم العذاب بغتة وهم على أبواب الهلاك، طالبين الإمهال والرجوع للتعويض عما فاتهم من الأعمال، فالآيات محل البحث تردّ عليهم عن طريقين:

الأوّل قوله تعالى: «أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ».

والآخر أنّه: «أَفَرَءَيتَ إِن مَّتَّعْنَهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ». فعلى فرض أنّهم امهلوا ثانية (ولن يُمهلوا بعد إتمام الحجة عليهم) الا يكون عملهم التمتع والتلذذ بالمواهب الماديّة فحسب. وهل يعوّضون عمّا فاتهم؟! كلّا أبداً.

وهنا يثار سؤال وهو أنّه مع الإلتفات إلى أنّ اللَّه عالم بمستقبل كل قوم وجماعة، فما الحاجة إلى الإمهال؟

ثم أنّ الامم السالفة كذبت أنبياءها واحداً بعد الآخر، فعلام يأتى الأنبياء منذرين ومبشرين؟!

فالقرآن يجيب على هذا السؤال بأنّ ذلك سنة اللَّه: «وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ». فنرسل الأنبياء لهم لإتمام الحجة وتقديم النصح والموعظة ليتذكروا ويستيقظوا من غفلتهم «ذِكْرَى .

ولو كنّا نأخذهم بدون إتمام الحجة، وذلك بإرسال المنذرين والمبشرين- من قِبَل اللّه- لكان ظلماً منّا «وَمَا كُنَّا ظلِمِينَ».

فمن الظلم أن نُهلك غير الظالمين، أو نهلك الظالمين دون إتمام الحجة عليهم.

ثم يردّ القرآن على إحدى الذرائع أو التُهم الباطلة من قِبَل اعداء القرآن وهى أنّ النبى مرتبط ببعض الجن، وهو يعلمه هذه الآيات، والحال أنّ القرآن يؤكّد أنّ هذه الآيات هى من «تنزيل ربّ العالمين».

فيضيف هنا قائلًا: «وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيطِينُ».

ثم يبيّن جواب هذه التهمة الواهية التى اختلقها الأعداء، فيقول: «وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ». أى: أنّ محتوى هذا الكتاب العظيم الذى يدعو إلى الحق والطهارة والعدل والتقوى، ونفى كل أنواع الشرك، يدلّ دلالة واضحة على أنّه لا شباهة له بأفكار الشياطين وما يلقونه.

ثم إنّ الشياطين ليست لهم القدرة على ذلك «وَمَا يَسْتَطِيعُونَ».

فإذا كانت لهم القدرة فينبغى على سائر من كان فى محيط نزول القرآن كالكهنة المرتبطين

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۵۹

بالشياطين أن يأتوا بمثل هذا القرآن، مع أنّهم عجزوا عن الإتيان بمثله. «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ».

ويستفاد من سائر آيات القرآن أنّ الشياطين كانوا يصعدون إلى السماء ويسترقون السمع من الملائكة، فينقلون ما يدور بين الملائكة من مطالب إلى أوليائهم، إلّاأنّه بظهور نبى الخاتم صلى الله عليه و آله وولادته انقطع استراق السمع تماماً، وزال الإرتباط الخبرى بين الشياطين وأوليائهم.

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١۴) وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١۵) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١۶) وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَ تَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)

وأنذر عشيرتك الأقربين: تعقيباً على الأبحاث الواردة فى الآيات السابقة فى شأن مواقف المشركين من الإسلام والقرآن، فإنّ اللّه سبحانه يبيّن لنبيّه- فى الآيات محل البحث- منهجه وخطّته فى خمسة أوامر، فى مواجهة المشركين.

وقبل كل شىء فإنّ اللّه يدعو النبى صلى الله عليه و آله إلى الإعتقاد التام بالتوحيد؛ التوحيد الذى هو أساس دعوات الأنبياء جميعاً. يقول سبحانه: «فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ».

ثم يأمره اللّه فى مرحلة اخرى أن ينطلق إلى مدى أرحب فى دعوته قائلًا: «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» «١».

ولا شك أنّه للوصول إلى منهج تغييرى ثورى واسع، لابدّ من الابتداء من الحلقات الأدنى والأصغر.

أمّا المرحلة الثالثة، فإنّ اللّه يوصى النبى فى دائرة أوسع فيقول: عليك أن تعامل أتباعك

---

(١) «العشيرة»: مشتقة من «العشرة» العدد المعروف [١٠] وحيث إنّ العشرة تعتبر فى نفسها عدداً كاملًا، فقد سمى أقرباء الرجل الذين يكمل بهم عشيرة، ولعلّ المعاشرة مأخوذة من هذا المعنى، لأنّها تجعل الناس بصورة مجموعة كاملة.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۶٠

باللطف والمحبة: «وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». وهذا التعبير الجميل الرائع كناية عن التواضع المشفوع بالمحبة واللطف، كما أنّ الطيور تخفض أجنحتها لأفراخها محبة منها لها، وتجعلها تحت أجنحتها لتكون مصانةً من الحوادث المحتملة، ولتحفظها من التشتت والتفرّق، فكذلك الأمر بالنسبة للنبى إذ امر أن يخفض جناحه للمؤمنين الصادقين.

ثم تأتى المرحلة الرابعة وهى أنّ الأعداء لم يقبلوا دعوتك وعصوا أوامرك. فلا تبتئس ولا تحزن: «فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ». أى إذا لم يذعنوا بعد دعوتك إياهم للحق، وواصلوا شركهم وعنادهم، فعليك أن تبيّن موقفك منهم.

وأخیراً فالأمر الالهی الخامس للنبی صلی الله علیه و آله لإکمال مناهجه السابقة، هو: «وَتَوَکَّلْ عَلَی الْعَزِیزِ الرَّحِیمِ».

ذلک اللّه «الَّذِی یَرَیکَ حِینَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَکَ فِی السجِدِینَ».

أجل، «إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ».

وهکذا تذکر الآیات ثلاث صفات للّهبعد وصفه بالعزیز الرحیم وکل منها یمنح الأمل ویشدّ من عزم النبی علی مواصلة طریقة، إذ أنّ اللّه یری جهوده وأتعابه وحرکاته وسکناته، وقیامه وسجوده ورکعاته.

ذلک اللّه الذی یسمع صوته.

اللّه الذی یعلم حاجاته وطلباته حاجته.

«التقلب»: معناه الحرکة والإنتقال من حال إلی حال، وهذا التعبیر لعله إشارة إلی سجود النبی صلی الله علیه و آله بین الساجدین فی أثناء الصلاة، أو إلی حرکة النبی صلی الله علیه و آله وتنقله بین أصحابه وهم مشغولون بالعبادة، وکان یتابع أحوالهم ویسأل عنهم.

وفی المجموع فإنّ هذا التعبیر إشارة إلی أنّ اللّه سبحانه لا یخفی علیه شیء من حالاتک وسعیک، سواءً کانت شخصیة فردیة، أم کانت مع المؤمنین فی صورة جماعیة، لتدبیر امور العباد ولنشر مبدأ الحق.

إنذار الأقربین (حدیث یوم الدار): وفقاً لما ورد فی التواریخ الإسلامیة، امر النبی فی السنة الثالثة بدعوته الأقربین من عشیرته، فدعا النبی صلی الله علیه و آله «عشیرته» إلی بیت عمّه أبی طالب، وکانوا فی ذلک الیوم حوالی أربعین رجلًا.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۶١

وبعد أن تناولوا الطعام، قال صلی الله علیه و آله: «یا بنی عبد المطّلب، إنّی واللّه ما أعلم شاباً فی العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتکم بخیر الدنیا والآخرة ... وقد أمرنی اللّه أن أدعوکم إلیه فأیّکم یؤازرنی علی أمری هذا، علی أن یکون أخی ووصیی وخلیفتی فیکم؟» فأحجم القوم عنها غیر علی، وکان أصغرهم (سناً)، فقال: «یا نبیّ اللّه، أنا أکون وزیرک علیه»، فأخذ رسول اللّه صلی الله علیه و آله برقبته، وقال: «إنّ هذا وصییّ وخلیفتی فیکم فاسمعوا له وأطیعوا».

هَلْ أُنَبِّئُکُمْ عَلَی مَنْ تَنَزَّلُ الشَّیَاطِینُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَی کُلِّ أَفَّاکٍ أَثِیمٍ (٢٢٢) یُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَکْثَرُهُمْ کَاذِبُونَ (٢٢٣) وَ الشُّعَرَاءُ یَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢۴) أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِی کُلِّ وَادٍ یَهِیمُونَ (٢٢۵) وَ أَنَّهُمْ یَقُولُونَ مَا لَا یَفْعَلُونَ (٢٢۶) إِلَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ ذَکَرُوا اللَّهَ کَثِیراً وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَ سَیَعْلَمُ الَّذِینَ ظَلَمُوا أَیَّ مُنْقَلَبٍ یَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)

هذه الآیات- محل البحث- هی آخر الآیات من سورة الشعراء، تعود ثانیة لتردّ علی الإتهام السابق- من قبل الأعداء- بأنّ القرآن من إلقاء الشیاطین، تردهم ببیان أخاذ بلیغ مفحم، فتقول: «هَلْ أُنَبِّئُکُمْ عَلَی مَن تَنَزَّلُ الشَّیطِینُ تَنَزَّلُ عَلَی کُلّ أَفَّاکٍ أَثِیمٍ». أی الکاذب المذنب، حیث یلقون إلیهم ما یسمعونه مع اضافة أکاذیب کثیرة علیه «یُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَکْثَرُهُمْ کذِبُونَ» «١».

وملخص الکلام أنّ ما تلقیه الشیاطین له علائم واضحة، ویمکن معرفته بعلائمه أیضاً. فالشیطان موجود مؤذٍ ومخرب، وما یلقیه یجری فی مسیر الفساد والتخریب، وأتباعه هم الکذابون المجرمون، ولیس شیء من هذه الامور ینطبق علی القرآن، ولا علی مبلّغه، ولیس فیها أی شبهٍ بهما.

وفی الآیة الرابعة- من الآیات محل البحث- یردّ القرآن علی إتهام آخر کان الکفار یرمون به النبی فیدعونه شاعراً، کما فی الآیة (۵) من سورة الأنبیاء: «بَلْ هُوَ شَاعِرٌ». وربّما

(١) «أفّاک»: من «الإفک» والإفک هو الکذب الکبیر، فمعنی الأفلاک من یکذب کثیراً أکاذیب کبیرة ... و «أثیم»: من مادة «إثم» علی وزن (إسم) ومعناه فی الأصل: العمل الذی یؤخر صاحبه عن الثواب، ویطلق عادة علی الذنب، فالأثیم هو المذنب.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۶٢

دعوه بالشاعر المجنون، كما جاء في الآية (٣۶) من سورة الصافات:

«وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ».

فالقرآن يردهم هنا ببيان بليغ منطقى، بأنّ منهج النبى يختلف عن منهج الشعراء؛ فالشعراء يتحركون فى عالم من الخيال، وهو يتحرك على أرض الواقع والواقعيات، لتنظيم العالم الإنسانى.

والشعراء يبحثون عن العيش واللذة والغزل (كما هى الحال بالنسبة لشعراء ذلك العصر فى الحجاز خاصة حيث يظهر ذلك من أشعارهم بوضوح).

ولذا فإنّ أتباعهم هم الضالون: «وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ».

ثم يضيف القرآن على الجملة آنفة الذكر معقّباً: «أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ».

فهم غارقون فى أخيلتهم وتشبيهاتهم الشعرية، حتى أنّ القوافى تجرهم إلى هذا الإتجاه أو ذاك، ويهيمون معها فى كل واد.

ومتى سخطوا على أحد هجوه هجواً مراً وأنزلوه فى شعرهم إلى أسفل السافلين، وإن كان موجوداً سماوياً.

ثم إنّ الشعراء عادةً هم رجال خطابة وجماهير لا أبطال قتال، وكذلك أصحاب أقوال لا أعمال، لذلك فإنّ الآية التالية تضيف فتقول عنهم: «وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَايَفْعَلُونَ».

غير أنّ النبى الكريم صلى الله عليه و آله رجل عمل من قرنه إلى قدمه، وقد اعترف بعزمه الراسخ واستقامته العجيبة حتى أعداؤه، فأين الشاعر من النبى صلى الله عليه و آله.

ولما كان بين الشعراء اناس مخلصون هادفون وأهل أعمال لا أقوال، ودعاة نحو الحق والصدق «وإن كان مثل هؤلاء الشعراء قليلًا يومئذ». فالقرآن من أجل أن لا يضيع حق هؤلاء الشعراء المؤمنين المخلصين الصادقين، استثناهم عن بقية الشعراء، فقال عنهم: «إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ».

هؤلاء المستثنون من الشعراء لم يكن هدفهم الشعر فحسب، بل يهدفون فى شعرهم أهدافاً الهية وإنسانية، ولا يغرقون فى الأشعار فيغفلون عن ذكر اللَّه، بل كما يقول القرآن: «وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا».

وأشعارهم تذكر الناس باللَّه أيضاً ... وإذا ما ظُلموا كان شعرهم انتصاراً للحق «وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۶۳

وهكذا فقد بيّن القرآن أربع صفات للشعراء الهادفين، وهى الإيمان، والعمل الصالح، وذكر اللَّه كثيراً، والانتصار للحق من بعدما ظلموا، مستعينين بشعرهم فى الذب عنه.

وحيث إنّ معظم آيات هذه السورة هو للتسلية عن قلب النبى، والتسرية عنه، وعن المؤمنين القلة فى ذلك اليوم فى قبال كثرة الأعداء، وحيث إنّ كثيراً من آيات هذه السورة فى مقام الدفاع عن النبى صلى الله عليه و آله ضد التهم الموجهة إليه من قبل أعدائه، وغير اللائقة به، فإنّ السورة تختتم بجملة ذات معنى غزير، وفيها تهديد لأولئك الأعداء الألدّاء، إذ تقول: «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ».

«نهاية تفسير سورة الشعراء»

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۶۵

٢٧ سورة النّمل

محتوى السورة: محتوى هذه السورة- بصورة عامة- كمحتوى سائر السور المكية، فأكثر إهتمامها- من الوجهة الاعتقادية- ينصبّ على المبدأ والمعاد.

وأمّا من ناحية المسائل العملية والأخلاقية، فالقسم الكبير منها يتحدث عن قصص خمسة أنبياء كرام ومواجهاتهم لُاممهم المنحرفة، لتكون هذه السورة تسلية للمؤمنين القلة بمكة فى ذلك اليوم، وفى الوقت ذاته تكون إنذاراً للمشركين المعاندين الظالمين ليروا عواقب أمرهم فى صفحات تاريخ الظلمة الماضين، فلعلهم يحذرون ويرجعون إلى الرشد.

وأحد خصائص هذه السورة هى بيان قسم مهم من قصة النبى سليمان عليه السلام وملكة سبأ، وكيفية إيمانها بالتوحيد، وكلام الطير- كالهدهد، والحشرات كالنمل- مع سليمان عليه السلام.

وهذه السورة سمّيت سورة «النمل» لورود ذكر النمل فيها، والعجيب أنّها سمّيت بسورة «سليمان» كما فى بعض الروايات.

وتتحدث هذه السورة ضمناً عن علم اللَّه غير المحدود، وهيمنته وسلطانه على كل شىء فى عالم الوجود، وحاكميته على عباده ... والإلتفات إلى ذلك له أثره الكبير فى المسائل التربوية للإنسان.

وتبدأ هذه السورة بالبشرى وتنتهى بالتهديد، فالبشرى للمؤمنين، والتهديد للناس بأنّ اللَّه غير غافل عن أعمالكم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۶۶

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «ومن قرأ طس سليمان كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بسليمان وكذّب به، وهود وشعيب وصالح وإبراهيم ويخرج من قبره وهو ينادى لا إله إلّااللَّه».

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَ كِتَابٍ مُبِينٍ (۱) هُدًى وَ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (۲) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۳) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (۴) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (۵) وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (۶)

القرآن مُنزَل من لدن حكيم عليم: نواجه مرّة اخرى- فى بداية هذه السورة- الحروف المقطعة من القرآن «طس» وبملاحظة أنّ ما بعدها مباشرة هو الكلام عن عظمة القرآن، فيبدو أنّ واحداً من أسرار هذه الحروف هو أنّ هذا الكتاب العظيم والآيات البينات منه، كل ذلك يتألف من حروف بسيطة ... وإنّ الجدير بالثناء هو الخالق العظيم الموجد لهذا الأثر البديع من حروف بسيطة كهذه الحروف.

ثم يضيف القرآن قائلًا: «تِلْكَ ءَايتُ الْقُرْءَانِ وَكِتبٍ مُّبِينٍ».

والإشارة للبعيد بلفظ (تلك) لبيان عظمة هذه الآيات السماوية، والتعبير ب (المبين) تأكيد على أنّ القرآن واضح بنفسه وموضح للحقائق أيضاً.

وفى الآية التالية وصفان آخران للقرآن إذ تقول: «هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ». لأنّه إذا لم يكن فى قلب الإنسان أدنى مرحلة من التقوى والتسليم والإيمان بالواقع، فإنّه لا يتجه نحو الحق، ولا يبحث عنه، ولا يفيد من نور هذا الكتاب المبين. «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوةَ وَهُم بِالْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ».

وهكذا فإنّ اعتقاد المؤمنين راسخ فى شأن المبدأ والمعاد، وإرتباط متين باللَّه وخلقه أيضاً ... فالأوصاف المتقدمة تشير إلى اعتقادهم الكامل ومنهجهم العملى الجامع.

وتتحدث الآية التالية عن الأشخاص فى المقابلة للمؤمنين، وتصف واحدة من أخطر حالاتهم فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ». أى: حيارى فى حياتهم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۶۷

فهم يرون الملوّث نقيّاً، والقبيح حسناً، والعيب فخراً، والشقاء سعادةً وانتصاراً.

وهذا التغير فى القِيم، أو اضطراب المعايير فى نظر الإنسان، يؤدّى إلى الحيرة فى متاهات الحياة ... وهو من أسوأ الحالات التى تصيب الإنسان.

ثم تبيّن الآيـة التاليـة نتيجـة «تزيين الأعمال» وعاقبـة اولئك الـذين شـغفوا بها فتقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ». فهم فى الـدنيا سيمسون حيارى آيسين نادمين، وسينالون العقاب الصارم فى الآخرة «وَهُمْ فِي الْأَخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ».

وأمّا الآيـة الأخيرة- من الآيات محل البحث- فهى بمثابـة إكمال البيانات السابقـة فى صـدد عظمـة محتوى القرآن، ومقدمـة لقصـص الأنبياء التى تبدأ بعدها مباشرة فتقول: «وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ».

وبالرغم من أنّ الحكيم والعليم كلاهما إشارة إلى علم اللَّه سبحانه، إلّاأنّ الحكمـة تبيّن الجوانب العمليـة، والعلم يبيّن الجوانب النظرية ... وبتعبير آخر: إنّ العليم يخبر عن علم اللَّه الواسع، والحكيم يـدل على الهـدف من إيجـاد هـذا العـالم وإنزال القرآن على قلب النبى (محمّد صلى الله عليه و آله).

إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَهَا وَ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَ جَحَدُوا بِهَا وَ اسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)

موسى يقتبس النور: يجرى الكلام فى هذه السورة- كما أشرنا من قبل- بعد بيان أهمية القرآن، عن قصص خمسة أنبياء عظام، وذكر اممهم، والوعد بانتصار المؤمنين وعقاب

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٤٦٨

الكـافرين. فـأوّل نبىّ تتحـدث عنه هـذه السورة، هو موسى عليه السـلام أحـد الأنبياء «أولى العزم» وتبـدأ مباشـرة بأهم نقطـة من حياته وأكثرها «حسّاسيـة» وهى لحظـة نزول الوحى على قلبه وإشـراقه فيه، وتكليم اللَّه إيّاه، إذ تقول الآيـة: «إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنّى ءَانَسْتُ نَارًا» «١». أى رأيت ناراً من بعيد، فامكثوا هنيئة «سَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» «٢».

فى تلك الليلة الظلماء، كان موسى عليه السـلام يسير بزوجته بنت النبى شعيب عليه السلام فى طريق مصر- وفى الصحراء- فهبت ريح باردة، وكانت زوجته (أهله) مقرّباً، فأحسّت بوجع الطلق، فوجد موسى عليه السلام نفسه بمسيس الحاجة إلى النار لتصطلى المرأة بها، لكن لم يكن فى الصحراء أىّ شىء، فلمّا لاحت له النّار من بعيد سُرّ كثيراً، وعلم أنّها دليل على وجود إنسان أو أناس، فقال: سأمضى وآتيكم منها بخبر أو شعلة للتدفئة.

وهكـذا فقـد ترك موسى أهله فى ذلـك المكـان واتّجه نحو «النار» التى آنسـها «فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

إنّ المراد من «مَن فِي النَّارِ» هو موسى نفسه، حيث كان قريباً منها ومن الشجرة الخضراء التى عندها، فكأنّ موسى كان فى النار نفسها؛ وأنّ المراد من «مَنْ حَوْلَهَا» هم الملائكـة المقربون من ساحة القدس، الذين كانوا يحيطون بتلك الأرض المقدسة فى ذلك الوقت. أو أنّ المراد- على عكس ما ذكرنا آنفاً- فمن فى النار: هم الملائكة المقربون، ومن حولها هو موسى عليه السلام.

ومرّة اخرى نودى موسى بالقول: «يمُوسَى إِنّى أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

وذلك يزول عن موسى عليه السـلام كل شك وتردد، وليعلم أنّ الذى يكلمه هو رب العالمين، لا شعلة النار ولا الشجرة، الربّ القوى العزيز الذى لا يغلب ولا يُقهر، والحكيم ذو التدبير فى جميع الامور.

وحيث إنّ الصدع بالرسالة والبلاغ (وأية رسالة وبلاغ ... رسالة إلى جبار مستكبر ظالم

---

(١) «آنستُ»: فعل ماض مأخوذ من «الإيناس»، وهو الرؤية المقرونة بالراحة النفسية والسكينة وإنّما يطلق على الإنسان فهو لهذا المعنى.

(۲) «الشهاب»: هو النور الذی ینبثق من النّار کالعمود، وکل نور له عمود یدعی شهاباً؛ و «القبس»: شعلة من النّار تنفصل عنها؛ و «تصطلون»: من الاصطلاء وهو الدفء (بالنّار).

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۶۹

کفرعون)، لابدّ له من قوة ظاهریة وباطنیة وسند علی حقانیّته ... فلذا أمر موسی بأن یلقی عصاه: «وَأَلْقِ عَصَاکَ».

فألقی موسی عصاه، فتبدلت ثعباناً عظیماً، فلمّا رآه موسی یتحرک بسرعة کما تتحرک الحیّات الصغار خاف وولّی هارباً ولم یلتفت إلی الوراء: «فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ کَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّی مُدْبِرًا وَلَمْ یُعَقِّبْ».

وهنا خوطب موسی مرّة اخری أن «یمُوسَی لَاتَخَفْ إِنّی لَایَخَافُ لَدَیَّ الْمُرْسَلُونَ».

ومعنی الآیة: أن یا موسی إنّک بین یدی خالق الوجود العظیم، والحضور عنده ملازم للأمن المطلق.

إلّا أنّ فی الآیة التالیة استثناءاً للجملة السابقة، حیث ذکره القرآن فقال: «إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنّی غَفُورٌ رَّحِیمٌ».

أمّا المعجزة الثانیة التی أمر موسی أن یظهرها، فهی الید البیضاء، إذ تقول الآیة: «وَأَدْخِلْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ تَخْرُجْ بَیْضَاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ».

والقید «مِنْ غَیْرِ سُوءٍ» إشارة إلی أنّ بیاض الید لیس من برص ونحوه، بل هو بیاض نورانی یلفت النظر، وهو بنفسه کاشف عن إعجاز وأمر خارق للعادة.

ومن أجل أن یظهر اللّه تعالی عنایته ولطفه لموسی أکثر، وکذلک منح الفرصة للمنحرفین للهدایة أکثر، قال لموسی بأنّ معاجزه لیست منحصرة بالمعجزتین الآنفتین، بل «فِی تِسْعِ ءَایتٍ إِلَی فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ کَانُوا قَوْمًا فسِقِینَ».

ویستفاد من ظاهر الآیة أنّ هاتین المعجزتین من مجموع تسع معاجز «آیات» موسی المعروفة.

وأخیراً تعبّأ موسی بأقوی سلاح- من المعاجز- فجاء إلی فرعون وقومه یدعوهم إلی الحق، کما یصرح القرآن بذلک فی آیة التالیة: «فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَایَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هذَا سِحْرٌ مُّبِینٌ».

و معلوم أنّ هذا الإتهام «بالسحر» لم یکن خاصاً بموسی علیه السلام، بل اتخذه المعاندون ذریعة بوجه الأنبیاء، لیجعلوه سدّاً فی طریق الآخرین، والإتهام بنفسه دلیل واضح علی عظمة ما یصدر من الأنبیاء خارقاً للعادة، بحیث اتّهموه بالسحر.

ومما یلفت النظر أنّ القرآن یضیف فی آخر الآیة- محل البحث- قائلًا: إنّ هذا الإتهام لم

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۰

یکن لأنّهم کانوا فی شک من أمرهم ومترددین فعلًا، بل کذبوا معاجز أنبیائهم مع علمهم بحقانیتها، «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَیْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا». ویستفاد من هذا التعبیر أنّ الإیمان له حقیقة وواقعیة غیر العلم والیقین، ویمکن أن یقع الکفر جحوداً وإنکاراً بالرغم من العلم بالشیء.

إنّ القرآن یذکر عاقبة فرعون وقومه علی أنّه درس من دروس العبرة، فی جملة موجزة ذات معنی کبیر، مشیراً إلی هلاکهم وغرقهم فیقول: «فَانظُرْ کَیْفَ کَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِینَ».

وَ لَقَدْ آتَیْنَا دَاوُدَ وَ سُلَیْمَانَ عِلْماً وَ قَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی فَضَّلَنَا عَلَی کَثِیرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِینَ (۱۵) وَ وَرِثَ سُلَیْمَانُ دَاوُدَ وَ قَالَ یَا أَیُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّیْرِ وَ أُوتِینَا مِنْ کُلِّ شَیْءٍ إِنَّ هذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِینُ (۱۶)

حکومة داود وسلیمان علیهما السلام: بعد الکلام عن جانب من قصة موسی علیه السلام فی هذه السورة، یتحدث القرآن الکریم عن نبیّین آخرین من الأنبیاء العظام، وهما «داود» و «سلیمان» ... لأنّهما کانا من أنبیاء بنی إسرائیل أیضاً، وما نجده من اختلاف بین تاریخهما وتاریخ الأنبیاء الآخرین، هو أنّهما- ونتیجة للإستعداد الفکری وملائمة المحیط الاجتماعی فی عهدهما- قد وفّقا إلی تأسیس حکومة عظیمة، وأن ینشرا بالإستعانة والإفادة من حکومتهما دین اللّه، لذلک لا نجد هنا أثراً أو خبراً عمّا عهدناه من أسلوب فی تلک الآیات التی کانت تتکلم عن الأنبیاء الآخرین، وهم یواجهون قومهم المعاندین، وربّما نالوا منهم الأذی والطرد والاخراج من مدنهم

وقراهم .. فالتعابير هنا تختلف عن تلكم التعابير تماماً.

والطريف، أنّ القرآن يبدأ من مسألة «موهبة العلم» التى هى أساس الحكومة الصالحة القوية، فيقول: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمنَ عِلْمًا».

إنّ من الواضح أنّ العلم هنا له مفهوم واسع، بحيث يحمل فى نفسه علم التوحيد والإعتقادات المذهبية والقوانين الدينية، وكذلك علم القضاء، وجميع العلوم التى ينبغى توفرها لمثل هذه الحكومة الواسعة القوية.

وبعد هذه الجملة ينقل القرآن ما قاله داود وسليمان من ثناء للّه: «وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۱

والذى يجلب النظر هو أنّه بعد بيان هذه الموهبة الكبيرة «العلم» يجرى الكلام عن «الشكر» مباشرة ... ليكون واضحاً أنّ كل نعمة لابدّ لها من شكر، وحقيقة الشكر هو أن يستفاد من النعمة فى طريقها الذى خلقت من أجله.

و الآية التالية تتكلم على إرث سليمان أباه داود أوّلًا، فتقول: «وَوَرِثَ سُلَيْمنُ دَاوُودَ».

ثم تضيف الآية حاكية عن لسان سليمان: «وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ».

وجملة «أُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ» فهى تشمل جميع الأسباب اللازمة لإقامة حكومة اللّه فى ذلك الحين.

وَ حُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (۱۷) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِى النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (۱۸) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلَى وَالِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَ أَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (۱۹)

سليمان فى وادى النمل: يستفاد من آيات هذه السورة، وآيات سورة سبأ أنّ «حكومة سليمان» لم تكن حكومة مألوفة، بل حكومة مقرونة بما يخرق العادات والمعاجز المختلفة. وفى الحقيقة فإنّ اللّه أظهر قدرته فى هذه الحكومة وما سخّر لها من قوى.

وأوّل ما تبدأ هذه الآيات بقوله تعالى: «وَحُشِرَ لِسُلَيْمنَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ».

وكانت جنوده من الكثرة بحيث كانوا عند التحرك والمسير، ومن أجل المحافظة على النظم، يؤمرون بتوقف مقدمة الجيش لتلحق بها مؤخرتها «فَهُمْ يُوزَعُونَ». «يوزعون»: من مادة «وزع» على وزن (جمَع) ومعناه الحبس والإيقاف، وهذا التعبير متى اطلق على الجند أو الجيش فيعنى إيقاف أوّل الجيش ليلحق به آخره، لكى يحفظ من التشتت والتفرق.

ويستفاد من هذا التعبير أنّ جنود سليمان كانوا كثيرين، كما كانوا يخضعون للنظم والانضباط.

«حشر»: فعل ماض من «الحشر» على وزن (نشر) ومعناه إخراج الجمع من المقرّ، والتحرك نحو الميدان للقتال، وما أشبه ذلك.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۲

إنّ سليمان عليه السلام تحرك بهذا الجيش العظيم «حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِى النَّمْلِ». فخاطبت نملة من النمل أصحابها محذرة، كما تقول الآية: «قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسكِنَكُمْ لَايَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

ويستفاد ضمناً من جملة «لَايَشْعُرُونَ» أنّ عدل سليمان كان ظاهراً وواضحاً حتى عند النمل، لأنّ مفهوم الجملة أنّ سليمان وجنوده لو شعروا والتفتوا إلى النملة الضعيفة لما وطأوها بالأقدام، وإذا وطأوها فإنّما ذلك لعدم توجههم والتفاتهم: «فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا».

إنّ سليمان توجه نحو اللّه .. داعياً وشاكراً مستزيداً فضله: «وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ» «۱».

أى، لتكون لى القدرة أن استعمل هذه النعم جميعها فى ما أمرتنى به وما يرضيك، ولا أنحرف عن طريق الحق «وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضهُ». وهو يشير إلى أنّ بقاء هذا الجيش وحكومته وتشكيلاتها الواسعة غير مهم بالنسبة إليه، بل المهم أن يؤدّى عملًا صالحاً يرضى به ربّه.

والطلب الثالث الذى طلبه سليمان من ربّه، كما حكته الآية، هو أن يجعله فى زمرة الصالحين، إذ قال: «وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ».

وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أرَى الْهُدْهُدَ أمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ (۲۰) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۲۱) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (۲۲) إنِّي وَجَدْتُ امْرَأةً تَمْلِكُهُمْ وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَها عَرْشٌ عَظِيمٌ (۲۳) وَجَدْتُها وَ قَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (۲۴) ألْا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَ الْأرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ (۲۵) اللَّهُ لا إلهَ إلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (۲۶)

قصة الهدهد وملكة سبأ: يشير القرآن فی هذا القسم من الآيات إلی جانب آخر من

---

(۱) «أوزعنی»: من مادة «إيزاع» ومعناه «الإلهام»، أو المنع عن الانحراف، أو إيجاد العشق والتعلق، إلّاأنّ أغلب المفسرين إختاروا المعنی الأوّل.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۳

حياة سليمان عليه السلام المدهشة، وما جری له مع الهدهد وملكة سبأ. فيقول أوّلًا: «وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ».

وهذا التعبير يكشف هذه الحقيقة، وهی أنّه كان يراقب وضع البلاد بدقّة، وكان يتحری أوضاع حكومته لئلا يخفی عليه غياب شیء، حتی لو كان طائراً واحداً.

وما لا شک فيه أنّ المراد من الطير هنا هو الهدهد، لأنّ القرآن يضيف استمراراً للكلام: «فَقَالَ مَا لِيَ لَاأَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ».

ومن أجل أن لا يكون حكم سليمان غيابياً، وأن لا يؤثر غياب الهدهد علی بقية الطيور، فضلًا عن الأشخاص الذين يحملون بعض المسؤوليات، أضاف «سليمان» قائلًا: «لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنّی بِسُلْطنٍ مُّبِينٍ».

إنّ سليمان قبل أن يقضی غيابياً ذكر تهديده اللازم فی صورة ثبوت التخلف.

وقد برهن «سليمان» ضمناً أنّه- حتی بالنسبة للطائر الضعيف- يستند فی حكمه إلی المنطق والدليل، ولا يعوّل علی القوة والقدرة أبداً.

ولكن غيبة الهدهد لم تطل «فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ» عاد الهدهد وتوجه نحو سليمان: «فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ».

إنّ الهدهد أخذ يفصّل لسليمان ما حدث فقال: «إِنّی وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ».

لقد بيّن الهدهد لسليمان بهذه الجمل الثلاث جميع مواصفات هذا البلد تقريباً، وأسلوب حكومته.

ولما سمع سليمان عليه السلام كلام الهدهد غرق فی تفكيره، إلّاأنّ الهدهد لم يمهله طويلًا فأخبره بخبر جديد ... خبر عجيب، مزعج مريب، إذ قال: «وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطنُ أَعْملَهُمْ». فكانوا يفخرون بعبادتهم للشمس وبذلک صدّهم الشيطان عن طريق الحق «فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ». وقد غرقوا فی عبادة الأصنام حتی أنّی لا أتصور أنّهم يثوبون إلی رشدهم «فَهُمْ لَايَهْتَدُونَ».

ثم أضاف الهدهد قائلًا: «أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِی يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِی السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ».

«خبء»: علی وزن (صبر) معناها كل شیء خفی مستور، وهی هنا إشارة إلی إحاطة علم اللّه بغيب السماوات والأرض، أی:

لِمَ لا يسجدون للّهالذی يعلم غيب السماوات

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۴

والأرض وما فيهما من أسرار؟! وأخيراً يختتم الهدهد كلامه هكذا: «اللَّهُ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

وهكذا يختتم الهدهد كلامه مستنداً إلی «توحيد العبادة» و «توحيد الربوبية» للّهتعالی، مؤكداً نفی كل أنواع الشرک عنه سبحانه.

قالَ سَنَنْظُرُ أ صَدَقْتَ أمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ (۲۷) اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَألْقِهْ إلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ (۲۸) قالَتْ يا أيُّها

الْمَلَأَ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَنْ تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنْتُ قَاطِعَهً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّهٍ وَ أُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِى مَا ذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَهً أَفْسَدُوهَا وَ جَعَلُوا أَعِزَّهَ أَهْلِهَا أَذِلَّهً وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (٣۴) وَ إِنِّى مُرْسِلَهٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّهٍ فَنَاظِرَهٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣۵)

الملوك مفسدون مخرّبون: لقد أصغى سليمان عليه السلام إلى كلام الهدهد بكل اهتمام .. وفكّر مليّاً، فينبغى أن لا يكتفى بمخبر واحد، بل ينبغى التحقيق أكثر فى هذا المجال: «قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكذِبِينَ».

سليمان عليه السلام لم يتّهم الهدهد فيحكم عليه بالكذب .. ولم يصدّق كلامه دون أى دليل ... بل جعله أساساً للتحقيق.

وعلى كل حال، فقد كتب كتاباً وجيزاً ذا مغزى عميق، وسلّمه إلى الهدهد وقال له: «اذْهَب بّكِتبِى هذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ».

يستفاد من التعبير «أَلْقِهْ إِلَيْهِمْ» أن يلقى الكتاب عندما تكون ملكة سبأ حاضرة بين قومها، لئلا تعبث به يد النسيان أو الكتمان.

ففتحت ملكة سبأ كتاب سليمان، واطّلعت على مضمونه، وحيث إنّها كانت من قبل قد سمعت بأخبار سليمان واسمه، ومحتوى الكتاب يدل على إقدامه وعزمه الشديد فى شأن بلدة «سبأ»، لذلك فكّرت مليّاً، ولما كانت فى مثل هذه المسائل المهمة تستشير من حولها، لذلك

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۵

فقد دعتهم وتوجهت إليهم و «قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنّى أُلْقِىَ إِلَيَّ كِتبٌ كَرِيمٌ».

وقول الملكة: «إِنّى أُلْقِىَ إِلَيَّ كِتبٌ كَرِيمٌ» «أى قيم» لعلّه لمحتواه العميق، أو لأنّه بُدىء باسم اللَّه أو لأنّه ختم بإمضاء صحيح.

ثم إنّ «ملكة سبأ» تحدثت عن مضمون الكتاب فقالت: «إِنَّهُ مِن سُلَيْمنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ».

وبعد أن ذكرت ملكة سبأ محتوى كتاب سليمان لقومها ... التفتت إليهم و «قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَهً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ». «أفتونى»: مشتقة من «الفتوى»، معناها فى الأصل الحكم الدقيق والصحيح فى المسائل الغامضة والصعبة.

«تشهدون»: مأخوذ من مادة «الشهود»، ومعناه الحضور ... الحضور المقرون بالتعاون والمشورة.

فالتفت إليها أشراف قومها وأجابوها على استشارتها ف «قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّهٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ».

وهكذا فقد أظهروا لها تسليمهم وإذعانهم لأوامرها ... كما أبدوا رغبتهم فى الإعتماد على القوة والحضور فى ميدان الحرب.

ولما رأت الملكة رغبتهم فى الحرب خلافاً لميلها الباطنى، ومن أجل إطفاء هذا الظمأ وأن تكون هذه القضية مدروسة، لذلك: «قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَهً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّهَ أَهْلِهَا أَذِلَّهً».

ولمزيد التأكيد أردفت قائلةً: «وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ».

إنّ ملكة سبأ التى كانت بنفسها ملكةً، كانت تعرف نفسية الملوك بصورة جيدة، وأنّ سيرتهم تتلخص فى شيئين:

١- الإفساد والتخريب.

٢- وإذلال الأعزة ...

لأنّهم يفكرون فى مصالحهم الشخصية، ولا يكترثون بمصالح الامة وعزتها ... وهما على طرفى نقيض دائماً.

ثم أضافت الملكة قائلةً: علينا أن نختبر سليمان وأصحابه، لنعرف من هم وما يريدون؟ وهل سليمان نبىّ حقاً أو ملك؟ وهل هو مصلح أو مفسد؟ وهل يذلّ الناس أم يحترمهم ويعزّهم؟

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۶

فينبغى أن نرسل شيئاً إليه «وَإِنّى مُرْسِلَهٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّهٍ فَنَاظِرَهٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ».

فالملوك لهم علاقة شديدة بالهدايا، ونقطة الضعف كامنة فى هذا الأمر، فيمكن أن يذعنوا للهدايا الغالية ... فإذا أذعن سليمان بهذه الهدية فهو ملك، وينبغى أن نواجهه بالقوة فنحن أقوياء ... وإذا ألح على كلامه ولم يكترث بنا فهو نبى، وفى هذه الصورة ينبغى التعامل معه بالحكمة والتعقل.

فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣۶) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَ هُمْ صاغِرُونَ (٣٧)

لا تخدعونى بالمال: خرج رسل ملكة سبأ بقافلة الهدايا وتركوا اليمن وراءهم قاصدين مقر سليمان «فى الشام» ظنّاً منهم أنّ سليمان سيكون مسروراً بمشاهدته هذه الهدايا ويرحب بهم، لكن ما إن حضروا عند سليمان حتى رأوا ما يدهش الإنسان ... فإنّ سليمان عليه السلام مضافاً إلى عدم استقباله واكتراثه بتلك الهدايا، «قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتِنِىَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتكُمْ».

فما قيمة المال، ازاء مقام النبوة والعلم والهداية والتقوى، «بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ».

وهكذا فقد حقّر سليمان عليه السلام معيار القيم عندهم، وأوضح لهم أنّ هناك معياراً آخر للقيمة تضمحلّ عنده معايير عبدة الدنيا ولا تساوى شيئاً.

ومن أجل أن يريهم سليمان موقفه الحاسم من الحق والباطل، قال لرسول ملكة سبأ الخاص: «ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صغِرُونَ».

لأنّهم لم يذعنوا- ويُسلموا- للحق ... وإنّما قصدوا الخداع والمكر.

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَ إِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ (۴٠)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴٧٧

حضور العرش فى طرفة عين: وأخيراً عاد رسل ملكة سبأ بعد أن جمعوا هداياهم وأمتعتهم إلى بلدهم، وأخبروا ملكة سبأ بما شاهدوه من عظمة مُلك سليمان عليه السلام المعجز وجهازه الحكومى، وكل واحد من هذه الامور دليل على أنّه لم يكن كسائر الأفراد ولا ملكاً كسائر الملوك، بل هو مُرسل من قبل اللَّه حقّاً، وحكومته حكومة إلهية. لذلك قررت الملكة أن تأتى بنفسها مع أشراف قومها إلى سليمان، ويتفحصوا عن هذه المسألة ليتعرفوا على دين سليمان؟

فوصل هذا الخبر- عن أىّ طريق كان- إلى سمع سليمان عليه السلام، فعزم على إظهار قدرته العجيبة- والملكة وأصحابها فى الطريق إليه- ليعرفهم قبل كل شىء على إعجازه، ليذعنوا له ويسلّموا لدعوته ... لذلك التفت إلى من حوله و «قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ».

وهنا أظهر شخصان استعدادهما لإمتثال طلب سليمان عليه السلام، وكان أمر أحدهما عجيباً والآخر أعجب، إذ «قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ». فهذا الأمر علىّ يسير، ولا أجد فيه مشقّة، كما أنّى لا أخونك أبداً، لأنّى قادر على ذلك «وَإِنّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ». «العفريت»: معناه المارد الخبيث.

وجملة «وَإِنّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ» المشفوعة بالتأكيدات من عدّة جهات تشر إلى احتمال خيانة هذا العفريت ... لذلك فقد أظهر الدفاع عن نفسه بأنّه أمين وفىّ.

أمّا الشخص الآخر فقد كان رجلًا صالحاً له علم ببعض ما فى الكتاب، ويتحدث عنه القرآن فيقول: «قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتبِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ».

فلما وافق سليمان عليه السلام على هذا الأمر، أحضر عرش بلقيس بطرفة عين بالإستعانة بقوته المعنوية: «فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هذَا

مِن فَضْلِ رَبّی لِیَبْلُوَنِی ءَأَشْکَرُ أَمْ أَکْفُرُ».

ثم أضاف قائلًا: «وَمَن شَکَرَ فَإِنَّمَا یَشْکُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن کَفَرَ فَإِنَّ رَبّی غَنِیٌّ کَرِیمٌ».

الفرق بین «علم من الکتاب» و «علم الکتاب»: فی کتاب ینابیع المودة للقندوزی عن أبی سعید الخدری قال: سألت رسول اللَّه صلی الله علیه و آله عن هذه الآیة «قَالَ الَّذِی عِندَهُ عِلْمٌ مِنَ الْکِتَابِ» قال: «ذاک وزیر أخی سلیمان بن داود علیه السلام». وسألته عن قول اللَّه عزّ وجلّ «قُلْ کَفَی بِاللَّهِ شَهِیدًا بَیْنِی وَبَیْنَکُمْ وَمَن عِندَهُ عِلْمُ الْکِتَابِ» قال: «ذاک أخی علیّ بن أبی طالب».

والإلتفات إلی الفرق بین «علم من الکتاب» الذی یعنی (العلم الجزئی) و «علم الکتاب»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۸

الذی یعنی (العلم الکلی)، یکشف البون الشاسع بین آصف وعلی علیه السلام.

نور الإیمان فی قلب الملکة: نواجه فی هذه الآیات مشهداً آخر، مما جری بین سلیمان علیه السلام وملکة سبأ فسلیمان من أجل أن یختبر عقل ملکة سبأ ودرایتها، ویهیء الجوّ لإیمانها باللَّه، أمر أن یغیروا عرشها وینکّروه ف «قَالَ نَکّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِی أَمْ تَکُونُ مِنَ الَّذِینَ لَایَهْتَدُونَ». والمراد من جملة «أَتَهْتَدِی» هی معرفة عرشها.

«فَلَمَّا جَاءَتْ قِیلَ أَهکَذَا عَرْشُکِ» إنّ ملکة سبأ أجابت جواباً دقیقاً و «قَالَتْ کَأَنَّهُ هُوَ».

ومع کل ذلک فإنّ ملکة سبأ استطاعت أن تعرف عرشها رغم کل ما حصل له من تغییرات ... فقالت مباشرة: «وَأُوتِینَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَکُنَّا مُسْلِمِینَ». أی: إذا کان مراد سلیمان علیه السلام من هذه المقدمات هو اطلاعنا علی معجزته لکی نؤمن به، فإنّنا کنّا نعرف حقانیته بعلائم أخر ... کنّا مؤمنین به حتی قبل رؤیة هذا الأمر الخارق للعادة فلم تکن حاجة إلی هذا الأمر.

وهکذا فإنّ سلیمان علیه السلام منعها «وَصَدَّهَا مَا کَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ» بالرغم من «إِنَّهَا کَانَتْ مِن قَوْمٍ کفِرِینَ».

وفی آخر آیة من الآیات محل البحث یجری الکلام عن مشهد آخر من هذه القصّة، وهو دخول ملکة سبأ قصر سلیمان الخاص.

وکان سلیمان علیه السلام قد أمر أن تصنع إحدی ساحات قصوره من قواریر، وأن یجری الماء

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۷۹

من تحتها، فلما وصلت ملکة سبأ إلی ذلک المکان «قِیلَ لَهَا ادْخُلِی الصَّرْحَ» «۱». فلما رأته ظنته نهراً جاریاً فرفعت ثوبها لتمر وسط الماء وهی متعجبة عن سبب وجود هذا الماء الجاری، وکما یقول القرآن: «فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَکَشَفَتْ عَن سَاقَیْهَا» «۲».

إلّا أنّ سلیمان علیه السلام التفت إلیها و «قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِیرَ» «۳». فلا- حاجة إلی الکشف عن ساقیک فلا یمس الماء قدمیک.

وهنا ینقدح سؤال هام، وهو أنّ سلیمان نبی کبیر، فلم کان لدیه هذا البناء الفائق والتزیّن الرائق ... والصرح الممرّد والبساط الممهّد .. وصحیح أنّه کان حاکماً مبسوط الید، إلّاأنّ الأنسب أن یکون له بساط مألوف کسائر الأنبیاء.

إلّا أنّه، ما یمنع أن یُری سلیمان ملکة سبأ التی کانت تری قدرتها وعظمتها بالعرش والتاج والقصر العظیم والزینة .. یریها هذا المشهد لتذعن لأمره، ولتحتقر ما عندها؟! وهذه نقطة انعطاف فی حیاتها لتعید النظر فی میزان القیم ومعیار الشخصیة.

وبتعبیر آخر: إنّ هذه النفقات المالیة إزاء أمن منطقة واسعة، وقبول دین الحق، والوقایة عن الإنفاق المفرط للحرب- لم تکن أمراً مسرفاً. ولذلک حین رأت ملکة سبأ هذا المشهد الرائع: «قَالَتْ رَبِّ إِنّی ظَلَمْتُ نَفْسِی وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَیْمنَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَلَمِینَ».

لقد کنت فی ما مضی أسجد للشمس وأعبد الأصنام، وکنت غارقة فی الزینة والتجمیل، وکنت أتصور أنّی أعلی الناس فی الدنیا. أمّا الآن فإنّنی أفهم أنّنی ضعیفة جدّاً.

ربّاه ... أتیت إلیک مسلمة مع سلیمان نادمة عن سالف عمری، خاضعة عنقی إلیک.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَی ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِیقَانِ یَخْتَصِمُونَ (۴۵) قَالَ یَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّیِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لَا

تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۴۶) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (۴۷)

---

(۱) «صرح»: معناه الفضاء الواسع، وقد يأتى بمعنى البناء العالى والقصر وفى الآية المشار إليها آنفاً معناه ساحة القصر أى فضاءه الواسع ظاهراً.

(۲) «اللّجة»: فى الأصل مأخوذة من اللجاج، ومعناه الشدة، ثم أطلق على ذهاب الصوت وإيابه فى الحنجرة تعبير «لجة»، أمّا الأمواج المتلاطمة فى البحر فتسمى «لُجة» وهى هنا فى الآية بهذا المعنى الأخير.

(۳) «الممرّد»: معناه الصافى؛ و «القوارير»: جمع قارورة وهى الزجاجة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۰

صالح فى ثمود: بعد ذكر جانب من قصص موسى وداود وسليمان عليهم السلام فإنّ هذه الآيات تتحدث عن قصة رابع نبى- وتبيّن جانباً من حياته مع قومه- فى هذه السورة، وهى ما جاء عن صالح عليه السلام وقومه «ثمود»، إذ يقول القرآن: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صلِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ». وكما قيل من قبل: إنّ التعبير ب «أخاهم» الوارد فى قصص كثير من الأنبياء، هو إشارة إلى منتهى المحبة والإشفاق من قبل الأنبياء لُاممهم، كما أنّ فى بعض المواطن إشارة إلى علاقة القربى «الروابط العائلية للأنبياء بأقوامهم».

إنّ جميع دعوة هذا النبى العظيم تلخصت فى جملة «أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ». أجل، إنّ عبادة اللَّه هى عصارة كل تعليمات رسل اللَّه تعالى.

ثم يضيف قائلًا: «فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ».

فأخذ صالح عليه السلام ينذرهم ويحذرهم من عذاب اللَّه الأليم ... إلّاأنّ اولئك لم يستجيبوا له وتمسكوا بعنادهم وطلبوا منه باصرار أن إذا كنت نبيّاً فليحل بنا عذاب اللَّه «وقد صرحت الآية (۷۷) من سورة الأعراف بأنّهم سألوا نبيّهم نزول العذاب»: «وَقَالُوا يَا صلِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

إلّا أنّ صالحاً أجابهم محذراً و «قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ».

إنّ عذاب اللَّه إذا حلّ بساحتكم ختم حياتكم ولا يبقى مجال للإيمان.

تعالوا واختبروا صدق دعوتى فى البعد الإيجابى والأمل فى رحمة اللَّه فى ظل الإيمان به «لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

وهذا أمر عجيب حقّاً أن يريد الإنسان اختبار صدق دعوة نبيّه عن طريق العقاب المهلك، لا عن طريق طلب الرحمة.

إنّ هؤلاء القوم المعاندين بدلًا من أن يصغوا لنصيحة نبيّهم ويستجيبوا له، واجهوه باستنتاجات واهية وكلمات باطلة ... منها أنّهم «قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ». ولعل تلك السنة كانت سنة قحط وجدب، فقالوا: إنّ هذا البلاء والمشاكل والعقبات كلها بسبب قدوم هذا النبى وأصحابه.

لكنه ردّ عليهم و «قَالَ طئِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ» فهو الذى يبتليكم بسبب أعمالكم بهذه المصائب التى أدّت إلى هذه العقوبات.

فى الحقيقة إنّ ذلك اختبار وامتحان إلهى كبير لكم، أجل: «بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۱

هذه امتحانات وفتن إلهية ... هذه إنذارات وتنبيهات لينتبه- من فيهم اللياقة من غفلتهم، ويصلحوا انحرافهم ويتجهوا نحو اللَّه.

وَ كَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لَا يُصْلِحُونَ (۴۸) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (۴۹) وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنَا مَكْراً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (۵۰) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۱) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۵۲) وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ (۵۳)

تآمر تسعة رهط فى وادى القرى: نقرأ هنا قسماً آخر من قصة صالح وقومه، حيث يكمل القسم السابق ويأتى على نهايته، وهو ما يتعلق بالتآمر على قتل صالح من قِبل تسعة «رهط» من المنافقين والكفار، وفشل هذا التآمر فى وادى القرى منطقة النبى صالح وقومه. يقول

القرآن فی هذا الشأن: «وَكَانَ فِى الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ». «الرهط»: یعنی فی اللغة الجماعة التی تقلّ عن العشرة أو تقلّ عن الأربعین، فإنّه یتّضح أنّ کلّا من المجموعات الصغیرة التسع کان لها منهج خاص، وقد اجتمعوا علی أمر واحد، وهو الإفساد فی الأرض والاخلال بالمجتمع (ونظامه الاجتماعی) ومبادیء العقیدة والأخلاق فیه.

ولا ریب أنّ ظهور «صالح» بمبادئه السامیة قد ضیّق الخناق علیهم، ولذلک تقول الآیة التالیة فی حقّهم: «قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصدِقُونَ».

الطریف أنّ اولئک کانوا یقسمون باللّه، ویعنی هذا أنّهم کانوا یعتقدون باللّه، مع أنّهم یعبدون الأصنام، وکانوا یبدأون باسمه فی المسائل المهمة.

جاء فی التواریخ أنّ المؤامرة کانت بهذه الصورة، وهی أنّ جبلًا کان فی طرف المدینة وکان فیه غار یتعبّد فیه صالح، وکان یأتیه لیلًا بعض الأحیان یعبد اللّه فیه ویتضرع إلیه،

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۲

فصمّموا علی أن یکمنوا له هناک لیقتلوه عند مجیئه فی اللیل، ویحملوا علی بیته بعد استشهاده ثم یعودوا إلی بیوتهم، وإذا سئلوا أظهروا جهلهم وعدم معرفتهم بالحادث.

فلما کمنوا فی زاویة واختبأوا فی ناحیة من الجبل انثالت صخور من الجبل تهوی إلی الأرض، فهوت علیهم صخرة عظیمة فأهلکتهم فی الحال. لذلک یقول القرآن فی الآیة التالیة: «وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

ثم یضیف قائلًا: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عِقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ».

وکلمة «مکر» تستعملها العرب فی کل حیلة وتفکیر للتخلص أو الإهتداء إلی أمر ما .. ولا تختص بالامور التی تجلب الضرر، بل تستعمل بما یضر وما ینفع .. فإذا نسبت هذه الکلمة إلی اللّه فإنّها تعنی إحباط المؤامرات الضارة من قبل الآخرین.

ثم یعبّر القرآن عن کیفیة هلاکهم وعاقبة أمرهم فیقول: «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا». أجل، لقد أذهبهم ریح عتوّهم وظلمهم، واحترقوا بنار ذنوبهم فهلکوا جمیعاً «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

إلّا أنّ الأخضر لم یحترق بالیابس، والأبریاء لم یؤخدوا بجرم الأشقیاء ... بل سلم المتقون «وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ».

وَ لُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (۵۴) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (۵۵)

انحراف قوم لوط: إنّ النبی الخامس الذی وردت الإشارة إلیه فی هذه السورة: نبی اللّه العظیم «لوط». یقول القرآن فی الآیتین محل البحث أوّلًا: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ». «الفاحشة»: تعنی الأعمال السیئة القبیحة، والمراد منها الإنحراف الجنسی وعمل اللواط المخزی.

ثم یضیف القرآن قائلًا: «أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ».

ولکی یتّضح بأنّ الدافع علی هذا العمل هو الجهل، فالقرآن یضیف قائلًا: «بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۳

تجهلون باللّه، وتجهلون هدف الخلق ونوامیسه، وتجهلون آثار هذا الذنب وعواقبه الوخیمة.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (۵۶) فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (۵۷) وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (۵۸) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمْ يُشْرِكُونَ (۵۹)

عندما تعدّ الطهارة عیباً کبیراً: والآن، لنستمع إلی جواب هؤلاء المنحرفین بماذا أجابوا منطق «لوط». یقول القرآن: «فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ». فجوابهم کاشف عن انحطاطهم الفکری والسقوط الأخلاقی البعید.

جاء فی الروایات أنّ لوطاً کان یبلغ قومه حوالی ثلاثین عاماً وینصحهم، إلّاأنّه لم یؤمن به إلّاأسرته وأهله باستثناء زوجته فإنّها کانت من المشرکین وعلی عقیدتهم.

بدیهی أنّ مثل هؤلاء القوم لا أمل فی إصلاحهم فی عالم الدنیا، فینبغی أن یطوی «طومار» حیاتهم، لذلک تقول الآیة التالیة فی هذا الشأن: «فَأَنجَیْنهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنهَا مِنَ الْغبِرینَ» «۱».

وبعد أن خرج آل لوط فی الموعد المعین «سحر لیلة کانت المدینة غارقة فیها بالفساد» فلما أصبح الصباح نزلت علیهم الحجارة من السماء، وتزلزت الأرض بهم، فدفنوا جمیعاً تحت الحجارة والأنقاض، وإلی هذا تشیر الآیة التالیة: «وَأَمْطَرْنَا عَلَیْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِینَ».

وفی آخر آیة من الآیات محل البحث، وبعد بیان ما جری علی لوط وقومه المنحرفین، یتوجه الخطاب إلی النبی الکریم «محمّد صلی الله علیه و آله» لیستنتج ممّا سبق، فیقول له: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ».

الحمد والثناء الخاص للّه، لأنّه أهلک امماً مفسدین کقوم لوط، لئلا تتلوث الأرض من وجودهم.

ثم یضیف قائلًا: «وَسَلمٌ عَلَی عِبَادِهِ الَّذِینَ اصْطَفَی .

سلام علی موسی وصالح ولوط وسلیمان وداود، وسلام علی جمیع الأنبیاء والمرسلین

---

(۱) «الغابرین»: جمع الغابر ومعناه هنا الباقی من الذاهبین من المکان.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۴

وعباد اللّه الصالحین، ومن والاهم بإحسان.

ثم یقول: «ءَآللَّهُ خَیْرٌ أَمَّا یُشْرِکُونَ».

أَمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا کَانَ لَکُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ یَعْدِلُونَ (۶۰) أَمْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَ جَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَ جَعَلَ لَهَا رَوَاسِیَ وَ جَعَلَ بَیْنَ الْبَحْرَیْنِ حَاجِزاً أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَکْثَرُهُمْ لَا یَعْلَمُونَ (۶۱) أَمْ یُجِیبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَ یَکْشِفُ السُّوءَ وَ یَجْعَلُکُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِیلًا مَا تَذَکَّرُونَ (۶۲) أَمْ یَهْدِیکُمْ فِی ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَنْ یُرْسِلُ الرِّیَاحَ بُشْراً بَیْنَ یَدَیْ رَحْمَتِهِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَی اللَّهُ عَمَّا یُشْرِکُونَ (۶۳) أَمْ یَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ وَ مَنْ یَرْزُقُکُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صَادِقِینَ (۶۴)

أمع کل هذه الأدلة ما تزالون مشرکین: فی آخر آیة من آیات البحث السابق، القی هذا السؤال الوجیز المتین: «ءَاللَّهُ خَیْرٌ أَمَّا یُشْرِکُونَ».

أمّا فی الآیات محل البحث فتفصّل السؤال .. وتوجه للمشرکین خمس آیات تبدأ بخمسة أسئلة، لتناقش المشرکین وتحاکمهم، وتکشف دلائل التوحید فی الآیات الخمس فی اثنی عشر مثلًا.

فالآیة الاولی من هذه الآیات تتحدث عن خلق السماوات والأرض، ونزول الماء من السماء والبرکات الناشئة عنه، فتقول:

هل أنّ معبوداتکم أفضل «أَمَّنْ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَکُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ».

«الحدائق»: جمع «الحدیقة»، وهی البستان الذی یحیطه الجدار أو الحائط، وله ماء کاف؛ و «البهجة»: معناها الجمال وحسن الظاهر الذی یسر الناظرین.

ویتوجه الخطاب نحو العباد فی ختام الآیة فیقول: «مَّا کَانَ لَکُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا».

فأنتم تستطیعون أن تنثروا البذور وتسقوا الأرض، لکن الذی جعل الحیاة فی قلب البذرة، وأمر الشمس أن تشرق علی الأرض، والماء ینزل من السماء حتی تنبت البذرة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۵

فتكون شجراً، هو اللَّه فحسب.

وبتعبير آخر: فإنّ التوحيد فى الخلق يؤدّى إلى «توحيد الخالق»، والتوحيد فى الربوبية «توحيد مدبّر هذا العالم» باعث على «توحيد العبادة».

ولذلك فالقرآن يقول فى نهاية الآية: «أَإِلهٌ مَّعَ اللَّهِ» ولكن هؤلاء جهلة عدلوا عن اللَّه وعبدوا ما لا ينفعهم ولا يضرهم «بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ» «١».

والسؤال الثانى بحث عن موهبة استقرار الأرض وثباتها، وأنّها مقر الإنسان فى هذا العالم، فيقول: هل أنّ أصنامكم أفضل، «أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَلَهَا أَنْهرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ» «٢». كما تحافظ على القشرة الأرضية من الزلازل، كما «وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا» ومانعاً من اختلاط البحر المالح بالبحر العذب.

وهكذا فقد ورد فى هذه الآية ذكر أربع نعم عظيمة، ثلاث منها تتحدث عن استقرار الأرض.

ترى هل يمكن أن يكون هذا النظام قد وُلد عن طريق الصدفة العمياء الصمّاء، والمبدأ الفاقد للعقل والحكمة؟! وهل للأصنام تأثير فى هذا النظام البديع المثير للدهشة؟!

حتى عبدة الأصنام لا يدعون مثل هذا الإدعاء! لذلك يكرر القرآن فى ختام الآية هذا السؤال: «أَإِلهٌ مَّعَ اللَّهِ». حاش للَّه «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

السؤال الثالث من هذه الأسئلة الخمسة التى تحكى عن محاورة ومحاكمة المعنوية يتحدث عن حلّ المشكلات، وفتح الطرق الموصدة، وإجابة الدعاء، إذ تقول الآية التالية: «أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ».

أجل، عندما تُغلق جميع أبواب عالم الأسباب بوجه الإنسان، ويغدو مضطراً حيراناً لا حيلة له، فإنّ الذى يحلّ المعضلة، ويفتح أبواب الرحمة بوجه الناس المتحيرين، هو اللَّه لا غير.

وحيث إنّ الناس يدركون هذه الحقيقة بالفطرة فى أعماق نفوسهم جميعاً، فإنّ المشركين

---

(١) قد يكون «يعدلون» من مادة «العدول» أى الإنحراف والرجوع من الحق إلى الباطل، أو أنّه مادة «عِدْل» على وزن (قِشر) ومعناه المعادل والنظير .. ففى الصورة الاولى مفهوم الآية أنّهم ينحرفون عن اللَّه الواحد إلى غيره، وفى‌الصورة الثانية مفهومها أنّهم يجعلون له عديلًا.

(٢) «الخلال»: فى الأصل معناه الشق بين الشيئين؛ و «الرواسى»: جمع «راسية» وهى الثابتة.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴٨۶

حين يقعون بين أمواج البحر المتلاطمة ينسون جميع معبوديهم ويتوجهون نحو لطف اللَّه، كما نقرأ فى الآية (۶۵) من سورة العنكبوت: «فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ». لذلك تضيف الآية قائلة: إنّه لا ينقذكم من هذه المآزق والشدائد فحسب، بل: «وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَءِلهٌ مَّعَ اللَّهِ» ولكنّكم لا تتعضون بهذه الدلائل .. «قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ».

ويثير القرآن فى السؤال الرابع مسألة الهداية فيقول: هل أنّ الأصنام أفضل، «أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمتِ الْبَرّ وَالْبَحْرِ» بواسطة النجوم «وَمَن يُرْسِلُ الرّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ».

فالرياح التى تدل على نزول الغيث، وكأنّها رسل البشرى تتحرك قبل نزول الغيث.

ويخاطب القرآن فى ختام الآية المشركين مرّة اخرى فيقول: «أَءِلهٌ مَّعَ اللَّهِ».

ثم يضيف دون أن ينتظر الجواب قائلًا: «تَعلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

أمّا فى آخر آية من الآيات محل البحث، فيثير القرآن السؤال الخامس فى شأن المبدأ والمعاد بهذه الصورة، فيقول: هل أنّ أصنامكم

أفضل، «أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكَم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ» .. فهل بعد ذلك تعتقدون بوجود معبود غير اللَّه «قُلْ هَاتُوا بُرْهنَكُمْ إِن كُنتُمْ صدِقِينَ».

والمراد من (الرزق السماوى) هو الغيث ونور الشمس وأمثال ذلك، أمّا (الرزق الأرضى) فالنباتات والمواد الغذائية المختلفة التى تنمو على الأرض مباشرة، أو عن طريق غير مباشر كالأنعام والمعادن والمواد المختلفة التى يتمتع بها الإنسان فى حياته.

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَ مَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (۶۵) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (۶۶) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذَا كُنَّا تُرَاباً وَ آبَاؤُنَا أَ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ (۶۷) لَقَدْ وُعِدْنَا هذَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۶۸)

لما كان البحث فى آخر الآيات السابقة عن القيامة والبعث، فإنّ الآيات- محل البحث-

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۷

تعالج هذه المسألة من جوانب شتى، فتجيب أوّلًا على السؤال الذى يثيره المشركون دائماً، وهو قولهم: متى تقوم القيامة؟ ومتى هذا الوعد؟ فتقول: «قُلْ لَّايَعْلَمُ مَن فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ».

لا شك أنّ علم الغيب- ومنه تاريخ وقوع القيامة- خاص باللَّه، إلّاأنّه لا منافاة فى أن يجعل اللَّه بعض ذلك العلم عند من يشاء من عباده، كما نقرأ فى الآيتين (۲۶ و ۲۷) من سورة الجن: «عِلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ».

ثم يتكلم القرآن عن عدم علم المشركين بيوم القيامة وشكهم وجهلهم، فيقول: «بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْأَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ».

«ادّارك»: فى الأصل «تدارك» ومعناه التتابع أو لحوق الآخر بالأوّل، فمفهوم جملة «بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْأَخِرَةِ»: أنّهم لم يصلوا إلى شىء بالرغم مما بذلوه من تفكير، وجمعوا المعلومات فى هذا الشأن، لذلك فإنّ القرآن يضيف مباشرة بعد هذه الجملة:

«بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ». لأنّ دلائل الآخرة ظاهرة فى هذه الدنيا، فعودة الأرض الميتة إلى الحياة فى فصل الربيع، وإزهار الأشجار وإثمارها مع أنّها كانت فى فصل الشتاء جرداء ... ومشاهدة عظمة قدرة الخالق فى مجموعة الخلق والوجود، كلها دلائل على إمكان الحياة بعد الموت، إلّاأنّهم كالعُمى الذين لا يبصرون كل شىء.

و الآية التالية توجز منطق منكرى القيامة والبعث فى جملة واحدة، فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ».

مع أنّهم كانوا أوّل الأمر تراباً وخلقوا من التراب، فما يمنع أن يعودوا إلى التراب، ثم يرجعون أحياءً بعد أن كانوا تراباً.

ثم يحكى القرآن عمّا يضيفه المشركون من قول: «لَقَدْ وُعِدْنَا هذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ»، ولكن لم نجد أثراً لهذا الوعد ولن يوجد، «إِنْ هذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، فما هى سوى خرافات وخزعبلات القدماء.

فبناءً على هذا فإنّهم يبدأون من الاستبعاد ثم يجعلونه أساساً للإنكار المطلق.

ويستفاد- ضمناً من هذا التعبير- أنّهم أرادوا أن يسخروا من كلام النبى فى شأن يوم القيامة، ويطعنوا عليه، فيقولوا: إنّ هذه الوعود الباطلة سبقت لأسلافنا، فلا جديد فيها يستحق بذل التفكير والمراجعة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۸

قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (۶۹) وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لَا تَكُنْ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (۷۰) وَ يَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۷۱) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ (۷۲) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (۷۳) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مَا يُعْلِنُونَ (۷۴) وَ مَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ (۷۵)

لا يضيق صدرك بمؤامراتهم: كان الكلام فى الآيات السابقة عن إنكار المعاندين الكفار للمعاد، واستهزائهم وتكذيبهم باليوم الآخر.

ولما كان البحث المنطقى غير مُجد لهؤلاء القوم المعاندين والأعداء الألدّاء، بالإضافة إلى ما أقامته الآيات الأخر من الدلائل الوافرة على المعاد مما يُرى كل يوم فى عالم النباتات وفى عالم الأجنة، وما إلى ذلك، فإنّ الآيات محل البحث بدلًا من أن تأتيهم بدليل، هددتهم بعذاب اللّه الذى شمل من سبقهم من الكفار، وأنذرتهم بعقابه المخزى ... فوجهت الخطاب للنبى صلى الله عليه و آله قائلةً: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ».

فأنتم تعترفون أنّ هذه الوعود تلقّاها أسلافكم، فلم يكترثوا بها، ولم يروا ضرراً.

وحيث إنّ الرسول صلى الله عليه و آله كان يشفق عليهم لإنكارهم، ويحزن لعنادهم، ويحترق قلبه من أجلهم، إذ كان حريصاً على هدايتهم، وكان يواجه مؤامراتهم أيضاً .. فإنّ الآية التالية تسرى عن قلب النبى فتقول له: «وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ» ولا تقلق من مؤآمراتهم «وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ».

إلّا أنّ هؤلاء المنكرين المعاندين، بدلًا من أن يأخذوا إنذار النبى المشفق عليهم مأخذ الجد فيتعظوا بوعظه ويسترشدوا بنصحه، أخذوا يسخرون منه «وَيَقُولُونَ مَتَى هذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صدِقِينَ».

وهنا يردّ القرآن على استهزائهم وسخريتهم بلهجة موضوعية، فيقول مخاطباً نبيّه: «قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ».

والمراد من العذاب الذى كانوا يستعجلون به، فقيل: هو ما أصابهم يوم بدر من هزيمة كبرى.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۸۹

كما ويحتمل أنّ المراد منه العقاب العام الذى دفع أخيراً، ببركة وجود النبى إذ كان رحمة للعالمين، والآية (۳۳) من سورة الأنفال شاهدة عليه: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ».

ثم يتحدث القرآن فى الآية التالية عن هذه الحقيقة وهى أنّ اللّه إذا لم يعجل فى عقابكم، فذلك بفضله وبرحمته، حيث يمهل عباده الإمهال الكافى لإصلاح أنفسهم، فيقول: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَشْكُرُونَ».

وإذا كانوا يتصورون أنّ تأخير العقاب لعدم علم اللّه سبحانه لما يدور فى خلدهم من نيات سيئة وأفكار ضالة، فهم فى غاية الخطأ: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ» (۱). فهو يعلم خفاياهم بمقدار ما يعلم من ظاهرهم وما يعلنون، والغيب والشهادة عنده سيّان.

ثم يضيف القرآن قائلًا: إنّه ليس علم اللّه منحصراً بما تكنّ القلوب وما تعلن، بل علمه واسع مطلق. «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتبٍ مُّبِينٍ».

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۷۶) وَ إِنَّهُ لَهُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (۷۷) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (۷۸) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (۷۹) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَ لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (۸۰) وَ مَا أَنْتَ بِهَادِى الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (۸۱)

كان الكلام فى الآيات السابقة عن المبدأ والمعاد، أمّا فى الآيات- محل البحث- فيقع الكلام على مسألة النبوة، وحقانية القرآن، ليكتمل بهما هذا البحث.

أضف إلى ذلك أنّ الخطاب كان فيما سبق من الآيات موجهاً للمشركين، وهنا يوجه الخطاب نحو الكفار الآخرين كاليهود واختلافاتهم. فتقول الآيات أوّلًا: «إِنَّ هذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَى بَنِى إِسْرَاءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

---

(۱) «تكنّ»: مأخوذ من كَنّ (على وزن جَنّ)، وهذا الفعل يطلق على ما تستر فيه الأشياء وتحفظ، وهنا كناية عن ما يخطر فى قلوب الكفار من خواطر وأفكارعدوانية.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۹۰

لقد اختلف بنو إسرائيل فيما بينهم فى مسائل كثيرة، فقد اختلفوا فى شأن مريم وعيسى عليهما السلام. وفى شأن النبى الذى بشّرت به «التوراة» من هو؟ كما أنّهم اختلفوا فى ما بينهم فى كثير من المسائل الدينية والأحكام الشرعية ... فجاء القرآن موضحاً هذه الامور بجلاء.

ولما كانت مواجهة الاختلافات والوقوف بوجهها مدعاة للهدى والرحمة، فإنّ الآية التالية تشير إلى هذا «الأصل الكلى» وتقول: «وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ».

إنّه هدى ورحمة من حيث حسم الخلافات ومبارزة الخرافات.

وحيث إنّ جماعة من بنى إسرائيل وقفت بوجه القرآن والحقائق الواردة فيه، لأوامر اللَّه، فإنّ الآية التالية تقول فى شأنهم: «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ». وهذا الكلام إضافة إلى أنّه يبيّن عظمة القرآن، وهو تهديد لبنى إسرائيل، فهو فى الوقت ذاته تسلية عن قلب النبى وتسرية عنه، لذا فالآية التالية تقول: «فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ».

توكّل على اللَّه العزيز الذى لا يغلب، والعليم بكل شىء .. فتوكّل عليه ولا تقلق من المشركين والمعاندين، لأنّه يرعاك و «إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ».

وهنا ينقدح هذا السؤال، وهو: إذا كان القرآن حقاً مبيناً فلماذا خالفوه؟ فالآيات التالية تجيب على هذا السؤال، فتقول: إذا كان اولئك لا يذعنون للحق المبين، ولا يؤثر فى قلوبهم هذا الكلام المتين، فلا مجال للعجب .. ل «إِنَّكَ لَاتُسْمِعُ الْمَوْتَى .

بل تسمع الأحياء الذين يبحثون عن الحق وأرواحهم توّاقة إليه، أمّا إحياء الموتى- أو موتى الأحياء- لتعصبهم وعنادهم واستمرارهم على الذنب، فلاترهق فكرك ونفسك من أجلهم وحتى لو كانوا احياء فإنّهم صمّ لا يسمعون فلايمكنهم أن يسمعوا صوتك، وخاصة إذا أداروا إليك ظهورهم وابتعدوا عنك، «وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ».

كما أنّهم لو كانوا مع هذه الحال يبصرون بأعينهم لاهتدوا إلى الصراط المستقيم، ولو ببعض العلامات، إلّاأنّهم عمى «وَمَا أَنتَ بِهدِى الْعُمْىِ عَن ضَلَلَتِهِمْ».

وهكذا فقد أوصدت جميع طرق إدراك الحقيقة بوجوههم، فقلوبهم ميتة، وآذانهم صمّ موقرة، وأعينهم عمى.

فأنت يا رسول اللَّه: «إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بَايَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ» ويشعرون فى أنفسهم بالاذعان للحق.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۹۱

وَ إِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآيَاتِى وَ لَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمْ ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨۴) وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨۵)

لما كانت الآية السابقة تتحدث عن استعجال الكفار بالعذاب ونزوله، فإنّ الآيات- محل البحث- تشير إلى بعض الحوادث التى تقع بين يدى القيامة، وتجسد عاقبة المنكرين الوخيمة، فتقول: «وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بَايَاتِنَا لَايُوقِنُونَ». «الدّابة»: معناها ما يدب ويتحرك. وقد طبق هذا المفهوم فى روايات كثيرة على أمير المؤمنين عليه السلام، والروايات الكثيرة فى تفسير الآية، تدل على أنّ المراد من «دابّة الأرض» هنا إنسان نشط فعال بما ذكرنا له من خصائص آنفاً، فهو يميز الحق من الباطل والمؤمن من المنافق والكافر.

إنسان يخرج فى آخر الزمان قبيل يوم القيامة، وهو بنفسه آية من آيات عظمة الخالق.

ثم تشير الآيات إلى علامة اخرى من علامات القيامة، فتقول: «وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بَايَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ». «الحشر»: معناه إخراج جماعة ما من مقرّها والسير بها نحو ميدان الحرب أو غيره؛ «الفوج»: الجماعة التى تتحرك بسرعة؛ و «يوزعون»: معناه

حبس الجماعة وإيقافها حتى يلحق الآخر منها بالأوّل.

فبناء على هذا يستفاد من مجموع الآية أنّ يوماً سوف سيأتى يحشر اللَّه فيه من كل امة جماعة، ويهيؤهم للحساب والجزاء على أعمالهم.

والكثير من الأعاظم يعتقدون بأنّ هذه الآية تشير إلى مسألة الرجعة وعودة جماعة من الصالحين وجماعة من الطالحين إلى هذه الدنيا قبيل يوم القيامة.

«حَتَّى إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بَايَاتِى وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وقائل هذا الكلام هو اللَّه سبحانه. والمراد من «الآيات» هى المعاجز التى يأتى بها الأنبياء، أو أوامر اللَّه، أو الجميع.

وبديهى أنّ هؤلاء المجرمين لا يستطيعون الإجابة على أىّ من هذين السؤالين، لذلك فإنّ الآية الأخيرة من الآيات محل البحث تضيف قائلة: «وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَايَنطِقُونَ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٤٩٢

وهذا القول أو العذاب دنيوى، إذا فسّرنا الآية بالرجعة، أو هو عذاب الآخرة إذا فسّرنا الآية بيوم القيامة «١».

أ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨۶) وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَ تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَ هِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)

حركة الأرض إحدى معاجز القرآن العلمية: مرّة اخرى تتحدث هذه الآيات عن مسألة المبدأ والمعاد، وآثار عظمة اللَّه، ودلائل قدرته فى عالم الوجود، وحوادث القيامة، فتقول: «أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا». وفى ذلك علائم ودلائل واضحة على قدرة اللَّه وحكمته لمن كان مستعداً للإيمان «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». و الآية التالية تتحدث عن مشاهد القيامة ومقدماتها، فتقول: «وَ» اذكر «يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِىالسَّموَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ». أى خاضعين.

ويستفاد من مجموع آيات القرآن أنّ النفخ فى الصور يقع مرّتين أو ثلاث مرات:

فالمرّة الاولى يقع النفخ فى الصور عند نهاية الدنيا وبين يدى القيامة، وبها يفزع من فى السماوات والأرض إلّامن شاء اللَّه.

والثانية «عند النفخ» يموت الجميع من سماع الصيحة، ولعلّ هاتين النفختين واحدة.

والمرّة الثالثة ينفخ فى الصور عند البعث وقيام القيامة .. إذ يحيا الموتى جميعاً بهذه إلّاأنّ الظاهر من الآية يدل على أنّ النفخة هنا إشارة إلى النفخة الاولى التى تقع فى نهاية الدنيا.

و الآية التالية تشير إلى إحدى آيات عظمة اللَّه فى هذا العالم الواسع، فتقول: «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ».

فمن يكون قادراً على كل هذا النظم والإبداع فى الخلق، لا ريب فى علمه و «إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ».

---

(١) و «الرجعة» من عقائد الشيعة المعروفة، وتفسيرها فى عبارة موجزة بهذا النحو: بعد ظهور المهدى عليه السلام وبين يدى القيامة، يعود طائفة من المؤمنين الخلّص، وطائفة من الكفار الأشرار، إلى هذه الدنيا .. فالطائفة الاولى تصعد فى مدارج الكمال ... والطائفة الثانية تنال عقابها الشديد.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٤٩٣

إنّ الآية آنفة الذكر من قبيل آيات التوحيد ودلائل عظمة اللَّه فى هذه الدنيا، وتشير إلى حركة الأرض التى لا نحس بها، فالآية آنفة الذكر تعدّ من معاجز القرآن العلمية.

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (۸۹) وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۰) إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۹۱) وَ أَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (۹۲) وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۹۳)

كان الكلام فى الآيات السابقة عن أعمال العباد وعلم اللّه بها، أمّا الآيات محل البحث فيقع الكلام فى مستهلّها عن جزائهم وثواب أعمالهم وأمنهم من فزع يوم القيامة، إذ يقول سبحانه: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ».

إنّ معنى الآية واسع كما أنّ الحسنة هنا معناها واسع أيضاً، فهى تشمل الصالحات والأعمال الخالصة، ومن ضمنها الإيمان باللّه وبرسوله وولاية الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، التى تعدّ فى طليعة الأعمال الحسنة، ولا يمنع أن تكون هناك أعمال صالحة اخرى تشملها الآية.

ثم يتحدث القرآن عن الطائفة الاخرى التى تقابل أصحاب الحسنات فتقول: «وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ».

وليس لهذه الطائفة أىّ توقع غيرها «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

«كُبّت»: مأخوذ من «كبّ» على وزن «جدّ» ومعناه فى الأصل إلقاء الشىء على وجهه على الأرض، فبناء على هذا فإنّ ذكر «وجوههم» فى الآية هو من باب التوكيد.

إنّ اولئك حين كانوا يواجهون الحقّ يُلوون وجوههم ورؤوسهم، وكانوا يواجهون الذنوب بتلك الوجوه فرحين ... فالآن لابدّ أن يبتلوا بمثل هذا العذاب.

ثم يوجه الخطاب للنبى صلى الله عليه و آله فى الآيات الثلاث من آخر هذه السورة، ويؤكّد له هذه الحقيقة وهى أن يخبر اولئك المشركين بأنّ عليه أن يؤدّى رسالته ووظيفته، سواءً آمنتم أم لم تؤمنوا؟! فتقول الآية الاولى من هذه الآيات: «إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ».

هذه البلدة المقدسة التى يتلخّص كل وجودكم وشرفكم بها.

أجل، أعبد ربّ هذه البلدة المقدسة «الَّذِى حَرَّمَهَا» وجعل لها خصائص وأحكاماً

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۹۴

وحرمة، وأموراً اخر لا تتمتع بها أية بلدة اخرى فى الأرض.

لكن لاتتصوروا أنّ هذه البلدة وحدها للّه، بل له كل شى فى عالم الوجود «وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ».

والأمر الثانى الذى أمرت به، هو أن أسلم وجهى له «وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

وهكذا فإنّ الآية بيّنت وظيفتين أساسيتين على النبى وهما (عبادة الواحد الأحد، والتسليم المطلق لأمره).

و الآية التالية تبيّن أسباب الوصول إلى هذين الهدفين فتقول: «وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ».

أتلوه فأستضىء بنوره، وأنتهل من عذب معينه الذى يهب الحياة، وأن أعول فى جميع مناهجى على هديه. أجل، فالقرآن وسيلتى للوصول إلى هذين الهدفين المقدسين، والمواجهة لكل أنواع الشرك والإنحراف والضلال ومكافحتها.

ثم تعقب الآية لتحكى عن لسان الرسول وهو يخاطب قومه: لا- تتصوروا أنّكم إذا آمنتم انتفعت من وراء ذلك لنفسى، كما أنّ اللّه غنى عنكم، بل: «فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ».

وكل ما يترتب على الهداية من منافع دنيوية، كانت أم اخروية فهى عائدة للمهتدى نفسه والعكس صحيح «وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ».

والأمر الأخير- فى آخر آية من هذه السورة- موجه للنبى أن يحمد اللّه على هذه النعم الكبرى، ولا سيما نعمة الهداية فيقول:

«وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ».

هذا الحمد أو الثناء يعود لنعمة القرآن، كما يعود للهداية أيضاً، ويمكن أن يكون مقدمة للجملة التالية: «سَيُرِيكُمْ ءَايِتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا». وهذا التعبير إشارة إلى أنّه مع مرور الزمان وتقدم العلم والمعرفة، سينكشف كل يوم بعض أسرار عالم الوجود، ويرفع ستار جديد عنها .. وستعرفون نعم اللّه وعظمة قدرته وعمق حكمته يوماً بعد يوم .. وإراءة الآيات هذه مستمرة دائماً ولا تنقطع مدى عمر البشر.

إلّا أنّكم إذا واصلتم طريق الخلاف والانحراف، فلن يتركم اللّه سدى «وَمَا رَبُّكَ بِغفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ».

ولا تتصوروا بأنّ اللّه إذا أخر عقابكم بلطفه، فهو غير مطلع على أعمالكم، وأنّها لا تسجل فى اللوح المحفوظ.

وجملة «وَمَا رَبُّكَ بِغفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» الواردة بنفسها أو مع شىء من التفاوت اليسير فى تسع آيات من القرآن جملة موجزة، وهى تهديد ذو معنى عميق، وإنذار لجميع الناس.

«نهاية تفسير سورة النمل»

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۹۵

۲۸ سورة القصص

محتوى السورة: هذه السورة نزلت فى مكة، وفى ظروف كان المؤمنون فى قبضة الأعداء الأقوياء وبين مخالبهم، الأعداء الذين كانوا أكثر عدداً وأشدّ قدرةً وقوةً ونفيراً.

وبما أنّ هذه الحالة كانت كثيرة الشبه بالحالة التى كان عليها بنو إسرائيل وهم بين مخالب الفراعنة، فإنّ قسماً من محتوى هذه السورة يتحدث عن قصة بنى إسرائيل وموسى عليه السلام والفراعنة.

فى بداية السورة يبشر المستضعفين بحكومة الحق والعدل لهم وكسر شوكة الظالمين، بشرى تمنحهم الإطمئنان والقدرة.

و «القسم الآخر» من هذه السورة يتحدّث عن «قارون»، ذلك الرجل المستكبر الثرى الذى كان يعتمد على علمه وثروته، حتى لقى أثر غروره ما لقيه فرعون من مصير أسود.

احدهما غريق فى الماء والآخر دفين فى الأرض.

وبين هذين القسمين دروس حيّة وقيّمة من التوحيد والمعاد وأهمية القرآن، وبيان حال المشركين فى يوم القيامة، ومسألة الهداية والضلالة، والإجابة على حجج الأفراد الضعاف، وهى «نتيجة» الأوّل و «مقدمة» للقسم الثانى.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ طسم القصص

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۹۶

اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بموسى وكذّب به، ولم يبق ملك فى السماوات والأرض إلّاشهد له يوم القيامة أنّه كان صادقاً».

وبديهى أنّ كل هذا الأجر والثواب هو لُاولئك الذين يقرأون ويتفكرون، وعلى ضوء هذه السورة يخططون لحياتهم وعملهم.

طسم (۱) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (۲) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۳) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (۴) وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (۵) وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَ نُرِىَ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (۶)

هذه هى المرّة الرابعة عشرة التى نواجه بها بدايات السورة بالحروف المقطعة فى القرآن، وقد تكررت فيها «طسم» ثلاث مرات، وهى هنا- أى «طسم»- ثالث المرات وآخرها.

إنّه يظهر من كثير من الروايات فى شأن «طسم» أنّ هذه الحروف إشارات موجزة عن صفات اللّه سبحانه وتعالى، أو أنّها أماكن

مقدسّة، ولكنها فى الوقت ذاته لا تمنع من ذلك التّفسير المعروف الذى أكّدنا عليه مراراً، وهو أنّ اللّه تعالى يريد أن يوضح هذه الحقيقة للجميع، وهى أنّ هذا الكتاب السماوى العظيم الذى هو أساس التغيير الكبير فى تأريخ البشرية وحامل المنهج المتكامل للحياة الكريمة للإنسانية يتشكّل من امور بسيطة كهذه الحروف «ألف باء ...» التى يستطيع أن يتلفظ بها كل صبّى.

ومن هنا تتجلى عظمة القرآن وأهميته القصوى، إذ يتألف من هذه الحروف البسيطة التى هى فى اختيار الجميع.

ولعل هذا السبب كان داعياً لأن يكون الحديث بعد الحروف المقطعة مباشرةً عن عظمة القرآن، إذ يقول: «تِلْكَ ءَايتُ الْكِتبِ الْمُبِينِ».

والقرآن بعد ذكر هذه المقدمة يحكى قصة «فرعون» و «موسى» فيقول: «نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۹۷

نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

والتعبير «بالحق» إشارة إلى أنّ ما ورد هنا خال من كل خرافة واسطورة، وبعيد عن الأباطيل والأكاذيب، فهى إذن تلاوة مقترنة بالحق والواقعية.

والتعبير ب «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» هو تأكيد على هذه الحقيقة، وهى أنّ مؤمنى ذلك العصر الذين كانوا يرزخون تحت ضغوط المشركين والأعداء، عليهم أن يدركوا هذه الحقيقة، وهى أنّ الأعداء مهما تعاظمت قواهم وتزايدوا عَدداً وعُدداً، وأنّ المؤمنين مهما قلّوا وكانوا تحت ضغط أعدائهم وكانوا ضعافاً بحسب الظاهر، فلا ينبغى أن يهنوا وينكصوا عن طريق الحق، فكل شىء عند اللّه سهل يسير ..

ثم يفصّل القرآن ما أجمله بقوله: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الْأَرْضِ».

فقد كان عبداً ضعيفاً، وعلى أثر جهله وعدم معرفته أضاع شخصيته ووصل إلى مرحلة من الطغيان حتى أنّه ادّعى الربوبية.

والتعبير ب «الأرض» إشارة إلى أرض مصر وما حولها.

إنّ فرعون- من أجل تقوية قواعده الإستكبارية- قد أقدم على عدّة جرائم كبرى، فالجريمة الأولى، أنّه فرّق بين أهل مصر «وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا».

فلا يمكن أن تحكم الأقلية- التى لا تُعدّ شيئاً- على الأكثرية إلّابالخطة المعروفة «فرّق تَسُدْ» فهم مستوحشون من «كلمة التوحيد» و «توحيد الكلمة» ويخافون منهما أبداً، ويخافون من التفاف الناس بعضهم حول بعض.

إنّ فرعون قسّم أهل مصر إلى طائفتى «الأقباط» و «الأسباط».

فالأقباط هم أهل مصر «الأصليون» الذين كانوا يتمتعون بجميع وسائل الرفاه والراحة، وكانت فى أيديهم القصور ودوائر الدولة والحكومة.

و «الأسباط» هم المهاجرون إلى مصر من بنى إسرائيل الذين كانوا على هيئة العبيد والخدم «فى قبضة الأقباط» وكانوا محاطين بالفقر والحرمان.

والجريمة الثانية هى استضعافه لجماعة من أهل مصر بشكل دموى سافر كما يعبر عن ذلك القرآن بقوله: «يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْىِ نِسَاءَهُمْ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۴۹۸

ولكون ورود جملة «يُذَبّحُ أَبْنَاءَهُمْ» بعد جملة «يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ» فإنّ مسألة اخرى تتجلى أمامنا، وهى أنّ الفراعنة اتخذوا خطة لاستضعاف بنى إسرائيل بذبح الأبناء، لئلا يستطيع بنو إسرائيل أن يواجهوا الفراعنة ويحاربوهم، وكانوا يتركون النساء اللاتى لا طاقة لهن على القتال والحرب، ليكبرن ثم يخدمن فى بيوتهم. وفى آخر جملة تأتى الآية بتعبير جامع، وفيه بيان العلة أيضاً فتقول: «إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ».

والتعبير ب «يذبّح» المشتق من مادة «المذبح» تدل على معاملة الفراعنة لبنى إسرائيل كمعاملة القصابين للأغنام والأنعام الاخرى، إذ

کانوا یذبحون هؤلاء الناس الأبریاء ویحتزون رؤوسهم.

ثم تأتی الآیة الاخری لتقول: إنّ إرادتنا ومشیئتنا إقتضت احتواء المستضعفین بلطفنا وکرمنا؛ «وَنُرِیدُ أَن نَّمُنَّ عَلَی الَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا فِی الْأَرْضِ» وأن تشملهم رعایتنا ومواهبنا تکون بید الحکومة ومقالید الأمور: «وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِینَ».

ویکونون اولی قوة وقدرة فی الأرض «وَنُمَکِّنَ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ وَنُرِیَ فِرْعَوْنَ وَهمنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا کَانُوا یَحْذَرُونَ».

فهی بشارة فی صدد إنتصار الحق علی الباطل والإیمان علی الکفر.

وهی بشارة لجمیع الأحرار الذین یریدون العدالة وحکومة العدل وانطواء بساط الظلم والجور.

وحکومة بنی إسرائیل وزوال حکومة الفراعنة ما هی إلّانموذج لتحقق هذه المشیئة الإلهیة والمثل الأکمل هو حکومة نبی الأعظم صلی الله علیه و آله وأصحابه بعد ظهور الإسلام.

والمثل الأکبر والأوسع هو ظهور حکومة الحق والعدالة علی جمیع وجه البسیطة- والکرة الأرضیة- علی ید «المهدی» أرواحنا له الفداء.

ومن الطبیعی أنّ حکومة المهدی علیه السلام العالمیة فی آخر الأمر لا تمنع من وجود حکومات إسلامیة فی معاییر محدودة قبلها من قبل المستضعفین ضد المستکبرین، ومتی ما تمّت الظروف والشروط لمثل هذه المحکومات الإسلامیة فإنّ وعد اللّه المحتوم والمشیئة الإلهیة سیتحققان فی شأنها، ولابدّ أن یکون النصر حلیفها بإذن اللّه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۴۹۹

وَ أَوْحَیْنَا إِلَی أُمِّ مُوسَی أَنْ أَرْضِعِیهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَیْهِ فَأَلْقِیهِ فِی الْیَمِّ وَ لَا تَخَافِی وَ لَا تَحْزَنِی إِنَّا رَادُّوهُ إِلَیْکِ وَ جَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِینَ (۷) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِیَکُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَ حَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ جُنُودَهُمَا کَانُوا خَاطِئِینَ (۸) وَ قَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَیْنٍ لِی وَ لَکَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَی أَنْ یَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لَا یَشْعُرُونَ (۹)

فی قصر فرعون: من أجل رسم مثل حی لانتصار المستضعفین علی المستکبرین، یدخل القرآن المجید فی سرد قصة موسی وفرعون. یقول القرآن: «وَأَوْحَیْنَا إِلَی أُمّ مُوسَی أَنْ أَرْضِعِیهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَیْهِ فَأَلْقِیهِ فِی الْیَمّ وَلَا تَخَافِی وَلَا تَحْزَنِی إِنَّا رَادُّوهُ إِلَیْکِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِینَ».

وهذه الآیة علی إیجازها تشتمل علی أمرین ونهیین وبشارتین، وهی خلاصة قصة کبیرة وذات أحداث ومجریات ننقلها بصورة مضغوطة:

کانت سلطة فرعون وحکومته الجائرة قد خططت تخطیطاً واسعاً لذبح «الأطفال» من بنی إسرائیل حتی أنّ القوابل [من آل فرعون کنّ یراقبن النساء الحوامل [من بنی إسرائیل ، ومن بین هؤلاء القوابل کانت قابلة لها علاقة مودّة مع أمّ موسی علیه السلام «وکان الحمل خفیّاً لم یظهر أثره علی امّ موسی» وحین أحسّت امّ موسی بأنّها مقرب وعلی أبواب الولادة أرسلت خلف هذه القابلة وأخبرتها بالواقع، وأنّها تحمل جنیناً فی بطنها وتوشک أن تضعه، فهی بحاجة- هذا الیوم- إلیها.

وحین ولد موسی علیه السلام سطع نور بهیّ من عینیه فاهتزّت القابلة لهذا النور وطُبع حُبّه فی قلبها، وأنار جمیع زوایا قلبها، فالتفتت القابلة إلی امّ موسی وقالت لها: کنت أروم أن أخبر الجهاز الفرعونی بهذا الولید ولکن ما عسی أن أفعل وقد وقع حبّه الشدید فی قلبی، فاهتمی بالمحافظة علیه، وأظنّ أنّ عدوّنا المتوقع سیکون هذا الطفل أخیراً.

ثم خرجت القابلة من بیت ام موسی فرآها بعض الجواسیس من جلاوزة فرعون وصمموا علی أن یدخلوا البیت، فعرفت أخت موسی ما أقدموا علیه فأسرعت إلی امّها وأخبرتها بأن تتهیأ للأمر، وفی هذه الحالة من الإرتباک وهی ذاهلة لفت ولیدها «موسی» بخرقة وألقته فی التنور فإذا بالمأمورین والجواسیس یقتحمون الدار، فلم یجدوا شیئاً إلّا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۰۰

مختصر الامثل ج٣ ٥٥٠

التنور المشتعل ناراً. وقد جعل اللّه النار عليه برداً وسلاماً «اللّه الذى نجّى إبراهيم الخليل من نار النمرود» فأخرجت وليدها سالماً من التنور.

لكن الام لم تهدأ إذ أنّ الجواسيس يمضون هنا وهناك ويفتشون البيوت.

وفى هذه الحال اهتدت ام موسى بإلهام جديد، فجاءت إلى نجّار مصرى «وكان النجار من الأقباط والفراعنة أيضاً» فطلبت منه أن يصنع صندوقاً صغيراً.

والوقت كان فجراً والناس- بعد- نيام، وفى هذه الحال خرجت ام موسى وفى يديها الصندوق الذى أخفت فيه ولدها موسى، فاتجهت نحو النيل وأرضعت موسى حتى ارتوى، ثم ألقت الصندوق فى النيل فتلقفته الأمواج.

ورد فى الأخبار أنّ فرعون كانت له بنت مريضة، وكانت هذه البنت تعانى من آلام شديدة لم ينفعها علاج الأطباء، فلجأ إلى الكهنة فقالوا له: نتكهن ونتوقع أنّ إنساناً يخرج من البحر يكون شفاؤها من لعاب فمه حين يدهن به جسدها، وكان فرعون وزوجه «آسية» فى إنتظار هذا «الحادث» وفى يوم من الأيام .. فجأة لاح لعيونهما صندوق تتلاطمه أمواج النيل فلفت الأنظار، فأمر فرعون عمّاله أن يأتوا به ليعرفوا ما به؟!

ومثّل الصندوق «المجهول» الخفى أمام فرعون، فلما وقعت عين آسية عليه سطع منه نور فأضاء قلبها، ودخل حبّه فى قلوب الجميع، وحين شفيت بنت فرعون من لعاب فمه زادت محبّته أكثر فأكثر.

ولنعد الآن إلى القرآن الكريم لنسمع خلاصة القصة من لسانه. يقول القرآن فى هذا الصدد: «فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا».

«التقط»: مأخوذة من مادة «التقاط» ومعناها فى الأصل الوصول إلى الشيء دون جهد وسعى، وإنّما سميت الأشياء التى يعثر عليها «لقطة» للسبب نفسه أيضاً ..

ثم تختتم الآية بالقول: «إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهمنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خطِينَ». وأى خطأ أعظم من أن يحيدوا عن طريق العدل والحق، وأن يبنوا قواعد حكمهم على الظلم والجور والشرك.

وأى خطأ أعظم أن يذبحوا آلاف الأطفال ليقتلوا موسى عليه السلام، ولكن اللّه سبحانه أودعه فى أيديهم وقال لهم: خذوا عدوّكم هذا وربّوه ليكبر عندكم.

ويستفاد من الآية التالية أنّ شجاراً حدث ما بين فرعون وامرأته، ويحتمل أنّ بعض

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٠١

أتباعه كانوا قد وقفوا عند رأس الطفل ليقتلوه، لأنّ القرآن الكريم يقول فى هذا الصدد: «وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَاتَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا».

إنّ فرعون وجد فى مخايل الطفل والعلائم الاخرى أنّ هذا الطفل من بنى إسرائيل، فأراد أن يجرى قانون إجرامه عليه. ولكن آسية امرأة فرعون التى لم ترزق ولداً ذكراً، وقفت بوجه فرعون وأعوانه ومنعتهم من قتله.

وإذا أضفنا قصة شفاء بنت فرعون بلعاب فم موسى- على ما قدمناه- فسيكون دليلًا آخر يوضح كيفية انتصار آسية فى هذه الازمة.

ولكن القرآن- بجملة مقتضبة وذات مغزى كبير- ختم الآية قائلًا: «وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

أجل، إنّهم لم يشعروا أنّ أمر اللّه النافذ ومشيئته التى لا تقهر، اقتضت أن يتربى هذا الطفل فى أهم المراكز خطراً ... ولا أحد يستطيع أن يردّ هذه المشيئة، ولا يمكن مخالفتها أبداً ..

وَ أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْ لَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَ قَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ

جُنُبٍ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)

عودة موسى إلى حضن امّه: فى هذه الآيات تتجسد مشاهد جديدة .. فام موسى التى قلنا عنها: إنّها ألقت ولدها فى أمواج النيل، بحسب ما فصّلنا آنفاً .. اقتحم قلبها طوفان شديد من الهمّ على فراق ولدها، فأوشكت أن تصرخ من أعماقها وتذيع جميع أسرارها، لكن لطف اللّه تداركها، وكما يعبّر القرآن الكريم: «وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلَا أن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». «الفارغ»: معناه الخالى، والمقصود به هنا أنّ قلب امّ موسى أصبح خالياً من كل شىء إلّامن ذكر موسى؛ «ربطنا»: من مادة «ربط» ومعناها فى الأصل شدّ وثاق الحيوان أو ما أشبهه بمكان ما ليكون محفوظاً فى مكانه.

والمقصود من «ربط القلب» هنا تقويته .. أى تثبيت قلب ام موسى، لتؤمن بوعد اللّه

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٠٢

وتتحمل هذا الحادث الكبير. وعلى أثر لطف اللّه أحست امّ موسى بالاطمئنان، ولكنّها أحبت أن تعرف مصير ولدها، ولذلك أمرت أخته أن تتبع أثره وتعرف خبره: «وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصّيهِ».

«قصّيه»: مأخوذة من مادة «قصّ» ومعناها البحث عن آثار الشىء، وإنّما سمّيت القصة قصةً لأنّها تحمل فى طياتها أخباراً مختلفة يتبع بعضها بعضاً.

فاستجابت «اخت موسى» لأمر امّها، وأخذت تبحث عنه بشكل لا يثير الشبهة، حتى بصرت به من مكان بعيد، ورأت صندوقه الذى كان فى الماء يتلقفه آل فرعون .. ويقول القرآن فى هذا الصدد: «فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ».

ولكن اولئك لم يلتفتوا إلى أنّ أخته تتعقبه: «وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ».

وعلى كل حال، فقد اقتضت مشيئة اللّه أن يعود هذا الطفل إلى امّه عاجلًا ليطمئن قلبها، لذلك يقول القرآن الكريم:

«وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ» «١».

وطبيعى أنّ الطفل الرضيع حين تمر عليه عدة ساعات فإنّه يجوع ويبكى.

كان عمال القصر يركضون من بيت لآخر بحثاً عن مرضع له، والعجيب فى الأمر أنّه كان يأبى أثداء المرضعات.

وهذا هو التحريم التكوينى من قبل اللّه تعالى إذ حرّم عليه المراضع جميعاً.

والطفل يبكى وعمال فرعون يدورون به بحثاً عن مرضع حتى صادفوا بنتاً أظهرت نفسها بأنّها لا تعرف الطفل: «فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهَلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نصِحُونَ».

فسرّ بها هؤلاء وجاءوا بام موسى إلى قصر فرعون، فلمّا شمّ الطفل رائحة امه التقم ثديها بشغف كبير.

فى التفسير الكبير: لما قبل ثديها قال هامان إنّك لُامّه. قالت: لا. قال: فما بالك قبل ثديك من بين النسوة؟ قالت: أيّها الملك إنّى إمرأة طيّبة الريح حلوة اللبن ماشم ريحى صبى إلّاأقبل على ثديى. قالوا: صدقت. فلم يبق أحد من آل فرعون إلّاأهدى إليها وأتحفها بالذهب والجواهر.

أجل، إنّ اللّه أراد لموسى أن يرتضع من لبن طاهر كلبن امّه ليستطيع أن ينهض بوجه

---

(١) «المراضع»: جمع «مُرضِع» ومعناها المرأة التى تسقى الطفل لبنها من ثديها.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٠٣

الأرجاس ويحارب الآثمين.

وتمّ كل شىء بأمر اللّه: «فَرَدَدْنَهُ إِلَى أُمِّهِ كَى تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوَی آتَیْنَاهُ حُکْماً وَ عِلْماً وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ (۱۴) وَ دَخَلَ الْمَدِینَهَ عَلَی حِینِ غَفْلَهٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِیهَا رَجُلَیْنِ یَقْتَتِلَانِ هذَا مِنْ شِیعَتِهِ وَ هذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِی مِنْ شِیعَتِهِ عَلَی الَّذِی مِنْ عَدُوِّهِ فَوَکَزَهُ مُوسَی فَقَضَی عَلَیْهِ قَالَ هذَا مِنْ عَمَلِ الشَّیْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِینٌ (۱۵) قَالَ رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی فَاغْفِرْ لِی فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ (۱۶) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَیَّ فَلَنْ أَکُونَ ظَهِیراً لِلْمُجْرِمِینَ (۱۷)

موسی علیه السلام وحمایة المظلومین: فی هذه الآیات نواجه المرحلة الثالثة من قصة موسی علیه السلام وما جری له مع فرعون، وفیها مسائل تتعلق ببلوغه، وبعض الأحداث التی شاهدها وهو فی مصر قبل أن یتوجه إلی «مدین» ثم سبب هجرته إلی مدین. تقول الآیات فی البدایة: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَی ءَاتَیْنهُ حُکْمًا وَعِلْمًا وَکَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ».

«أشدّ»: مشتقة من مادة «الشدّة» وهی القوة.

«استوی»: مشتقة من «الاستواء» ومعناها کمال الخلقة واعتدالها.

والمراد بالحکم والعلم هنا لیس النبوة والوحی، بل المقصود من الحکم والعلم هما المعرفة والنظرة الثاقبة والقدرة علی القضاء الصحیح وما شابه ذلک، وقد منح اللّه هذه الامور لموسی علیه السلام لطهارته وصدقه وأعماله الصالحة.

وعلی کل حال فإنّ موسی «دَخَلَ الْمَدِینَهَ عَلَی حِینِ غَفْلَهٍ مِّنْ أَهْلِهَا».

یحتمل أنّ هذه المدینة هی عاصمة مصر.

والمقصود من جملة «عَلَی حِینِ غَفْلَهٍ مِّنْ أَهْلِهَا» هو أوّل اللیل، لأنّ الناس یترکون أعمالهم ویعطلون دکاکینهم ومحلاتهم ابتغاء الراحة والنوم، وجماعة یذهبون للتنزه، وآخرون لأماکن اخری .. هذه الساعة هی المعبر عنها بساعة الغفلة فی بعض الروایات الإسلامیة. فی معانی الأخبار قال النبی صلی الله علیه و آله: «تنفّلوا فی ساعة الغفلة ولو برکعتین خفیفتین فإنّهما تورثان دار الکرامة».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۰۴

قیل: یا رسول اللّه ومتی ساعة الغفلة؟ قال: «ما بین المغرب والعشاء». والحق أنّ هذه الساعة ساعة غفلة وکثیراً ما تحدث الجنایات والفساد والإنحرافات الأخلاقیة فی مثل هذه لساعة من أوّل اللیل .. فلا الناس مشغولون بالکسب والعمل، ولا هم نائمون، بل هی حالة غفلة عمومیة تغشی المدینة عادةً فی هذه الساعة.

وموسی دخل المدینة، وهنالک واجه مشادّة ونزاعاً، فاقترب من منطقة النزاع «فَوَجَدَ فِیهَا رَجُلَیْنِ یَقْتَتِلَانِ هذَا مِن شِیعَتِهِ وَهذَا مِنْ عَدُوِّهِ».

والتعبیر ب «شیعته» یدلّ علی أنّ موسی قبل أن یبعث کان له أتباع وأنصار وشیعة من بنی إسرائیل.

فلما بصر الإسرائیلی بموسی استصرخه، «فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِی مِن شِیعَتِهِ عَلَی الَّذِی مِنْ عَدُوِّهِ».

فجاءه موسی علیه السلام لإستنصاره وتخلیصه من عدوّه الظالم .. الذی یقال عنه أنّه کان طباخاً فی قصر فرعون، وکان یرید من الإسرائیلی أن یحمل معه الحطب إلی القصر، فضرب موسی هذا العدو بقبضة یده القویة علی صدره، فهوی إلی الأرض میتاً فی الحال. تقول الآیة: «فَوَکَزَهُ مُوسَی فَقَضَی عَلَیْهِ» «۱».

ومما لا شک فیه، فإنّ موسی لم یقصد أن یقتل الفرعونی، لذلک فإنّ موسی علیه السلام أسف علی هذا الأمر: «قَالَ هذَا مِنْ عَمَلِ الشَّیْطنِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِینٌ».

فإنّ موسی علیه السلام کان یرید أن یبعد الفرعونی عن الرجل الإسرائیلی، وإن کان الفرعونیون یستحقون أکثر من ذلک، لکن ظروف ذلک الوقت لم تکن تساعد علی مثل هذا العمل.

ثم یتحدث القرآن عن موسی علیه السلام فیقول: «قَالَ رَبّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی فَاغْفِرْ لِی فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ».

ومن المسلم به أنّ موسی علیه السلام لم یصدر منه ذنب هنا، بل ترک الأولی، فکان ینبغی علیه أن یحتاط لئلا یقع فی مشکلة، ولذلک فإنّه استغفر ربّه وطلب منه العون.

لذلک فإنّ موسی علیه السلام حین نجا بلطف اللّه من هذا المأزق: «قَالَ رَبّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَیَّ» من عفوک عنی وانقاذی من ید الأعداء وجمیع ما أنعمت علی منذ بدایة حیاتی لحدّ الآن «فَلَنْ

(۱) «وکز»: مأخوذ من «الوکز» ومعناه الضرب بقبضة الید، وهناک معان اخری لا تناسب المقام.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۰۵

أَکُونَ ظَهِیرًا لِّلْمُجْرِمِینَ»، ومعیناً للظالمین.

ویرید موسی علیه السلام أن یقول: «إنّه لا یکون بعد هذا مع فرعون وجماعته أبداً .. بل سیکون إلی جانب الإسرائیلیین المضطهدین ..».

فَأَصْبَحَ فِی الْمَدِینَةِ خَائِفاً یَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِی اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ یَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَی إِنَّکَ لَغَوِیٌّ مُبِینٌ (۱۸) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ یَبْطِشَ بِالَّذِی هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ یَا مُوسَی أَ تُرِیدُ أَنْ تَقْتُلَنِی کَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِیدُ إِلَّا أَنْ تَکُونَ جَبَّاراً فِی الْأَرْضِ وَ مَا تُرِیدُ أَنْ تَکُونَ مِنَ الْمُصْلِحِینَ (۱۹) وَ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَی الْمَدِینَةِ یَسْعَی قَالَ یَا مُوسَی إِنَّ الْمَلَأَ یَأْتَمِرُونَ بِکَ لِیَقْتُلُوکَ فَاخْرُجْ إِنِّی لَکَ مِنَ النَّاصِحِینَ (۲۰) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً یَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِی مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ (۲۱) وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْیَنَ قَالَ عَسَی رَبِّی أَنْ یَهْدِیَنِی سَوَاءَ السَّبِیلِ (۲۲)

موسی یتوجّه إلی مدین خُفیة: نواجه فی هذه الآیات المقطع الرابع من هذه القصة ذات المحتوی الکبیر، حیث إنّ مقتل الفرعونی فی مصر انتشر بسرعة، ولعل اسم موسی علیه السلام کان مذکوراً من بین بنی إسرائیل المشتبه فیهم. لذلک یقول القرآن فی بدایة هذا المقطع: «فَأَصْبَحَ فِی الْمَدِینَةِ خَائِفًا یَتَرَقَّبُ» «۱». وهو علی حال من الترقب والحذر، فوجیء فی الیوم التالی بالرجل الإسرائیلی الذی آزره موسی بالأمس یتنازع مع قبطی آخر وطلب من موسی أن ینصره: «فَإِذَا الَّذِی اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ یَسْتَصْرِخُهُ» «۲».

ولکن موسی تعجب منه واستنکر فعله و «قَالَ لَهُ مُوسَی إِنَّکَ لَغَوِیٌّ مُّبِینٌ». إذ تحدث کل یوم نزاعاً ومشادة مع الآخرین.

ولکنّه کان مظلوماً فی قبضة الظالمین (وسواء کان مقصراً فی المقدمات أم لا) فعلی موسی علیه السلام أن یعینه وینصره. «فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أن یَبْطِشَ بِالَّذِی هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا» صاح ذلک القبطی: «قَالَ یَا مُوسَی أَتُرِیدُ أَن تَقْتُلَنِی کَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ». ویبدو من عملک هذا أنّک لست إنساناً منصفاً، «إِن تُرِیدُ إِلَّا أَن تَکُونَ جَبَّارًا فِی الْأَرْضِ وَمَا تُرِیدُ أَن تَکُونَ مِنَ

(۱) «یترقب»: مأخوذ من «الترقب»، ومعناه الإنتظار، وموسی هنا فی انتظار نتائج هذه الحادثة.

(۲) «یستصرخ»: مشتقة من مادة «الإستصراخ»، ومعناها الإستغاثة، ولکنّها فی الأصل تعنی الصیاح أو طلب الصیاح من الآخر، وهذا عادة ملازم للإعانة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۰۶

الْمُصْلِحِینَ». وهذه العبارة تدلّ بوضوح علی أنّ موسی علیه السلام کان فی نیّته الإصلاح من قبل، سواءً فی قصر فرعون أو خارجه.

ومن جهة اخری فإنّ الأخبار وصلت إلی قصر فرعون فأحسّ فرعون ومن معه فی القصر أنّ تکرار مثل هذه الحوادث ینذره بالخطر، فعقد جلسة شوری مع وزرائه وانتهی «مؤتمرهم» إلی أن یقتلوا موسی، وکان فی القصر رجل له علاقة بموسی فمضی إلیه وأخبره بالمؤامرة .. وکما یقول القرآن الکریم: «وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِینَةِ یَسْعَی قَالَ یَا مُوسَی إِنَّ الْمَلَأَ یَأْتَمِرُونَ بِکَ لِیَقْتُلُوکَ فَاخْرُجْ إِنِّی لَکَ مِنَ النَّاصِحِینَ».

وهذا الرجل هو «مؤمن آل فرعون» الذی کان یکتم إیمانه ویدعی «حزقیل» وکان من أسرة فرعون.

أمّا موسی علیه السلام فقد تلقی الخبر من هذا الرجل بجدّیة وقبل نصحه ووصیته فی مغادرة المدینة، «فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا یَتَرَقَّبُ».

وتضرع إلى اللَّه بإخلاص وصفاء قلب ليدفع عنه شرّ القوم و «قَالَ رَبّ نَجّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

ثم قرر موسى عليه السلام أن يتوجه إلى مدينة «مدين» التى كانت تقع جنوب الشام وشمال الحجاز، وكانت بعيدة عن سيطرة مصر والفراعنة؛ إلّاأنّه كان لديه فى هذا الطريق وعواطفه رأس مال كبير وكثير لا ينفد أبداً، وهو الإيمان باللَّه والتوكل عليه، لذا لم يكترث بأى شيء وواصل السير .. «وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبّى أن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ» «١».

وَ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَ أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢۴) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢۵)

---

(١) «تلقاء»: مصدر أو اسم مكان، ومعناه هنا: الجهة والصوب الذى قصده.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۵٠٧

عمل صالح يفتح لموسى أبواب الخير: نواجه هنا المقطع الخامس من هذه القصة، وهى قضية ورود موسى عليه السلام إلى مدينة مدين.

قيل: إنّ هذا الشاب الطاهر قطع الطريق فى ثمانية أيام، حتى لقى ما لقى من النصب والتعب، وورمت قدماه من كثرة المشى.

وكان يقتات من نبات الأرض وأوراق الشجر دفعاً لجوعه.

وبدأت معالم «مدين» تلوح له من بعيد شيئاً فشيئاً، وأخذ قلبه يهدأ ويأنس لإقترابه من المدينة. يقول القرآن فى هذا الصدد: «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ» «١».

فحركه هذا المشهد ... حفنة من الشبان الغلاظ يملأون الماء ويسقون الأغنام، ولا يفسحون المجال لأحد حتى يفرغوا من أمرهم .. بينما هناك امرأتان تجلسان فى زاوية بعيدة عنهم، وعليهم آثار العفة والشرف، جاء إليهما موسى عليه السلام ليسألهما عن سبب جلوسهما هناك و «قَالَ مَا خَطْبُكُمَا» «٢».

لم يرق لموسى عليه السلام أن يرى هذا الظلم، فلم يتحمل ذلك كلّه، فهو المدافع عن المحرومين ومن أجلهم خرج من وطنه.

فقالت البنتان: إنّهما تنتظران تفرق الناس وأن يسقى هؤلاء الرعاة أغنامهم: «قَالَتَا لَانَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرّعَاءُ» «٣».

ومن أجل أن لا يسأل موسى: أليس لكما أب؟ ولماذا رضى بإرسال بناته للسقى مكانه، أضافتا مكملتين كلامهما: «وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ».

فتأثر موسى عليه السلام من سماعه حديثهما بشدّة، فتقدم وأخذ الدلو وألقاها فى البئر .. يقال: إنّ هذه الدلو كان يجتمع عليها عدّة نفر ليخرجوها بعد امتلائها من الماء، إلّاأنّ موسى عليه السلام استخرجها بقوته وشكيمته وهمّته بنفسه دون أن يعينه أحد: «فَسَقَى لَهُمَا» أغنامهما.

ولكن موسى عليه السلام بالرغم من تعب السير فى الطريق والجوع ملأ الدلو وسحبها بنفسه وسقى أغنام المرأتان جميعها .. «ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظّلّ فَقَالَ رَبّ إِنّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ».

---

(١) «تذودان»: مشتقة من «ذود» ومعناها المنع، فهما إذاً كانتا تذودان أغنامهما لئلا تختلط بالأغنام الاخرى.

(٢) ما خطبكما: أى ما شأنكما وما شغلكما هنا؟!

(٣) «يصدر»: مأخوذ من مادة «صدر» ومعناه الخروج من الماء؛ و «الرعاء»: جمع راعٍ، وهو سائس الغنم.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۵٠٨

أجل .. إنّه متعب وجائع، ولا أحد يعرفه في هذه المدينة. لكن هلمّ إلى العمل الصالح، فكم له من أثر محمود، خطوة نحو اللّه، فتح لموسى فصلًا جديداً، وهيأ له من عالم عجيب من البركات المادية والمعنوية .. ووجد ضالته التي ينبغي أن يبحث عنها سنين طوالًا. وبداية هذا الفصل عندما جاءته احدى البنتين تخطو بخطوات ملؤها الحياء والعفة ويظهر منها أنّها تستحي من الكلام مع شاب غريب: رجوعهما إليه بهذه السرعة على غير ما اعتادتا عليه، فقصتا عليه الخبر، فأرسل خلفه «فَجَاءَتْهُ إِحْدَيهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ» فلم تزد على أن «قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا».

فلمع في قلبه إشراقٌ من الأمل، وكأنّه أحس بأن سيواجه رجلًا كبيراً .. رجلًا عارفاً بالحق وغير مستعد أن يترك أى عمل حتى لو كان ملء الدلو أن يجزيه عليه.

أجل، لم يكن ذلك الشخص الكبير سوى «شعيب».

تحرك موسى عليه السلام ووصل منزل شعيب، وطبقاً لبعض الروايات، فإنّ البنت كانت تسير أمام موسى لتدله على الطريق، إلّاأنّ الهواء كان يحرّك ثيابها وربّما انكشف ثوبها عنها، ولكن موسى لما عنده من عفّة وحياء طلب منها أن تمشى خلفه وأن يسير أمامها، فإذا ما وصلا إلى مفترق طرق تدله وتخبره من أى طريق يمضى إلى دار أبيها شعيب.

دخل موسى عليه السلام منزل شعيب عليه السلام، يقول القرآن في هذا الصدد: «فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَاتَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». فالتفت موسى إلى أنّه وجد استاذاً عظيماً .. كما أحسّ شعيب أنّه عثر على تلميذ جدير ولائق.

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِى ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذلِكَ بَيْنِى وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)

موسى في دار شعيب: هذا هو المقطع السادس من قصّة حياة موسى عليه السلام المثيرة، جاء موسى إلى منزل شعيب، وبعد أن قصّ عليه قصّته، بادرت إحدى بنتى شعيب بالقول: إنّنى أقترح أن تستأجره لحفظ الأغنام ورعايتها: و «قَالَتْ إِحْدَيهُمَا يَا أَبَتِ اسْتْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٠٩

اسْتْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ».

فرضى شعيب عليه السلام باقتراح إبنته، وتوجه إلى موسى و «قَالَ إِنّى أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِى ثَمِنِيَ حِجَجٍ». ثم أضاف قائلًا: «فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ».

فلا أريد إيذاءك «وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ».

واستجابة لهذا القرار والعقد الذى أنشأه شعيب مع موسى .. وافق موسى و «قَالَ ذلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ». ثم أردف مضيفاً بالقول:

«أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ». أى سواءً قضيت عشر سنين أو ثمانى سنين «حجج» فلا عدوان عليّ.

ومن أجل استحكام العقد بينهما جعل موسى عليه السلام اللّه كفيلًا وقال: «وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ».

وبهذه البساطة أصبح موسى صهراً لشعيب على إبنته.

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَ سَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَ لَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَ مَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَ أَخِى هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ

رِدْءاً يُصَدِّقُنِى إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥١٠

الشرارة الاولى للوحى: نصل الآن- إلى المقطع السابع- من هذه القصة ..

لا يعلم أحد- بدّقة- ما جرى على موسى فى سنواته العشر مع شعيب، ولا شك أنّ هذه السنوات العشر كانت من أفضل سنوات العمر لموسى عليه السلام. ومن البديهى أنّ موسى عليه السلام لا يقنع فى قضاء جميع عمره برعى الغنم، وإن كان وجود «شعيب» إلى جانبه يعدّ غنيمة كبرى، فعليه أن ينهض إلى نصرة قومه، وأن يخلصهم من قيود الأسر، وينقذهم من حالة الجهل وعدم المعرفة.

إنّ القرآن يقول فى أوّل من آية هذا المقطع: «فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا». ثم التفت إلى أهله و «قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ». أى (تتدفؤون).

«آنست»: مشتقة من مادة «إيناس»، ومعناها المشاهدة والرؤية المقترنة بالهدوء والراحة. «جذوة»: هى القطعة من النار.

ويستفاد من قوله «لَّعَلِّى ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ» أنّه كان أضاع الطريق، كما يستفاد من جملة «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» أنّ الوقت كان ليلًا بارداً.

«فَلَمَّا أَتيهَا». أى أتى النار التى آنسها ورآها، فتعجب موسى من ذلك: «نُودِىَ مِن شطِىِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

«الشاطىء»: معناه الساحل؛ و «الوادى»: معناه الطريق بين الجبلين، أو ممر السيول؛ و «الأيمن»: مشتق من «اليمين» خلاف اليسار، وهو صفة للوادى؛ و «البقعة»: القطعة من الأرض المعروفة الأطراف.

ولا شك أنّ اللَّه سبحانه قادر على أن يجعل الأمواج الصوتية فى كل شىء، فأوجد فى الوادى شجرة ليكلّم موسى.

ومع الإلتفات إلى أنّ موسى عليه السلام سيتحمل مسؤولية عظيمة وثقيلة .. فينبغى أن تكون عنده معاجز عظيمة من قبل اللَّه تعالى مناسبة لمقامه النبوى، وقد أشارت الآيات إلى قسمين مهمين من هذه المعاجز:

الاولى قوله تعالى: «وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ».

فى هذه الحال سمع موسى عليه السلام مرّة اخرى النداء من الشجرة: «يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥١١

«الجانّ»: فى الأصل معناه الموجود غير المرئى، كما يطلق على الحيات الصغار اسم (جان) أيضاً؛ لأنّها تعبر بين الأعشاب والأحجار بصورة غير مرئية.

كانت المعجزة الاولى آية «من الرعب»، ثم أمر أن يظهر المعجزة الثانية وهى آية اخرى «من ا لنور والأمل» ومجموعهما سيكون تركيباً من «الإنذار» و «البشارة» إذ جاءه الأمر: «اسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ». فالبياض الذى يكون على يده للناس لم يكن ناشئاً عن مرض- كالبرص ونحوه- بل كان نوراً إلهياً جديداً.

لقد هزّت موسى عليه السلام مشاهدته لهذه الامور الخارقة للعادات فى الليل المظلم وفى الصحراء الخالية .. ومن أجل أن يهدأ روع موسى من الرهب، فقد أمر أن يضع يده على صدره: «وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ».

وجاء موسى النداء معقّباً: «فَذنِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فسِقِينَ».

هنا تذكر موسى عليه السلام حادثة مهمّة وقعت له فى حياته بمصر، وهى قتل القبطى، وتعبئه القوى الفرعونية لإلقاء القبض عليه وقتله. لذلك فإنّ موسى: «قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ».

وبعد هذا كلّه فإنّى وحيد ولسانى غير فصيح، «وَأَخِى هرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِى إِنِّى أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ».

«أفصح»: مشتقة من «الفصيح» وهو فى الأصل كون الشىء خالصاً، كما تطلق على الكلام الخالص من كل حشو وزيادة كلمة

«الفصيح» أيضاً. و «الردء»: معناه المعين والمساعد.

فأجاب اللَّه دعوته، وطمأنه بإجابة ما طلبه منه و «قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا» فالسلطة والغلبة لكما فی جميع المراحل.

وبشرهما بالنصر والفوز، وأنّه لن يصل إليهما سوء من أولئك؛ إذ قال سبحانه: «فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بَايَاتِنَا». فبهذه الآيات والمعاجز لن يستطيعوا قتلكما أو الاضرار بكما «أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ».

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَ مَا سَمِعْنَا بِهذَا فِی آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (۳۶) وَ قَالَ مُوسَى رَبِّی أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۳۷)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۱۲

موسى فی مواجهة فرعون: نواجه المقطع الثامن من هذه القصة العظيمة .. لقد تلقى موسى عليه السلام من ربّه الأمر بأن يصدع بالنبوّة والرسالة فی تلك الليلة المظلمة والأرض المقدّسة، فوصل إلى مصر، وأخبر أخاه هارون بما حُمّل .. فذهبا معاً إلى فرعون ليبلغاه رسالة اللَّه. يقول القرآن فی أوّل آية من هذا المقطع: «فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَى بَايَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى».

وأنكروا أن يكونوا سمعوا مثل ذلك، «وَمَا سَمِعْنَا بِهذَا فِی ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ».

فواجهوا موسى متوسلين بحربة توسل بها جميع الجبابرة والضالون على طول التاريخ، حين رأوا المعاجز من أنبيائهم .. وهی حربة «السحر».

لكن موسى عليه السلام أجابهم بلهجة التهديد والوعيد، حيث يكشف لنا القرآن هذا الحوار «وَقَالَ مُوسَى رَبِّی أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عقِبَةُ الدَّارِ».

إشارة إلى أنّ اللَّه يعلم حالی، وهو مطلع علی بالرغم من اتهامكم إيّای بالكذب ..

ثم بعد هذا، لو كان كلامی كذباً فأنا ظالم و «إِنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

وَ قَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِی فَأَوْقِدْ لِی يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِی صَرْحاً لَعَلِّی أَطَّلِعُ إِلَى إِلهِ مُوسَى وَ إِنِّی لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (۳۸) وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِی الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (۳۹) فَأَخَذْنَاهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِی الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (۴۰) وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (۴۱) وَ أَتْبَعْنَاهُمْ فِی هذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (۴۲)

كيف كان عاقبة الظالمين: نواجه هنا المقطع التاسع من هذا التاريخ المليء بالأحداث والعبر.

فقد شاع خبر إنتصار موسى عليه السلام على السحرة فی مصر، وموقع الحكومة الفرعونية أصبح فی خطر جدی شديد. فيجب صرف أفكار الناس، واشغالهم بسلسلة من المشاغل الذهنية، لإغفال الناس وتحميقهم. وفی هذا الصدد يتحدث القرآن الكريم عن جلوس

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۱۳

فرعون للتشاور فی معالجة الموقف، إذ نقرأ فی أوّل آية من هذا المقطع: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرِی».

فأنا إلهكم فی الأرض .. أمّا إله السماء فلا دليل على وجوده، ولكنّنی سأتحقق فی الأمر ولا أترك الإحتياط، فالتفت إلى وزيره هامان وقال: «فَأَوْقِدْ لِی يَا همنُ عَلَى الطِّينِ». ثم أصدر الأوامر ببناء برج أو قصر مرتفع جدّاً لأصعد عليه واستخبر عن إله موسى. «فَاجْعَلْ لِّی صَرْحًا لَّعَلِّی أَطَّلِعُ إِلَى إِلهِ مُوسَى وَإِنِّی لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكذِبِينَ».

ولمّا بلغ البناء تمامه .. جاء فرعون بنفسه يوماً وصعده بتشريفات خاصة.

المعروف أنّه رمى سهماً إلى السماء، فرجع السهم مخضباً بالدم على أثر إصابته لأحد الطيور أو أنّها كانت خديعة من قبل فرعون من قبل .. فنزل فرعون من أعلى القصر وقال للناس: اذهبوا واطمأنوا فقد قتلت إله موسى.

ومن المسلم به أنّ جماعة من البسطاء الذين يتبعون الحكومة اتباعاً أعمى وأصم، صدّقوا ما قاله فرعون ونشروه فى كل مكان، وشغلوا الناس بهذا الخبر لإغفالهم عن الحقائق.

بعد هذا كلّه يتحدث القرآن عن استكبار فرعون ومن معه، وعدم إذعانهم لمسألتى «المبدأ والمعاد» بحيث كان فرعون يرتكب ما يشاء من إجرام وجنايات بسبب إنكار هذين الأصلين فيقول: «وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَايُرْجَعُونَ».

لكن لننظر إلى أين وصل هذا الغرور بفرعون وجنوده؟ يقول القرآن الكريم: «فَأَخَذْنهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنهُمْ فِى الْيَمّ». أجل، لقد جعلنا سبب موتهم فى مصدر معيشتهم، وجعلنا النيل الذى هو رمز عظمتهم وقوّتهم مقبرةً لهم.

إنّ تعبير «نبذناهم» من مادة «نبذ»، ومعناه رمى الأشياء التى لا قيمة لها وطرحها بعيداً.

ثم، يختتم الآية بالتوجه إلى النبى صلى الله عليه و آله قائلًا: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عقِبَةُ الظَّالِمِينَ».

ثم يضيف القرآن قائلًا فى شأنهم: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيمَةِ لَايُنصَرُونَ». فكما أنّهم كانوا فى هذه الدنيا أئمة الضلال، فهم فى الآخرة- أيضاً- أئمة النار، لأنّ ذلك العالم تجسم كبير لهذا العالم.

ولمزيد التأكيد يصور القرآن صورتهم وماهيتهم فى الدنيا والآخرة: «وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِى

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥١٤

هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيمَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ».

لعنة اللّه معناها طردهم من رحمته، ولعنة الملائكة والمؤمنين هى الدعاء عليهم صباحاً ومساءً.

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۴۳) وَ مَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَ مَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (۴۴) وَ لَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَ مَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَ لَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (۴۵) وَ مَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَ لَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۴۶)

نصل فى هذا القسم من الآيات إلى «المقطع العاشر» وهو القسم الأخير من الآيات التى تتعلق بقصة موسى وما تحمله من معان كبيرة، وهى تتحدث عن نزول الأحكام، والتوراة، أى إنّها تتحدث عن انتهاء الدور السلبى «الطاغوت» وبداية «الدور الإيجابى» والبناء. يبدأ هذا المقطع بالآية التالية: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتبَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

وفى أنّ المقصود من «القرون الاولى» من هم؟ قال بعض المفسرين: هو إشارة إلى الكفار من قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم، لأنّه بتقادم الزمان ومضيّه تمحى آثار السابقين.

وقال بعض المفسرين: هو إشارة إلى هلاك قوم فرعون الذين كانوا بقايا الأقوام السابقين، لأنّ اللّه سبحانه آتى موسى كتاب «التوراة» بعد هلاكهم.

ولكنّه لا مانع من أن يكون المقصود بالقرون الاولى فى الآية شاملًا لجميع الأقوام.

«البصائر»: جمع «بصيرة» ومعناها الرؤية، والمقصود بها هنا الآيات والدلائل التى تستوجب إنارة قلوب المؤمنين ..

و «الهدى» و «الرحمة» أيضاً من لوازم البصيرة .. وعلى أثرها تتيقظ القلوب.

ثم يبيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة، وهى أنّ ما ذكرناه لك يا رسول اللّه، فى شأن موسى

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥١٥

وفرعون وما جرى بينهما بدقائقه، هو فى نفسه دليل على حقانيّة القرآن، لأنّك لم تكن «حاضراً» فى هذه «الميادين» التى كان يواجه موسى فيها فرعون وقومه، ولم تشهدها بعينيك .. بل هو من الطاف اللّه عليك، إذ أنزل عليك هذه الآيات لهداية الناس .. يقول القرآن: «وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِىّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ». أى الأمر بالنبوّة؛ «وَمَا كُنتَ مِنَ الشهِدِينَ».

ثم يضيف القرآن: «وَلكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ». وتقادم الزمان حتى اندرست آثار الأنبياء وهدايتهم فى قلوب الناس، لذلك أنزلنا عليك القرآن وبيّنا فيه قصص الماضين ليكون نوراً وهدى للناس.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِى أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ [/ أى: على أهل مكة] ءَايَاتِنَا وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» «۱».

وأوحينا إليك هذه الأخبار الدقيقة التى تتحدث عن آلاف السنين الماضية .. لتكون عبرة للناس وموعظة للمتقين «۲».

وتأكيداً على ما سبق بيانه يضيف القرآن الكريم قائلًا: «وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا». أى: نادينا موسى بأمر النبوة، ولكنّا أنزلنا إليك بهذه الأخبار رحمة من اللّه عليك «وَلكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

وَ لَوْ لَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۴۷) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْ لَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَ قَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (۴۸) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (۴۹) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۵۰)

---

(۱) «ثاوى»: مشتق من (ثوى) ومعناه الإقامة المقرونة بالإستقرار، ولذا سمّى المستقر والمكان الدائم بالمثوى

(۲) كان بين ظهور موسى عليه السلام وظهور النبى (محمّد صلى الله عليه و آله) حدود ألفى عام.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۱۶

ذريعة للفرار من الحق: حيث إنّ الآيات- آنفة الذكر- كانت تتحدث عن إرسال النبى صلى الله عليه و آله لينذر قومه، ففى هذه الآيات يبيّن القرآن ما ترتب من لطف اللّه على وجود النبى فى قومه فيقول: إنّنا وقبل أن نرسل إليهم رسولًا ا ذا أردنا إنزال العذاب عليهم بسبب ظلمهم وسيئاتهم قالوا: لماذا لم ترسل لنا رسول يبيّن لنا أحكامك لنؤمن به: «وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». هذه الآية تشير إلى موضوع دقيق، وهو أنّ طريق الحق واضح وبيّن ... وكل «عقل» حاكم ببطلان الشرك وعبادة الأصنام ..

وقبح كثير من الأعمال التى تقع نتيجة الشرك وعبادة الأصنام- كالمظالم وما شاكلها- هى من مستقلات حكم العقل.

ثم تتحدث الآيات عن معاذير أولئك، وتشير إلى أنّهم- بعد إرسال الرسل- لم يكفّوا عن الحيل والذرائع الواهية، واستمروا على طريق الانحراف، فتقول الآية: «فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِىَ مِثْلَ مَا أُوتِىَ مُوسَى .

فلم لم تكن عصا موسى فى يده؟ ولم لا تكون يده بيضاء «كيد موسى»؟ ولم لا ينشقّ البحر له كما انشقّ لموسى؟ ولِمَ لَم ... الخ.

فيجيب القرآن على مثل هذه الحجج، ويقول: «أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِىَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا». أى: موسى وهارون، تعاونا فيما بينهما ليضلونا عن الطريق «وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كفِرُونَ».

إنّ مشركى مكة المعاندين كانوا يصرّون على أنّه لِم لَم يأت النبى صلى الله عليه و آله بمعاجز كمعاجز موسى، ومن جهة اخرى لم يكونوا يعترفون بما يجدونه فى «التوراة» من علائمه وأوصافه ولا يؤمنون بالقرآن المجيد وآياته العظيمة. لذا يخاطب القرآن النبى محمّداً صلى الله عليه و آله ليتحدّاهم بأن يأتوا بكتاب أسمى من القرآن: «قُلْ فَأْتُوا بِكِتبٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صدِقِينَ».

ثم يضيف القرآن: «فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ». ولكن من أضيع منهم، «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَيهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظلِمِينَ».

ومن الطريف هنا أنّ روايات عديدة تفسّر الآية بأنّ المراد منها من ترك إمامه وقائده

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۱۷

الإلهی واتبع هواه.

وهـذه الرّوایات هی من قبیل المصـداق البارز. وبتعبیر آخر: إنّ الإنسان محتاج لهدایـة اللَّه ... هـذه الهدایة تارة تنعکس فی کتاب اللَّه، واخری فی وجود النبی وسنته، واخری فی أوصیائه المعصومین، واخری فی منطق العقل.

المهم أن یکون الإنسان فی خطّ الهدایة الإلهیة غیر متبع لهواه، لیستطیع أن یستضیء بهذه الأنوار.

وَ لَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ (۵۱) الَّذِینَ آتَیْنَاهُمُ الْکِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ یُؤْمِنُونَ (۵۲) وَ إِذَا یُتْلَی عَلَیْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا کُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِینَ (۵۳) أُولئِکَ یُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَیْنِ بِمَا صَبَرُوا وَ یَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّیِّئَةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ یُنْفِقُونَ (۵۴) وَ إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَکُمْ أَعْمَالُکُمْ سَلَامٌ عَلَیْکُمْ لَا نَبْتَغِی الْجَاهِلِینَ (۵۵)

سبب النّزول

نقل المفسـرون ورواة الأخبار روایات کثیرة ومختلفـة فی شأن نزول الآیات المتقدمـة، والجامع المشترک فیها واحد، وهو إیمان طائفة من علماء الیهود والنصاری والأفراد الذین یتمتعون بقلوب طاهرة- بالقرآن ونبی الخاتم صلی الله علیه و آله.

قال سـعید بن جبیر نزلت فی سـبعین من القسیسـین بعثهم النجاشـی فلما قدموا علی النبی صـلی الله علیه و آله قرأ علیهم «یس والقرآن الحکیم» حتی ختمها فجعلوا یبکون وأسلموا.

التّفسیر

طلاب الحق من أهل الکتاب آمنوا بالقرآن: حیث إنّ الآیات السابقـة کانت تتحـدث عن حجـج المشـرکین الواهیـة أمام الحقائق التی یقدّمها القرآن الکریم، فإنّ هـذه الآیات محل البحث تتحـدث عن القلوب المهیّأة لقبول قول الحق. یقول القرآن فی هـذا الصدد: لقد أنزلنا لهم آیات القرآن تباعاً، «وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ».

إلّا أنّ (الیهود والنصاری) «الَّذِینَ ءَاتَیْنَاهُمُ الْکِتبَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ یُؤْمِنُونَ». لأنّهم

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۱۸

یرونه منسجماً مع ما ورد فی کتبهم السماویة من علامات ودلائل.

ثم یضیف القرآن فی وصفهم قائلًا: «وَإِذَا یُتْلَی عَلَیْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبّنَا».

ثم یضـیف القرآن متحـدثاً عنهم: إنّنا مسـلمون لا فی هـذا الیوم فحسب، بل «إِنَّا کُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِینَ». ثم یتحـدث القرآن الکریم عن هذه الجماعة التی آمنت بالنبی من غیر تقلید أعمی، وإنّما طلباً للحق، فیقول: «أُولئِکَ یُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَیْنِ بِمَا صَبَرُوا».

فمرّة لإیمانهم بکتابهم السـماوی الذی کانوا صادقین أوفیاء لعهدهم معه ... ومرّة اخری لإیمانهم بنبیّ الإسـلام العظیم صـلی الله علیه و آله النبی الموعود المذکور عندهم فی کتبهم السماویة.

ثم یشـیر القرآن الکریم إلی بعض أعمالهم الصالحة من قبیل «دفع السـیئة بالحسـنة» و «الإنفاق مما رزقهم اللَّه» و «المرور الکریم باللغو والجاهلین» وکذلک الصبر والإستقامة، وهی خصال أربع ممتازة. حیث یقول فی شأنهم القرآن الکریم: «وَیَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّیِّئَةَ».

والخصلة الاخری فی هؤلاء الممدوحین بالقرآن أنّهم: «وَمِمَّا رَزَقْنهُمْ یُنفِقُونَ».

ولیس الإنفاق من الأموال فحسب، بل من کل ما رزقهم اللَّه من العلم والقوی الفکریـة والجسـمیّة والوجاهـة الإجتماعیـة، وجمیع هـذه الامور من مواهب اللَّه ورزقه- فهم ینفقون منها فی سبیل اللَّه.

وآخر صفة ممتازة بیّنها القرآن فی شأنهم قوله: «وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ».

ولم یردّوا الجهل بالجهل واللغو باللغو، بل «وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَکُمْ أَعْمَالُکُمْ».

ثم یضـیف القرآن فی شأنهم حین یواجهون الجاهلین یقولون: «سَلمٌ عَلَیْکُمْ لَانَبْتَغِی الْجَاهِلِینَ». أجل، هؤلاء العظام هم الذین یستطیعون أن یستوعبوا رسالة الإیمان فی نفوسهم، والذین بذلوا جهداً وقاوموا أنواع الصعاب لیصلوا إلی معنی «الإیمان».

إِنَّکَ لَا تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لکِنَّ اللَّهَ یَهْدِی مَنْ یَشَاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ (۵۶) وَ قَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَی مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَ وَ لَمْ نُمَکِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً یُجْبَی إِلَیْهِ ثَمَرَاتُ کُلِّ شَیْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لَا یَعْلَمُونَ (۵۷)

الهدایهٔ بید اللّه وحده: إنّ الآیات السابقهٔ کانت تتحدث عن طائفتین: طائفهٔ من

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۱۹

مشرکی أهل مکهٔ المعاندین، کان رسول صلی الله علیه و آله شدید الإصرار علی هدایتهم؛ وطائفهٔ من أهل الکتاب والأفراد البعیدین عن مکهٔ، تلقوا هدایهٔ اللّه برحابهٔ صدر، ولم یستوحشوا من الضغوط والعزلهٔ وما إلی ذلک.

فمع الإلتفات إلی کل هذه الامور، نلاحظ أنّ الآیهٔ الاولی من هاتین الآیتین تکشف الستار عن هذه الحقیقهٔ فتقول: «إِنَّکَ لَا تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَلکِنَّ اللَّهَ یَهْدِی مَن یَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ».

والمقصود من الهدایهٔ لیس «إراءهٔ الطریق»، لأنّ إراءهٔ الطریق هی من وظیفهٔ النبی صلی الله علیه و آله، وتشمل جمیع الناس دون استثناء، بل المقصود من الهدایهٔ هنا هو «الإیصال للمطلوب والهدف»، والإیصال إلی المطلوب وإلی الهدف هو بید اللّه وحده.

إنّ هذه الآیهٔ بمثابهٔ التسلیهٔ والتثبیت لقلب النبی لیطمئن إلی هذه الحقیقهٔ، وهی إنّه لا إصرار المشرکین وعنادهم وإن کانوا من أهل مکهٔ، ولا إیمان أهل الحبشهٔ ونجران وغیرهما أمثال سلمان الفارسی وبحیرا الراهب من دون دلیل وسبب.

فعلیه أن لا یکترث لعدم إیمان الطائفهٔ الأولی.

وفی الآیهٔ الثانیهٔ- من الآیتین محل البحث- یتحدث القرآن الکریم عن طائفهٔ اعترفوا بالإسلام فی واقعهم وأیقنت به قلوبهم، إلّا أنّهم لم یظهروا إیمانهم بسبب منافع شخصیهٔ وملاحظات ذاتیهٔ، حیث یقول: «وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَی مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا».

هذا الکلام لا یقوله إلّامن یستضعف قدرهٔ اللّه ولا یعرف کیف ینصر اللّه أولیاءه ویخذل أعداءه. لذلک یقول القرآن ردّاً علی مثل هذه المزاعم: «أَوَلَمْ نُمَکِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا یُجْبَی إِلَیْهِ ثَمَرَاتُ کُلِّ شَیْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لَایَعْلَمُونَ» «۱».

اللّه سبحانه الذی جعل هذه الأرض المالحهٔ والملیئهٔ بالصخور والخالیهٔ من الأشجار والأنهار، جعلها حرماً تهفوا إلیه القلوب، ویؤتی إلیه بالثمرات من مختلف نقاط العالم، کل ذلک بید قدرته القاهرهٔ.

کیف لا یکون قادراً علی أن یحفظکم من هجوم حفنهٔ من الجاهلیین عبّاد الأوثان؟

---

(۱) «نمکّن»: فی الآیهٔ بمعنی نجعل؛ و «یجبی»: مشتق من مادهٔ «جبایهٔ»، والجبابهٔ معناها الجمع، لذلک یطلق علی الحوض الذی یجمع فیه الماء جابیهٔ.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۲۰

فکیف یمکن أن یحرمکم اللّه منهما بعد الإسلام؟

لتکن قلوبکم قویهٔ وآمنوا بما انزل الیکم فإنّ ربّ الکعبهٔ وربّ مکهٔ معکم.

وَ کَمْ أَهْلَکْنَا مِنْ قَرْیَهٍ بَطِرَتْ مَعِیشَتَهَا فَتِلْکَ مَسَاکِنُهُمْ لَمْ تُسْکَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِیلًا وَ کُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِینَ (۵۸) وَ مَا کَانَ رَبُّکَ مُهْلِکَ الْقُرَی حَتَّی یَبْعَثَ فِی أُمِّهَا رَسُولًا یَتْلُو عَلَیْهِمْ آیَاتِنَا وَ مَا کُنَّا مُهْلِکِی الْقُرَی إِلَّا وَ أَهْلُهَا ظَالِمُونَ (۵۹) وَ مَا أُوتِیتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَمَتَاعُ الْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَ زِینَتُهَا وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَیْرٌ وَ أَبْقَی أَ فَلَا تَعْقِلُونَ (۶۰)

لا تخدعنکم علائق الدنیا: کان الحدیث فی الآیات المتقدمهٔ یدور حول ما یدعیه أهل مکهٔ، وقولهم: إن نتبع الهدی معک نتخطف من أرضنا بهجوم العرب علینا، وتتکدر حیاتنا ویختل وضعنا المعاشی والاقتصادی، وفی هذه الآیات مورد البحث ردّان آخران علی کلامهم:

الأوّل: یقول .. علی فرض أنّکم لم تؤمنوا، وحییتم فی ظل الشرک مرفهین مادیّاً، ولکن لا تنسوا أن تعتبروا بحیاهٔ من قبلکم، «وَکَمْ

أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا» «۱».

أجل، إنّ الغرور دعاهم إلى أن يبطروا من النعم، والبطر أساس الظلم، والظلم يجرّ حياتهم إلى النار ... «فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُم لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا».

بلى ... بقيت بيوتهم خالية خربة متهدمة مظلمة لم يزرها ولم يسكنها أحد إلّالفترة قليلة «وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ».

جملة «كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ» إشارة إلى أنّ مالكها الحقيقى هو اللَّه سبحانه المالك لكل شىء، وإذا ما أعطى ملكاً «اعتبارياً» لأحد، فإنّه لا يدوم له طويلًا حتى يرثه اللَّه أيضاً.

و الآية الثانية جواب عن سؤال مقدر، وهو: إذا كان الأمر كذلك، بأن يهلك اللَّه الطغاة، فلم لم يهلك المشركين من أهل مكة والحجاز، الذين بلغوا حدّاً عظيماً من الطغيان، ولم يكن إثم ولا جهل إلّاوارتكبوه، ولم لم يعذبهم اللَّه بعذابه الأليم؟

---

(۱) «بطرت»: مشتقة من «بطر»، ومعناه الطغيان والغرور على أثر وفرة النعم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۲۱

يقول القرآن فى هذا الصدد: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا».

أجل ... لا يعذب اللَّه قوماً حتى بعد إتمام الحجّة، فما لم يصدر ظلم يستوجب العذاب فإنّ اللَّه لا يعذبهم، وهو يراقب أعمالهم، «وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ».

والتعبير ب «مَا كُنَّا» أو «وَمَا كَانَ رَبُّكَ» دليل على أنّ سنة اللَّه الدائمة والأبدية التى كانت ولا زالت، هى أن لا يعذب أحداً إلّا بعد إتمام الحجة الكافية.

و آخر آية من هذا المقطع محل البحث تحمل الردّ الثانى على أصحاب الحجج الواهية، الذين كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه و آله: «إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا» ويبعدنا العرب من ديارنا، وهو قوله تعالى: «وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ممّا عندكم من النعيم الفانى .. إذ إنّ نعم الدنيا تشوبها الأكدار والمشاكل المختلفة، وليس من نعمة مادية خالية من الضرر والخطر أبداً.

إضافة إلى ذلك فإنّ النعم التى عند اللَّه «الباقية» لا تقاس مع النعم الدنيوية الزائلة، فنعم اللَّه- إذن- خير وأبقى.

فبموازنة بسيطة يعرف كل إنسان عاقل أنّه لا ينبغى أن يضحى بنعم الآخرة من أجل نعم الدنيا، ولذلك تختتم الآية بالقول: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

أ فَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (۶۱) وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۶۲) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (۶۳) وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (۶۴)

كان الحديث فى الآيات المتقدمة عن الذين فضّلوا الكفر على الإيمان بسبب منافعهم الشخصية، ورجّحوا الشرك على التوحيد، وفى الآيات التى بين أيدينا يبيّن القرآن حال هذه الجماعة يوم القيامة قبال المؤمنين الصادقين. ففى بداية هذه الآيات يلقى القرآن سؤالًا يقارن فيه بين المؤمنين والكافرين، ويثير الوجدان ويجعله حكماً فيقول: «أَفَمَن وَعَدْنَهُ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۲۲

وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَهُ مَتَعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ».

جملة «هُوَ يَوْمَ الْقِيمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ» إشارة إلى الإحضار فى محضر اللَّه يوم القيامة للحساب. وجملة «الْحَيَوةِ الدُّنْيَا» التى تكررت فى سور مختلفة من القرآن الكريم، إشارة إلى حقارة هذه الحياة بالنسبة للحياة الاخرى، لأنّ كلمة «دنيا» فى الأصل مأخوذة من «دنو»

ومعناها القرب فی المکان أو الزمان أو المنزلة والمقام، ثم توسّع هذا المفهوم لیطلق بلفظ «دنیا» أو «أدنی علی الموجودات الصغیرة التی تحت الید فی مقابل الموجودات الکبیرة، وقد یطلق هذا اللفظ علی الموضوعات التی لا قیمة لها فی مقابل الأشیاء ذات القیمة العالیة، وربّما استعمل فی القرب فی مقابل البعد، وحیث إنّ هذه «الحیاة» فی مقابل العالم الآخر صغیرة ولا قیمة لها وقریبة أیضاً، فإنّ تسمیتها بالحیاة الدنیا تسمیة مناسبة جدّاً.

ثم یأتی الکلام عن عرصات یوم القیامة ومشاهدها لیجسّده أمام الکفار، مشاهد یقشعر منها البدن حین یتصورها الإنسان، فیقول القرآن: «وَیَوْمَ یُنَادِیهِمْ فَیَقُولُ أَیْنَ شُرَکَاءِیَ الَّذِینَ کُنتُمْ تَزْعُمُونَ».

فهذا السؤال فی الحقیقة فیه نوع من الإهانة والتوبیخ والعقوبة.

ولکنّهم بدلًا من أن یجیبوا بأنفسهم، فإنّ معبودیهم هم الذین یردّون الجواب، ویتبرؤون منهم، ویتنفرون من عبادة المشرکین إیّاهم.

ونعرف أنّ معبودات المشرکین وآلهتهم علی ثلاثة أنواع: فإمّا أن یکونوا أصناماً «وأحجاراً وخشباً» أو من المقدسین کالملائکة والمسیح، وإمّا أن یکونوا من الشیاطین والجنّ. فالذین یردّون علی السؤال ویجیبون هم النوع الثالث، کما حکی عنهم القرآن: «قَالَ الَّذِینَ حَقَّ عَلَیْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هؤُلَاءِ الَّذِینَ أَغْوَیْنَا أَغْوَیْنٰهُمْ کَمَا غَوَیْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَیْکَ مَا کَانُوا إِیَّانَا یَعْبُدُونَ».

وتعقیباً علی السؤال عن آلهتهم وعجز المشرکین عن الجواب، یطلب أن یدعوهم لنصرتهم «وَقِیلَ ادْعُوا شُرَکَاءَکُمْ» «١».

وحیث یعلم المشرکون أنّ دعاءهم غیر نافع، وأنّ المعبودین «الشرکاء» لا یمکن أن یفعلوا شیئاً من شدّة الهلع والوحشة، أو استجابة لأمر اللّه، یتوجهون إلی الشرکاء ویدعونهم کما یقول القرآن الکریم: «فَدَعَوْهُمْ».

---

(١) التعبیر ب «شرکاءکم» مع أنّ هؤلاء الشرکاء کانوا قد جعلوا شرکاء اللّه سبحانه، هو إشارة إلی أنّ هؤلاء الشرکاء من صنعکم وهم متعلقون بکم لا باللّه.

ومن الواضح أنّه لا أثر لهذا النداء والطلب، ولا یقال لهم «لبیک» .. «فَلَمْ یَسْتَجِیبُوا لَهُمْ». فحینئذٍ لا ینفعهم شیء «وَرَأَوُا الْعَذَابَ». ویتمنون «لَوْ أَنَّهُمْ کَانُوا یَهْتَدُونَ».

وَ یَوْمَ یُنَادِیهِمْ فَیَقُولُ مَا ذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِینَ (٦٥) فَعَمِیَتْ عَلَیْهِمُ الْأَنْبَاءُ یَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا یَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً فَعَسَی أَنْ یَکُونَ مِنَ الْمُفْلِحِینَ (٦٧) وَ رَبُّکَ یَخْلُقُ مَا یَشَاءُ وَ یَخْتَارُ مَا کَانَ لَهُمُ الْخِیَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَ تَعَالَی عَمَّا یُشْرِکُونَ (٦٨) وَ رَبُّکَ یَعْلَمُ مَا تُکِنُّ صُدُورُهُمْ وَ مَا یُعْلِنُونَ (٦٩) وَ هُوَ اللَّهُ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِی الْأُولَی وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُکْمُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)

تعقب الآیات محل البحث، علی ما کان فی الآیات السابقة فی شأن المشرکین وما یسألون یوم القیامة. فبعد أن یُسألوا عن شرکائهم ومعبودیهم، یسألون عن مواقفهم وما أبدوه من عمل إزاء أنبیائهم: «وَیَوْمَ یُنَادِیهِمْ فَیَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِینَ».

ومن المسلم به أنّ هؤلاء «المشرکین» لا یملکون جواباً لهذا السؤال. فکل ما یقولون کاشف عن فضیحتهم وشقائهم، حتی أنّ الأنبیاء والمرسلین فی ذلک الیوم یجیبون ربّهم حین یسألون: «مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَاعِلْمَ لَنَا إِنَّکَ أَنتَ عَلمُ الْغُیُوبِ» «١».

ما الذی یقوله فی ذلک الیوم وفی ذلک المکان عمی القلوب من المشرکین؟ لذلک یکشف القرآن عن حالهم هناک فیقول: «فَعَمِیَتْ عَلَیْهِمُ الْأَنبَاءُ یَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَایَتَسَاءَلُونَ». أی یسأل بعضهم بعضاً ولا یعرفون جواباً.

وحیث إنّ اسلوب القرآن هو ترک الأبواب مفتوحة بوجه الکافرین والآثمین دائماً، لعلّهم یتوبون ویرجعون إلی الحق فی أی مرحلة کانوا من الإثم، فإنّه یضیف فی الآیة التی بعدها: «فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَی أَن یَکُونَ مِنَ الْمُفْلِحِینَ».

فسبیل النجاة- حسب ما یوضحه القرآن- یتلخّص فی ثلاث جمل هی العودة والتوبة إلی اللّه، والإیمان، والعمل الصالح، وعاقبتهما النجاة والفلاح حتماً.

و الآية التى بعدها دليل على نفى الشرك وبطلان عقيدة المشركين، إذ تقول: «وَرَبُّكَ

(١) سورة المائدة/ ١٠٩.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٢۴

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ». فالخلق بيده، والتدبير والإختيار بيده أيضاً، وهو ذو الإرادة.

فمع هذه الحال، كيف يسلك هؤلاء طريق الشرك ويتجهون نحو غير اللَّه؟ لذلك فإنّ الآية تنزه اللَّه عن الشرك وتقول:

«سُبْحنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

أمّا الآية التى بعدها فتتحدث عن علم اللَّه الواسع، وهى تأكيد أو دليل على الإختيار الواسع فى الآية السابقة، إذ تقول هذه الآية: «وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ».

فإحاطته بكل شىء دليل على اختياره لكل شىء، كما هى- ضمناً- تهديد للمشركين، لئلا يظنوا أنّ اللَّه غير مطلع على سرائرهم ونيّاتهم و «مؤامراتهم».

و الآية الأخيرة من هذا المقطع، هى نتيجة الحكم، وتوضيح للآيات السابقة فى مجال نفى الشرك، وهى ذات أربعة أوصاف من أوصاف اللَّه، وجميعها فرع على خالقيته واختياره.

فالأوّل: أنّه «وَهُوَ اللَّهُ لَاإِلهُ إِلَّا هُوَ».

فمن يتوسل بالأصنام لتشفع له عند اللَّه فهو من المضلين الخاطئين.

والثانى: أنّ جميع النعم دنيويةً كانت أم اخروية هى منه، وهىمن لوازم خالقيته المطلقة، لذلك يقول القرآن فى هذا الصدد:

«لَهُ الْحَمْدُ فِى الْأُولَى وَالْأَخِرَةِ».

الثالث: أنّه «وَلَهُ الْحُكْمُ». فهو الحاكم فى هذا العالم، وفى العالم الآخر.

والرابع: «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» للحساب والثواب والعقاب.

فاللَّه الخالق، وهو المطّلع، وهو الحاكم يوم الجزاء، وبيده الحساب والثواب والعقاب.

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَ فَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧۴) وَ نَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧۵)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٢٥

نعمتا الليل والنهار العظيمتان: هذه الآيات- محل البحث- تتحدث عن قسم كبير من مواهب اللَّه سبحانه، التى تدل على التوحيد ونفى الشرك من جهة، كما أنّها تكمّل البحث السابق .. وتذكر مثلًا للنعم التى تستوجب الحمد والثناء. ففى الآية الاولى من هذه الآيات إشارة إلى نعمة النهار والنور الذى هو أساس لأيّة حركة، فتقول الآية: «قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ».

كما تتحدث الآية الاخرى عن نعمة الظلمة فتقول: «قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيمَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ».

أمّا الآية الثالثة فتحكى عن نتيجة النعمة المشار إليها فى الآيتين السابقتين فيقول: «وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

إنّ سعة رحمة اللَّه تستوجب أن تضمن جميع عوامل حياتكم.

ومرّة اخرى- بعد ذكر جانب من دلائل التوحيد ونفى الشرك- يعود القرآن الكريم على السؤال الأوّل الذى أثير فى الآيات السابقة ليقول: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ».

وهذه الآية مكررة فى السورة نفسها، إذ وردت بنصّها فى الآية (۶۲)، ولعلّ هذا التكرار ناشىء عن السؤال مرتين فى يوم القيامة، مرّة بصورة انفرادية ليعودوا إلى وجدانهم فيخجلوا من أنفسهم، ومرّة بصورة عامّة فى محضر الشهود، وهو ما أشير إليه فى الآية التى بعدها .. ليخجلوا أيضاً من حضورهم. لذلك تأتى الآية التى بعدها فتقول: «وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ» «۱». أيّها المشركون الضالون.

وحين تنكشف المسائل وتتجلى الامور لا تبقى خافية، «فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

هؤلاء الشهود هم الأنبياء بقرينة الآيات الاخرى فى القرآن، إذ أنّ كل نبى شاهد على امته، ونبى الخاتم صلى الله عليه و آله الذى هو خاتم الأنبياء هو شهيد على جميع الأنبياء والامم.

---

(۱) التعبير ب «نزعنا» التى تعنى جذب الشيء من مقرّه، هى إشارة إلى إحضار الشهود من بين كل جماعة وامّة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۲۶

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَ آتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (۷۶) وَ ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَ أَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (۷۷) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً وَ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (۷۸)

الثّرى الإسرائيلى البخيل: جاء تفصيل قصة موسى عليه السلام العجيبة ومواجهاته ومواقفه مع فرعون فى قسم كبير من الآيات السابقة فى هذه السورة .. وفى القسم الآخر من آيات هذه السورة، وقع الكلام على مواجهة بنى إسرائيل مع رجل ثرى منهم يدعى «قارون».

المعروف أنّ «قارون» كان من أرحام موسى وأقاربه (ابن عمه أو ابن خالته) وكان عارفاً بالتوراة، وكان فى بداية أمره مع المؤمنين، إلّاأنّ غرور الثروة جرّه إلى الكفر ودعاه إلى أن يقف بوجه موسى عليه السلام وأماته ميتة ذات عبرة للجميع، حيث نقرأ شرح ذلك فى الآيات التالية. يقول القرآن فى شأنه أوّلًا: «إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ». وسبب بغيه وظلمه إنّه كان ذا ثروة عظيمة، ولأنّه لم يكن يتمتع بإيمان قوى وشخصية متينة فقد غرّته هذه الثروة الكبيرة وجرّته إلى الانحراف والاستكبار.

يصف القرآن ما عنده من ثروة فيقول: «وَءَاتَيْنَهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ». «المفاتح»: جمع «مفتح» معناه المكان الذى يدخّر فيه الشيء، كالصندوق الذى يحفظ فيه المال، وهو ما يسميه بعض التجار ب «القاصة». فيكون المعنى: إنّ قارون كان ذا مال كثير ووفير من الذهب والفضة، بحيث كان يصعب حمل صناديقها على الرجال الأشداء «أُولِى الْقُوَّةِ». «تنوأُ»: مشتقة من «النوء» ومعناه القيام بمشقّة وثقل، وتستعمل فى حمل الأثقال التى لها ثقل ووزن كبير، بحيث لو حملها الإنسان لمال إلى أحد جانبيه.

والآن لنرى ما قال بنو إسرائيل لقارون، يقول القرآن فى هذا الصدد: «إِذ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَاتَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْفَرِحِينَ» «۱».

---

(۱) «الفرحين»: جمع الفرح، وتعنى من يكون مغروراً على أثر تملكه الشيء ومتكبراً بطراً منتشياً من ريح النّصر.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۲۷

ثم يقدمون له أربع نصائح قيّمة اخرى ذات تأثير مهم على مصير الإنسان، بحيث تتكامل لديه حلقة خماسية من النصائح مع ما تقدم

من قولهم له: «لَاتَفْرَحْ».

فالنصیحۀ الاولی قولهم له: «وَابْتَغِ فِیمَا ءَاتَیکَ اللَّهُ الدَّارَ الْأَخِرَۀَ». وهذا إشارۀ إلی أنّ المال والثروۀ لیس أمراً سیئاً کما یتصوره بعض المتوهمین، المهم أن تعرف فیم یستعمل المال، وفی أی طریق ینفق.

وکان قارون رجلًا ذا قدرۀ علی الأعمال الاجتماعیۀ الکبیرۀ بسبب أمواله الطائلۀ، ولکن ما الفائدۀ منها وقد أعماه غروره عن النظر إلی الحقائق.

والنصیحۀ الثانیۀ قولهم له: «وَلَا تَنْسَ نَصِیبَکَ مِنَ الدُّنْیَا». والآیۀ تشیر إلی مسألۀ واقعیۀ، وهی أنّ لکل فرد منّا نصیباً من الدنیا، فالأموال التی یصرفها علی بدنه وثیابه لیظهر بمظهر لائق هی أموال محدودۀ، وما زاد علیها لا تزید مظهره شیئاً، وعلی الإنسان أن لا ینسی هذه الحقیقۀ ... فالإنسان ... کم یستطیع أن یأکل من الطعام؟ وکم یستطیع أن یلبس من الثیاب؟ وکم یمکن أن یحوز من المساکن والمراکب؟ وإذا مات وکم یستطیع أن یأخذ معه من الأکفان؟ فالباقی- إذن- رضی أم أبی هو من نصیب الآخرین.

وما أجمل قول الإمام علی علیه السلام فی نهج البلاغۀ حیث یقول: «یابن آدم ما کسبت فوق قوتک فأنت فیه خازن لغیرک».

والنصیحۀ الثالثۀ هی: «وَأَحْسِن کَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَیْکَ».

وبتعبیر آخر: کما أنّ اللَّه تفضل علیک وأحسن، فأحسن أنت إلی الناس.

والنصیحۀ الرابعۀ والأخیرۀ أن لا تغرنّک هذه الأموال والإمکانات المادیۀ فتجرّک إلی الفساد: «وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِی الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ الْمُفْسِدِینَ».

وهذا أیضاً حقیقۀ واقعیۀ اخری، إنّ کثیراً من الأثریاء وعلی أثر جنون زیادۀ المال- أحیاناً- أو طلباً للاستعلاء، یفسدون فی المجتمع، فیجرّون إلی الفقر والحرمان، ویحتکرون جمیع الأشیاء فی أیدیهم.

والآن لنلاحظ ما کان جواب هذا الإنسان الباغی والظالم الإسرائیلی لجماعته الواعظین له.

فأجابهم قارون بتلک الحالۀ من الغرور والتکبر الناشئۀ من ثروته الکبیرۀ، و «قَالَ إِنَّمَا أُوتِیتُهُ عَلَی عِلْمٍ عِندِی».

هذا لا یتعلق بکم، ولیس لکم حق أن ترشدونی إلی کیفیۀ التصرف بمالی.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۲۸

وهنا یجیب القرآن علی قول قارون وأمثاله من المتکبرین الضالین، فیقول: «أَوَلَمْ یَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَکَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّۀً وَأَکْثَرُ جَمْعًا».

أتقول: «إِنَّمَا أُوتِیتُهُ عَلَی عِلْمٍ عِندِی» ونسیت من کان أکثر منک علماً وأشدّ قوّۀ وأثری مالًا، فهل استطاعوا أن یفروا من قبضۀ العذاب الإلهی؟!

وفی ختام الآیۀ إنذار ذو معنی کبیر آخر لقارون، جاء فی غایۀ الإیجاز: «وَلَا یُسَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ».

بعبارۀ اخری: أنّ العلماء من بنی إسرائیل نصحوا قارون هذا الیوم وکان لدیه مجال والجواب، لکن بعد إتمام الحجۀ ونزول العذاب الإلهی، عندئذ لا مجال للتفکیر والجواب، فإذا حلّ العذاب الإلهی بساحته فهو الهلاک الحتمی.

فَخَرَجَ عَلَی قَوْمِهِ فِی زِینَتِهِ قَالَ الَّذِینَ یُرِیدُونَ الْحَیَاۀَ الدُّنْیَا یَا لَیْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِیَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِیمٍ (۷۹) وَ قَالَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَیْلَکُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَیْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحاً وَ لَا یُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (۸۰) فَخَسَفْنَا بِهِ وَ بِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا کَانَ لَهُ مِنْ فِئَۀٍ یَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَا کَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِینَ (۸۱) وَ أَصْبَحَ الَّذِینَ تَمَنَّوْا مَکَانَهُ بِالْأَمْسِ یَقُولُونَ وَیْکَأَنَّ اللَّهَ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ یَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَیْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَیْکَأَنَّهُ لَا یُفْلِحُ الْکَافِرُونَ (۸۲)

جنون الثروۀ: المعروف أنّ أصحاب الثروۀ یبتلون بأنواع الجنون ... وواحد منها «جنون عرض الثروۀ وإظهارها» فهؤلاء یشعرون باللذۀ عندما یعرضون ثروتهم علی الآخرین، فإنّ قارون لم یکن مستثنی من هذا القانون، بل کان یعدّ مثلًا بارزاً له، والقرآن یتحدث عنه فی

جملة موجزة فى بعض آياته فيقول: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ». امام قومه من بنى اسرائيل.

وجملة «فى زينته» ناطق عن هذه الحقيقة، وهى أنّه أظهر جميع قدرته وقوّته ليبدى ما لديه من زينة وثروة.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٢٩

هنا أصبح الناس طائفتين- بحسب العادة فطائفة وهم الأكثرية- من عبدة الدنيا- أثارهم هذا المشهد، فاهتزت قلوبهم ... «قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ».

وأمام هذه الطائفة التى ذكرناها آنفاً طائفة اخرى من العلماء والمتقين الورعين، فهؤلاء كانوا هناك، وكان لهم موقف آخر من قارون، وكما يعبر عنهم القرآن «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا». ثم أردفوا مؤكّدين: «وَلَا يُلَقَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ».

فى الدر المنثور عن ابن عباس أنّ قارون كان من قوم موسى، قال: كان ابن عمه وكان يبتغى العلم حتى جمع علماً فلم يزل فى أمره ذلك حتى بغى على موسى وحسده.

فقال له موسى عليه السلام: إنّ اللَّه أمرنى أن آخذ الزكاة فأبى. فقال: إنّ موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم؟ قالوا: لا- نحتمل فما ترى؟ فقال لهم: أرى أن ارسل إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل فنرسلها إليه فترميه بأنّه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها فقالوا لها: نعطيك حكمك على أن تشهدى على موسى أنّه فجر بك. قالت: نعم.

فجاء قارون إلى موسى عليه السلام قال: اجمع بنى إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربّك قال: نعم. فجمعهم فقالوا له: بم أمرك ربّك؟ قال:

أمرنى أن تعبدوا اللَّه ولا تشركوا به شيئاً وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا وقد أمرنى فى الزانى إذا زنى وقد أحصن أن يرجم. قالوا: وإن كنت أنت؟ قال: نعم. قالوا: فإنّك قد زنيت، قال: أنا؟

فأرسلوا إلى المرأة فجاءت، فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى عليه السلام أنشدتك باللَّه إلّاما صدقت. قالت: أمّا إذا نشدتنى فإنّهم دعونى وجعلوا لى جعلًا على أن أقذفك بنفسى وأنا أشهد أنّك برىء وأنّك رسول اللَّه.

فخرّ موسى عليه السلام ساجداً يبكى فأوحى اللَّه إليه: ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض فمرها فتطيعك، فرفع رأسه فقال: خذيهم فأخذتهم إلى أعقابهم فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى. فقال: خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى فقال: خذيهم فغيّبتهم فأوحى اللَّه: «يا موسى سألك عبادى وتضرّعوا إليك فلم تجبهم فو عزّتى لو أنّهم دعونى لأجبتهم» «١».

---

(١) الميزان فى تفسير القرآن ١۶/ ٨٣.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٣٠

يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد: «فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ».

يا للعجب ... ففرعون يهوى فى ماء النيل ... وقارون فى أعماق الأرض.

الماء الذى هو سرّ الحياة وأساسها يكون مأموراً بهلاك فرعون، والأرض التى هى مهاد الاطمئنان والدعة تنقلب قبراً لقارون واتباعه.

ومن البديهى أنّ قارون لم يكن لوحده فى ذلك البيت فقد كان معه أعوانه وندماءه ومن أعانه على ظلمه وطغيانه، وهكذا توغلوا فى أعماق الأرض جميعاً. «فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ».

أمّا آخر آية- محل البحث- فتحكى عن التبدل العجيب لأولئك الذين كانوا يتفرجون على استعراض قارون بالأمس ويقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون، وما شابه ذلك. وإذا هم اليوم يقولون: واهاً له، فإنّ الرزق بيد اللَّه؛ «وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ

وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ».

لـذلك شـكروا اللَّه على هذه النعمة وقالوا: «لَوْلَا أن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَايُفْلِحُ الْكفِرُونَ». فالآن نرى الحقيقة بأعيننا، وعاقبة الغرور والغفلة ونهاية الكفر والشهوة.

تِلْكَ الـدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيـدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَ لَا فَسَاداً وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (۸۳) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَـنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۸۴)

نتيجة حبّ التسلط والفساد فى الأرض: بعد البيان المثير لما حدث لثرى مستكبر ومتسلط، وهو قارون، تبدأ الآية الاولى من هذا المقطع ببيان استنتاج كلى لهذا الواقع وهذا الحدث، إذ تقول الآية: «تِلْكَ الدَّارُ الْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَايُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا».

إنّ ما يكون سـبباً لحرمان الإنسان من مواهب الـدار الآخرة، هو هـذان الأمران: «الرغبة فى العلو» أى الاسـتكبار؛ و «الفساد فى الأرض» وهما الذنوب.

ويقول القرآن فى نهايـة الآية: «وَالْعقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ». و «العاقبة» بمفهومها الواسع هى النتيجة الصالحة، وهى الإنتصار فى هذه الدنيا، والجنّة ونعيمها فى الدار الاخرى ...

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۳۱

وبعـد ذكر هذه الواقعية، وهى أنّ الدار الآخرة ليست لمن يحب السـلطة والمسـتكبرين، بل هى للمتقين المتواضـعين وطلبة الحق، تأتى الآية الثانية لتبيّن قانوناً كلّياً وهو مزيج بين العدالة والتفضل، ولتذكر ثواب الإحسان. فتقول: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا».

وهذه هى مرحلة التفضل، أى أنّ اللَّه سـبحانه لا يحاسب الناس كما يحاسب الإنسان نظيره بعين ضيّقة، فإذا أراد الإنسان أن يعطى أجر صاحبه فإنّه يسعى أن يعطيه بمقدار عمله، إلّاأنّ اللَّه قد يضاعف الحسنة بعشر أمثالها وقد يضاعفها بمئات الأمثال وربّما بالآلاف، إلّاأنّ أقـلّ ما يتفضل اللَّه به على العبـد أن يجازيه عشـرة أضـعاف حسـناته، حيث يقول القرآن فى الآيـة (۱۶۰) من سورة الأنعـام: «مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا».

ثم يعقّب القرآن ليذكر جزاء المسيئين فيقول: «وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

وهذه هى مرحلة العدل الإلهى، لأنّ المسىء لا يجازى إلّابقدر إساءته، ولا تضاف على إساءته أيّة عقوبة.

إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (۸۵) وَ مَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ (۸۶) وَ لَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَ ادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۸۷) وَ لَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۸۸)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: لما نزل النبى صـلى الله عليه و آله بالجحفـة فى مسـيره إلى المدينة، لما هاجر إليها، اشـتاق إلى مكة فأتاه جبرائيل عليه السـلام فقال: أتشتاق إلى بلدك وهو مولدك؟! فقال: نعم. قال جبرائيل: فإنّ اللَّه يقول: «إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ» «۱». يعنى مكة ... ونعلم إنّ هذا الوعد العظيم تحقق أخيراً.

---

(۱) راجع تفسير الميزان، تفسير القرطبى، ومجمع البيان، «التّفسير الكبير» للفخر الرازى، وتفاسير غيرها.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۳۲

فعلى هـذا تعـدّ الآيـة آنفـة الـذكر من الإخبار الإعجازى السابق لوقوعه، إذ أخبر القرآن عن رجوع النبى صـلى الله عليه و آله إلى مكة بصورة قطعية ودون أىّ قيد وشرط، ولم تطل المدّة حتى تحقق هذا الوعد الإلهى الكبير.

التّفسير

الوعـد بعودة النبى إلى حرم اللَّه الآمن: قلنا: إنّ الآية الاولى من هذه الآيات طبقاً لما هو مشـهور بين المفسـرين نزلت فى «الجحفة» فى مسير النبـى صـلى الله عليه و آله، إلى المدينـة إذ كـان متوجهاً إلى يـثرب لتتحـول بوجوده إلى «مدينـة الرسول» ... لكن هـذا الحنين والشوق والتعلق بمكة يؤلمه كثيراً، وليس من اليسير عليه الإبتعاد عن حرم اللَّه الآمن.

وهنا يشـرق فى قلبه الطاهر نور الوحى، ويبشّـره بالعودة إلى وطنه الـذى ألفه فيقول: «إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ». فلا تكترث ولا تُـذهب نفسك حسـرات، فاللَّه الـذى أعاد موسـى إلى امّه هو الذى أرجعه أيضاً إلى وطنه بعد غياب عشـر سـنوات فى مدين.

هو اللَّه سبحانه الذى يردك إلى مكة بكل قوة وقدرة، ويجعل مصباح التوحيد على يدك مشرقاً فى هذه الأرض المباركة.

ثم يضيف القرآن فى خطابه للنبى صلى الله عليه و آله، أن يجيب على المخالفين الضالين بما علّمه اللَّه: «قُلْ رَّبِّى أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِى ضَللٍ مُّبِينٍ».

إنّ طريق الهدايـة واضـح، وضـلالهم بيّن، وهم يتعبون أنفسـهم عبثـاً، فـاللَّه يعرف ذلـك جيـداً، والقلوب التى تعشق الحق تعرف هـذه الحقيقة أيضاً.

أمّا الآيـة التاليـة فتتحـدث عن نعمـة اخرى من نعم اللَّه العظيمة على النبى صـلى الله عليه و آله فتقول: «وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ».

ثم يضيف القرآن فى خطابه للنبى صلى الله عليه و آله أن طالما كنت فى هذه النعمة: «فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكفِرِينَ».

ومن المسلّم به أنّ النبى صلى الله عليه و آله لم يكن ظهيراً للكافرين أبداً، إلّاأنّ الآية جاءت فى مقام التأكيد على النبى صلى الله عليه و آله وبيان المسؤولية للآخرين.

وفى هـاتين الآـيتين أربعـة أوامر من اللَّه لنبيّه صـلى الله عليه و آله، وأربعـة صـفات للَّهتعـالى، وبهـا يكتمل ما ورد فى هـذه السورة من أبحاث.

يقول أوّلًا: «وَلَا يَصُدَّنَّكَ عَن ءَايتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۳۳

إِلَيْكَ». وبالرغم من أنّ النهى موجه إلى الكفار، إلّاأنّ مفهوم الآية عدم تسليم النبى صلى الله عليه و آله أمام صدّ الكافرين، وإحباطهم ومؤامراتهم.

وبهـذا الأسـلوب يأمر اللَّه النبى صـلى الله عليه و آله أن يقف راسـخ القـدم عند نزول الآيات ولا يتردد فى الأمر، وأن يزيل الموانع من قارعة الطريق مهما بلغت، ولْيَسر نحو هدفه مطمئناً، فإنّ اللَّه حاميه ومعه أبداً.

وبعـد هذا الخطاب الذى فيه جنبة نهى، يأتى الخطاب الثانى وفيه سـمة إثبات فيقول: «وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ» .. فاللَّه الذى خلقك وهو الذى ربّاك ورعاك ...

والأمر الثالث، بعد الأمر بتوحيد اللَّه، هو نفى جميع أنواع الشرك وعبادة الأصنام «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

والأمر الرابع تأكيد آخر على نفى جميع أنواع الشرك، إذ يقول تعالى: «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهًا ءَاخَرَ».

وهذه الأوامر المتتابعة كل واحد منها يؤكّد الآخر، يوضح أهمية التوحيد فى المنهج الإسلامى، إذ بدونه يكون كل عمل زيفاً ووهماً.

وبعد هذه الأوامر الأربعة تأتى أوصاف أربعة للَّهسبحانه، وهى جميعاً تأكيد على التوحيد أيضاً:

فالأوّل قوله: «لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ».

والثانى قوله: «كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ».

والوصف الثالث: «لَهُ الْحُكْمُ» والحاكمية فى عالمى التشريع والتكوين.

والرابع: أنّ معادنا إليه «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

والأوصاف الثلاثـة الأخيرة يمكن أن تكون دليلًا على إثبات التوحيـد وترك جميع أنواع عبادة الأصـنام، الـذى أشير إليه فى الوصـف الأوّل.

«نهاية تفسير سورة القصص»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۳۵

۲۹ سورة العنكبوت

محتوى السورة: إنّ أبحاث هذه السورة تتلخص فى أربعة أقسام:

۱- فى البداية يتحدث عن مسألة «الامتحان»، وموضوع «المنافقين»، وهذان الأمران متلازمان لا يقبلان الإنفكاك.

۲- وقسم آخر من هذه السورة هو لتسلية قلب النبى صلى الله عليه و آله والمؤمنين القلّة الأوائل، عن طريق بيان جوانب من حياة الأنبياء العظام السـابقين، أمثـال نوح وإبراهيم ولوط وشـعيب عليهم السـلام وعواقبهم؛ إذ واجهوا أعـداءً ألـدّاء أمثـال نمرود وطواغيت المـال البخلاء.

۳- ثم يتحـدث عن التوحيـد ودلائـل اللَّه فى عالم خلقه، والمواجهـة مع المشـركين، ويـدعوا الفطرة والوجـدان إلى الإحتكام والقضاء الحق.

۴- وفى قسم آخر من هـذه السورة، ففيه مبـاحث متنوعـة عن عجز الأصـنام المصـنوعة التى تعبـد من دون اللَّه، وعبادهـا الـذين مثلهم كمثل العنكبوت، وبيان عظمة القرآن، ودلائل حقانية نبى الخاتم، ولجاجة المخالفين، كما تتعرض لسلسـلة من المسائل التربوية أمثال: الصلاة، والعمل الصالح، والإحسان إلى الوالدين، وأسلوب مناقشة المخالفين، وما إلى ذلك.

وتسمية السورة هذه ب «العنكبوت» مأخوذة من الآية (۴۱) من هذه السورة، التى تشبّه عبدة الأوثان من دون اللَّه بالعنكبوت، التى تبنى بيتها من نسيجها، وهو أوهن البيوت.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۳۶

فضـيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين».

وفى ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السـلام قال: «من قرأ سورة العنكبوت والروم فى شـهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين فهو واللَّه من أهل الجنة، لا أستثنى فيه أبداً، ولا أخاف أن يكتب اللَّه علىّ فى يمينى إثماً، وإنّ لهاتين السورتين من اللَّه مكاناً».

ولا- شـك أنّ محتوى هـاتين السورتين الغزير، والـدروس العمليـة المهمـة منهـا فى التوحيـد، وما إلى ذلك، كلّه كاف لأن يسوق أىّ إنسان ذى لب وفكر وعمل إلى الجنة والخلود فيها.

الم (۱) أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ (۲) وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (۳)

نواجه فى بداية هذه السورة الحروف المقطعة «الم» أيضاً .. وقد بيّنا تفسيرها عدة مرات من وجوه مختلفة «۱».

وبعـد هذه الحروف المقطعة يشير القرآن إلى واحدة من أهم مسائل الحياة البشـرية، وهى مسألة الشدائد والضـغوط والامتحان الإلهى فيقول أوّلًا: «أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَايُفْتَنُونَ» «۲».

ثم يـذكر القرآن هـذه الحقيقـة- بعـد الآيـة المتقدمة مباشـرة- وهى أنّ الامتحان سـنة إلهية دائمية جارية فى جميع الأمم المتقدمة، إذ يقول: «وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ».

ووقعوا أيضاً- تحت تأثير ضغوط الأعداء القساة والجهلة المعاندين ..

وينبغى أن يكون الأمر كذلك، لأنّه فى مقام الإدعاء يمكن لكل أحد أن يذكر عن نفسه أنّه أشرف مجاهد وأفضل مؤمن وأكثر الناس تضحيةً .. فلابدّ من معرفة قيمة هذه الإدعاءات بالامتحان، وينبغى أن تعرف النيات والسرائر إلى أى مدى تنسجم مع هذه الادعاءات.

---

(۱) يراجع بداية تفسير سورة البقرة وبداية سورة آل عمران وبداية تفسير سورة الأعراف.

(۲) «يفتنون»: مشتق من «الفتنة» وهى فى الأصل وضع الذهب فى النّار لمعرفة مقدار خلوصه، ثم أطلق هذا التعبير على كل امتحان ظاهرى ومعنوى.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۳۷

أجل: «فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ».

من البديهى أنّ اللَّه يعرف جميع هذه الامور جيداً- قبل أن يخلق الإنسان- إلّاأنّ المراد من العلم هنا هو ظهور الآثار والشواهد العملية ... ومعناه أنّه ينبغى أن يرى علم اللَّه فى هذه المجموعة عملياً فى الخارج، وأن يكون لها تحقق عينى.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (۴) مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۵) وَ مَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (۶) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (۷)

لا- مهرب من سلطان اللَّه: كان الكلام فى الآيات السابقة عن امتحان المؤمنين الشامل، والآية الاولى من الآيات أعلاه تهديد شديد للكفّار والمذنبين، لئلا يتصوروا أنّهم حين يضيّقون على المؤمنين ويضغطون عليهم دون أن يعاقبهم اللَّه فوراً، فإنّ اللَّه غافل عنهم أو عاجز عن عذابهم، تقول الآية هذه: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ». فلا ينبغى أن يغرّهم إمهال اللَّه إيّاهم فهو امتحان لهم، كما أنّه فرصة للتوبة والعودة إلى ساحة اللَّه تعالى.

ثم يتحدث القرآن مرّة اخرى عن سير المؤمنين ومناهجهم، ويقدم النصح لهم، فيقول: «مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ». فعليه أن يعمل ما فى وسعه على امتثال الأوامر الإلهية والأحكام الشرعية، لأنّ الوقت المعين سيأتى حتماً «فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَأَتٍ».

ثم إنّ اللَّه سبحانه يسمع أحاديثكم، وهو مطلع على أعمالكم ونيّاتكم ... لأنّه «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

إنّ «لقاء اللَّه» فى يوم القيامة ليس لقاءاً حسيّاً بل نوعاً من الشهود الباطنى.

وكما يقول العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان: إنّ المقصود من لقاء اللَّه، هو أنّ العباد يكونون فى موقف لا يكون بينهم وبين اللَّه حجاب، لأنّ طبيعة يوم القيامة هى ظهور الحقائق كما يقول القرآن: «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ». سورة النور الآية (۲۵).

أمّا الآية التى تليها فهى تعليل لما سبق بيانه فى الآية الآنفة، إذ تقول: إنّ على المؤمنين

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۳۸

الذين يرغبون فى لقاء اللَّه السعى بما اوتوا من قدرة وقابلية من أجل ذلك فإنّ نتيجة كل ذلك السعى والجهاد وتحمل الشدائد ترجع ثمارها للعامل نفسه: «وَمَن جهَدَ فَإِنَّمَا يُجهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ». إنّ خطة الامتحان الإلهى هى الجهاد، جهاد النفس وهواها، وجهاد الأعداء الألداء، لحفظ الإيمان والتقوى والطهارة، ونفع ذلك يعود للإنسان ...

و آخر آية- محل البحث- توضيح لما تقدم ذكره فى الآية السابقة بشكل مبهم تحت عنوان الجهاد، فهنا يكشف القرآن حقيقة الجهاد فيقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيَاتِهِمْ».

إذن أوّل فائدة كبيرة لهذا الجهاد الكبير (وهو الإيمان والعمل الصالح) هى تكفير الذنوب وسترها على الإنسان، كما أنّ الثواب

سيكون من نصيبهم، كما يقول القرآن فى نهاية هذه الآية أيضاً: «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ».

«نكفّر»: مشتقة من مادة «تكفير» ومعناها فى الأصل التغطية والستر، والمقصود بتغطية الذنوب هنا عفو اللّه وصفحه.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (۴) مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۵) وَ مَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (۶) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (۷) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۸) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّالِحِينَ (۹)

سبب النّزول

وردت روايات مختلفة فى شأن نزول الآية الآنفة الذكر، ومضمون الجميع واحد وهى أنّ بعض الرجال الذين كانوا فى مكة وأسلموا «۱»، حين سمعت امهاتهم بذلك صممن على أن لا يتناولن طعاماً ولا يشربن ماءً حتى يرجع أبناؤهن عن الإسلام، وبالرغم من أنّ أية واحدة من هؤلاء الامهات لم تف بقولها، ورجعت عن إضرابها عن الطعام، إلّاأنّ الآية المتقدمة نزلت لتوضح للجميع اسلوب المعاملة بين الأبناء والآباء والامهات، فى مجال الكفر والإيمان.

---

(۱) ورد فى بعض الروايات اسم (سعد بن أبى وقاص) وفى بعضها اسم (عياش بن أبى ربيعة المخزومى).

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۳۹

التّفسير

أفضل الوصايا بالنسبة للوالدين: إنّ واحداً من أهم الامتحانات الإلهية، هى مسألة «التضاد» بين خط الإيمان والتقوى وبين علاقة العاطفية والقرابة .. والقرآن فى هذا المجال يوضح وظيفة المسلمين بجلاء. فى البداية يتحدث عن قانون كلى يستمد من جذور العواطف الإنسانية وردّ الجميل فيقول: «وَوَصَّيْنَا الْإِنسنَ بِوَالِدَيْهِ».

إنّ التعبير ب «الإنسان» هنا يلفت النظر .. فهذا القانون لا يختص بالمؤمنين، بل كل من كان جديراً بأن يحمل اسم الإنسان ينبغى أن يكون عارفاً بحق الأبوين ... وأن لا ينسى تكريمهما واحترامهما والإحسان إليهما طيلة عمره .. وإن كان كل ذلك لا يفى بحقوقهما.

بعد ذلك، ومن أجل أن لا يتبادر إلى الذهن أنّ العلاقة العاطفية بالوالدين يمكن أن تكون حاكمةً على العلاقة بين الإنسان وربّه وإيمانه، يأتى استثناء صريح ليوضّح هذا الموضوع فى الآية، فيقول تعالى: «وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا».

جملة «مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» إشارة إلى عدم منطقية الشرك، لأنّ الشرك لو كان صحيحاً واقعاً لكان عليه دليل بيّن.

وبتعبير آخر: متى ما لم يعلم الإنسان بشىء فلا ينبغى أن يتبعه فكيف إذا كان يعلم ببطلانه؟ فهذا الاتباع هو اتّباع للجهل، فلو أنّ الوالدين أمراك باتباع الجهل فلا تطعهما.

ثم يضيف تعالى فى نهاية الآية: «إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وهذه الجملة تهديد لُاولئك الذين يسيرون فى طريق الشرك، والذين يدعون الآخرين إلى هذا الطريق ..

و الآية التى بعدها تؤكّد الحقيقة فى اولئك المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وتكرر هذا المضمون أيضاً: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصَّالِحِينَ».

وأساساً فإنّ عمل الإنسان يترك فى الإنسان أثره .. فالعمل الصالح يصبغ الإنسان بلونه ويدخله فى زمرة «الصالحين».

كما أنّ العمل السيء يدخله فى زمرة «الخاطئين والمسيئين».

إنّ الكلام فى الآيات المتقدمة كان عن غفران الذنوب وتكفير السيئات وما يستحقه المؤمنون من الجزاء، إلّاأنّه هنا إشارة عن مقامهم الرفيع الذى هو فى نفسه ثواب آخر.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۴۰

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَ لَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَ وَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (۱۰) وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (۱۱) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَ لْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَ مَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (۱۲) وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَ لَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (۱۳)

شرکاء فی الإنتصار أمّا فی الشدة فلا: حیث إنّ الآیات المتقدمة تحدثت عن المؤمنین الصالحین والمشرکین بشکل صریح، ففی الآیات الاولی من هذا المقطع یقع الکلام علی الفریق الثالث- أی المنافقین- فیقول القرآن فیهم: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِىَ فِى اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ». فلا یصبرون علی الأذی والشدائد، ویحسبون تعذیب المشرکین لهم وأذی الناس أنّه عذاب من اللَّه «وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ». فنحن معکم فی هذا الافتخار والفتح.

تری هل یظنون أنّ اللَّه خفیّ علیه ما فی أعماق قلوبهم فلا یعرف نیّاتهم «أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ الْعَالَمِينَ».

ولعل التعبیر ب «آمنّا» بصیغة الجمع، مع أنّ الجملة التی تلیه جاءت بصیغة المفرد، هو من جهة أنّ هؤلاء المنافقین یریدون أن یقحموا أنفسهم فی صف المؤمنین، فلذلک یقولون «آمنّا» أی آمنّا کسائر الناس الذین آمنوا.

وجملة «أُوذِىَ فِى اللَّهِ» معناه أوذی فی سبیل اللَّه، أی إنّهم قد یتعرض لهم العدوّ- أحیاناً- وهم فی سبیل اللَّه والإیمان فیؤذیهم.

وفی الآیة التالیة- لمزید التأکید- یضیف القرآن قائلًا: «وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ». فلو تصوروا أنّهم إذا أخفوا الحقائق فإنّهم سیکونون فی منأی عن علم اللَّه فهم فی خطأ کبیر جدّاً.

إنّ التعبیر بالمنافقین لها معنی واسع، ویشمل حتی الأفراد ضعاف الإیمان الذین یبدّلون عقیدتهم لأدنی مکروه یصیبهم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۴۱

و الآیة الاخری بعدها تشیر إلی منطق المشرکین الخاوی والملتوی، الذی لا یزال موجوداً فی طبقات المجتمع الواسعة فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ».

والیوم نری کثیراً من الخبثاء یقولون للآخرین عند دعوتهم إلی أمر: إن کان فیه ذنب فعلی رقابنا فی حین أنّنا نعلم أنّه لا یمکن لأحد أن یتحمل وزر أحد، فاللَّه عادل سبحانه ولا یؤاخذ أحداً بجرم الآخر.

لذلک فإنّ القرآن یقول بصراحة فی الجملة التالیة: «وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكٰذِبُونَ».

وبعد ذلک، ومن أجل أن لا یتصور أنّ هؤلاء الدعاة للکفر والشرک وعبادة الأصنام والظلم، لا شیء علیهم من العقاب لهذا العمل، فإنّ القرآن یضیف فی الآیة التالیة قائلًا: «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ أَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ».

وثقل الذنب هذا ... هو ثقل ذنب الإغراء والإغواء وحث الآخرین علی الذنب، وهو ثقل السنّة التی عبّر عنها النبی صلی الله علیه و آله فقال: «من سنّ سنة سیئة فعلیه وزرها ووزر من عمل بها من غیر أن ینقص من وزره شیء» «۱».

وتختتم الآیة بالقول: «وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ (۱۴) فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (۱۵) وَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۶) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۱۷) وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (۱۸) أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (۱۹)

---

(١) التفسير الكبير ٢۵/ ۴٠.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۵۴٢

إشارة لقصّتى نوح وإبراهيم: لما كان الكلام فى البحوث السابقة عن الإمتحانات العامة فى الناس، فإنّ الكلام هنا- وفى ما بعد- يقع على الإمتحانات الشديدة للأنبياء.

تبدأ الآيات أوّلًا بالكلام على أوّل نبى من أولى العزم وهو نوح عليه السلام وتتحدث عنه بعبارات موجزة، لتُجمل قسماً من حياته التى تناسب- كثيراً- الواقع الراهن للمسلمين- آنئذ- فتقول: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا».

كان نوح مشغولًا ليل نهار بالتبليغ ودعوة قومه إلى توحيد اللَّه- فرادى ومجتمعين، مستفيداً من جميع الفرص فى هذه المدة الطويلة (أى تسعمائة وخمسين عاماً) يدعوهم إلى اللَّه ... ولم يشعر بالتعب والنصب من هذا السعى المتتابع ولم يظهر عليه الضعف والفتور.

ومع كل هذا الجهد الجهيد لم يؤمن به إلّاجماعة قليلة فى حدود الثمانين شخصاً كما تنقل التواريخ (أى: بمعدّل نفر واحد لكل اثنتى عشرة سنة).

فعلى هذا لا تظهروا الضعف والتعب فى سبيل الدعوة إلى الحق ومواجهة الانحرافات، لأنّ منهجكم أمام منهج «نوح» سهل للغاية.

لكن لاحظوا كيف كانت عاقبة قوم نوح الظالمين الألدّاء: «فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ».

ويضيف القرآن الكريم فى الآية الاخرى: «فَأَنجَيْنَهُ وَأَصْحبَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ».

ثم يعقّب على قصة نوح وقومه التى وردت بشكل مضغوط، ويأتى بقصة إبراهيم عليه السلام، ثانى الأنبياء الكبار من أولى العزم فيقول: «وَإِبْرَهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ». إذ ينجيكم من دنياكم الملوّثة بالذنوب والشقاء، وتكون آخرتكم هى السعادة الأبدية.

ثم يذكر إبراهيم عليه السلام أدلة بطلان عبادة الأصنام والأوثان، ويبيّن فى تعابير مختلفة يتضمن كل منها دليلًا على فساد مذهبهم وبطلانه فيقول أوّلًا: «إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا».

الأصنام التى ليس لها إرادة، ولا عقل، وهى فاقدة لكل شىء، بحيث إنّ شكلها بنفسه هو دليل على بطلان عقيدة «عبادة الأوثان».

ثم يتوسع فى حديثه ويمضى إلى مدى أبعد فيقول: ليست هذه الأوثان بهيئتها تدل على أنّها لا تستحق العبادة فحسب، بل أنتم تعلمون بأنّكم تكذبون وتضعون اسم الآلهة على هذه الأوثان: «وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا».

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۵۴٣

ثم يبيّن الدليل الثالث وهو أنّ عبادتكم لهذه الأوثان إمّا لأجل المنافع المادية، أو لعاقبتكم فى «الاخرى» وكلا الهدفين باطل ... وذلك: «إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَايَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا».

وأنتم تعتقدون بأنّ هذه الأصنام لم تكن خلقتكم، بل الخالق هو اللَّه، فالذى يتكفل بالرزق هو اللَّه، «فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ».

ولأنّه هو الذى يرزقكم فتوجهوا إليه «وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ».

وإذ كنتم تبتغون الدار الاخرى فإنّه «إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

فالأصنام لا تصنع شيئاً هنا ولا هناك.

وبهذا الأدلة الموجزة والواضحة ألجم منطقهم الواهى وأفحمهم.

ثم يلتفت إبراهيم عليه السلام مهدّداً لهم ومبدياً عدم اكتراثه بهم قائلًا: «وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ» كذبوا أنبياءهم فنالوا الخزى بتكذيبهم والعاقبة الوخيمة «وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ» سواءً استجاب له قومه، أم لم يستجيبوا له دعوته وبلاغه.

والمقصود بالامم قبل امة إبراهيم عليه السلام، امة نوح عليه السلام وما بعده من الامم.

والقرآن يترك قصة إبراهيم هنا مؤقتاً، ويكمل البحث الذى كان لدى إبراهيم فى صدد التوحيد وبيان رسالته بدليل المعاد، فيقول:

«أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ». أى كيف لا يعرف هؤلاء خلق اللَّه؟ فالذى له القدرة على الإيجاد أوّلًا قادر على إعادته أيضاً.

ويضيف فى آخر الآية على سبيل التأكيد: «إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ». لأنّ تجديد الحياة قبال الإيجاد الأوّل يُعدّ أمراً بسيطاً.

وطبيعى أنّ هذا التعبير يناسب منطق الناس وفهمهم، وإلّا فإنّ اليسير والعسير لا مفهوم لهما عند من قدرته غير محدودة والمطلقة.

قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَ لَا فِى السَّمَاءِ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (٢٢) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ لِقَائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِى وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۵۴۴

الآيسون من رحمة اللَّه: هذه الآيات تواصل البحث فى المعاد أيضاً، فإنّ القرآن يدعو فى الآية الاولى من هذا المقطع الناس إلى «السير فى الآفاق» فى مسألة المعاد ... فى حين أنّ الآية السابقة كانت السمة فيها «السير فى الأنفس» أكثر. يقول القرآن:

«قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ». انظروا إلى أنواع الموجودات الحية، والاقوام والامم المتنوعة والمختلفة، وكيف أنّ اللَّه تعالى خلقها أولًا، ثم إنّ اللَّه نفسه الذى أوجدها فى البداية من العدم قادر أيضاً على ايجادها فى الآخرة: «ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْأَخِرَةَ» ولأنّه أثبت قدرته على كل شيء حين خلق الخلق أوّلًا، إذن ف «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

فهذه الآية والآية التى قبلها- أيضاً- أثبتتا بواسطة قدرته الواسعة إمكان المعاد ..

«النشأة»: فى الأصل، تعنى إيجاد الشيء وتربيته، وقد يعبر أحياناً عن الدنيا بالنشأة الاولى، كما يعبر عن الاخرى بالنشأة الآخرة.

ثم يتعرض القرآن الكريم إلى إحدى المسائل المتعلقة بالمعاد، وهى مسألة الرحمة والعذاب، فيقول: «يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ».

ومع أنّ رحمة اللَّه مقدمة على غضبه، إلّاأنّ الآية هنا تبدأ أوّلًا بذكر العذاب ثم الرحمة، لأنّها فى مقام التهديد، وما يناسب مقام التهديد هو هذا الاسلوب.

وإكمالًا لهذا البحث الذى يبيّن أنّ الرحمة والعذاب هما بيد اللَّه والمعاد إليه، يضيف القرآن: إذا كنتم تتصورون أنّكم تستطيعون أن تهربوا من سلطان اللَّه وحكومته ولا يمسّكم عذابه، فأنتم فى خطأ كبير ... فليس الأمر كذلك؛ «وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ» «١».

وإذا كنتم تتصورون أنّكم تجدون من يدافع عنكم وينصركم هناك، فهذا خطأ محضٌ أيضاً: «وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

وهكذا يغلق القرآن جميع أبواب الفرار بوجه هؤلاء المجرمين .. لذلك يقول فى الآية التى بعدها بشكل قاطع: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَايتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولئِكَ يِسُوا مِنْ رَّحْمَتِى». ثم يضيف مؤكداً: «وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

هذا «العذاب الأليم» هو لزم اليأس من رحمة اللَّه.

---

(١) «معجزين»: مشتقة من مادة «عجز»، ومعناها فى الأصل التخلّف والتأخر عن الشىء، ولذلك تستعمل هذه الكلمة فى الضعف الباعث على التخلف والتأخر؛ «المعجزة»: معناه الذى يجعل الآخر عاجزاً، وحيث إنّ الأفراد الذين يفرون من سلطان أحد وقدرته، يعجزونه عن ملاحقتهم، لذلك استعملت كلمة «معجز» فى هذا الصدد أيضاً.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۵۴۵

والمراد ب «آيات اللَّه» هى جميع الآيات فى عالم الوجود والتشريع.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢۴) وَ قَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَ مَأْوَاكُمُ النَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢۵) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢۶) وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتَابَ وَ آتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)

اسلوب المستكبرين فى جوابهم لإبراهيم: والآن علينا أن نعرف ماذا قال هؤلاء القوم الضالون لإبراهيم عليه السلام ردّاً على أدلته الثّلاثة فى مجال التوحيد والنبوة والمعاد؟!

إنّهم- قطعاً- لم يكن لـديهم جواب منطقى وكجميع الأقوياء المستكبرين فقـد توسلوا بقدراتهم الشيطانية وأصدروا أمراً بقتله، حيث يصرّح بذلك القرآن الكريم فيقول: «فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ».

وأخيراً رُجح الرأى الأوّل، لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ أشدّ حالات الإعدام هو الإحراق بالنار.

وفى هـذه الآيـة الكريمة لم يرد كلام عن كيفية إحراق إبراهيم عليه السـلام بالنار سوى هذا المقدار الذى استكملت به الآية الكريمة، وهو «فَأَنجهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ».

غير أنّ تفصيل ما جرى عليه من الإحراق ورد فى سورة الأنبياء الآيات (۶٨- ٧٠) وقد بيّنا ذلك هناك، فلا بأس بمراجعته.

ويضيف القرآن فى الختام: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

إنّ ابراهيم عليه السـلام نجّى من النار بصورة خارقة للعادة وبلطف اللَّه سبحانه، غير أنّه لم يترك أهدافه .. بل نهض بالأمر وازداد همّة وأعطى لأهدافه حرارة أكثر.

ثم توجه إبراهيم إلى المشركين، «وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۵۴۶

الْحَيَوةِ الدُّنْيَا». ولكن هذه المودة والمحبة تتلاشـى فى الآخرة، «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَيكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نصِرِينَ».

إنّ عبادة الصـنم أو الوثن كانت رمزاً للوحـدة لكل قوم ولكل قبيلـة، كما تربط بينهم وبين اسـلافهم. ثم بعد هذا كلّه فإنّ سـراة الكفار كانوا يدعون أتباعهم إلى عبادة الأوثان، وكان هذا الأمر بمثابة «حلقة الاتصال» بين السراة والأتباع.

ولكن هذه العلائق والوشائج والإرتباطات الخاوية تتقطع جميعها يوم القيامة.

وفى الآية التى بعد تلك الآية إشارة إلى إيمان لوط وهجرة إبراهيم، إذ تقول: «فَامَنَ لَهُ لُوطٌ».

«لوط» نفسه من الأنبياء العظام، وكانت له مع إبراهيم علاقة قربى «يقال إنّه كان ابن أخت ابراهيم عليه السـلام» وحيث إنّ اتّباع شخص عظيم- لإبراهيم- بمنزلـة أفراد امـة كاملـة فقـد تحدث سـبحانه- خاصةً- عن إيمان «لوط» وشخصـيته الكبرى المعاصـرة لإبراهيم عليه السلام، ليتّضح أنّه إذ لم يؤمن الآخرون، فإنّ ذلك ليس مهماً.

ثم تضيف الآية عن هجرة إبراهيم عليه السلام، فتقول: «وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبّى إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

فلـذلك تحرك ابراهيم عليه السـلام وزوجه سارة- بمعيّة لوط- من بابل إلى أرض الشام مهد الأنبياء والتوحيد، ليسـتطيع أن يكتسـب جماعة هناك ويوسع دعوة التوحيد.

وفى آخر آية من هذا المقطع يقع الكلام على المواهب الأربع التى منحها اللَّه لإبراهيم عليه السلام بعد الهجرة العظيمة:

الموهبة الاولى: الأبناء الصالحون، من أمثال إسـحاق ويعقوب، ليسرجوا مصباح الإيمان والنبوة فى بيته وأسرته ويحافظوا عليه، إذ يقول القرآن: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحقَ وَيَعْقُوبَ». وهما نبيّان كبيران واصل كل منهما السير على منهاج إبراهيم محطم الأصنام.

الموهبة الثانية: «وَجَعَلْنَا فِى ذُرّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتبَ».

الموهبـة الثالثـة: «وَءَاتَيْنهُ أَجْرَهُ فِى الـدُّنْيَا». فما هو هـذا الأجر الـذى لم يوجهه القرآن؟ لعلّه إشارة إلى امور مختلفـة مثل الاسم الحسن، ولسـان الصـدق والثنـاء بين جميـع الامـم، لأنّ الامـم كلهـا تحـترم إبراهيم عليه السـلام على أنّه نـبى عظيم الشـأن، ويفتخرون بوجوده ويسمونه «شيخ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۴۷

الأنبياء».

الموهبة الرابعة، هى: «وَإِنَّهُ فِى الْأَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ». وهكذا تشكّل هذه المواهب مجموعة كاملة من المفاخر.

وَ لُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُم لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (۲۸) أ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِى نَـادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَـا كَـانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَـذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۲۹) قَالَ رَبِّ انْصُـرْنِى عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (۳۰)

المنحرفون جنسياً: بعد بيان جانب مما جرى لإبراهيم عليه السـلام يتحدث القرآن عن قسم من قصة حياة النبى المعاصر لإبراهيم «لوط عليه السـلام» فيقول: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ». «الفاحشة»: مشتقة من مادة «فَحَشَ» وهى فى الأصل تعنى كل فعل أو كلام سيء للغاية، والمراد بها هنا الانحراف الجنسى. (اللواط).

لوط عليه السـلام هذا النبى العظيم، كشف أخيراً ما فى نفسه وقال لقومه: «أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ». أفتريدون أن تقطعوا النسل «وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ».

ولا ترعوون عن الأعمال المخزية فى مجالسكم العامة «وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ».

«النـادى»: مشـتق من «النـداء» وهو يعنى المجلس العـام، كمـا يـأتى أحيانـاً بمعنى مكان التنزّه، لأنّ الأفراد هناك ينادى بعضـهم بعضـاً وترتفع أصواتهم.

ورد فى التواريـخ: إنّهم كانوا يتسابون بكلمات الفحش والإبتـذال، أو يضـرب أحدهم الأخر على ظهره، أو يلعبون القمار، ويسـتعملون أنواع الآلات الموسيقية، ويكشفون عوراتهم فى مجتمعهم ويغدون عراة ... الخ «۱».

والآن فلنلاحظ ماذا كان جواب هؤلاء القوم الضالين المنحرفين، على كلمات النبى لوط عليه السـلام المنطقيـة. يقول القرآن: «فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصدِقِينَ».

وهنا لم يكن للوط عليه السلام بدّ إلّاأن يلتفت إلى اللَّه بقلب حزين مهموم ... و «قَالَ رَبِّ انصُرْنِى

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۴۸

عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِـدِينَ». القوم المنحرفين، المتمادين فى الأرض فساداً، والـذين تركوا تقواهم وأخلاقهم الإنسانية وألقوا العفة والطهارة خلف ظهورهم، ومزجوا عبادة الأوثان بفسد الأخلاق والظلم، وهددوا نسل الإنسان بالفناء والزوال.

وَ لَمَّا جَاءَتْ رُسُـلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (۳۱) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (۳۲) وَ لَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قَالُوا لَا تَخَفْ وَ لَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَـكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (۳۳) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُـقُونَ (۳۴) وَ لَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۳۵)

وهذه هى عاقبة المنحرفين: لقد استجيب دعاء لوط أخيراً، وصدر الأمر من اللَّه تعالى بالعقاب الصارم والشديد لهؤلاء القوم المنحرفين والمفسـدين، فمرّ الملائكـة المأمورون بعذاب قوم لوط بالأرض التى فيها إبراهيم عليه السـلام لأداء رسالة اخرى قبل أن ينزلوا العقاب

بقوم لوط، وهذه الرسالة التى سبقت العذاب، هى بشارتهم لإبراهيم عليه السلام بالولد: «بشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب».

والآيات المتقدمة تذكر أوّلًا قصة مرورهم بإبراهيم عليه السلام فتقول: «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ».

والتعبيرب «هذه القرية» يدل على أنّ مُدن قوم لوط كانت قريبة من أرض إبراهيم عليه السلام.

والتعبير ب «الظالمين» هو لأجل كونهم يظلمون أنفسهم باتخاذهم سبيل الشرك والفساد الأخلاقى وعدم العفة، وظلمهم الآخرين حتى شمل العابرين والقوافل التى كانت تمرّ على طريقهم.

فلمّا سمع «إبراهيم» هذا النبأ حزن على لوط النبى العظيم و «قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۴۹

فما عسى أن تكون عاقبته؟

إلّا أنّهم أجابوه على الفور: «قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا» فلا تحزن عليه، لأنّنا لا نحرق «الأحضر واليابس» معاً، وخطتنا دقيقة ومحسوبة تماماً ... ثم أضافوا: «لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ».

إنتهى كلام الملائكة مع إبراهيم هنا، وتوجهوا إلى ديار لوط عليه السلام وقومه، يقول القرآن فى هذا الشأن: «وَلَمَّا أن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا».

فقد جاؤوا إليه بهيئة فتيان ذى وجوه مليحة، ومجيء أمثال هؤلاء الضيوف فى مثل هذا المحيط الملوّث، ربّما كان يجرّ على لوط الوبال.

«سىء»: مشتقة من «ساء» ومعناه سوء الحال؛ و «الذرع»: معناه «القلب» «الخلق»، فعلى هذا يكون معنى «ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا» أى ضاق قلبه وانزعج.

إلّا أنّ الضيوف حين أدركوا عدم إرتياحه كشفوا عن «هويّتهم» وعرفوا أنفسهم ورفعوا عنه الحزن: «وَقَالُوا لَاتَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ».

وبعد هذا، ولكى تتضح خطة عملهم فى شأن عاقبة هؤلاء القوم المنحرفين أكثر، أضافوا: «إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

والمراد ب «القرية» هى «سدوم» من قرى قوم لوط عليه السلام.

والمراد من «الرجز» هنا هو العذاب.

وهنا لم يذكر القرآن كيفية العذاب الأليم، سوى أنّه قال: «وَلَقَدْ تَّرَكْنَا مِنْهَا ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

إلّا أنّ فى سورة هود الآية (۸۲) منها وكذلك سورة الأعراف الآية (۸۴) منها، تفصيلًا فى بيان العذاب، وهو أنّه أصابت قراهم فى البداية زلزلة شديدة فجعلت عاليها سافلها، ثم أمطرت عليها حجارة من السماء.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵۰

وَ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۳۶) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (۳۷) وَ عَاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (۳۸) وَ قَارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ وَ مَا كَانُوا سَابِقِينَ (۳۹) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۴۰)

تنوع العذاب للظالمين: بعد بيان قصّة لوط وقومه يقع الكلام عن أقوام آخرين أمثال قوم شعيب وعاد وثمود، وقارون وفرعون، وقد

أشير فى هذه الآيات- محل البحث- إلى كل منهم إشارة موجزة «مكثفة» للإستنتاج والعبرة. فى البداية تقول الآية:

«وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا».

والتعبير بكلمة «أخاهم»، هو إشارة إلى منتهى محبّة هؤلاء الأنبياء إلى امهم، وإلى عدم طلبهم السلطة، وبالطبع فإنّ هؤلاء الأنبياء كانت لهم علاقة قرابة بقومهم أيضاً.

و «مدين» مدينة واقعة جنوب غربى الأردن، وتدعى اليوم ب «معان» وهى فى شرق خليج العقبة، وكان شعيب عليه السلام وقومه يقطنون فيها.

وشعيب كسائر أنبياء اللَّه العظام، بدأ بالدعوة إلى الاعتقاد بالمبدأ والمعاد، وهما أساس كل دين وطريقة: «فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ».

فالإيمان بالمبدأ يكون سبباً لإحساس الإنسان بأنّ اللَّه يراقبه مراقبةً دقيقةً بشكل دائم ويسجّل أعماله؛ والإيمان بالمعاد يذكّر الإنسان بمحكمة عظيمة يحاسب فيها عن كل شيء وكل عمل مهما كان تافهاً ...

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٥١

مختصر الامثل ج٣ ٥٩٣

والمبدأ الثالث هو بمثابة خطّة عمل جامعة، تحمل بين طياتها جميع الخطط الإجتماعية، إذ قال: «وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

وللفساد مفهوم واسع يشمل كل نقص انحراف، وتدمير، وظلم .. الخ .. ويقابله الصلاح والإصلاح، ومفهومهما يشمل جميع الخطط البنّاءة.

«تعثوا»: من مادة «عثى» ومعناه إحداث الفساد أو الإفساد، غاية ما فى الأمر أنّ هذا التعبير كثيراً ما يستعمل فى الموارد التى تكون فيها «مفاسد أخلاقية»، فعلى هذا يكون ذكر كلمة «مفسدين» بعدها تأكيداً على هذا المفهوم.

إلّا أنّ تلك الجماعة بدلًا من أن تصغى لمواعظه ونصائحه بآذان القلوب، خالفته ولم تصغ إليه «فكذبوه».

وكان هذا التكذيب سبباً فى أن تصيبهم زلزلة شديدة «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ». أى مكبوبين على وجوههم ميتين.

«الجاثم»: مشتق من «جثم» ومعناه الجلوس على الركبة والتوقف فى مكان ما ... ولا يبعد أن يكونوا نائمين عند وقوع هذه الزلزلة الشديدة .. فهذا التعبير إشارة إلى أنّهم عند وقوع هذه الحادثة نهضوا وجثوا على الركب، إلّاأنّ الحادثة لم تمهلهم حيث انهارت الجدران عليهم ونزلت عليهم الصاعقة التى تزامنت معها فماتوا.

أمّا الآية التى بعده فتتحدث عن «عاد» و «ثمود» قومى (هود وصالح)، دون أن تذكر ما قاله نبيّاهما لهما، وما ردّ عليهما قومهما المعاندون، لأنّهما مذكوران فى آيات عديدة من القرآن، وهما أى قوم هود وقوم صالح معروفان، فلذلك، تقول الآية: «وَعَادًا وَثَمُودَا».

ثم تضيف الآية: «وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ» المتهدمة والتى هى على طريقكم فى منطقة الحجر واليمن.

ثم تشير الآية إلى السبب الأصلى لشقائهم وسوء حظّهم، إذ تقول: «وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَنُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ».

وكانت فطرتهم على فطرة اللَّه وتقواه، ولم يأل الأنبياء جهداً فى هدايتهم، وبذلوا قدراً كافياً من النصح والإرشاد لهم، لكنّهم حادوا «وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ». و الآية الاخرى تذكر أسماء ثلاثة من الجبابرة الذين كان كل واحد منهم بارزاً للقدرة الشيطانية، فتقول: «وَقَرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهمنَ».

فقارون كان مظهر الثروة المقرونة بالغرور وعبادة «الذات» والأنانية والغفلة.

وفرعون كان مظهر القدرة الإستكبارية المقرونة بالشيطنة.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۵۵۲

وأمّا هامان، فهو مثل لمن يعين الظالمين المستكبرين.

ثم يضيف القرآن: «وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ» والدلائل «فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ». فاعتمد قارون على ثروته وخزائنه وعلمه، واعتمد فرعون وهامان على جيشهما وعلى القدرةالعسكرية، وعلى قوّة إعلامهم وتضليلهم لطبقات الناس المغفّلين الجهلة. لكن .. برغم كل ذلك لم يفلحوا «وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ».

كلمة «سابقين» تعنى من يتقدم ويكون أمام الآخرين، فمفهوم قوله تعالى: «وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ». أى إنّهم لم يستطيعوا أن يهربوا من سلطان اللَّه برغم ما كان عندهم من إمكانات، بل أهلكهم اللَّه فى اللحظة التى أراد، وأرسلهم إلى ديار الفناء والذلة والخزى.

كما يذكر فى الآية التى بعدها: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ».

فإنّه يذكر فى هذه الآية بحسب الترتيب أنواع عذابهم فيقول: «فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا». «الحاصب»: معناه الاعصار الذى يحمل حصى كثيرة معه.

والمقصود ب «منهم» هنا هم «عاد» قوم هود.

«وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ» وهذا هو العذاب الذى عذب اللَّه به ثمود «قوم هود» كما عذب آخرين ...

«وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ». وهذا هو عقاب قارون الثرى المغرور المستكبر من بنى إسرائيل.

«وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا». وهذا الكلام إشارة إلى عقاب فرعون وهامان وجنودهما.

ويبيّن فى ختام الآية التأكيد على هذه الحقيقة، وهى أنّ ما أصابهم هو بسبب أعمالهم، «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

أجل، إنّ عقاب هذه الدنيا والآخرة هو تجسيد أعمالهم، حيث يغلقون جميع طرق الإصلاح فى وجوههم، فاللَّه أكثر عدلًا وأسمى من أن يظلم الإنسان أدنى ظلم.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۵۵۳

دعامة واهية كبيت العنكبوت: بيّنت الآيات السابقة ما آل إليه المشركون والمفسدون الظلمة والأنانيون من مصير وخيم وعاقبة سوداء وعذاب أليم ... وبهذه المناسبة، ففى الآيات التى بين أيدينا، يبيّن القرآن الكريم مثالًا بليغاً ومؤثراً يعبدون غير اللَّه ويتخذون من دونه أولياء، وكلّما أمعنا النظر فى هذا المثال وفكرنا فيه مليّاً انقدحت فى أذهاننا منه لطائف دقيقة، يقول تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

والجدير بالذكر، أنّ بيت العنكبوت ونسيج خيوطه المضروب به المثل، هو نفسه من عجائب الخلق، والتدقيق فيه يعرف الإنسان على عظمة الخالق أكثر.

فلو دققنا النظر فى بيوت العنكبوت لرأينا منظراً طريفاً مثل الشمس وأشعتها مستقرةً على قواعد هذا «البناء النسيجى»، وبالطبع فإنّ هذا البيت مناسب للعنكبوت وكاف، ولكنه فى المجموع لا يمكن تصور بيت أوهن منه، وهكذا بالنسبة إلى آلهة الضالين ومعبوديهم، إذ تركوا عبادة اللَّه والتجأوا إلى الأصنام والأحجار والأوثان.

أمّا الآية التالية ففيها تهديد لهؤلاء المشركين الغفلة الجهلة .. إذ تقول: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ» ولا يخفى على اللَّه شركهم الظاهر ولا شركهم الخفى «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» على الإطلاق.

وإذا أمهلهم، فليس بسبب العجز والضعف، أو عدم العلم، أو أنّ قدرته محدودة، بل كل ذلك من حكمته التى توجب أن يمنحوا الفرصة الكافية لتتم الحجة البالغة للَّهعليهم، فيهتدى من هو جدير بالهدى.

و الآية الثالثة- من الآيات محل البحث- لعلها تشير إلى ما استشكله أعداء الإسلام على النبى صلى الله عليه و آله فى هذه الأمثلة التى

ضربها اللّه، وكانوا يقولون: اللّه الذى خلق السماوات والأرض كيف يضرب الأمثال بالعنكبوت والذباب والحشرات وما شاكلها؟ فيردّ القرآن بقوله: «وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ».

وفى آخر آية- من الآيات محل البحث- يضيف القرآن الكريم: «خَلَقَ اللَّهُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقّ إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ». ليس فى عمل اللّه باطل أو عبث ... فإذا التشبيه بالعنكبوت وبيته الخاوى هو أمر محسوب بدقّة، وإذا ما إختار موجوداً صغيراً للتمثيل به فهو لبيان الحق، وإلّا فهو خالق أعظم المجرّات والمنظومات الشمسية وغيرها.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵۴

اتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْکَ مِنَ الْکِتَابِ وَ أَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (۴۵)

إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: بعد الفراغ من بيان أقسام مختلفة من قصص الامم السابقة وأنبيائهم العظام، يتوجه الخطاب- على سبيل تسلية الخاطر، وإراءة الخط الكلى أو الخطوط العامة- للنبى صلى الله عليه و آله ويأمره بما ينبغى عليه أن يفعل. فيبدأ أوّلًا بقوله: «اتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْکَ مِنَ الْكِتبِ» ... أى إقرأ هذه الآيات فسوف تجد فيها ما تبتغيه وتطلبه من العلم والحكمة والنصح، ومعيار معرفة الحق من الباطل.

وبعد بيان هذا الأمر الذى يحمل طابعاً تعليمياً، يأتى الأمر الثانى الذى هو محور أصيل للتربية فيقول تعالى: «وَأَقِمِ الصَّلَوةَ».

ثم يبيّن فلسفة الصلاة الكبرى فيقول: «إِنَّ الصَّلَوةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ» «۱».

طبيعة الصلاة- حيث إنّها تذكر بأقوى رادع للنفس، وهو الإعتقاد بالمبدأ والمعاد- فإنّها تردع عن الفحشاء والمنكر.

إنّ النهى عن الفحشاء والمنكر له سلسلة درجات ومراتب كثيرة، وكل صلاة مع رعاية الشروط لها نسبة من هذه الدرجات.

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أحبّ أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل، فلينظر هل منعت صلاته عن الفحشاء والمنكر، فبقدر ما منعته قبلت منه».

ويقول القرآن تعقيباً على ما ذكره ومن شأن الصلاة: «وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ».

وظاهر الجملة هو بيان غاية وحكمة اخرى فى‌الصلاة، أى أنّ أثراً آخر من آثار الصلاة وبركاتها أهم من كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر هو تذكير الإنسان بربّه، هذا الذكر هو أساس السعادة والخير، بل العامل الأصلى للنهى عن الفحشاء والمنكر أيضاً هو ذكر اللّه، وكونه أكبر لأنّه العلة والأساس للصلاة.

وحيث إنّ نيّات الناس، وميزان حضور القلب منهم فى الصلاة وسائر العبادات، كل ذلك متفاوت جدّاً، فإنّ الآية تختتم بالقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ». أى يعلم ما تصنعون

---

(۱) إنّ الفحشاء هى إشارة للذنوب الكبيرة الخفية، وأمّا المنكر فهو الذنوب الكبيرة الظاهرة، أو أنّ الفحشاء هى الذنوب التى تنتج بغلبة القوى الشهوانية، والمنكر من أثر القوى الغضبية.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵۵

من أعمال فى الخفاء أو العلن، والنيّات التى فى قلوبكم أو الكلمات التى تجرى على ألسنتكم.

وَ لَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلهُنَا وَ إِلهُكُمْ وَاحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۴۶) وَ كَذلِکَ أَنْزَلْنَا إِلَيْکَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (۴۷) وَ مَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَ لَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِکَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (۴۸) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ مَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (۴۹)

اتّبعوا أحسن الأساليب فى البحث والجدال: كان أكثر الكلام فى الآيات المتقدمة فى كيفية التعامل مع المشركين المعاندين وكان

مقتضـی الحـال أن یکون الکلاـم شدیـد اللهجـة حـادّاً، أمّا فی هـذه الآیات- محل البحث- فیقع الکلام فی شأن مجادلـة أهل الکتاب الذین ینبغی أن یکون الکلام معهم لطیفاً، فیقول القرآن فی هذا الصدد: «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْکِتبِ إِلَّا بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ».

«تجـادلوا»: مشـتق من «جـدال» ومعناه فی الأصل فتل الحبل وإحکامه، کما تسـتعمل هـذه المفردة فی البناء المحکم وما أشـبهه، وحین یتناقش اثنان فی بحث معین فکل واحد منهما یرید أن یلوی صاحبه عن عقیدته وفکرته .. لذا فقد سمّی هذا النقاش جدالًا.

والمراد من قوله «وَلَا تُجَادِلُوا»، المناقشات المنطقیة.

والتعبیر ب «الَّتِی هِیَ أَحْسَنُ» تعبیر جامع یشمل الأسالیب والطرق الصحیحة والمناسبة للتباحث أجمع.

فعلی هذا إنّ ألفاظکم ینبغی أن تکون بطریقة مؤدّبة، والکلام ذا مودّة، والمحتوی مستدلًا، وصوتکم هادئاً غیر خشن.

وبالطبع فإنّ هـذا الأصل الکلی فی البحث والمجادلـة الإسـلامیة، فقد یُعدّ فی بعض الموارد ضـعفاً، أو یکون الطرف الآخر مغروراً إلی درجة أنّ هذا التعامل الإنسانی یزیده جرأة وعدواناً وتکبراً، لذلک فإنّ القرآن یضیف مستثنیاً: «إِلَّا الَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ».

وهم الذین ظلموا أنفسهم وظلموا الآخرین، وکتموا کثیراً من الآیات، لئلا یطلع الناس

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵۶

علی أوصاف النبی محمّـد صـلی الله علیه و آله. ویختتم الآیـة بمصـداق بارز من «المجادلـة بالتی هی أحسن» ویمکنه أن یکون قـدوة لأیبحث، فیقول القرآن الکریم: «وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِی أُنزِلَ إِلَیْنَا وَأُنزِلَ إِلَیْکُمْ وَإِلهُنَا وَإِلهُکُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

وهـذا مثل واحـد من المجادلـة بالتی هی أحسن التی ینجـذب إلیها کل من یسـمعها، ویـدلّ علی أنّ الإنسان یجب أن یکون بعیداً عن التحزب أو طلب التفرقة.

و الآیة الاخری تؤکّد علی الاصول الأربعة التی سبق ذکرها فی الآیة المتقدمة، فتقول: «وَکَذلِکَ أَنزَلْنَا إِلَیْکَ الْکِتبَ». أی القرآن.

أجـل ... نزل هـذا القرآن علی أسـاس توحیـد المعبود، وتوحیـد دعوة جمیع الأنبیـاء إلی الحق، والتسـلیم دون قیـد أو شـرط لأمر اللَّه؛ والمجادلة بالتی هی أحسن.

ثم یضیف القرآن الکریم: «فَالَّذِینَ ءَاتَیْنَاهُمُ الْکِتبَ یُؤْمِنُونَ بِهِ» ویعتقدون بصدقه إذ أنّهم وجدوا علائمه فی کتبهم، کما أنّ محتواه من حیث الاصول العامة والکلیة منسجم مع کتبهم.

ویضیف القرآن بعدئذ: «وَمِنْ هؤُلَاءِ مَن یُؤْمِنُ بِهِ». أی أهل مکة والمشرکون العرب.

ثم یقول القرآن فی کفر الطائفتین من الیهود والنصاری: «وَمَا یَجْحَدُ بَایَاتِنَا إِلَّا الْکفِرُونَ».

ومع الإلتفات إلی أنّ مفهوم الجحود، هو أن یعتقـد الإنسان بشـیء بقلبه وینکره بلسانه، فإنّ مفهوم الجملة المتقدمة أنّ الکفار یعترفون فی قلوبهم بعظمـة هذه الآیات، ویرون علامات الصدق علیها، إلّاأنّهم ینکرون ذلک عناداً وتعصـباً، وتقلیداً أعمی لأسـلافهم ولآبائهم، ولحفظ منافعهم الشخصیة.

ثم یضـیف القرآن مشیراً إلی علامة اخری من علائم حقانیة دعوة النبی صلی الله علیه و آله الجلیة والواضحة، وهی تأکید علی محتوی الآیـة السابقـة، فیقول: «وَمَا کُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن کِتبٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِیَمِینِکَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ». وقالوا إنّ ما جاءنا به هـذا النبی هو حصیلة مطالعاته لکتب الماضین.

وفی الآیة التالیة علامة اخری أیضاً علی حقانیة القرآن، إذ تقول: «بَلْ هُوَ ءَایتٌ بَیِّنَاتٌ فِی صُدُورِ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ».

والتعبیر ب «الآیات البیّنات» کاشف عن هذه الحقیقة وهی أنّ دلائل حقانیة القرآن

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵۷

تتجلی بنفسها عیاناً، وتشرق فی أرجائه، فدلیلها معها.

ثم بعـد هذا کلّه، فإنّ أتباع هذه الآیات وطلابها المشدودة قلوبهم إلیها هم أولوا العلم والإطلاع، بالرغم من أن أیدیهم خالیة وأرجلهم

حافية.

وتُختتم الآية بقوله تعالى: «وَمَا يَجْحَدُ بَايَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ» ... لأنّ دليلها واضح، وقد وردت علائمها فی الكتب المتقدمة.

وَ قَالُوا لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵۰) أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۵۱) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (۵۲) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ لَوْ لَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (۵۳) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (۵۴) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۵۵)

أليس القرآن كافياً فی إعجازه: الأشخاص الذين لم يذعنوا ويسلّموا للبيان الاستدلالی والمنطقی الذی جاء به القرآن بسبب عنادهم وإصرارهم على الباطل، ولم يقبلوا بكتاب كالقرآن ... تذرّعوا بحجّة اخرى على سبيل الاستهزاء والسخرية، وهی أنّه لم لا تأت- يا محمّد- بمعجزة من المعاجز التی جاء بها موسى وعيسى: «وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايتٌ مِّن رَّبّهِ».

ومن دون شك فإنّ النبی صلى الله عليه و آله كانت لديه معاجز غير القرآن الكريم، إلّاأنّ اولئك لم يكن قصدهم من وراء كلامهم الحصول على معجزة.

إنّ القرآن، للردّ على ذرائع هؤلاء المحتالين ذوی الحجج الواهية، يدخل من طريقين:

فيقول أوّلًا فی خطابه لنبيّه: «قُلْ إِنَّمَا الْأَيتُ عِندَ اللَّهِ». أی قل لُاولئك المعاندين أنّ اللَّه يدری أية معجزة تناسب أی زمان وأی قوم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵۸

ثم يضيف القرآن معقباً أن قل: «وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

والجواب الآخر هو قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتبَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ».

فهم يطلبون معاجز مادية «جسمانية»، والقرآن بحدّ ذاته أعظم معجزة معنوية ...

معجزة خالدة تتلى آياته ليل نهار عليهم وعلى الأجيال من بعدهم.

وفی‌نهاية الآية يضيف القرآن للتأكيد والتوضيح بصورة أجلى، فيقول: «إِنَّ فِی ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». «ذلك» هنا إشارة إلى الكتاب المنزل من السماء، وهو القرآن.

أجل، إنّ القرآن رحمة «وسيلة» للذكرى والتذكر أيضاً، فهو للمؤمنين الذين فتحوا قلوبهم بوجه الحقيقة.

ولعل الفرق بين «الرحمة» و «الذكرى» أنّ القرآن ليس معجزة وذكرى فحسب، بل هو إضافة إلى كل ذلك يحتوی على القوانين التی تمنح الرحمة والمناهج التربوية والإنسانية.

فمثلًا كانت عصى موسى معجزة فحسب، إلّاأنّها لم يكن لها أثر فی حياة الناس اليومية، غير أنّ القرآن معجزة، هو فی الوقت ذاته منهج كامل الحياة ورحمة أيضاً.

ولما كان كل مدع بحاجة إلى الشاهد، فالقرآن يبيّن فی الآية الاخرى أنّ خير شاهد هو اللَّه: «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِی وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا».

وبديهی أنّه كلّما كان إطلاع الشاهد وشهادته أكثر، فإنّ قيمة الشهادة تكون أهم، لذلك يضيف القرآن بعدئذ قائلًا: «يَعْلَمُ مَا فِی السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

يحتمل أن تكون هذه الشهادة شهادة عملية، لأنّه حين يؤتی اللَّه نبيّه معجزة كبرى كالقرآن، فقدوقع على سند حقانيته وأمضاه.

وإضافةً للشهادة العملية المتقدمة، نقرأ فی آيات كثيرة من القرآن شهادة قولية فی نبوة النبی صلى الله عليه و آله.

ويمكن أنّ المراد من شهادة اللَّه فی الآية هی ما سبق من الوعد والذكر فی كتب اللَّه السابقة «كالتوراة والإنجيل» ويعلم بذلك علماء أهل الكتاب بصورة جيدة.

وتختتم الآيـة بنحو من الوعيـد والتهديـد لُاولئـك الكفار باللَّه، فيقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أَولئِكَ هُمُ الْخسِرُونَ». وأى خسران أعظم من أن يعطوا جميع قواهم الجسمانية والإمكانات الاجتماعية والفردية فى سبيل الإعلام والتبليغ لمذهبهم الوثنى وأهملوا ذكر اللَّه، فلم يُعد عليهم هذا إلّابالضرر والخسران.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۵۹

أمّا فى الآيـة التالية فإشارة إلى الذريعة الثالثة إذ تقول: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ». إذ يقولون: لو كان عذاب اللَّه حقّاً على الكافرين فلم لا يأتينا؟!

فيجيب القرآن على هذه الذريعة بثلاثة أجوبة.

الأوّل: «وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ».

وهذا الزمان المعين (الأجل) إنّما هو لهدف أصلى، للإرعواء عن باطلهم وتيقظهم، أو إتمام الحجة عليهم.

والثـانى: إنّ اولئـك الـذين يتـذرّعون بهـذا القول مـا يـدريهم لعـلّ العـذاب يأخـذهم على حين غرةٍ من أنفسـهم «وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ» «۱».

وبالرغم من أنّ موعـد العذاب معين ومقرّر إلّاأنّ المصـلحة تقتضـى ألّا يطّلعوا عليه، وأن يأتيهم دون مقدمات، لأنّه لو عرف وقته لكان باعثاً على تجرؤ الكفار والمذنبين وجسارتهم .. وحين يأزف الوعد بالعذاب فإنّهم سيتجهون بالتوبة إلى اللَّه وينيبون إليه.

والحكمة التربوية لمثل هذا العقاب تقتضى أن يكتم موعده، لتكون كل لحظة ذات أثر بنفسها، ويكون الخوف والإستيحاش منها عاملًا على الردع.

وأخيراً فإنّ الجواب القرآنى الثالث يتبيّن فى الآية إذ يقول: «يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكفِرِينَ».

فإذا تأخر عنهم عذاب الدنيا، فإنّ عذاب الآخرة واقع لا محالة، ومحيط بهم تماماً وسيصـيبهم حتماً بحيث إنّ القرآن يذكره بصورة أمر فعلىّ (وكأنّ جهنم الآن محيطة بهم).

ويوجد تفسير آخر أكثر دقّةً لهذه الآية، وهو أنّ جهنم محيطة، الآن فعلًا بالكافرين، من جهتين- بالمعنى الواقعى للكلمة.

الجهة الاولى: إنّها جهنم الدنيا، إذ هم على أثر شركهم وتلوثهم بالذنب يحترقون بجهنم التى أعدّوها لأنفسهم.

و الجهـة الثانيـة: طبقاً لظاهر الآيات فى القرآن فإنّ جهنم موجودة فعلًا، فإنّ جهنم موجودة فى باطن الدنيا، وبهذا فهى محيطة بهم على نحو الحقيقة.

ثم يضيف القرآن: «يَوْمَ يَغْشَهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا

---

(۱) «البغتة»: مشتقة من «البغت» ومعناه التحقق المفاجىء وغير المنتظر لأمر.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۶۰

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

يمكن أن تكون هـذه الآيـة توضـيحاً لإحاطة عذاب جهنم فى يوم القيامة بالكفار، ويمكن أن تكون بياناً مسـتقلًا لذلك العذاب الأليم لهم الـذى يحيـط بهم اليوم على أثر أعمالهم، وفى غـدٍ يتجلى هـذا العـذاب بوضوح ويكون محسوساً ظاهراً. أمّا جملـة «ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» التى يظهر أنّ قائلها هو اللَّه تعالى، فهى بالإضافة إلى أنّها نوع من العقوبة النفسية لمثل هؤلاء الأشخاص، فهى كاشفة عن هذه الحقيقة، وهى أنّ عذاب اللَّه ليس إلّاانعكاساً للأعمال التى يقوم بها الإنسان نفسه فى النشأة الآخرة.

يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ (۵۶) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (۵۷) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (۵۸) الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

(۵۹) وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَ إِيَّاكُمْ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶۰)

سبب النّزول

فی تفسیر مجمع البیان: قیل: نزلت الآیة الاولی فی المستضعفین من المؤمنین بمکة امروا بالهجرة عنها.

ونزل قوله «وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَاتَحْمِلُ رِزْقَهَا» فی جماعة کانوا بمکة یؤذیهم المشرکون فأمروا بالهجرة إلی المدینة فقالوا: کیف نخرج إلیها ولیس لنا بها دار، ولا غفار ومن یطعمنا ومن یسقینا؟

التّفسیر

لابدّ من الهجرة: حیث إنّ الآیات السابقة کانت تتحدث عن مواقف المشرکین المختلفة من الإسلام والمسلمین، ففی الآیات محل البحث یقع الکلام عن حال المسلمین ومسؤولیاتهم قبال المشاکل المختلفة، أی مشاکل أذی الکفار وضغوطهم وقلّة عدد المسلمین وما إلی ذلک، فتقول الآیة الاولی: «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيىَ فَاعْبُدُونِ».

لأنّ الهدف من خلق الإنسان أن یکون عبداً للّه، فمتی ما أصبح هذا الهدف الأساسی

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۶۱

والنهائی مستحیلًا، فلا سبیل عندئذ إلّا الهجرة.

وحیث إنّ البعض بقوا فی دیار الشرک، ولم یرغبوا بالهجرة بذریعة أنّهم یخشون الخروج من دیارهم ویخافون أن یحدق بهم الموت بسبب الأعداء أو الجوع أو العوامل الاخری التی تهددهم ... إضافة إلی فراق الأحبّة والمتعلقین والأبناء والأصدقاء، فإنّ القرآن یردّهم بجواب جامع قائلًا: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ».

لا تظنوا أنّ الموت نهایة کل شیء، لأنّکم جمیعاً «إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» ... إلی اللّه العظیم، وإلی نعمه التی لا حدّ لها ولا انتهاء لأمدها.

و الآیة التالیة تبیّن جانباً من هذه النعم فتقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنهرُ» «۱».

والامتیاز الآخر لغرف الجنة أنّها دائمة «خلِدِينَ فِيهَا».

ویضیف القرآن معقباً فی ختام الآیة: «نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ».

والمراد بالعاملین هنا مع قرائن الجمل السابقة، هم الذین یعملون الصالحات المقرونة بإیمانهم، وإن کانت کلمة العاملین مطلقة.

و الآیة التالیة تصف أهمّ ما یتحلّی به المؤمنون العاملون فتقول: «الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

إذ یبتعدون عن الزوجة والأولاد والأهل والبیت والأحباب والأصدقاء وکل شیء عزیز علیهم، لکنّهم یصبرون برغم الفراق یذوقون مرارة الغربة والتهجیر عن أوطانهم ویصبرون.

وإذ أمعنا النظر وفکّرنا جیداً رأینا أنّ الصبر والتوکل هما أساس جمیع الفضائل الإنسانیة، فالصبر هو عامل الاستقامة أمام العوائق والمشاکل، والتوکل هو الهدف والباعث علی الحرکة فی هذا الطریق المدید الملتوی.

وفی آخر آیة- من الآیات محل البحث- جواب لُاولئک الذین کان لسان حالهم أو لسان مقالهم یقول إذا خرجنا عن دیارنا وأهلینا، فمن سیطعمنا ویرزقنا؟ یخاطبهم القرآن أن لا تحزنوا علی الرزق ولا تحملوا ثقل الذلة والأسر، فالرازق هو اللّه، لا لکم فحسب بل: «وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَاتَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ».

(۱) «لنبوئنّهم»: من مادة «تبوئة»، معناها إعطاء السکنی للإقامة والبقاء الدائم.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۶۲

فالقرآن یؤکّد فی نهایة الآیة قائلًا: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

یسمع کلامکم کلّه، ویعرف لسان حالکم، ولسان حال جمیع الدواب، وهو خبیر بحاجات الجمیع، ولا یخفی علی علمه الذی لا حدّ له

شیء أبداً.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (۶۱) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۶۲) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (۶۳) وَ مَا هذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (۶۴) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (۶۵) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۶۶)

الإقرار بالتوحيد فی الباطن والشرک فی الظاهر: کان الحدیث فی الآیات السابقة موجّهاً إلی المشرکین الذین أدرکوا حقانیّة الإسلام، إلّاأنّهم لم یکونوا مستعدین للإیمان والهجرة، خوفاً من انقطاع الرزق علیهم، أمّا فی هذه الآیات، فالحدیث موجه للنّبی صلی الله علیه و آله، وفی الواقع لجمیع المؤمنین، وهو یبیّن دلائل التوحید عن طرق «الخلقة»، و «الربوبیّة»، و «الفطرة»، أی عن ثلاث طرائق متفاوتة، ویریهم أنّ مصیرهم وعاقبة أمرهم بید اللَّه الذی یجدون آثاره فی الآفاق وفی أنفسهم، لا بأیدی الأصنام والأوثان التی لا تضر ولا تنفع.

فتبدأ الآیة الاولی من هذه الآیات محل البحث، مشیرةً إلی خلق السماوات والأرض وتستعین باعتقاداتهم الباطنیة ...

فتقول: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».

لأنّ من المسلم به أنّه لا عبدة الأصنام ولا غیرهم ولا أی أحد آخر یقول: إنّ خالق السماوات والأرض ومسخر الشمس والقمر حفنة من الأحجار والخشب المصنوعة بید الإنسان.

وبتعبیر آخر: لایشک فی «توحید الخالق» حتی عبدة الأصنام حیث کانوا مشرکین فی عبادة الخالق، وکانوا یقولون: إنّما نعبد أوثاناً لیقربونا إلی اللَّه زلفی، فهم الوسطاء بیننا وبین اللَّه.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۶۳

وهم غافلون عن أنّه لا تفصل بین الخالق والمخلوق أیّة فاصلة.

إنّ الآیة بعد ذکر هذا الدلیل الواضح تتساءل: «فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ». أی مع هذا المال کیف یعرضون عن عبادة خالقهم ویستبدلونها بعبادة مجموعة من الأحجار والأخشاب؟!

«یؤفکون»: مشتقة من «إفک» ومعناها إعادة الشیء من صورته الواقعیة والحقیقیة.

والتعبیر ب «یؤفکون» بصیغة المجهول إشارة إلی أنّهم لا قدرة لهم علی التصمیم، فکأنّهم منجذبون إلی عبادة الأوثان دون إرادة.

والمراد من تسخیر الشمس والقمر النظم التی أقرها اللَّه تعالی، وجعل الشمس والقمر فی دائرة هذه النظم فی خدمة الإنسان، ومنافعه.

ثم یضیف القرآن تأکیداً لهذا المعنی، وهو أنّ اللَّه خالق الخلق ورازقهم، فیقول: «اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ».

فمفتاح الرزق بیده لا بید الناس ولا بید الأصنام.

وإذا کانوا یتصورون أنّ اللَّه قادر، إلّاأنّه غیر مطّلع علی حالهم، فهذا خطأ کبیر ل «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

وفی المرحلة الثانیة یقع الکلام عن «التوحید الربوبی» ونزول مصدر الأرزاق من قبله علیهم، فیقول: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ». فهذا هو ما یعتقده عبدة الأصنام فی الباطن، ولا یتأبون من الاعتراف علی ألسنتهم، فهم یعرفون أنّ الخالق هو اللَّه، وأنّه ربّ العالم ومدبره.

ثم یضیف القرآن مخاطباً نبیّه: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ». فالحمد والثناء لمن أنعم جمیع النعم.

وحیث إنّ أقوال المشرکین من جهة، وأعمالهم وأفعالهم وکلماتهم من جهة اخری، یناقض بعضها بعضاً، فإنّ الآیة تختتم بإضافة الجملة التالیة: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْقِلُونَ».

وإلّا فکیف یمکن للإنسان العاقل أن یتناقض فی کلماته، فتارةً یری أنّ الخالق والرازق والمدبر للعالم هو اللَّه، وتارة یسجد للأوثان التی

لا تأثير لها بالنسبة لعواقب الناس.

ومن أجل أن يحوّل القرآن أفكارهم من أفق هذه الحياة المحدودة إلى عالم أوسع من خلال منظار العقل، فإنّه يبيّن فى الآية التالية كيفية الحياة الدنيا قياساً إلى الحياة الاخرى الخالدة، فى عبارة موجزة ومليئة بالمعانى، فيقول: «وَمَا هذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْأَخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ». «اللهو»: معناه الإنشغال، أو كل عمل يصرف الإنسان إليه ويشغله عن مسائل الحياة الأساسية. أمّا «اللعب»: فيطلق على الأعمال التى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۶۴

فيها نوع من النظم الخيالى، والهدف الخيالى أيضاً. فالقرآن فى هذا الصدد يشرح حال الدنيا وحال الآخرة، مبيّناً أنّ الحياة الدنيا هى نوع من الإنشغال واللعب، ثم يطوى كل شيء ويغدو فى سلة النسيان.

أمّا الحياة الحقيقية التى الافناء بعدها، فهى الحياة الآخرة فحسب.

وينبغى الإلتفات إلى أنّ المراد من «الحيوان» هو الحياة، فهذه الكلمة تحمل معنى مصدرياً. وهذا التعبير: «وَإِنَّ الدَّارَ الْأَخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ» إشارة إلى أنّ الحياة الحقيقية هى فى الاخرى، لا فى هذه الدار الدنيا- فكأنّ الحياة فى الاخرى تفور من جميع أبعادها، ولا شيء هناك إلّاالحياة.

وبديهى أنّ القرآن لا يريد أن ينسى وينفى مواهب اللّه فى هذه الدار الدنيا، بل يريد أن يجسد قيمة هذه الدنيا بالقياس إلى الاخرى قياساً صريحاً وواضحاً ... وإضافةً إلى كل ذلك فإنّه ينذر الإنسان لئلا يكون أسيراً لهذه المواهب، بل ينبغى أن يكون أميراً عليها، ولا يؤثرها على القيم الأصيلة أبداً.

وفى المرحلة الثالثة ... يتجه القرآن نحو الفطرة والجبلّة الإنسانية، ونحو تجلّى نور التوحيد فى أشدّ الأزمات فى أعماق روح الإنسان، وضمن مثالٍ بديع جدّاً وبليغ فيقول: «فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ فَلَمَّا نَجهُمْ إِلَى الْبَرّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ».

أجل، إنّ الشدائد والأزمات هى التى تهيء الأرضية لتفتح الاجتماعية «الفطرة» الإنسانية، لأنّ نور التوحيد مخفى فى أرواح الناس جميعاً.

إلّا أنّ التعليمات الخاطئة والغفلة والغرور- وخاصة عند السلامة ووفور النعمة- تلقى عليها أستاراً، غير أنّ طوفان الحوادث يزيل هذه الأستار، وتتجلى نقطة النور آنذاك.

وفى آخر آية- من الآيات محل البحث- وبعد ذكر جميع هذه الدلائل على التوحيد وعبادة اللّه، يواجه القرآن المشركين والكفار بتهديد شديد فيقول: إنّ هؤلاء أنكروا آياتنا وكفروا بما رزقناهم من النعم فليتمتعوا بها أيّاماً قلائل: «لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» عاقبة كفرهم وشركهم.

أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (۶۷) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (۶۸) وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (۶۹)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۶۵

سبب النّزول

فى الدرّ المنثور عن ابن عباس أنّ جماعة من المشركين قالوا: يا محمّد ما يمنعنا أن ندخل فى دينك إلّامخافة أن يتخطفنا الناس لقلّتنا والعرب أكثر منّا فمتى بلغهم أنّا قد دخلنا فى دينك اختطفنا فكنّا أكلة رأس، فأنزل اللّه: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا» الآية.

التّفسير

أشارت الآيات- التى سبق ذكرها- إلى بعض الحجج الواهية للمشركين، وهى أنّنا نخاف على حياتنا إذا أظهرنا الإيمان ثم هاجرنا

معك يا رسول اللَّه، وقد ردّ عليها القرآن بطرق مختلفة، وفى الآيات- محل البحث- يردّ القرآن عليهم بطريق آخر فيقول:

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا». أى أرض مكة المكرمة.

فى حين أنّ العرب كانوا يعيشون فى حالة غير آمنة خارج مكة، وكانت قبائلهم مشغولة بالنهب والسلب والغارات، إلّاأنّ هذه الأرض باقية على أمنها «وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ».

فاللَّه المقتدر على أن يجعل فى هذا البحر المتلاطم والطوفان المحدق بأرض الحجاز «من الفتن» حرم مكة كالجزيرة الهادئة الآمنة وسط البحر، كيف لا يمكنه أن يحفظهم من أعدائهم؟! وكيف يخافون الناس الضعاف قبال قدرة اللَّه العظيمة جلّ وعلا؟

«أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ».

وبعد ذكر هذا الدليل الواضح ينتهى القرآن إلى هذه النتيجة فى الآية التالية: «وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ». لقد قدمنا دلائل واضحة لكم على أنّه لا شىء أحق بالعبادة وأحرى بها من اللَّه، لكنّكم كذبتم على اللَّه، وصنعتم له شركاء بأيديكم.

إنّ الشرك مصدر جميع المفاسد الإجتماعية، وفى الواقع إنّ المظالم الاخرى تسترفد منه، عبادة الهوى، عبادة المقام، عبادة الدنيا، كل منها نوع من الشرك.

ولكن اعلموا أنّ عاقبة الشؤم والخزى للمشركين «أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكفِرِينَ». و آخر آية- من الآيات محل البحث- وهى فى الوقت ذاته آخر آية سورة العنكبوت، تبيّن واقعاً مهماً، وهى عصارة جميع هذه السورة، وتنسجم مع بدايتها. تقول الآية ... بالرغم من أنّ المشاكل المتعددة تحيط بطريق المسير إلى اللَّه، من قبيل مشكلة معرفة الحق، ومشكلة وساوس الشياطين من الإنس والجن، ومشكلة عناد الأعداء الألداء الظالمين الذين لا

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۶۶

يرحمون، ومشكلة الانحرافات الاحتمالية، لكن هنا حقيقة ثابتة، وهى أنّ اللَّه يمنحكم القوة والاطمئنان قبال المشاكل ويدافع عنكم، تقول الآية: «وَالَّذِينَ جهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ».

إنّ التعبير بالجهاد له معنى واسع مطلق، ومثله التعبير بكلمة «فينا» فالتعبير يشمل كل سعى وجهاد فى سبيل اللَّه ومن أجله، وللوصول إلى الأهداف الإلهية، كل ذلك يصدق عليه «جهَدُوا فِينَا» سواءٌ كان فى سبيل كسب المعرفة، أو جهاد النفس، أو مواجهة الأعداء، أو الصبر على الطاعة، أو الصبر على المعصية، أو فى إعانة الضعفاء، أو فى الإقدام على أى عمل حسن وصالح.

وعلى هذا أنّنا إذا أصبنا بأى نوع من الهزيمة عدم الموفقية، فسبب ذلك وعلته أحد أمرين: إمّا أنا قصّرنا فى جهادنا، أو لم يكن لدينا إخلاص فى العمل.

«نهاية تفسير سورة العنكبوت»

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۶۷

۳۰ سورة الرّوم

محتوى السورة: يمكن تلخيص مضامين هذه السورة فى سبعة أقسام:

۱- التنبؤ بانتصار الروم على الفُرس فى معركة تحدث فى المستقبل.

۲- جانب من طريقة التفكير عند غير المؤمنين وكيفية أحوالهم.

۳- قسم مهم من آيات «عظمة اللَّه» فى الأرض والسماء، وفى وجود الإنسان.

۴- الكلام عن التوحيد «الفطرى» بعد بيان دلائله فى الآفاق وفى الأنفس لمعرفة اللَّه سبحانه.

۵- العودة إلى شرح أحوال غير المؤمنين والمذنبين وتفصيل حالاتهم، وظهور الفساد فى الأرض نتيجة لآثامهم وذنوبهم.

۶- إشارة إلى مسألة التملك، وحق ذوى القربى، وذم الربا.

۷- العودة- مرّة اخرى- إلى دلائل التوحيد، وآيات اللَّه وآثاره، والمسائل المتعلقة بالمعاد.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأها كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبّح للَّه ما بين السماء والأرض، وأدرك ما ضيع فى يومه وليلته».

ومن البديهى أنّ من جعل محتوى هذه السورة فى روحه وقلبه، وراقب اللَّه فى كل لحظة،

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۶۸

فإنّ تقوى اللَّه تملأ قلبه حتى يكون حقيقاً بهذا الأجر والثواب.

الم (۱) غُلِبَتِ الرُّومُ (۲) فِی أَدْنَی الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَیَغْلِبُونَ (۳) فِی بِضْعِ سِنِینَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ یَوْمَئِذٍ یَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (۴) بِنَصْرِ اللَّهِ یَنْصُرُ مَنْ یَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ (۵) وَعْدَ اللَّهِ لَا یُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لَا یَعْلَمُونَ (۶) یَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (۷)

سبب النّزول

فى تفسير مجمع البيان: قال المفسرون: غلبت فارس الروم وظهروا عليهم على عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وفرح بذلك كفار قريش من حيث إنّ أهل فارس لم يكونوا أهل كتاب وساء ذلك المسلمين. وكان بيت المقدس لأهل الروم، كالكعبة للمسلمين. فدفعتهم فارس عنه. فنزلت الآيات الآنفة وقالت: لئن غلب الفرس الروم ليأتينّ النصر والغلبة للروم خلال فترة قصيرة، وقد حدّدت الفترة لانتصار الروم على الفرس «فِى بِضْعِ سِنِينَ».

وهذا الكلام السابق لأوانه، هو من جهة دليل على إعجاز القرآن، هذا الكتاب السماوى الذى يستند علمه إلى الخالق غير المحدود، ومن جهة اخرى كان فألًا حسناً للمسلمين فى مقابل فأل المشركين، حتى أنّ أبابكر ناحب بعض المشركين قبل أن يحرم القمار على شيء، إن لم تغلب فارس فى سبع سنين. فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «لم فعلت فكل ما دون العشرة بضع». فكان ظهور فارس على الروم فى تسع سنين ثم أظهر اللَّه الروم على فارس زمن الحديبية ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب.

التّفسير

تنبؤ عجيب: هذه السورة ضمن مجموع تسع وعشرين سورة تبدأ بالحروف المقطعة «الم». وقد بحثنا مراراً فى تفسير هذه الحروف المقطعة وخاصة فى بداية سورة البقرة وآل عمران والأعراف. والفارق الوحيد الذى نلاحظه هنا عن بقية السور، ويلفت النظر، هو أنّه خلافاً لكثير من السور التى تبدأ بالحروف المقطعة، التى يأتى الحديث بعدها على عظمة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۶۹

القرآن الكريم، بل بحثاً عن انحدار الروم وانتصارهم فى المستقبل، ولكن مع التدقيق يتّضح أنّ هذا البحث يتحدث عن عظمة القرآن الكريم أيضاً ... لأنّ هذا الخبر الغيبى المرتبط بالمستقبل هو من دلائل إعجاز القرآن، وعظمة هذا الكتاب السماوى.

يقول القرآن بعد الحروف المقطعة: «غُلِبَتِ الرُّومُ فِى أَدْنَى الْأَرْضِ».

والمراد ب «أدنى الأرض» المكان القريب من بلاد فارس، أى إنّ المعركة وقعت فى أقرب نقطة بين الفرس والروم.

ثم يضيف القرآن: «وَهُمْ مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ». وهم أى الروم.

ثم يبيّن الفترة القصيرة من هذه السنين بهذا التعبير: «فِى بِضْعِ سِنِينَ». والمعلوم أنّ «بضع» ما يكون أقله الثلاث وأكثره التسع.

وإذا أخبر اللَّه عن المستقبل، فلأنّه «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ».

إنّ هذه العبارة تريد أن توضح هذه اللطيفة، وهى أنّ القادر بالذات والمالك على الإطلاق هو اللَّه، وكل من لديه شيء فهو منه.

ثم يضيف القرآن: أنّه إذا فرح المشركون اليوم بانتصار الفرس على الروم فإنّه ستغلب الروم «وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ».

أجل، يفرحون «بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

إنّ المسلمين «المؤمنين» فرحوا فى ذلك اليوم لجهات متعددة:

۱- من إنتصار أهل الكتاب على المجوس، لأنّه ساحة لإنتصار الموحدين على المشركين.

۲- من الإنتصار المعنوى لظهور إعجاز القرآن.

۳- ومن الإنتصار المقارن لذلك الإنتصار، ويحتمل أن يكون صلح الحديبية، أو بعض فتوحات المسلمين الاخر.

ولزيادة التأكيد يضيف أيضاً: «وَعَدَ اللَّهِ لَايُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ». والسبب فى عدم علم الناس، هو عدم معرفتهم باللَّه وقدرته، فهم لم يعرفوا اللَّه حق معرفته، فهم لا يعلمون هذه الحقيقة، وهى أنّ اللَّه محال عليه أن يتخلف عن وعده، لأنّ التخلف عن الوعد إمّا للجهل، أو للضعف وعدم القدرة، لكن اللَّه لا يتخلف عن الوعد، لأنّه يعرف عواقب الامور، وقدرته فوق كل شيء.

ثم يضيف القرآن معقباً: «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْأَخِرَةِ هُمْ غفِلُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۷۰

ولو كانوا يعلمون باطن الحياة وواقعها فى هذه الدنيا، لكان ذلك كافياً لمعرفة الآخرة، لأنّ التدقيق فى هذه الحياة العابرة، يكشف أنّها حلقة من سلسلة طويلة ومرحلة من مسير مديد كبير، كما أنّ التدقيق فى مرحلة تكوين الجنين يكشف عن أنّ الهدف النهائى ليس هو هذه المرحلة من حياة الجنين فحسب، بل هى مقدمة لحياة أوسع. إعجاز القرآن من جهة علم الغيب: إنّ واحداً من طرق إثبات إعجاز القرآن، هو الإخبار بالمغيبات، ومثله الواضح فى هذه الآيات- محل البحث- ففى عدّة آيات يخبر بأنواع التأكيدات عن إنتصار كبير لجيش منهزم بعد بضع سنين .. ويعدّ ذلك وعداً إلهياً غير مكذوب ولا يتخلف أبداً.

ويحدثنا التاريخ أنّه لم تمض تسع سنوات حتى تحققت هاتان الحادثتان ... فقد انتصر الروم فى حربهم الجديدة على الفرس، واقترن زمان هذا الإنتصار ب «صلح الحديبية» وطبقاً لرواية اخرى أنّه كان مقارناً لمعركة بدر، إذ حقق المسلمون إنتصاراً ملحوظاً على الكفار.

أ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (۸) أ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثَارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۹) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ كَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (۱۰)

كان الكلام فى آخر آية من البحث السابق عن السطحيين وأصحاب الظاهر، حيث كان أفق فكرهم لا يتجاوز حدود الدنيا والعالم المادى .. وكانوا جاهلين بماوراء الطبيعة ويوم القيامة، أمّا فى هذه الآيات- محل البحث- والآيات المقبلة، فيقع الكلام على مطالب متنوعة حول المبدأ والمعاد، فتبدأ هذه الآيات أوّلًا على صورة استفهام فتقول: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۷۱

أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى». أى: لو أنّهم فكروا جيداً ورجعوا إلى عقلهم فى الحكم و وجدانهم، لكانوا يطلعون جيداً على هذين الأمرين:

أوّلًا: إنّ العالم خلق على أساس الحق، وتحكمه أنظمة هى دليل على أنّ الخالق لهذا العالم ذو علم مطلق وقدرة كاملة.

وثانياً: هذا العالم يمضى إلى الزوال، وحيث إنّ الخالق الحكيم لا يمكن أن يخلقه عبثاً، فيدل ذلك على وجود عالم آخر هو الدار الباقية بعد هذه الدنيا.

لذلك يضيف القرآن فى نهاية الآية قائلًا: «وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاىِ رَبّهِمْ لَكفِرُونَ» فينكرون لقاء اللَّه؛ أو إنّهم ينكرون المعاد أصلًا؛

أو إنّهم لا ينكرون بلسانهم، لكن أعمالهم «ملوثة» ومخزية تدل على أنّهم غير معتقدين بالمعاد، إذ لو كانوا يعتقدون بالمعاد لم يكونوا فاسدين أو مفسدين.

وحيث إنّ التعبير ب «أَجَلٍ مُّسَمًّى» كاشف عن أنّ هذه الحياة على كل حال لا تدوم، وهذا إنذار لجميع عبدة الدنيا، فإنّ القرآن يضيف فى الآية التالية قائلًا: «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ». أى بالدلائل الواضحات ... إلّاأنّهم أهملوا ذلك، ولووا رؤوسهم، ولم يستسلموا للحق، فابتلوا بعقاب اللَّه الأليم، «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

أمّا آخر آية- من الآيات محل البحث- فتبيّن آخر مرحلة من كفرهم فتقول: «ثُمَّ كَانَ عقِبَةَ الَّذِينَ أَسؤُا السُّوأَى أن كَذَّبُوا بَايتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ».

أجل، إنّ الذنب أو الإثم يقع على روح الإنسان كالمرض الخبيث، فيأكل إيمانه ويعدمه، ويبلغ الأمر حدّاً يكذب الإنسان فيه آيات اللَّه، وأبعد من ذلك أيضاً إذ يحمل الذنب صاحبه على الإستهزاء بالأنبياء، والسخرية بآيات اللَّه، ويبلغ مرحلة لا ينفع معها وعظ ونصيحة أبداً، ولا تؤثر فيه أيّة حكمة وأيّة آية، ولا يبقى طريق سوى أسواط عذاب اللَّه المؤلمة له.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٧٢

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَ كَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١۴) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١۵) وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١۶)

مصير المجرمين ومآلهم يوم القيامة: كان الكلام فى الآيات المتقدمة عن الذين يكذّبون ويستهزؤون بآيات اللَّه، وفى الآيات- محل البحث- تستكمل البحوث السابقة عن المعاد، مع بيان جوانب منه، ومآل المجرمين فى القيامة. فتبدأ الآيات بالقول: «اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». ويبيّن فى هذه الآية استدلال قصير موجز، وذو معنى كبير، على مسألة المعاد، وقد ورد هذا المعنى بعبارة اخرى فى بعض آيات القرآن الاخرى ومنها: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلقُ الْعَلِيمُ» (١). و الآية الاخرى تجسد حالة المجرمين يوم القيامة: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ».

«يبلس»: مأخوذ من مادة «إبلاس» وتعنى فى الأصل الغم والحزن المترتبان على أثر شدة اليأس والقنوط.

فيحق للمجرمين أى ييأسوا ويبلسوا فى ذلك اليوم، إذ ليس لديهم إيمان وعمل صالح فيشفع لهم فى عرصات المحشر، ولا صديق حميم، ولا مجال للرجوع إلى الدنيا وتدارك ما مضى. لذلك يضيف القرآن فى الآية التالية قائلًا: «وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعؤُا».

فلذلك يكفرون بهذا المعبودات من دون اللَّه ويبرأون منها «وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كفِرِينَ».

ثم يشير القرآن إلى الجماعات المختلفة من الناس فى يوم القيامة، فيقول: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ».

---

(١) سورة يس/ ٧٩- ٨١.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٧٣

«يحبرون»: مأخوذة من مادة «حبر» على زنة «قشر» ومعناها الأثر الرائق الرائع، كما يطلق هذا التعبير على حالة السرور والفرح التى يظهر أثرها على الوجه أيضاً.

و «الروضة»: معناها المكان الذى تكثر فيه الأشجار والماء، ولذلك تطلق هذه الكلمة على البساتين النضرة بأشجارها واخضرارها.

«وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بَايَاتِنَا وَلِقَاىِ الْأَخِرَةِ فَأُولئِكَ فِى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ».

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَ لَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيّاً وَ حِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَ يُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)

التسبيح والحمد فى جميع الأحوال للّه: بعد الأبحاث الكثيرة التى وردت فى‌الآيات السابقة فى شأن المبدأ والمعاد، وقسم من ثواب المؤمنين، وجزاء المشركين وعقابهم، ففى الآيات محل البحث يذكر التسبيح والحمد والتقديس والتنزيه للّه‌من جميع أنواع الشرك والنقص والعيب، إذ تقول الآية: «فَسُبْحنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ».

وعلى هذا فقد ورد فى هاتين الآيتين ذكر لأربع أوقات لتسبيح اللّه:

١- بداية الليل «حِينَ تُمْسُونَ».

٢- وطلوع الفجر «حِينَ تُصْبِحُونَ».

٣- وعصراً «عَشِيًّا».

۴- وعند الزوال- فى الظهر- «حِينَ تُظْهِرُونَ».

وفى الآية التالية عودة إلى المعاد، ويرد القرآن المنكرين له عن طريق آخر، فيقول: «يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَيُحْىِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ». أى: إنّ ميدان «المعاد» وميدان «نهاية الدنيا» المتمثّل أحدهما بخروج «الحى من الميت» والآخر «خروج الميت من الحى» يتكرران أمام أعينكم، فلا مجال للتعجب من أن تحيا الكائنات جميعاً، ويعودالناس فى يوم القيامة إلى الحياة مرّة اخرى.

أمّا التعبير ب «يخرج الحى من الميت» المستعمل للأراضى الموات، واضح أنّ الأرض تبدوا ميتة فى فصل الشتاء، ولكن فى فصل الربيع مع سقوط الغيث واعتدال الهواء، تدبّ

مختصر الامثل، ج٣، ص: ۵۷۴

الحركة فى الأرض، وهذا ميدان المعاد الذى نراه فى هذه الدنيا. وأمّا مسألة «إخراج الميت من الحى» فهى ليست شيئاً خافياً ولا مستتراً. وأمّا ما يتعلق ب «إخراج الحى من الميت» فبالرغم من أنّه من المسلّم به- فى العصر الحاضر على الأقل- أنّه لم يُر فى المختبرات والمشاهدات اليومية أنّ موجوداً حيّاً يتولد من موجود ميّت، غير أنّ الثابت علمياً والمسلّم به أنّه كانت الأرض فى البداية قطعة ملتهبة من النّار، ولم يوجد عليها أى موجود حى، ثم وفقاً لظروف خاصة لم يكتشفها العلم- حتى الآن- بصورة دقيقة، تولدت الموجودات الحيّة من مواد لا روح فيها بقفزة كبيرة.

لكن الذى نلمسه وندركه، هو أنّ الموجودات الميتة دائماً تكون جزءاً من الموجودات الحيّة وتكسى ثوب الحياة، فالماء والطعام اللذان نتناولهما ليسا من الموجودات الحية، لكنّهما حين يكونان فى البدن ويصيران جزءاً منه يتحولان إلى موجود حى وتضاف كريات جديدة وخلايا جديدة إلى كريات البدن وخلاياه.

فعلى هذا يمكن القول بأنّ فى نظام الطبيعة دائماً يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى، وبهذا الدليل فإنّ اللّه الذى خلق الطبيعة قادر على إحياء الموتى فى العالم الآخر.

وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَ مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢)

آيات اللّه فى الآفاق وفى الأنفس: تحدثت هذه الآيات- وبعض الآيات الأخر التى تليها- عن طرائف ولطائف من دلائل التوحيد، وآيات اللّه وآثاره فى نظام عالم الوجود، وهى تكمل البحوث السابقة.

ويتحدث القرآن هنا أوّلًا عن خلقة الإنسان التى تعد أوّل موهبة إلهيّة له، وأهمهما أيضاً، فيقول: «وَمِن ءَايتِهِ أن خَلَقَكم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ».

فى هذه الآية إشارة دليلين من أدلة عظمة اللَّه.

الأوّل: خلق الإنسان من التراب، وربّما كان إشارة إلى الخلق الأوّل للإنسان، أى آدم عليه السلام، أو خلق جميع الناس من التراب، لأنّ المواد الغذائية التى تشكل وجود الإنسان، جميعها من التراب بشكل مباشرة أو غير مباشر.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۷۵

الثانى: كثرة النسل «الآدمى» وانتشار أبناء «آدم» على سطح المعمورة.

و الآية الثانية من الآيات محل البحث تتحدث أيضاً عن قسم آخر من الآيات فى الأنفس، التى تمثل مرحلة ما بعد خلق الإنسان، فتقول: «وَمِن ءَايتِهِ أن خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا». أى من جنسكم والغاية هى السكينة الروحية والهدوء النفسى.

وحيث إنّ استمرار العلاقة بين الزوجين خاصة، وبين جميع الناس عامة، يحتاج إلى جذب قلبى وروحانى، فإنّ الآية تعقب على ذلك مضيفة: «وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً».

ولمزيد التأكيد تختتم الآية بالقول: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

ومن هنا يمكن الإستنتاج بأنّ الذين يهملون هذه السنّة الإلهية وجودهم ناقص، لأنّ مرحلة تكاملية منهم متوقفة، (إلّا أن توجب الظروف الخاصة والضرورة فى بقائهم عزّاباً).

أمّا آخر آية- من الآيات محل البحث- فهى مزيج من آيات الآفاق وآيات الأنفس، فتبدأ بالإشارة إلى خلق السماء والأرض، فتقول: «وَمِن ءَايتِهِ خَلْقُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

السماوات بجميع ما فيها من كرات، وبجميع ما فيها من منظومات ومجرّات، السماوات التى مهما حلّق فيها الفكر عجز عن إدراك عظمتها ومطالعتها ... وكلّما تقدم علم الإنسان تتجلى له نقاط جديدة من عظمتها.

ثم ينتقل القرآن إلى آية من آيات الأنفس الكبيرة فيقول: «وَاخْتِلفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ». لذلك خلق اللَّه الأصوات والألوان واختلاف الألسنة لتنظيم المجتمع البشرى.

ويقول القرآن فى نهاية الآية الآنفة الذكر: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيتٍ لِّلْعَالِمِينَ».

فالعلماء يعرفون هذه الأسرار قبل كل أحد.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۷۶

آيات عظمته- مرّةً اخرى: تعقيباً على الأبحاث السابقة حول آيات اللَّه فى الآفاق وفى الأنفس، تتحدث هذه الآيات- محل البحث- حول قسم آخر من هذه الآيات العظيمة. فتتحدث فى البداية عن ظاهرة «النوم» على أنّها ظاهرة مهمة من ظواهر الخلق ومثل بارز من نظام الحكيم الخالق، فتقول: «وَمِن ءَايتِهِ مَنَامُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ».

وتختتم الآية بإثارة العبرة بالقول: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ».

هذه الموهبة العظيمة تؤدّى إلى أن يحصل جسم الإنسان وروحه على الراحة اللازمة، فيرتفع التعب بطرو النوم الذى بمثابة وقفة لعمل البدن، ونوع من التعطيل له.

ومن المسلّم به أنّه لولا النوم لتصدّعت روح الإنسان وذبل جسمه وانهار بسرعة، ولعجل عليه العجز والشيخوخة.

و الآية التى تلتها، والتى تبيّن خامس آية من آيات عظمة اللَّه، تتجه أيضاً إلى «الآيات فى الآفاق» وتتحدث عن البرق والرعد والغيث وحياة الأرض بعد موتها، فتقول: «وَمِن ءَايتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا».

«الخوف»: مما يخطر على البال من احتمال نزول الصاعقة مع البرق؛ و «الطمع»: من جهة نزول الغيث الذى ينزل بعد البرق والرعد على

هيئة قطر أو مزنة.

وعلى هذا فإنّ البرق السماوى مقدمة لنزول الغيث.

ثم يضيف القرآن معقباً: «وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا».

ويؤكّد القرآن فى نهاية هذه الآية مضيفاً: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَأَيتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» ويفهمون أنّ وراء هذه الخطة المدروسة يداً قادرة تقودها وتهديها، ولا يمكن أن تكون المسألة وليدة الصدفة والضرورة العمياء الصّماء أبداً.

وفى آخر آية من الآيات محل البحث، يقع الكلام عن آية اخرى من الآيات الآفاقية، وذلك عن تدبير نظام السماء والأرض وبقائهما ودوامهما، إذ تقول: «وَمِن ءَايتِهِ أن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ». أى إنّ خلق السماوات- المشار إليه فى الآيات السابقة- ليس آية وحدة فحسب، بل بقاؤها ودوام نظامها أيضاً آية اخرى، فهذه الأجرام العظيمة فى دورانها المنظّم حول نفسها تحتاج إلى امور كثيرة، وأهمّها المحاسبة المعقدة للقوة الجاذبة والدافعة.

وفى نهاية الآية وبالاستفادة من عامل التوحيد لإثبات المعاد، ينقل القرآن البحث إلى هذه المسألة فيقول: «ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۷۷

والتعبير ب «دعاكم» إشارة إلى أنّه كما أنّ أمراً واحداً منه كاف للتدبير ولنظم العالم، فإنّ دعوة واحدة منه كافية لأن تبعثكم من رقدتكم وتنشركم من قبوركم ليوم القيامة.

وَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (۲۶) وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲۷) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۲۸) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (۲۹)

المالكية للّهوحده: كانت الآيات المتقدمة تتحدث حول توحيد الخالق، وتوحيد الرّب، أمّا الآية الاولى من هذه الآيات محل البحث فتتحدث عن فرع آخر من فروع التوحيد، وهو توحيد الملك فتقول: «وَلَهُ مَن فِي السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

ولأنّهم ملك يده ف «كُلٌّ لَهُ قنِتُونَ» وخاضعون.

أى إنّ زمام أمر الجميع من جهة القوانين التكوينية كله فى يده، وهم مستسلمون لقانون عالم التكوين وفق مشيئة اللّه، شاؤوا أم أبوا.

والدليل على هذه «المالكية» هو الخالقية والربوبية، فإنّ من خلق الموجودات فى البداية وتكفلها بالتدبير، فمن المسلم أنّه هو المالك الأصلى لها لا سواه.

وحيث إنّ المسائل المرتبطة بالمبدأ والمعاد هى كالنسيج الواحد فى انسجامها فى سلسلة الآيات الآنفة، والتى ستأتى فى ما بعد، ففى الآية التالية يعود القرآن إلى موضوع المعاد، فيقول: «وَهُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ».

إنّ القرآن يثبت فى هذه الآية- بأوجز الإستدلال- مسألة إمكان المعاد، إذ يقول لهم: إنّكم تعتقدون أنّ بداية الخلق من قبل اللّه، فعودة الخلق مرّة اخرى أيسر وأهون من بداية الخلق.

ولكن من الضرورى أن نلتفت إلى هذه «اللطيفة»، وهى أنّ التعبير بالهيّن والصعب، هو

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۷۸

من خلال نافذتنا الفكرية، وأمّا بالنسبة للقادر المطلق فلا فرق عنده بين «الصعب والسهل». وربّما كان لهذا السبب أن عقّب القرآن فى ذيل الآية مباشرة بالقول: «وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِى السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ».

لأنّنا لو تصورنا أى وصف كمالى لأىموجود فى السماء والأرض، من علم وقدرة وملك وعظمة وجود وكرم، فمصداقه الأتم

والأكمل هو عند اللَّه، لأنّ الجميع لديهم المحدود من الصفات، إلّاهو وحده فإنّ لديه الأوصاف غير المحدودة، والجميع لديهم أوصاف عارضة، أمّا أوصاف اللَّه فذاتية، وهو مصدر الكمالات وأساسها.

وتنتهى الآية بما هو ضرب من التأكيد أو الدليل، إذ يقول سبحانه: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». هو عزيز لا يقهر، إلّاأنّه وفى منتهى قدرته غير المحدودة لا يصدر منه فعل غير دقيق، فكلّ أفعاله وفق حكمته.

وبعد بيان قسم آخر من دلائل التوحيد والمعاد فى الآيات المتقدمة، يتناول القرآن موضوع «نفى الشرك» فى مثال بيّن فيقول:

«ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ».

هذا المثال هو لو كان لديكم- أيّها المشركون- عبيد ومماليك ف «هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ». أى إنّ عبيدكم هؤلاء يشاركونكم فى أموالكم وفى ما رزقناكم، بحيث تكونون أنتم وعبيدكم سواء فى مالكية هذه الأموال والنعم وتخافون أن يتصرفوا فى هذه الأموال بشكل مستقل كما هو الحالة فى تصرف شركاءكم الأحرار فيها أو فى الميراث مثلًا ... فأنتم غير مستعدين لأن يتصرفوا فى أموالكم.

فلو كان لكم عبيد وملك يمين «وهو ملك مجازى» لما رضيتم بمثل هذا الفعل منهم، فكيف تتصورون المخلوقات التى هى ملك حقيقى للَّهشركاءه، أو تزعمون أنّ بعض الأنبياء كالمسيح أو ملائكة اللَّه أو بعض المخلوقات الاخرى كالجن أو الأصنام الحجرية والخشبية شركاءه، ألا ساء ما تحكمون.

والتعبير ب «مَا رَزَقْنَاكُمْ» يشير إلى هذه اللطيفة، وهى أنّكم لستم المالكين الحقيقيين لهؤلاء العبيد والمماليك، ولا المالكين الواقعيين للمال، لأنّ كل ذلك للَّهوحده.

ويعقب القرآن فى ختام الآية للتأكيد والدقة على مضمون السؤال، فيقول: «كَذلِكَ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۷۹

نُفَصِّلُ الْأَيتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». أجل، نذكر لكم الحقائق من الأمثلة الواضحة فى حياتكم لتفكروا فيها، ولكيلا تنسبوا للَّه- على الأقل- ما لا ترضون أن تنسبوه لأنفسكم.

غير أنّ هذه الآيات البينات وهذه الأمثلة الواضحة هى لأولى الألباب، لا للظالمين عبدة الهوى الجهلة الذين قلوبهم أسدال الجهل، واستوعبت آفاقهم الخرافات والعصبيات، لذلك يضيف القرآن فى الآية التالية قائلًا: «بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ». ولذلك فإنّ اللَّه خلّى بينهم وبين أنفسهم بسبب أعمالهم السيئة، فتاهوا فى وادى الضلالة «فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ».

ولا شك أنّ من يتركهم اللَّه ويخلّى بينهم وبين أنفسهم «وَمَا لَهُم مِّن نصِرِينَ»

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۳۰) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۳۱) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (۳۲)

كان لدينا حتى الآن أبحاث كثيرة حول التوحيد ومعرفة اللَّه، عن طريق مشاهدة نظام الخلق، وتعقيباً على الآيات الآنفة الذكر، فإنّ الآية الاولى- من هذه الآيات محل البحث- تتحدث عن التوحيد الفطرى، أى الإستدلال على التوحيد عن طريق المشاهدة الباطنية والدرك الضرورى والوجدانى، إذ يقول القرآن فى هذا الصدد: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا»، لأنّها «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ». «الوجه»: معناه معروف، وهو مقدم الرأس. والمراد به هنا الوجه الباطنى، ووجه القلب والروح؛ وكلمة «أقم»: مشتقة من الإقامة، ومعناه الاستقامة والوقوف بثبات (على قدم راسخة) ... وكلمة «حنيف»: مشتقة من «حَنَف»، ومعناها الميل من الباطل نحو الحق، ومن الاعوجاج نحو الاستواء والاستقامة. فمعنى الدين الحنيف هو الدين المائل نحو العدل والاستواء عن كل انحراف وباطل وخرافة وضلال.

إنّ جملة «لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» وبعدها جملة «ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» تأكيدان آخران على مسألة كون الدين فطرياً، وعدم إمكان تغيير هذه الفطرة ...

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸۰

ويضيف القرآن فى الآية التالية: ينبغى أن يكون التفاتكم للدين الحنيف والفطرى حالة كونكم «مُنِيبِينَ إِلَيْهِ» فأصلكم وأساسكم على التوحيد، وينبغى أن تعودوا إليه أيضاً.

«منيبين»: من مادة «إنابة» وهى فى الأصل تعنى الرجوع المكرر، وتعنى هنا الرجوع نحو اللَّه والعودة نحو الفطرة (التوحيدية).

ويعقب على الأمر بالإنابة والعودة إليه، بالأمر بالتقوى، وهى كلمة تجمع معانى أوامر اللَّه ونواهيه، إذ يقول: «وَاتَّقُوهُ» أى اتقوا مخالفة أوامره.

ثم يؤكّد القرآن على موضوع الصلاة من بين جميع الأوامر فيقول: «وَأَقِيمُوا الصَّلَوةَ». لأنّ الصلاة فى جميع أبعادها، هى أهم منهج لمواجهة الشرك، وأشدّ الوسائل تأثيراً فى تقوية أسس التوحيد والإيمان باللَّه سبحانه.

كما أنّه يؤكّد فى نهيه عن «الشرك» من بين جميع النواهى فيقول: «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ». لأنّ الشرك أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، فإنّ اللَّه لا يغفره.

وفى آخر آية- من الآيات محل البحث- يبيّن القرآن واحداً من آثار الشرك وعلائمه فى عبارة موجزة ذات معنى كبير، فيقول:

لا تكونوا من المشركين الذين انقسموا فى دينهم على فرق واحزاب كثيرة: «مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا».

والعجيب فى الأمر أنّهم على تضادّهم واختلافهم فإنّ «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ».

أجل، إنّ واحدة من علائم الشرك هى التفرقة، لأنّ المعبودات المختلفة هى منشأ الأساليب المتفاوتة وهى أساس الانفصال والتفرق.

بحث

التوحيد باعث داخلى قوى: كما أنّ الدلائل العقلية والمنطقية توجّه الإنسان، فإنّ فى داخله دوافع وموانع أيضاً .. بحيث تعين له الجهة «أحياناً» من حيث يدرى أو لا يدرى.

وفلسفة وجودها فى داخل الإنسان، هى أنّ الإنسان لا- يستطيع- دائماً- أن ينتظر إيعاز العقل والمنطق، لأنّ هذا العمل قد يعطل الأهداف «الحياتية» بعض الأحيان.

فمثلًا لو أراد الإنسان أن يستلهم من منطق «لزوم بدل ما يتحلل» ضرورة تناول الطعام .. أو «لزوم استمرار النسل عن طريق التوالد والتناسل» ضرورة الممارسة الجنسية، وأن يعمل ويتحرك وفق المنطق فى كل ذلك، لكان ينبغى أن ينقرض الإنسان- قبل هذا الزمان بكثير- إلّاأنّ الغريزة الجنسية من جهة وجاذبيتها، والإشتهاء للطعام من جهة

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸۱

اخرى، يجرانه نحو هذا الهدف شاء أم أبى. وكلّما كانت الأهداف حياتيةً أكثر وعمومية، كانت هذه «الدوافع» أشدّ وأقوى أيضاً.

لكن ينبغى الإلتفات إلى أنّ هذه الدوافع على نحوين:

فبعضها باطنية (غير واعية) لا تحتاج إلى وساطة العقل والشعور، كما ينجذب الحيوان نحو الطعام والجنس دون الحاجة إلى التفكير.

وقد يكون تأثير الدوافع عن طريق الوعى، أى إنّ هذه الدوافع الداخلية تترك أثرها فى العقل والتفكير وتدفعه إلى انتخاب الطريق.

وعادة يطلق على النوع الأوّل من هذه الدوافع «الغريزة» وعلى النوع الثانى «الفطرة» (فلاحظوا بدقّة).

عبادة اللَّه والإتجاه نحوه لهما مكانه فى نفوس جميع الناس، وهو ما يصطلح عليه ب «الفطرة».

إنّ لدينا دلائل وشواهد مختلفة توضح بجلاء كون «الميل إلى اللَّه» فطرياً، بل تؤكّد هذا الميل فى جميع اصول الدين وأبعاده:

۱- إنّ دوام الإعتقاد الدينى والإيمان باللَّه على إمتداد التاريخ البشرى بنفسه دليل على الفطرة، لأنّه إذا كان ذلك على سبيل العادة،

لما كانت له جنبة عمومية ولا جنبة دائمية، فهذا العموم وهذا الدوام دليل على فطرية الحالة.

۲- إنّ المشاهدات عياناً فى العالم المعاصر تكشف أنّه مع جميع ما بذل الطغاة والمستبدون- وأنظمتهم الجائرة من جهود وسعى لمحو الدين وآثاره وعن طرق مختلفة- لم يستطيعوا أن يستأصلوا الدين وجذوره من أعماق هذه المجتمعات.

۳- الكشوفات الأخيرة من قبل النفسانيين وعلماء النفس فى مجال أبعاد الروح الإنسانية، شاهد آخر على هذا المدعى، إذ أنّهم يقولون: «إنّ التحقيقات فى المجالات النفسية تشير إلى بعد أصيل هو «البعد الدينى». أو بتعبير آخر: «بعد قدسى» أو «ربانى» وربّما عدّوا هذا البعد أساساً للأبعاد الثلاثة الاخرى وهى «البعد العلمى» و «البعد الجمالى» و «البعد الخيّر».

إذ يدّعون بأنّ البواعث الأساسية للروح البشرية هى هذه:

أ) دافع البحث عن الحقيقة (الشعور العلمى) وهو مصدر أنواع العلوم، والأهداف التحقيقية المستمرة، والمتابعات فى معرفة عالم الوجود.

ب) حس «الإحسان والعمل الصالح» الذى يجذب الإنسان نحو المفاهيم الأخلاقية

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸۲

كالتضحية والإيثار والعدل والشهامة وأمثالها. ج) الحس «الجمالى»: وهو يجذب الإنسان نحو الفن الأصيل والأدب والمسائل الذوقية، وربّما أصبح مصدر التحول فى حياة الفرد أو المجتمع أحياناً.

د) الحس «الدينى»، أى الإيمان بمبدأ عال وعبادته واتّباعه.

۴- إنّ التجاء الإنسان فى الشدائد والمحن إلى قوة خفية وراء الطبيعة، وطلب حل المشاكل والازمات من قبل هذه القوة، لهو أيضاً شاهد آخر على أصالة هذا الدافع الباطنى والإلهام الفطرى، ويمكن- بضمها إلى مجموع الشواهد التى ذكرناها آنفاً- أنّ توقفنا على مثل هذا الدافع الباطنى فى داخلنا نحو اللّه سبحانه.

وَ إِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (۳۳) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۳۴) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (۳۵) وَ إِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (۳۶)

إنّ الآية الاولى من المقطع الذى بين أيدينا، هى فى الحقيقة استدلال وتأكيد على البحث السابق فى مجال كون التوحيد فطرياً، وتفتح هذا النور الإلهى عند الشدائد والصعاب، إذ تقول الآية: «وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ».

إلّا أنّهم إلى درجة من السطحية والغباء التعصب والتقليد الأعمى لأسلافهم المشركين، بحيث أنّه بمجرد انتهاء المشكلة وهبوب نسيم الرحمة الإلهية ... «ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ».

جملة «مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ» إشارة لطيفة للمعنى التالى، وهو أنّ الأساس فى الفطرة هو توحيد اللّه وعبادته، والشرك أمر عارض، حيث متى ما يئسوا منه فهم يعودون نحو الإيمان والتوحيد، شاؤوا أم أبوا.

والطريف هنا أنّ «الرحمة» فى الآية مسندة إلى «اللّه»، فهو سبحانه مصدر الرحمة للعباد، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر إلّا أنّ الضرّ لم يسند إليه سبحانه، لأنّ كثيراً من الإبتلاءات والمشاكل التى تحوطنا هى من نتائج أعمالنا وذنوبنا.

و كلمة «ربّهم» التى تكررت فى الآية تكررت فى الآية مرّتين، تؤكّد على أنّ الإنسان

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸۳

يحسّ بالتدبير الإلهى وربوبية اللّه على وجوده ما لم تؤثر عليه التعليمات الخاطئة فتسوقه نحو الشرك والضلال.

أمّا الآية الاخرى فجاءت بعنوان التهديد لُاولئك المشركين، الذين ينسون ربّهم عند نيل النعم، إذ تقول: اتركهم «لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ» وليفعلوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا. ثم يخاطب المشركين بأن يتمتعوا بهذه النعم والمواهب الدنيوية الفانية. وسوف يرون العاقبة

السيئة لذلك: «فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ».

والقرآن فى الآيـة الاخرى يصوغ الكلام فى صـيغة الاسـتفهام المقرون بالتوبيـخ فيقول: «أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ». «السلطان»: معناه ما يدل على السلطة وينتهى إلى الإنتصار عادةً، ومعناه هنا هو الدليل المحكم المقنع.

أمّا آخر آيـة من الآيات محل البحث، فهى ترسم طريقـة تفكير وروحيـة هؤلاء الجهلـة الاغبياء الـذين يقنطون ويحزنون لأقل مصـيبة، فتقول: «وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ».

فى حين أنّ المؤمنين الصادقين هم الـذين لا يغفلون عن ذكر اللّه عنـد النعم، ولا يقنطون عند الشدائد والمصيبة، إذ هم يشـكرون اللّه على نعمه، ويرون المصيبة امتحاناً واختباراً، أو يعدونها نتيجة أعمالهم، فيصبرون ويتّجهون إلى اللّه تعالى.

ويسـتفاد ضـمناً من هـذه الآيـة بصورة جيـدة أنّ قسـماً من المصـائب والإبتلاءـات التى تحـل بالإنسان هى- على الأقل- نتيجـة أعماله وذنوبه.

إنّ جملة «فَرِحُوا بِهَا» ليس المراد منها هنا السرور بالنعمة فحسب، بل السرور المقرون بالغرور ونوع من السكر والنشوة.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸۴

الآيـة الاولى من الآيات محل البحث تتحـدث عن التوحيـد والربوبية أيضاً، وانسـجاماً مع سـياق الآيات السابقة التى كانت تتحدث عن غرور بعض الناس الماديين عنـد إقبال النعمـة عليهم، ويأسـهم وقنوطهم عنـد مواجهتهم الشدائد والبلاء، فإنّها تقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ».

إنّ العالم هو عالم الأسباب، لكن هذه القاعدة فى الوقت ذاته ليست دائمية ولا كلية، إذ يتفق أن نرى أناساً جديرين وجادّين يركضون من هنا وهناك، إلّاأنّهم لا يصلون إلى نتيجة يبلغون هدفهم، وعلى العكس منهم قد نشاهد أناساً لا يسعون ولا يجدّون وتتفتح عليهم أبواب الرزق من كل حدب وصوب.

وهـذه الاسـتثناءات كأنّهـا لبيـان أنّ اللّه بـالرغم من جميع ما جعل للأسـباب من تأثير، لا ينبغى أن يُنسـى فى عالم الأسـباب، ولا ينبغى للإنسان أن يغفل أنّ وراء هذا العالم يداً قوية اخرى تديره كيف شاءت.

لذلك يقول القرآن فى نهاية الآية: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَأَيتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

وحيث إنّ كـل نعمـة وموهبـة ينالها الإنسان تحمّله وظائف ومسؤوليّات وعليه أداؤها، فإنّ القرآن يوجه الخطاب للنّبى صـلى الله عليه و آله فى الآية التالية قائلًا: «فَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ».

والتعبير ب «حقّه» كـاشف عن أنّهم شـركاء فى أمـوال الإنسـان، وإذا دفـع المرء شـيئاً من مـاله إليهم فإنّمـا يؤدّى حقّهم، وليس له منّ عليهم.

إنّ القرآن يـبيّن فى نهايـة الآيـة ترغيبـاً للمحسـنين، وشـرط القبـول ضـمناً، فيقـول: «ذلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

ومع الإلتفـات إلى أنّ المراد من «وَجْهَ اللَّهِ» ذاته المقدّسـة، فـإنّ هـذه الآيـة تشـير إلى أنّ الإنفـاق وإيتـاء حقّ الأقارب وأصـحاب الحق الآخرين ليس كافياً، بل المهم هو الإخلاص والنية الطاهرة والخالية من أى أنواع الرياء والمنة والتحقير وانتظار الأجر والثواب.

وتشـير الآيـة التاليـة- بمناسـبة البحث المتقـدم عن الإنفاق الخالص- إلى نوعين من الإنفاق: أحدهما للّه، والآخر يراد منه الوصول إلى مـال الـدنيا، فتقـول: «وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِى أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنـدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوةٍ تُرِيـدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ».

«الربا»: معناه فى الأصل «الزيادة»، وهنا أنّ المراد من الربا هو الهدايا التى يقدمها بعض

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸۵

الأفراد للآخرين، ولا سيما إلى أصحاب الثروة والمال، كى ينالوا منهم أجراً أحسن وأكثر.

وبديهى أنّه فى مثل هذه الهدايا لا يؤخذ بنظر الإعتبار استحقاق الطرف الآخر ولا الجدارة والأولوية، بل كل ما يهدف إليه أن تصل الهدية إلى مكان، تعود على مُهديها بمبلغ أوفر ومن الطبيعى أنّ مثل هذه الهدايا ليس فيها «جنبة» إخلاص، فلا قيمة لها من الجهة الأخلاقية والمعنوية.

فعلى هذا يكون معنى «الربا» فى هذه الآية هو «الهدية والعطية»، والمراد من جملة «لِّيَرْبُوَا فِى أَمْوَالِ النَّاسِ» هو أخذ الأجر الوافر من الناس. ولا شك أنّ أخذ مثل هذه الأجرة ليس حراماً، إذ ليس فيه شرط أو قرار، إلّاأنّه فاقد للقيمة الأخلاقية والمعنوية ...

وفى الآية الأخيرة- من الآيات محل البحث- عودة اخرى إلى مسألة المبدأ والمعاد، وهى الموضوع الأساس الذى ورد فى كثير من آيات هذه السورة ... وتصف الآية «اللّه» بأربعة أوصاف لتكون إشارة للتوحيد ومواجهة الشرك، ودليلًا على المعاد أيضاً فتقول: «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

و من المسلّم به أنّ المشركين لم يكن أىّ منهم يعتقد بأنّ الخلق كان من قِبل الأوثان، أو أنّ أرزاقهم بيد الأوثان والأصنام، أو أنّ نهاية حياتهم بأيدى هذه الأوثان كذلك، فعلى هذا يكون الجواب على هذه الأسئلة هو النفى، والاستفهام هنا استفهام إنكارى.

إنّ القرآن يقول: عندما يكون الخلق والرزق والموت والحياة بيد اللّه، فالعبادة ينبغى أن تكون له فقط، ويكشف هذه الحقيقة بقوله: «سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» وهى أنّ المشركين أهانوا كثيراً مقام رب العزة إذ أشركوه فى العبادة مع أوثانهم.

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۴۱) قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (۴۲) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (۴۳) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (۴۴) لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (۴۵)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸۶

أساس الفساد ومصدره أعمال الناس أنفسهم: كان الكلام فى الآيات االسابقة عن الشرك، ونعلم أنّ أساس جميع المفاسد هو الغفلة عن أصل التوحيد والتوجه نحو الشرك، لذلك فإنّ القرآن- فى هذه الآيات محل البحث- يتحدث عن ظهور الفساد فى الأرض بسبب أعمال الناس أنفسهم، فيقول: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ». واللّه يريد أن يريهم ما قدموه و «لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

والآية الآنفة الذكر تبيّن المعنى الواسع حول إرتباط الفساد بالذنب، الذى لا يختص بأرض «مكة» والحجاز، ولا بعصر النبى صلى الله عليه و آله.

وفى الآية التالية يأمر اللّه الناس بالسير فى الأرض ليروا شواهد كثيرة «حيّة» من مسألة ظهور الفساد فى الأرض بسبب المعاصى والذنوب من قبل الناس. ويوصى نبيّه صلى الله عليه و آله أن يأمرهم بذلك، فيقول: «قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ».

أجل «كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ». والشرك أساس الفساد والانحراف والضلال.

وحيث إنّ التصور والوعى والإنتباه، ثم العودة والإنابة إلى اللّه، كل ذلك لا يكون- دائماً- مفيداً ومؤثراً، ففى الآية التالية يوجه القرآن الخطاب للنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله قائلًا: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ الْقَيّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّامَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ».

أى يتفرقون «فريق فى الجنّة وفريق فى السعير».

ووصف الدين بأنّه «قيّم» مع ملاحظة أنّ «القيّم»: معناه الثابت والقائم، هو إشارة إلى أنّ هذا التوجه المستمر «أو الإقامة» هى للدين .. أى لأنّ الإسلام دين ثابت ومستقيم وذو نظام قائم فى الحياة المادية والمعنوية للناس، فلا تمل عنه أبداً، بل أقم وجهك للدين القيم.

وإنّما وجه الخطاب للنبیّ صلی الله علیه و آله لیعرف الآخرون واجبهم ووظیفتهم أیضاً.

والتعبیر ب «یصّدّعون» من مادهٔ «صدع» معناه فی الأصل: کسر الإناء، ثم انتقل بالتدریج إلی أی نوع من أنواع التفرق والتشتت، وهنا إشارهٔ إلی انفصال صفوف أهل الجنان عن صفوف أهل النیران.

و الآیهٔ التالیهٔ بیان لهذا الإنفصال فی یوم القیامهٔ، إذ تقول: «مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ».

«یمهدون»: مشتقهٔ من «المهد» وکما یقول الراغب فی مفرداته فإنّ معناه السریر المعدّ

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸۷

للطفل، ثم توسعوا فی المعنی فصار المهد والمهاد لکل مکان مهیأ ومعد «وفیه منتهی الدعهٔ والراحهٔ» وقد انتخب هذا التعبیر لأهل الجنّهٔ والمؤمنین الصالحین، من هذه الجههٔ.

ومن الطریف أنّ القرآن اکتفی فی شأن الکفار بالتعبیر ب «مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ» ولکن بالنسبهٔ للمؤمنین تضیف الآیهٔ التالیهٔ: أنّ المؤمنین لا یرون أعمالهم فحسب، بل یولیهم اللَّه من مواهبه وفضله فیقول: «لِيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ».

وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۴۶) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (۴۷) اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۴۸) وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (۴۹) فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِى الْمَوْتَى وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۵۰)

ومن المسلّم به أنّ هذا الفضل لا یشمل الکفار إذ: «إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْكفِرِينَ».

قلنا: إنّ فی هذه السورهٔ قسماً مهمّاً «یستلفت النظر» من دلائل التوحید وآیات اللَّه، مبیناً فی سبع آیات تبدأ کل منها بقوله:

«وَمِن ءَايَاتِهِ» قرأنا ستّ آیات منها بصورهٔ متتابعهٔ، والآیهٔ الاولی من الآیات أعلاه هی سابع الآیات التی مرّت، وآخرها.

وحیث کان الکلام فی الآیات السابقهٔ عن الإیمان والعمل الصالح، فبیان دلائل التوحید- أیضاً- تأکیداً علی ذلک. تقول هذه الآیهٔ: «وَمِنْ ءَايتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ». فهی تمضی سابقهً للغیث فی حرکتها، فتجمع القطع المتفرقهٔ من الغیوم وتربط بینها وتؤلفها وتحملها إلی الأرض الیابسهٔ العطشی، وتغطی صفحهٔ السماء، ومع تغیر درجهٔ حرارهٔ الجو تهیء المطر للنزول من هذه الغیوم.

ولذلک فنحن نقرأ فی تعقیب الآیهٔ قوله تعالی: «وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِىَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۸۸

أجل، إنّ الریاح هی وسیلهٔ لتکاثر النعم العدیدهٔ فی مجال الزراعهٔ والتدجین، وهی وسیلهٔ للحمل والنقل أیضاً، وأخیراً فهی سبب للإزدهار التجاری. وفی الآیهٔ التالیهٔ یقع الکلام عن إرسال الأنبیاء إلی قومهم، فی حین أنّ الآیهٔ التی بعدها تتحدث عن هبوب الریاح مرّهٔ اخری، ولعل وجود هذه الآیهٔ بین آیتین تتحدثان عن نعمهٔ هبوب الریاح له جانب اعتراضی.

ولعل ذکر النبوهٔ إلی جانب هذه المسائل، إنّما هو لإکمال البحث المتعلق بالمبدأ والمعاد.

إنّ الآیهٔ تقول: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ». أی المعجزات والدلائل الواضحهٔ والبراهین العقلیهٔ، فاستجاب جماعهٔ منهم لهذه الدلائل، ولم یستجب آخرون لها برغم النصائح «فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا» ونصرنا المؤمنین «وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ».

وبالمجموع تعطی الآیهٔ هذا المعنی: «إنّ نصر المؤمنین من المسلّم به هو فی عهدتنا وهذا الوعد سنجعله عملیاً دون الحاجهٔ إلی نصر من الآخرین».

أمّا الآیهٔ الاخری فتعود ثانیهٔ لذکر نعمهٔ هبوب الریاح فتقول: «اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ

كِسَفًا» «١». أى القطع الصغيره المتراكمة ثم تخرج قطرات المطر منها على شكل حبات صغيرة: «فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلِلِهِ» «٢».

ويضيف القرآن فى نهاية الآية قائلًا: «فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ».

ثم تأتى الآية الاخرى بعدها فتقول: «وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ» «٣».

وإنّما يـدرك هذا اليأس أو تلك البشارة أمثال العرب الذين يعيشون فى رحلاتهم وتنقّلهم فى الصحراء، ولحياتهم علاقة وصلة قريبة مع هذه القطرات.

---

(١) «الكِسَف»: جمع «كسفَة» ومعناها القطعة، وهى هنا- كما يبدو- إشارة إلى القطعات (من الغيوم) المتراكمة بعضها فوق بعض فتجعلها غليظة وشديدة، وذلك حين تكون الغيوم مهيأة لنزول المطر.

(٢) «الودق»: على وزن (الحلق)، وتطلق على ذرات الماء الصغيرة كمثل الغبار أحياناً، إذ تتناثر عند نزول الغيث فى السماء، كما تطلق على قطرات «المطر» المتفرقة أحياناً.

(٣) «مبلس»: مأخوذة من مادة الإبلاس، ومعناها اليأس وعدم الرجاء.

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٨٩

وفى آخر آية- من الآيات محل البحث- يتوجه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله قائلًا: «فَانظُرْ إِلَى ءَاثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا».

والتعبير ب «رَحْمَتِ اللَّهِ» فى شأن المطر هو إشارة الآثار المباركة فيه من جهات مختلفة.

ومع الإلتفات إلى العلاقة بين المبدأ والمعاد فى المسائل المختلفة، فإنّ «القرآن» يضيف قائلًا فى نهاية الآية: «إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلّ شَىْءٍ قَدِيرٌ».

وَ لَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَ لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَ مَا أَنْتَ بِهَادِى الْعُمْىِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣) اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)

حيث إنّ الكلام كان- فى الآيات السابقة- عن الرياح المباركة التى كانت مبشرات بالغيث والرحمة، ففى أوّل آية من الآيات أعلاه إشارة إلى الرياح المدمرّة والتى تجلب الضرر، إذ يقول القرآن فى هذا الصدد: «وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ».

اولئك هم الضعفاء الحمقى فهم قبل نزول الغيث مبلسون آيسون، وبعد نزوله مستبشرون، وإذا هبت ريح صفراء فى بعض الأيام وابتلوا مؤقتاً تراهم يتصارخون وبالكفر يجأرون ويتجرأون.

على العكس من المؤمنين الصادقين الذين هم بنعمة اللّه مستبشرون وعليها يشكرون، وعند نزول المصائب والمشاكل تراهم صابرون.

«مصفراً»: مشتقة من «الصُفرة» وهى لون معروف؛ ويعتقد أكثر المفسرين أنّ الضمير فى «رأوه» يعود على الشجر والنباتات التى تصفر وذبل على أثر هبوب الرياح المخربة.

وفى الآيتين التاليتين بمناسبة البحث الوارد فى الآية السابقة- فإنّ الناس يقسمون إلى أربعة طوائف:

مختصر الامثل، ج٣، ص: ٥٩٠

١- طائفة «الموتى» الذين لا يدركون أيّة حقيقة، وإن كانوا أحياء فى الظاهر.

٢- وطائفة «الصُم» الذين هم غير مستعدين للاستماع إلى الكلام الحق.

٣- وطائفة «العمى» الذى حُرموا من رؤية وجه الحق.

۴- وأخيراً طائفةالمؤمنين الصادقين الذين لهم قلوب يفقهون بها، ولهم أعين يبصرون بها، ولهم آذان يسمعون بها.

فتقول الآيـة الاولى: «فَإِنَّكَ لَاتُسْمِعُ الْمَوْتَى ، ولذلك لا تؤثر مواعظك فى أصحاب القلوب الميتة. وكذلك «وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ».

وتأتى الآيـة الثانية لبيان بقية الطوائف فتقول: «وَمَا أَنتَ بِهدِ الْعُمْىِ عَن ضَلَلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بَايَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ».

إنّ القرآن لديه ما هو أفضل من «الحياة والموت الماديين والجسمانيين» وأفضل من السمع والبصر الظاهريين فلديه نوع اسمى من هذه الحياة والموت والسمع والبصر، وتكمن فيها سعادة الإنسان أو شقاؤه.

وفى آخر آيـة- من الآيات محل البحث- يشير القرآن إلى دليل آخر من أدلـة التوحيد، وهو دليل الفقر والغنى، ويكمل البحوث التى تـدور حول التوحيـد فى هـذه السورة، فيقول: «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً».

كنتم فى البداية ضعافاً إلى درجة أنّكم لم تكن لكم القدرة على طرد الذباب عنكم، أو أن تحافظوا على لعاب أفواهكم أن يسيل، هذا من الناحيـة الجسميـة، أمّا من الناحيـة الفكريـة فمصداقـة قوله تعالى: «لَاتَعْلَمُونَ شَيًا» بحيث لم تعرفوا حتى أبويكم المشـفقين عليكم. لكن- قليلًا قليلًا- صرتم ذوى رشد وقوة، وصار لكم جسم قوى، وفكر جيد، وعقل مقتدر إدراكه واسع. ومع هذه الحال لم تستطيعوا أن تحافظوا على هـذه القوة، فمثلكم كمن يصعد من طرف الجبل إلى قمته، ثم يبدأ بالإنحدار من القمة إلى قعر الوادى، الذى يمثل «مرحلة ضعف الجسم والروح».

هذا التغير والصعود والنزول خير دليل لهذه الحقيقة، وهى أنّه لم تكن القوة من عندكم ولا الضعف، فكل منهما كان من جهة اخرى.

أمّا آخر جملـة فى الآيـة فهى إشـارة إلى علم اللّه الواسع وقـدرته المطلقـة: «يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ». وهى بشارة وإنـذار فى الوقت ذاته، أى إنّ اللّه مطلع على جميع نيّاتكم، وهو قدير على مجازاتكم وثوابكم.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (۵۵) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (۵۶) فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۵۷) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (۵۸) كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (۵۹) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (۶۰)

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۹۱

فى هذه الآيات- محل البحث- يعقب القرآن على البحوث التى كانت حول المبدأ والمعاد أيضاً، فيعود إلى بيان مشهد من مشاهد يوم القيامـة الأليمـة، وذلك بتجسيمه حالـة المجرمين فى ذلك اليوم، إذ يقول: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ» فى عالم البرزخ. أجل، «كَذلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ» فإنّهم فيما سبق كانوا محرومين من إدراك الحقائق ومصروفين عنها.

والتعبير ب «الساعة» عن يوم القيامـة هو إمّا لأنّ يوم القيامـة يقع فى لحظـة مفاجئـة، أو لأنّه من جهـة أنّ أعمال العباد تحاسب بسرعة هناك، لأنّ اللّه سريع الحساب.

أمّا الآية التالية فتتحدث عن جواب المؤمنين المطلعين على كلام المجرمين الغافلين عن حالة البرزخ والقيامة فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتبِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَاتَعْلَمُونَ».

وتقديم العلم على الإيمان هو لأنّ العلم أساس الإيمان.

وجملـة «فِى كِتَابِ اللَّهِ» لعلّه إشـارة إلى الكتاب التكوينى، أو إلى الكتاب السـماوى، أو إشارة إليهما معاً، أى كان- بأمر اللّه التكوينى والتشريعى- مقدّراً أن تلبثوا مثل هذه المدّة فى البرزخ، ثم تحشرون فى يوم القيامة.

فحين يواجه المجرمون واقعهم المرير المؤلم يظهرون ندمهم ويتوبون ويعتذرون ممّا صنعوا، لكن القرآن يقول فى هذا الصدد:

«فَيَوْمَئِذٍ لَّايَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ».

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۹۲

وواحد من أعذارهم أنّهم يلقون تبعات ذنوبهم على أشياخهم فى الكفر والنفاق.

وأحياناً يلقون اللوم على الشيطان فى تضليلهم وانحرافهم وأنّه وسوس لهم.

وفى الآية التالية إشارة لجميع المواضيع الوارد بيانها فى هذه السورة ... إذ تقول: «وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلّ مَثَلٍ». لقد ذكرنا فيه الوعد والوعيد، الأمر والنهى، البشارة والإنذار، الآيات الآفاقية والأنفسية، دلائل المبدأ والمعاد والأخبار الغيبية والخلاصة ذكرنا فيه كل شىء يمكن أن يؤثر فى نفوس الناس.

وفى الحقيقة، إنّ فى القرآن- بشكل عام- وسورة الروم- بشكل خاص- حيث نحن الآن فى مراحلها النهائية، مجموعة من المسائل والدروس الموقظة لكل فئة، ولكل طبقة، ولكل جماعة، ولكل فكر وأسلوب.

ومع هذه الحال، فهناك طائفة لا يؤثر فى قلوبهم المظلمة السوداء أى من هذه الامور، لذلك يقول القرآن فى شأنهم: «وَلَئِن جِئْتَهُم بَايَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ».

والتعبير ب «مبطلون» تعبير جامع يحمل كل معانى الدجل والإفتراء والنسب الكاذبة والفاسدة من قبل المشركين.

والآية التى بعدها تبيّن السبب فى مخالفة هذه الطائفة، فتقول: إنّ لجاجة هؤلاء التى لا حدّ لها وعداءهم للحق، إنّما هو لفقدانهم الإحساس والإدراك بسبب كثرة ذنوبهم، ولأنّهم لا يعلمون شيئاً ... إذ تقول: «كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ».

«يطبع»: مأخوذة من الطبع، ومعناها ختم الشىء، وهى إشارة إلى ما كان يجرى فى السابق، وهو جار أيضاً اليوم إذ يختم على الشىء كيلا يتصرف به ويُغلق بإحكام، وقد يضعون عليه القفل ويضربون عليه مادة لزجة مختومة بإشارة معينة كما بيّنا بحيث لا يمكن فتح ذلك الشىء إلّابكسره، فيفتضح أمره بسرعة.

وكان القرآن استعمل هذا التعبير كناية عن القلوب التى لا ينفذ إليها النصح، والذين فقدوا الوجدان والعقل والعلم، ولا أمل فى هدايتهم.

ومما يسترعى الإنتباه أنّ فى الآيات السابقة ذكر العلم أساساً للإيمان، وفى هذه الآية ذُكر الجهل أساساً للكفر وعدم التسليم للحق.

أمّا آخر آية من السورة الروم، فهى تأمر النبى صلى الله عليه و آله أمرين مهمين، وتبشره بشارة كبرى، لتحثه على مواصلة الوقوف والتصدى للمشركين والجاهلين والسفهاء بالاستقامة والصبر.

مختصر الامثل، ج۳، ص: ۵۹۳

تقول أوّلًا: إذا كان الأمر كذلك، فعليك بالصبر والاستقامة أمام الحوادث المختلفة، وفى مقابل أنواع الأذى والبهتان والمصاعب «فَاصْبِرْ».

لأنّ الصبر والإستقامة هما مفتاح النصر الأصيل.

وليكون النبى صلى الله عليه و آله أكثر اطمئناناً، فإنّ الآية تضيف: «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ». فقد وعدك والمؤمنين بالنصر، والاستخلاف فى الأرض، وغلبة الإسلام على الكفر، والنور على الظلمة، والعلم على الجهل، وسوف يُلبس هذا الوعد ثوب العمل.

وتأمر ثانياً بضبط الأعصاب والهدوء وعدم الانحراف فى المواجهة الشديدة والمتتابعة، حيث تقول الآية: «وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَايُوقِنُونَ».

«يستخفّنّك»: مشتقة من «الخفة» وهى خلاف الثقل. أى: كن رزيناً قائماً على قدميك لئلا يهزك مثل هؤلاء الأفراد ويحركوك من مكانك، وكن ثابتاً ومواصلًا للمسيرة باطمئنان، إذ أنّهم فاقدوا اليقين، وأنت مركز اليقين والإيمان.

هذه السورة بدأت بوعد إنتصار المؤمنين على الأعداء، وانتهت أيضاً بهذا الوعد، إلّاأنّ شرطها الأساس هو الصبر والاستقامة.

«نهایة تفسیر سورة الروم»

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَةِ

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایهٔ"القائمیّهٔ"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّهٔ الشمسیّهٔ (=۱۴۲۷ الهجریهٔ القمریّهٔ)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّهٔ الوطنیّهٔ: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّهٔ و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظهٔ هامّهٔ:

المیزانیّهٔ الحالیّهٔ لهذا المرکز، شـَعبیّهٔ، تبرّعیّهٔ، غیر حکومیّهٔ، و غیر ربحیّهٔ، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسعَ للامور الدّینیّهٔ و العلمیّهٔ الحالیّهٔ و مشاریع التوسعهٔ الثّقافیّهٔ؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّهٔ) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحهٔ بقیّهٔ الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.